رحلة إلى الجذور

سيرة حياة
جابرييل جارثيا ماركيز

تأليف : داسُّو سالديبار
ترجمة ودراسة وتقديم
صبرى التهامى
مراجعة : حامد أبو أحمد

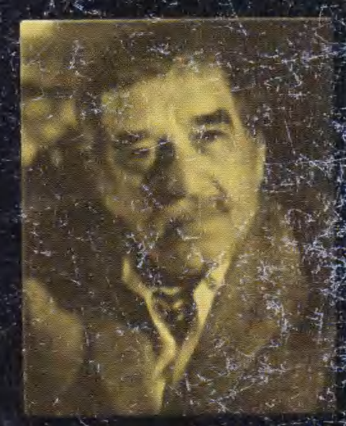
المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومى للترجمة


662







GABRIEL GARCIA MARQUEZ

يعتبر كتاب "رحلة الى الجذور" من أفضل كتب السيرة الحياتية التى كتبت عن جابريل جارثيا ماركيز إن لم يكن أفضلها على الإطلاق حتى انه فاق بكثير ما كتبه مؤلف "مائة عام من العزلة" عن نفسه فى سيرته الذاتية تحت عنوان " VIVIR PARA CONTARLA " والتى صدرت فى عام ٢٠٠٢! وترجمت الى كثير من مختلف لغات العالم من بينها العربية، تعتبر "رحلة الى الجذور" أفضل هذه الكتب قاطبة: لأن كاتبه داسو سالدييار - الأستاذ بجامعة مدريد، وهو كولومبى الأصل ويعيش فى إسبانيا ويحمل جنسيتها - بذل فيها جهداً حثيثاً ومجهوداً مضنياً طوال أربعة عشر عاماً اضطر خلالها للسفر عدة مرات الى مسقط رأس جارثيا ماركيز، الى قرية "أراكاتاكا" الواقعة فى شمال كولومبيا ليجرى العديد من التحقيقات والحوارات فضلاً عن لقاءاته المتعددة مع صاحب السيرة الحياتية ذاته ليستقى منه الكثير من المعلومات الموثقة من مصدرها الأول ونبعها الأصيل

الغلاف : هند سم

المشروع القومى للترجمة

رحلة إلى الجذور

سيرة حياة

جابريل جارثيا ماركيز

تـــألـــيـــف : داسُّو سالديبار
ترجمة ودراسة وتقديم : صبرى التهامى
مـــــراجـــعـــة : حامد أبو أحمد



٢٠٠٤

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٦٦٢
- رحلة إلى الجذور
- داسُّو سالديبار
- صبرى التهامى
- حامد أبو أحمد
- الطبعة الأولى : ٢٠٠٤

هذه ترجمة كتاب :

Dasso Saldívar

GARCÍA Márquez

El Viaje a La semilla

La Biografía

Alfaguara

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084.

الفهرس

إهداء إلى :

سلفادور سيبولبيدا وخوانا أورتشوا ، وإلى فانيير ، وإلكين سيبوليدا أتشوا .

إنهم يتحدثون إلينا الآن من الجانب الآخر للجذور .

مقدمة المترجم

يُعتبرُ كتاب "رحلة إلى الجذور" - الذى أعاننا الله على ترجمته وراجعه مشكوراً الدكتور حامد أبو أحمد - من أفضل كتب السيرة الحياتية التى كُتبت عن جابرييل جارثيا ماركيز إن لم يكن أفضلها على الإطلاق حتى إنه فاق بكثير ما كتبه مؤلف "مائة عام من العزلة" عن نفسه فى سيرته الذاتية تحت عنوان "VIVIR PARA CONTARLA" والتى صدرت فى عام ٢٠٠٢ وترجمت إلى كثير من مختلف لغات العالم من بينها العربية حيث قام بترجمتها د. طلعت شاهين . نعتبر "رحلة إلى الجذور" أفضل هذه الكتب قاطبة ليس لأننا قمنا بترجمته بل لأن كاتبه داسو سالديبار الأستاذ بجامعة مدريد وهو كولومبى الأصل ويعيش فى إسبانيا ويحمل جنسيتها بذل فيها جهداً حثيثًا ومجهوداً مُضنياً طوال أربعة عشر عامًا اضطر خلالها للسفر عدة مرأت إلى مسقط رأس جارثيا ماركيز ، إلى قرية "أراكاتاكا" الواقعة فى شمال كولومبيا ليجرى العديد من التحقيقات والحوارات مع أهل هذه القرية ممن بقوا على قيد الحياة لتوثيق معلومات كتابه فضلاً عن لقاءاته المتعددة مع صاحب السيرة الحياتية ذاته ليستقى منه الكثير من المعلومات الموثقة من مصدرها الأول ونبعها الأصيل ، فهذا الكتاب الذى بين أيدينا هو ثمرة عمل شاق مُضن ودءوب على مدى عشرة أعوام. وقد سبق أن ترجم إلى كثير من لغات العالم ، كان أخرها اللغة الصينية استناداً لما أكده لى المؤلف نفسه فى رسائله إلىَّ عبر البريد الإلكترونى . وها هى الترجمة العربية نقدمها للقارئ العربى والتى جاءت بناءً على اقتراح من الدكتور حامد أبو أحمد على مؤلفه الذى رحَّب بالفكرة .

وجدير بالذكر أنَّ الدكتور حامد أبو أحمد كان قد عرض علىَّ فى البداية أنْ نترجم الكتاب سويا إلا أنه عدل عن هذه الفكرة لكثرة ارتباطاته وضيق وقته وعهد إلىَّ بهذه المهمة واكتفى بمراجعة الترجمة. وكلنا أمل فى أن تحظى هذه الترجمة بإعجاب واستحسان القارئ العربى والله نسأل التوفيق والسداد .

جابرييل جارثيا ماركيز :

* وُلِدَ جابرييل جارثيا ماركيز فى قرية "أراكاتاكا" فى الشمال الكولومبى يوم ٦ مارس ١٩٢٨ .

* بدأ يزاول نشاطه الأدبى وهو لا يزال فتىً صغيراً بالمرحلة الثانوية حيث ظهر له أوَّل عمل أدبى فى مجلة كانت تُصدرها المدرسة بعنونا JUVENTUD (شباب) .

* التحق فى عام ١٩٤٧ بكلية الحقوق فى الجامعة الوطنية فى بوجوتا (عاصمة كولومبيا) ولكنه تركها فى ١٩٤٨ ليلتحق بجامعة أخرى .

* مارس الكتابة الصحفية فى عمود بجريدة يومية تُدعى EL UNIVERSL (العالمى). كما نشر أوَّل أقاصيصه فى ملحق تُصدره صحيفة EL ESPECTADOR (المشاهد) أسبوعياً كل يوم سبت .

* تنازعت الصحافة ودراسة الحقوق جابرييل جارثيا ماركيز إلا أنَّ هوايته وشغفه بالصحافة كانا لهما عظيم الانتصار على دراسته الجامعية. لذلك سافر الكاتب إلى أوروبا وأمريكا للعمل مراسلاً صحفياً بها . وقد عاش فترة طويلة فى أسبانيا تُعتبر من أخصب مراحله الأددبية الإبداعية .

* صدرت له قصة وهى "الأوراق الساقطة" عام ١٩٩٥ ثم قصة "العقيد لا يجد من يراسله" فى عام ١٩٥٧ . وفى عام ١٩٥٩ قصة "جنازة الأم الكبيرة" ثم"الساعة المشئومة" فى ١٩٦١ .

* كان أهم وأعظم حدث أدبى فى حياة ماركيز هو كتابة رائعته "مائة عام من العزلة" التى تُرجمت إلى مُعظم لغات العالم ومن بينها "لغة الضاد" وكان لهذه القصة الفضل الأوَّل فى الشهرة العالمية التى تحققت لقصَّاص كولومبيا الأشهر ، فهى تُمثل وبلا غرو أحد الخيوط الهامة فى القصة المعاصرة ليس فى الأدب الأسبانى الأمريكى فحسب بل فى الأدب العالمى . فالقصة تدخل ضمن عمليات التطور الإبداعى فى فن السرد ويمكن مقارنتها لعظيم أهميتها بقصة "أوليس" لجيمس جويس .

* صدرت له عام ١٩٧٥ قصة "خريف البطريرك" ثم "نبأ موت مُعلن" في عام ١٩٨١ و"نبأ اختطاف" في ١٩٩٦ .

* منحت الأكاديمية السويدية جارثيا ماركيز جائزة نوبل في الآداب يوم الخميس ٢١ أكتوبر ١٩٨٢ فكانت خير تتويج لإبداع الكاتب وخير اعتراف بدوره الكبير في تطوير الإبداع القصصي .

* يُعتبر جارثيا ماركيز من رواد حركة الواقعية السحرية التي بهرت العالم أجمع .

* لا يزال جارثيا ماركيز يُمتع قرّاءه بمقالاته التي ينشرها في صاحبة الجلالة السلطة الرابعة (الصحافة) وبكتاباته الملهمة وإبداعاته الرائعة على الرغم من تجاوزه الخامسة والسبعين من عمره ومن اكتشافه إصابته بسرطان الغدد الليمفاوية .

منزل إراكاتاكا وشخصياته النسائية والجد :

وُلِدَ جارثيا ماركيز في منزل جدته لوالدته في "أراكاتاكا". وقد ارتبط ارتباطًا وثيقًا بهذا المنزل الذي عاش فيه سني طفولته الأولى على مدى ثماني سنوات. كان ماركيز وجده مُحاطين بمجموعة كبيرة من النساء تَمثلن في الجدة وقد ذكر د. حامد أبو أحمد في أكثر من موضع بكتابه الواقعية السحرية أهمية الجدة في حياة ماركيز مع بيلينيو ميندوثا وما كتبه أيضًا ناد وكتّاب آخرون مثل ماريو باجاس يوسا وكتابه أديب كولومبيا بعنوان "جارثيا ماركيز – قصة متمرد" ١٩٧١ فقد شدَّد على أهمية جدته على سبيل المثال في حواراته مع ميندوثا في ص (١٨) قائلاً : "أن ثمة صلة تربط بينه وبين جدته هي أشبه بخيط دقيق غير مرئي يربط كليهما بعالم أسمى من العالم الواقعي" .

لكن هذا العالم كان يحمل لماركيز مع قدوم الليل همًا لا يفارقه إلا عندما يصحو على ضوء النهار في اليوم التالي وذلك لأن أحاديث الجدة التي كانت تدور حول الأشباح والعفاريت كانت تُسبب له نوعًا من الخوف يتحول بطبيعة الحال إلى هم وقلق ومن العجيب أن هذا الإحساس ظل يلازم الكاتب حتى فترة متقدمة من حياته ومن ثم فقد اعترف في حواراته مع بيلينيو ميندوثا في نفس الصفحة المذكورة آنفًا : "وحتى

الآن عندما أكون فى بعض الأحيان نامًا وحدى فى فندق فى أى مكان بالعالم أستيقظ مدفوعًا بخوف رهيب لكونى بمفردى فى الظلام وأحتاج فى العادة إلى عدة دقائق لكى أعود إلى رشدى وأخلد مرة أخرى للنوم" . (د. حامد أبو أحمد "الواقعية السحرية" ص١٥١) .

لقد كانت جدته تحكى له أكثر الأشياء فظاعة بشكل طبيعى جداً دون أن تمتعض أو ينتابها أى تأثر وكأنها تتحدث عن شىء رأته منذ قليل ويقول جارثيا ماركيز إنه اكتشف فيما بعد أن هذه الطريقة ثابتة الجنان والثراء فى الصور هما اللذان كانا يُسهمان أكثر من أى شىء آخر فى إضفاء مصداقية كبيرة على حكاياتها وقد اعترف ماركيز بفضل هذه الطريقة عليه فى كتابة رائعته "مائة عام من العزلة" (الواقعية السحرية فى موضعين ص ٤٣ و ١٥٢). كما ذكر ذلك أيضًا فى حواراته مع بيلينيو ميندوثا ص ,٤١ وكذلك فى "رحلة إلى الجذور" ص ١٠١ .

ولم يقتصر تأثير الجدة على هذا الجانب فحسب بل صارت أيضًا نموذجًا لكثير من شخصياته الفنية أو الأدبية فهى أصل شخصية ماما الكبيرة فى "جنازة الأم الكبيرة" وإذا كان لدى ماركيز بطريركه من الرجال أى السيد الكبير فإن لديه أيضًا السيدة الكبرية المسيطرة المهيمنة أو ما تُسمى باللغة الأجنبية "المطريركة" ويصفها بارجاس يوسا فى ص ٢٤ من كتابه عن ماركيز بقوله : "يبدو أن السيدة ترانكلينا كانت نموذجًا يُحتذى لربة البيت. كانت تشبه سيدات العصر الوسيط ، إمبراطورة المكان ، الصانعة النشيطة ، الولودة ، المخيفة ، التى لا تقف مكتوفة اليدين أمام العوائق ، وتعرف جيداً كيف تُنظم حياة أسرة كثيرة العدد بمهارة وكفاءة واقتدار ". كما أن هذه الجدة أيضًا هى أصل شخصية أرسولا زوجة خوسيه أركاديو بوينديا "الأول" فى رواية "مائة عام من العزلة". وتتمتع هذه الشخصية فى الرواية بقوة خارقة والنكبات التى أصابت آل بوينديا بالعمى والجنون. وهذا ما حدث بالفعل فى الواقع لجدة ماركيز فقد توفيت ضريرة مجنونة فى سوكرى عندما كان سبطها يدرس فى ثيبا كيرا .

وهذا يجرنا إلى قضية علاقة الكاتب بالواقع وكيف يمكن أن يكون الواقع الفنى انعكاسًا للواقع العملى استناداً لتسمية ماريو بارجاس يوسا. ويُلاحظ هذا الانعكاس

بقوة في كل أعمال ماركيز ويقول رولان بارت : "إنَّ قصة أي قصَّاص هي قصة موضوع ما وتحولاته" أي سرد قصة موضوع يلح على كاتبه ويُعاني هذا الموضوع من تحولات كثيرة. ويقول د. حامد أبو أحمد: "إن هذه المقولة لا تنطبق على كثير من الكتَّاب مثل بلزاك وديكنز ونجيب محفوظ لتنوع مراحلهم الأدبية والموضوعات والأفكار فعلى سبيل المثال انتقل أديبنا العالمي نجيب محفوظ من المرحلة التاريخية إلى الواقعية النقدية ثم إلى المرحلة الميتافيزيقية وتلتها بعد ذلك الواقعية الثانية ..إلخ" .

ولكن هناك كتابًا تلح عليهم فكرة واحدة أو موضوع واحد طوال حياتهم الأدبية من هؤلاء فرانز كافكا وديستوفسكي وجارثيا ماركيز . فالكاتب الكولومبي على سبيل المثال كان عالم طفولته يلح عليه حتى صدرت له "مائة عام من العزلة" ١٩٦٧ وإن كان قد بدأ ينأى بعض الشيء في رواياته اللاحقة وعلى وجه التحديد في التفرة من ١٩٧٥ إلى ١٩٩٠ ولكن أعماله منذ أواخر الأربعينيات حتى عام ١٩٦٧ ظلت لديه فكرة مهيمنة على عقله وإبداعه الأدبي تكمن في عالم طفولته وذكرياته في منزل جديه لأمه خلال الثمانية أعوام الأول من حياته (الواقعية السحرية ص ١٥٥) ومن هنا تتأكد مقولته في حواره مع بارجاس يوسا عام ١٩٦٨ : "لا أستطيع أن أكتب قصة إلا إذا كانت قائمة على تجارب شخصية "كما قال لصديقه ميندوثا في الحوارات المُشار إليها آنفًا : " لقد اكتشفت بعد ثلاثين عامًا من الكتابة أمرًا كنا نغفل عنه في معظم الأحيان نحن القصَّاصين ، وهو أنَّ أفضل صيغة أدبية هي الحقيقة دائمًا". ولذلك فإن ماركيز أكَّد لميندوثا أيضًا أنَّ نقطة انطلاقه لكتابه قصة هي صورة مرئية. ومن ثم فإن قصة "قيلولة الثلاثاء" وهي من أفضل قصصه على حد تعبيره ظهرت إثر رؤيته لسيدة وطفلة ترتديان السواد وتحملان مظلة سوداء وتسيران تحت شمس متقدة في قرية صغيرة. و"الورقة الساقطة" جاءت نتيجة لرؤية الكاتب لشيخ يحمل حفيده إلى القبر ، ونقطة الانطلاق في "العقيد لا يجد من يراسله" هي صورة رجل ينتظر مركبًا في بارَّانكيا. كان ينتظر المركب بنوع من القلق الصامت. ويقول ماركيز : "إنه وجد نفسه بعد ذلك لسنوات ينتظر رسالة بنفس القلق في العاصمة الفرنسية ووجد نفسه يتماهى أي يتطابق مع ذلك الرجل. (الحوار مع ميندوثا .. ص ٢٥ .. والواقعية السحرية ص ١٥٥ و ١٥٦) .

وحتى اسم "ماكوندو" الذى اخترعه الكاتب اختراعًا له أساس فى الواقع كانت هناك ضيعة للموز تُسمى ماكوندو بالقرب من قرية "أراكاتاكا" التى قضى بها ماركيز ثمانى سنوات من طفولته وقد أكّد على ذلك داسو سالديبار فى كتابه "رحلة إلى الجذور" ص ١١٥ . حيث أشار إلى معانى كلمة ماكوندو .

وقد ظلَّ بيت جديه لأمه محفورًا فى ذاكرته لدرجة أنَّ أكّد فى حواراته مع ميندوثا ص ١١٧ قوله : "إنَّ ذكرياتى الأكثر حيوية وديمومة أو استمرارية ليست تلك الخاصة بالأشخاص وإنَّا تتمثل فى منزل أراكاتاكا الذى عشت فيه مع جدى ، إنَّه حلم متواصل مازال يلح على بل وأكثر من ذلك أنى فى كل أيام حياتى استيقظ من النوم ولدى انطباع ، زائف أو حقيقى بأنى قد حلمت بأنى كنت في هذا البيت وكأنى لم أغادره أبدًا (الواقعية السحرية ص ٢٢٤) وكان المنزل يضم عددًا من النساء منها جدته التى أسلفنا الحديث عنها وخالاته فرانثيسكا وبيترا والبيرا وكلهن من النوع الخيالى اللائى يعشن تهيمن عليهن ذكريات سحيقة ويؤمنَّ بالخرافات. وقد شبههن بالهنديات من خدم المنزل. ويحكى ماركيز لمندوثا: "إن خالته فرانثيسكا كانت امرأة قوية لا تشعر بالتعب وذات مرة جلست تحيك كفنها وسألها ماركيز عن ذلك فقالت له : إنها ستموت وبالفعل انتهت من حياكة الكفن وذهبت إلى فراشها واضطجعت عليه وماتت" وهذه الحكاية هى أصل شخصية أمارنتا فى رواية "مائة عام من العزلة" ص٣١٩ من الرواية الإنسانية حيث انتابها إحساس بقرب مرضها فأعلنت للناس فى قرية ماكوندو أنها ستموت وأنها تريد حمل رسائل إلى الأموات فى الدار الآخرة ، فهرع إليها الناس وكل منهم يحمل رسالة خطية أو شفاهية حتى تجمع لديها كمٌ هائلٌ من الرسائل الموجهة إلى الموتى (الواقعية السحرية ص ١٤٩) .

كان لهذه الشخصية تأثير قوى على طريقة القص لدى ماركيز وقد أكّد ذلك لبارجاس يوسا وأشار إليها أيضًا داسو سالديبار فى الكتاب الذى نُقدم ليه وتتلخص فى الآتى : كانت جالسة ذات يوم فى ممر المنزل فجاءتها صبية تحمل بيضة دجاجة لها نتوء حيث سألتها الطفلة عن سبب وجود نتوء بالبيضة ؟ فنظرت إليها وقالت لها : لأنها بييضة أفعوان خرافى ثم أمرت بأشعال نار فى الفناء وأحرقوا فيها البيضة. وقد تم هذا بشكل طبيعى جدًا ويقول ماركيز : "إن هذه الطبيعية والتلقائية والعفوية فى الردود

هى أكثر الأشياء التى أعطتنى مفتاح رواية "مائة عام من العزلة" حيث تحكى أكثر الأشياء فظاعة وأكثرها خرقًا للعادة بنفس الطريقة الطبيعية التى أحرقن بها بيضة الأفعوان الخرافى الذى لم أدر أبدًا ماذا كان" .

اعترف جارثيا ماركيز بأنَّ الرحلة التى طلبت والدته منه مرافقتها فيها إلى أراكاتاكا لبيع منزل الجد كانت فى غاية الأهمية بالنسبة له. فقد كان أهم قرار اتخذه فى حياته كمؤلف لأنَّ فترة مراهقته كانت أكثر وعيًا بالمستقبل منها بالماضى وبالتالى كانت ذكرياته عن القرية شبه مطموسة فقد هجرها منذ أربعة عشر عامًا ولم يعد إليها طوال هذه الفترة .

ويذكر ماركيز أنَّ والدته عندما طلبت منه ذلك أخبرته بأنها ليس معها ما يكفيها من النقود فطمأنها أنه سيتحمل مصروفاته. كان ماركيز يتقاضى ثلاث بيزات عن الخبر اليومى وعن الافتتاحية أربعة بيزات عندما يغيب المحرر ولم تكن هذه البيزات تكفى على الأطلاق لكى يعيش منها. حاول الحصول على قرض من مدير الصحيفة إلا أنه ذكَّره بأنه مدين بثمانمائة خبر يومى أى كان مدينًا له بـ ٢٤٠٠ بيزو وهو مبلغ كبير آنذاك. فتوجَّه إلى الأستاذ القطالونى بائع الكتب رامون فينيس ليقترض منه عشرة بيزات ، ولكنه لم يكن معه سوى ستة بيزات فقط .

جارثيا ماركيز وجده :

كان جارثيا ماركيز وجده هما الرجلان الوحيدان اللذان يعيشان فى منزل أراكاتاكا وكانا محيطين بزمرة كبيرة من النساء كما أسلفنا سابقًا. كان الجد يلاعب سبطه ويصطحبه إلى محله ويرافقه فى التنزه خارج البيت وخاصة إلى السيرك أو إلى مصنع الثلج. عاش ماركيز فى ظل رعاية الجد الذى لم يكن يفارقه إلا عند النوم. وقد حكى الجد لسبطه الكثير والكثير عن حياته العسكرية واشتراكه فى الجروب الأهلية التى عانت منها كولومبيا .

لم يكن الجد مثقفًا فقد هجر المدرسة الحكومية منذ صغره فى ريوهاتشا لكى يقاتل فى الحروب الأهلية المستعرة فى منطقة الكاريبى .

ويقول الكاتب إنَّ جدته كانت تفرض على جده اصطحابه فى خروجاته وتنزهاته كى يكون رقيبًا على جده حتى لا يُقدم على زيارات لا أخلاقية ويقول ماركيز: "إنَّ هذا لم يحدث على الإطلاق. ومع ذكل فقد تذكَّر ذات يوم أنَّه رأى جده أمام منزل وكان الجد يتصرف هناك كما لو كان سيداً لهذا البيت الآمر النهاى فيه ويُضيف الكاتب بأنَّه عاهد نفسه على ألا يحكى شيئًا عن ذلك حتى بزوغ شمس اليوم (أن تعيش لتحكى ص ٧٤).

لم يعد الجد إلى الدراسة بعد ذلك قط. وذات يوم كان برفقه سبطه فى السيرك وأراد الطفل الاستفسار عن الفرق بين الجمل والهجين ولم يستطع الجد إشباع فضول سبطه. ولكنه عندما عاد إلى المكتب استخرج قاموسًا وعرف منه الفرق بين الجمل والهجين ثم وضع القاموس فى أحضانه نجل كريمته وقال له : هذا الكتاب يعرف كل شيء وهو الوحيد الذى لا يُخطئ .

كان للجد عظيم الأثر فى سبطه ولذلك شعر ببالغ الأسى عندما وافته المنية. أمَّا والده فلم يكن له تأثير فى نجله ويبرر ماركيز ذلك بأنَّه تربى بعيداً عن والده وبالتالى لم يكن بينهما ألفة وساد الجفاء علاقتهما. ونرى أنَّ هناك سببًا أخر لتلك الجفوة وهذا الفتور فى العلاقات بين الكاتب ووالده وهو أنَّ الأب لم يكن راضيًا على الإطلاق عن هجر نجله لدراسته الجامعية والعمل كصحفى وكاتب كما سنوضح فيما بعد .

تُوفى الجد نيقولاس عندما كان جارثيا ماركيز فى الثامنة من عمره. ويمثل هذا الجد الأساس المرجعى لكل العقداء الذين وردوا فى أعمال ماركيز بدءًا من "كولونيل الورقة الساقطة". ومروراً بـ "الكولونيل الذى لا يجد من يراسله" حتى الكولونيل أورليانو بويندا فى رواية "مائة عام من العزلة" ولا يشاركه فى ذلك إلا كولونيل آخر هو الزعيم الليبرالى قائد جناح الليبراليين فى الحرب الأهلية الكولومبية التى انتهت عام ١٩٠٢ وراح ضحيتها أكثر من مائة ألف شخص وتُسمَّى بحرب الألف يوم. وهذه الحرب هى الأساس المرجعى للمعارك التى خاضها الكولونيل أورليانو بويندیا (٣٢ معركة) فى رواية "مائة عام من العزلة" وخسرها جميعًا (الواقعية السحرية ص ١٤٨) .

التكوين الثقافى لجابرييل جارثيا ماركيز :

واجه الطفل جارثيا ماركيز صعوبة بالغة فى تعلم القراءة فلم يعلمه المدرس أسماء الحروف بل كان يكتفي بتعليمه أصواتها فقط (أن تعيش لتحكى ص ٧) ومن الجدير بالذكر أنَّ ماركيز أحبَّ مُدرِّسته روسا إيلينا فيرجسون لطريقتها المهذبة فى التعليم وبُعدها عن التشنج.كان للطفها وظرفها أثر كبير فى حب ماركيز للقراءة والكتابة. (داسو سالديبار ص ١١٩) وتمكن ماركيز من قراءة أوَّل كتاب عثر عليه فى مخزن منزله يكاد يغطيه التراب ، كان جزءًا من قصة "ألف ليلة وليلة" وقد سحره هذا الكتاب لدرجة أن خطيب عمته سارة عندما رآه يطالعه صاح قائلاً: "يا إلهى لدينا طفل سيُصبح كاتبًا" (أن تعيش لتحكى ص ٧٧-٧٨) .

ويقول جارثيا ماركيز: "لقد أدهشنى الكتاب جدًا. ومرت سنوات طويلة دون أن أعرف أنَّه جزء من قصة "ألف ليلة وليلة". وكان أكثر شئ أعجبنى فيه قصة قصيرة وبسيطة جدًا لازلت أعتقد أنَّها أجمل قصة مكتوبة كانت تقول : إنَّ صيادًا وعد جارته أن يهديها أو سمكه سيصيدها من البحر ، وعندما فتحت المرأة بطن السمكة وجدت بها ماسة فى حجم ثمرة اللوز". (أن تعيش لتحكى ص ٧٨)

جارثيا ماركيز يترك دراسته الجامعية :

كان جارثيا ماركيز وقد وضع نصب عينيه هدفًا وسعى إلى تحقيقه ، قرر أن يكون كاتبًا إلى جانب عمله بالصحافة. لذلك بعد أن التحق بكلية الحقوق فى جامعة بوجوتا الوطنية هجرها لكى يتفرغ للكتابة والعمل بالصحافة ضد رغبة والده. وهنا نذكر أن والده كان دائم النصح لنجله حيث أبلغه بأنَّ الكتابة والصحافة لا يغنيان ولا يُسمنان من جوع ولكن جارثيا ماركيز أصرَّ على موقفه فهجر الدراسة الجامعية مثل خاثينتو بينابينتى إلا أن الفارق بينهما أنَّ الثانى ترك دراسة الحقوق بعد وفاة والده ليتفرغ لكتابة المسرح أمَّا الأوَّل فقد هجرها فى حياة والده. ومن الجدير بالذكر أنَّ والدته لم تتحدث معه عن شئ سوى استياء والده من تركه للدراسة أثناء عودتهما

من الرحلة إلى أراكاتاكا لبيع منزل جديه وقال له ماذا أقول لوالدك فأخبرها أن تبلغه بأنَّه يحبه حبًا جمًا ولكنه قرر أن يكون كاتبًا وسيكون .

ويقول جارثيا ماركيز لقد شجعني على ذلك عبارة كتابها برنارد شو قال فيها: "توقفت عن الذهاب إلى المدرسة منذ صغرى فلم أكن فى حاجة إلى مناقشة ذلك مع أىَّ شخص لأننى سأعجز عن إقناع الآخرين ، ولن تُجدى معهم أسبابى ومبرراتى" .

وقد حاولت والدة ماركيز إقناعه بأنَّ والده لا يُعارض هذا الاختيار ولكن يطلب منه فقط تأجيل ذلك حتى يحصل على شهادته الجامعية أمل وطموح أسرته إلا أنَّ المتمرد كما يسميه ماريو بارجاس يوسا ضرب عرض الحائط بنصح والده وتوسلات والدته .

وكان جارثيا ماركيز قد تزوَّد بسلاح العلم والمعرفة حيث التهم كل ما ألف وترجم عن تعلم فن كتابة الرواية. وكان ذلك عقب تركه لدراسة الحقوق بستة أشهر حيث تفرغ للقراءة والكتابة وهو فى الثالثة والعشرين من عمره. كان يحفظ عن ظهر قلب أشعار العصر الذهبى الإسبانى. وكان ماركيز يقول إنَّ كتاب "ضوء أغسطس" للقصاص الأمريكى وليام فوكنر أقرب الكتب إلى قلبه. وكان يمتص كتابات فوكنر امتصاصًا ويرتشف من رحيقها محاولاً فهم الكاتب جيداً خشية أن يكون القصاص الأمريكى كاتبًا مخادعًا. ولذلك كان الأستاذ القطالونى رامون فينيس يهدئ من روعه ويقول له : "لو كان فوكنر فى بارَّانكيا لشاركنا الجلوس على هذه الطاولة. (أن تعيش لتحكى ص ٩٧) .

وتجدر الإشارة هنا أيضًا إلى أنَّ والدة ماركيز بعد أنْ انتابها اليأس من إسداء النصح لنجلها قبل انصرافها عنه بعد رحلة العودة من أراكاتاكا قالت له : "إن والدك سيموت حسرة لتركك الدراسة" .

لم يكن الوقت مناسبًا لكى يبدأ ماركيز كتابة رواية ثانية لأنه غرق فى الأولى حتى أذنيه ومع ذلك فقد عاهد نفسه فى تلك الليلة على أن يكتبها أو يموت استشهاداً بقول ريلكة "إذا استطعت أنْ تعيش دون أن تكتب ، فلا تكتب" (كناية عن استحالة العيش بالنسبة للكاتب إذا لم يكتب) . ولذلك كان آخر ما قاله لوالدته عند وداعها إيَّاه أخبرى

والدى أننى أحبه حبًا جمًا وأننى بفضله سأكون كاتبًا ، ولن أكون إلا كاتبًا. (أن تعيش لتحكى ص ٨١) .

مجموعة بارّانكيا :

يقول ماركيز إنّه تعرف على مجموعة بارّانكيا وهى جماعة من الكتّاب والفنانين الشبان التى كانت تلعب دورًا ثقافيًا رياديًا فى حياة المدينة بقيادة الأستاذ القطالونى رامون فينيس وكانت تضم خيرمان بارجاس وألفونسو فوينمايور وألبارو تيبيدا ساموديو كانت تجمعنا سمات كثيرة مشتركة لدرجة أنّهم كانوا يقولون عنا أننا أبناء لأب واحد. كانت استقلاليتنا وموهبتنا الرافضة للتبعية وتميزنا الإبداعى من أسباب شهرتنا وكذلك سببًا لكراهية بعض الأوساط لنا . (داسو سالديبار "رحلة إلى الجذور" و"أن تعيش لتحكى") .

كانت ميرا ديلميرا المرأة الوحيدة بين أفراد الجماعة. وقد أصبحت مكتبة MUNDO (العالم) بمرور الوقت مركزًا للاجتماعات الأدبية للجماعة حيث كانت تلتقى مرتين يوميًا .

كان ماركيز أكثر أفراد الجماعة فقرًا حيث كان يلجأ إلى ركن ناء فى مقهى روما ليكتب فيه ما يريد حتى الفجر لأنّ العملين اللذين كانا يزاولهما على الرغم من أهميتهما كان دخلهما لا يكفى شيئًا. كان ماركيز يمكث بالمقهى حتى بزوغ خيوط الفجر الأولى يقرأ بلا هوادة ولا مهادنة. وعندما يعضه الجوع كان يتناول ساندويتشًا مع فنجان شيكولاتة ، وكان يتنزه مع ساعات النهار الأولى تحت أشجار الطريق المزهرة. كان ماركيز يكتب خلال الأيام الأولى بمقر الصحيفة وينام بضع ساعات فى أى مكان خال بها أو يفترش بقايا بكرات ورق المطبعة إلا أنه بمرور الوقت وجد نفسه مضطرًا للبحث عن مكان آخر أكثر راحة وهدوءًا .

وكان الأستاذ القطالونى رامون فينيس قد اسدى نصيحة غالية لجارثيا ماركيز تكمن فى ألا يُطلع أحدًا كائنًا من كان على شئ من إنتاجه الأدبى الذى لا يزال فى طور الكتابة والإعداد .

جارثيا ماركيز والواقعية السحرية :

عند تناول هذه النقطة المهمة في المقدمة لا يسعنا في هذا المقام إلا أن نوصي القارئ الكريم إذا أراد الاستفاضة والتوغل في تيار الواقعية السحرية بقراءة كتاب الدكتور حامد أبو أحمد الذي يحمل نفس الاسم وقد أصدرته دار نشر سندباد للنشر والتوزيع. يقع الكتاب في ٢٨٥ صفحة من القطع الصغير وقد تناول فيه المؤلف هذا التيار الأدبي بإسهاب والعلاقة بينه وبين السيريالية ورواد هذه الحركة الأدبية في أمريكا اللاتينية وعلى رأسهم بطبيعة الحال جابرييل جارثيا ماركيز. وحلل الناقد بعض قصص هذا الاتجاه الأدبي في الرواية مثل "خريف البطريرك" و" الحب وشياطين أخرى" للكاتب الكولومبي و"السيد الرئيس" لميجيل أنخيل أستورياس .

وبالنسبة لتعريفات هذا التيار الأدبي في فن الرواية سنقتصر على ماذكره الكاتب البيرواني الشهير ماريو بارجاس يوسا في حواره مع د. حامد أبو أحمد أثناء رحلتهما إلى الإسكندرية في مطلع شهر فبراير ٢٠٠٠ يقول بارجاس يوسا : "بالنسبة للواقعية السحرية ، لا أحد يستطيع تعريفها تعريفًا محددًا وقاطعًا أو بمعنى أدق بتعريف جامع مانع فالبعض يقول إن أليخو كاربينتير وهو أديب كوبي (١٩٠٤-١٩٨٠) كان روائيًا ، وقصَّاصًا ، وكاتب مقال وموسيقيًا ، ودبلوماسيًا ، وكان أوّل من قدّم هذا العالم الذي لا يمكن أن نسميه واقعًا ولا نستطيع أن نطلق عليه فانتازيا. ومن هنا نشأ مصطلح الواقعية السحرية من الجمع بين عنصرين مهمين هما الواقع والفانتازيا ، لقد ارتبط اسم جارثيا ماركيز أيضًا بهذا الاتجاه ربما بشكل أوسع ، لكن الحقيقة ، أنَّ خوان رولف له عالمه المختلف ، وكذلك خورخي لويس بورخيس وكل منهما مختلف عن عالم جارثيا ماركيز. فعالم بورخيس على سبيل المثال مأخوذ من ثقافات عديدة على العكس من عالم ماركيز الذي يقتصر على الصنعة الروائية. وهذا يعني أنَّه لا يوجد قالب واحد يجمع كل الكتَّاب في صفة واحدة. واستطرد بارجاس يوسا قائلاً: "إنَّ الواقعية السحرية ليست تراثًا خاصًا بأدب أمريكا اللاتينية ، ففي إسبانيا نجد في قصص الفرسان فانتازيا كثيرة مثلما نجد عند جارثيا ماركيز ، وكذلك في الأدب الألماني والفرنسي وبالنسبة للأدب العربي نعرف أن بورخيس العارف الكبير بهذا الأدب ،

استخدم كثيراً من العناصر الخيالية فى "ألف ليلة وليلة" لصياغة أدبه. أمَّا ارتباط هذه التسمية بأمريكا اللاتينية على وجه الخصوص دون غيرها يرجع إلى ظهور عدد كبير من كتَّاب القارة خلال عقد الخمسينيات أدى إلى توثيق هذاالارتباط .

تأثر ماركيز بكتاب آخرين كانت لهم إبداعات مهمة فى مجال المزج بين الواقع والأسطورى مثل فوكنر وهيمنجواى وكافكا وغيرهم وفى هذا الصدد سنشير إلى ما قاله فى الحوارات المذكورة مع ميندوثا رداً على سؤال له دلالة مهمة يقول : "هل كانت جدتك هى التى أهلتك لاكتشاف أنك ستصبح كاتبًا ؟ "فأجاب : "كلا ، كان ذلك هو كافكا الذى كان يحكى بنفس طريقة جدتى ترانكلينا. فعندما قرأت قصة "المسخ" LA METAMORFOSIS وعمرى سبعة عشر عامًا اكتشفت إنى سأصبح كاتبًا ، وذلك عندما رأيت أن جريجوريو ساسا (بطل القصة) استيقظ ذات صباح ليجد نفسه قد تحول إلى جعران هائل. فقلت لنفسى لم أكن أعرف أنَّ فى الإمكان القيام بهذا ، لكن إذا كان الأمر كذلك فإنه يهمنى أن أكون كاتبًا".

ويأتى كلام ماركيز بعد ذلك فى غاية الأهمية لأنه يوضح الخيط الرفيع الذى يفصل بين الحرية والفوضى فالكاتب يؤكد على دور الحرية فى العملية الإبداعية. ويقول أنه عقب قراء ته لقصة "المسخ" لكافكا اكتشف أنَّ الأب يتضمن إمكانيات أخرى غير الأكاديمية والعقلية التى عرفها أثناء دراسته لكنه يؤكد فى الوقت ذاته على أنَّه أدرك أنَّ المرء لا يمكن أن يخترع أو يتخيل كل ما يعنُّ له بلا ضوابط ، وإلا تحول الأمر إلى مجرد أكاذيب ، الأكاذيب فى الأدب أكثر خطورة منها فى الحياة الواقعية. ومما قاله الكاتب فى هذا الصدد: "إنَّ الأشياء الأكثر دخولاً فى حالة الاعتساف الظاهر تحكمها قوانين. والمرء لا يستطيع أن يزيح مساحة العقل بشرط ألا يقع فى الفوضى ، أى فى اللاعقلانية المطلقة" أى الفانتازيا التى أوضح خلال هذا الحوار أنه يمقتها. وعن سبب كرهه لها قال الكاتب: "أننى أعتقد أنَّ الخيال ما هو إلا أداة لتشكيل الواقع . لكن مصدر الإبداع أولاً وأخيراً هو الواقع دائمًا. أمَّا الفانتازيا ، أو الاختراع الخالص والبسيط على غرار والت ديزنى ، هو أكثر الأشياء التى تثير كراهيتى ومقتى. "وقد أكَّد ماركيز فى تلك الحوارات على أنَّه لا يوجد سطر واحد فى كل أعماله القصصية لا يستند إلى الواقع . (الواقعية السحرية ص ٤٤ و٤٥ ، ورحلة إلى الجذور ص ١٧٩ و١٨٠) .

وسوف نشير هنا أيضًا إلى المفهوم الشعرى للواقع لدى جارثيا ماركيز فهو مفهوم متوازن جدًا ، لأنه يعتقد أن القصة يجب أن تكون تمثيلاً أو تجسيدًا أو تشخيصًا دقيقًا للواقع ، نوعًا من اللغز أو الأحجية للعالم. والواقع الذى يصنع فى قصة مختلف تمامًا عن واقع الحياة ، على الرغم من أنه يقوم عليه ، مثلما يحدث فى الأحلام. ولا شك أنَّ هذه الرؤية للواقع نابعة من الواقع الغريب الذى تعيشه بلدان أمريكا اللاتينية ومثالاً لذلك ما جاء فى مخطوطات رحالة أمريكى يُدعى أوب دى جراف الذى قام برحلة فى نهاية القرن التاسع عشر إلى منطقة الأمازون شاهد فيها من بين ما شاهد ، مجرى مائيًا تغلى مياهه ، ومكانًا يكون صوت الإنسان فيه سببًا لهطول وابل من المياه. كما اشار ماركيز إلى الحادثة التى وقعت فى إحدى المناطق الجنوبية النائية فى الأرجنتين عندما حملت الرياح إلى البحر "سيركًا" برمته ، وفى اليوم التالى عثر الصيادون فى شباكهم على جثث الأسود والزرافات. (قراءات فى أدب إسبانيا وأمريكا اللاتينية للدكتور حامد أبو أحمد ص ١٨٦). ويشير ماركيز أيضًا فى حواراته مع ميندوثا أنه فى قصة "جنازة مما الكبيرة" حكيت رحلة لايمكن تخيلها ، ومستحيلة للبابا إلى إحدى القرى الكولومبية حيث استقبله رئيس متوسط القامة أصلع الرأس حتى يختلف عن رئيس البلاد فى ذلك الحين الذى كان طويلاً قوى البنيان ومن العجيب أنَّه بعد كتابتى لهذه القصة بأربعة عشر عامًا زار البابا كولومبيا وقد استقبله رئيس أصلع الرأس متوسط القامة كما فى القصة. وأضاف أيضًا أنَّه بعد أن كتب رائعته "مائة عام من العزلة" عام ١٩٦٧ ظهر شاب فى بارَّانكيا اعترف أنَّ فى مؤخرته ذيل خنزير. وكان ماركيز أثناء كتابته لأعماله الأدبية يجد نفسه أمام تفسيرين أحدهما واقعى والآخر سحرى. فكان يلجأ إلى السحرى وهذا ما حدث مع شخصية ريميديوس الجميلة فى "مائة عام من العزلة" فكرت أولاً فى أن أجعلها تختفى وهى تقوم بالتطريز مع نساء أخريات فى دهليز البيت ولكن قلت هذا ما يحدث فى السينما ولم يبد لى ذلك مقبولاً ففكرت فى أن أجعلها تصعد إلى السماء بالروح والجسد معًا. وكان هذا الخاطر يستند إلى حدث واقعى أيضًا وهو أن إحدى السيدات كانت لها حفيدة هربت منها ساعة الفجر ولكى تخفى عار اختفائها وهروبها مع حبيبها أطلقت شائعة تقول إن حفيدتها ذهبت إلى السماء . وقد لجأ الكاتب إلى التفسير السحرى للواقعة عن مقارنته

بالتفسير الواقعي لأنه وجد الأول أكثر عمقًا وتشويقًا وجذبًا للقارئ ، ثم إنه بمنأى عن الابتذال والألفة. (الواقعية السحرية ص ٤٦ و٤٧) .

ولعل اللغة من أهم مكونات هذا العالم الواقعي السحرى عند ماركيز لأنَّ اللغة عنده كما اشار الكاتب في كثير من حواراته لها بريق ، وثراء وعمق حيث يرى أنَّ اللغة والتقنية أداتان يحددهما أو يفرضهما موضوع العمل الأدبي نفسه. فاللغة في "الكولونيل لا يجد من يراسله" وفي "الساعة المشئومة" وفي عدة قصص أخرى من "جنازة الأم الكبيرة" لغة موجزة متنوعة يهيمن عليها الاهتمام بكونها فعالة وهي تقريبًا مأخوذة من لغة الصحافة في "مائة عام من العزلة" كانت في حاجة إلى لغة أكثر ثراء لكي أعطي مدخلاً لهذا الواقع الآخر الذي اتفقنا على تسميته "الواقع الأسطوري" أو "الواقع السحري" وفي "خريف البطريرك" اضطررت للبحث عن لغة أخرى. وردًا على سؤال الميندوثا حول "خريف البطريرك" وهل هي قصيدة منثورة ؟ وهل هي متأثرة بتكوينك الشعري ؟ رد بحسم : "كلا ، إنَّها متأثرة في جوهرها بالموسيقى. فلم اسمع موسيقى بكثرة مثلما سمعت خلال كتابتي لهذه الرواية". وذلك كان ماركيز على حق عندما قال إنَّ التقنية واللغة أداتان يحددهما ويفرضهما موضوع العمل الأدبي سواء كان قصة أو رواية (بيلينيو ميندوثا ، حوارات مع جابرييل جارثيا ماركيز ص ٨٦)

فالواقعية السحرية عند هذا الروائي العالمي الذي تميز بشدة الخصوبة ، واتساع الخيال ، والثراء والتنوع لها روافد كثيرة ومتنوعة ولكن الأهم من ذلك هو تلك العقلية الفذة والعبقرية المبهرة وذلك الخيال الخلاق الذي استطاع ببراعة واقتدار أن يقدم لنا من كل هذا الرؤى والروافد والخيالات والأفكار أعمالاً إبداعية خالدة تُرجمت لأهميتها إلى كل لغات العالم تقريبًا وليس فيها عملٌ واحد يمكن أن يُقال عنه إنه دون المستوى أو أصابه الوهن والضعف أو جاء مخيبًا للآمال .

ماركيز وجائزة نوبل :

منحت الأكاديمية السويدية جائزة نوبل في الآداب يوم الخميس الموافق ٢١ أكتوبر عام ١٩٨٢ لأديب كولومبيا العالمي جابرييل جارثيا ماركيز دون أن يُصاب أحد بالدهشة أو الاستغراب فقد اقترن فوزه لهذه الجائزة بالاستحسان خاصة وأنها كان قد

ضلت طريقها فى الأعوام الثلاثة الماضية حيث منحت لكتاب مغمورين لم يقرأهم أحد ولن يقراهم أحد وذلك لكى تلفت الأكاديمية المانحة للجائزة الأنظار لهم. وهذا ما عبر عنه أديب أوروجواى الأشهر خوان كارلوس أونيتى. وعلى الرغم من صغر سن جارثيا ماركيز نسبياً عند حصوله على الجائزة (٥٤ عاماً) إلا أن شهرته قد جابت الآفاق وذا ع صيته فى مختلف أرجاء الكرة الأرضية فقد ترجمت روايته "مائة عام من العزلة" إلى مختلف لغات العالم كما طبع منها أكثر من خمسة ملايين نسخة حتى ذلك الحين كما أن "نبأ موت معلن" آخر قصة صدرت له فى عام ١٩٨١ بلغ عدد نسخ طبعتها الأولى مليون نسخة (دراسات فى أدب أسبانيا وأمريكا اللاتينية للدكتور حامد أبو أحمد ص ١٩٣) .

لقد حصل جابرييل جارثيا ماركيز على جائزة نوبل فى الآداب عن جدارة واستحقاق إلا أنه وهو أمر مهم للغاية نصير القضية العربية ويقف إلى جانب الحق العربى لذلك نجده يُطالب فى مقال له نشرته صحيفة الباييس فى أواخر سبتمبر أو أوائل أكتوبر ١٩٨٢ تحت عنوان "جائزة نوبل للموت لبيجين وشارون" قبل فوزه بالجائزة العالمية بثلاثة أسابيع تقريباً تحدَّث فيه عن جائزة نوبل للسلام التى مُنحت ظلماً وعدواناً للإرهابى.

د. صبرى محمدى التُّهامى زيدان

مصر الجديدة فى ٥/١١/٢٠٠٤

المراجع

١ – بيلينيو مـيندوثا "حوار مع جـابرييل جـارثيـا مـاركيـز" دار نشـر بروجيـرا ، الطبعة الثانية مدريد ، ١٩٨٢ .

٢ – د. حامد أبو أحمد ، "الواقعية السحرية"دار سندباد للنشر والتوزيع ،٢٠٠٢ .

٣ – د. حـامد أبو أحمد ، "دراسات فى أدب أسبانيا وأمريكا اللاتينية" ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٣ .

٤ – د. حامد أبو أحمد ، "دراسات فى الأدب المقارن" القاهرة ، ٢٠٠٣ .

٥ – داسـو سـالديار ، جـارثيـا مـاركيـز "رحلة إلى الجذور" دار نشـر الفاجـورا ، مدريد ، ١٩٩٧ .

٦ – جابرييل جـارثيا ماركيز "أن تعيش لتحكى" ترجمة وتقديم د. طلعت شاهين ، سنابل للنشر والتوزيع ، مدينة ٦ أكتوبر ، مصر ، ٢٠٠٣ ، الطبعة الأولى .

٧ – مـاريو بارجـاس يوسـا ، جـارثيـا مـاركيـز "قـصـة متـمـرد" ، دار نشر باراًل ، برشلونة ، ١٩٧١ .

شكر وامتنان

فى عمل ضخم ومتعدد الأطوار كما هو الحال فى السيرة الحياتية ؛ فإنَّ المؤلف لا يعدو كونه ناسخًا لكثير من معاونيه الذين لا غنى عنهم بالنسبة له ، يُعتبر من الإنصاف الجوهرى والامتنان والعرفان أن نبرهن على كرم إسهام هؤلاء .

لذلك فإنَّ أدلَّ امتنان أقدمه لجابرييل جارثيا ماركيز ليس فقط لأنَّه جعلنى أرتاح للكتابة عنه دون أدنى قيد – كما لو كان ميتًا – بل أيضًا لمساعدته إيَّاى على مدى أمسيتين طويلتين لترتيب وإيضاح الأحداث المعقدة وغير الموثقة جيداً على مدى العشرين عامًا الأولى من حياته. وفى هذا الصدد ، كانت إسهامات والدته حاسمة أيضًا السيدة/ لويسا سانتياجا ماركيز إيجواران (التى أوضحت لى كذلك ووسَّعت معلوماتى حول اللحظات الجوهرية لخطوبتها وزواجها من موظف التلغراف فى أراكاتاكا جابرييل إيلخيو جارثيا ماركيز) ، وحول أشقائه وشقيقاته لويس إنريكى ومارجوت وعايدة وليخيا وجوستابو وخايمى وإيلخيو جارثيا ماركيز . لقد تكفَّل لويس إنريكى وليخيا مراراً وتكراراً بأن يوضحا لى التواريخ وصلات القرابة والنوادر. ولقد كانت ليخيا بحق مؤرخة الأسرة ؛ فهى بالإضافة إلى ابنة عمها مارجريتا ماركيز ، التى أمدتنى بمعظم المعلومات عن أشجار النسب. أمَّا خايمى فقد زودنى بوجهة نظره الثاقبة عن كل فرد من أفراد أسرة ماركيز . وبالنسبة لعايدة ، فقد بدأت حوارى معها فى كبكبانا وأنطيوكيا فى أكتوبر عام ١٩٧٢ عندما كانت تعمل راهبةً . وبعد ذلك بعشرين عامًا ظلَّت تحدثنى لإثراء بعض الجوانب التى كنا قد تطرقنا إليها فى محادثتنا الأولى وكأن عجلة الزمن قد توقفت.

وعلى الرغم من كل ذلك ما كنت أستطيع الانتهاء بشكل موَّسع ومقنع من طفولة الكاتب ، ولا من إعداد تخيلٍ نظرى للمنزل الذى وُلِدَ فيه لولا الإسهام النهائى من جانب

سارة ماركيز ابنة عمِّ القصاص التى نشأت معه هى ومارجوت طيلة عشر سنوات ، إنها بذاكرتها القوية دون ثغرات لم تضع النقاط على الحروف فقط - حيث تفادت بعض الأمور الزائفة عن طفولة الكاتب التى تجوب العالم - بل أيضًا رسمت لى أفضل الصور للأجداد والعمّات والمنزل. كما كانت إيضاحات العمة مارجوت بالديبلانكيث جوهرية ؛ فقد كانت راوية شفهية حقيقية حيث عرّفتنى بالعديد من الجوانب الأساسية فى حياة الأجداد وفى طفولة الكاتب. وقد كان مسك الختام بالنسبة للمنزل الذى شهد ولادة الكاتب يرجع الفضل فيه إلى مساعدة المهندس المعمارى جوستابو كاستيون ليشيرو ، وهو مؤلف مشارك لأطروحة عظيمة عن ذلك المنزل . وقد قضيت معه أسبوعًا فى أراكاتاكا من التنقلات والبحث والبراهين لإكمال تحرياتى الأولى التى بدأتها فى مطلع وأواسط السبعينيات.

ولم تكن أقل أهمية دردشاتى مع روسا إيلينا فيرجيسون مُدرّسته التى علّمته القراءة ، وغرست فيه هواية الشعر فى أمسيات مدرسة مونتيسورى . وقد أمدنى لويس كارميلو كوريّا جارثيا صديق ولادة الكاتب برؤية واسعة عن التلميذ جابيتو : ألعابه وعاداته الغريبة وهواياته ، وكذلك عن جوانب مهمة من تاريخ أراكاتاكا ، وعن مزارع الموز ، وبعض شخصياته مثل خالدة الذكر خوانا دى فريتيس ، والثرى الهائل أنطونيو داكونتى فاما.

وإزاء نقص الأرشيفات شبه المطلق كان كل من لورينثو سولاند بيلايث ، وجراثيانو بريتو وإيتايل وكليمينتينا سالتارين يمثلون مصادرى الرئيسية فى بارّنكاس كريمة الضيافة لكى أتعمق فى الفترة الريفية لأجداد جارثيا ماركيز ، وكذلك عن المبارزة التى اضطر فيها العقيد نيقولاس ريكاردو ماركيز ميخيا إلى قتل صديقه ميدرادو باتشيكو روميرو برصاصتين فى ذلك المساء المطير يوم التاسع عشر من عام ١٩٠٨ .

كما كان الشاعر كارلوس مارتين والمهندس المعمارى إدواردو أنجلو فلوريس ، وأخصائى المسالك البولية أرماندو لوبيث ، والطبيبتان جلاديس وثونى كالديرون نجلتا الأستاذ كارلوس خوليو كالديرون إيرميدا وماريا لويسا نونيث ، وماريا جوميث دى أجيرّى زوجة ونجلة المحامى أدولفو جوميث تامارا على الترتيب ، كانوا جميعًا بتصريحاتهم

ووثائقهم التى أمدونى بها وإضافاتهم وتصويباتهم التى لا غنى عنها لاستعادة السنوات الأربع النهائية لجارثيا ماركيز التى قضاها فى ثيباكيرا. ومع ذلك فإنَّ النشاط الأدبى والصحفى للشاب طالب الثانوى ذى السبعة عشر ربيعًا كان سيظل ناقصًا بدون الإسهام الهائل الذى قدَّمه لى كارلوس مارتين: نسخة من العدد الأول من " المجلة الأدبية " تلك الصحيفة التى أصدرها القصاص مع رفاقه فى مدرسة الليسيه الوطنى للبنين فى ثيباكيرا.

كما كان الإسهام الكبير للويس بيار بوردا وجونثالو مايارينو صديقيه وزميليه السابقين عن العامين الدراسيين اللذين عانى خلالهما الكاتب بكلية الحقوق فى بوجوتا ، واللذين تصادفا مع البداية الواثقة لمسيرته الأدبية . وكان بيار بورد مراسلاً غزير الإنتاج ومدققًا فى أدنى التفاصيل ، فضلاً عن سخائه فى استعادة القصيدتين اللتين كان قد نشرهما بالاشتراك مع كاميلو توريس والمنشورتين فى ملحق صحيفة "العقل" فى منتصف عام ١٩٤٧ ، كما تحلَّى بالصبر كلٌ من ألفونسو فوينمايور وجوستابو إيبارًا ميرلانو وراميرو دى إسبيريا ومانويل ثباتا أوليبيا وألبارو موتيس ورفائيل إسكالونا وخوان ثباتا أولببيا فى مساعدتى فى تنقية وتصحيح واستكمال المعلومات الهائلة الخاصة وغيرها عن فترتى كارتخينا وبارَّانكيا، وهما الفترتان الأساسيتان فى التأهل وهما فى التأهل اللتان بدأ خلالهما جارثيا ماركيز يصبح حقيقة جارثيا ماركيز . أمَّا ألفونسو فوينمايور فقد استكمل دردشتنا الأولى بمراسلات سخية حتى وفاته فى سبتمبر ١٩٩٤ . وتحمَّل إيبارا ميرلانو على مدى عامين تحرِّياتى الأدبية حتى استطعنا -معًا- التحقق دون أدنى شك من مكان وسنة وتقريبًا التاريخ الدقيق الذى أنهى فيه صديقه الرواية الأولى " الورقة الساقطة" ، وهو أمر أساسى للتمكن من إيضاح سلسلة كاملة من الأحداث المتلاحقة زمنيًا . وقد أشار علىَّ مانويل ثباتا أولببيا ورفائيل إسكولانا بلحظات ذات مغزى فى مختلف الأسفار التى قام بها الروائى من أراكاتاكا فى مطلع الخمسينيات إلى بايدوبار وجواخيرا بحثًا عن الجذور الأصلية لذاكرته.

وبالنسبة للفترة الطويلة المهمة التى تبدأ من يناير ١٩٥٤ عندما وصل جارثيا ماركيز إلى جريدة الاسبكتادور " المشاهد" حتى مايو ١٩٦٧ التى نشر فيها " مائة عام من العزلة " فى بوينوس أيرس ، فإننى مدينٌ بإسهامات جوهرية لأشخاص كثيرين

ولكن يجب أن أعترف مع مزيدٍ بالاعتراف بالجميل بأنَّ أحدًا لم يكن شديد الكرم معى ، وصبورًا وفيَّاضًا بمثل ما كان ألبارو موتيس ، معلم كويو ، وهو عند الكثيرين من أعزَّ أصدقاء جارثيا ماركيز وأكثرهم حميمية ، وفى حالتى أيضًا فقد كان من حسن حظى أن أنهل من ذاكرته وبصيرته وكرمه خلال الإعداد المضنى لهذه السيرة الحياتية . فبفضله استطعت أن أرى بشكل أفضل لحظة وصول ودخول كاتبنا إلى الصحيفة البوجوتية " المشاهد" ثم سفره إلى أوروبا وجهده الجهيد فيها ووصوله واستقراره فى المكسيك ؛ تلك السنوات الصعبة التى سبقت " مائة عام من العزلة"، والشهور التى لا تُنسى لكتابتها ولحظات المجد الأولى بعد اجتياز الصحراء.

وقد تعمقت فى المعلومات والإيضاحات حول فترة كان قد درسها جال جيرالد وبيدرو سوريلا مع كلٍ من الصحفيين خوسيه سالجار وألبرتو ثالاميا . واستطعت بفضل المثَّال رودريجو أريناس بيتانكورت الاطلاع على طريقة عمل جارثيا ماركيز فى تحقيقاته عن مرحلة " المشاهد" ، وقد زودنى المخرج السينمائى فرناندو بيرّى بمعلومات قيِّمة عن الفترة التى درس فيها الكاتب السينمائى فى روما . وقد حكى لى ألبرتو أجيِّرى فى مدريد وميدايين قصة الطبعة الأولى لعمله: " العقيد لا يجد منْ يُراسله". كما حكى لى دانييل سامبر وخوسيه لويس دياث جرانادوس نوادر ومعلومات متفرقة غزيرة ودقيقة عن أوقات مختلفة ، كما زودنى كلٌ من أدريانو جونثاليث ليون وخوسيه فونت كاسترو بجوانب معينة عن فترة كاراكاس ، وكل من أنخيل أوخيير وإيلسيو ألبرتو دييجو أرشدانى لتذكّر وقائع عن الإقامة الأولى للقصاص فى هافانا خلال الأيام الأولى للثورة.

أمَّا عن استرجاع الفترة الطويلة الخصبة بالمكسيك وهى فترة الانفجار العظيم ، فلم تكن أقل أهمية وغزارة إسهامات كل من كارلوس فوينتيس وماريا لويسا إيليو وبيثينتى روخو وإيمانويل كاربايو ونانسى بيثينس وميرسيدس بارشا باردو وجونثالو جارثيا بارشا وخوسيه دى لا كولينا وكارمن بالثيلس ولويس كودوريير وأرتور ريبستين والأخير من خلال إدواردو جارثيا أجيلار ، وعن الفترة التى أعدا فيها السيناريوهات، وعندما كانا يحلمان بكتابة أعظم قصص القارة ؛ حدثنى كارلوس فوينتيس بالتواضع نفسه والسخاء اللذين تميز بهما ألبارو موتيس والدردشات مع ماريا لويسا إيليو التى أهديت لها " قصة مائة عام من العُزلة" ، وفيثنتى روخو ومانويل كاربايو إلى جانب

إسهامات ألبارو موتيس ، حيث كانت هى أهم ما مكننى من من استرجاع الأربعة عشر شهرًا التى استغرقتها كتابة قصة ماكوندو العظيمة " مائة عام من العزلة" بما صاحبها من صعوبات وشدائد.

وأخيرًا قدّم لى الناشر باكو بورُوا ووكيلة أعماله كارمن بالثيلس على مدى شهور معلومات مثرية وموضحة عن عقد الطبعة الأولى لقصة " مائة عام من العزلة" وطرحها فى الأسواق ، وكذلك عن العقود الأولى والترجمات إلى لغات أخرى.

ومن المراجع التى لا حصر لها ، والتى تَمرٌ وتم الرجوع إليها ، بدءًا من تلك التى تتضمن ترّهات المذكرات والحكايات والمقالات المضيئة ، ينبغى أن أبرز كل ما كان له دور أساسى فى عملى ؛ مثل أعمال ماريو بارجاس يوسا وبيلينيو أبوليو ميندوثا وجاك جيرالد وميتسشيل بالينثيا روته ولاثارو دياجو خوليو وإدواردو جارثيا أجيلار، الذين لولاهم لأصبحت هذه السيرة الحياتية المرهقة أكثر صعوبة وبطئًا وربما حُكِمَ عليها بالإعدام . ويمكن أن نقول كذلك على نحو ما بشأن القراءة الدقيقة والمتأنية والفنية للنص التى قامت بها مارتا كانفيلد كورنادو ثولوماجا وخوسيه مانويل كماتشو ديلجادو.

ولكن هذه التركيبة الهائلة من الأسئلة والرسائل الأدبية والمكالمات والأسفار والقراءات والاستدلالات طوال عشر سنوات لم تكن ممكنة بدون الحماس اليومى لرينا(*) ومساعدة وتفهم خيسوس ماريا أوسينا ومارجريتا ثولواجا والجهد الذى لا غنى عنه لكارمن بالثيلس ورفائيل ديل بوثو. ومع ذلك فإنَّ القائمة لا تنتهى هنا فقد كانت هناك إسهامات ومساعدات أثناء كتابة هذا الكتاب الذى بدأ بالحماس الشديد للناشر المحترف بالينتين ثباتيرو وانتهى بالحماس البديل ودون تحفظات لخوان كروث وتتسع القائمة لكل من إيدجار مونتييل وجوستابو بارجاس وأنطونيو جامونيدا وكارمن بوساداس وسانتياجو موتيس وإدوارد جارثيا أجيلار وبيدرو سوريلا ونارثيسو جايجو وإيرنستو سيرًا وجوستابو تاتيس جيرًا وخورخى جارثيا أوستا وأرتيلى ثيبيدا وبيكتوريا كولينار ومارتا باهوس وخوسيه سيبولبيدا.

(*) رينا Reina هى زوجة مؤلف الكتاب .

مدريد فى ١٣ أغسطس ١٩٩٦

" لن نتوقف عن الاكتشاف
وفى نهاية كل اكتشافاتنا
سيكون المآل إلى حيث بدأنا
ومعرفة المكان لأوّل مرّة"

ت . س . إليوت

" إن الذكرى الحية والباقية عندى
ليست للأشخاص ؛ بل
لنفس منزل أراكاتاكا الذى عشت فيه
مع أجدادى . وكل يوم أستيقظ
بانطباع زائف أو واقعى بأننى
قد حلمت أنى فى ذلك المنزل"

جابرييل جارثيا ماركيز

الفصل الأول

- العودة إلى الجذور .
- بارّانكاس : جذور الجذور .
- أسرة ماركيز إيرنانديث القادمة من أسبانيا .
- الصائغ المسالم نيقولاس ماركيز .
- حرب الألف يوم .
- العقداء لا يجدون منْ يراسلهم .
- المبارزة بين نيقولاس ماركيز وميدارادو باتشيكو .
- نزوح أسرة ماركيز إيجواران .

لعل الرحلة التى قام بها جابرييل جارثيا ماركيز برفقة والدته إلى أراكاتاكا عام ١٩٥٢[١] لبيع منزل الأجداد الذى وُلِدَ فيه هى ، كما كرَّر ذلك فى سنوات لاحقة ، كانت أهم الأحداث الحاسمة فى حياته الأدبية.

وعندما كان جارثيا ماركيز قصاصًا شابًا فى الخامسة والعشرين من عمره كان يعتقد أنَّ كل قصة جيدة تتحقق لها تلك الجودة وفقًا لشرطين متزامنين: أن تكون تعبيرًا شعريًا عن الواقع ، وأن تكون نوعًا من الأحجية المشفرة عن العالم. فمنذ خمس سنوات خلت كان يحاول إيجاد مخرج أدبى لعالم كوابيس طفولته فى حكايات " عيون كلب أزرق" ، وفى مسوَّدة قصبة لا شكل لها ولا نهاية عنوانها " المنزل" ، وفى طبعتين أو ثلاث لرواية " الورقة الساقطة" . ومع ذلك فإنَّ عودته إلى مسقط رأسه جعلته يرى أنَّه كان بمنأى عن تحقيق ذلك بالطريق الذى سلكه فى البداية[٢] . لقد أدرك أنَّه لكى يستعيد الزمن الماضى ، ولكى يصل إلى لُبِّ ما شاهد فى أراكاتاكا (من خراب وعزلة) كان يحتاج إلى منظور أكثر اتساعًا ، وبالتالى تحتم عليه العودة إلى ماضى طفولته والتوغل فى الزمن ، وفى القرى الريفية التى قَدِم منها أجداده لأمه.

وفى قطار العودة إلى بارَّانكيا التى أقام فيها عامين يكتب لصحيفة "الهيرالد Her-aldo" بدأ يسأل والدته عن أجداده: ومنْ هم فى الحقيقة ؟ من أين ومتى وصلوا إلى أراكاتاكا ؟ ومنْ هو ذلك الرجل الذى اضطر العقيد ماركيز أن يقتله فى مبارزة جرت منذ أربع وأربعين سنة ؟ ومنْ هم الذين أعادوا بناء أراكاتاكا إلى جانب أسرة ماركيز إيجواران اعتبارًا من عام المذنَّب هالى ؟.

وعندما عاد إلى بارَّانكيا لم يتخل فقط عن كتابة قصة " المنزل" أو يُعد مرة أخرى "الورقة الساقطة"[٣] بل شعر بضرورة الاستمرار كما فى قصة أليخو كاربينتير ورحلاته إلى الجذور ، أو بمعنى أدق إلى جذور : إلى أصل الأجداد ، ومن ثم كل ما حدث فى ذلك المنزل الذى قاما ببيعه، بدءًا من ولادته، وقد كان المنزل مرتبطًا بشكل أو بآخر بالمصير القديم لنيقولاس ريكاردو ماركيز ميخيا وترانكلينا إيجواران كوتيس.

وقد قام جارثيا ماركيز في العام التالي بزيارة أكثر دقة إلى باييدو بار ولا جواخيرا ، بينما كان يبيع أو يتظاهر بأنه يبيع موسوعات وكتبًا لدار نشر " أوتيها " بحثًا عن القرى والأماكن الكامنة في ذاكرة أجداده ، وقد سلك الطريق في الاتجاه المعاكس لما رسمه القدرُ لهم في نهاية العقد الأوَّل من القرن العشرين. وفي هذه السفرية الأساسية أو الأسفار الأخرى التي كان يقوم بها منذ بداية ذلك العقد كان يصحبه دائمًا صديقه ووالده عند التعميد رفائيل إسكالونا، " نجل شقيق الأسقف" ، الذي إلى جانب أنَّه عرَّفه بتعمق على جواخيرا فقد ساعده أيضًا على التأكد والتحقق من مسارح الأحداث والشخصيات لكثير من القصص التي كان قد حكاها أجداده في أراكاتاكا عندما كان طفلاً.

وذات يوم عندما كانا يتناولان بعض كئوس البيرة في الكانتين الوحيد بقرية لا باث[٤] " السلام" المجاورة لبايدوبار التقيا بخوسيه أركاديو: رجل طويل القامة قوي البنية وعليه قبعة راعي البقر وينتعل حذاءً طويلاً – يصل حتى الركبتين – لركوب الخيل واضعًا مسدَّسًا في خصره. وكان إسكالونا صديقًا لأركاديا فعرَّفه على جارثيا ماركيز . وقد مدَّ الرَّجل يده بقوة تنم عن حنان وود للكاتب وفي ذلك سأله أركاديا " هل له علاقة بالعقيد نيقولاس ماركيز؟". فقال له الكاتب إنَّه حفيده حينئذٍ تذكَّرَ الرجل جريمة أسرية. " لقد قَتَلَ جَدُك جدي"[٥].

كان يُدْعى ليساندرو بانشسيكو وبالتأكيد كان جد جارثيا ماركيز – واسمه نيقولاس ريكاردو ماركيز ميخيا اضطر لقتل جده – في مبارزة تحدٍ – ميدرادو باتشسيكو روميرو منذ خمس وأربعين سنة في قرية بارَّانكاس إحدى قرى جواخيرا. ومن باب الحذر والاحتياط أوعز إسكالونا إلى ليساندرو ألا يثير من جديد هذه القصة لأنَّ جابرييل لا يعرف عنها شيئًا ذا بالٍ ، ومتعللاً بهوايته ومعرفته للأسلحة الناريَّة أخذ المسدس من جرابه بحجة تجريب التنشين وأفرغ خزنته وترك رصاصة واحدة وقال: "سأثبت كيف أنشن اليوم"[٦]. وقد شجَّعه ليساندرو بارتياح أن يطلق كل الرصاصات التي يريدها ، وفجأة تبارى الاثنان في التصويب على الهدف. وعندما دعيا جارثيا ماركيز لكي يجرب التصويب رفض ، ولكن بين كل كأس وآخر من البيرة كان الكاتب يتابع المنافسة بين إيسكالونا وليساندرو.

لم يكن هناك داعٍ للتحفظ الذى التزم به الملحق الموسيقى الشهير : فقد أصبح الحفيدان صديقىّ لهو طوال " ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ" فى عربة نقل المهرّب ليساندرو باتشسيكو يتناولان براندى ساخنًا ويأكلان لحم ماعزٍ نصّف مسلوقٍ احتفالاً بذكرى جدّيهما المتوفيين(٧) ، وقد تنقلا بين قرى دائرتى ثيسار ولا جواخيرا: الكوبى وبايدوبار وماناورى وباتيال وأوروميتا وبيانوبيا وسان خوان دى ثيسار وفوسسيكا و بارّانكاس وريو هاتشا وألمانا ورى دى جواخيرى. وخلال هذا السفر النهائى أكْمَلَ جارثيا ماركيز عمله الميدانى حيث عَرّفه ليساندرو باتشيسيكو على العديد من الأنجال غير الشرعيين الذين تركهم جده نيقولاس ماركيز من قبل أشتاتًا خلال سنوات ضياع حرب الألف يوم الأهلية.

ولقد اضطر الحفيدان للتوقف – باهتمام خاص – فى قرية بارّانكاس الصغيرة حيث الضيعة الخفية لأجدادهما فى الأيام الخوالى مثل خوسيه أركاريو بويندِيا وبرودونثيو أجيلار قُبيل تأسيس ماكوندو. لقد عاش الجدان سعيدين حتى اضطر أحدهما إلى قتل الآخر فى مبارزة بينهما فى ١٩ أكتوبر ١٩٠٨ . ويمكننا الاتفاق على أنَّه فى ذلك المكان والتاريخ تبدأ سيرة جابرييل جارثيا ماركيز قُبيل ميلاده بتسعة عشر عامًا ، لأنَّ ما حدث أثناء مساء ذلك اليوم فى بارّانكاس سيحدد المصير الشخصى والأدبى للكاتب حيث لن يسمح فقط بأنْ يتعارف على والده بعد ذلك بست عشرة سنة ؛ بل أيضًا لكونه السبب البعيد فى بقاء جارثيا ماركيز ليعيش مع أجداده فى المنزل الكبير والوهمى فى أراكاتاكا ، وهو أهم حدث بالنسبة للقصاص الجديد.

وقد اختلفت بارّانكاس عن معظم قُرى لا جوا خيرا ، حيث كانت قرية ذات مظهر حديث ومزدهرة نسبيًا بفضل ضرائب منجم فحم الثيريخون. ومع ذلك فعندما وصل إليها أجداد الكاتب فى أوائل الحقبة الأخيرة من القرن التاسع عشر كانت قرية صغيرة لا حول لها ولا قوة ، ويبدو عليها أنها عانت من كوارث متعددة ونزاع دينى- إدارى أدى إلى وصول اسمها إلى مدينة الفاتيكان ذاتها.

وتقع بارّانكاس على الضفة الغربية لنهر رانشيريا فى وادٍ صغير بلا جواخيرا الداخلية بين الجبال المتفرعة من سلسلة مرتفعات سيرًا نيبادا دى سانتا مارتا والجبال الغربية المتفرعة من مونتيس دى أوكا ، ويمنحها هذا طبوغرافية مختلفة عن معظم

لاجواخيرا فضلاً عن السفوح السهلة والنباتات الخضراء الهادئة التى تسهم بعد وقت الزوال شديد الحرارة فى تلطيف المساء بفضل الرياح التى تنساب من سلسلتى الجبال الفرعية . وعلى الرغم من أنها أُسِستْ عام ١٦٦٤ بواسطة مُبَشرٍ إسبانى يُلَقَّب ببلانكو ، فمن من المرجح أن يرجع أصلها إلى الحصن أو الاستحكام الخشبى للعبيد الزنوج الهاربين بداية إلى كثير من القرى والمدن الكاريبية. فالهنود الحمر الذين ينحدرون من أراوكو فى شيلى استقروا هنا ونَمّوا ثقافتهم الزراعية حول الذرة والفاصوليا واليوكا.

وقد عاشت بارَّانكاس من الناحية العملية فترة رَعويَّة حتى عام ١٧٤٦ عندما عاصرت أوَّل هَوْلٍ أو فزع فى تاريخها ، حيث عنَّ للأسقف المتعَسف القادم من ريوهاتشا خوان نييتو بولو ديل أجيلا أنَّ يمنحها درجة الأبرشية مخالفًا بذلك مرتبتها الإدارية ومتعدياً دائرة اختصاصه. وقد وصلت الدعوى القضائية بين الأسقف وعمدة ريو هاتشا إلى الفاتيكان الذى قضى لصالح أسقفه مما اضطر السلطة المدنية إلى منح بارَّانكاس منزلة مصطنعة كمركز أو كبلدية.

وبعد اثنين وعشرين عامًا واعتبارًا من تمرد الهنود ، وبعد معركة بارَّانكاس التى وقعت أثناء الاستقلال دخلت القرية مرحلة تدهور بطئ فى البداية ، ثم اتسم بالسرعة المتناهيةعام ١٨٦٠ من جرَّاء النزوح الجماعى لأهالى قرية مورينو المجاورة التى دُمِرَت فى إحدى المواجهات الحربية المتأصلة فى المنطقة[٨].

وعندما وصل القصاص خورخى إساكس عام١٨٨١ بغية دراسة واكتشاف حقول الفحم فى الثيريخون ، كانت كارثة بارَّانكاس – على ما يبدو – قاربت النهاية ، ولكن المغامرة الأدبية السعيدة لمؤلف ماريا لم تكن أكثر من مصيبة فى المضمار التجارى. لقد عيَّنه الرئيس رفائيل نونيث أمينًا عامًا للبعثة العلمية المكلفة لهذا الغرض ؛ فقد سبق أنَّ كُلفَّ إساكس باكتشاف مناجم الفحم الحجرى فى أراكاتاكا، وقد استطاع أنْ يجمع شركاء إنجليز وتكنولوجيا إنجليزية للبدء فى استغلال المناجم البارَّانكية. وعلى وجه السرعة تم مد أول خطوط السكك الحديدية بين بارَّانكاس ريو هاتشا. ومع ذلك ، وكما حدث للقصاص فى مرَّات أخرى ؛ فقد باء مشروعه بالفشل وأُجِّلَ طوال مائة عام[٩].

وهكذا عندما وصل أجداد جارثيا ماركيز قادمين من ريو هاتشا فى مطلع العقد الأوّل من القرن العشرين لم تكن بارًانكاس فقط فى مرحلة تدهور وانهيار ؛ بل كانت أيضًا قد فقدت منزلتها بوصفها مركزًا أو بلدية ، لتعود خلال بعض الوقت لتتبع قضاء بلدية فونسيكا المجاورة. ومع ذلك فقد بدت لأسرة ماركيز إجواران كأنها فردوس الخضرة والسلام والأمان والهدوء مقارنة بمدينة الشمس والتراب والبارود التى تركتها.

وُلِدَ ريكاردو ماركيز ميخيا فى السابع من فبراير عام ١٨٦٤ فى ريو هاتشا ، ولكنه نشأ بعيدًا عنها فى الكارمن دى بوليبار مع جدته لأمه خوسيفا فرانثيسكو بيدال ولم يعد إلى مدينة مولده حتى السابعة عشرة من عمره ، حيث تعلم فن صياغة الفضة من والده نيقولاس كارمن ماركيز إيرنانديث. ولم يُعْرف سوى القليل عن مرحلتى طفولة جد جارثيا ماركيز وشبابه فهو – إلى جانب ريو هاتشا – قد عاش فى كمارونيس ولم يستطع إنهاء سوى المرحلة الابتدائية فقط ، حيث إن الفقر منعه من دراسة الثانوية فقد أُرسِلَ للعمل فى كور الحداد مع والده وهو لا يزال صبيًا صغيرًا(١٠) ، وبعد أن رُزق نيقولاس ماركيز بابنين غير شرعيين من ألتاجراثيا بالديبلانكيث تزوج وهو فى الحادية والعشرين من عمره بفتاة محترمة من ريو هاتشا كانت نجلة عمته أو خالته وتُدعى ترانكلينا إجواران كوتيس المولودة فى الخامس من يوليه عام ١٨٦٣ ، وتنحدر من أصول جاليثية كانوا قد وصلوا إلى لاجواخيرا الكولومبية قادمين من فنزويلا. وبعد زواجه بقليل رحل نيقولاس إلى بنما حيث عمل بضعة أشهر إلى جانب عمه خوسيه ماريا ميخيا بيدال وعاد إلى موطنه بعد قليل من ولادة نجله البكر خوان دى ريوس فى عام ١٨٨٦ . وبعد ذلك بثلاثة أعوام رُزق فى ريو هاتشا بنجلته الثانية مارجريتا ، بينما وُلِدَت أم الكاتب لويسا سانتياجا فى بارًانكاس فى الخامس والعشرين من يوليه ١٩٠٥ .

أما جَد والـدة القصاص نيقولاس ديل كارمن ماركيز إيرنانديث فكان قد وُلِدَ فى ١٨٢٠ فى كاستيا (قشتالة) مثل والديه نيقولاس ديل كارمن ماركيز وخوانا إيرنانديث. وعندما ترملت هذه سافرت إلى كولومبيا قادمة من الأندلس وكناريا مع نجلها الصغير الذى لم يتجاوز عمره بضع سنوات فى منتصف تلك الحقبة. واستنادًا إلى والدة جارثيا ماركيز فإنَّ جدَّها ماركيز إيرنانديث عرف سيمون بوليفار وهو فى

العاشرة من عمره عندما قام المحرر عام ١٨٣٠ برحلته الطويلة صوب الموت عبر نهر ماجدلينا. والحقيقة أنه عندما كَبُرَ جد والدته أصبح صائغًا ماهرًا للفضة؛ تلك المهنة التى لقنها لنجله. وقد رُزق - مثل نجله - بالعديد من الأبناء غير الشرعيين فى ريوهاتشا ومعظمهم من خوانا ألاركون وهى من لاجواخيرا. وبعد ذلك تزوج بلويسا خوسيفا ميخيا بيدال، التى رُزِق منها بأربعة أبناء نيقولاس ريكاردو جد الكاتب، وأرماندو، وفرانثيسكو وروينفريد ماركيز ميخيا الشقيقة التى سترافق نيقولاس ريكاردو حتى الموت. أمًا الأرملة جدة جارثيا ماركيز، وهى خوانا إيرنانديث دى ماركيز فقد وجدت حبها الثانى بلاس إيجواران فى ريو هاتشا ورُزِقت منه بكريمتها روسا أنطونيا إيجواران إيرنانيث فى ١٨٢٧[١١] التى كانت أختًا غير شقيقة لجده نيقولاس ديل كارمن ماركيز إيرنانديث. وقد أنجبت روسا أنطونيا ثلاثة أبناء غير شرعيين من أجُستين أنطونيو إيجواران كوتيس: ترانكلينا جدة القصاص وروسا أنطونيا وخوسيه أنطونيو إيجواران كوتيس. وهكذا فبفضل والدة الجدة القشتالية التى وصلت إلى كولومبيا من جزر الكنارى فى سنة غير معروفة على وجه التحديد خلال العقد الثالث من القرن التاسع عشر؛ فبفضلها كان أجداد جارثيا ماركيز أبناء عمومة مثل خوسيه أركاديو وأورسولا إيجواران فى " مائة عام من العزلة".

وعلى غرار ما كان والده فى ريو هاتشا؛ فقد أصبح الجد نيقولاس ريكاردو صائغًا شهيرًا فى بارًانكاس. وفى منزله الكبير الواسع ذى الأبواب والنوافذ التى تكثر فيه من جهاته الأربع، والكائن بناصية الميدان المواجهة للمدافن كانت له ورشته مع شريكه أويخينيو ريوس الذى أحضرهُ من ريو هاتشا وهو لا يزال غلامًا فقد كان شقيقه من جهة الأم لفرانثيسكا تيموتوسيا ميخيا ابنة العم المحبوبة التى نشأ معها نيقولاس فى الكارمن دى بوليبار، وهى السيدة التى طوال كثير من السنوات اللاحقة سترعى جارثيا ماركيز فى أراكاتاكا. وكانت الجدة ترانكلينا تساعد أيضًا فى اللمسات الأخيرة بورشة الصياغة، حيث كانت ترصع المجوهرات بالياقوت وتنظفها وتلمعها. ولكن بينما كان العقيد أوريليانو بوينديا يقوم بتصنيع حُلى من الذهب على شكل أسماك صغيرة كان الجد يصنع فى بارًانكاس جميع أنواع الحُلى والمجوهرات: الخواتم، والأقراط، والأساور، والسلاسل وحُلى على شكل حيوانات صغيرة. ومع ذلك

فبعد نشر "مائة عام من العزلة" كانت أكثر المعروضات التى يقدمها الورثةُ من هذه المجوهرات السمكات الذهبية ، وخاصة هؤلاء الورثة من الأبناء غير الشرعيين للجد الذين كانوا يعلمونهم بارتياح حمل شعار الأسرة والمدينة التى تضمنتها شجرة نسب الكاتب المتفرعة والمتشعبة(١٢).

واشترى نيقولاس ماركيز – بسرعة فائقة – ضيعة جواسيمو فى أراضى والده عند التعميد بينيسيو سولانو بيدال فى المرتفعات المتفرعة من سلسلة جبال سيراً نيبادا دى سانتا مارْتا ، وبعد ذلك اشترى ضيعة الإستمو فى ضواحى القرية على ضفاف نهر رانشيريا(١٣). ومثل كثير من أُسَر بارًانكاس التى كانت تقوم بزراعة سفوح جبال مونتيس دى أركا بالذرة والفاصوليا واليوكا والموز والبن وقصب السكر الذى كان يُصنع من عصيره فى معمل تقطير منزلى للمسكرات مشروب الشيرنيشى وهو روم غليظ القوام كان يتم تسويقه عن طريق التهريب.

وبهذه العوائد الاقتصادية السخية لم يكن لدى نيقولاس ماركيز ميخيا وترانكينا إيجواران كوتيس سوى ثلاثة أنجال من زواجهما : خوان دى ريوس ومارجريتا ولويسا سانتياجا والدة الكاتب ، وقد حظى نيقولاس بشهْرة كبيرة على الصعيدين الشخصى والمهنى بين أهالٍ مسالمين ومتكافلين ، وفيما يبدو أنه وزوجته قد وجدا فى بارًانكاس المتدهورة فردوس النضج والأمن والشيخوخة الهادئة. ولكن حرب الألف يوم والمبارزة بين نيقولاس وميدرادو كانتا بمثابة وبائين من العصور الوسطى ألمَّا بهما فى غضون ثمانى سنوات فقط أفسد عليهما مشروع حياتهما الهادئ ، وحولا الجد إلى رجل حزين يؤرقه تأنيب مرعب للضمير وستظهر قصصه بعد ذلك بثلاثة عقود لتحدد المصير الأدبى لحفيده بأراكاتاكا. ،

سمع الطفل جابرييل من جده ألف حكاية وحكاية عن الحرب عندما كانا يسيران فى شوارع أراكاتاكا ، أو عند مرورهما بمزارع الموز لكى يستحما فى تُرَع جِبال سيراً نيبادا دى سانتا مارتا تلك الحرب التى بدأت فى ١٧ أكتوبر ١٨٩٩ ، عندما قاد الزعماء الليبراليون رفائيل أوريبى أوريبى وبينخامين إيريرا وجابرييل سانتوس الكفاح المسلح ضد النظام الفاسد والمستبد المحافظ DE LA REGENERACIÓN (للإصلاح) برئاسة مانويل أنطونيو سانكليمنتى البالغ من العمر ثمانين عامًا آنذاك.

إنَّ تاريخ كولومبيا – مثل معظم دول أمريكا اللاتينية – تاريخٌ ملئ بالحروب الأهلية حتى قبل ميلاد الجمهورية بها. فقد نشبت الحرب الأولى عام ١٨١٣ بعد الاستقلال بست سنوات ، وقد مثلت وقت الذروة للفترة المعروفة باسم لا باتريا بوبا "الوطن الساذج" من ١٨١٠ إلى ١٨١٦. فالصراع بين نموذجين للدولة: المركزى والفيدرالى كان السبب المشترك للحروب العشرين الأهلية العامة والإقليمية المعلنة وغير المعلنة التى عانت منها كولومبيا طوال القرن التاسع عشر. وقد كان واضحًا أنَّ ما وراء هذه الصراعات بين المركزيين والفيدراليين فى نهاية الأمر هو النزاع بين نموذجين للمجتمع: المحافظ الرجعى القائم على البقايا الاستعمارية ؛ الذى كان يناصره ويؤيده مُلاك الأراضى والمصدرون الزراعيون من المحافظين ، والليبرالى المناهض للكنيسة الذى يؤيد التنوير الفرنسى والذى كانت تنادى به الطبقة المتوسطة الصناعية والتجارية الناشئة .

واعتبارًا من النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبين حرب وأخرى ؛ فإن طبقات وجماعات المجتمع الكولومبى قامت بعدة تنقلات وتفاعلت فى نسيج اجتماعى مُعَقَّدٍ وسياسى واقتصادى حتى حدوث التواطؤ الكبير بين الحزبين المتمثل فى نظام الإصلاح الذى هيمنت من خلاله الأرستوقراطية الليبرالية المحافظة على الدولة لخدمة مصالحها الخاصة ، حيث همَّشت وقمعت بوحشية أىَّ ردٍّ فعلٍ لأحزاب وجماعات المعارضة.

وقد تزَّعم نزعة الإصلاح هذه الليبرالى المستقل رفائيل نونيث والمحافظ الوطنى ميجيل أنطونيو كارو. لقد كان حكمًا مهيمنًا على كل شىء طوال ثلاثين عامًا بدأ فى ١٨٧٨ للتصدى للإقطاعية الليبرالية المتشددة التى أثبت مشروعها للدولة مرارًا وتكرارًا أنه ليس ممكنًا من الناحية العملية فى مجتمع متمزق مثل المجتمع الكولومبى خلال القرن التاسع عشر. لقد كان أنْصار النزعة الإقطاعية يدافعون بصفة عامة عن استقلالية حقيقية للولايات الفيدرالية عن السلطة المركزية وتحديث الدولة صناعيًا وتجاريًا وتعليميًا واستقلالية كل من السلطتين القضائية والتنفيذية والفصل بين الدولة والكنيسة. وكانت هذه النزعة تتمثل فى الطبقة الزراعية والصناعية المتوسطة الأكثر تقدمية بالبلاد ، وكانت تضم ذوى الفكر الحر المناهض لرجال الدين. وفى المقابل ؛ كان المحافظون القوميون والليبراليون المعتدلون لحركة الإصلاح الذين تولَّوا الحكم بمقتضى

دستور ١٨٨٦ والاتفاقية البابوية لعام ١٨٨٧ ، وقد وضعوا حيز التنفيذ مشروع دولة مركزية شديدة القسوة . وقد تركوا المصالح الاقتصادية للدولة فى أيدى رأس المال الأجنبى ، وفرضوا زراعة واحدة وهى البن الذى كثيراً ما جلب الازدهار والمصائب للاقتصاد الوطنى ، ووضعوا كولومبيا فى ظل الرعاية الروحية والأيدولوجية للكنيسة ، حيث ردّوا إليها الإشراف على التعليم(١٤).

وعلاوة على ذلك ؛ فإنَّ حكومة الأقلية الثنائية لحركة الإصلاح فرضت ازدواجيتها الفكرية والأدبية. ولم يكن زعماء الإصلاح المهيمنين على السلطة والإدارة العُليا فى كولومبيا فقط ، بل كانوا - هم أنفسهم - المفكرين والمؤرخين والجغرافيين ، وعلماء فقه اللغة والنحويين والشعراء مثل" ماما الكبيرة" فى ماكوندو ، وكانوا أيضًا أصحاب الكلمة فى تنقية اللغة وتخليصها من الشوائب ، وكانوا كذلك المهيمنين على الفكر والخيال . وبالفعل كانت الصورة القميئة التى وصل إليها النظام أحد الشياطين التاريخية التى ستخدم جارثيا ماركيز لإبداع شخصية " الأم الكبيرة" بسلطتها المهيمنة على كل شيء ، الغريبة ، المتخلفة زمانيا.

لقد تزامن تدهور حكم الإصلاح مع واحدة من أسوأ أزمات البن فى أواخر القرن التاسع عشر. حيث تمتع البن بارتفاع فى أسعاره خلال عقد كامل ، ولكن سرعان ما بدأ سعره فى التراجع لأسباب داخلية وخارجية ، مما أثّر بشكل خطير على العوائد الجمركية لحكومة ميجيل أنطونيو كارو ، مما أدى إلى قيامه - فى المقابل - بفرض حصص ضريبية باهظة على الليبراليين والمحافظين فى صفوف المعارضة ، الذين يطلق عليهم اسم التاريخيين. إنَّ هذه الأزمة الاقتصادية أدت إلى تعزيز وتقوية عيوب حركة الإصلاح الحاكمة: اضطهاد الطبقة المتوسطة الصناعية ، التجارية واستحالة وصول الليبراليين إلى مجلس النواب من خلال انتخابات حرة (ففى نهاية الأمر لم يكن لهم سوى نائب واحد تمثل فى أوريبى أوريبى ، الذى حصل عليه خلال الحرب الأهلية الأخيرة فى ١٨٩٥). تعسف الحكومة فى إصدار أوراق نقدية (شهادات اكتتاب) إجبارية للتلاعب بالجهاز الانتخابى لصالح مرشحى النظام الحاكم ، وتفشى السرطان اليومى للفساد والاختلاسات من الأموال العامة(١٥) .

وفى هذا الإطار من الطغيان والتفكك المتزايدين ، فإنَّ الفتيل الذى أشعل "حرب الألف يوم" تمثَّل فى المهزلة الانتخابية التى أجريت فى ٥ ديسمبر١٨٩٧ ، والتى تكررت عدة مرَّات طوال تاريخ كولومبيا وسَيُخلِّدها جارثيا ماركيز فى " مائة عام من العزلة" .

لقد كانت هذه الحرب - بلا ريب - أكثر الحروب قسوة ودموية فى تاريخ كولومبيا حيث خَرَّبت البلاد تمامًا شعبًا وإنتاجًا وبنية أساسيةً ، وتركت الوعى القومى مليئًا بالأحقاد والانقسامات ، والظلم لكى يصبح فى النهاية العدوان اللدودان التاريخيان الليبرالية والمحافظين - وبشكل ساخر - الوجهين الشريكين لنفس العملة السياسية ؛ ففى كولومبيا كما يقول العقيد أوريليانو بويندیا : "إنَّ الفارق الوحيد بين الليبراليين والمحافظين أنَّ أولئك يذهبون إلى قُدَّاس الساعة الخامسة ، وهؤلاء إلى قُدَّاس الساعة الثامنة"

ولم تذكر كتب التاريخ التى تناولت "حرب الألف يوم" حتى اسم جد جارثيا ماركيز ، وبالتالى فقد اضطررنا للتعمق فى غابة المذكرات المتشابكة والمبعثرة ، وكتب الأخبار ، والملاحظات ، ورسائل رفقاء السلاح لكى نتحقق من أنَّه كان يحارب فى قوات الجنرال رفائيل أوريبى أوريبى تحت قيادة الجنرال كولدو هيرو كاستيو فى مقاطعات ماجدلينا والثيسار ولاجواخيرا . وكان جد الكاتب يحمل رتبة العقيد منذ الأيام الأولى للحرب بكل فخر واعتزاز حتى وفاته . وكما هو الحال فى " العقيد لا يجد منْ يراسله" كان سيظل منتظراً طوال حياته معاش الحرب الذى وعدت به الحكومة المحاربين المحنكين. ولم تكن هذه مصيبته الوحيدة : فلقد كان على وشك الأسر والإعدام مع رفاقه (أحدهم هو ميدرادو باتشيكو روميرو الرجل الذى اضطر إلى قتله فى مبارزة بعد بضع سنوات) فى عملية غاية فى المخاطرة. وفى بعض المعارك لم يجد أمامه فقط أقارب زوجته فى أسرتى كوتيس وإجواران ؛ بل أيضاً أنجاله الكثيرين غير الشرعيين مثل خوسيه ماريا وكارلوس ألبرتو بالديبلانكيث ماركيز اللذين كانا ينتميان إلى حزب المحافظين بوصفة ميراثًا أيديولوجيًا من جهة الأم. ولذلك فقد كانت كل معركة من هذه الحرب معركة بين الأباء والأبناء والأعمام والأخوال ، وأبناء الأخوة والأخوات بين أولاد العمومة ، وحتى بين الأشقاء أنفسهم.

فقد اضطر نيقولاس ماركيز هو وأتباعه - فى بداية الحرب - دون اتجاه واضح ، ودون أسلحة ، ودون تدريب إلى الاحتماء فى سفوح سلسلة جبال سيراً دى سانتا

مارتا ، وجبال دى أوكا واقتصروا على الاعتداءات العشوائية على جيش العدو. ولكن مع تلقيهم لأول مساعدة فنية خرجوا من مخابئهم وحققوا بعض الانتصارات السهلة مثل احتلال ريو هاتشا فى نوفمبر ١٨٩٩ ، وفى الواقع إنَّ هذا يرجع إلى أنَّ خوان مانويل إيجواران (ابن عم جدة الكاتب) ورجاله كانوا قد انسحبوا إلى باخارو ؛ البلدة المجاورة ، بينما المحافظون التاريخيون كانوا يقررون الانضمام من عدمه إلى صفوف القوميين من حركة الإصلاح فى الحرب ضد الليبراليين. وبعد أنَّ تبلور التحالف واضحًا بين سلاحين فى حركة المحافظين عاد رجال إيجواران مرَّة أخرى إلى مواقعهم وأجلوا أنصار نيقولاس ماركيز[١٦].

ولقد وصل نبأ أول انتصار ليبرالى فى الحرب عند نهر بيرالونسو الواقع شمال سانتدير فى مطلع عام ١٩٠٠ ، وقبل ذلك جاءت البشرى بأنَّ الجنرال الليبرالى خوستو دوران تقدَّم على الحدود الكولومبية الفنزويلية بمزيد من الرجال وألف بندقية مانليتشر ، ومائة الف قطعة ذخيرة قدمتها الحكومة الفنزويلية للجنرال ثيريانو كاسترو. وأصاب ذلك المحافظين بالذعر مما اضطرهم إلى الجلاء عن المدينة متسرعين. ومع ذلك ؛ فقد وجد الليبراليون أنصار العقيد ماركيز - فى المدينة الخالية من الحصون والقوات - عدوًا أشرس وأسوأ من خصومهم السياسيين: الحمى الصفراء .

وبعد ذلك بقليل وصل الجنرال أوزيبى عبر طريق بايدوبار وبارَّانكاس قادمًا من بوليبار . وبعد أن ألقى خطابًا حماسيًا فى جيشه ، وألقى نظرة على كارثة الطاعون "الحمى الصفراء" واصل القائد الأعلى لثورة الأطلسى مسيرته إلى فنزويلا للحصول على مزيد من المعونة والمساندة من الرئيس كاسترو. وفى هذه الأثناء ؛ فإنَّ الرجال القليلين الذين بقوا على قيد الحياة من الجيش الليبرالى فى لاجواخير قد لاذوا بجبال مونتيس دى أوكا حتى إشعار آخر. أمَّا قوات المحافظين التى تم تعزيزها وتقويتها فى ديسمبر من ذلك العام ؛ فقد دخلت ريو هاتشا بقيادة الجنرال بيدرو نيل أوسبينا ، هو زميل سابق وصديق كبير لخصمه أوريبى أوريبى[١٧]. وبعد أن حصل على تأييد مستبد لاجواخير خوسيه توغلت قواته فى لاجواخيرا إبانَّ الشهور الأولى من عام ١٩٠١ حتى وصلت إلى بايدوبار بعد أيام قليلة دون مقاومة كبيرة حيث أنَّ عمديات بارَّانكاس ، وفونسيكا ، وسان خوان ديل ثيسار ، وبيانويبا ، وأرورو ميتا ، وبايدوبار كانت قد بدأت استبدال أعلامها الليبرالية الحمراء بأعلام المحافظين الزرقاء عند مرور القوات بها .

ومع ذلك ؛ فسرعان ما ظهر الجنرالان الثوريان ميجيل راميريث ، وسلفادور دى لوكى الجنرال كاراخو عند الحدود مزودين بالأسلحة والعتاد التى حصلا عليها من فنزويلا لمواصلة الحرب. وقد توحدت صفوف الليبراليين الموالين لنيقولاس ماركيز وبدأوا يفتحون مزيداً من الأراضى : هاجم مائتان وخمسون ثورياً ببنادق مانليتشر سبعمائة جندى وهزموهم فى فونسيكا يوم ٨ مارس من نفس العام (١٩٠١). حينئذ تجمَّع المحافظون فى ريو هاتشا مرَّة أخرى ولكن الليبراليين كانوا قد لاذوا بالمرتفعات المتفرعة من جبال مونتيس دى أوكا يتحركون كالسباع فى عرينها. وقد حصل المحافظون فى هذه الأثناء على جائزة الترضية حيث اعتقلوا وأعدموا العقيد المغرور ألونسو بلاثاس[١٨].

وقُبيل ذلك بثمانية أشهر فى مدينة بوجوتا الأنديزية النائية كان نائب الرئيس خوسيه مانويل ماروكين قد عزل الرئيس العجوز مانويل أنطونيو سانكلمينتى ، وكان هناك احتمال أن يؤدى ذلك إلى إنهاء سوء الحكم فى البلاد ، وأن يقوم ماروكين بتوقيع معاهدة سلام دائمة مما غَمَرَ الليبراليين والمحافظين بالسعادة البالغة. ولكن رد فعل الرئيس الجديد كان غير متوقع وصاعق: لقد طالب باستسلام الليبراليين دون قيد أو شرط ، وأمر بأنَّ كل ثورى سيتم إلقاء القبض عليه حاملاً سلاحه سيُعدم . وبهذه الطريقة كان إعدام العقيد ألونسو بلاثاس رمياً بالرصاص واحدةً من عمليات الإعدام السياسى الأولى " لحرب الألف يوم". وقد نُفذَ الإعدام فى فناء القيادة ببارانكاس بالقرب من منزل أسرة ماركيز دى إيجواران[١٩] ، وقد كان هذا الإعدام واحداً من أكبر المآسى الشخصية بالنسبة للعقيد نيقولاس ماركيز ، وإحدى القصص التى حكاها بكل صورها إلى حفيده فى أراكاتاكا .

وبعد الحرب بستين عامًا ؛ قام المقدم خوسيه ماريا بالديبلانكيث النجل الأكبر للعقيد ماركيز بإعداد كتاب ضمَّ سلسلة من الأخبار والوثائق عن الحرب ذاتها[٢٠]. وذكر فيه أنَّه استخدم " تقارير المعسكر الثورى" التى قدَّمها له والده بعد الحرب. ومع ذلك ؛ لم يرد ذكر العقيد ماركيز تقريباً – كما كانت عادته – لأنَّ الجد آثر دائمًا ألا يتحدث عن أمجاده العسكرية . ولكن بالديبلانكيث أدرج ما حكاه اثنان من رؤساء وأصدقاء العقيد أوكتابيو جوميث[٢١] اللذان أبرزا مشاركة جد جابرييل جارثيا ماركيز فى المعارك الرئيسية ، وفى بعض المهام بالغة الخطورة مثل عمليتى العبور المروعتين

اللتين قاما بهما سويًا بين الحدود الكولومبية الفنزويلية وبايدوبار ، وهذا ما حدث ؛ لقد كانت عبارة عن مهمة خطيرة للاتصال بالجيش الليبرالى بهذه المحافظة وإقناع قائده الجنرال خوسيه ماريا ديل كاستيو بالتقدم بقواته وبعض المتطوعين صوب الحدود لأخذ الأسلحة الجديدة التى قدمها مؤخراً الرئيس الفنزويلى شيبريانو كاسترو إلى الجنرال أوريبى أوريبى ثم التحرك بعد ذلك إلى ريو هاتشا وفقًا للخطط الجديدة.

وقام الجنرال كلودوميرو كاستيو الذى عينَّه أوريبى أوريبى مؤخراً قائداً لجيوشه فى الأطلسى باختيار ثلاث مجموعات ينبغى عليها الوصول إلى بايدوبار فى زمن قياسى عبْر طُرقٍ مختلفة لتحقيق هذا الهدف. وكانت إحدى تلك المجموعات تضم العقيدين نيقولاس ماركيز ، وأوكتابيو جوميث ، والجنرالات ساباس سوكوتراس ، وخوسيه ماريا كويار ، وفرانثيسكو خابيير روميرو ، وكان معهم نجل شقيقه الجنرال خابيير روميرو ، وهو جندى يبلغ من العمر تسعة عشر عامًا طويل القامة قوى البنية ، ومع ذلك لم يرد اسمه فى أخبار ساباس وجوميث . لقد كان ميدرادو باتشيكو روميرو[٢٢] الرجل الذى سيقتله جَدُّ جارثيا ماركيز بعد ذلك بسبع سنوات . وبعد سبعة أيام وصل نيقولاس ماركيز ورفاقه بايدوبار بعد أن تغلبوا على كافة الصعوبات التى واجهتم فى طريق شيطانى محفوف بالمخاطر يمتد لثلاثمائة كيلومتر ويهيمن عليه المحافظون وحلفاؤهم من أنصار المستبد خوسيه دولوريس. لقد كانوا عُرضة - عدة مرات - للأسر والإعدام رميًا بالرصاص. وقد سلكوا فى العودة الطريق نفسة وعلى وجه التحديد خلال سبعة أيام تقريبًا مارين بأوروميتا وبيانويبا والمولينو وسان خوان ديل الثيبار وفونسيكا وآتونويبو وكاراًبيبيا والحدود ، حيث كان ينتظرهم قائدهم كلودوميرو كاستيو لكى يتلقى نبأ سيئًا: فالجنرال الآخر كاستيو عندما رأى أنه قد استُبدِل بكلودو ميرو كاستيو قائد للجيوش الليبرالية فى الأطلسى لم يستجب لأوامر قائده الجديد بحجة أنَّ ذلك الطريق يُعتبر بمثابة انتحار ، نظراً لهيمنة المحافظين عليه. ونتيجة لذلك ؛ وحتى كارثة كاراثوا ؛ فقد ظل الليبراليون طوال شهرين بلا نشاط عسكرى. ولهذا الانقسام بدأ يتبدد انتصار الليبراليين فى محافظتى لاجواخيرا وبايدوبار ، وبعد ذلك فى ماجدلينا بأسرها.

ومع ذلك فإنَّ الليبراليين بقيادة أوريبى أوريبى بانتصارهم المهم فى ريو هاتشا فى السادس عشر من أبريل ١٩٠٢ وعلى الرغم من سوء تنظيمهم والتنافس بين القيادات الفرعية[٢٣] فإنهم قد أبرزوا مؤشرات تبرهن على أنَّ قوة رد فعلهم - فيما يبدو - لن تنفد أو تنضب . ومن ناحية أخرى ؛ فإنَّ أنباء الانتصار شبه الساحق الذى حققه عشرة آلاف رجل بقيادة بنيخامين إيريرا فى المحيط الهادى وبنما جعلت الأمل يراود بعض الليبراليين ومن بينهم إيريرا نفسه بأنهم سيتمكنون من الفوز فى الحرب قُبيل عام إذا استطاعوا توحيد صفوفهم والتنسيق مع جيوش أوريبى أوريبى[٢٤]. ولكن كولومبيا كانت مستنزفة تمامًا . وبالتالى ، لم يكن الإحساس المشترك بين الليبراليين والمحافظين هو الانتصار القريب بل الانكسار والإرهاق والملل. فخلال ثلاث سنوات تقريبًا من الحرب استطاع الجانبان أن يشيدا أكبر النُصُب التذكارية للباتريا بوبا" الوطن الساذج" الذى كما فى طويلة العمر ماما جراندى دى ماكوندو " الأم الكبيرة فى ماكوندو" مدَّ ظلاله الوبيلة على كولومبيا طوال القرن التاسع عشر: مائة ألف قتيل ، تدمير شبه كامل للإنتاج والتجارة ووسائل المواصلات والاتصالات ، والإعلام ، وعمليات الإنزال فى بنما التى خططت لها وساندتها الولايات المتحدة الأمريكية. وفى ظل هذه الظروف كانت الضرورة الملحة والفورية لكلا الجانبين المتحاربين هى إنهاء تلك الحرب الشيطانية.

وبعد أن استُنزِفتْ القوات الحكومية قام الرئيس ماروُكين بالخطوات الأولى لتحقيق السلام فى الثانى عشر من عام ١٩٠٢ ، وفى الرابع عشر من أغسطس ظهر الجنرال أوريبى أوريبى قادمًا من كوراثو مُنهكًا مُتعبًا ، وقد تملَّكهُ الملُ التاريخى طوال أربع حروب أهلية (فقد عُمِّدَ عسكريًا وهو فى السابعة عشرة من عمره فى حرب ١٨٧٦) مستعدًا لقبول العرض الحكومى لإنهاء الحرب بأى وسيلة كانت[٢٥]. تولَّى القيادة ، وأعاد تنظيم قواته ، وذهب على رأس ألف رجل إلى بارَّانكاس وبايدوبار ووصل إلى أراكاتاكا فى ٥ سبتمبر[٢٦]. وفى قرية مسقط رأس جارثيا ماركيز عسكر - طوال يومين - مع قواته وتحدث مع الجنرالين كلودوميرو كاستيو ، وخوسيه روساريو دوران وبقية ضباطه ، وكان من بينهم جد القصاص ، ووضع خططًا يائسة لتحقيق نصر سريع على المحافظين وعلى سأم تلك الحروب التى لا تنتهى" حرب الألف يوم" ، أو على الأقل

لتدعيم موقفه مما يسمح له بإبرام معاهدة سلام مُشرِّفة. وحدث ذلك إلى أن وصلت الكارثة الليبرالية الكبرى فى معركة ثينيجا فى الرابع عشر من أكتوبر عام ١٩٠٢ التى أنهت الحرب.

وقد فقد العقيد نيقولاس ماركيز أحد أنجاله فى تلك المعركة وهو كارلوس ألبرتو الذى كان لايزال فى السابعة عشرة من عمره ، بينما نجله الآخر الرقيب أوّل خوسيه ماريا بلانكيث فقد حظى بشرف السفر على ظهر بغلة إلى سانتا مارتا وثينيجا لكى يُسلِّم الجنرال أوريبى أوريبى الخطاب الذى يتضمن مبادرة السلام بواسطة الجنرال المحافظ فلورينتينو مانخاريس ، التى اقترحتها حكومة الرئيس ماروكين[٢٧] . إنَّ المعاهدة التى تم الاتفاق عليها خلال ثمانية أيام من الهدنة كانت مهينة شكلاً ومضمونًا لأنها أمرت الليبراليين بعد نزع أسلحتهم بالعودة إلى منازلهم ووعدتهم بشكل مبهم بأنه بعد عودتهم إلى الحياة المدنية ؛ فإن نظام الإصلاح سيقوم بإجراء الإصلاحات الملائمة لكى يشركهم فى السلطة بشكل تناسبى.

وقام بتوقيع المعاهدة الجنرالان رفائيل أوريبى أوريبى ، وفلورينتينو مانخاريس فى مزرعة فى نيرلانديا بالقرب من ثينيجا فى الرابع والعشرين من أكتوبر ١٩٠٢ . وفى منزل متواضع ، وعلى منضدة خشبية ريفية تم الإعلان رسميًا عن معاهدة الليبراليين . وقد وقع المتحاربون على محضر المعاهدة وتناولوا دجاجًا ملفوفًا فى مخبوزات رقيقة وشربوا نخبًا من الكونياك والرُّوم فى كئوس أُعدت من ثمرات شجرة البغنونيات تحت ظلال شجرة اللوز بفناء المنزل[٢٨] .

وقام بينخامين إيريرا رغمًا عنه بالتوقيع على المعاهدة الثانية فى بنما على متن السفينة الحربية الأمريكية ويسكونسين ، وكانت هذه المعاهدة أفضل قلبًا وقالبًا من سابقتها ، وبتوقيعها تم الإعلان رسميًا عن انتهاء "حرب الألف يوم" التى ستكون مثلاً يُحتذى بما تضمنته من أسماء وحكايات ونوادر عن حروب العقيد أورْيليانو بويندية. ومع ذلك ؛ فإن معاهدة نيرلانديا هى التى ستضع نهاية للحروب الأهلية فى "مائة عام من العزلة" ، فقد شارك فيها جد القصاص ، وقام بتوقيعها الجنرال رفائيل أوريبى أوريبى ، وكانت النموذج الرئيسى للعقيد أورْيليانو بويندية وعلى طرف نقيض ، يبدو أنَّ

هذا الاسم مأخوذ من شخصيات الحرب: العقيدان رامون بوينديا وأوريليانو ناودين[٢٩] ؛ فقد كان الأول أحد أفراد جيش بينخامين إيريرا. لقد كان أسطورة بكل معانى الكلمة في الشجاعة والإقدام فى بنما والمحيط الهادى. أمَّا الثانى فقد كان محاربًا فذًا فى قوات أوريبى أوريبى على شاطئ الأطلسى .

وبينما يرى البعض أنَّ معاهدة نيرلانديا كانت أكبر خطأ سياسى وعسكرى للجنرال أوريبى أوريبى ، نجد أنَّ آخرين يعتبرونها ضرورة حتمية واستسلامًا أقل مهانة وإذلالاً . وقد أدت المعاهدة إلى استياء معظم ضباط رفائيل أوريبى أوريبى حتى أنَّ العقيد ماريًا كابيو أعلن ذلك على الملأ ، حيث كسَّرَ السيف وحَطَّمَ الميداليات والرتب العسكرية والنياشين الشرفية وصاح متعجبًا : لم نجد شيئًا من كل هذه التضحيات ؛ فكل هذا لا طائل تحته ؛ سأعود إلى حياتى الخاصة لكيلا أعرف أى شيء مطلقًا عن السياسية[٣٠] . وقد حذا حذوه معظم الجنرالات والعقداء وعَمَّهم النسيان والفقر. هكذا وجد غالبيتهم جارثيا ماركيز بعد خمسين عامًا فى أسفاره إلى جواكامايال وأشبيلية وأراكاتاكا وبايدوبار وماناورى ولا باث وبيانوبيا وأوروميتا وفونسيكا وبارَّانكاس وريو هاتشا. وهم مثل جده تمامًا ظلُّوا ينتظرون أنَّ تفى الحكومات المتلاحقة وتمتثل لما نصت عليه معاهدة السلام ، وتمنحهم معاش الحرب مدى الحياة الذى وعدتهم به عند انتهائها[٣١].

وبعد ذلك بستة أعوام عندما بدأت جروح الحرب تندمل وشرعت – على ما يبدو – أسرة ماركيز دى إيجواران فى تصنيع حُليها على شكل أسماك الذهب وتقطير مشروب الروم – بعد أن استردت الأمن والأمان – تمهيدًا لبيعه مهربًا ، جاء النبيل الزنجى ميدرادو روميرو الذى سُمِّى كذلك لكونه ابنًا غير شرعى لميدرادا روميرو ونيقولاس باتشيكو. لقد ظهر فى صورة شائعة شعبية. لقد تردد أنَّ ميدرادا التى أنجبته دون أن تتزوج ، حيث كانت متحررة من كافة القيود البشرية ، وأنها فى هذاالأمر قدَّمت معروفًا لشخص ما. ولقد كثرت التعليقات مرارًا وتكرارًا عندما كان نيقولاس ماركيز وأصدقاؤه ذات يوم يتحاورون فى المدينة. صاح نيقولاس ماركيز بنبرة مهذبة أكثر منها توبيخية :" هل هذا حقيقى " حملت الشائعة كلمات نيقولاس ماركيز إلى ميدرادا ولكن بصورة مشوهة وملتوية : "إنَّ هذا أكد أنها قدْ قدَّمت معروفًا إلى شخصٍ ما". لقد شعرت لا ميدرادا بالإهانة ، وأنها طُعِنت فى شرفها ، وطلبت من نجلها

أن يسترد لها شرفها من العقيد. ولكن ميدرادو رفض ذلك . ولم يكن نيقولاس شخصًا محبوبًا ومحترمًا فقط فى باراًنكاس ، بل كان أيضًا أحد القادة العسكريين لميدرادو خلال الحرب. فقد قام إلى جانب عمه فرانثيسكو خابيير روميرو وضباط آخرين باجتياز الطريق المرعب من بايدوبار إلى الحدود الكولومبية الفنزويلية ذهابًا وإيابًا. كما كان كلاهما عضوين فى الحزب الليبرالى فى باراًنكاس. وعلاوة على ذلك ؛ فإنً ميدرادو كان مُعذَّبًا بالدوافع البطولية لوالدته ، وعندما بدأت الحرب أجبرت أنجالهاعلى الذهاب إلى ميدان المعركة ، وفى نهاية الحرب اغتيل لويس فى مناوشة أمام منزل تشانكليتا المجاور. وأوًل شىء فعله ميدرادو هو رفضه لتوصية والدته عندما طلبت منه الانتقام لشرفها من نيقولاس ماركيز ، ولكن الأم كانت حازمة وقالت لنجلها: إذا لم تفعل ذلك سأخلع عليك فستانى لترتديه وسترتدى هى سرواله[٣٢].

وفى منتصف أبريل عام ١٩٠٨ وبينما كان العقيد نيقولاس ماركيز يتحاور ذات مساء مع أصدقائه فى شرفة منزل خوسيفينا أبيلا فى مواجهة الميدان ، أفرغت لا ميدرادا كل ما لديها من السموم لنيقولاس ماركيز على لسان نجلها ميدرادو الذى لم يتحد فقط جد جارثيا ماركيز بل كال له كافة أنواع الشتائم والسِّباب ، واختتم ذلك قائلاً بصوت مرتفع كى يسمعه جميع الناس مما آلم كثيراً العقيد ماركيز الذى لم يتحرك بعد ذلك بل وقف ونظر بهدوء إلى الشاب الذى أهانه وقال له: هل انتهيت ياميدرادو؟ لست جبانًا لكى أصبح كالدجاجة ، فليس كل الرجال يتشاتمون[٣٣] ، وذهب بعد ذلك إلى منزله بهدوئه المعتاد.

وقد استمر ميدرادو فى اعتداءاته الشفهية وأهجيته المكتوبة المعلقة فى كل مكان رغبة منه فى الانتقام لشرف والدته بينما العقيد نيقولاس ماركيز - بروح الفنان - كان يَعدُّ نفسه للمبارزة القاتلة بدقة بالغة . وقد باع ضيعة الإستمو خلال الست أشهر التالية ، وأوفى بكافة تعهداته كصائغ ، وترك ورشة المجوهرات لمساعدة وريثه أوخينيو ديوس وسدَّد ديونه ، وأبلغ ميدرادو بأن يُسلح نفسه لأنَّ ساعة تسوية قضية الشرف هذه تراشقًا بالرصاص قد أزفت.

كان ميدرادو رجلاً قويًا فارع القامة ويصغر العقيد الأشقر قوى البنية بسبعة عشر عامًا ، وكان قد تزوج بنيقولاسا داثا منذ ثلاثة أشهر ، واستقرا فى دائرة البيال المجاورة. وفى ١٩ اكتوبر أى بعد ستة أشهر من التحدى الأوًل كانت باراًنكاس تحتفل

باليوم الثامن من أعياد عذراء البيلار ، أى اليوم الأخير من أعياد راعية القرية. وخرج ميدرادو من منزله مثل باقى أهل بارًانكاس للمشاركة فى الموكب ذلك اليوم حاملاً فى يده شمعة مشتعلة وفاءً للعذراء بالنذور التى أخذها على نفسه ، وبعد أن تحققت أمنياته طيلة العام الماضى ، ومن بينها كان زواجه الحديث من نيقولاسا داثا. وقد حاولت نيقولاسا إقناعه بالبقاء فى المنزل لأن اليوم كان ممطرًا ، ولكنه اعتذر لها بحجة أنَّ النذور ينبغى الوفاء بها.

لقد تم التحدى أو المبارزة فى شارع ضيق يؤدى إلى البوابات حيث خرج ميدرادو مساءً ليحضر قليلاً من الأعشاب لبغلته ، وقد اختفى هذا الشارع الضيق منذ سنوات. وقد استُبدل بمنزلين قديمين بضاحية البلدة ما بين شارعى ١١ ، ولا كارمرا السادسة ، ومع ذلك فلازال أهل بارًانكاس يطلقون عليه الشارع الضيق المسدود الذى قتل فيه نيقولاس ماركيز متحديه ميدرادو روميرو فى اليوم الثامن من أعياد عذراء البيلار أى فى ١٩ اكتوبر. وكان ميدرادو يرتدى حُلة من الكتان الأبيض وفى إحدى يديه مظلة المطر ، وحزمة من العشب ، فى اليد الأخرى وسط مطر منهمر فى الساعة الخامسة مساءً ، وفى هذه الظروف وتلك الهيئة الهائلة كان هدفًا للتصويب الأسطورى للعقيد نيقولاس ماركيز الذى كان ينتظره متأنقًا فى زيِّه إلى أبعد حد قابعًا تحت مظلته اتقاءً للمطر وكأنه لم يذهب لقتل رجل بل للقيام بإحدى الشعائر ، وقد صاح فيه نيقولاس عندما رآه حاملاً حزمة العشب قائلاً : ياميدرادو لقد سويت كافة شئونى وموضوعاتى هل أنت مُسلَّحٌ ؟ . قال ميدرادو نعم إننى مسلحٌ. وكان هذا هو مارد به ميدرادو قبل أن يستقبل رصاصتين صائبتين. ولما سمعت جريجوريا كانتيو - وهى سيدة مُسنة كانت تعيش بمفردها فى منزل مجاور - خرجت إلى الشارع ، وشاهدت حجم المأساة ، وانتهرت العقيد قائلة : " ويحك لقد قتلته !" قال : " نعم . إنَّ رصاصة الشرف قهرت السلطة" .

وقبل أن يُسلم نفسه للعمدية طلب التأييد المعنوى من صديقه الزعيم الليبرالى لورينثو سولانو ، فدخل منزله ليبلغ زوجته بذلك الخبر السيئ . وقد كادت ترانكلينا أن تفقد صوابها عندما علمت بالنبأ. وقد قام الصديقان نيقولاس ماركيز ولورينثو سولانو بعبور الميدان ، حيث سلَّم الأوَّلُ نفسه للعمدة توماس بيلايث . وعندما سألوه فى الجلسة

اعترف العقيد بأنه قاتل ميدرادو باتشيكو روميرو ، وأضاف عبارتين فى أسلوبه الضمنى القاطع: لقد قتلت ميدرادو باتشيكو روميرو ، ولو بُعث سأقتله مرة أخرى(٣٤) ، وقد قال خوسيه أركاديو بويندِيا شيئًا من هذا القبيل لبروديتشيو أجيلار ليلة ظهوره . ومنذ ذلك الحين ظلَّ ميدرادو لا يفارق ذهن العقيد المعذب. وهكذا ، وكما تتبع طيف بروديتشيو أجيلار خوسيه أركاديو بويندِيا. ظل شبح ميدرادو باتشيكو روميرو يطارد نيقولاس ريكاردو ماركيز ميخيا ، ليس فقط حتى يتجاوز سلسلة الجبال فى أراكاتاكا ، ولكن أيضًا حتى وفاته بعد ذلك بثلاثين عامًا. كما أنَّ جارثيا ماركيز نفسه ظلَّ متأثرًا دائمًا بعبارة الاعتراف التى سمعها من جده وهو فى السادسة أو السابعة من عمره: " أنت لا تعرف عبء القتل" وعلاوة على ذلك؛ فإنَّ شهر أكتوبر المشئوم والمُمطر الذى شهد وقوع هذه الأحداث سيظل يطارد العديد من العُقداء فى قصص الحفيد: فالعقيد العجوز المستسلم للقدر - أحد شخصيات قصة ماركيز " العقيد لم يجد منْ يراسله" على سبيل المثال - يشعر بأنه يُصاب بالقوباء والزنابق السامة خلال شهر اكتوبر ، كما أن المنية وافت العقيد أوريليانو بويندِيا مساء يوم فى شهر أكتوبر وهو يتبول أسفل شجرة القسطل.

وعمومًا قبلت بارَّانكاس المأساة كقدر محتوم لا فكاك منه ؛ فالجميع يعرفون أنَّ نيقولاس ماركيز لم يرغب فى القتل - بناء على قرار من ضمير نفسه - نعنى قتل صديقه ورفيقه سياسيًا ، وهذا يتضح من الإعداد للمبارزة على مدى زمن طويل: وربما كان ينتظر أنْ يتدخل البعض ، أو العناية الإلهية خلال أشهر الاستعداد الستة لتفادى مأساة اضطراره لقتل ميدرادو كما حدث مع قاتلى سانتياجو نصًار فى "رسالة موت معلن" ولكن الأحداث واصلت مسيرتها القاسية كما فى التراجيديا الإغريقية ، وأنَّ الزمن سيحول القاتل إلى ضحية حقيقية ، والذى من أجلها صبوا كل أحزانهم تقريبًا طوال عدة سنوات. لقد عاشت بارَّانكاس المأساة الشخصية لنيقولاس ماركيز ، كما شهدت مأساتها الاجتماعية ، وقد بلغ الأمر أنَّ بعض أفراد القتيل ، الذى كانوا يقفون إلى جانب القاتل فى تلك اللحظات ، ومنهم بيبى ميندوثا أحد أعمام القتيل كان الشرطى الوحيد فى بارَّانكاس نام عدة ليال أمام باب السجن تجنبًا لقيام أقارب آخرين بأخذ ثأر القتيل. كما أنَّ الجنرال فرانثيسكو خابيير روميرو - عمٌ آخر - قام بحماية منزل ترانكلينا إيجواران كوتيس وأنجالها الثلاثة: خوان دى ديوس ، ومارجاريتا ولويسا سانتياجا التى ما لبثت أنْ أكملت عامها الثالث.

ولم يمكث السجين أكثر من بضعة أيام في سجن بارًانكاس ، لأنَّ الذين يريدون الانتقام للقتيل استمروا عاقدين العزم على قتل العقيد ماركيز بأية وسيلة كانت. وبفضل تدخل عمدة ريو هاتشا خوان مانويل إيجواران (نجل عم ترانكلينا وأحد خصوم العقيد في"حرب الألف يوم") تم نقل نيقولاس ماركيز إلى سجن هذه المدينة. ربما لأن منتقمي القتيل لايزالون يصرون على تحقيق مقصدهم نُقِلَ العقيد ماركيز من جديد – إلى سانتا مارتا حيث قضى عاماً بالمدينة وكأنها سجن تحفظي ، وبعد ذلك بعام وصلت ترانكلينا وأنجاله وأقارب آخرون ، وعلى عكس ما حدث في " مائة عام من العزلة" حيث قام خوسيه أركاديو بوينديا وقومه بالرحلة عبر سلسلة الجبال ، قام أولئك بالرحلة عبر البحر في مركب شراعي صغير.

وبعد أن قضى العقيد عقوبته ترك هو وأسرته سانتا مارتا ، واستقروا لمدة عام تقريباً في بلدة تيناجا المجاورة. والسبب الرئيسي في ذلك أن إيسابيليتا روميث كانت تعيش هناك ، وهي حبيبته التي كان قد تعرَّف عليها في بنما عام ١٨٨٥ ، والتي رُزق منها في العام التالي بماريا جريجوريا رويث . هذا وقد عُيِّن نيقولاس ماركيز جابياً للضرائب لدائرة أراكاتاكا ، ولكنه لم يُقم وأسرته هناك فور تعيينه لأنَّ القرية كانت غير صحية. وعندما تم توسيع مزارع الموز وتأسست شركة يونايتيد فرويت كمباني " شركة الفواكه المتحدة" قرَّر الاستقرار نهائيًا في الأرض التي لم يعدهم بها أحد في أواخر أغسطس ١٩١٠ بعد شهرين ونصف من مرور المذنَّب هالي(٣٥).

بينما أحاط التهميش الأخلاقي والوحدة بميدرادا روميرو التي تسببت في مقتل نجلها ، وفي نزوح أسرة ماركيز إيجواران ، وقد تُوفيت بعد اثنين وعشرين عامًا بعد إصابتها بالاستسقاء(٣٦). أمًّا نيقولا داثا الأرملة الشابة ، فقد انتقلت إلى قرية فونسيكا المجاورة إلى جانب رفات زوجها وهي حامل في ابنتها من ميدرادو باتشيكو التي ستكون أُمًّا لليساندرو باتشيكو حفيد ميدرادو باتشيكو الذي رافق جارثيا ماركيز بعد خمسة وأربعين عامًا إلى المنطقة لكي يعرف أين وكيف قتل جد الكاتب جد ليساندرو باتشيكو برصاصتين في ذلك المساء المطير يوم ١٩ أكتوبر ١٩٠٨ .

الفصل الثانى

- فى أرض الميعاد .
- أراكاتاكا كارلوس تشميلاس .
- اكتشافات خورخى إساكس .
- عجل الذهب من شجرة الموز .
- شركة الفواكه المتحدة .
- القطار و "الورقة الساقطة" .
- سدوم الجديدة .
- ليلة أراكاتاكا .
- وباء الإستاكوزا وأوبئة أخرى .
- مذبحة الموز .
- طوفان عام ٣٢ .

لم يكن وصول أسرة ماركيز إيجواران إلى منطقة مزارع الموز نتيجة الصدفة ؛ بل كان عن اختيار . وقد كانت هناك ثلاثة أسباب لكى يستقر العقيد فى أراكاتاكا نهائيًا : عرف العقيد - خلال الأيام الأخيرة للحرب - السلام وخصوبة الأرض ، كان له فيها أصدقاء ورفقاء سلاح سابقون مثل الجنرال خوسيه روساريو دوران ، كما كانت أراكاتاكا آنذاك أحد المراكز المهمة لإنتاج الموز. ولذلك ففى أواخر أغسطس عام ١٩١٠ وصل مع أسرته وخدمه وكثير من الصناديق فى القطار الأصفر الذى سيجعله حفيده مشهوراً فى قصصه . وفى هذه القرية الناشئة غير الصحية انتهى النزوح الطويل الذى استمر اثنين وعشرين شهراً ، والذى انتزعهم من بارّانكاس وجعلهم يعيشون فترة غربة غير آمنة فى ريو هاتشا وسانتا مارتا وثينيجا.

وعلاوة على أنجاله الثلاثة الشرعيين: خوان دى ديوس ، ومارجريتا ، ولويسا سانتياجا التى كانت قد بلغت خمس سنوات ؛ فقد رافق أسرة ماركيز إيجواران كل من وينيفريد ماركيز شقيقة العقيد ، ونجلة خالته المحببة إلى قلبه ، وشقيقة روحه فرانثيسكا ثيمودوسا ميخيا إحدى السيدات اللاتى أثرّن كثيراً فى حياة جارثيا ماركيز . أمّا طاقم الخدم ؛ فقد كان مكونًا من ثلاثة هنود حمر ، كان العقيد قد اشتراهم من لاجواخيرا بثلاثمائة بيزو وهم: أليريو ، وأبوليناز وميمى ، وهم الأبطال الصامتون والمجهولون فى " الورقة الساقطة"(١) .

ولكن فى الوقت الذى انتهى فيه النزوح فى المنزل الواسع والهادئ الذى استقروا فيه بالقرب من ميدان بوليبار ، فإنّ المأساة لم تنته عند هذا الحد ؛ بل على العكس من ذلك ؛ فقد ظلت المأساة تحدق بالأسرة حيث تُوفيت مارجريتا - النجلة الكبرى التى وُلدت فى ريو هاتشا ، ونشأت فى بارّانكاس- بعد مضى أربعة أشهر فقط متأثرة بالحمى التيفودية ، وكانت شابة فى الحادية والعشرين من العمر بيضاء وشقراء الشعر ، وكان وجهها شاحبًا ويعلو رأسها ضفيرتان مما جعلها أسطورية فى الأسرة ؛ كما ألهى ابن شقيقها بشخصية ريبيكا بويندي. لقد كانت مارجريتا مدللة أسرة ماركيز إيجواران ، وكانت تستحوذ على حب العقيد . وقبل أن تموت بقليل رقدت فى السرير ،

ونظرت إلى والدها. فى اللحظة الوحيدة التى أفاقت فيها من الحمى ، وقالت له : " لقد انطفأت عيون منزلك"(٢).

وهكذا عمَّت المأساة أسرة ماركيز دى إيجواران فى بداية ونهاية نزوحهم ، كما أن موت النجلة الكبرى فرضت تقليداً أسرياً وهو عدم الاحتفال بأعياد ٣١ ديسمبر (أعياد رأس السنة) لأنه فى ذلك اليوم انطفأت أعين الأسرة بأسرها فى الوقت الذى كانت هناك أشياءً كثيرة يمكن الاحتفاء والاحتفال بها فى أراكاتاكا الناشئة والمتحمسة مثل: وصول القطار حديثًا ، والتوسع فى زراعة الموز ، والتطلعات العالمية للقرية، وازدهار التجارة ، وتشييد أول معبد ، وافتتاح البرق " التلغراف" . ومع ذلك - أو ربما لذلك - لم يعد أحد فى ذلك الوقت يتذكر شيئًا عن المؤسسين الأوائل للقرية وهم هنود الشاميلاس الحمر الشُجعان الذين كانوا قد انقرضوا بالقرب من منازلهم فى أراكاتاكا الأصلية .

وكان هنود الشاميلاس الحمر قد تصاهروا مع نظرائهم الأراوكيين ، وكلاهما تعرض لغزو الكاريبيين منذ أزمنة سحيقة ، وقد فرضوا عليهم جانبًا من ثقافتهم وأزاحوهم صوب شمال أمريكا الجنوبية . وقد احتلوا الوادى الشاسع والخصب شمال دائرة ماجدلينا والواقع ما بين البحر وأنهار أريجوانى وثيسار ، الذى يمتد من الشمال إلى الجنوب والسفوح الغربية لسلسلة جبال سيراً نيبادا دى سانتا مارتا ، ونهر ماجدلينا من الشرق إلى الغرب. وقد اكتشف أماكنهم الفاتح الإسبانى بيدرو دى ليرما فى ١٥٢٨ ، مرَّ بهم - بعد ذلك بثمانى سنوات - جونثالو خيمينيث دى كيسادا عندما كان متوجهًا صوب كولومبيا الأنديزية بحثًا عن الدورادو . وفى نهاية القرن السادس عشر نجح هؤلاء فى مواجهة المحاولات الأسبانية الأولى لإخضاعهم ، وكان ذلك بقيادة زعيم قبيلتهم سورلى ، وهو أشهر زعمائهم . ومن ذلك الحين قد توخى الغزاة الحذر فى عدم التوغل فى الأراضى الشاسعة الخاضعة لسيطرتهم لأنَّ الشاميلاس من الهنود الحمر كانوا أحد الشعوب الأصليين المتمرسين فى الحروب الذين لا يمكن قهرهم أو ترويضهم ، وقد تصدُّوا للإسبان بنجاح بالغ ، ولذلك فإن غزوهم تأخر أكثر من مائتى عام لدرجة أنهم ظلوا حتى منتصف القرن الثامن عشر يعيشون على هامش الاستعمار الإسبانى.

ولكن جاء الوقت الذى فرضت فيه المصالح الاستعمارية بدون تسويف الخضوع الدامى على هنود الشاميلاس الحمر . ففى عام ١٧٤٤ كلَّف نائب الملك القائد خوسيه

فرناندو دى ميير إى جيراً بتلك المهمة الذى نفذّها بالدم والنار. وكان الهدف الرئيسى من ذلك هو شق طريق يمر ببلدة هؤلاء الهنود ليصل إلى ميناء ماجدلينا فى تينريفى ، وكذلك بوادى أوبار الخصب والمزدهر حيث تُربى الماشية ، وتكثر الطواحين الزراعية وورش الحدادة . وقد كشّرَ دى ميير إى جيراً عن أنيابه لهنود الشاميلاس الحمر المتوحشين ، وكلما انتزع منهم شبراً من الأرض أسس عليه قرية . لقد كان الثمن باهظًا من ضحايا الجانبين ، ولكن بعد خمس سنوات استطاع المستعمرون إخضاع أعوانهم ، وأسسوا قُرى كافيةً لاحتوائهم داخل بعض الأراضى الصغيرة التى لا أهمية لها[٣].

وقد استكمل أنصار دى ميير إى جيراً مهمة القضاء عليهم. ففى آخر المطاردات المدمرة التى قام بها رجال خوسيه خواكين دى ثونييجا عام ١٧٦٨ حيث اكتسحوا أراضى أشبيلية وجواكا مايال وأوأيرويلا ، و أراكاتاكا ، وقد هُزِم هنود الشاميلاس الحمر نهائيًا وأبيدوا تقريبًا . أما القلة التى بقيت منهم فقد احتمت بالأجزاء العُليا لأنهار أدوريامينا وفونداثيون وأريجوانى . وبمرور الزمن ، وبعد أنْ استقرت إحدى قبائلهم نزلت إلى وادى نهر أدوريامينا ، وعلى الضفة الجنوبية لمنعطف النهر أسست – فى أراضى أميرية أو حكومية وفى سنة غير معروفة بالتحديد فى أواخر القرن الثامن عشر – عزبة أو كفراً من الأكواخ الخشبية والنباتات المتسلقة والنخيل بلا شوارع ، ولا ميادين ؛ أطلقوا عليها كتاكا هذا الاسم الذى سيطلق على شيخ القبيلة ، والقبيلة نفسها فيما بعد. وكذلك قام أهل القبيلة بإطلاق الاسم ذاته على نهر أدوريامينا ، وفى النهاية أطلق على القرية اسم أراكاتاكا وهو اسم مكان يتكون من كلمتين كلمة آرا التى تعنى نهر ، وكاتاكا اسم شيخ القبيلة والقبيلة ذاتها[٤].

ولقد تعايش أفراد قبيلة أراكاتاكا فى سلام نسبى بقريتهم طوال قرن تقريبًا . وقد زرعوا اليوكا، والقلقاس ، ونبات المينهوت (وهو نبات يُستخرج منه النشا والدقيق) ، ونبات الهوياما ، والذرة والقطن. وقد اصطادوا الأسماك المتنوعة من المياه الصافية لنهر أراكاتاكا الذى كانوا يجوبونه فى قواربهم حتى لاثينا جا جراندى ، كما اصطادوا الحيوانات من سلسلة جبال سيراً نيبادا ، وقاموا بتصنيع بعض الأشياء اليدوية لاستبدالها مع هنود حمر آخرين ، والمستعمرين مما كان مربحاً لهم نسبياً لأن أراكاتاكا أقيمت فى مكان إجبارى لالتقاء الطرق المتوجهة إلى الشمال والجنوب

والشرق ، وبالتالى كان يزورها جميع التجار الذين كانوا ينتقلون - طولاً وعرضاً - فى محافظة سانتا مارتا المترامية الأطراف كما أنَّ أهل أراكاتاكا كانوا يسيرون طوال بضعة أسابيع للوصول إلى القرى الكائنة بالضفة الشرقية لنهر ماجدلينا ، كما كانوا يجتازون سيراً نيبادا حتى يصلوا إلى الكفور النائية فى لا جواخيرا ، حيث كانوا يستبدلون منتجاتهم الزراعية ومشغولاتهم اليدوية بالملح والمعادن ومنتجات أخرى كانوا يفتقرون إليها. وكانت طُرُق التجارة بالتحديد هى التى تسرب من خلالها التطور إلى ثقافتهم. وصل إليهم معبأ فى زجاجات المشروبات الروحية: ومن بينها مشروب الروم المهرَّب الذى تم تصنيعه فى معامل تقطير منزلية ، والذى كان يحتوى على نسبة كبيرة من الكحول . وقد كان أهل أراكاتاكا يشترون هذه المشروبات مقابل منتجاتهم الزراعية واليدوية ، وبدأوا فى تناولها بدون حساب مما أضرَّ بصحتهم فى بضع سنوات. أما الباقى ؛ فقد كان ميسوراً : فالمستعمرون الأشحاء الذين أغرتهم جودة الأراضى التى انتبهوا إليها عن طريق منتجاتها الزراعية انتهى بهم الأمر إلى انتزاعهم أفضل هذه الأراضى خصوبة. ورويداً رويداً فرض السكان الغرباء طريقتهم فى الملبس وسلوكياتهم الثقافية على أهل أراكاتاكا مدمنى الكحول ، لدرجة أنه فى أواخر القرن لم يبق سوى القليل من نسل شيخ القبيلة وزعيمها الأسطورى والشجاع سورلى.

ومع ذلك فقد ظلت أراكاتاكا غير المتجانسة حيث عاش بها الهنود الحمر والمولَّدون والبيض كقرية للمتوحشين الطيبين ، حيث مارس السلطة الأخلاقية لا الملكية شيخ القبيلة أو زعيمها أراكاتاكا شيخ قبيلة هنود حمر الشاميلاس حتى قدوم القاضى عام ١٨٨٨ . وكما حدث فى ماكوندو ؛ فقد ظهر بصورة مفاجئة وتولَّى السلطة العسكرية والمدنية بالقرية إزاء أهاليها المذهولين ، وقد تعلل بأنَّه يمثل السلطة المركزية والمحافظة فى سانتا مارتا (ففى ذلك الحين كان النظام المركزى قد تم إقراره فى كولومبيا) ولكن - فى قرارة أنفسهم - هذا لم يهمهم كثيراً نعنى هنود حمر الشاميلاس ولا المولدين ولا المستعمرين حيث إن المنطقة عانت من الفقر خلال تلك السنوات فى نهاية القرن التاسع عشر ، وقد اشتد الفقر بسبب الحروب المتلاحقة التى أدت إلى غضبهم من أهالى ماجدلينا حتى بلغت حالة من الاحتدام كانت تبدو لا أساس لها. وبالنسبة لأراكاتاكا ، فقد تأمل القصاص خورخى إساكس قبل ذلك بست أو سبع سنوات عندما تجوَّل بالمنطقة بغية اكتشاف حقولها من الفحم.

وكان المؤلف الشهير لقصة ماريا قد عُيِّن أميناً لهذه البعثة العلمية من جانب الرئيس رفائيل نونيث لدراسة الثروات الطبيعية لكولومبيا. فالقصاص كان فى حاجة إلى المال، ولذلك رحل فوراً لاكتشاف أراضى لا جران ماجدلينا (ماجدلينا الكبرى) التى كانت تضم فى ذلك الحين دوائر ماجدلينا والثيسار ولا جواخيرا ، وأعدَّ إساكس دراسات دقيقة عن عدة حقول للفحم فى لاجواخيرا و أراكاتاكا وقدَّم للحكومة المشروعات المتعلقة باستغلال هذه الحقول. ويُقال إن بويينديا كان متحمساً أكثر منه كرجل أعمال ، ولذلك استثمر جانباً من عوائد قصته الشعبية فى استغلال المناجم الواقعة بالمرتفعات الملاصقة لسيراً نيبادا فى أراكاتاكا العليا ، وكذلك فى دراسة لمعرفة تكاليف تطهير النهر بغية استخدامه كوسيلة للنقل إلى ثيناجا جراندى (ثيناجا الكبرى)(٥). وبعد ذلك باثنى عشر عاماً فقط عندما كانت البلاد على حافة الإفلاس قامت حكومة ميجيل أنطونيو كارو المحافظة بمنحه حقوق استغلال مناجم الفحم فى أراكاتاكا. وقد بدأ القصاص مهمته فى نفس عام ١٨٩٣ ، ولكنه أُضطر إلى الانتقال مريضاً إلى إيباجى بعد بضعة أشهر حيث توفى بعد ذلك بعامين. وقد آلت المهمة إلى نجله ليسيماكو الذى أوكلها إلى شركة بان أمريكانا للاستثمار، ولكنها فى النهاية تركت العمل لعدم تنفيذ العقد.

وبهذا الشكل فإنَّ الحلم التجارى لمؤلف قصة ماريا توقَّف عند المرتفعات الملاصقة لأراكاتاكا العليا حيث يُقال إنه لم يجرؤ أحد على الاستمرار فيه لإكماله كما حدث بالفعل فى " مائة عام من العزلة" ؛ ويبدو التفكير اضطرارياً حينذاك بأنَّ خورخى إساكس كان يريد أنْ يُصبح بويينديا عظيماً بل الأعظم بين أسرته حيث إن مشروعه الأوَّل كان ينوى استغلال مناجم الفحم برأسمال وتكنولوجيا إنجليزية بمنطقة الثيريخون ، وبارأنكاس قد باء بالفشل فى مطلع الثمانينيات والتى عانت من الهجر على مدى مائة عام قبل أن تُصبح أهم حقول لاستغلال الفحم فى كولومبيا.

وعندما ترك إساكس الوطن الصغير لجارثيا ماركيز فإنَّ المحور المستهلك لتاريخ هنود الشاميلاس الحمر قد أُبيدَ تماماً ، ليس فقط بسبب إبادتهم شبه الكاملة ، بل أيضاً لأنه على الضفة الشمالية للنهر فى مواجهة كاتاكا الأصلية أُسست قرية جديدة تضم ثلاث سلالات من البيض والمولَّدين وهنود حمر آخرين. وأثبتت القرية الجديدة سيطرة تامة فى حرب ١٨٨٥ عندما هربت مجموعة من الجنود قادمين من سانتا مارتا عند

مرورهم بأراضى الشاميلاس الهادئة والخصبة ، وهناك عند الكفر البدائى للضفة الشمالية للنهر أقاموا منازلهم وسقفوها بجذوع النخيل دون أدنى نظام أو ترتيب . وبمرور الزمن قام المستعمرون والمولَّدون الذين كانوا يعيشون فى القرية الجنوبية للشاميلاس بالانتقال إلى الكفر الجديد . وهكذا تم تأسيس كاتاكا التى ستسَمىً أراكاتاكا وليس بثالوث أراكاتاكا المقدس الاسم الذى أطلق على القرية رسمياً عام ١٨٣٤ عندما انضمت حينذاك إلى اختصاص دائرة أو مقاطعة ثييناجا .

أما هنود الشاميلاس الحمر الذين نجوا من عملية الإبادة ، سواء بمرض الجدرى أو بإدمان الكحول فى نهاية القرن التاسع عشر ، فقد بدأوا يتفرقون فى طرق الجنوب أو ذهبوا للمغامرة فى الطرق التى لا تنتهى لوادى أوبار أو الهجرة إلى الأراضى المرتفعه المجاورة لنهرى ريجوانى وأدوريامينا (أراكاتاكا) ، حيث قَدِمَ أجدادهم منذ مائة عام لتأسيس القرية التى لم تعد تتذكر شيئًا عنهم ، وفجأة عندما كانت ترقص حول عجل الذهب لشجرة الموز أخرجتهم تمامًا من ذاكرتها .

هكذا كان الأمر. وعندما استقر أفراد أسرة ماركيز إيجواران بمخيماتهم فى "الأرض التى لم يعدهم بها أحد" خلال عام الكوكب هالى فإنَّ التاريخ الطويل والمأساوى لهنود حمر الشاميلاس لم يعد فقط موضوعًا عفا عليه الزمن ؛ بل أيضًا كان للنسيان تمامًا. وبالتالى فإنَّ تأسيس أراكاتاكا الجديدة قد تم على أساس الإنكار الكامل لأراكاتاكا الأصلية. ومنذ تأسيس شركة الفواكه المتحدة فى عام ١٩٠٥ وافتتاح القطار وصلت أفواج من البشر كالطوفان من مختلف أنحاء الكاريبى وكولومبيون من الداخل (الذين أطلق عليهم لفظ المتأنقين على سبيل الاستهزاء والتحقير) من الفنزويليين والأسبان والفرنسيين والإيطاليين والأتراك والسويديين والفلسطينيين والعاهرات . وبسرعة أصبحت أراكاتاكا قرية من قُرى بابل فى منطقة واسعة ولا علاقة لها بوفرة الموز ، حيث كان الزمن كفيلاً باكتشاف جوهرها الخفى علاوة على المأساة التى تأخر تأثيرها أكثر من اقتحام التقدم المجنون.

وكما حدث أيضًا فى ماكوندو فإنَّ القطار جلب كل شيء: الموز و"الورقة الساقطة" (الدخلاء) والتقدم والتَّدهور . وعلى الرغم منْ أنَّ شركة الفواكه المتحدة لم تستطع

السيطرة على منطقة الموز حتى بداية الحقبة الثانية ، وكانت زراعة الموز قد بدأت فى الكاريبى الكولومبى منذ أكثر من عشرين عامًا ، أى منذ أن أدخله خوسيه مانويل جونثاليث بيرموديث بصفة تجارية عام ١٨٨٧ حتى استطاعت شركة الفواكه المتحدة ابتلاع الشركات الأخرى الوطنية والأجنبية فى عام ١٩٢١ ، حيث انتشرت زراعة الموز بسرعة فى الأراضى الشاسعة بمراكز ثييناجا وبويبلو بييخو و أراكاتاكا التى تبلغ مساحتها الإجمالية ١١٢٫٠٠٩ هيكتار منها ٤٦٫٠٠٠ هيكتارًا بمنطقة الموز خُصِص منها ٢٠٫٠٠٠ هيكتارًا لزراعة الموز(٦).

وصل الموز إلى أمريكا بواسطة إسبانيا خلال القرن السادس عشر ، وبعد ذلك بمائة عام انتشرت عدة أنواع من الموز فى منطقة سانتا مارتا التى نالت استحسان المستعمرين وأهالى البلاد الأصليين. وقد دعَّم الموز شهرته إلى جانب الكاكاو والتبغ والبن وقصب السكر خلال القرن التاسع عشر ، واعتبارًا من افتتاح السكة الحديد بين سانتا مارتا وثييناجا فى ١٨٨٧ ، وقد زرع الموز قضبان السكة الحديد حيث أنَّ مَدَّ القطار حتى فونداثيون كان بمثابة العمود الفقرى الذى على أساسه نمت زراعة الموز ثم بعد ذلك الشركة الحكومية المتحدة للفواكه.

لقد غيَّرت هذه الشركة تاريخ أراكاتاكا ، وماكوندو جذريًا والتى تأسست فى بوسطن فى نهاية القرن التاسع عشر بغية ابتلاع الشركات الأخرى التى كانت تعانى من صعوبات مالية. ومنذ أنْ ثبَّتت أقدامها كشركة عملاقة فى ماجدلينا فى عام ١٩٠١ لم تتوان فى إبراز أهدافها ومقاصدها. قامت الشركة بمد السكة الحديد إلى أراكاتاكا وفونداثيون فى ١٩٠٦ ، واحتكار الأراضى المحيطة بالبلدتين ، وادخال وسائل الأنتاج المتطورة للغاية التى أدت إلى دعم الاحتكار الأمريكى مما أدى إلى إضعاف الشركات المنتجة الأخرى الوطنية والأجنبية. وفى عام ١٩١٥ كانت شركة الفواكه المتحدة تمتلك ٦٫٠٥٠ هيكتار مزروعة فى مقابل ٥٫٨٥٠ هيكتارًا للمنتجين من أبناء الأوروبيين ، ٢٫٤٨٥ شركة إيمويليرى وأجريكولى دى كولومبى الفرنسية(٧) التى قامت بتوسيع زراعاتها حتى أراكاتاكا فى ١٩٠٨ واستحوذت أيضًا على معظم منطقة الزراعات الأنتيلية (نسبة إلى جزر الأنتيل بأمريكا الوسطى. وكانت شركة الفواكه المتحدة تُقَدِّمُ الرشاوى وتشترى ، أو ببساطة تُداهم ، منْ لا يقبل قواعد اللعبة. وبلا شك لم يقبل الجميع

هذه القواعد. وكان الجنرال بينخامين إيريرا أحد أبناء الأوروبيين المنتجين ، وتجرأ فى التنديد بهذا الاحتكار المتسلط أمام المحاكم فى سانتا مارتا وأعمال التعسف التى كانت ترتكبها في حق منتجي الموز. ولكى تُسْتأصلَ الدعوى التى رفعها الجنرال ضد الشركة أمرت مُديرها بسرقة ملف الدعوى من المحكمة[٨]. لقد سُجن المدير ، ولكن الشركة استمرت فى فرض تلاعبها القذر. وبعد ذلك بخمسة أعوام تمكنت الشركة من ابتلاع الشركة الفرنسية كومباين إيموبليرى إيت أجريكولى دى كولومبيا ، وبالتالى أصبحت شركة الفواكه المتحدة الأم الكبرى لزراعات الموز ، فقد استولت الشركة على ٦٩٪ من الأراضى الزراعية وغير الزراعية فى المنطقة بأسرها ، وبالتالى كانت الشركة قوية من الناحية الاقتصادية : هذا الوضع الراهن غير القانونى أو سياسة الأمر الواقع جعلت ، الشركة تمارس عملها منذ ذلك الحين كدولة داخل الدولة الكولومبية.

إنَّ سلطتها الكبيرة كشركة غير حكومية سمحت لها بالاستناد إلى كثير من قوانين العمل التى أقرتها حكومة الجنرال رفائيل رييس (١٩٠٤ - ١٩٠٩) وكذلك على المناورات السياسية والتجارية والعمالية فى المنطقة . وقد فرضت مطالب ذات بالٍ لدرجة المغالاة فكانت تفرض السعر الذى سيتم به شراء الموز على باقى الشركات الأخرى المنتجة للموز ، وتحدد الذين سيتم إمدادهم بمياه الرَّى والكمية المسموح بها لكل منهم والذين سيتم إقراضهم ، والنسبة المئوية لفائدة هذه القروض مما اضطر الشركات التى يمتلكها أبناء الأوروبيين فى أمريكا إلى التجمع فى شركة وطنية للفواكه ، ولكن مأساتها أصبحت كوميديا تراجيدية لم تكن فى الحُسبان : ففى ميناء نيويورك بدأت سلطات الجمارك فى احتجاز شحنات شركة الفواكه الوطنية لكى تسلمها لشركة الفواكه المتحدة[٩].

وإذا كان المنتجون الوطنيون قد أصبحوا صيداً سهلاً لها كما تريد ووفقًا لمعاييرها ؛ فإن استغلال عمال شركة الفواكه المتحدة كان حدثًا يصعب وصفه لأن الآلاف من عمالها لم يكن لهم وجود قانونى لأنَّ الشركة لم تتعامل معهم ؛ بل كانت تتعامل مع المقاولين أو مع المتعهدين الذين كانوا مكلفين بالتعاقد مع هؤلاء العمال ، وبالتالى لم يكن لدى الشركة الأمريكية أية مسئولية بالنسبة للزراع والذين يجمعون الموز والحمَّالين ولا عمال التستيف أو الشحن ؛ بل كانت مسئولة فقط عن ٢٥٠ مقاولاً، ومقاولين من

البـاطن ورؤسـاء عـمـال. وقـد سـمـح هذا الوضـع لحـوت الموز بارتكاب كل أنواع الظلم والتعسُف مع آلاف العمال الذين كانوا – علاوة على ذلك – أميين أو ذوى مستوى ثقافى متدنٍ للغاية ، وبلا وعى سياسى على الإطلاق. وبما أن هذه العمالة غير موجودة من الناحية القانونية ؛ فإنَّ شركة الفواكه لم تكن مضطرة لكى تسدد لهم تأمينًا على الحياة، ولا لحوادث العمل أو لتقدم لهم الخدمات الطبية والعلاجية ، أو حتى لمنحهم عطلة أيام الآحاد والأعياد ، أو منحهم على الأقل حق الإضراب . وعلى العكس من ذلك؛ كانت تفرض عليهم من خلال مقاولى العمال ومتعهديهم مرتبًا كل خمسة عشر يومًا على شكل إيصالات تصدرها الشركة لشراء منتجاتها ؛ أى لا يمكن صرف مقابلها نقدًا ، التى كانت الشركة تبيعها فى منافذ البيع بها.

كما أنَّ تدنى الأجور والمساكن سريعة التلف وغير الصحية ، وعدم وجود خدمات طبية تقريبًا أدت إلى تلاشى العلاقات الاجتماعية العمالية – تلك العلاقات الهشة التى لا أثر لها – بين العمال المعوزين وشركة الفواكه المتحدة. كل هذه المساوئ أيقظت العمال ، ودفعتهم للقيام بإضراب كانت نهايته مأساوية فى ٦ ديسمبر ١٩٢٨ ، وهو ما يُعد أحد الشياطين التاريخية التى سيكون لها أكبر تأثير فى حياة وأعمال جارثيا ماركيز .

وفى تلك الأثناء كانت أراكاتاكا مثل ثييناجا وبويبلو بيخو تتسم بالحماس البابلى ، كانت قدْرًا من الثقافات والسلالات حيث انصهر فيها العالم بأسره. فقد تعايش فيها هنود حمر الكاتشاكوس والكوسقيوس فى الأطلسى وبوليبار والأنتيليون والفنزويليون والعرب والأوروبيون ، وقد كانوا يمثلون تدفقًا مستمرًا من المهاجرين تزايد بسبب نهاية الحرب العالمية الأولى وامتد حتى منتصف العشرينيات . لقد قدموا جميعًا تجذبهم أسطورة الدورادو بنانيرو (مزارع الموز الذهبية). وكان فى أراكاتاكا ٢٥٠ منزلاً يعيش فيها ١٢٠٠ نسمة فى عام ١٩٠٨ تقريبًا ، ثم نمت أراكاتاكا حتى بلغ تعداد سكانها ٣٠٠٠ نسمة ، ٦٠٠ منزلٍ بعد ذلك بخمس سنوات ، وسيكون ثلاثة أضعاف هذا العدد فى الحقبة التالية. فمن ناحية عاش الأمريكيون فى قلعتهم الخاصة بهم ، ومن ناحية أخرى نجد أن أراكاتاكا الحارة والمتربة عاش بها الأرستوقراطيون ، ومواطنوها من العوام وشعبها من الرَّعاع: حديثى العهد بالنعمة " الورقة الساقطة" (يعنى الدخلاء والغرباء).

كانت كل هذه المنازل تقريبًا من الصفيح ، ومسقوفة بالقش أما منازل الأرستقراطيين فكانت من الخشب والزنك. أمَّا الآلاف من عمال الشركة فكانوا يعيشون مكدسين فى مخيمات أكثر تواضعًا مثل حظائر البقر بُنيت على أعمدة أسمنتية وسُقفت بجذوع النخيل وسعفه ودون جدران أو حوائط ، وبالتالى كانت حشرات الليل تستنزف دماء العمال التعساء ؛ بينما كانت منازل مديرى الشركة وموظفيها تتوافر فيها كل سُبل الراحة والرفاهية التى لا يمكن تخيلها. وعلى الجانب الآخر من السكة الحديد؛ أُنشئَ حى لغير الناطقين بالإسبانية ، والذى وصفة جارثيا ماركيز بشكل تحقيرى " حظيرة الدجاج المزودة بالكهرباء فى قصة " مائة عام من العزلة " . تلك المنازل الأرستقراطية الفاخرة كانت بها نوافذ ملحقة لحماية سكانها من الحشرات ، وقد أُعدَّت أسقفها بصورة خاصة للتغلب على شدة الحرّ. أمَّا البرادو فقد شُيِّدت به ملاعب التنس وسط مناطق من العُشب الأخضر ، فضلاً عن حمامات السباحة بلونها الأزرق التركوازى. وبالنسبة لأهالى كاتاكا كانت هذه المنازل فردوس حلمهم المستحيل تحقيقه . كما كانت هذه المنازل الفاخرة محاطة بأسوار ، ويقوم على حراستها وحمايتها زنوج مسلحون بالبنادق وكلاب الحراسة(١٠) .

وفى هذه البوتقة متعددة الجنسيات كان الأمريكان وحدهم هم الذين لم ينصهروا أو يختلطوا مع أهالى البلد الأصليين وآلاف الأجانب الآخرين ، ولم يكن لهم أية اتصالات إلا فى أوقات محددة مع الأرستوقراطية الريفية . أمَّا ما يُسَمَّى بالمجتمع ؛ فقد كان يتألف من الأجانب ، وكبار المسئولين بالشركة ، وقُدامى جنرالات وعُقداء الحرب الأهلية الأخيرة . ونظرًا لسمعتهم الأخلاقية والسياسية ؛ فقد كان هؤلاء تتألف منهم المجموعة البارزة ؛ فهم علية القوم فى أراكاتاكا . فشخصيات مثل الجنرالات بينخامين إيريرا وفرانثيسكو تروكونيس ، وبابلو إيميليو موراليس ، وخوسيه روساريو دُوران ، والعقداء نيقولاس ماركيز ، ودومينجو بيثكاينو ، وخيسوس أجيرّى كانوا بمثابة الاحتياطى الأخلاقى الكبير ، فقد تركوا نُصبهم التذكارية الأسطورية فى التاريخ الريفى لتتكون منها الخمائر الأدبية الرئيسية لجارثيا ماركيز.

وكان الجنرال إيريرا أعظم شخصية فى أراكاتاكا ، وأحد الشخصيات البارزة فى البلاد خلال العقد الثانى من القرن العشرين. فمنذ سنوات الحرب وهو يضع نصب

عينيه حقول أراكاتاكا ، وفى عام ١٩١٢ غادر منفاه فى ترينيداد ، واستقر فى مزرعة الموز التى أطلق عليها لا كولومبيا بغية التصدى لتعسُف وظلم شركة الفواكه المتحدة ، وبين الحين والآخر كان يقوم بزيارة للقرية فى المساء ، وفى مكتب العقيد ماركيز أو فى مكان يُطلق عليه "كاميون" (حافة مرتفعه عند أخدودين فى الحقل) ، حيث كان يجتمع مع رفقاء سلاحه القُدامى للاحتفال بأحداث الحرب التى كان يرويها العقيد ماركيز لحفيده المفَضَّل .

وبكل تأكيد سيكون الجنرال رفائيل أوريبى أوريبى النموذج العظيم للعقيد أوريليانو بوينديا ؛ كما أنه من المؤكد أيضًا أنَّ شخصية الجنرال بينخامين إيريرا أسْهَمت كثيراً فى إبداع شخصية جارثيا ماركيز . لقد قبل نتائج الهزيمة العسكرية فى" حرب الألف يوم" مرفوع الهامة دون أن تُمَس كرامته . بالصورة نفسها كان السلوك الذى احتذاه فى الخيال العقيد أوريليانو بوينديا ، وكذلك الجنرال إيريرا الذى لم يكف عن التمرد على الظلم ومناهضة تحالف حكومة الأقلية الليبرالية – المحافظة مقتنعاً بأنَّ كولومبيا ينبغى أن تتخلص من هذا الوباء السياسى ، وكانت آخر خيانة ارتكبوها فى حق البلاد تتمثل فى الامتيازات الشاملة التى منحوها لشركة الموز الأمريكية فى عهد حكومة الجنرال رفائيل رييس.

وكان خوسيه روساريو دُوران أحد كبار الشخصيات بأراكاتاكا الناشئة ، فقدكان ليبراليًا صميمًا ، وتزعَّم الليبرالية فى كاتاكا طِيلة نصف قرن بالاشتراك مع العقيد نيقولاس ماركيز حيث تمكنا من التخلص من الأضرار والمظالم لدرجة أنَّه تمت الاستعانة بهما للوساطة فى إضراب الموز فى ١٩٢٨ . فقد كانا صديقين دائمًا ، وكان دوران هو الذى ساعد إلى حدٍ كبير جد جارثيا ماركيز لكى يغرس جذوره فى القرية حيث قدم له كل نوعٍ من التأييد والمساندة حتى استطاع العقيد ماركيز الاستقرار كصائغ وجابٍ للضرائب فيما بعد بدائرة أراكاتاكا الذى تناوب فيها مع منصب آخر وهو أمين صندوق البلدية.

كما وجد كثير من المحاربين القُدامى ملاذًا فى أراكاتاكا كمزارعين أو كصُنّاع يُعدون المشغولات اليدوية ، فى الوقت الذى تولوا فيه مناصب إدارية بالقرية. وعلى الرغم من آثار الحرب ونتائجها ، وكون بعضهم ليبرالياً ، والبعض الآخر مُحافظًا ؛ فإنهم كانوا أصدقاء عِظامًا وجيرانًا ممتازين. كما كانوا أخوة فى الانتظار أسبوعًا بعد

أسبوع ؛ كانوا ينتظرون بلا جدوى طيلة ما تبقى من أعمارهم معاش التقاعُد الذى كانت الحكومة قد وعدتهم به فى نهاية الحرب. ولقد أصبحوا عُقداء لم يراسلهم أحد ، وكما يُفْترض أن يحدث لشخصية جارثيا ماركيز ؛ فقد مات معظمهم وحيدين بؤساء . ولذلك قبل أن يصبحوا شخصيات جارثيا ماركيز بوقت طويل كان الكاتب شاهداً مذهولاً لمأساتهم بدايةً عندما كان طفلاً ، وبعد ذلك خلال الرحلات التى قام بها للمنطقة فى مطلع الخمسينيات عندما وجد قريته ، وقد تحولت إلى قرية مُتربة يُخيم عليها الصمت ومليئة بالموتى. وقد تُوفى عُقداؤها فى الأفنية الداخلية تحت آخر شجرة موز(١١).

وكان - بلا شك - أهم ما يلاحظ فى المجتمع أو الأرستقراطية المحلية ومَلْبَسهم أو طريقتهم فى الملبس. كان الرجال يرتدون السراويل ، والقمصان التى نُشِّيت ياقاتها وأطراف أكمامها ، وصديرى ، ورباط عُنق وقُبعة من اللباد ، وكانوا ينتعلون أحذية من الجلد مُغطاة لحمايتها من الأتربة. أمَّا النساء فكن يرتدين قُبعات من ريش الرومى. كان هؤلاء يرتدون هذه الملابس الغريبة على المناخ المدارى ، وكانوا قد اعتادوا على إقامة السهرات فى نهاية الأسبوع حيث كانوا يرقصون على أنغام الأغانى القصيرة ؛ فضلاً عن الرقصات ، والرقصات التقابلية ، والبالس ، والرقصات على أنغام الأناشيد الدينية المسيحية أو كانوا يقرأون أجزاء من الأعمال الأدبية الشهيرة آنذاك(١٢).

أمَّا الأنماط الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التى سادت لدى الأرستقراطية فى كاتاكا ، والتى كان يتحرك فيها أفراد أسرة ماركيز إيجوارن ؛ فقد نقلها جارثيا ماركيز حرفيًا على وجه التقريب إلى قصصه ، وخاصة فى "مائة عام من العُزلة" ، حيث كان أفراد أسرة بويندبا يمثلون الإشارة الإجبارية للمجتمع الماكوندى .

وكما هو الحال فى ماكوندو ؛ فإنَّه إلى جانب الارستوقراطية ؛ كانت عامة الشعب من أبناء البلدة والغُرباء أو الأجانب مستقرة بالقرية ، وفى مقدمة " الورقة الساقطة " وصف جارثيا ماركيز بشكل غنائى ودقيق ما كان عليه هذا الحشد الكبير فى مرحلة التخمير: ففى " الورقة الساقطة" والتى تكونت من البقايا الإنسانية والمادية من الشعوب الأخرى التى بقيت على قيد الحياة بعد الحرب الحرب الأهلية ، التى تبدو فى كل مرَّة ضارية فى الزمن السحيق ولا يمكن تصديقها. تلك الأوراق البالية التى كانت تلوث كل

شيء بسبب الرائحة المتقلبة لهذا الحشد من البشر. رائحة إفراز الجسد والموت الخفى ، الذى - فى أقل من عام - قذف القرية بأنقاض وأطلال الكوارث الكثيرة التى سبقت تأسيس القرية ذاتها.

والعام المشار إليه - كما يُلاحظ فى المقدمة نفسها - هو ١٩٠٩ . اعتباراً من ذلك العام قُبيل وصول أسرة ماركيز إيجواران ؛ بدأت تتبلور عالمية أراكاتاكا بكل نتائجها وآثارها ، ومن أهمها التكدس والتراخى فى العادات والتقاليد. كما ظلَّ القطار يجلب رجالاً من مختلف الطبقات والجنسيات مع زوجاتهم ومحظياتهم وتيوسهم وخنازيرهم وبغالهم ودجاجهم وصناديق أمتعتهم ، وأسرتهم وقنيناتهم وقدورهم. وقد جاء بعضهم بعظام أجدادهم حتى الغجر ؛ قَدِموا فى تلك السنة بخيامهم وبضاعتهم التى برز منها لغرابتها وكثرة الطلب عليها : الثلج الذى كانوا يشترونه من سُفن شركة الفواكه المتحدة فى ميناء سانتا مارتا(١٣). وصل إلى كولومبيا فى أواخر القرن التاسع عشر جهازٌ أوربى أصيل ، هو الأكورديون ، بدأ عرضه للتداول فى محلات الأخوان تادير ، وفقًا للعرف والتقاليد حينذاك أنهى العازف الأسطورى الكبير فرانثيسكو موسكوتى (فرانثيسكو الأومبرى) جولاته البوهيمية فى المنطقة ، وفى أراكاتاكا ذاتها.

وكحَل حسىٍ وواضح للتعب والإرهاق المتراكم فى مزارع الموز بدأت على وجه السرعة فى الظهور صالات الرقص والمخيمات ، وكذلك بيوت الدعارة ومحلات لعب القمار. وكانت أسر المجتمع المحافظة تنظر فى دهشة بالغة كيف أنَّ قرية أخرى بدأت فى الظهور داخل قريتهم كما فى المجتمع الفاسق متعدد اللغات فى " الورقة الساقطة" حيث التهم المجتمع الليبرالى والمحافظ والوَرِع فى أراكاتاكا . ولكنهم لم يستطيعوا القيام بأى شيء لوقف معاقرة المسكرات لهذه الجموع الفقيرة حول عجل الذهب فى مزارع الموز. كانت النسوة يرقصن رقصة الكومبيا مقترنة بالشموع الملفوفة بالعملات الورقية فئة بيزو وخمسة بيزو التى كان يقدمها لهن مغازلهن من الرِّجال . كما كانت العاهرات تخرجن إلى ممرات منازلهن بملابسهن الداخلية ، وكُنَّ يركبن على عجز الجياد مع عُملائهن المناوبين . لقد كان التسرى والزنا منتشرين فى أى مكان كما امتدت بيوت الهوى إلى السواقى وحقول القمح ؛ بينما كان السُكارى يتنازعون على الأرصفة ليناموا. كما امتلأت صالات البلياردو بالكرات ومصارعات الديوك ، التى كانت قد ووجدت لها مكانًا فى شوارع أراكاتاكا.

لقد مزقت فضيحة التقدم ضمير المواطنين الأصليين فى غضون خمسة أعوام فقط ، وقد تحولت القرية الهادئة المسالمة – التى انتشرت بها الزراعة والصناعات اليدوية حيث كانت الهيمنة لزراعة الكاكاو وقصب السكر بمعاصرها – إلى تقليد ومحاكاة قريتى سدوم وجومورا (وهما قريتان صبَّ عليهما الله سبحانه وتعالى جام غضبه ، وأهلكهما عن بكرة أبيهما لشركهما وعصيانهما لرسله). ومنذ ذلك الحين بدأت الأسطورة تنسج خيوطها قائلة : إنَّ منطقة زراعات الموز تنتشر فيها الرذيلة ، وأنَّ أهلها مسرفون مبذرون حيث كانوا ينفقون ببذخ ؛ ففى رقصة لا كومبيا لم يكتف هؤلاء بإشعال الشموع بالعملات الورقية فئة خمسة بيزو ، بل أيضًا لم يجرؤ أحد على الانحناء لكى يلتقط النقود الكثيرة المبعثرة على الأرض[١٤]. وفى واقع الأمر لم تكن الوفرة بهذه الضخامة؛ بل كان يعمهم فقرٌ روحى ؛ فباستثناء الرواتب الكبيرة للعاملين بشركة الفواكه المتحدة لم يكن عامل اليومية يتقاضى أكثر من نصف بيزو أى النذر اليسير . لقد كان هؤلاء فى فقر مدقع، ولكن آلاف الأجور المتدنية سويًا أوحت بسراب الرخاء والوفرة فى تلك القرية المسرفة بدون حساب. إنَّه الإسراف الذى شجعته الأمية ، وعدم التكافل ، وغيبة الوعى النقابى لدى الآلاف المؤلفة من العُمال – وهذا ما كانت تصبو إليه دائمًا شركة الفواكه المتحدة.

ولتطهير وضبط سدوم الجديدة – حيث بدأت تنتشر أيضًا ممارسات السحر والشعوذة – فإن بعض أفراد الأرستقراطية قد عَنَّتْ له فكرة طيبة حيث طلب من مسئولى الكنيسة فى سانتا مارتا إرسال قس دائم. وقد استجابوا لهذا الطلب ، وأرسلوا لأراكاتاكا القس بيدرو إسبيخو من مواطنى ريو هاتشا؛ فكان بذلك أوَّل قس لأراكاتاكا. وبنفس الحماس الذى استخدمه الأب نيكانور رينا لبناء كنيسة فى ماكوندو. وقد قام الأبُ إسبيخو بحملة مكثفة لإيقاظ الوازع الوطنى الدينى من سباته لدى أهل القرية وتعليمهم العادات الحسنة ؛ فقام بتنظيم رعايا الكنيسة فى مجموعات وكوَّن لجانًا للحث على تشييد المعبد الذى سيستغرق بناؤه أكثر من عشرين عامًا[١٥]. ومع ذلك لم يكن عمله الأبرشى أو الرعوى ، الذى أدى إلى شهرته بأنه رجل طيب أو قديس خلال تواجده فى أراكاتاكا ، بل كانت معجزة الزِّى هى السبب فى تلك الشهرة ، بالفعل فى يوم ما،

ارتفع عدة سنتيمترات وهو يلقى القُداس[١٦] فإن المشهد ذاته متكرر فى " مائة عام من العزلة" عندما كان الأب نيكانور رينا يتناول قدحًا من الكاكاو، وهذه هى إحدى النوادر الكثيرة التى ستظهر من حين لآخر فى معظم كتب ومؤلفات جارثيا ماركيز حيث أسهم إسبيخو بمجينه لأول أبرشية فى أراكاتاكا فى أرض الكفار ، وصداقته مع أجداد القصاص وتعيينه قسيسًا فيما بعد لسانتا مارتا ، وتدخله الحاسم لإقناع أسرة ماركيز إيجواران لتزويج نجلتها لويسا من موظف البرق (التلغراف) بأراكاتاكا ستضمن له ظهورًا مستمرًا فى مؤلفات جارثيا ماركيز الخيالية ، سواء لكونه قسيسًا بسيطًا ، أو لكونه الأسقف الذى أعلن عنه ولكنه لم يصل إلى تلك الدرجة الكهنوتية أبدًا[١٧] .

إنَّ مهمة تصحيح المسار الروحى والأخلاقى التى أخذها الأب إسبيخو على عاتقه تناقضت وتعارضت بسبب تفجر بؤرة العنف فى بوينوس أيرس المجاورة ، التى أسست أثناء حكم رفائيل رييس لإبعاد المجرمين الخطرين بالدولة. وحقيقة لقد كان الأمر بمثابة إطلاق سراحهم ، لأن هؤلاء كانوا يهربون من هذا السجن المضطرب ، وقد نظم هؤلاء المجرمون عصابات لسرقة واغتيال الأبرياء من سكان السواحل. وقد أدى ذلك إلى زيادة النفور والكراهية بين سكان السواحل والهنود الحُمر المعروفين باسم لوس كاتشاكوس ، وعلى إثر اغتيال أحد المواطنين الأصليين على أيدى أحد مواطنى أنطيوكيا ، بدأت حملة كبيرة للانتقام من جانب كل أبناء القرية. وخلال عامين ظل شغل أراكاتاكا الشاغل لقتل لوس كاتشاكوس من الهنود الحمر . وقد عُرفت هذه الحادثة المشئومة باسم " ليلة أراكاتاكا "منذ بداية الحِقبة الثانية من القرن العشرين[١٨] .

إنَّ تصاعُد درجة العُنف والاسترخاء الأخلاقى للمجتمع ، والإهمال الذى شمل القيادات البلدية فى ثييناجا و أراكاتاكا جعل فكرة تحويل الدائرة القضائية إلى مركز ، للقضاء على هذا السباق العميق والمأساوى الذى طال أكثر مما كان متوقعًا . وقد نُشِرت الفكرة أولاً فى صحيفة " الأحد" وهى الصحيفة الأولى بالقرية، وذلك بواسطة صاحبها ومديرها خوسيه أنطونيو إيجواران (شقيق جدة جارثيا ماركيز) وبعد ثلاثة أعوام من المداولات والمطالبات والمخاوف والأهوال تم اعتماد أراكاتاكا كمركز فى أبريل ١٩١٥ ، وتم الاتفاق على وضع حدودها من الأراضى ما بين نهرى توكورينكا وفونداثيون والمرتفعات الغربية لسيرًا نيبادا ولا ثييناجا جراندى. وكان أول عُمدة لها المأمور القضائى توماس نوجيرا .

وعلى الرغم من جهود الأب إسبيخو ؛ فإن القرية ظلت على فسادها الأخلاقى ، وعمَّها غَضَبُ الله ، كما أنَّ السُلطة المركزية أهملت القرية. وكان الوضع فوضويًا بها قبل تحويلها إلى مركز ؛ فقد كانت هناك مشاجرات نتج عنها ضحايا من القتلى فى نهايات الأسبوع ، والتى تزايدت خاصة فى محلات البلياردو بشكل ملحوظ ، وكذلك مصارعات الديوك ، وفى صالات الرقص ، والكانتينات ؛ كما كانت بيوت الهوى تفتح أبوابها ونوافذها بلا أدنى درجة من الخجل أو الحياء ، كما انتشر اللواط فى جميع أرجاء القرية ، وقد أصاب ذلك كريمات الأسر من أبناء القرية الأصليين اللاتى سلَّمن أنفسهن لمقاول العمال أو الأجنبى الذى كان يفتنهن بقليل من المال ، ولذلك انتشرت الأمراض التناسلية ؛ فضلاً عن السُل والملاريا؛ فقد تفشت الخلاعة وانتشر الانحطاط فى أراكاتاكا ، حتى بدأ الناس الطيبون الذين لم ينخرطوا فى هذا الجو الفاسد يعلنون بهم الأمر أنهم تمنوا من أعماقهم أن يحل بالقرية عِقابٌ إلهى. وعلى ما يبدو لم تتأخر الاستجابة لتوسلاتهم وتضرعهم ؛ ففى مايو ١٩١٤ ظهر أسوأ الأوبئة فى القرية : وباء الإستاكوزا[١٩].

لقد عمَّ الذعر ، ولم يكن ذلك لأن أراكاتاكا كانت قد عانت من ذلك الوباء منذ سبع سنوات مضت ، حيث قضى هذا الوباء على الثمار والزروع ، وعلاوة على ذلك فإنَّ هذا الوباء جاء مسبوقًا بأنباء تتحدث عن كوارث هائلة بالمراكز الأخرى. وكما فى أوقات الجدب الماضية انتعل الجنرال بينخامين إيريرا حذاءه وتزعم أهل أراكاتاكا للتصدى فى معركة حربية ضد الطبيعة. لقد تسلح الجميع بالذخائر وخاضوا معركة حيث تمكنوا من ترويع هذه الحشود الجرارة من الحشرات ، ولكن شيوع فكرة بأنَّ أراكاتاكا ، (مثل ماكوندو تمامًا) ، كانت قرية مكتوبًا عليها أن تُعانى من الأوبئة المذكورة فى الإنجيل. لذلك ظلت هذه الفكرة مهيمنة على أهالى أراكاتاكا .

كانت احتفالات الكرنفالات الأولى فى فبراير من العام التالى بمثابة الأسطورة وتكريس كل شىء للإسراف الذى شجعته شركات الموز. لقد جاء إلى أراكاتاكا أناس من جميع القُرى والمحافظة ، وقد وصل إليها الغجر مرة أخرى بقدورهم ، وأوعيتهم والثلج قُبيل أن يأتى أحد إلى أراكاتاكا ، وهو الذى كان قد تحول إلى سلعة شعبية آنذاك. كما وصلت إلى القرية فرق موسيقية شعبية عديدة ، ووصل سحرة الثعابين ؛ فضلاً عن

جميع أنواع التجار الذين عرضوا للجمهور مساحيق العصفور ماكوا لممارسة أعمال السحر على النسوة النواشز ، وكذلك عين الإبل الآبق أو الشارد ، والليمون الجاف فى شرائح على شكل صليب لطرد الأرواح الشريرة ، وضروس سانتا بولونيا لجلب الحظ فى ألعاب النرد، وفك الثعلبة لخصوبة المحاصيل ، والأطفال على هيئة صليب للفوز فى المشاجرات ؛ فضلاً عن مراهنات القوة وردم الخفاش للسير ليلاً دون إزعاج من الأرواح الشريرة[٢٠]. وعلى مدى أربعة أيام من الأعياد فى أراكاتاكا تنتهى بعيد يحضره جمهور غفير لم يتخلف عنه أحد ؛ فالجميع بأقنعتهم وزيهم التنكرى[٢١].

وفى سوق البازار العربى حيث كان يُباع كل ما يمكن بيعه ، كل شيء يمكن أن يخطر على البال. وبلا شك ؛ كان ذلك الكرنفال الأوَّل بمثابة التعبير عن الفرحة الغامرة بالواقعية السحرية التى عرفتها أراكاتاكا . ومن ذلك الحين انتشرت أسطورة الكرنفالات ؛ فهى تمثل أهم عناصر فى الفولكلور الساحلى ، وتبذير الأموال فى رقصة لا كومبيا ، والثروات اللا متناهية للرخاء والازدهار بلا حدود ، وبذلك فإنَّ عام ١٩١٥ قد اعتبر بمثابة عيد الظهور المسيحى فى تاريخ المكان ، وحتى أن جارثيا ماركيز نفسه قام بتسجيله فى " الورقة الساقطة" مثل العام الذى أصبحت فيه ماكوندو أكثر ازدهاراً ورخاءً .

وقد كان هذا العام مهمًا فى تاريخ القرية ، ولكنه لم يستمر كذلك إلا حتى عام ١٩٢٤ تقريبًا حيث أدركت أراكاتاكا أوج تطورها القاتل. وعندما انتهت الحرب العالمية الأولى ، وما بين ١٩١٨ ، ١٩٢٤ تمخضت عن معظم الهجرة الأوروبية والعربية ، مما أدى إلى ترسيخ الأسر الجديدة الشهيرة مثل : سعد ونجَّار وحتوم وسباثينو وفاضول وديكولا ديل بيتشيو وبارونيسى ودى رومينيكو وفيرجسون وداكونتى وبارليتا ويانيسى ، وكانت هذه الأسر صاحبة الفضل فى تأسيس أراكاتاكا الحديثة. وعلى سبيل المثال فإنَّ الإيطالى داكونتى لم يكن فقط صاحب الفضل فى إدخال السينما الصامتة ، بل أيضًا التصوير الصوتى أو المحاكى ، وأوَّل أجهزة استقبال الإذاعة ، وصالة البلياردو ، وتأجير الدرَّاجات[٢٢]. أما فى المجال التجارى ؛ فقد دانت الهيمنة للعرب ولليهود ؛ وبالتالى ؛ فإنَّ حىَّ كتاكيتا ، وقطاع النواصى الأربع ، وشارع لوس توركوس (الأتراك) شهدوا حالة من الحركة التجارية والازدهار ، مما جعل من المستحيل مجرد الارتياب فى أنَّ التدهور سيحدق بالقرية قريبًا .

إن سجل هذا الازدهار الأخير كان يكمن فى زهو المجتمع بالأثرياء الجدد الذين أُطلِقَ عليهم بالعامية خاى لاى وبالإنجليزية هاى لايف " الحياة الرغدة" ، وكانت تضم تجاراً ومهربين وغشاشين وسماسرة بورصة ومرابين ، أُناسُ كوَّنوا ثراءً ، ونمواً فى ظل زراعات الموز ؛ فعلى سبيل المثال كان أوريليانو سيجوندو وزمرة أصدقائه يقيمون حفلات بذخ حيث كانوا يحضرون الفرق الموسيقية خصيصاً من بارَّانكيو ، وكانوا يعلقون فى منازلهم مصابيح زجاجية غريبة على شكل العنكبوت ، وكذلك أجهزة البيانو التى لم يعرف أحد العزف عليها ، وأثاثاً من فيينا مرصَّع بالفضة ، وسجاجيد من القطيفة فى قرية تصل فيها درجة الحرارة فى الظل إلى ٣٠ درجة مئوية ، ومسجلات جلبوها من التهريب. وكان جهاز التسجيل يعرف باسم الأورتوفونيكا ، وقد أحدث المسجل ثورة كبيرة فى عادات مجتمع كاتاكا حيث أنَّه حل محل الفرق الموسيقية فى حفلات السينما الصامتة ، وكذلك فى صالات الرقص وفى بيوت الهوى ، كما أدى إلى انتشار جميع أنواع الموسيقى فى بابل الموز.

وخلال هذه الحقبة العجيبة عرفت أراكاتاكا الضوء الكهربائى ، وقد كونت أول أوركسترا لها ، وتم تشييد المسقى الكبير من الأسمنت لكى تشرب الماشية ، كما تطور تشييد المعبد (الكنيسة) ومبنى اليانصيب الذى كان يقتصر لعبه على المنازل ، ولكنه خرج إلى الشارع لكى يكون أهم وأعظم حدث أسبوعى فى القرية ، وقد ازدهرت فى ظله أنشطة اقتصادية واجتماعية أخرى.

ولكن مظاهر التقدم هذه التى حدثت على مدى حقبتين فقط لم تكن تسمح للوهلة الأولى بالتنبؤ بالتدهور المأساوى الذى سيلحق بأراكاتاكا اعتباراً من مذبحة مزارع الموز فى ديسمبر عام ١٩٢٨ . ولكن كان يكفى خدش جزء يسير من الغلاف الاجتماعى لكى نعرف عن يقين بأنَّ الجوهر المغلف أو الخفى لهذا كان ينطوى على مأساة أكثر من الرخاء والازدهار ، وأن المشاكل لم تنحسر ، ولم تُحَلْ بل كانت تتراكم؛ ولذلك ففى عام المذبحة وتفشى أوبئة البطالة ، وانتشار الفقر المدقع ، والتكدس وإدمان الكحوليات ، والدعارة والسُل ، والأمراض التناسلية ؛ بلغ كل ذلك درجة من التناقض الذى لم يكن من الممكن تحملها بالوجه الحسن للتجارة بعيداً عن مزارع الموز ، ولذلك فقد ظهر على مسرح الأحداث زعماء النقابات ، وأشعلوا الفتيل بالدعوة إلى إضراب مأساوى وتذكارى خاصة أنه أسر إحساس وخيال طفل وُلِدَ منذ ما يقرب من عامين أو ثلاثة أعوام.

وكان أحد مظاهر ذلك الإضراب الملفتة للنظر هو الشُّح الرسمى فى الإحصائية المرعبة لضحاياه: اعترفت الحكومة فقط بتسعة قتلى بينما ذكر الشهود والباقون على قيد الحياة بأنَّ الضحايا كانوا بالمئات[٢٣]. إن الموقف الوقح والمخزى للنظام المحافظ برئاسة ميجيل أباديا مينديث ظل فى ذاكرة الشعب كالخميرة ليس فقط لأنها غذت الكراهية الشاملة ضد النظام الحاكم ؛ بل أيضًا ذكرت أنَّ عدد ضحايا هذا الإضراب وصل إلى ثلاثة آلاف قتيل على الرغم من أن التقرير الحكومى لم يذكر سوى تسعة من القتلى.

وربما لم يعرف على وجه الدقة عدد القتلى ، ولكن بكل تأكيد لم يكن قليلاً كما ذكرت الإحصائية الحكومية " تسعة قتلى" ، كما لم يصل إلى ثلاثة آلاف ، ومن المعقول الحديث عن عدة مئات من القتلى ؛ فهو أقرب إلى الصواب ؛ أما الصحف القومية فقد ذكرت فى البداية تسعة قتلى استنادًا إلى الإحصائية الحكومية إلا أنها فيما بعد عادت وتحدثت عما لا يقل عن مائة من القتلى. تحدثت جريدة الصحافة فى بارأنكيا عن ١٠٠ قتيل[٢٤]، الاسبكتادور فى بوجوتا تحدثت عن ألف قتيل[٢٥] ، بينما تحدثت صحف أخرى عن ثلاثمائة أو ألف وخمسمائة ، وعن ثلاثة آلاف قتيل. أمَّا الزعيم الليبرالى خورخى إليسير جايتان ؛ فقد تحدث فى البرلمان عن مئات القتلى نتيجة ضربهم بالرشاشات القاتلة. أما قُنصل الولايات المتحدة الأمريكية فقد أعدَّ تقريرًا عُرِف بعد ذلك بسنوات ذكر فيه أنَّ القتلى تجاوز عددهم الألف شخص[٢٦]. وقد أكد إدواردو مايتشا الزعيم الرئيسى للإضراب فى منفاه بأن عدد الضحايا على أيدى الجيش تجاوز مائتى شخص[٢٧]. أما جارثيا ماركيز نفسه ؛ فقد اعترف بعد أربعة وستين عامًا ، حيث ذكر بشأن الإحصائية أنها نشأت وترعرعت على فكرة أنَّ الضحايا كانوا كثيرين: كانوا آلافًا من القتلى. وعندما اكتشف أنَّ الملفات تنص على سبعة قتلى فقط تساءلت: فى أى مذبحة يمكننا الحديث عن سبعة قتلى فقط ، حينئذٍ حولت عناقيد الموز إلى قتلى ، وقد ملأت عربات القطار لأنَّه بسبعة من القتلى لم أكن أستطيع ملء عربات القطار. وحينئذٍ قلت فى القصة لقد كان القتلى ثلاثة آلاف قتيل فى تلك المذبحة ، وقد ألقيت بهم فى البحر. إنَّ هذا لم يحدث ؛ لقد كان اختراعًا[٢٨]. لقد كان اختراعًا من الشعب ، وكما هو المعتاد دائمًا ؛ فقد أصاب القصاص عندما حوَّل الخيال إلى حقيقة لأن ظهور "مائة عام من العزلة" كشفت بوضوح الصفحة المخزية فى التاريخ الكولومبى بإحصائيتها الزائفة ،

ومنذ عام ١٩٦٧ ، بدأ ومعظم الكولومبيين يتحدثون عن ثلاثة آلاف من القتلى فى مزارع موز ماجدلينا ، وهو الرقم الذى أعلن عنه فى ماكوندو خوسيه أركاديو سيجوندو بمفرده حتى وفاته.

ومع ذلك ؛ فهناك احتمال بأنَّ هذا الرقم لم يكن فقط مبالغة انطوت عليها الذاكرة الشعبية ، أو مبالغة نتاج خيال جارثيا ماركيز ، وخاصة إذا أخذنا فى الحُسبان أنه بعد مذبحة محطة السكلة الحديد فى ٦ ديسمبر ١٩٢٨ فى ثيرناجا قام جنود الجنرال كارلوس كورتيس بارجاس بإطلاق الرصاص فى كل من بويبلو بييخو ، وإشبيلية ، وجواكامايال و أراكاتاكا ، واضطهدوا وأعدموا جميع المشتبه فيهم بأنهم من المضربين على مدى ثلاثة أشهر من الذعر المستمر فى هذه المنطقة الشاسعة[٢٩].

وفجأة يستحضر جارثيا ماركيز فى الدردشات العالمية تلك الأمسيات التى كان يتجول فيها الجنود فى شوارع أراكاتاكا وهم يمرون أمام منزله. ويسترجع بدقة ما كان يقوله له الجنود وهم يحيونه " مع السلامة ياجابيتو الجميل"[٣٠]. وكانت والدته وإخوته يستمعون إليه بآذان غير صاغية ، حيث بدا لهم أنَّها ذكرى تفوق ذاكرة طفل لم يكن يتعدى عمره عامين آنذاك. ومما هو مؤكدُ على أية حالٍ هو أن خيال الكاتب - بالإضافة إلى ما حكاه له جده عن المذبحة - كانا يمثلان إحدى الخمائر القوية لتكوينه الأيدولوجى ، وإحدى الأفكار الأدبية الراسخة التى تركزت فى ذهنه. ويقول شقيقه لويس إنريكى إنَّ الكاتب غيرَّ تاريخ ميلاده لكى يتوافق مع المذبحة الكبرى. وعلى أيَّة حالٍ ؛ فمن المؤكد أنَّ ذلك الإضراب ونهايته الدامية كان أحد الأحداث المهمة فى تاريخ كولومبيا خلال القرن التاسع عشر. لقد كان جرحًا حتميًا وداميًا يجعل هذه المأساة البطيئة والمستترة مأساة ظاهرة لمزارع الموز تنزف باستمرار ، وقد حُفِرت بشكلٍ لا يُطمس فى الوعى التاريخى لشعب بأكمله.

ومنذ عام ١٩١٨ شُوهِدت الأحداث على أنها حتمية على المدى القصير. وبعد ذلك بخمسة عشر عامًا من الاستغلال السهل قام العمال بصورة تلقائية باستثمار الرياح الأخيرة لثورة أكتوبر ، وخططوا لإضراب كبير قامت حكومة المحافظ " ماركو فيدل سواريث" بالقضاء عليه فورًا. وبعد ذلك بستة أعوام أصبح التخطيط واقعًا ، ولكن عدم

وجود قيادة وتنظيم أصابا الأضراب بالوهن والضعف وقُضِى عليه عسكرياً. وقد تزايد القهر العسكرى فى المنطقة بأسرها فى عهد حكومة بيدرو نيل أوسبينا. ومع ذلك ، فقد بقى من الهزيمتين ضرورة واقتناع بأنَّه يتحتم على عُمال مزارع الموز تنظيم أنفسهم لإضراب شامل ونهائى ، حيث إن شركة الفواكه المتحدة ، وشركات الموز التى يمتلكها أبناء الأوربيين المقيمين فى كولومبيا لم تُرِدْ حتى مجرد الاستماع إلى تحسين الظروف العمالية المتدنية وأجورهم الزهيدة.

وفى ظل تلك الظروف ظهر الزعماء النقابيون ألبرتو كاستريون وإراسمو كورونيل وإدواردو مايتشا وآخرون ، وهم الذين هُزموا فى الإضرابين الأخيرين فى باخو ماجدلينا (ماجدلينا الدنيا). لقد كان الأسطورى مايتشا فوضوياً شيوعياً أكثر تلقائية منه صاحب نظرية ، ولكنه داهية وعارف كبير بالحركة العمالية الكولومبية ، كما كان خطيباً مفوهاً ، وكان يُجيد الكتابة. كما كان طبيبًا تجانسيًا فى الخفاء ، وكانت لديه القدرة على استخراج أو استئصال حصاة من الكبد ، وهو مثل الفوضوى أليريو نوجيرا فى " مائة عام من العزلة" استخدم الطب التجانسى كطُعم لاكتساب مؤيديه(٣١). ولم يتأخر كثيراً حتى أصبح الزعيم الرئيسى للاتحاد النقابى للعمال فى ماجدلينا ، والذى وُلِدَ فى جواكا مايال قبل ذلك بعامين. وفى مطبعته المتنقلة التى كانت أكبر حليف له ؛ بدأ مايتشا فى تنمية الوعى النقابى والسياسى بين العُمال مقنعًا إياهم بضرورة القيام بإضراب عام يقصف رأس الحكومة وأرباب العمل. وبمساندة من منازل الشعب الكثيرة؛ فإن مُضربى عام ١٩٢٨ اتفقوا وحرروا فى ثيناجا منشوراً بالمطالب تضمن تسعة بنود أو نقاط: إقرار التأمين الجماعى ، التعويض فى حالة إصابات العمل ، راحة أسبوعية يوم الأحد مدفوعة الأجر ، ومنازل صحية ، وزيادة الأجور بمقدار ٥٠٪ ، وإزالة أقسام الشرطة من منطقة زراعات الموز ، إلغاء دفع الأجور كل أسبوعين وجعله أسبوعيًا ، إلغاء التعاقدات الفردية ، وسريان مفعول التعاقدات الجماعية ، وإنشاء مستشفى لكل أربعمائة عامل ، وطبيب لكل مائتى عامل ، توسيع وتحسين مخيمات العمال صحيًا(٣٢). وكان معظم هذه المطالب تتفق مع ما نص عليه الدستور والقوانين الكولومبية.

ومع ذلك ، وعلى الرغم من كثرة الأسباب السياسية والأخلاقية لكى ينجح الإضراب فإنه فقد جانبًا مهمًا بين أروقة وكواليس السياسة . لقد كان زعماؤه

فوضويين وشيوعيين متحمسين من جراًء الانتصارات العمالية الأخيرة فى الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا بشكل لم يخفوا معه طموحاتهم التى تجاوزت العمل النقابى المحض. ولكن أكبر صعوبة للتفاوض كانت تكمن فى أن شركة الفواكه المتحدة كان اقتصادها استعمارياً . كانت دولة داخل الدولة الكولومبية ، وهى التى بفضل مراوغاتها القانونية لم تكن مسئولة من الناحية القانونية عن العمال المضربين ، ولزيادة الطين بلة ؛ فإنَّ حكومة ميجيل أباديا ميندث المحافظة كانت كسابقاتها تخدم بصورة عمياء الشركة الأمريكية.

وبعد إضراب دام شهراً تقريبًا تسبب فى خسائر اقتصادية فادحة ، وحالة من التوتر المتزايد مقترنًا بالتخريب وأعمال السلب ، أعلنت السُلطات اضطراب الأمن ، وأصدرت أمراً بحظر التجول فى المنطقة بأسرها قُبيل حدوث المذبحة. وكانت لجنة الوساطة المشكلة من الجنرال خوسيه روساريو دوران ، والعقيد نيقولاس ماركيز[٣٣] قد فشلت فى اليوم نفسة ، ربما لأنه كان قد صدر الأمر بمواجهة المضربين بأيدٍ من حديد. وكان هؤلاء يريدون التجمع فى ثييناجا من مختلف جهات المنطقة ، والقيام بمسيرة إلى سانتا مارتا للقيام بمظاهرة أمام السُلطات الحكومية ، ولكن فى صبيحة ٦ ديسمبر ، وعندما تواجد ثلاثة آلاف عامل فى محطة السكة الحديد فى ثييناجا طُلِبَ منهم ألا يفعلوا شيئًا ، وفجأة جاء المحافظ ، ومدير شركة الفواكه المتحدة بحثًا عن حلٍ معهم بشأن منشور المطالب. لقد كانت خدعة قاتلة ، لأنه بدلاً من أنْ يأتى المحافظ ومدير الشركة ظهر الجنرال كارلوس كورتيس بارجاس قائد المنطقة المدنى والعسكرى ، وبرفقته ثلاثمائة جندى وأغلق مداخل الشوارع ، وحاصر العُمال بالمحطة وتلا عليهم "مرسومه رقم ١" ، وأمرهم بإنهاء المظاهرة تحت تهديد النيران ، وقد منحهم خمس دقائق للانصراف . لم ينسحب أحد ، وقد منحهم الجنرال دقيقة إضافية ، وحينئذٍ صاح صوت قوى فى الحشود الصامتة قائلاً : سنهديكم الدقيقة الباقية[٣٤].

وقد ظهرت تفاصيل المذبحة ، وكذلك الجنرال كورتيس بارجاس ومرسومه الأعلى رقم ٤[٣٥] فى " مائة عام من العزلة" من جانب واحد والذى باستثنائيته الذاتية كان يوجه الاتهامات بلا خطأ . وكانت الساعة المشئومة ما بين الواحدة والنصف والثانية صباح ٦ ديسمبر١٩٢٨، وفى تمام السادسة فقط تم رفع الجثث. وكان هناك وقت كافٍ

لكى يقوم الجنرال كورتيس بارجاس بإعداد أحصائيته الخرقاء بشأن عدد القتلى ، وتقليص عددهم من المئات إلى تسعة من القتلى فقط . كان العدد مشكوكًا فيه مثلما كانت المطالب التى نص عليها منشور العمال[٣٦]. لقد اشتد المناخ العدائى بالقرية تجاه شركة الفواكه المتحدة بسبب المحاكم البرلمانية التى تزعمها الشاب اللامع والزعيم الليبرالى خورخى إليسير جايتان[٣٧]، والتى أثبت فيها بالأدلة والشهادات التى تم جمعها فى المنطقة نفسها ، فضلاً عن سبل التعسُف التى كانت تمارسها الشركة الأمريكية ، وكذلك مصلحة حكومة ميجيل أباديا ميندث ، ومذبحة المضربين على أيدى جنود الجنرال كارلوس كورتيس بارجاس . إن الجو العدائى الناشئ ضد الشركة الأمريكية قد اشتد ، ولم يعد من السهل عليها تدبير شئونها على هواها وكما تريد. ومع ذلك ؛ كانت الأزمة الاقتصادية العالمية فى عام ١٩٢٩ - التى قلّصت بشكلٍ مأساوى حصص التصدير - وكذلك فيضانات ١٩٣٢ أديا إلى انحسار وانكماش شركة الفواكه المتحدة بالمنطقة .

وكما يُقرأ فى " مائة عام من العزلة" ، فبعد مذبحة العمال بساعات قليلة عصف طوفان إنجيلى ، كأنَّه عقاب سماوى ضد شعب ماكدندو وضد شركة الموز الأمريكية. وفى الواقع كان الأمر على عكس ذلك تمامًا ، فلم تكن الشركة شريكة فى الجريمة ، بل كانت شريكة فى العقاب. ففى شهر أكتوبر من ذلك العام هطل طوفان من المياه لمدة بضعة أيام وليالٍ مما أدى إلى فيضان مياه الأنهار والسواقى وأغرق المنطقة الريفية الغربية فى أراكاتاكا ومعظم محيطها العمرانى . وحدثت الكارثة على وجه الخصوص فى القناة التى يبلغ طولها تسعة كيلومترات ، والتى قامت بتشييدها شركة الفواكه المتحدة للربط بين أنهار أراكاتاكا وسان خواكين وآخى. إنّ هطول الأمطار بغزارة ، والفيضانات بلغت الذروة لدرجة أن أهل كاتاكا فكروا فى أن ما يحدث لهم هو على غرار الطوفان العالمى ، كما جاء فى " مناجاة إيسابيل عندما شاهدت هطول الأمطار فى ماكوندو" وفى نفس عبارات الوصف التى تضمنتها " مائة عام من العزلة" ، فقد أصبح العالم الريفى ينحسر فى كونه محيطًا من الوحل على مدى أيام وليالٍ. لقد كانت أكبر كارثة بحق فى تاريخ القرية ؛ بل تجاوز فيضان ١٩١٢ ، ووباء الإستاكوزا فى ١٩١٤ . وكان هناك الكثيرون الذين روّجوا ذلك الحزن على أنه عقاب من السماء لمكابرة وعناد الأجانب ، ومصائب الإضراب ، وتبديد وإسراف الأموال فى الرقص واللهو الإفراط فى

المأكل والمشرب بما فى ذلك سكانها المهمشين. وتفاديًا لحدوث فيضانات مستقبلية ؛ قامت شركة الفواكه المتحدة بتحويل مجرى النهر وأبعدته عن القرية كما ينبغى أن يكون فى ماكوندو.

وفى تلك الأثناء الذى حلت فيه هذه المصيبة المدمرة على المنطقة بأسرها ، كان جارثيا ماركيز قد بلغ من العمر خمسة أعوام وثمانية أشهر ؛ ففى السن نفسة الذى كان لدى أستاذه مانويل ديفوى عندما اجتاح الطاعون الكبير لندن فى ١٦٦٥ عندما كان يعيش فى منزل أجداده ، والذى شاهد من خلاله ذلك الطوفان وآثاره المدمرة وهو الذى بعد أربعة وثلاثين عامًا سيصب جام غضبه من جديد على ماكوندو طوال أربع سنوات وأحد عشر شهراً ويومين .

وعندما رأت شركة الفواكه المتحدة أنها لا تستطيع التملص من المسئولية ، ولكنها تفادتها بكل الأشكال ، وتجملت قليلاً حيث غيرت اسمها إلى شركة ماجدلينا للفواكه ، ونوهت بأنها سترحل. وقد قامت بتفكيك العنابر الكهربائية ، وحمامات السباحة ، والمناطق الخضراء ، وملاعب التنس ، وتركوها طعمة سائغة للطبيعة المدارية . لقد رحل كثيرٌ من التجار ومعظم الأسر الأرستقراطية من الأثرياء الجُدد . لقد رحلوا بمصابيحهم الزجاجية ، وأجهزة البيانو الفاخرة ، ومسجلاتهم وبسطهم وفُرُشهم وحفلات عربدتهم وسكرهم، وقد بقيت أراكاتاكا عارية كما كانت فى البداية ، وإن كانت قد نعمت بعد ذلك بلحظات من السلام والازدهار النسبى ، فإنها ستعيش فى المستقبل فترة احتضار بطئ دون هوادة أو رحمة أدت إلى التدهور والعزلة ، كما وجدها جارثيا ماركيز فى مارس ١٩٥٢ ، عندما عاد مع والدته لكى يبيعا منزل الأجداد.

الفصل الثالث

- موظف البرق والتلغراف وكريمه العقيد .
- خطوبة القصة .
- المولد الملعن .
- بوليفار فى بارانكيا .
- اللقاء الأول مع الأم .
- منزل الميلاد (مسقط الرأس) .
- العمات وينفريدا وألبيرا وأفرانشيكا .
- جابيتو والجد نيقولاس .
- من الميت إلى لوس أنيميس شخصيات من القرية .
- ماكوندو الجان الألفى .
- من الرسم إلى الأبجدية .
- روسا أبلدنا فيرحبسون ومدرسة موتيسورى .
- ألف ليلة وليلة .
- رحيل أسرة جارثيا ماركيز .
- وفاة الجد نيقولاس .
- وداعًا أراكاتاكا .
- إعصار من الأساطير .

وفى يوم حار من شهر يوليه ١٩٢٤ وفى ذروة (الموز الذهبى) ظهر فى المنزل الكبير المضياف لأسرة ماركيز دى إيجواران شاب أسمر فى الثالثة والعشرين من العمر نحيف مضحاك وانسيابى الحديث حاضر النكتة .قدَّم الشابُ نفسه للعقيد العجوز بخطاب توصية أعطاه إياه قسيس فى قرطاجنة الهندية ؛ صديق لذلك العقيد. لقد كان عامل البرق الجديد فى أراكاتاكا و قد أخفى تحت بشرته البشوشه حالم محنَّك يهوى الشعر الغرامى و الكمان .

وُلِدَ جابر ييل إيليخيو جارثيا مارتينيث فى سينثيه ، سوكرى فى١ ديسمبر ١٩٠١ وكان ابنًا غير شرعى لجابرييل مارتينث جاريدو أخيميرا جارثيا باترينا التى رُزِقت به و هى فى الرابعة عشرة من عمرها . و اللقب جارثيا و كذلك ماركيز من أصل إسبانى ، و من المحتمل أن يكون قد حلَّ بالمنطقه فى الحقب الأولى من القرن التاسع عشر مع جدود أجداد الكاتب بيدرو جارثيا جوردوت المولود فى مدريد. وقد رُزِقَ بولد فى كايسيتو بسوكرى وأسمته أميناداب جارثيا الذى تَزَوَّج بمواطنة من سينثيلخو تدعى لوثانا باترنينا[1] ، و كانا هما والدى جدة القصاص لأبيه أرخيميرا جارثيا باترنينا. وهكذا لم يأت فقط لقب جارثيا ماركيز من شبه الجزيرة الأيبيرية ، بل إن كلا اللقبين وصلا إليه عن طريق و الدته كل هذا مقدمة للتأثير الحاسم الذى ستلعبه السيدات فى حياه جارثيا ماركيز .

و فى سينثيه قضى جابرييل إيلخيو طفولته و شبابه و سط ظروف اقتصادية صعبة. و مع ذلك استطاع الحصول علي الثانوية و دخول الجامعة. و فى مطلع العشرينيات التحق ببعض الدورات الدراسية بمدرسة طب الأسنان بجامعة كارتخينا [2] ، و لكن الفقر اضطره إلى ترك قاعات المحاضرات مما جعله يتنقل ما بين ١٩٢٣ و ١٩٢٤ بين عدة قرى لمقاطعات قرطبة ، وسوكرى ، و بوليبار متناوبًا بين عمله كموظف البرق ومهنته البسيطه كطبيب تجانسى. و فى مجانجى الوطن الأصغر لميرسيدس بارشا كان له الشرف فى كونه أول عامل تلغراف ، ثم بعد ذلك انتقل الى عدة قرى من بينها تولو

وسينثيلخو. و فى أتشيه رُزِق بأول أبنائه الأربعة غير الشرعيين ، لينقل بصفة عاجلة إلى ثينتورا و كايميتو ، وأيابيل حيث تعرف على المرة التى ستكون زوجته طوال حياته : كارميلينا إيرموسيا. ولكن القدر حرَّك الأوراق فى موعدها ، وفى بارا نكيا – حيث ذهب جابرييل ايلخيو ليشترى لوازم زواجه – التقى بنجل عمه كارلوس إينريكى باريخا الذى نزع من ذهنه فكره الزواج المبكر[٣]، فلم يكن الخطيب قد بلغ العشرين من عمره، و كان عقله مفعمًا بالأشعار الغرامية ، حينئذٍ لجأ جابرييل إيلخيو إلى معارفه واستطاع التعيين فى و ظيفه عامل برق ، و فى أراكاتاكا فى قلب منطقه زراعات الموز .

والأب أجوادو الذى أعطاه خطاب التوصية للعجوز ماركيز كان مرتدًا (أى قسيس كاثوليكى اعتنق المذهب البروستانتى) ، وعندما سلمه الرسالة قال له أجوادو: "إنك ستخظى بحُسن الاستقبال فى منزل العقيد لأنه شابٌ مؤدبٌ و ظريفُ و يعزف جيدًا على الكمان ، ويكتب الأشعار. بل إنك يمكن أن تصبح أحد أفراد أسرته لأن لديه بنتًا حسناء[٤]". ويبدو أن كلمات الأب المرتد كان لها مفعول السحر بمجرد و صول جابرييل إيلخيو إلى أراكاتاكا ؛ فقد استقبله العقيدُ بأكبر مشاعر الود الحب و دعاه ليتناول الطعام ، و فى اليوم التالى لوصوله رافقه إلى سانتا مارتا حيث كانت تقضى أسرته عطلة الصيف لكى يقدمه إليها، و عندما و صلوا إلى محطة المدينة الاستيطانية اشترى العقيد طائرًا صغيرًا يُطلق عليه قُنبرة بقفصه ، وأعطاه لجابرييل إيلخيو لكى يُهديه الى كريمته. حينئذ تعرف عامل البرق على لويسا سانتياجا ماركيز إيجواران و باقى الأسرة. و لكن على الرغم من جمالها فإن بنت العقيد لم تترك لديه انطباعًا جذابًا فى البداية[٥] .

لقد تولّى موظف التلغراف فى أراكاتاكا مهام منصبه بالمبنى الذى يوجد خلف الكنيسه على بُعد بضعة مبانى من منزل ماركيز إيجواران. وكان الأبُّ المرتدُ فى كارتخينا قد أعطاه رسالة أخرى إلى راعى كنيسه أراكاتاكا ، وقد تسلَّمها الأبُّ ميرابال بنفس الحماس مثل العقيد تمامًا ، وقد ضمَّه إلى كورال الكنيسة كعازف كمان هاوى فى فرقه الكنيسة " بنات مريم" ، وهُنَّ عشرون فتاة فى مقتبل العمر كُنَّ تُحَلِّقْنَ كالحمامات ، حيث كان عامل البرق على شفتيه بيت من الشعر يراوده وخاصه للمعلمة الأولى لجارثيا ماركيز التى تحولت أعين الفتيات الأخريات إليه فإن جابرييل إيلخيو

وضع عينيه على إحداهن، ولكن فى واقع الأمر لم يشعر موظف البرق بالجاذبية تجاهها وقد ركّز كل وجدانه من أجل كريمة العقيد. ومع ذلك فعندما سألت لويسا سانتياجا جابرييل إيلخيو ردَّ عليها بضحكة طويلة: سريعًا ستكونين يا آنسه لويسا والدتى عند التعميد(٦) ومنذ ذلك الحين ساد التعامل بينهماعلى أنها الأم التى تبنته وهو ابنها المتبنىَ.

وفى يومٍ ما أصيبت الأم المتبنية بشرٍ ، وقد وصف لها الطبيب أن تذهب إلى مكان معتدل الحرارة فأرسلها الوالدان إلى ماناورى ديل تشار ما بين مرتفعات بريخا وجنوب شرق سيرًا نيبادا فى سانتا ماريا .لقد كانت أجمل قرى العالم ؛ بها شارع واسع فقط ومنازلها من طراز واحد، وفى هضبة خضراء يخيم عليها صمت خارق للطبيعة(٧) وعندما رآها جارثيا ماركيز بعد ثلاثين عامًا تذكر عندما زارها فى تلك الرحلة الصامتة بحثًا عن أصل جدوده. وكان غياب طفلة أراكاتاكا الجميلة بمثابة المعجزة التى لعبت دورها النهائى لدى موظف البرق العاشق الولهان .

وعندما عادت بعد ذلك بشهر ذهب الابن المتبنى لاستقبالها فى المحطه بين كبار القوم فى أراكاتاكا وكان يرتدى حُلةً رائعةً اشتراها بفضل كسبه لليانصيب بما قيمته مانتا بيزو قُبيل ذلك بقليل ."لقد حييتها وصافحتُها بحنانٍ بالغ . وقد ردت علىَّ بنفس الطريقه وسلمتنى بعض الحلوى كانت قد جلبتها له . ولم تنطق ببنت شفه، ولكن مع اهتزاز الأيدى عند المصافحه شعرت أنها تحس بشىء تجاهى(٨)".

وبعد ذلك ببضعه أيام التقيا مرَّة أخرى فى قُداس الأحد ، وتبادلا النظرات من بين رؤوس الحاضرين. وبالنسبه لجابرييل إيلخيو لم يكن لديه أدنى شك فى أن الثمرةَ حان قطفُها، وعند ذلك فى يوم شديد الحر فى شهر مارس ١٩٢٥ أفصح عن حبه لطفلة أراكاتاكا الفاتنة ، واقترح عليها الزواج فى ظل شجرة لوز بمنزل ماركيز إجواران وأكَّدَ لها أنها كانت سبب أرقه وسهاده ، ولم يكن أحد غيرها يسكن قلبه ، وأن لديه ضرورات ملحة لكى يتزوج منها دون مماطلة أو تسويف ، وقد أعطاها مهلة ٢٤ ساعة لكى تتدبر الأمر. فقط أربعٌ وعشرون ساعة ، ومع ذلك لم تستطع إخباره بقرارها عند انتهاء المهلة المحددة ، حيث اقتربت خالتها (بنت عمة والدتها) من شجرة اللوز ، وهى فرانثيسكا ثيموبوسيا ميخيا ، وهى نموذج الخالة المتكلمة داثا فى "الحب فى زمن الغضب" ، التى

لقبها جابرييل إيلخيو بالحارسة لأنها لم تفارق نجلة شقيقتها لحظة واحدة ، وأصبحت بمثابة العائق أمام شاب كاتاكا عندما كان يريد مغازلة حبيبته[٩]. و قد كان يعلم ذلك جيداً ماريانو بيرينتيثي " الشاعر" أحد الجيران و قريب من بعيد للويسا ، وهو الذى كان ينوى حبها على غرار حصان طروادة بأشعاره ، حتى علم بذلك العقيد و الخالة فرانثيسكا ، ووضعوا نهاية لمزاعمه. بيرينتيثي كان ابن شقيقة لنجلة غير شرعية للعقيد ، وبالتالى فلم يكن معه أى مستقبل للويسا : كان شاعراً يمجد الزنا بالمحارم . وتحتم على فلورينسيو إريثا حقيقة الانتظار حتى "الحب فى زمن الغضب" لكى يستطيع الزواج من حبه الأول و الأوحد فى حياته بعد فترة خطوبة قصيرة، و بعد خمسين عاماً من الانتظار ، إنها ليست لويسا سانتياجا ماركيز إجواران بل كانت فير مينا داثا .

و بهذا الشكل كان لدى فرانثيسكا ثيموبوسيا الصواب لكى تكون منتبهة للمغازلات الغرامية بين بنت أختها و موظف التلغراف ، ذلك النمط الغريب صاحب النكتة، و كان يقول عن نفسه إنَّه شاعر و كان مغامراً ذا هيئة لا تخطئ ، و كان ذا خُيلاء بأنه طبيب تجانسى و عازف كمان .

و لكن لويسا لم يهدأ لها بال حتى تجد حلاً لهذا الوضع ، ووجدت بالفعل كيفية إبلاغ خطيبها بأنها تنتظره للحديث عن هذا الموضوع ساعة القُداس فى اليوم التالى. وبدون وجود الحارسة. ذهب موظف البرق مباشرة الى لُبِّ الموضوع و هو اقتراح الزواج : حينئذٍ سألت جابرييل إيليخيو. قائلة له : إن لدىَّ بعض الشكوك لأن حضرتك هوائى الغرام .قال جابرييل إيلخيو واثقًا من نفسه : إذا لم ترتبطى بى حضرتك ياآنسة ماركيز فلن أنتظر. فأنا بالنسبه لفتيات كاتاكا عريس عظيم وقوى. سألته لويسا : بما تعدنى ؟. قال لها: أمرٌ واحد يمنعنى من الزواج بكِ وهو الموت فقط. حينئذٍ مدت له يدها وقالت له: وأنا كذلك : لن يمنعنى سوى الموت أن أتزوجك. ولكن تذكر أنَّ أسرتى لا ترغب فى زواجى الآن ويمكن أن تفعل المستحيل لتفادى ذلك الزواج[١٠]. وهذا ما حدث. وعندما علم العقيد ماركيز بارتباط كريمته استاء استياءً جمًا من موظف البرق وأوصد أبواب منزله أمامه ، وكان الموضوع الذى تعللت به أسرة ماركيز إجواران لمنع هذا الزواج هو أنَّ الخطيبين لايزالان شابين للإقدام على هذه الخطوة المحمومة ، ولكنهما فى الواقع لم يكونا كذلك : فقد كانت الفتاة فى العشرين من عمرها ، و هو فى

الرابعــه والعشـرين. ويبدو أنَّ السبب الأكبـر لمعـارضـة الأسـرة هو أنَّ لويسـا لازالت الطفله المُدَلَّلة وعينـى العقـيـد اللـتين يـرى بها. ولكـن ربما تكون هناك أسباب أخرى لم تذكر ، وهى أكثر صلابةً وقوةً : فعلى الرغم من أنَّ أسرة ماركيز دى إجواران قد وُلِدَ أفرادها فى ريو هاتشا وينحدرون إلى أصول أسبانية فكانت لا تزال لديهم بعض العـادات والأوهـام الأسـبـانيـة القديمة المتـأصلة . وعلى الرغم من التكذيبات المتكررة فيما بعد من جانب جابرييل إيلخيو ، وهو أن العقيد لم يكن يشرفه أن يكون جابرييل صهره لأنه كان ابنًا غير شرعى وشابًا مـغامرًا مثل كثير من الغُرباء الذين قَدِموا إلى القرية بسبب شركة الموز . ولزيادة الطين بلة؛ فقد كان موظف التلغراف أسمر اللون جدًا، وكان ينتمى إلى الحزب المحافظ وهو إنْ كان فى وظيفة جيدة فإنه كان يعزف على الكمـان وينظم الشـعر سرًا. والمعـروف أن حزب المحـافظين هو المنافس التـاريخى الكبير لحزب العقيد. كما أن أسرة جابرييل إيلخيو لم يكن لها أصل أرستقراطى فى قرية مثلما كان لأسرة ماركيز إجواران فى أراكاتاكا(١١).

وكـانت لويسـا سـانتـيـاجـا مـاركـيـز إجـواران قـد ولدت فى ٢٥ يوليـه ١٩٠٥ فى بارّانكاس بجواخيرا ، وكان عمرها خمس سنوات عندما استقرت الأسرة فى أراكاتاكا بعد النزوح إلى ريو هاتشا وثيناجا وسانتا مارتا لمدة ٢٢شـهرًا . وبعد وفاة شقيقتها مـارجريتـا أصبحت لويسيتا النجلة الوحيدة لأسرة ماركيث إجواران ، كمـا أنها كانت عينى العقيد اللتين يرى بها. فلم تكن فقط فتاة جميلة على الرغم من نوبات الحمى التى كانت تنتابها باستـمرار ؛ بل كانت أنيـقة الملبس تتـزين بالحُلى والجواهر مما يُضـفى رونقًا جذابًا على هِندامها. كانت بحق أكثر فتيات القرية أناقة وهِندامًا : كانت أجمل فتاة فى أراكاتاكا. وقد أسهمت راهبات مدرسة لابرسنتاثيون فى سانتا مـارتا – حيث كانت تدرس الثانوية – فى زيادة صفاتها الحسنة ومسلكها الحميد ، كما علَّمنها الكتابة بالإسبانيـة الصـحـيـحـة حِفـاظًا على تقـاليد الأسرة العريقة. كـانت تتسم بالإيماءات الجمالية المتـأنية والمنتقاة ، وإحسـاس غريب بالرغبة فى النزاع والمنافسـة ، فضلاً عن حِس أدبى عظيم. وكانت مـحاورة قليلة الكلام، ولكن بتبريرات دقيقـة وحـاسـمـة. وربما يرجع ذلك إلى الخضوع لديها كان دائمًا بمثابة استمرار للطاعة . واعتقد والداها بأنها ستترك موظف البرق بمجرد إبلاغها مـعارضـتهمـا الشديدة لزواجـهـا منه. ولكن السيد

نيقولاس و السيدة ترانكيلينا لم يأخذا فى اعتبارهما عِناد قلب كريمتهما ، وخاصة قلب جابرييل إيلخيو الذى لا يُقهر .

وعندما ترك العقيدُ الحديثَ مع خطيب نجلته فإن الأمر لم يقتصر على هذا فقط ؛ بل أوصد العقيد أبواب منزله فى وجهه ، و مع ذلك فقد فكَّر الخطيبان فى متاهة من الإشارات و الإشارات المضادة و الرسائل و الوسطاء ، لكى يتصلا ببعضهما البعض ويلتقيا كل المرَّات التى يريدانها : عند الخروج من القُدَّاس ، عند مدخل السينما أو فى ميدان بوليبا. وكانت لويسيتا تتلقى رسائل خطيبها من خلال كنياتيكو ساعى البرق أو التلغراف . وفى مرَّات أخرى كان موظف البرق يتسلل سراً داخل صيدلية السيد / أنطونيو باربوسا الكائنة بإحدى النواصى المقابلة لمنزل الخطيبة ليأخذ رسائلها ويترك لها خطاباته، وعبر نافذة صغيرة داخلية كانت تطل على أشجار اللوز حيث كانت تنتظره لويسا ، وكان جابرييل يزورها يوميًا عن بُعد[١٢]، وبمرور الوقت، ومع الحظر التام ذهبت مبادرات موظف التلغراف إلى أبعد من هذا بكثير ، وبدأ يعزف لها بنفسه مقطوعات على الكمان كما سيفعل فيما بعد فلورينتينو أريثا مع فرميناداثا، وكان يرسل لها بالهدايا. ولن ينسى سانتدير إنفانتى صانع الألعاب النارية فى أراكاتاكا اليوم الذى أرسله فيه جابرييل إيلخيو بمنديل إلى لويسا ودفعه فضوله إلى قراءة ما كان به من أشعار " وزهرة الأوركَيد على الضفة المقابلة للنهر خلع عليها الصيف ثيابها وكساها الشتاء / ولم يشعر الماضى / ولم يشعر به يا حبى"[١٣]. وإزاء إصرار موظف البرق الذى تجاوز كافه أنواع الحظر والتقاليد لكى يستمر فى رؤية خطيبته، فقد اعتقد والداها أن الغد كفيل باستئصال شأفة هذا الحب. قام العقيد بالاتصال بأقاربه وأصدقائه فى طريق امتد لأكثر من أربعمائة كيلو متراً انتهى فى سانتا مارتا محاولاً إخفاء نجلته تمامًا بعيداً عن خطيبها، ماراً بكل من الكوبى وبوبيلوبيو وبايدوبار ولاباث ومانارى وبيانوبيا وسان خوان ديل ثيسار وفونسيكا وبارانكاس وريوهاتشا تلك الأماكن التى كافح – قبل ربع قرن مضى– فيها خلال "حرب الألف يوم". وفى قافلة من البغال تم حمل الصناديق وركبت ترانكلينا ولويسا وإحدى الخادمات. وسارت القافلة فى طريق وعر ومعوج سمح لها بتفادى القبائل المتحاربة فى سيرا نيبادا حتى وصلت إلى بايدوبار ومانارى بعد بضعة أسابيع وفى هذه القرية شديدة الخضرة والصمت

الداهم حيث شفيت لويسا هناك عندما كانت مريضة وحيث ولدت ريبكا بوينديا وقضت الأم وكريمتها وخادمتها عدة أشهر هناك ، وفى آخر أغسطس ١٩٢٥ بدأن السير فى طريقهم إلى بيانوبيا (حيث يوجد الجنرال مساباس سوكاراًس) وبارانكاس مسقط رأس لويسا والساحة المشئومة بالنسبة لوالدها ، وظلوا فى سفر دائم حتى أواخر العام حيث اتجهوا إلى ريو هاتشا حتى وصلوا إلى سانتا مارتا خلال الشهور الأولى من العام التالى(١٤) .

ولم ييأس جابرييل إيلخيو ، ولكن كما كان منتظراً قدح زناد فكره ووضع ما أسماه "بخطة المعركة " بفضل تعاون موظفى التلغراف فى القرى التى كانت تمربها لويسا فقد استطاع الاتصال بها فى كل وقت عبر الرسالة الشفرية(١٥)، كما سيفعله تمامًا فلورنتينو أريثا مع فيرمينا داثا فى" الحب فى زمن الغضب". ففى بارانكاس – على سبيل المثال – تذكُر الجميع خلال حقب متتالية مصائب هذا الحب عن بُعد. و خلال الأشــهر الثـلاثه التى قضتها هناك ترانكلينا و لوسيا و الخادمة شون أقمن فى منزل أويخنيو دى ديوس الجواهرجى مساعد العقيد فى أوقات أخرى و الأخ غير الشقيق للخالة فرانثيسكا ثيمودوسيا ميخيا الملقبة بالحارسة. وبفضل مشاركة هيكتور سولانو جوميث صديق الروح لموظف البرق بأراكاتاكا كانت رسائله وخطاباته تصل فى حينها إلى لويسا. بينما كانت تتذكر السيدة ترانكلينا مع أقاربها وأصدقائها الأوقات المأساوية التى عاشوها فى بدايات القرن العشرين. لقد ظلَّت لويسا مع خادمتها شون فى المطبخ تقرأ وتعلق على الرسائل الملونة لخطيبها، والتى كانت تُخفيها بعد ذلك فى ثنايا الموقد حتى لاتصل إليها نظرات والدتها ومع ذلك فإنٌ أكبر لحظات الفرح بالنسبه للخطيبة البعيدة عن حبيبها كانت الأمسيات التى تذهب فيها إلى منزل هيكتور سولانو جوميث الذى كان يحبه العقيد حبًا أبويًا لأنه نجل صديقه الليبر الى لورينثو سولانو. وكانت كلما دخلت الفتاة المنزل كانت تغمرها فرحة فجائية وكانت تتراقص كظبية طروب ، وكانت السيدة ترانكلينا حائرة فى أمر نجلتها، ولا تدرى ما سبب فرط سعادتها المسائية حتى اكتشفت ذلك ذات مساء : ففى ركن من صالة منزل سولانو جوميث كان يعلق صورةً لصديقه الكبير جابرييل إيلخيو جارثيا(١٦). وأدركت ترانكلينا أن البُعْدَ لم يستأصل شأفة هذا الحب ؛ بل ساعد على توهجه وتأججه أكثر فأكثر. وبالفعل عندما نزلن فى

سانتا مارتا من السفينة الشراعية التى نقلتهم من ريو هاتشا تنبهت الأم إلى أن الخطيبين كانا على اتصال دائم، فقد كان هناك موظف البرق فى أراكاتاكا وهو يرتدى أفخر الثياب منتظراً نزول خطيبته التى كانت ترتدى فستاناً وردياً .

لقد بقيت لويسا فى منزل أخيها خوان دى ديوس فى سانتا مارتا و لكن دون زواج إلى أنَّ ذهبت إلى أراكاتاكا . وكان جابرييل إيلخيو يذهب لرؤيتها كل عطلة أسبوع من خلال نافذه عليها سياج حديدى بشارع ألبوثو، و قال لها إذا عادت الى أراكاتاكا فإن والديها و الحارسة سيفضون هذه الخطوبة؛ و بالتالى فإنَّ الإقامة فى سانتا مارتا كانت صحية للغاية لكى ينمو حبهما لأنها ستسمح لها بالزواج سراً إذا لزم الأمر. و تحسباً لهذا الوضع ؛ فقد طلب الخطيب نقله إلى ر يو هاتشا[١٧]، وقد اتصلت لويسا براعى كنيسة المدينة الأسقُف بيدرو إسبيخو (و كان أول قس مقيمٍ فى أراكاتاكا ، وكان صديقاً كبيراً لأسرة ماركيز إيجواران) لتطلب منه التشفع لدى و الديها ، وبدأ الأسقف إسبيخو يطلب من سينثيه قرية الخطيب كافة المعلومات الممكنة عنه، و لما علم بأنها تشير جميعاً إلى معلومات ممتازة و مشرفة ، كتب إلى أسرة ماركيز إيجواران رسالة طويلة بتاريخ ٢٤ مايو ١٩٢٦. وقد اعترف لها أنه لامناص من ذلك فالشابان مُتيمان ولهانان ، ومن الرصانة الموافقة على زواجهما لتفادى مزيداً من المشاكل . إننى على يقين من ذلك وأنهماسيكونان سعيدين للغاية[١٨]. و قد وافق أفراد أسرة ماركيز إيجواران على مضض ، و تزوج الخطيبان فى ١١يونيه[١٩] فى كاتدرائيه سانتا مارتا تقريباً بعد عامين من تعرفهما فى نفس المدينة .

وقد أحسَّ جابرييل إيلخيو بأنه طُعِنَ فى عزة نفسه ، و طلب ألا يحضر والدا عروسه. ولكن نزوات النصر بدأت تتلاشى رويداً رويداً عندما نبه بأن خطيبته لم تأت لتتزوج فى القُدَّاس الصغير فى تمام الساعة السادسة صباحاً كما كان مقرراً ، وإزاء هرج و مرج المدعوين ، وإزاء شكوك العريس اضطر الأسقفُ إسبيخو نفسه للذهاب إلى شارع ألبوثو ليطلع على ما حدث. والأمر ببساطة يكمن فى أن لويسا سانتياجا ظلت نائمة فى يوم زفافها. و لم يكن أمراً غريباً عليها وإن كان غريباً فى هذه اللحظة بالذات. و لذلك فقد جهزوها بسرعة ووصلت إلى الكاتدرائية لكى تتزوج محاطة بكل مراسم الشرف فى القُدَّاس الكبير فى تمام السابعة فى اليوم الذى كانت مدينة سانتا مارتا تحتفل فيه بعيد راعيها قلب المسيح المقدس .

وحينئذ أحسَّ موظف التلغراف جابرييل إيلخيو مارتينيث و الطبيب التجانسى بالهواية و الشاعر و عازف الكمان أحسَّ بنشوة النصر و أقسم ألا يعود إلى أراكاتاكا مسكن الفقراء[٢٠] كما كان يُقال . فقد قبلوا انتقاله إلى ر يو ها تشا وعقب الزواج بيومين رحل هو وزوجته فى سفينة شراعية إلى مدينة القراصنة والمهربين الأسطورية. ولكن العقبات فى طريق الحب بدت لاحصر لها : فالرحلة التى كانت تتم فى أقل من ليلة استمرت معظم اليوم التالى ، لأنَّ الرياح التجارية كانت تصد وتعوق السفينة الشراعية . كل ذلك كان بمثابة رمز نهائى لعامين من الحب الذى واجه صعوبات جمة و لكنها ستُلهم تجلهما " الحب فى زمن الغضب" بعد ستين عامًا تقريبًا .

و كان نبأحمل لو يسا هو السبب الذى يحتاج إليه والداها لكى يشرعا فى تقليل المسافات و إصلاح الأضرار العاطفية التى تسببا فيها بمعارضتهما غير المعقولة. وبسرعة بدأ وصول الرسائل وكافة أنواع الهدايا فى سفن البريد الشراعية. و فى البداية كانت الرسائل عبارة عن توسلات ملحة لكى تعود لويسا مع زوجها إلى المنزل وبعد ذلك إزاء رفض الزوج بدأت الفواكه تتدفق أسبوعيًا والحلوى والهدايا وملابس الرضيع ، وكان الشخص المكلف بإرسالها فى مدينة سانتا مارتا هو موظف الجمارك خوسيه ماريا بالدبيلانكيث أكبر الأخوة غير الشرعيين للويسا . وقد وصل فى يوم ما إلى ريو هاتشا شقيقها خوان دى ديوس ومعه نبأ مرض السيدة ترانكلينا بسبب رفض لويسا العودة الى أراكاتاكا . وحينئذٍ قرر جابرييل إيلخيو أن تذهب لويسا بمفردها إلى منزل والديها لتضع جنينها هناك حتى لا يحنث فى وعده .

وعندما نزلا من القطار الأصفر (قطار الحادية عشرة) صباح ذلك اليوم فى شهر فبراير ١٩٢٧ كانت لويسا فى الشهر الثامن من الحمل. وقد وصلت مرهقة ومُنهكة نظراً لطول الرحلة فى السفينة الشراعية ، والتى كانت بمثابة بغلة بحرية فضلاًعن حرَّ الصيف الشديد خاصة وأن بقاء لويسا ثمانية أشهر من الحمل فى ماركيز هاتشا أدى إلى أن يسود الاعتقاد بأن النجل البكرى جارثيا ماركيز ولد فى عاصمة ريو لاجواخيرا. لكن لا ، لقد وُلِدَ فى أراكاتاكا فى أحضان مزارع الموز صبيحة الأحد شديد الحرارة فى ٦مارس ١٩٢٧ فى تمام الساعة الثامنة والنصف أثناء حضور جده نيقولاس لقدَّاس الثامنة[٢١] .

والمولد المعلن كان على وشك التحول إلى مأساة مزدوجة ؛ فالحلوى التى كانت تُرسل إلى روبوهاتشا أسبوعيًا والرعاية المفرطة من جانب الأم والخالات خلال الشهر الأخير من الحمل فى أراكاتاكا - فيما يبدو - كان لها تأثير عند الولادة . فعلى الرغم من أن القابلة كانت ذات خبرة ومتمرسة فى أراكاتاكا ، وكانت تُدعى لا سانتوس بيريث ، فإنَّ الطفل تعثرت ولادته وكانت الأم تنزف بغزارة ، وحينئذٍ تم استدعاء خوانا دى فريتيس إحدى نساء كاراكاس المنفيات التى كانت لديها خبرة فى كل شىء ، وقامت بإجراء تمارين التنفس المناسبة للنفساء فضلاً عن التدليك الملائم لكى يُولد الطفل ووزنه ٩,٣٠ رطل وهو الذى وصل إلى الدنيا والحبل السرى ملفوفًا حول عنقه (من هنا نشأت لدى القصاص عقدة الخوف المرضية الفطرية من الأماكن المغلقة ، والتى اضطرته فى سنوات الرخاء والعز إلى شراء منازل ذات نوافذ واسعه لكى يدخل نصف ضوء النهار إلى داخل المنزل) حينئذٍ عادت إلى الظهور على مسرح الأحداث إحدى السيدات التى ستقرر مصيره الشخصى فرانثيسكا ثيمودوسيا ميخيا نجلة عم العقيد ماركيز التى كانت تعرف كل شىء عن المنزل ، وكانت تُقرر كل شىء : فقد أمرت بإلقاء ماء التعميد على الطفل فورًا تحسبًا لوفاته . وهكذا تمَّ تعميد جابرييل خوسيه جارثيا ماركيز فى النهاية، والذى عُرِفَ فى أسرته منذ ذلك الحين باسمه المصغر جابيتو . ولم تمض سوى ثلاث سنوات وأربعة أشهر بعد ذلك حتى عُمِدَ بشكلٍ رسمى .

ولم يذهب جابرييل إيلخيو الى أركاتاكا لكى يتعرف على نجله حتى مرور بضعة أشهر. كان مستاءً من والدى زوجته ؛ لقد أقسم فى أكثر من مناسبة أنه لن يعود إلى مسكن الفقراء إلى أراكاتاكا ، ولكن الرغبه الفطرية فى التعرف على نجله وكثرة الرجاءات والتوسلات حملته أخيرًا على المجىء إلى أراكاتاكا ، ولم يكن الجو العام فى منزل والدى زوجته عاديًا فقط بل كان ينم عن سعادة كبيرة وغامرة . لقد صافحه العقيد بحرارة وقدَّم له ما يعوضه عن الأضرار العاطفية التى تسبب له فيها خلال الأوقات الماضية: إننى على استعداد لتقديم لك كل ما يَسرُّك؛ ببساطة كل ماتُريد. قال له ذلك فى تواضع جم. ردَّ جابرييل إيلخيو قائلاً : الأمر لم يعد يستدعى ذلك[٢٢]. لقد أعاد الابن الأكبر لأسرة جارثيا ماركيز الصُلح والسعادة إلى الأسرتين ، وبقى جابيتو

مع أجداده، وسيكون دائمًا نجلاً لجده أكثر من كونه نجلاً لوالده ، وابنًا لجدته وخالاته أكثر من كونه ابنًا لوالدته .

ومنذ تلك اللحظه ترك جابرييل إيلخيو ريو هاتشا واستقر فى أراكاتاكا، وترك وظيفته بالبرق لكى يكرس جهوده لهوايته كطبيب تجريبى بفضل بعض الدراسات غير المنتظمة عن الطب التجانسى والصيدلة فى جامعه قرطاجنة . فخلال إقامته الأولى أثناء خطوبته للويسا اشتهر بكونه طبيبًا تجانسيًا تلقائيًا بسبب انتشار وباء الدوسنطاريا (الزُّحار) عام ١٩٢٥[٢٣] الذى عزاه الكبار الى كارثه زمن الغضب، ولكن فترة الإقامة الأولى لجاريثا ماركيز فى أراكاتاكا كانت قصيرة لأن الطبيب التجانسى المتنقل قرر الذهاب إلى بارًانكيا فى يناير ١٩٢٩ ليبحث عن آفاق أفضل لمهنته التى تأثرت كثيراً بسبب الأحداث الأخيرة الدامية فى مزارع الموز .

وقبل ذلك بأربعة أشهر ؛ فى الثامن من سبتمبر ، كان قد وُلِدَ له نجله الثانى لويس إنريكى . لقد كان حلاً حكيمًا للحياة : حيث تمكن الزوجان من اصطحاب نجلهما حديث المولد و ترك جابيتو ابن العامين تقريبًا مع أجداده ، فقد أصبح الحفيد مركز حب وعطف وسهاد هولاء ، وكانا لايستطيعان معرفة طعم الحياة بدونه . وفى بارًانكيا فتح جابرييل إيلخيو صيدلية وعمل فى نفس الوقت بشركة سنجر . وتتابعت الزيارات بكثرة بين الأسـرتين . وكانت أول زيارة يعيها جابيتو لبارًانكيا بمناسبة ميلاد شقيقته مارجوت فى ٩ نوفمبر ١٩٢٩[٢٤] ، وعلى الرغم من كون عمره عامين و ثمانية أشهر فقط فلم ينس الانطباع الذى تولد لديه بسبب إشارات المرور ، وهؤلاء الأشخاص الصامتين الذين ينظمون المرور بأصواتهم السحرية. و لكن الذكريات ستكون أكثر وضوحًا اعتباراً من الزيارة الثانية بمناسبة ولادة شقيقته الثانية عايدة روسا فى ١٧ ديسمبر ١٩٣٠ . لقد قالت إنَّها ستكون راهبة ولم يتذكر جابيتو فقط العيادة ، والشقيقة التى وُلِدت مؤخـراً بل أضواء المدينة المبهرة التى كانت فى أحلى ثيابها بمناسبة الأعياد . فقد كانت طائرة صغيرة كديك كبير تحلق فوق المدينة بصورة حلقات دائرية وقد فُتِنَ الطفل الذى كان فى الرابعة من عمره بالطائرة العجيبة : وحينئذٍ سَمِعَ شخصًا ما يتساءل ماذا يحدث، وقد أجابت و الدته بأنهم كانوا يحتفلون بمرور الذكرى المئوية الأولى لوفاة بوليفار. و كان جابيتو سئولاً لا يرحم ، وسعد كل السعادة لهذه الإجابة لأنه

اعتقد أن الأمر يتعلق بالزبد ماركة بوليفار(٢٥). وبعد ذلك حكى له جده نيقولاس ديل كارمن ماركيز إيرنانديث الذى كان يعرف بوليفار و هو لايزال طفلاً. و عندما بلغ جابيتو السابعة من عمره اصطحبه جده ليتعرف على قرية سان بيدرو أليخاندرينو حيث توفى محرر أمريكا اللاتينية .

ولكن قبل هذه الرحلة الخالدة الى بارَّانكيا حدث اللقاء الأول الذى يعيه جابيتو مع والدته . ويرى بعض كتاب سيرته الذاتية أنه تعرَّف عليها وهو فى الخامسة من عمره، ولكن الكاتب صرح بأنه يستحيل عليه تحديد عمره بالضبط عندما حدث ذلك. كما استحال إيضاح تلك اللحظة مع والدته . ومع ذلك فقد أكَّدت السيدة لويسا – على عكس ما أكده نجلها– بأنها حضرت تعميد جابيتو ومارجوت سويًا فى كنيسة أراكاتاكا فى ٢٧ يوليه ١٩٣٠ . مما نستطيع أن نستنتج منه أن جابيتو قد يكون تعرَّف على والدته فى تلك الأيام وعمره ثلاثة أعوام ونصف تقريبًا . وعلى أيَّة حال ؛ فإن اللقاء كان فى إحدى اللحظات الواضحة والمبهرة من طفولته ويتذكره دائما على أنه مشهد سابق من "الورقة الساقطة " : "لقد دخلت وكانت أمى جالسة على أحد الكراسى بصالة المنزل فى أراكاتاكا. وكانت ترتدى فستانًا ورديًا ذا كتافتين على شكل جرس وقُبعة خضراء حينئذٍ قالوا لى" سلم على والدتك " ، وأتذكَّر جيداً أننى ذُهلت كثيراً أنهم أخبرونى بأن تلك السيدة هى أمى . إننى أتذكرها من هذه اللحظة فقط ، لقد ظلت هذه اللحظه عالقةً فى ذهنى بذلك الطيب الذى كانت قد تطيبت به، والذى لم يجد الكاتب له مثيلاً مرة أخرى على الإطلاق ؛ فحتى ذلك اليوم كانت الفكرة لدى الطفل بالنسبة للأم تكمن فى كونها شخصًا متعدِّدًا موزعًا بين الجدة ترانكلينا والخالات ألبيرا وفرانثيسكا ووينفريدا، ومنذ ذلك الحين لم تعد لويسا سانتياجا إحدى السيدات المترددات على منزل الأجداد ، وبدأت العلاقة الجادة فى حياتهما دون نزعات عاطفية. علاقة تتجاوز العلاقةَ بين الأم ووليدها لتصبح بمرور الوقت بين صديقين كبيرين يتحدثان سويًا ، ويتبادلان الحب مقترنًا بجدية المزاح .

لقد عُمِّدَ جابيتو بصورة رسميةً فى وقت متأخر نسبيًا بالمقارنه بما كان يحدث فى ذلك العصر ، وربما يرجع ذلك إلى أنه كان قد تمَّ تعميدة فى الأسره عند ولادته بناءً على أمر فرانثيسكا. لقد شرح جارثيا ماركيز على النحو التالى مقترنًا بمزاحه المعتاد. وهنالك

عندما أرادوا تعميد شقيقتى مارجوت وعمرى أكثر من عامين تذكرونى وقالوا إن هذا الولد لم يُعَمَّد رسميًا وأخذونى وأوقفونى هناك وصبُّوا الماء المثلج على رأسى . وهذا أتذكره تمامًا". لقد عُمِّدَ الاثنان فى كنيسة سان خوسيه بأراكاتاكا بواسطة الأب فرانثيسكو. أنجاريتا ، ووالدى التعميد خوان دى ديوس وفرانثيسكا ثيمودو سيا وفقًا للعادة القبلية فى جواخيرا التى تُجبر أكبر أفراد الأسرة على تقديم الحماية المعنوية والمادية لأفرادها الجُدد .

وعندما ذهبت السيدة ترانكلينا إلى بارًانكيا لمساعدة كريمتها فى ولادة عايدة روسا راهبة المستقبل وجدت الصغيرة مارجوت هزيلة ومنطوية على نفسها وعليها الأعراض الخاصة بالأطفال الذين يأكلون الطين. كانت الظاهرة تسترعى الانتباه. فالحمل الرابع كان بلوى بالنسبة للأم إلى جانب المصيبة المنزلية بسبب تعرض تجارة جابرييل إيلخيو للخسائر ، وقد أثَّرَ ذلك على الرعاية التى تلقتها الصغيرة مارجوت. حنيئذٍ ثارت الجدة وقالت لنجلتها لويسا إنَّها ستأخذ مارجوت معها إلى أراكاتاكا لكى ترعاها إلى جانب جابيتو. وباستخدام المطهرات والأعشاب وزيت الخروع بدأت الجدة تعالج حفيدتها من هذا الداء ، ولكن مارجوت استمرت تتناول الطين خفية حتى بلغت الثامنة من عمرها كما ظلت منطوية على نفسها وسقيمة ومعتلة الصحة. لذلك أو ربما كانت لهذا السبب أكبر قرينة لجابيتو فى طفولته ، وقد جعلها شريكة له طوال حياته حيث جعلها فى وقت لاحق الطفلة ريبيكا بوينديا التى تأكل الطين فى " مائة عام من العزلة " .

وكانت نجلة خالها سارا ماركيز الابنة الغير شرعية لخوان دى ديوس ماركيز إجواران بمثابة شقيقتهما الكبرى . وُلِدت سارا فى ١٩١٧ ولقد تربت فى منزل الأجداد لتصحيح علاقة والدها الزوجية مع ديليا كبايرو التى لم تقبل الصغيرة على الإطلاق. وبالتالى فإنها إلى جانب الجدين والخالات كانت الشخص الذى عاش مزيداً من الوقت مع جابيتو فى المنزل بأراكاتاكا. لقد كانت فتاةً جميلة صامتة ومنعزلةً كانت كالقديسة صوفيادى لا بيداد تظهر فقط فى اللحظات الدقيقة، وفى الخامسة والسبعين عثرنا عليها فى سانتا مارتا وكان ذلك توفيقًا حقيقيًا لأنه بفضل ذاكرتها العجيبة تم الانتهاء من إعادة بناء وتأثيث وتسكين وتحريك كل ما يتعلق بالمنزل الحقيقى الذى ولد وترعرع فيه القصاص حتى العاشرة من عمره. فهى بمزاجها الهروب، وبلا حركات أو إشارات ؛ بل بالكلمات

الدقيقة للتعبير عما بذاكرتها القوية للغاية كانت سارة ماركيز (التى أصبحت حاليًا معروفة باسم القديسة صوفيا دى لا بيداد) مصدرًا مهمًا لاستكمال وتحديد – على مدى مسائين طويلين – معلومات غزيرة وفياضة قدمتها لنا، إلى جانب لويسا سانتياجا ماركيز ومارجوت إيلخيا جارثيا ماركيز ، كما قامت بتصحيح بعض المعلومات والخطابات بصفة تلقائية عن المنزل وطفولة الكاتب .

وأثناء تلك العودة المهمة فى مارس ١٩٥٢ باع جارثيا ماركيز ووالدته المنزل بسبعة آلاف بيزو إلى اثنين من المزارعين المسنين الفقيرين عقب كسبهما لليانصيب . وقد هُدِمَ معظم المنزل لإقامة منزل آخر حديث ، ولم يبق من المنزل الأصلى سوى غُرفة السُفرة وإحدى الغُرف. وبعد ذلك ببضع سنوات آلت ملكيته الى أسرة إيريارتى أومادا التى ربحت اليانصيب أيضًا ، وقامت الأسرة فيما بعد ببيع المنزل للبلدية فى أوقات الرَّخاء والشهرة لإعادة تشييد المنزل الأصلى وإقامة متحف مخصَّص للكاتب. ومع ذلك فإن المشروع لم يتعدبعض الأشياء المتسرعة وغير المتقنة أدت إلى إتلاف ماتبقى ، ولم يبق منه إلا القليل ، ولحُسن الطالع فإن ثلاثة مهندسين معماريين هم خورخى و تاديو ولوثانو قاموا بإعداد رسالة تخرجهم عن منزل الكاتب ورفعوا اقتراحًا لإعادة تشييده كاملاً من جديد ، كما كان المنزل الأصلى فى الحقيقة[٢٦]. وبأعمال الحفر والدراسات المتعلقة بالتطور المعمارى لاراكاتا ، فضلاً عن المقابلات الكثيرة مع أسرة جارثيا ماركيز والأقارب والجيران استطاع جوستابو كاستيون وخيلبير كاربايو وخايمى سانتوس إعداد مخطط نظرى هائل مطابق للمنزل الأصلى بقدر الإمكان . وعندما رأى الكاتب نفسه هذه الرسومات والخرائط لما كان عليه منزله قديما أقرَّها وكتب بخط يده هذه العبارة "أقر وأصدق على أن المنزل كان كذلك " .

وأول استنتاج ملفت للنظر هو أنَّ منزل الأجداد هو حرفيًا منزل "الورقة الساقطة " وكذلك مع إضافة بعض التعديلات الطفيفة هو المنزل فى" مائة عام من العزلة " فلم يكن من الممكن أن يكون شيئًا آخر حيث أيقظ الكاتب فيه شعوره ولاشعوره مقترنًا بالذاكرة المتلذذة والعاطفية والودية بدأ فيها إعداد مكان أعماله المستقبلية . كان المنزل بساكنيه وأثاثه وقصصه ونكهاته وروائحه وألوانه وأصواته كل هذا تحول بفضل الخيال الخصب والقوى للكاتب إلى قصص وحكايات خالدة. ولذلك ففى السنوات التى أعقبت

أشهر قصة لجارثيا ماركيز اعترف بعدة اعترافات كانت بالنسبة للبعض مقدمة " لمائة عام من العزلة " وقد انبثقت من فكرته المتسلطة على وجدانه وهى العودة إلى منزل أجداده ، لأنهما كانا يمثلان له أكبر التأثيرات الأدبية ، وكذلك "ألف ليلة وليلة" ومنذ أن توفى جده لم يحدث له أمرٌ مهم ، وكان كل ما كتبه جارثيا ماركيز قبل ذلك قد سمعه قُبيل الثامنة من عمره(٢٧) ، ولم يكن فقط كل ما كتبه حتى ذلك الحين بل معظم ما سيكتبه فى وقتٍ لاحق .

ومع ذلك لم يكن للطفل ولعٌ أو شغفٌ خاص بالمنزل . لقد كان ذلك فى الذكرى فى الحنين والاشتياق. لقد عاش فيها طبيعيًا كشأن كل طفل يريد أن يشب ويترعرع لكى يكون مُخبرًا خاصًا ويبدو كديك تراثى. ولكن المنزل كان على العكس من ذلك تمامًا ، كان المنزل بمثابة الشبح فى طفولته لقد كان منزلاً مسحورًا، كما فى رواية خوليو كورتثار حيث إن نصف غُرَفِه كان مخصصًا للحديث عن ذكرى الأقارب المتوفين : الخال لأثارو كوتيس الذى قَدِمَ من بايدوبار الخالة بيترا كوتيس التى تُوفيت وشعرها أبيض بعد أن تجاوزت المائة عام ، وكانت تتمرجح فى أحد الكراسى الهزَّازة بالممر الذى كانت تكثر به زهور البيغونيا. وكانت ضريرة مثل أرسولا و الخالة مارجاريتا التى تُوفيت فى الحادية والعشرين من عمرها بالحمى التيفودية و هى النموذج الرئيسى لريبيكا بونديا .

وإذا كان المنزل بمثابة شبح طفولته ، فإنه سيظل الشبحَ الذى يختفى طوال بقية حياته ، وفى معظم كتبه ومؤلفاته. و من ثَمَّ فإن الكاتب يعترف بأن أكبر ذكرى حية ودائمة لم تتعلق بالأشخاص بل بمنزل أراكاتاكا حيث كان يعيش مع جديه و أنه كل أيام حياته كان يستيقظ بانطباع زائف أو حقيقى ، وأنه يحلم بأنه فى ذلك لا لكونه عاد إليها بل لأنه هناك بلا عمر ، أو لأى سبب خاص كأنه لم يخرج من ذلك المنزل الضخم القديم(٢٨). وذلك فإنَّ جارثيا ماركيز لم يخرج قط من منزل أراكاتاكا الذى عاش فيه و تعايش معه و يتواجد فى ذاكرته و فى أحلامه بقوة كبيرة ، حتى أنه اكتشف التصدع أو الشرخ الموجود فى الجدار الذى لم يره فى طفولته و الاستماع إلى الجُدجُد (صرصار الليل) يغنى فى الفناء الذى لم يسمعه فى طفولته قط أو التطيب برائحة شجرة الياسمين التى كان الموتى يتطيبون بشذاها فى تجولاتهم الليلية بالغرف .

نظرا لرحابة المنزل وموقعه و عدم تجانس المواد التى كان يتكون منها؛ فقد كان منزلاً غريبًا بالنسبة للسائد فى عصره. و كان يتكون من أربعة مبانٍ ، و فى أواخر العشرينيات شبَّ حريقٌ مروعٌ فى أحد المبنيين المشيدين بالشارع الحالى رقم ٥ (أو شارع مونسنيور إيسبيخو) ، وقد تحوَّل المدخل إلى الفناء و قد أحيط بحواجز خشبية فى مواجهة شجرتى اللوز على الرصيف (انظر خرائط ورسومات المنزل فى الجزء الخاص بالصور) ، وعلى اليسار كان أحد المبانى مسقوفًا بالزنك و قواعد من الطوب حيث كان العقيد ماركيز يمارس مهنته كجابٍ للضرائب و أمين خزانة البلدية ، وكان مكتبه يقع فى ظلٌ شجرة طلح (شجرة السنْط) ، وكان يتكون من صالة و مكتب ، وكان مزوداً بمكتب منسق ومنظم بماسكة للأوراق والمقلمة و الملفات أو حافظات الأوراق وفى أحد الأرفف بجوار دفاتر الحسابات و المجلات و الصحف ، وكان لدى أمين خزانة أراكاتاكا بعض القواميس و الكتب مثل الألفاظ الساحلية دى سوندهين حيث أبرز بحبرٍ أحمر بعض المصطلحات الساحلية ؛ مثل غمد وسُبات وبنات الكذو أو الكلوربريل ومصطلحات أخرى سيقوم حفيده فيما بعد على نشرها فى مختلف أنحاء العالم .

أما المبنى الثانى فقد كان مدخله يؤدى إلى ما قبل الفناء ، وكان ممراً فسيحًا يتكون من ستة أماكن يبدأ بها المنزل . وكانت أرضيته من الأسمنت ذى التشطيب الجيد اللامع ، وكان سقفه أملس من الخشب ، وكان مبنيًا من الخشب وسقفه من الزنك يتكون من مستويين ونوافذ ملحقه وسياج معدنى وبالاستمرار فى " مائة عام من العزلة " فى اتجاه خيط الدم الذى نزف من جسد خوسيه أركاديو. ويُرى منزل أسره بوينديا بشكلٍ جيدٍ ، والذى كان يشبه تماماً منزل أسرة ماركيز إجواران ويوجد خلاف مهم فى القصة حيث تحولت ورشة الصياغة الخاصة بالجد إلى صالة. وحقيقة الأمر أنه لم تكن هناك سوى غرفة نوم واحدة للزائرين ، وقد كان يبدأ بها الدهليز الثانى. وبها سريران نظيفان أنيقان وكرسى وحوض لغسيل الأيدى مزود بدورقه وطسته، وكانت هذه الأشياء تُكوِّن أثاث غرفة الزائرين التى كان يرتاح فيها فى أيام الأعياد أسقف سانتا مارتا أو الأصدقاء والأقارب القادمون من ريو ها تشا وبارًانكيا وبايدوبار وقرطاجنة أو بارًانكيا وفى الداخل أو امتداداً لهذه الغرفة كانت توجد ورشة الصياغة الخاصة بالجد وبها مهاريسه وتنوره وكيره ؛ تلك الورشة التى فُتِنَ بها جابيتو عندما شاهد

تذهيب المعادن أو طلائها بالذهب وتصنيع الحُلى على شكل أسماك صغيرة من الذهب .
وبعد ذلك تقع غرفة السفرة أو الطعام و تتوسطها منضدة كبيرة مستطيلة و تتسع لعشرة مقاعد و بها مكيال للسوائل و كرسيان هزّازان من الصفصاف ، وقد انتهى الدهليز بغرفة نوم و غرفة خزين الطعام والمطبخ دون حوائط أوجدران ، ولكنه كان محاطًا بشبكة متصلة لحمايته من الذباب والحشرات ، وكان المطبخ مزوداً بفرن الفحم وكانت الجدة والخالات يضعن فيه إلى جانب الخبز الحلوى لبيعها .

وأمام حجرة السفرة (التى كانت تُستغل كصالة لاستقبال الزائرين) وورشة المجوهرات كان يوجد الفناء الداخلى وهو عبارة عن حديقة متعددة الألوان حيث كانت شمس الزوال تضىء شجرة ورد بين أشجار الياسمين وزهرة هافانا وعباد الشمس والمسك الرومى وإكليل الجبل وإبرة الراعى واستروميليا ، وكانت ترتفع من هذه الحديقة إلى عنان السماء رميديوس الجميلة فى ملاءة من الدّوبارة أعدّتها فرناندا ديل كاربيو .

وعند نهاية الحديقة وموزايًا للدهليز الثانى كان يقع المبنى الثالث من هذه الأماكن الثلاثة ، وهو الذى كان مشيداً من الطوب مثل المبنى الأول ومسقوفًا بالزنك من مستويين وكانت الغرفة المجاورة للحديقة هى غرفة الأجداد حيث وُلِدَ جارثيا ماركيز وبها سرير للزوجية مصنوع من الأعمدة الحديدية ، وسرير طفل وحوض الغسيل الأيدى ورف وبعض أيقونات القديسين ، وكانت هذه الأشياء أول ما رأى القصاص من حين ولادته.
ثم ننتقل إلى الغرفة الثانية غرفة القديسين حيث كان جارثيا ماركيز ينام مع شقيقته مارجوت والخالة فرانثيسكا ثيمودوسيا، وكان يستيقظ كل يوم وتطل عيناه بتمعن على أيقونات القديسين الموجودين بالمحراب الأسرى المضاء بمصابيح تعمل بزيت الذرة .
وفى نهاية هذا المبنى وفى طرفه الداخلى كانت غرفة الذاكرة الواسعة الفسيحة وبها الصناديق الكثيرة المرصوصة مجاورة للحائط والمليئة بالكتب والمجلات والدُّمى وبطاقات المعايدة والملابس وأشياء أخرى لا تُحصى للأسلاف من ريو هاتشا وبارًانكاس .

وبين هذين الدهليزين والحديقة كان هناك ممر زهرة البيجونيا المضىء ، حيث كانت توجد أصصها فى حوض خشبى. وكانت تجلس فى هذا الممر للتطريز فى أمسيات ماكوندو كل من أمارانتا وريبيكا بويندیا ، بينما كانتا تتنافسان للاستحواذ على قلب الإيطالى بيترو كرسبى .

وكانت مباني المنزل المتعددة تشترك في شيئين ؛ الأرضية الأسمنتية اللامعة، والسقف الخشبي الأملس.

وكان الحمّام في الفناء بحوضه الكبير الذي أسهم في شهرة رميديوس الجميلة بجلساتها التعبدية الطويلة ، ثم إلى جانب الفناء توجد غرفة التجارة الريفية ، وخلف الفناء أو الاسطبل الذي كان يطلق عليه "لا روثا" كانت توجد شجرة القسطل الذي رُبط فيها خوسيه أركاديو بونديا عندما تفككت منه ماكينة الزمن ، وكان الكنيف أو المرحاض يوجد في أقصى جوانبه. ولكن معظم هذا المكان كانت الدجاجات تستحوذ عليه والخنازير والتيوس ليتم تسمينهم لأعياد الميلاد القادمة .

وفي منزلٍ فسيحٍ كهذا مليء بظلال الماضي وسكان مشاهير ، وفي قرية بابلية كأراكاتاكا حيث دخلها أناس كثيرون. والأمر لم يكن يتطلب سوى الإصغاء جيداً لما تقول له الجدة والخالات والانتباه والعينان مفتوحتان إلى جانب الجد. وقد بدأ جابيتو كما ينبغي ككل طفل ، بدأ شيطاناً شقيًا فريداً وإن كان التجسيد الشيطاني تمثل في شقيقه المرعب لويس إنريكي ، وكان جابيتو يَسُره التمتع بشهرة شيطانية وإن كان طفلاً منعزلاً أو انطوائيًا وخجولاً بسبب طريقتة المفرطة في حبه لذاته ومكابرته في الدفاع عن مصالحه. وباستثناء أعمال الرعب التي يمارسها ليلاً؛ فإن الصباح يبدأ بالنسبة لمطالبه في الطعام وإذا لم تستجب تماماً لذوقه وهواه كان يترك كل الطعام الموجود ويذهب إلى السوق ليشتري ماطلبه ولم تتم تلبيته : لقد كان يسأل عن كل شيء وكان يسأل الجميع. وعندما كانت تأتي زيارة للمنزل كان الطفل الذي لم يتجاوز الخامسة من عمره يتحول إلى المضيف الرئيسي ، وفي هذا العمر بدأ الطفل يسمع بإصغاء البالغ الكبير ، وقد اكتسب تحريك طرف عينيه مماكان يفتن جدته : ترانكلينا كانت تفكر أن الطفل أصيب بمرض فجأة ، وبدأت تضع له قطرة الورد ، وخلال شهوره الأولى تفادوا معالجته بالكلورين وذلك بإعطائه نقيع نفس الزهرة. ولكن الشيطان كان يضحك دون أن يعترف بذلك : وطبقًا لما شرحه بعد ذلك فإن تحريك طرف عينيه كان يسمح له بالتقاط ما كان يتحادث فيه الكبار بصورة أدق وأفضل. وهذه على مايبدو كانت واحدة من تلك النوادر التي يتذكرها الأشقاء جيداً ، والتي تتعلق بعودة العسكري السابق إلى المنزل وبدئه في تحريك كافة قصص الحرب مع جده. وكان جابيتو يجلس دائمًا إلى جواره. وبدأ بتحريك طرفي عينيه واستمر في هذه الحركة الغريبة، وعندما كان الزائر ينهض لكي ينصرف يجهش

جابيتو بالبكاء كأنَّ الزائر كان يطأ إحدى قدمى الطفل بأحد نعليه طوال فترة الزيارة (٢٩). ومن الممكن أن يكون الطفل قد ربط دون أن يشعره منذ تلك اللحظة بين الحذاء العسكرى وعالم الحروب والسلطة .

وعندما كان أشقاؤه يذهبون إلى منزل الأجداد لم يدخر جابيتو وسعًا لكى لا يبقوا وقتًا طويلاً ، بل كان يسجل بعناية فائقة الحب الذى يوليه الأجداد لأشقائه الآخرين. وتشتد هذه الغيرة لتصل إلى أقصى درجة لها عندما يتواجد أطفالٌ من أراكاتاكا بالمنزل لمدة طويلة من الوقت : كان الشيطان جابيتو يقرصهم خُفيةً ثم يطلب منهم متوسلاً أن يذهبوا إلى منازلهم ليبكوا. وذات مرّة عندما أرادت المياه أن تعود إلى مجاريها أو لكى تعود إلى مجاريها؛ فقد كان يظل يسأل ويطلب بإلحاح مزعج لا ينتهى. وعندما يفيض كيل جدته تقول له : عجبًا وهى تصرخ بأعلى صوتها لتملأ المنزل القديم بصراخها. إنَّ هذا الطفل شيطانٌ مريد(٣٠).

ولذلك فعندما يجن الليل كانت لديها وسيلة لشل حركته : لترويعه وتخويفه من الموتى. كانت تُجلسه على كرسى وتقول له : لاتتحرك من هنا وإلا ستأتى الخالة بيترا الموجودة فى غرفتها أوالخال لاثارو الموجود فى حجرته أيضًا(٣١). وكان جابيتو يظل بلا حراك ويتنفس فقط على أنغام الأرواح المستوطنة وكذلك على أنغام تمايل غصون شجرة الياسمين وعصافير الفناء ، كان يظل على هذا الحال حتى يحملونه إلى سريره فى غرفة القديسين حيث يستمر الكابوس ويتزايد نموًا واتساعًا ويتعمق عالم الأشباح الذى كانت جدته تروعه به دائمًا. وبهذا الشكل يظلُ قلقه وهمه حتى يبدأ الصباح الجديد فى نسج خيوط ضوئه التى كانت تدخل عبر سياج النوافذ لتطرد الأرواح المخيفة التى كانت تروعه بها جدته .

وفى أول حكاية لجارثيا ماركيز "الاستسلام الثالث " سنجد طفلاً فى السابعة من عمره - من منطلق الموت والحياة - سيبلغ الخامسة عشرة من عمره ، وهو فى تابوت حتى يتحول إلى ميت روحى ومجرد. وفى "الورقة الساقطة " كان الطفل فى الحادية عشرة من العمر يجلس على كرسى طوال الوقت أمام جثة طبيب قد انتحر. وبعد ذلك فى " شخص ما أخَلَّ بتنسيق هذه الورود " كان الطفل قد أصبح روحًا تجلس على كرسى

منتظراً. إن هذا المنظر وتلك الصورة ستتكرر كثيراً في معظم كتبه ومؤلفاته تتنوع وتتعدد حتى الوصول إلى ميلكيادس الشخصية الرئيسية للبنية الأسطورية - الزمنية في "مائة عام من العزلة". إنها صورة الأهوال الليلية التي كانت جدته تروعه بها والتي لم تتركه ينعم بالراحة قط وربما لحظة التكوين الأكثر خصوبة في أعماله الكبرى.

وكانت ترانكلينا إجواران كوتيس لا تزال الجدة النشطة رقيقة الحس والعينين الرماديتين اللتين بهما ماء أزرق وشعرها أبيض أو ذابل وبه فرق في منتصفه ووجهها العُقابي الأعقف وينتهي شعرها بكعكة تتدلى على جيدها الأبيض. كانت ترتدي ملابس الحداد وشبه الحداد وبها زركشات خافتة، وكانت تجوب المنزل من الصباح حتى ساعة متأخرة من الليل كالنسيم العليل وهي تغني وتعطي أوامرها للآخرين: " أعدوا اللحم والسمك لأنه لا أحد يعرف ماذا يريد أن يتناوله القادمون " إن هذه الجملة ستسمعها على لسان أورسولا إجواران تعطينا فكرة عما كان عليه مطبخ ذلك المنزل المضياف الذي كان يتردد عليه زائرون من جميع الطبقات والفئات. ولكن بما أنها سيدة نشيطة لم تسرع في شيء وقد كانت تتحرك بهدوء مذهل لأنها ربما في قليل من الأحيان كانت تطأ الأرض: لم تكن مملكتها في هذا العالم. وبالتالي فلم تُعر اهتماماً لما يقوله الأحياء مثلما تفعل مع الأموات. وعبثاً حاولت فرانثيسكا تيمودوسيا ميخيا إخبارها بالحياة الحقيقية للرجال بادئة بزوجها نفسه: "أيتها المنجمة أنت امرأة جبانة" كانت تقول لها دائماً إن نيقولاس يخونك مع سيدات أخريات وأنت لا تدرين[٣٢]، ولكنها لم تتغير، لقد كانت مشغولة بالحدود الفاصلة، التي كان يصطدم عندها الأحياء والأموات وتحافظ على الأسرة بخرافاتها. وعلى سبيل المثال كان ينبغي عليها مرافقة الأطفال ليناموا قبل أن تنطلق أرواح الموتى، وإذا مرّت جنازه وهم نائمون أيقظتهم حتى لا يموتوا مع المتوفى الذي يمر أمام منزلهم. وكانت تحاول جاهدة ألا تدخل فراشه سوداء المنزل لأن هذا يعني ببساطة أن أحداً سيموت من أفراد الأسرة، وإذا كانت فراشة أخرى فان ذلك يعني أن المنزل سيستقبل زيارة وراءها، وأنها كانت تحاول دائماً تفادي سوء الحظ محاولة بكل ما أوتيت من قوة ونشاط ألا يقع الملح، وأنها إذا سمعت ضوضاء غريبة فإن ذلك يعني أن الساحرات دخلن المنزل، وإذا شمت رائحة الكبريت فإن ذلك يعني أن الشيطان قريب جداً[٣٣]، ولقد ورث الحفيد جانباً كبيراً من قاموس خرافاتها فضلاً

عن هول الموت. وعموماً فإن عالم الفانتازيا والخرافات أو الخز عبلات يكوِّنان الأرضية الخصبة لخيالات جارثيا ماركيز .

إن سرعة التصديق والطبيعة الفانتازية للجدة مرتبطتان دون أدنى شك بماضيها الجواخيرى (الريفي وانحدارها من أصل جاليثى). ويَصْعُبُ تماماً على شخص جواخيرى معرفة الحدود الفاصلة بين الأحياء والأموات. وفضلاً عن ذلك فإنه يُعدُّ واقعاً مستوطناً فى أمريكا اللاتينية وقد استطاع جارثيا ماركيز أن يكتب "مائة عام من العزلة " عندما أخذ فى الاعتبار - إلى جانب أشياء أخرى - أن جدته وخالاته لم يكن وحدهن اللاتى يعشن فى عالم الخيال والفانتازيا ، بل أيضا معظم الكولومبيين والأمريكيين اللاتينيين .

وهكذا كانت السيدة ترانكلينا تغنى طوال اليوم وتهذى ، بينما الحفيد لم يتوقف عن الأسئلة والاستفسارات. " جدتى من هو مامبرو وإلى أى حرب ذهب ؟ ولم يكن لديها أدنى فكرة عن ذلك ، ولكنها شحذت خيالها وأجابت بثبات ورباطة جأش : "لقد كان رجلاً كافح وناضل مع جدك فى "حرب الألف يوم(٣٤) " . وكما هو معروف فإنَّ مامبرو الأغنية الشعبية القديمة (التى كان يغنيها جد جابيتو بإعجاب شديد) هو الدُّوق مامبرو نفسه، وعندما حاول جارثيا ماركيز إدراجه كشخصية فانية وسريعة الزوال فى قصصه ورواياته وخطاباته فضل رواية الجدة على الرواية الحقيقية. وهذا هو السبب فى ظهور مارلبورو متنكراً على شكل نمِر حيث خسر جميع الحروب الأهلية الكولومبية إلى جانب العقيد أوريليانو بوينديا .

وفى صرامة منقطعة النظير ورداً على أسئلة لا حصر لها لحفيدها أشارت الجدةُ إلى كل أنماط القصص الخيالية المكتظة بالأموات. لقد كانت تتحدث بصوت كان يبدو كهمس قادمٍ من عالمٍ بعيدٍ جداً : عالم أبطالها. وبينما حكايات الجد واقعية وكانت مليئة بالأموات الذين توفوا من الواقع فإن حكايات الجدة كانت آهلة بالأموات الذين كانوا يحيون ويحاولون جاهدين تخفيف حدة وحدتهم باحثين عن الأحياء مثل تلك الماركيزة ذات الشعر الطويل التى ماتت بداء الكلب وهى فى الثانية عشرة من عمرها ظلت تعيش بين الناس بمعجزاتها الكثيرة فى جميع أنحاء العالم .

وفى ذلك اليوم الملئ بالنسوة فإن ترانكلينا – إلى جانب إصدارها للتعليمات والأوامر – كانت تقوم بأشياء محددة مثل الطهو عندما لم تكن هناك خادمة ، ودائمًا كانت على رأس المخبز المنزلى الذى اعتبرته تخصصها دون منازع ، والذى كان سببًا فى شهرتها كخبازة ممتازة لا تُضارع فى المنطقة ولم تهتم بالأطفال تقريبًا إلا لإبلاغهم بأخبار الموتى ولتغنى لهم أغانى من وحى خيالها ووجدانها عندما كانوا يبكون أو عند ذهابهم للنوم . لقد كانت أغانى تحكى حكايات وكان جارثيا ماركيز يتذكر إحداها دائمًا تلك التى كانت عبارة عن حوار بين عاشقين يتبادلان الشكوى لهذا فلم تقتصر ضرورة السرد فقط على حكاياته ؛ بل أيضا تجاوزتها إلى أغانيها. لقد كان نفس الأصل السردى فى ألف ليلة وليلة الأغانى الشعبية والفولكلورية والتى ستفتن وتؤثر فى قصاص المستقبل .

ومن هنا فإن العمَّات هن اللائى ربيّن جابيتو : إلبيرا كاريو وباث ووينفريدا ونانا وخاصة فرانثيسكا تيمودو سيا ميخيا العمة ماما كانت إلبيرا شقيقة وتوأم إستيبان كاريو ، وقد وُلِدت فى بارانكاس فى نهاية القرن التاسع عشر وقد وصلت الى أراكاتاكا وهى فى العشرين من عمرها حيث احتفى بها والدها وكذلك ترانكلينا التى اعتبرتها دائمًا ككريمتها ، كما اعتبرت كأنجالها أيضًا الأبناء الكثيرين غير الشرعين لزوجها نيقولاس إجواران ، وبالتالى كان على إلبيرا أنْ تتصرف كابنة محبوبة لترانكلينا التى كانت ترعى العجوزة مينا حتى ماتت فى سوكرى وهى فى الرابعة والثمانين من العمر. أما الخالة باث فكانت لها سلطة موزعة فى المنزل ليس فقط بسبب شخصيتها بل لأنها الوحيدة التى كانت تجيد أشياء كثيرة: كانت تقضى اليوم تطرز فى ممر زهور البيجونيا، وكانت تنظف المنزل وتحفظ الملابس من العتة بوضع النفتالين كماكانت تراقب سلوك الأطفال و تُعدُّ الحلوى على شكل نجوم وجياد صغيرة لتبيعها. وعلى العكس من ذلك كان وجود وينفريدا محدوداً حيث كانت تعيش فى منزل آخر مع زوجها خيسوس كينتيرو ولكنها كانت إحدى عمَّات المنزل وإحدى سيداته ، وكانت تمارس سلطاتها ونفوذها بفضل حياتها فى منزل آخر وتميزت بأنها كانت شقيقة روح نيقولاس ماركيز .

وكانت العمةُ ماما هى صاحبةُ الأمر والنهى فى المنزل ، وقد فاقت سلطتها سلطة كل من العقيد نيقولاس وزوجته ترانكلينا. لقد كانت السيدة المتسلطة عقيدة المنزل فهى لم تكن

فقط التى تعرف وتقرر كل شيء بل كانت أكثر النسوة نشاطًا . إنها لم تتزوج فقط لأنها وجدت لها بديلاً للزواج ألا وهو تفانيها من أجل الأسرة ، كما كانت أحد أفراد الأسرة الأسطوريين : لقد رافقت أسرة ماركيز دى إيجواران فى نزوحها من بارانكاس إلى أراكاتاكا فى نهاية الحقبة الأولى من القرن التاسع عشر. وكان والداها خوسيه ماريا ميخيا بيدال وتيريسا دى ديوس مما أضفى عليها صفة القرابة من الدرجة الأولى مع العقيد كما جعلها أختًا لأب لأويخينيو ريوس صائغ بارانكاس والذى ورث من نيقولاس فن وحرفة الصياغة .

إنها من كارمن دى بوليفار حيث نشأت مع ابنة عمة فرانثيسكا ثيمودوسيا[٣٥] لقد كانت سمراء ذات قامة متوسطة وبنية عادية وكان شعرها هنديًا وتصففه إلى الخلف وينتهى بضفيرتين طويلتين كانت تحولهما إلى كعكة عند الخروج الى الشارع . لم ترتد ملابس ملونة على الإطلاق بل كانت ملابسها سوداء أو شبه سوداء تقريبًا مثل ترانكلينا وبلوزات بثلثى كم ، وكانت تسير فى المنزل منتعلة خف وتستبدله أحيانًا بحذاء طويل مغلق بزراير عندما تخرج من المنزل لقد كانت نشيطة كثيرة الصياح متسلطة وفى أوقات الضيق والضجر كانت تتفوه بشتائم لاحصر لها دون أن تكترث بمن يتلقى هذه الشتائم وهذا السباب ، ومع ذلك كان قلبها كبيرًا. لقد ملأت المنزل بالأبناء والمتبنين وكانت كريمة مع الزائرين ، تقدم لهم مختلف العصائر من الفواكه والبسكويت والجبن الساحلى والحلوى المكونة من الجوافة مرة المذاق وحلوة المذاق التى كانت تصنعها بنفسها .

ولم تكن تكف عن الحركة لحظة واحدة وخاصة أنه كان منوطً بها الاهتمام بالأطفال وتوجيههم . لقد كانوا شغلها المفضل : كانت تحميهم فى النهر ، وتطعمهم وتلبسهم ، وتوجههم فى عمل واجباتهم ، وكانت ترافقهم إلى الكنيسة والتسابيح فى المساء وكانت تحرسهم فى نومهم عن قرب. لقد كانت تنام فى نفس غرفة القديسين مع جابيتو ومارجوت والمراهقة سارة ماركير. وكانت فرانثيسكا بعد أن تقوم الجدة ترانكلينا بالغناء لهم وتحكى لهم الحكايات وتوجههم فى صلواتهم ، وعندما ينامون كانت تجلس على كرسى من الجلد بجوار المحراب الكائن بالغرفة حيث كانت توجد تماثيل لكل من سان خوسيه وسانتا ريتا من الجص وصورة لقلب السيد المسيح وتمثالاً للسيدة العذراء كانت قد أحضرته من بارانكاس. وعلى الرغم من أنها كانت تذهب يوميًا إلى الكنيسة

فقد كانت تصطحب الأطفال أيام الأحد فقط ، وخاصة جابيتو لكى يرافق القس أنجاريتا فى القدّاس. ونظراً لتدينها الشديد وتفانيها من أجل الأبرشية كان لها شرف حفظ مفاتيح المعبد معها وكذلك مفاتيح المقابر والحفاظ على المحاريب فى الأعياد الكبرى ، ومع ذلك فكان لديها مزيد من الوقت لكى تكسب قوتها وتسهم فى الاقتصاد المنزلى فكانت مثل ترانكلينا إلبيرا تصنع الحلوى من اللبن والجوافة وجوز الهند لبيعها .

ولم يتذكرها جارثيا ماركيز فقط لكونها سيدة لا تكل ولا تمل وواسعة الأفق والخيال ، وهى التى ربته بل أيضاً لكونها السيدة الحكيمة التى تحمى القرابة كلها. كانت كاثوليكية تماماً وتؤمن بالخرافات والخزعبلات مثل ترانكلينا ولكنها كانت تختلف عنها فى كونها تقف على أرض صلبة ، وكانت خبيرة فى الثقافة الشعبية ، وعلى الرغم من كون الصورة الموقرة كانت نموذجاً لأورسولا إجوران فإن شخصية العمة ماما أضفى كل سماتها على أورسولا إجواران. إن عظمة شخصيتها لاتقل عن شخصيه أورسولا فى ماكوندو وقد اجتازت هذه العظمة كافة الحدود الأسرية. وفى يوم من الأيام جاءت فتاة ومعها بيضة فيها نتوء. ولم يستطع أحد فى أراكاتاكا أن يشرح لها هذه الظاهرة إلا العمة الحكيمة العارفة فرانثيسكا فبعد أن فحصت البيضة بتمعن وتوءدة قالت" إنها كانت بيضة لأفعوان خرافى وطلبت أن توقد النار فى الفناء وتُحرق[٣٦]". لم يفهم أحد شيئًا وقد استجيب لطلبها فى الحال .

وبهذه الطريقة الطبيعية والخيالية وبهذا الجلد كانت تواجه أمور الحياة حتى فى المواقف والأمور غير المألوفة والمأساوية وهذا ما أسماه الكاتب "وجه الجلد والثبات" وحيث حكت الحكاية الفانتازية دون أن يتغير وجهها أو ملامحها. وهذا هو المصدر أو المورد الأدبى الذى استغله جارثيا ماركيز فبفضله كتب بعد ذلك بثلاثين عاما " مائة عام من العزلة " ولأنه تبناه كأحد المفاتيح الأساسية لفنه السردى.

وعلى الرغم من الموقف الدرامى الذى ماتت فيه العمة ماما فإن ملامح وجهها لم تتغير حتى نهاية حياتها . وبما أنها لم تعرف الحياكة ولم تستطع الجلوس خلال أيامها الأخيرة بسبب مرض كلوى مؤلم فقد طلبت من ألبيرا كاريو أن تطرز لها كفنها[٣٧]. وعندما أوشك الكفن على الانتهاء طلبت منها معروفًا أخيراً : وهو إعداد المحراب لإقامة

صلاة الجنازة عليها عند موتها. وقد استجابت العمة لكل ما طلبته خطوة خطوة : ففى المكتب القديم للعقيد ، والذى تحوَّل الى غرفة نوم للنقاهة وضعت أولاً ملاءةً بيضاء على الحائط وبجوارها منضدة ، ثم وضعت شمعدانين كما أمرتها المحتضرة. هذا فضلاً عن تمثال المسيح وصورة لقلب المسيح وتمثال العذراء المفضل لديها أى عذراء الكارمن . مثلما فعلت ماما جراندى وكذلك المنتقمة والغامضة أمارانتا بويندیا (التى أعدت كفنها بنفسها فى مائة عام من العزلة) توفيت العمة ماما دون أن تتزوج ، وبالضمادة السوداء التى تدل على عذريتها دون أن تتخلى عن إصدار تعليماتها وأوامرها الأخيرة .

وكان لجابيتو مع جده اتصال وتفاهم كامل. ففى الوقت الذى كان عالم الجدة والعمَّات يصيبه بالحيرة وكان غالبًا ما يسبب له الرعب فإن عالم الجد كان يمده بالأمن والطمأنينة . وكلما قالت له الجدة أوالعمَّات شيئًا غريبًا غير مألوف كان الجد يقول له : "انس هذا فإنها معتقدات نسائية"[٣٨] وعلى الرغم من الأمان الذى أمده به جده إلا أنَّ الفضول كان يدفعه ليعرف شيئًا عن عالم الجدَّة . فقد كان عالم الجد ينتمى إلى الأشياء التى تحدث فى الواقع تاريخيًا وتتصف بالترتيب والتدرج؛ أما عالم الجدة والعمَّات فكان على طرف نقيض من ذلك ، لقد كان عالمًا خياليًا مليئًا بالخرافات والخزعبلات وتميز بالركود الزمنى والسير فى حلقات مفرغة ، وقد ساده القياس الظالم والمنطق المعكوس الذى كان الطفل يعجز تمامًا عن استيعابه وفهمه بسهولة ويسر ، كماكان يستوعب ويفهم مايدور فى عالم جده. ولذلك فإنَّ الحفيد كان يريد أن يكون مثل جده بطلاً واثقًا فى نفسه ومنظمًا. ولكن المفارقة الغريبة فإنَّ حياة الكاتب جعلته يميل إلى جانب جدته أكثر من جده. فعلاقته بهما ستكون فى كل حالة متشددة ومختلفة الأمر الذى سيكون له تأثير ملحوظ ليس فى قصته " الورقة الساقطة "و" ومائة عام من العزلة " بل أيضًا فى نفس بنيتهما المكانية – الزمنية .

لقد كان العقيد نيقولاس ريكادو ماركيز ميخيا الشخص الذى أثر كثيرًا فى مشاعر جارثيا ماركيز .فقد قال عنه: إنَّه الشخص الوحيد الذى استطاع الحديث معه فى طفولته ، والذى كان يتفاهم معه جيداً. إنه أهم شخص فى حياته ، ومنذ وفاته لم يحدث له شيء مهم ، حتى إن سرَّاء حياته وهو كبير هى سرَّاء وسعادة غير كاملة لأن الجد لم يعلم بها[٣٩] . وقد اعتاد جارثيا ماركيز أن يرثى حظه لأن الحياة لم تسمح لجده بمعرفة إنجازات حفيده المفضل .

لقد كان الجد وحفيده الرجلين الوحيدين فى منزل مكتظ بالنساء ، وقد أدى هذا إلى تعزيز وتقوية صداقتهما وشراكتهما. وبما أنه كان عسكريًا سابقًا كان ينادى حفيده قائلاً : "يانابليونى الصغير" وكان الطفل ينادى عليه يابابليلو . وعندما بدأ الطفل يدرك مدى الشراكة بينهما كان الجد فى الثامنة والستين من عمره لقد كان قشتاليًا أصيلاً ومتوسط القامة أكرش عريض الجبهة وذا ابتسامة قليلة طيبة ، وكان غزير الشارب وأشيب الشعر كان يستخدم نَظَّارة شنبرها من الذهب وكان أعور العين اليمنى لأنه فى يوم من الأيام وهو يتأمل حصانًا أبيض فى ورشته بارًانكيا فقد عينه فجأة بسبب الرمد .

وعلى الرغم من طلعته المهيبة كعسكرى سابق كان نيقولاس ماركيز ذاخلق طيب كريم الصفات ، وكانت كلماته متزنة ودقيقة كانت تعرف طريقها إلى لُب الأشياء وجوهرها . كان عمليًا ومنظمًا وذا تحضر فريد أو منقطع النظير. كان أنيقًا فى ملبسه دائمًا وخاصة فى المناسبات الكبيرة ، عندما كان يرتدى أفخم حلله بصديرى ورباط عنق على الرغم من الحر الخانق. وكان يحمل فى أحد جيوب الصديرى ساعته الذهبية تتدلى منها سلسلة كانت تعبر بطنه الكبيرة . أما قمة أناقة مظهره فكانت تمكن فى حلاقته الدائمة لذقنه واستخدامه للكولونيا. وكان أكولاً نهمًا لامثيل له على الإطلاق وكان زئرًا مفرطًا للنساء(٤٠) استنادًا لما يقوله حفيده. فالأبناء الكثيرون غير الشرعيين (تسعة عشر ابنًا يؤكد القصاص أنه تعرف عليهم فى الثيسار ولاجواخيرا عندما كان يبحث عن جذوره وأصوله) وهولاء سيكونون سبب إلهامه فى السبعة عشر ابنًا غير الشرعيين للعقيد أوريليانو بوينديا ، كما أن نهمه الكبير بالأطعمة سيكون نموذجًا يُحتذى فى الأكلات البطولية لخوسيه أركاديو وأوريليانو سيجوندو . ومن حين لآخر وخاصة فى أعياد الميلاد كان يظهر فى أراكاتاكا بعض البراعم المنتشرين فى منطقة الكاريبى الواسعة ، وكانت ترانكلينا تحتفى بهم كما لو كانوا أنجالها تمامًا وهذا ما ستفعله أورسولا إجواران مع الأبناء غير الشرعيين للعقيد أوريليانو بونديا .

لقد كانت استقامته ووجاهته ومهنته كجابٍ للضرائب بالدائرة وأمين لصندوق البلدية ، وصراعاته السياسية فى صفوف الحزب الليبرالى ، وشهرته الكبيرة كعقيد قديم واتصالاته الجيدة جعلته أحد البطاركة الأقوياء والمحبوبين فى أراكاتاكا وكان ذا شجاعة أدبية وسياسية لا جدال عليها. لقد كانت ليبراليته نقية متأصلة ، وفيما يتعلق

بالقضايا الأيدو لوجية فقد كان عنيداً فى آرائه كما فى مسائل الشرف تماماً : وكانت أكبر الإهانات التى تعرض لها فى مساء خلال شهر أبريل عام ١٩٠٨ عند ما تجرأ ميدرادو باتشيكو وكال له السباب والشتائم وقال له : "إنه وصمة عار فى جبين حزبنا الليبرالى ، "وكان يسير مع حفيده ماسكًا يده وشغله الشاغل هو أن يُرِيَهُ أشياء أو يسرد له بعض الأمور. وقد عرف جابيتو بواسطة جده قرية أراكاتاكا والعالم الخارجى والتاريخ بأمجاده وأحداثه الصغيرة والرجال الذين سطروا هذا التاريخ . كان يأخذه من يده ويسير به فى الشوارع ذات التراب الخانق وأشجار اللوز الحزينة لمشاهدة أفلام تومى ميكس وأفضل عروض السيرك فى كولومبيا التى كانت تنصب خيامها فى أراكاتاكا ، وكان أصحاب ملاهى السيرك يأتون بفعل جاذبية زراعات الموز المزدهرة هناك. وقد استطاع الحفيد مشاهدة كثير من الحيوانات التى كان يراها فى الكتب الفكاهية أو فى النصوص المدرسية. وفى إحدى الليالى عندما عاد إلى المنزل بعد أن شاهدا الجمل ذا السنام الواحد بالسيرك أخرج الجد القاموس وشرح للطفل ذى السنوات الست : "هذا هو الجمل ذو السنام الواحد ، وهذا هو الفارق بين الجمل والفيل"(٤١) أى أنه أعطاه أول درس عن حديقة الحيوان وعلم تأليف المعاجم . وفى كل مرة كان الفتى يسأل ويتعلثم الجد كان يقول الصبى دائمًا " لنر ماذا يقول القاموس " ومن هنا نشأت هواية الكاتب بالقواميس والموسوعات. لم يترك الجد سؤالاً أو أى شىء يقلق الطفل ولو كان صغيراً إلا و كان يجيبه عليه ، وبينما كانت الجدة تكممه بأرواح وأشباح المنزل فى تمام السادسة مساءً كان الجد يرد مسروراً على كافة أسئلته ومطالبه ، وذات مرة والطفل فى الخامسة من عمره عاد إلى المنزل وقال لقد رأيت توًا مرجانًا صلبًا كالأحجار فى مكتب أمن شرطة الموز. وشرح له الجد أن الأسماك كانت تبدو كالأحجار لكونها مجمدة. وقد سأله جابيتو ماذا تعنى كلمة مجمَّد فأجابه قائلاً : إنهم وضعوا الأسماك فى الثلج ، ولكن الطفل سأل ما هو الثلج ؟. حينئذ أخذ الجد حفيده وذهبا إلى مكتب أمن الشركة القريب من المنزل وفتح صندوق سمك المرجان وجعله يرى الثلج(٤٢). وظل ذلك عالقًا فى ذهن ووجدان الطفل لسنوات طويلة تختمر فى ذاكراته صورة الثلج والجد يأخذه من يده لمشاهدة السيرك والصور الأصلية فى "مائة عام من العزلة " .

ومن أهم الذكريات التى لا تمُحى لدى الكاتب إلى جانب جده تلك الرحلات التى قاما بها فى مركبٍ شراعيٍ إلى جزيرتى كوراثاو وأرويا عندما كان العقيد يذهب لشراء العطور والقمصان الحرير[٤٣]. وقد قام بهذه الرحلات فى المركب أوروا عبر نهر ماجدلينا صوب باراًنكيا. وكانت هذه الرحلة على وشك أن تكون مأساوية لأنَّ جابيتو وهو فى السادسة او السابعة من عمره سمع من الكابينة بالمركب الضوضاء عندما كان الجد يدافع عن نفسه بسبب مناقشة سياسية ضد بعض الرجال الذين أرادوا القاءه فى النهر[٤٤]. وكمرات كثيرة طوال حياته ومنذ ولادته كانت المأساة تطرق بابه دائمًا دون أن تجرؤ على الدخول .

وكانت أهم رحلة قاما بها سويًا - دون شك - إلى سان بيدرو أليخاندرينو فى سانتا مارتا لكى يتعرف الطفل على الهيكل الوطنى الذى مات عنده سيمون بوليفار (محرر أمريكا اللاتينة) ، وكما رأينا فإنَّ الطفل قبل أن يبلغ الرابعة من العمر سمع اسم بوليفار فى باراًنكيا وعندما بلغ السادسة رأى تمثال بوليفار بعد وفاته فى النتيجة الحائطية للجد واسفل الصورة بعد أبيات الشعر الساذج التى جاء فيها : إنَّ سانتا مارتا أعطته قطعة من الشاطئ ليموت عليها ، وعندما وصل جابيتو وهو فى السابعة من عمره برفقة جده للتعرف على سان بيدرو أليخاندرينو كان أول شىء سأل عنه تحت ظلال أشجار التمر الهندى : أين هذا الشاطئ الذى ذكرته تلك الأشعار؟. وبما أن والد جده كان قد عرف بوليفار فقد شرح له الأمور وجعل من صورة والد الوطن أسطورة[٤٥] واعتباراً من هذه الأمور وبعض التفاصيل الأخرى المتراكمة ظهر الاهتمام القصصى للكاتب بشخصية المحرر بوليفار. وعلى الرغم من كل هذا فإن أهم اللحظات الراسخة فى ذهن الكاتب منذ طفولته كانت الزيارات التى اصطحبه فيها جده إلى مزارع الموز الضخمة ، وهما مذهولين بالصمت الذى يخيم عليها ، وذلك للاستحمام فى مياه نهر أراكاتاكا أسفل مرتفعات سيراً نيفادا فى سانتا مارتا ، وبالطبع فإن ذاكرة الكاتب المتعطشة دائمًا للجديد استحوذت إلى الأبد عليها صورة تيار المياة الشفافة المتدفقة شبه المثلجة التى كانت تنساب عبر الأحجار الضخمة البيضاء اللامعة النظيفة وكأنها بيض ماقبل التاريخ وعندما كانوا فى طريق العودة ، والصمت الرهيب يخيم على زراعات الموز ؛ صمت سحرى قاتل فى " مائة عام من العزلة " وفى " الحب فى زمن

الغضب " ولم يقطع هذا الصمت سوى غناء بعض الطيور وكان جابيتو وجده يسمعان هذا التغريد ، وكان يحكى له عن المذنَّب هالى ، وعن العصور الذهبية لأراكاتاكا وكان يكرر له تفاصيل مذبحة مزارع الموز ، وكذلك ألف قصة وحكاية عن "حرب الألف يوم" والمعارك التى اشترك فيها واليوم الذى كان على وشك أن يلقى عليه القبض فيه ويعدم مع رفاقه ، والأصدقاء الذين ماتوا خفية ، والجرحى المحتضرون اثنان منهما فى مستشفى الإسعاف وهما اللذان أُعدما رمياً بالرصاص ، وكذلك صديقه العقيد ألونسو بلاثاس الذى أعدمه المحافظون فى صباح مشئوم منذ بضع وثلاثين سنة بالقرب من منزل بارَّانكاس .

وقد ظلت القصص تغلى فى ذاكرة الكاتب ، ثم عاشت فى خياله وهى التى كانت سبباً فى اثنين وثلاثين حرباً أشعلها ثم خسرها العقيد أوريليانو بويندیا. ولكن لب هذه الحروب لم تحصرها ذاكرته فى هذه المعركة أو تلك الموقعة المرعبة ، ولا حتى فى شخص جده الوقور ولكن فى صورة ثانوية : إثر جُرح لرصاصة فى أعلى فخذ الجد وقبيل وفاته بعامين جاء الطبيب ليفحصه إثر وقوعه الخطير على السلم. لقد توقف أمام أثر جرح الرصاصة وسأله عن سببها فقال له : إنها رصاصة حرب(٤٦). وقد كانت بالنسبة للحفيد بمثابة الإيضاح التام للماضى الأسطورى والبطولى للجد .

وأحياناً أخرى كانا يتجولان متوغلين حتى الحدود الفاصلة بين أراكاتاكا الفوضوية والفقيرة ، والمنازل الفردوسية التى تحيط بمنازل الأمريكيين العاملين فى الشركة المتحدة للفواكه. لقد رأى الطفل فى العالم الآخر فى "مائة عام من العزلة" الذى أطلق عليه فى تهكم أدبى الحظائر الكهربائية ، المنازل الجميلة المكيفة وحمامات السباحة التركوازية ومظلاتها للوقاية من شدة الحرارة ، التى تنتشر فى المناطق السندسية الخضراء حولها وملاعب التنس بها ، وكان الرجال والنساء والأطفال لونهم أحمر كالجمبرى يتنزهون بها مرتدين ملابسهم الرقيقة أو الداخلية أوكانو يستريحون على كراسى من الصفصاف تحت مظلاتهم. وأحياناً أخرى كن يخرجن من الحظائر الكهربائية وهن مرتديات للفساتين من القماش الموصلين الرقيق وقبعات من نسيجٍ شفافٍ. سيدات ذات ضحكات رقيقة وعيون تنظر إلى عالم آخر. مثل التى تجاسرت ذات مساء وخرجت فى سيارة مكشوفة برفقة كلب من فصيلة الذئاب فى شوارع حى الفقراء فى أراكاتاكا. وقد مرَّت بين حشد غفير من العيون التى شاهدتها من خلال التراب

المتناثر فى الجو والحر الخانق ، وكان من بين تلك العيون عينا طفل فى السادسة أو السابعة من عمره ، وهو الذى ظل مفتونًا بجمالها الصارخ إلى الأبد فضلاً عن قدرتها الهائلة وغرابتها[٤٧]. وهكذا قبل أن يتعلم القراءة فإنَّ الطفل المفكر الصامت المنعزل فى أراكاتاكا بدأ يرى العالم الحقيقى لجده وعالم الأشياء التى تحدث حيث يوجد محور تقدمى أو تخلفى لأن البعض ينعمون بكل شىء وآخرون لايجدون شيئًا ، البعض يأمر وينهى والبعض الآخر يؤمر ، لأنَّ البعض يعرف كل شىء والبعض الآخر يجهل كل شىء ، وفى هذا التقدم أو التخلف الكل يشترك فى المسئولية سكان المدينة المحرومة ؛ سكان الحظائر الكهربائية لأنهم المسئولون عن الإضراب المأساوى عام ١٩٢٨ لقد غيَّروا مجرى النهر حيث كان الطفل يستحم مع جده ، والأدهى من ذلك والأمر أنهم غيَّروا للأبد مجرى تاريخ القرية وأهلها .

ولذلك فإن الأشياء التى كان يرويها ويحكيها العقيد ماركيز لحفيده أمدته بتفاصيل لا حصر لها كانت الأساس ليقظته السياسية والفكرية. كما كان الجد يقرأ لحفيده أنباء الصحف وكان يشرح أى شعار يصعب عليه مثل المحافظ يولد والليبرالى يصنع ، ومع ذلك فقد كان أثناء الحكومة الليبرالية لأولايا إيريرا (١٩٣٠ -١٩٣٤) وجابيتو لا يزال طفلاً حيث اغتاظ مستاءً من نظام الحكم فى بلاده عندماجاء مندوبو الحكومة إلى أراكاتاكا لجمع التبرعات لتمويل الحرب المأساوية المضحكة ضد بيرو وقد أخذوا دبلتى زواج جدِّه وجدَّته حينئذ بدأ جابيتو يفتح عينيه . وفكر فى نفسه ربما يكون أحد قد اخترع فكرة الحرب ضد البيروانيين لكى يسرق من أجداده وجميع مواطنى بلاده دبل زواجهم[٤٨] .

وسرعان ما كان العجوز يتوقف فى منتصف شارع أثناء تجولاته المسائية مع حفيده الذى كان لا يزال فى السابعة من عمره ، وقد اعترف له الجد قائلاً بعد أن صدرت عنه تنهيدة عميقة : أنت لاتعرف مدى ثقل قتيل فى ضمير ووجدان شخص. وإذا كان أثر الجرح الناجم عن الحرب هو أهم الأشياءالتى فتنت الحفيد بجده فإن هذه العبارة ستؤثر فيه كثيراً. وهذا يؤكد أن هذين الأمرين كانا يمثلان المأساة العظمى للجد ؛ جروح الحرب وحديثه عن الموت. واعترف جارثيا ماركيز بأن تأثير سوفكليس هو السبب فى وجود الموت بشكل متسلط فى أعماله[٤٩]. إن هذا يعتبر نصف الحقيقة لأن النصف الآخر يكمن

في المآسـي التـي عانت منها كولومبيا وكذلك جده قبل الأستاذ اليوناني . كما رأينا لقد كانت "جرب الألف يوم" المأساة الأهلية الأكثر دموية في تاريخ كولومبيا (إلى جانب الفتـرة المُسَمَّاة بعنف الأربعينيات والخمسينيات) ولقد نقل الجد هذه المأساة إلى حفيده. ومن ناحية أخرى فإن الجملة التي يعترف فيها العقيد" أنت لا تعرف مدى ثقل قتيل في ضمير ووجدان الشخص" !. لقد ظلَّ شبح المرحوم ميدرادو باتشيكو روميرو عالقًا بذهـن العقيد ، وهو الذي اضطر الجد لقتله في بارَّانكاس في مبارزة بينهما ، وبهذا الشكل وبمرور السنين تفهم الحفيد رويداً رويداً شخصية الجد الموقر بهدوئه ونظامه وسلطته ، فقد كان مُحاطًا بمأساتين لا فكاك منهما : إنهَّ أحد الباقين أحياء بكرامته على الرغم من هزائمه نفسها. ولقد فهم الحفيد أيضًا أنه ومصيره كانا نجلين لهذه الهزائم القديمة ، لأنه من هذا المنظور قَدِمَتْ أسرة ماركيز إجواران إلى منطقة زراعات الموز بعد تلك المبارزة المشئومة في بارَّانكاس لكي يتزوج موظف التلغراف من طفلة أراكاتاكا الفاتنة ، وينشأ ويترعرع جابيتو مع الجد حتى سن العاشرة من عمره في ذلك البيت القديم الضخم المليء بالأحياء والأموات. ولم ولن يعرف العقيد نيقولاس ماركيز على الإطلاق أن هزيمته المزدوجة ستتحول إلى انتصار جمالي خالد ودائم في قصص الحفيد .

وفي تعداد الشخصيات التي شهدتها طفولة جارثيا ماركيز نجد أنَّ الأجداد والعمَّات ووالديه وأشقاءه والخدم وبعض الأقارب هم بلا شك أهم الشخصيات إن لم يكونوا الأشخاص الوحيدين في طفولتهم. وكانت أراكاتاكا كبابل حيث كان يقيم بها بعض الأشخاص ويعود إليها الغرباء سواءً من المواطنين الكولومبيين أو الأجانب والذين سكنوا أو استوطنوا ذاكرة جارثيا ماركيز وسيخدمونه في ابتكار شخصيات أخرى أو على الأقل رسم وجوه أو تخطيط ملامح نفسية محددة .

لقد كان البعض مجهولاً تمامًا مثل تلك المرأة التي جاءت وقد حرقتها حرارة الشمس يرافقها الفضول الاجتماعي ومعها طفلة في يدها وباقة من الزهور لتضعها على قبر نجلها ، بينما كانت الشائعة تنتشر في أراكاتاكا بأسرها "هاهنا جاءت أمُّ اللص(٥٠). إن هذه السيدة الوقورة التي ظلت مجهولة تمامًا خلَّدها الكاتب في قصة " قيلولة الثلاثاء " ، التي كان الكاتب يعتبرها طوال عدة سنوات أفضل رواياته. أو تلك السيدة الأخرى من الجيران التي هربت مع عشيقها ولكي تخفي حولها الفضيحة الأسرية قالت

إن حفيدتها اختطفتها رياح المساء[٥١]. ولكن الذين فتنوه تمامًا هم الأطباء الدجالون الذين كانوا يستخرجون الديدان من الأبقار بصلواتهم السحرية ، أو ذلك الرجل الذى أدخلوا له ضفدعًا فى كرشه ، أومقطوع الرأس فى ميدان بوليفار الذى ظلَّ راكبًا حماره بعد أن ضُربت رأسه ضربة واحدة لسببٍ تافه .

أمّا الآخرون فمعظمهم معروفُ الاسم كانوا لا ينتمون إلى عالم الأحياء مثل الميت الذى كان يقطن المنزل المجاور لمنزل أجداده والمشهور بمنزل الميت وإن كان ساكنه قد أفصح عن اسمه الحقيقى فى جلسة تحضير للأرواح[٥٢]، فكل الناس كانو يطلقون عليه اسم "الميت " وليس ألفونسو مورا. لم يكن روحًا مأساوية ؛ بل كان هادئًا بعيدًا كل البعد عن حركات التَّملق للموتى الآخرين ، لقد كان يعيش حياته الثانية بفلسفة مثلما فعل بروديتثيو أجيلار فى "مائة عام من العزلة ". لقد سُمِعَ فقط وهو يسعل أو يُصفر فى جانب من الجوانب ، وإذا التقى به أحدُ فجأةً لم يكن الأمر يتعلق بارتكابه خطأ الخروج إلى الشارع أو الذهاب إلى منزل الجيران. لا ، حدث هذا لأن هؤلاء تَجَرَّأوا واقتحموا منزل الميت الأعزل . بنفس صرامة وجلد جدته ترانكلينا وعمته ألبيرا كاريو فيها أكثر من استماعهم إلى الميت وهو يسعل أو يصفر فى جانب من الجوانب. لقد وصفه جارثيا ماركيز لكى يوضح للعقلانيين كيف تم لقاؤه وهو طفل صغير مع الميت : ذات يوم والشمس ساطعة مررت بالمنزل المجاور لمنزلنا لمطاردة أرنب وحاولت اللحاق به فى الكنيف أو المرحاض حيث اختبأ . دفعت الباب ولكن بدلاً من الأرنب رأيت الرجل المطعون بالسكين جالسًا على الكنيف حزينًا ومفكرًا شأنه كشأننا جميعًا فى تلك الظروف لقد تعرفت عليه فورًا ؛ ليس بسبب أكمامه التى شمرَّها حتى المرفقين ، ولكن بسبب بياض أسنانه الناصع لشخص زنجى أو ملون كانت تضىء فى الظلام[٥٣] ، ولكن أكثر الأمور دهشة لم يكمن فى أنَّ الميت كان يعيش فى المنزل الكائن على الناصية ولكن فى مشاركته لشخص آخر فى المنزل وهو راعى الأبرشيه فرانثيسكو . ت . أنجاريتا الذى استأجره رغم كافة التحذيرات واستطاع أن يروض روح الميت بعد عدة جلسات لتحضير الأرواح ، وإن كان الميت لم يكف على الإطلاق عن السُعال والصفير من حين لآخر ، وهذا ما أكدته الجدة ترانكلينا لأليساندرو روبليس كتانيو عندما قام بزيارتها فى أوائل الأربعينيات فى المنزل نصف المهجور : لقد سألتها حينئذ عن الميت الذى كان

يخرج على الناحية المقابلة على الرغم من وجود راعى الأبراشية الذى استأجر المنزل واستطاع طرد الجان الذين كانو يسكنون الغرفة ، وقد ابتسمت بهدوء وقالت : إن هذه الكوابيس لا زلت أتذكرها ، ولم أنسها على الإطلاق. وهكذا وقد كتمت الضحكة وأشارت لى على قطعة الأرض المجاورة التى لم يستطع بصرها الوصول إليهالضعفه وقالت لى بخبث ودهاء : هنالك يصفرون دائمًا وأنا أحس بذلك فى كل لحظة...(٥٤) وعلى الرغم من ذلك فإن حياة الأب أنجاريتا كانت أكثر دهشة من حياة شريكه فى المسكن. لقد وصل أنجاراتيا كراعٍ جديد لأبرشية أراكاتاكا فى منتصف ١٩٢٨ وقد بدأ ممارسته لعمله بتعميد جارثيا ماركيز . لقد كان بطيئًا صفيق الجلد وكان يسير مستندًا على عكاز ، وكان أنجاريتا – مثل الأب أنجيل والأب أنطونيو اليابيل – واعظًا أخلاقيًا متشددًا، وبه مسحة من الهذيان والهراء. لقد كان يتكلم فى دروسه الدينية عن المضمون الأخلاقى للأفلام ، وفتحة الفساتين الفاضحة على صدر النساء ، أو عن تقويم بريستول أو عن سعر الموز وبالنسبة للفتيات العاقات فقد كان يوبخهن. أما العقلاء مثل جابيتو الذى كان أحد خُدام قداسه فكان يكافئهم بأجزاء من القرابين وكان يُعد جابيتو وقرناء جيله للاعتراف بمناسبة قربانهم الأول وذلك من خلال قاموس للخطايا. كان يستجوبهم بعمق وترتيب بالنسبة لأفعالهم ونواياهم عما إذا كانت لهم علاقة بالنساء أو مع الحيوانات . وعندما كان فى الواقع ممسكا بمرآة بين الصفحات ليتأمل بمهارة زى الفتيات اللائى تمررن أمام المنزل : وإذا خرجت إحداهُنَّ بفتحة صدر واسعة أو بتنورة موعزة كان يؤنبها ويوبخها فى الدرس التالى تلميحًا لا تصريحًا دون أن يذكر اسمها. ولكن هذا لم يكن إلا عارضًا خفيًا لرغبتة وشهوته الجنسية التى لا تُشْبَع : إنَّ الأب أنجاريتا مثل كل رجال القرية كان يستعين بنساء لقضاء حاجته وإشباع رغبته الجنسية ، ويقال إنه بالغ تمامًا فى حكايات الميت لترويع الأطفال الذين كان يدفعهم فضولهم إلى مراقبته والتلصص عليه عندما كان يحاول إشباع رغباته الشهوانية والجنسية . ومع ذلك فإن أنجاريتا استطاع الاستحواذ على قلوب أهل أراكاتاكا ، لا لكونه تشدد فى قداساته كسلفه فى المنصب الأسقف إيسبيخو ، بل لأنه استطاع إكمال وإنهاء بناء الكنيسة التى كان قد بدأها الأسقفايسبيخو فى مطلع الحقبة الثانية من القرن العشرين ، وكذلك لموقفه الجرىء والثابت أثناء أيام القمع والاضطهاد التى تلت مذبحة العمال فى ديسمبر ١٩٢٨:

وعندما ارتاب فى أن جنود كارلوس جارثيا بارجاس سيُعدمون المضربين المسجونين فى أراكاتاكا بالرصاص دخل معهم السجن . إن هذه الفظاعات وغيرها القمع العسكرى فى منطقة زراعات الموز كانت مشهورة فى جميع أنحاء كولومبيا بفضل التقرير الذى أعده الأب أنجاريتا بنفسه وأرسله إلى البرلمانى الليبرالى : خورخى إليثير جايتان فى منتصف العام التالى[٥٥] .

وفى الناصية المقابلة لمنزل الميت ، والقطرية مع منزل جابيتو كان يعيش شخص آخر سيترك له أثرًا خالدًا : الطبيب الفنزويلى أنطونيو باربوسا. الذى نفته ديكتاتورية خوان بيثينس جوميث والذى جاء فى أوائل الحقبة الثانية من القرن العشرين وأصبح طبيبًا وصيدليًا لقرية أراكاتاكا ، ولكن بمرور الوقت هجر مهنته ولاذ بالكسل فى إحدى صالات منزله . كان باربوسا يصنع اللوثيونات وبعض المعاجين والمراهم والدهانات. كان رجلاً عاقلاً رزينًا ورصينًا وصديقًا كبيرًا لأسرة ماركيز إجواران ، وكان ضعف أعصابه يجعله لا يتحمل الأطفال ولا يطيقهم. ومع ذلك كان يسعد بألعاب جابيتو ولويس كوريا جارثيا اللذين استطاعا أن يجعلاه شريكًا لهما ، حتى أنهما كانا يتنافسان على من يعرف الأدوية أولاً على أرفف الصيدلية حيث كان الصيدلانى يقوم بنفسه بتغيير أماكنها يوميًا على الأرفف. ولم تكن هذه الألعاب ساذجة فى مجملها لأن الصيدلية ستعرض فيما بعد فى العديد من كتب ومؤلفات كاتب المستقبل ، وخاصة أن هذا المنزل كان والداه يتبادلان فيه الرسائل أثناء فترة خطوبتها المحظورة ؛ إنه المنزل الذى جاء ذكره فى "الورقة الساقطة " حيث سيعيش وسينتحر وسيسهر على جثة الطَّبيب الفرنسى النباتى الغامض. كما أن الدكتور باربوسا نفسه سيكون جزءًا من هذا النموذج لتلك الشخصية ، فقد أسهم فى تكوين الخيال الأوروبى للكاتب لكى يتمثل فى شخصية البلجيكى السيد إيميليو . لقد وصل الفرنسى كما كانوا يلقبونه فى أراكاتاكا فى أواخر الحقبة الثانية قادمًا من الأنتيل وهو جريح فى إحدى ساقية وبعكازين فى يديه ، فارًا من رعب وأهوال الحرب العالمية الأولى التى كان قد شارك فيها. لقد كان يصنع الجواهر مناضد اللعب ، كما كان صديقًا كبيرًا لجدىّ جابيتو وكان يشارك العقيد فى الهوايات الحرفية اليدوية الفنية ، كما كانا يلعبان الداما (من ألعاب الورق) عندما يحل المساء. وبعيدًا عن الحى الأرستوقراطى الأوروبى وحى الفقراء فى أراكاتاكا وفرت لهم القرية

الأمن والأمان والطمأنينة . وذات يوم سبت فى المساء ارتكب خطأ شنيعًا عندما ذهب لمشاهدة فيلم " لا جديد على جبهة القتال " مما أثر فيه إلى أبعد حد حيث كان تجسيداً هائلاً للحرب العالمية الأولى ، وكان تكراراً لها، وكأنّ مرآة سجلت أحداثها كما هى فشاهد ويلات الحرب مرّة أخرى ، تلك الحرب التى سببت له عجزًا جسديًا وعقليًا إلى الأبد ، ومات وقبل أن يتناول سم السيانيد ترك مذكرة توضيحية : " لا تتهموا أحداً لقد انتحرت لكونى مغفلاً".(٥٦) .

ولم يذهب العقيد فى اليوم التالى إلى قدّاس الثامنة لكى ينظم له جنازة تليق به فى أرض المنتحرين ، وكالعادة اصطحب جابيتو معه وكما عودنا دائمًا استطاع جابيتو أن يستثمر تلك المأساة أدبيًا:فلم يتحول السيد إيميليو البلجكيى بشكل جزئى إلى النباتى الغامض والطبيب الفرنسى فى "الورقة الساقطة " بل أيضًا أحياه من رقاده مرة أخرى فى قصة " الحب فى زمن الغضب " باسم خيريمياس دى سانت أمور اللاجئ الأنتيلى معُوّق الحرب ومصوّر الأطفال .

وقد بقيت فى ذاكرة طفولة الكاتب بعض الشخصيات القليلة مثل مواطنة كاراكاس خوانا دى فريتيس التى هربت مع زوجها من خوان بيثينتى جوميث . لقد كانت المستشارة القانونية لشركة القابلات سانتوس بيروس عندما ولد جارثيا ماكيز حيث أنقذت حياة الطفل والأم وكانت إحدى القابلات ذات الموهبة الأدبية للكاتب. لقد كانت الشخصية الأولى التى حكت له حكايات الأطفال دائمًا حيث كانت تقوم بتحديثها له على طريقتها. وفى صالون منزلها وأبوابه المتحركة. وكان المنزل امتداداً لمكتب أمن الشركة المتحدة للفواكة. كانت العجوز البيضاء البدينة تجلس على كرسى هزّاز من النباتات المتسلقة كل مساء لكى تروى لأطفال أراكاتاكا القصة المؤثرة "ذات الرداء الأحمر" التى كانت قد التهمها ذئب فى كاراكاس يُدعى خوان بيسينتى الفاريث ، أو قصة الساحرة "ذات الرماد " التى فقدت حذاءها الزجاجى فى حفلة فردوس كاراكاس ، أو القصة السارة "الجميلة النائمة " التى كانت تنتظر أميرها المستيقظ فى ظلال شجرة الماهوجنى فى كاراكاس(٥٧) ، وبالنسبة للقصص الكلاسيكية كانت خوانا فريتيس الهائلة تضيف عليها شيئًا جديداً ، حيث كل شىء يحدث فى مدينتها التى تشتاق إليها .

لقد شبَّ جارثيا ماركيز حينئذٍ بنظرة مثالية وأدبية عن العاصمة الفنزويلية حيث وُلِدَ سيمون بوليفار ، والتى شهدت أموراً لا يمكن تصديقها. قدم منها أناس ذوو شأن وهائلون مثل أسرتى باربوسا وفريتيس أو مثل أسرتى ليونى وبيتانكور ، وكذلك أسرُ بارزة قدَّمت بعد بضع سنوات رئيسين لجمهورية فنزويلا. ومن العجيب كما سنرى ففى كاراكاس وفى اليوم الأوَّل من شهر يناير ١٩٥٨ سينضج لدى جارثيا ماركيز موضوع خريف البطريرك وهو موضوع رآه الطفل فى أراكاتاكا إلى جانب جده بشكل ما كما قابل محاربين مختلفين آخرين والمنفيين الفنزويليين البارزين .

لقد عاش الصغير جابرييل خوسيه فى عالم أدبى أو ما قبل الأدبى تماماً فى عالم خيالى وعجيب وساحر ، فقد كان ينتقلُ من منزله إلى منزل الأرواح ومنزل الميت وهو المنزل المجاور ماراً بمنزل خوانا دى فريتيس ومنزل السيد إيميليو ثم انتقل سريعاً إلى منزل الإيطالى أنطونيو داكونتى فاما .

وكان داكونتى كبقية المهاجرين الأوروبيين القادمين فى أعقاب الحرب العالمية الأولى وهو الذى أدخل السينماالصامتة فى أراكاتاكا والدراجات بالإيجار والفونوجراف وأول أجهزة استقبال الراديو ، وهى أسباب كافية لكى يقوم جارثيا ماركيز بتخليده فى " مائة عام من العزلة " باسم بييرتو كريسبى أكبر فاعل خير فى ماكوندو . كما أن مصيره كرجل ثرى ومسرف انعكس على حياته الغرامية لقد كانت له زوجتان شقيقتان ، وأعظم مافى الأمر هو أنهما كانتا متفاهمتين معه جيداً ، وفيما بينهما أيضاً وقد كانتا تتبادلان الأنجال لتر بيتهم ، وكانت إحداهما تربى الإناث والأخرى تربى الذكور. ولم يبق داكونتى فى ذاكرة الكاتب فقط لكونه ثريًا وهائلاً ؛ بل أيضا بسبب الأرواح التى كانت تسكن منزله ذا الأربع نواصى. وكانت أهم تسليات جابيتو المفضلة وأصدقائه لويس كوريًا جارثيا وفرانكو بيدال هو التلصص على السلوك غير المرئى وغير المتوقع والفكاهة السوداوية للأرواح التى استحوذت على منزل الإيطالى.

وخلافًا لما كانت عليه أرواح الكاريبى الكولومبية كانت هناك أرواح من الجان فاعلى ومحبى الخير حيث كانت تساعد مُلاك البيت فى الأوقات العصيبة ، أما أرواح أراكاتاكا فقد كانت أرواحًا شريرة شقية تحب اللعب ، وتسكن أعماق المياه وكانت تتسلى بقيامها بكافة

أعمال الشقاوة المزعجة بالمنزل. لم تكن أكثر من ذلك : أرواح شعبية ولكنها محبة للخير ؛ فقد كانت تجبن اللبن وكانت تغيِّر لون أعين الأطفال ، وتصيب الأقفال بالصدأ أو كانت تتسبب فى الأحلام المعقدة المتشابكة. و مع ذلك فقد كانت هناك فترات يتغيَّر ويتبدَّل لديها المزاج لأسباب لم تُفهم أبدًا. وكانت فى تلك الأثناء تقوم بإلقاء الأحجار على المنزل الذى يعيش فيه(٥٨).

ومثلما فعل الدكتور خوبينال أوربينو فى "الحب فى زمن الغضب "كان جارثيا ماركيز يقضى الساعات البطيئة لطفولته متأملاً هذه الأرواح بدهشة شبه تصوفية ، ولكنه كان يختلف عن شخصيته حيث ظل يؤكد برباطة جأش منقطعة النظير أنه شاهد تلك الأرواح تقذف منزل أنطونيو داكونتى بالأحجار ؛ أى منزله الخاص وبعد مرور ستين عاما سأل لويس كارميلو كوريًا جارثيا – بالاحتياط العقلانى الذى بداخلنا – عما إذا كانت هذه القصة حقيقية أعنى قصة الأرواح. ولم يتردد الآخر فى الرد بأن كل هذا كان حقيقية راسخة تمامًا ولكن جابيتو وحده هو الذى عاد يتذكرها .

وكلمة واحدة مع جان ذى ألف عام ليس فقط سبب اشتقاقه الذى سيصل إليه من خلال إحدى الشخصيات التى اعتادت زيارة منزل الأجداد: رامون جارثيا مقاول العمال فى مزرعة موز ماكوندو .

وعلى الرغم من أن جارثيا ماركيز قال بعد ذلك بسنوات طويلة إنه لا يزال يتذكر أحداثًا من الطفولة مع صديقه فى مرحلة ما قبل الولادة لويس كارميلو كوريًا جارثيا فإنه قد سمع اسم ماكوندو لأول مرة وهو فى الخامسة من عمره فى مكتب أمن الشركة المتحدة للفواكه من المحتمل بل ، ومن المحتمل جدًا أنه كان قد سمعه من قبل فى نفس منزله ، فقد كان رامون جاريثا يزور أسرة ماركيز إجواران بكثرة وكان ينزل ضيفًا عليه كلما زار أراكاتاكا لحضور أعياد عذراء لاكاندلاريا فى الثانى من فبراير ، ولكن من المحتمل أيضًا أنه سمع هذا الاسم بداية فى ظروف أو مناسبات أخرى ولأسباب مختلفة ، لأن كلمة ماكوندو كانت فى نفس الوقت اسم شجرة أو لأحد ألعاب الحظ أو لقرية فى بيبيخاى .

وكانت ماكوندو مزرعة تابعة لشركة الفواكة المتحدة . وكانت مساحتها ٣٣٦ هيكتار على ضفاف نهر أشبيلية على مقربة من قرية تحمل نفس الاسم ولكنها كانت

تابعة لاختصاص جواكامايال إحدى مأموريات ثييناجا القضائية ، التى أسست عندما أنشئ خط السكة الحديد وعندما بدأت زراعات الموز فى فجر القرن العشرين ، ولقد ظلت جواكامايال تتذكر على أنها قرية قوم لوط بالمنطقة (سدوم) ، وقد استشهد بها جارثيا ماركيز فى "جنازة الأم الكبيرة " عند الإشارة إلى عادات جواكامايال . ولكن كما رأينا ايضًا كانت مقرًا للحركة الفكرية والسياسية التى تزعمت الإضراب العام فى ١٩٢٨، وعلى الرغم من ذلك فإن أكبر إسهام لجواكامايال هو اسم مزرعتها القديمة للموز ، والمكان يتسم بالخضرة الدائمة كما هو الحال فى ضواحى أراكاتاكا ، ولذلك فعندما كان يراها جابيتو من خلال القطار أثناء رحلاته مع أجداده وعماته إلى ثييناجا وسانتا مارتا و بارأنكيا وماكوندو كانت تبدو له امتدادًا طبيعيًا لأراكاتاكا بزراعات الموز فيها ، وأشجار الأرْز الأمريكية والمانجو ، والجوافة ، والسنْط ، وأشجار الأرتينة الأمريكية "؛ وهى شجرة يبلغ طولها ٣٠ مترًا ، وأوراقها تشبه كف اليد، وأزهارها حمراء ، وثمارها مخروطية الشكل".

ولاسم ماكوندو قصة عريقة فى القِدَّم يستحيل تتبعها بكافة التفاصيل ، وخطوب الدهر حتى الوصول إلى الكاريبى الكولومبى. ولكن مما هو معروف فإن الاسم قادم من أفريقيا الوسطى – الشرقية من لغة البانتو الألفية " اسم لجنس من الزنوج الأفارقة وللغاتهم" . وكلمة ماكوندو مشتقة من لغة البانتو ماكوندى ، وهى جمع للاسم ليكوندى ، وهو اسم الموز فى تلك اللغة ، والتى يترجمها أفراد جنس البانتو "بغذاء الشيطان"[٥٩].

وقد وصلت الكلمة مع العبيد الأفارقة خلال القرن السادس عشر لكى تصل فيما بعد إلى ساحل الأطلسى الكولومبى ، ويبدو أن العبيد حافظوا عليها خوفًا من انقراض لغتهم الأصلية عندما أطلقوا كلمة ماكوندو أوليكوندو الموز الذى هو أحد الفواكة الأساسية فى غذائهم. وبمرور الوقت أصبحت الكلمة تُطلق على شجرة فى شمال دائرة ماجدلينا حتى الحِقَب الأولى من القرن العشرين. وكان الماكوندو يُطلق أيضًا على المعديات أوالقوارب "(والتى وصفها الصيدلانى بونبلاند خلال حملة هومبلدت إلى أمريكا الجنوبية)" بأنَّها شجرة سميكة ، أمَّا أفرعها الورقية فإنها تبدأ فى الانقسام بعد ٢٠ مترا، ومع ذلك فهى قليلة أونادرة ، وأوراقها كثيفة . أمَّا جذعها فهو أخضر أشهب ، وفى الساق حلقات قائمة رقيقة تتناوب مع أخرى بيضاء عريضة.

ونظراً لطواعيتها ؛ فإنَّ السكان الأصليين وشركة الموز قد أسرفوا في استخدامها في صناعة القوارب وأحواض العجين ، والأطباق ، وكافة الأدوات المنزلية والزراعية ؛ وبالتالي فإنه اعتباراً من حقبة الثلاثينيات انقرضت شجرة الماكوندو تقريباً ، ولم يبق منها سوى بعض الأشجار في سلسلة جبال متفرعة من سيًرا نيبادا في سانتا مارتا(٦٠).

وجدير بالذكر أنه أثناء ازدهار أشجار الماكوندو في المنطقة فإن منزل أو ضيعة ماكوندو كانبها شجرتان عملاقتان في فنائها ، وبالتالي فإن هذا المصطلح تحوَّل إلى اسم مكان ، ثم أطلق أيضاً على الطريق الذي شُيِّد في هذا المكان ، ولكن قُبيل تشييده كانت هناك قرية أخرى تحمل نفس الاسم ، وكانت تابعة لاختصاص مركز بيبيخاي المجاور.

وتُسمى بماكوندو أيضاً إحدى ألعاب الحظ التي كانت شائعة في منطقة الموز أثناء المهرجانات والأعياد الإقليمية. لقد كان على غِرار البينجو حيث كانت العجلة على شكل دوامة أو نحلة سُداسية الشكل ، ويختلف وجهها تماماً: شمس وقمر وأرض ونجم ومنزل وماكوندو (ويمكن أن تتغير الأشكال من منطقة إلى أخرى) وتُمثل الأشكال الست في ست خانات متساوية على مفرش من القماش ، حيث كانت تُوضع المراهنات. ويتم ممارسة اللعب بتشغيل الدرَّاجة أو النحلة على طبق ، ويفوز بالمراهنة الشكل الذي يظل أفقيًا. كما يُشير بذلك الاسم ، وكان شكل الماكوندو هو الذي يفوز بأحسن الجوائز مشيراً بذلك إلى صعوبة الوصول إلى قيمة هذه الشجرة نظراً لنعومة ساقها الطويل وسمكها ، وقد يصل الطول إلى أربعين متراً.

وبهذا الشكل ؛ فإن الظروف التي سمع فيها جابيتو لأول مرَّة اسم ماكوندو يمكن أنَّ تكون متنوعة ومختلفة لأن اختلاف مدلولاتها يجعل لها حضوراً دائمًا في كلمات سكان منطقة زراعات الموز. وعلى أيَّة حال فإن جارثيا ماركيز يعترف بأنه سمع اللفظ وهو لا يزال في الخامسة من عمره لأول مرَّة في مكتب أمن شركة الفواكه المتحدة التي كانت تقع على الناصية المقابلة لمنزله، وأنه بعد دفع مرتبات عمال مزرعة ماكوندو وصل القطار إلى محطة أراكاتاكا أيام السبت الساعة الثامنة صباحًا لكي يقوم بالمهمة نفسها مع عمال المنطقة هنا ، وقبل أن يخرج القطار من ماكوندو كان مدير مكتب أمن الشركة

يُعلن أن القطار سيتحرك ليستعدوا في تلك اللحظة. وكان مدير مكتب أمن الشركة ريكاردو كوريًا يصيح في الشارع قائلاً: هيَّا بنا إلى المحطة فقد غادر القطار ماكوندو.

وأيًا كان المكان واللحظة التي سمع فيها جابيتو هذه الكلمة لأوَّل مرة ؛ فإنها ستستقر في ذاكرة المؤلف المستقبلي " لمائة عام من العُزلة " مع نسمة ما بعيدة مقترنة بلغز رنَّان على أنغام أفريقية.

ومن الممكن أن يكون هذا العالم المليء بالعجائب والشخصيات الغريبة والمفتونين بالكلمات الرَّنانة المشبعة بألحان كانت قد فتنت أوسلبت لُبّ الصغير جابرييل خوسيه ، وأيقظت فيه الاهتمام بتعلم القراءة والكتابة ، لأنه من المفارقات ألا تكون هذه من الأمور القليلة جدًا التي لم يتحمس لها كثيرًا . أمَّا الرسم فقد كان أكبر هواية وأعظم شغف سيطر على عقل ووجدان الطفل وهو لا يزال صغيراً في كنف جده. وكان الرسم هو الشكل الوحيد للتعبير عن أفكار جارثيا ماركيز حتى تعلَّم الكتابة وهو في الثالثة عشرة من عمره ، وكان يرسم طوال الوقت ، وفي أي وقت ، وعلى أيّ سطح كانت الجدة تهذي بجوار سرير الطفل الذي لم يكن يكف عن تشريخ الحوائط والأبواب والأرضيات ، وحتى جذوع الأشجار ؛ فالجد لم يكن يسمح له فقط بهذه الشقاوات ؛ بل كان يحاول جاهدًا أن يوفر له تشكيلة من الأوراق وأقلام الرصاص لكي يمارس هوايته.

بدأ جابيتو يخط خطوطًا وأشباح أشخاص في فناء المنزل بأي قطعة من العصا ، وظل يرسم أشخاصًا بلا ملامح في أوراق الكراسة التي كان قد أعطاها له الجد. وفي السادسة من عمره أصبح يرسم كل شيء وفي جميع الأماكن. وبالطبع كان يَشفُّ الصور الفكاهية للصُحُف والمجلات حتى كان يملأ كراسة كاملة في مساءٍ واحدٍ. وكانت تسليته المفضلة دون هوادة هي رسم رأس المرأة التي فصل الساحر ريتشاردين رأسها في السيرك. وقد كان هذا الساحر القادم من أعماق كولومبيا أحد الشخصيات الكبيرة في طفولة الكاتب ، وبسبب تأثير سحره بالسيرك أقدم على كتابة أعماله الدرامية بدمية من القرع العسلي والتي كان يحقنها بسائل أحمر. وكان جابيتو وأصدقاؤه يمثلون في فناء المنزل دور المرأة التي فصل الساحر رأسها عن جسدها ، حيث كان جابيتو وحده يقوم بدور الساحر ريتشاردين.

وبفضل هذا العالم العجيب الذى أحاط بجابيتو ، وشغفه ، وولعه بالرسم الذى استمر معه حتى أصيب بالحصبة الأدبية وهو فى الصف الثالث الثانوى ، وحتى تلك اللحظة لم يبد جابيتو أدنى اهتمام أو اشتياق لكى يتعلم القراءة والكتابه. وفى قرارة نفسه كان الكاتب يتذكر ذلك قائلاً: "كنتُ أعرف أن ذلك سيحدث فى يومٍ ما كشىء من صنوف القدر ، فمعرفة الكتابة لم تكن شيئًا مقدسًا بالنسبة لى". وعدم معرفته القراءة أو الكتابة فى طفولته كان يتذكره دائمًا على أنه أحد الأحاسيس الأكثر غرابة فى طفولته. وبعدأن تخطى حاجز الأبجدية على يد معلمته روسا إيلينا فيرجسون بدت الحياة له وكأنها أرض جدباء ، وفيما بعد كمستعمرة من الكلمات.

وكانت روسا إيلينا فيرجسون فاتنة وكان يغازلها جابرييل إيليخيو جارثيا إلى جانب فتيات كورال ماريا بالكنيسة ، فى الوقت الذى بدأ قلبه يعشق لويسا سانتياجا ماركيز . وكانت نجلة أوَّل قُنصل إنجليزى فى ريو هاتشا (وربما أيضًا تنتمى للعقيد ويليام فيرجسون ياور سيمون بوليفار)، وقد وُلدت فى تلك المدينة ، ثم تعلمت فى مدرسة نورمال فى سانتا مارتا. وعقب دخولها المدرسة بقليل طُلب منها الإقامة فى أراكاتاكا حيث كانت تعيش أسرتها ، وقد تلقت دروسًا على يد المعلمة الإيطالية ماريا مونتيسورى ، وفى عام ١٩٣٣ أنشأت المدرسة التى حملت اسمها. وقد بدأت روسا إيلينا فيرجسون حياتها كمعلمة فى منزل ماركيز إجوارن حيث كانت تُعلم مجموعتين ، ولكنها اضُطرت بعد شهرين إلى إغلاق المدرسة بسبب المشاكل الداخلية. وهكذا فإن جابيتو لم يبدأ سنوات الحضانة حتى السنة السادسة من عمره ، وقد اضطر لإعادتها فى العام التالى ولم يتعلم القراءة والكتابة حتى السنة الدراسية الأولى عام ١٩٣٥ ، وهو فى سن الثامنة. وحينذاك كان للمعلمة مونتيسورى مكانًا خاصًا بها بجوار المسقى بالقرب من محطة القطار. وكان المبنى على شكل ورشة نجَّار فسيحة ومتجددة الهواء فى قلب الطبيعة وسقف من القرميد ذى مستويين ، ومدخل للحديقة ، وفناء واسع لا حدود له لكى يستطيع الأطفال اللعب فى ظل أشجار المانجو وبعض الأشجار الأخرى.

لقد كانت طريقة مونتسورى فى التعليم مهذبة ولطيفة تعتمد على الخيال الخصب بدون أوامر إجبارية ، وقد توافق ذلك تمامًا مع طرق روسا إيلينا. وقد تم تعليم الطفل

أولاً النظام والتحضُر دون أن يشعر بفرض لائحة عليه. وبعد ذلك ، وقُبيل تعلمه القراءة والكتابة بدأت تعلمه التأمُل والمشاهدة والتمعُن بحرية تامة ، وهى نفس الطريقة التى كان يتبعها جابيتو تحت رعاية جده؛ وبالتالى فإن الحضور إلى المدرسة وبدء تعلُم الحروف الأولى كان لذة حقيقية لجابيتو ، فضلاً عن مجيئه لمشاهدة معلمتة التى عشقها وأحبها وأحبَّ الشعر بسببها. لقد كانت روسا إيلينا جميلة حسناء لطيفة متسامحة ، ونهراً من الإيماءات الإنسيابية الفاتنة فى حواراتها ومحادثاتها. لقد كانت ولعة بالشعر فى العصر الذهبى الذى كانت تتغنى به فى السهرات وأمام تلاميذها. وربما كان جابيتو يقصد أن الأشعار التى تنساب من فمها كانت تنبثق بصورة طبيعية من جمالها الفاتن. ومن باب العرفان بالجميل ظل الكاتب يتذكرها حتى بعد أن نال الشهرة المجيدة: إن أوَّل امرأة سحرتة هى التى علمتة ضرورة الذهاب إلى المدرسة لكى يستمتع برؤيتها " وكانت هى التى تقرأ لنا فى الفصل القصائد الأولى التى اختمرت فى ذهنى إلى الأبد"(٦١).

أمَّا روسا إيلينا فيرجسون ؛ فقد ظلت تتذكر تلميذها بعد ذلك بستين عامًا بجلاء منقطع النظير : " لقد كان جابيتو أشبه بدُمية لطفل بشعره الملون مثل ورق شجرة الحور ؛ أما بشرته فقد كانت بيضاء وردية وهو لون غريب فى أراكاتاكا ، وكان مصفف الشعر دائمًا وأنيقًا ونظيفًا ، وكان يستخدم دائمًا بنطلونات قصيرة ضيقة " وقالت إنها طلبت من والدته ألا تجعله يستخدم هذه البنطلونات الضيقة حتى لا يكتسب عادات قبيحة. كان صامتًا قليل الكلام، وكان يعيش خجولاً. كان زملاؤه يحترمونه ، وقد برز من بينهم باجتهاده وحبه للنِّظام والذكاء ، ولكنه لم يكن يهوى الرياضة. وكان يفخر دائمًا بأنه أول منْ يُلبى أمرًا". وكانت روسا إيلينا تعلم أن تلميذها بارعٌ فى الرياضيات والرسم والقراءة والكتابه؛ كما كان انضباط مواعيده من أهم صفاتة البارزة ، والقراءة والكتابة والرسم أهم هوايتين راسختين لديه. وأمَّا فيما يتعلق بحب الطفل العُذرى لها قالت: إن هذا يرجع إلى أنه رفعها إلى درجة المثالية بفضل طريقتها المهذبة الحنونة فى التعامُل معهم ، وبالأشعار التى كانت تقرؤها لهم ، وبالفعل ذات مرةً اعترفت لها لويسا ماركيز أن نجلها قال لها إنه عندما كانت تقترب منه كان يشعر بالخجل ، وبأن شيئًا ينتابُ كلَّ جسده.

وفيما يتعلق باستيبان بروست اعترف جارثيا ماركيز بأن الفاتنة النائمة هي واحدة من أهم بطلات المفضلات التي جادت بها فانتازيته. وحقيقة فإن هذا الولاء يعود إلى سنوات تعليمه الأولى للأدب مع خوانا دي فريتيس وروسا إيلينا فيرجسون. وفي نهاية السنوات الدراسية اعتاد التلاميذ على إقامة جلسات قراءة لبعض الكُتّاب الكلاسيكيين ، وكذلك القصص وحكايات بيرالت. وخلال ختام العام الدراسي الأوَّل قام جابيتو ورفاقه بتقديم مسرحية "فاتنة الغابة النَّائمة" وقد مثل جابيتو دور الأمير الذي سيوقظ الأميرة بقبلة يطبعها على جبينها. لقد كانت النهاية الحماسية للهوايات الدرامية الأولية التي ألهمه إيَّاها الساحر ريتشاردين. ولذلك فمنذ أراكاتاكا البعيدة شديدة الحرِّ ، وذات يوم في أواخر نوفمبر ١٩٣٥ كان بمثابة خيط جسر - بعد ذلك بأربعة عشر عامًا - سيعود الكاتب إلى سوفكليس أهم وأعظم معلميه وأساتذته.

ولكن جابيتو لم يدرس سوى عام واحد في الحضانة ، والعام الدراسي الأول مع روسا إيلينا فيرجسون في مدرسة مونتيسوري. وقد التحق جابيتو بالمدرسة العامة عام ١٩٣٦ حيث درس العام الثاني مع المدرس فرانثيسكو أنطونيو أرون. وقد تحوَّل جابيتو وهو في التاسعة من العمر إلى قارئ صامت وعلى وجه الخصوص عندما اكتشف قصة " ألف ليلة وليلة" ، وهو ما يعد من أهم الأحداث في حياة الحفيد الخجول للعقيد ماركيز. ذات يوم - كما فعل ذلك عدة مرَّات - ظلَّ يبحث في صناديق أجداده حتى عثر على كتاب أصفر ناقص ليس له غُلاف ، وبدأ يقرأه جزءًا جزءًا: وكانت أول حكاية عن وجه لا يمتعض أولا يتغير ، وهو الذي وصف به جدته. كانت قصة "جان شرقي فقير" الذي ظل يعيش في زجاجة منذ ستمائة عام حتى استطاع صياد أن يقدم له أكبر معروف حيث فتح له الزجاجة لكي يستعيد حياته الجسدية. ولم يعرف جابيتو أن هذا الكتاب غير المغلف كان عبارة عن مختارات من " ألف ليلة وليلة" حتى مضت بضع سنوات ، ويقول الكاتب: " لقد تشبثت به. لقد قام شخص بفتح الزجاجة وخرج منها جان من الدخان وقلت: عجبًا، إن هذا أمرٌ عجيب! لقد فتنني هذا أكثر من أي شيء آخر في حياتي أكثر من اللعب والرسم والأكل ، أكثر من كل شيء ، ومنذ تلك اللحظة لم أرفع رأسي عنة". كما أن قصص شهرزاد كانت تأكيدًا وتوسيعًا لعالم الجدة ، وبالطبع لم يكن في عالم الجدة

جان من الدُخان ولا بُسطٌ" طائرة" ، ولا مصابيح عجيبة، ولا كهوفٌ سحرية ؛ بل كانت هناك أرواحٌ وساحراتٌ تطوفُ بالمنزل اعتباراً من الساعة السادسة مساءً ، وجيران من الموتى يسعلون ، ويُصفرون فى كل لحظة ، وماركيسات عذراوات ذوات الشَّعر الطويل كُنَّ يفعلن المعجزات. وكلاهما يعنى شهرزاد وترانكلينا تسردان قصصهما وحكاياتهما دون أن يتغير وجههما ، أو بثبات منقطع النظير و " وجه صارم".

إن قراءة " ألف ليلة وليلة" لم تغير قط حياة جابيتو بل لكونها الخبرة التى استمرت معه حتى " مائة عام من العزلة" ، حيث سيقوم أوريليانو سيجوندو وأوريليانو بابيلونيا بتكرار هذة البطولة الشجاعة والمثمرة فى الغُرفة الخالدة لميليكياديس.

ومن خلال الباب الكبير الذى أوضحته له شهرزاد استمر يلتهم قصص بيرالت والشقيقين جريم دوماس وسالجارى وبيرنى فى حب مستمر حتى السنوات الأولى للثانوية فى ثيباكيرا. وكان أحد المترددين الدائمين على المنزل قد أعرب عن دهشته كيف أنه فى قرية أراكاتاكا تصل فيها درجة الحرارة أكثر من ثلاثين درجة فى الظل يوجد شخص وطفل بالتحديد يقرأ فى كل وقت وحين. " إن هذا الفتى سيكون نابغة"، وكان الجار يتعجب كلما رأى جابيتو يحمل كتاباً فى يده. وبشكلٍ ما فإن افتتان جارثيا ماركيز بالكتب الأولى تُذَكِّرنا بما حدث مع الكيشوت بالنسبة لقصص الفرسان ، مثلما حدث أيضاً مع أوريليانو بابيلونيا بالكتب التى كانت منسوخة على رقائق ولفافات جلد من مقتنيات ميليكياديس ، وهو نفس الافتتان والإعجاب الذى سيغمر جارثيا ماركيز فيما بعد تجاه أعمال فرانز كافكا وسوفكليس وخوان رولفو.

وبينما كان جابيتو يدرس فى الحضانة عاد والده من بارَّانكيا لكى يستقر فى أراكاتاكا لمدة ثلاث سنوات منذ منتصف ١٩٣١ إلى أواخر١٩٣٧ أو بدايات ١٩٣٨ . وخلال تلك العودة تعرَّف الطفل على والده الذى جاء فى اليوم الأول من ديسمبر من ذلك العام ، ولم ينس جابيتو هذا التاريخ أبداً لأنه يتذكر أن شخصًا ما قال لوالده: " أهنئك ؛ فلقد بلغت عُمر السيد المسيح" ، وإذا كان قد تعرَّف على والدته وعنده ثلاثة أعوام ونصف العام ، فإنه لم يتعرف على والده حتى السابعة وتسعة شهور من عمره ، وإذا كان بالنسبة لوالدته بدا له ذلك غريبًا أن تكون سيدة فى الخامسة والعشرين من العمر

ترتدى حلة وردية وكتافات على شكل أجراس وقبعة خضراء هى والدته ، فقد كان استغرابه أكبر عندما وجد نفسه أمام رجل نحيف أسمر حاضر النكتة ولطيف يرتدى ملابس بيضاء وقبعة. شخص كاريبى أصيل فى عقد الثلاثينيات(٦٢) ، كما ارتبطت معرفته لوالده دائمًا بوداعه النهائى للبراءة.

وقبيل أن يكمل العام الخامس من عمره كان جابيتو قد رأى امرأة تدخل عليه غرفته فى أعياد الميلاد ، وكانت ترتدى ملابس فوسفورية ، وقبل أن تغادر الحجرة اضطجعت فى فراشه. وكما ساد فى اعتقاده كانت إحدى أرواح المنزل ، وظل الطفل مرعوبًا داخل الملاءة ، ولكنه اكتشف فى اليوم التالى أن السيدة ذات الملابس الفوسفورية المضيئة كانت جدته تضع له هدايا أعياد الميلاد عند قدميه. وخلال أعياد الميلاد القادمة لسنتين متتاليتين لم يحك لأحد اكتشافه كى تستمر الهدايا فى المجئ ، ومع ذلك ففى ليلة عيد الميلاد - عندما كان فى السابعة من عمره عندما كان ينبغى على الأطفال أن يضطجعوا عقلاء لكى ينتظروا هدايا الأعياد - طلب منه والده البقاء دون سابق إيضاح. ويتذكر الكاتب أن والده اصطحبه إلى السوق لكى يساعده فى شراء هدايا الأعياد التى ستقدم لأشقائه. وفى تلك الليلة - وبأكبر خيبة أمل فى حياتى - بدأت أشعر أننى بالغ كبير رزين(٦٣). وفى الحقيقة ؛ فإن طفولة جارثيا ماركيز لم تستمر بعد السابعة من عمره.

وقد استأجرت أسرة جارثيا ماركيز منزلاً فى أراكاتاكا بالقرب من أسرة ماركيز إجواران ، حيث ولدت ليخيا فى الثامن من أغسطس ، وأسس جابرييل إيلخيو صيدلية فى أواخر ١٩٣٤ . فقد كانت اختراعاته وفعالية وصفاته وروشتاته فى الطب التجانسى مشهورة ، كما اشتهر كثيرًا من جراء ذلك ، فقد كان والد الكاتب موظفًا بالبرق (التلغراف) والآن قد عاد بخبرات طبية كبيرة فضلاً عن كونه قد أصبح طبيبًا تجريبيًا دائمًا مرموقًا وقارئًا للمجلات. وهكذا استطاع الحصول على تصريح من مجلس معادلة الشهادات الطبية سمح له بمزاولة مهنة الطب التجانسى عام ١٩٣٥ . وقد تم اختراع جهاز منظم الدورة فى تلك الحقبة والذى عرف بالاختصار GG أى جابرييل جارثيا وهو شراب يبيعه بصيدليته بعد أن أمنته القوانين الأجنبية ، وإلى جانب أدوية تنظيم الدورة الشهرية والكرات الدموية التجانسية وأدوية التيتانوس، والحمى الصفراء الغريبة

كانت الصيدلية تعينه بالكاد على عول أسرة كبيرة العدد ، فسيُولد الابن الثالث فى ٢٧ سبتمبر ١٩٣٥ ، وقد أسموه جوستابو وكان ترتيبه السادس بين أشقائه وشقيقاته. ولحُسن طالعهم كانت أسرة ماركيز إجواران تقدم لأسرة الكاتب العون دائمًا ، ولحُسن طالع جابيتو أنه ظل مزيداً من الوقت فى منزل أجداده.

وفى ديسمبر عام ١٩٣٦ قرر جابرييل إيلخيو تغيير مقر إقامته، وذهب إلى سينثى مسقط رأسه ليبحث عن مكان جديد لتجارته ، ربما لأن أراكاتاكا بدأت تتدهور إلى ما كانت عليه منذ عشر سنوات سكنًا للفقراء. ومع ذلك فإن واقع الأمر أن الصيدلية لم تلق رواجًا ، وكانت السبب المباشر فى عدم استقراره ، كما أن مهنة الطب التجانسى جعلت منه رحالة متنقلاً. كان مليكياديس مخضرمًا وحالمًا وشاعراً غنائيًا لا برء من حالتة مثل فلورينثيو أريسا نفسه.

وبغية التعرُف على جدتة لأبيه أرخيميرا جارثيا باترنينا قرر أصطحاب نجليه الكبار جابرييل خوسيه ولويس إنريكى. واعتباراً من هذه اللحظة سيعيش جابيتو أربعة أوخمسة أشهر فى أراكاتاكا ، ولم يعد يرى جده وعمته وينفريدا ماركيز . وفى سينثى واصل تعليمه الابتدائى مع لويس جابرييل ميسا ، وكان رجل دين فى الماضى يعطى دروسًا بصورة غير رسمية نظرًا لحبه لمهنته ، وبهذا الشكل فقد جابيتو كثيراً من الناحية التعليمية عام ١٩٣٧ . ولقد فقد أكثر من ذلك حيث فقد جده بعد ثلاثة أشهر.

كان العقيد ماركيز قد سقط من على السلم منذ عامين عندما كان يتأكد – كما هى عادته فى كل صباح – من مستوى المياه فى الخزانات التى كان يملؤها بواسطة مضخة تعمل بالموتور. وعندما أراد النزول أفلتت درجة من السلم الخشبى وسقط الجد على ظهره من أعلى السلم(٦٤) ، ولحُسن الحظ لم يمت الجد، ولكنه أُصيب إصابة خطيرة مما اضطره إلى السير معتمداً على عكاز . وكانت هذه اللحظة التى اكتشف فيها الحفيد إثر زيارة للطبيب إحدى الأشياء التى فتنته فى طفولته ، وهو أثر الجرح الذى أصيب به فى أعلى الفخذ بسبب رصاصة تلقَّاها فى "حرب الألف يوم" ، وبالتالى فهى أعظم أثر ظلَّ عالقًا فى ذهن جابيتو وخالداً إلى الأبد عن جده العقيد ماركيز دى إجواران.

وخلال العامين التاليين لم تتحسن صحة العقيد بل ساءت ، وخاصة بعد وفاة شقيقته وينفريدا فى الحادى والعشرين من يناير عام ١٩٢٧ ، وقد اضُطر إلى نقلها إلى سانتا مارتا حيث أجريت لها عملية استئصال ورم شحمى فى العُنُق. وقد لَقِىَ رعاية ما بعدها رعاية من نجله غير الشرعى خوان دى ديوس وزوجته ديليا كبايرو، ولكنه أصيب بالتهاب رئوى نجم عن شدة برودة الجو فى سانتا مارتا ، وخاصة فى الصباح عندما كان يستحم فى الهواء الطلق مما عجَّل بوفاته فى الرابع من مارس وهو فى الثالثة والسبعين من عمره[٦٥] ، بعد أن ظل ينتظر كل أسبوع ، وعلى مدى خمس وثلاثين سنة معاشًا لكونه محاربًا قديمًا فى "حرب الألف يوم". وفى وسط حزن أسرى غامر وبرقيات المواساة دُفِنَ العقيد نيقولاس ريكاردو ماركيز ميخيا بالمقابر المركزية بالمدينة فى نفس اليوم حيث ظلَّ رفاته هناك حتى حقبة الثمانينيات حتى فُقِدَ تمامًا وبصفة نهائية وضاع اسمه ذاته فى دروب التاريخ الوعرة لولا أنه كان جد الكاتب الكولومبى والشخصية المهمة فى حياة جارثيا ماركيز أحد أهم كتاب القصة الأسطوريين فى القرن العشرين.

ولقد تلقى جابيتو النبأ فى سينثى بسوكرى عندما سَمِعَ والده يتحدث عن ذلك مع جدته لوالده أرخيميرا، وكان جابيتو فى العاشرة من عمره ، وكان جده ذا التأثير الأكبر فى مصير الكاتب ، ولكنه قد لا يكون قد انتبه إلى ذلك ، وربما لم تكن لديه فكرة مأساوية عن الموت فى تلك الآونة ، لذا لم يبك عندما عَلِمَ بالنبأ. فكرَّ فى أنه ينبغى عليه أن يبكى ، ولكنه لم يفعل ذلك ، وكانت فكرته عن الموت تنحصر فى الخوف والفضول كما علمته جدته بحكاياتها وأرواح المنزل " لقد كان قلقى من نوع آخر تمامًا" يتذكر جارثيا ماركيز " أتذكر أنه خلال تلك الفترة كان القمل يهاجمنى فى مدرسة سينثى ، وقد سبب لى ذلك حرجًا بالغًا. كانوا يقولون أنه عندما يموت الشَّخص ينتشر القمل فى جسده ، وأتذكر أن الغمَّ استحوذ علىَّ تمامًا ، وقلت : عجبًا إذا متُّ الآن سيدركون أننى مُقمَّلٌ " ! " حينئذٍ وفى تلك الظروف لم يؤثر فىَّ موت جدى. وكان كل همى القمْل. وفى الواقع أننى بدأت أشعر بفقدان الجدَّ عندما كبرت ولم أجد منْ يحل محله ولم يكن والدى بديلاً له على الإطلاق ، لأن والدى كان مختلفًا تمامًا عن جدِّى.

واعتباراً من تلك اللحظة سيصاحبهُ الإحباط الذى توَلّد لديه ، لأن الحياة لم تسمح له أن يذكر للجد حُسن صحبتة له خلال طفولتة ، وكيف أنهما سوياً كانا على علاقة جيدة ، ولم يستطع أن يُقدم له الشكر على صداقته ، وأنه كان يُمسك بيده حتى سن العاشرة من عمره. وأكثر من ذلك أنه قال خلال محادثاته مع رفيق مغامراته الصحفية بيلنيو أبوليو ميندوثا: عندما يحدث لى شيء ، وخاصة عندما يحدث لى شيء جيدٌ أشعر دائماً بأن ما أفتقرُ إليه لكى تكتمل سعادتى هو أن يعلم جدى بذلك ، ولذلك فإن جميع سعادتى وأنا كبير كانت وستظل للأبد تُعكر صفوها جرثومة الإحباط(٦٦) .

وبعد وفاة العقيد بشهرين أو بثلاثة أشهر ذهبت ترانكلينا ، ولويسا ، وألبيرا ، وفرانثيسكا إلى سينتى مع بقية الأسرة ، ولم يبق بالمنزل سوى سارة ماركيز التى تزوجت حديثاً. وعلى الرغم من أنه لا نبى فى قومه فإن جابرييل إيليخيو ظلّ متمسكاً بالقرية التى وُلِدَ فيها عسى أن يجد عائداً اقتصادياً مجزياً من مهنتة، ولكن كما هو الحال دائماً لم تثمر تجارة الطبيب التجانسى ، ولكى يزداد الطين بلة مرضت العمة فرانثيسكا بالكُلى مرضاً خطيراً وهى العمة الأم ، ولذلك اضطر الجميع للانتقال إلى أراكاتاكا فى سبتمبر من العام ذاته.

وعلى الرغم من أن منزل الأجداد كان تحت تصرفهم ، وكانوا يتمتعون بشهرة عظيمة ، فضلاً عن التقدير فى القرية ، فإن أسرة جارثيا ماركيز قررت العودة إلى بارَّأنكيا فى أواخر عام ١٩٣٧ وبداية ١٩٣٨ ومعها جابيتو. لقد كان الوداع النهائى لأراكاتاكا لأفراد أسرة جارثيا ماركيز ولم يكن الأمر كذلك لجابرييل خوسيه " جابيتو" لأنه اعتباراً من تلك اللحظة وهو يعى أنَّـه قصاص المستقبل ، وسيقطنها بمزيد من القوة لأنه غادرها وهو مُفعَمٌ بكل أشباحها.

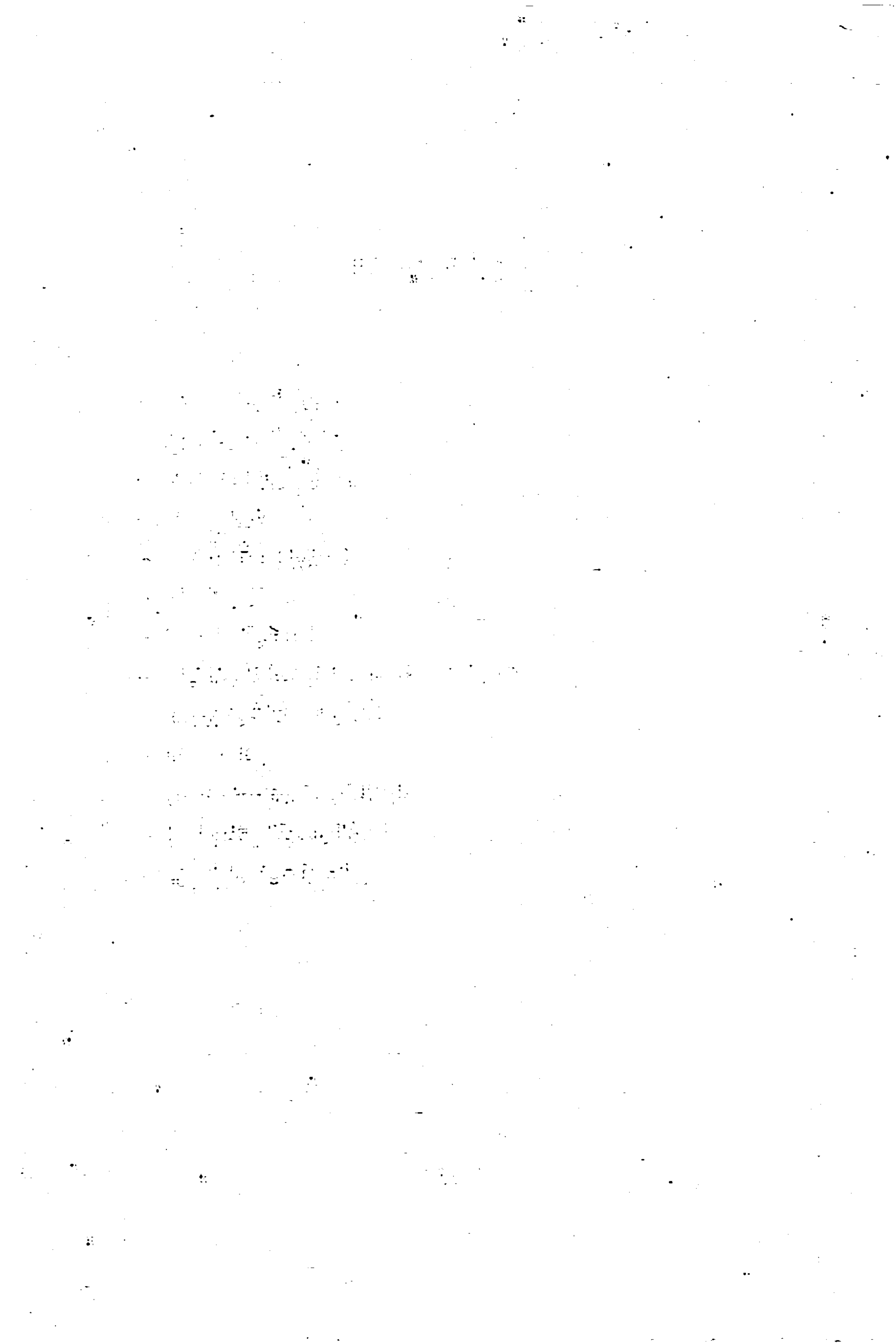
فالأرواح المستوطنة فى المنزل والقصص الفانتزية للجدة ، والحكايات الواقعية للجد ، والنزهات، والأسفار التى قام بها مع جده والشخصيات الغريبة وأرواح " ألف ليلة وليلة " ، فالأشعار وهالة معلمته الأولى روسا إيلينا ، وسحر السيرك المتجسد فى ريتشاردين ، والدكتور أنطونيو باربوسا ، والبلجيكى السيد إيميليو وخوانا فريتيس ... كانت كل هذه الأمور بمثابة استكمال لا ينتهى لقصص وحكايات ونوادر أراكاتاكا الوهمية والتى بعد أن انتهى ازدهار الموز بها بدأت تتحول إلى إعصار من الحنين والأساطير.

لقد استنزفت القرية ، وأصبحت الأن بحقٍ مسكنًا للفقراء ؛ " فالورقة الساقطة" محاها الزمن كما أنَّ كُرات البلياردو نَدُرت في محلات البلياردو ، كما أنَّ الديكة لم تعد تتعارك وتتصارع فيما بينها في ميادين مصارعة الديكة، كما أنَّ رقصة الكومبيا لم تعد تُمارس على رائحة العُملات الورقية المشتعلة، كما أنَّ أجهزة البيانولا كانت تُردِّد أغانيها المستهلكة ، وأصبح الفقراء أكثر فقرًا ، كما أنَّ نظرات الباقين في أراكاتاكا كانت نظرات تشرد مفقودة ضالة في أفق غير موجود ، أو لا وجود له. لقد جاء عصر الأساطير والخرافات للظلال التي بدأت تكسو الشوارع بالأتربة ، وأصاب الغمُّ أشجار اللوز بسبب وحدتها حتى أن الغمُّ والحزن بدءا يغزوان المنازل المسقوفة بالزنك. ولم يعد بيت الأجداد وحده المسكون بالأشباح ؛ بل أراكاتاكا بأسرها.

وعلى الجانب الآخر؛ نجد جابرييل خوسيه جارثيا ماركيز طفلاً خجولاً وفتىً يافعًا على وشك بلوغ الحادية عشرة من عمره بدأ يشق مشوار مصيره اعتباطًا ، وعلى غير هدىً ، ولكنه مدفوعٌ بحماس جماعي من القصص والنوادر والأسماء والوجوه والأصوات والألوان والنكهات والأنغام: كل عالم الآباء والأجداد أصبح بمرور الزمن عالمه وعالم قرائه بفضل الخيال والشعر.

الفصل الرابع

- أوَّل راتب كبير لجابيتو.
- انتهاء المرحلة الابتدائية
- من بارَّانكيا إلى سوكرى
- اللقاء مع الوالد
- بيد سيدة تُدعى إيرنديرا
- نهاية الطفولة
- أوَّلُ عودة لأراكاتاكا
- بداية المرحلة الثانوية فى مدرسة سان خوسيه
- العجوز ذو الثلاثة عشر عامًا
- القسم الثانى
- ريبستا خوبينتود " مجلة الشباب"
- التعليقات والأشعار الأولى
- مازحٌ خطيرٌ ذو شأنٍ عظيم



إنَّ الإقامة الثانية لجارثيا ماركيز فى باراًنكيا كانت أقصر من الأولى ، منذ أواخر عام ١٩٣٧ أو أوائل ١٩٣٨ إلى نوفمبر من العام التالى (يعنى ١٩٣٩). فعلى الرغم من التحمس الأكيد من جانب جابرييل إيلخيو جارثيا ، فإنَّ الحقيقة تكمن فى أنه من الصعب الجمع بين مهنتى الطب التجانسى والصيدلة اللتين يكتسب بهما قوت أسرته ، بالإضافة إلى رومانسيته المزمنة التى جعلته غير مستقر على الإطلاق ، وكان بصفة دائمة فى تغريب دائم أو ترحال مستمر فهو يُعَزِّل من هنا لكى يعيش هناك مما جعل من المستحيل على الأسرة أن تغرس جذورها فى أى مكانٍ. ومع ذلك ؛ فقد كانت معرفته بالطب الطبيعى هائلة ، وفى مايو ١٩٣٨ استطاع أن يحصل من وزارة التعليم على منحة التصريح بمزاولة الطب التجانسى على الصعيد الوطنى ، الذى حصل عليه منذ بضع سنوات فى نفس المدينة. وقد نصَّ قرار الوزارة على تحذيره من القيام "بإجراء أية عمليات جراحية ، كما لم يُسمح له بممارسة علاج الدَّاء بضده"[1].

ولم يُطع جابرييل إيلخيو الأمر بالطبع ، بل إنَّ شهرته كطبيب تجانسى جعلته يزدرى الطب الرسمى أو الحكومى.

ومع ذلك فقد كان هذان العامان فى باراًنكيا سيئين للغاية ؛ فقد اقتصر على كسب القوت الضَّرورى للبقاء ببساطة على قيد الحياة مما اضطر جابرييل خوسيه إلى العمل وهو فى الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره للإسهام فى الاقتصاد المنزلى. وبفضل خطه المتميز الذى علمته إيَّاه روسا إيلينا فيرجسون فى مدرسة أراكاتاكا ؛ بدأ يكتب لافتات لصاحب محل طوكيو الكائن على الناصية ، وكان يكتب بالكربون ويرسم على الكرتون الأبيض ، وبالنسبة للعملاء المماطلين فى الدفع للسيد كاستيانوس كتب له لافتات مثل " اليوم لا أثق ، ولكن سأثق غداً " ، " منْ يثق يدفع الثمن" " واسأل عما لا تراه"[2] ، حتى اليوم الذى حصل فيه على أوَّل راتب كبيرٍ فى حياته خمسة وعشرين بيزو مقابل كتابة ورسم لافتة بالمنزل للأوتوبيس الذى كان يقطع الطريق إلى باريو أباخو ، وهو الحى الذى كان يعيش فيه مع أسرته. وفى فترة كان الطعام ينبغى اختراعه يومياً

أمّا فى ذلك اليوم ؛ فقد كَثُرَ الطعام بفضل مرتب جابيتو. كان هناك غذاءٌ كثيرٌ فى منزل أسرة جارثيا ماركيز ، وبعض المشتريات لتجديد الأثاث المتواضع للمنزل الكائن فى شارع سانتانا حيث وُلِدَ فى العاشر من يوليو عام ١٩٣٨ النجل السابع للأسرة: ريتا ديل الكارمن.

وواصل جابيتو - فى هذه الأثناء - دراسته الابتدائية التى كانت قد توقفت بسبب سفره إلى سينثى وعودته اللاحقة إلى أراكاتاكا خلال العام الماضى. وفى مدرسة كارتخينا دى إندياس درس الفصلين الثالث والرابع مع المدرس خوان بينتو را كسالينس ما بين عامى ١٩٣٨ ، ١٩٣٩ (وكانت المرحلة الابتدائية فى كولومبيا تتكون من أربع سنوات فقط). وعلى الرغم من تعدد اهتمامات جابيتو؛ فقد كان تحصيله العلمى ممتازًا ، وقد حصل على أعلى التقديرات والأوسمة. ومع ذلك لم يشعر بالسعادة ، وتقول شقيقتاه عايدة ، ومارجوت: " فى اليوم الذى أنهى فيه دراسته الابتدائية وصل إلى المنزل وسترته مليئة بالميداليات ، وبعد ذلك ترك هذه الميداليات كزينات لا قيمة لها". وحقيقة الأمر أنَّ الدراسات الأكاديمية على الرغم من براعته فيها فإنها بدأت تعوقه لأنَّ هوايته الأولى كانت الرسم وولعه الأكبر القراءة. كان جابيتو فى ذلك الوقت رسامًا عبقريًا وقارئًا متحمسًا للشعراء الكولومبيين وكلاسيكيى العصر الذهبى الأسبانى ، فى الوقت الذى كان يقرأ فيه قصصًا للآخرين مثل جريم وخوليو فيرنى وسالجارى ودوما.

وفى نوفمبر عام ١٩٣٩ قامت الأسرة بحزم حقائبها ، وتعبئة أمتعتها بحثًا عن قرية أخرى ومنزلٍ آخر لتجربة حظها من جديد. وفى تلك المرَّة نزلت الأسرة فى قرية سوكرى بالدائرة التى تحمل الاسم نفسه ، حيث تجرى أحداث معظم كُتب جابرييل جارثيا ماركيز. وهو لا يزال فى الثانية عشرة من عمره ، وبفضل الروح العملية التى ورثها عن جده ؛ كان جابرييل المنسق والمنظم بل والمشرف على كل إجراءات الانتقال بينما كان والده ، دائمًا ، يتعلل بالإعداد للوصول فكان يذهب أولاً إلى مكان الانتقال. اشترى جابرييل تذاكر السفر وتعاقد مع سيارات النقل ، وأشرف على تغليف الأمتعة ، وأصدر الأمر بالرحيل ، وقدم النصائح. ومن الناحية العملية كان جابيتو يتصرف كأنه شخصٌ كبيرٌ.

وقد عاشت أسرة جارثيا ماركيز فى سوكرى اثنى عشر عاماً ، حيث استمتعت بأوّل فترة فى حياتها من الأمان والسعادة النسبية بفضل تمكن جابرييل إيلخيو من ممارسة مهنته كصيدلانى وكطبيب تجانسى ، ولكن أيضًا بفضل مميزات القرية وطبيعة أهلها فى حبهم للأمن وللتضامن. ودون استثناء يتذكر جميع أفراد أسرة جارثيا ماركيز الفترة التى قضوها فى سوكرى حيث خيمت فيها السعادة عليهم ، وهى الفترة الوحيدة التى جمعت شملهم جميعًا باستثناء جابرييل الذى اضطر للعودة إلى بارَّانكيا لكى يبدأ دراسته الثانوية فى مدرسة سان خوسيه اليسوعية.

وإذا استثنيت الأشهر الثمانية التى عاشها فى سوكرى خلال عام ١٩٤١ عندما اضطر لقطع دراسته فى الصف الثانى الثانوى لأسباب صحية ، فقد كان يذهب لقضاء فترات قصيرة مع أسرته بحدٍ أقصى ثلاثة أشهر. وخلال تلك الفترة كان يُستَقبلُ فى المنزل كالنجل أو الأخ الذى كان يحضر إلى المنزل كل فترة معينة. فالفتى نحيفٌ وخجولٌ ومنعزلٌ يتحدث قليلاً ، وكان دائمًا يقرأ الكتب الغريبة . وهذا الاغتراب الدائم جعل من الصعب عليه تكوين علاقة انسيابية فيَّاضة مع والده. فبينما كانت علاقته مع والدته قد تعدت علاقة الأمومة - والبنوة لتصل إلى الودية والجدية فى المزاح ، فإنَّ علاقته مع والده كان يعوقها البعد ، وافتقارهما إلى أن يتعرف كل منهما على الآخر. ولكن السبب الجوهرى هو أنَّ شخصية الجد لجابرييل كانت غير قابلة للاستبدال. ومن ناحية أخرى يجب أن نأخذ فى الحُسبان أن جابرييل لم يتعرف على والده إلا عندما بلغ السابعة من عمره ، وعلى وجه التحديد عندما أتمَّ جابرييل إيلخيو الثالثة والثلاثين من العمر. وفى هذه الظروف كان من المنطقى استحالة مضاهاة شخصية والده التى لم تكن مختلفة فقط ؛ بل على طرف نقيض تماماً من شخصية جده. وعندما كان جابرييل غلامًا منعزلاً لأنه لم يجد مفاتيح الدخول إلى قلب جابرييل إيلخيو : الذى كان والداً دقيقًا معتنيًا بنفسه ، ومع ذلك كان يتصف بالقسوة التى لا هوادة فيها فى عدم الفهم أو الإدراك ، وكان يعتبر أن نجله الأكبر هو الحفيد المدلل لدى جده العقيد ، بل كان أيضًا يعتبر الفتى كذَّابًا ، لأنَّ كل ما يسمعه أو يشاهده فى القرية كان يحكيه بطريقة أخرى مغيرًا إيَّاه باختراعاته الخيالية. وفى الواقع؛ فإنَّ جابرييل إيلخيو الذى كان يزهو دائمًا بأنه

قارئ جيدٌ ورجل خيال ، وقد كلفه ذلك الكثير ليفهم ابنه ، وربما لم يفهم نجله تماماً لأنّ طبيعة نجله فى الكذب كانت تنمّ عن أسمى صفاته ومميزاته.

وبعد ذلك بمسافة قريبة أو بعيدة بقليل ، أو بكثير من الانسيابية سيكون جارثيا ماركيز مثل قصيدة الإحساس الطيب لثيسار باييخو نواة لإبراز رجولته أمام والده أكثر من إبراز البنوة أمامه.

ومع ذلك ؛ فإن خيال جابرييل إيلخيو وأشعاره التى كتبها فى شبابه ، وشغفه بالقراءة ، وعزفه على الكمان كما يبدو ذلك منصوصاً عليه فى " الحب فى زمن الغضب" شكَّلَ بعض العناصر التى كانت – بلا شك – وراء الموهبة الأدبية لنجله.

وخلال إحدى عشرة سنة كان طالب الثانوية والطالب الجامعى والصحفى المبتدئ يقضى أجازته فى سوكرى. وكانت هذه هى أهدأ لحظات شبابه. وكانت خبراته ومعايشاته ، مثل تلك التى عاشها فى أراكاتاكا ، التى عاشها وسمعها فى تلك القرية التى لم يدخلها القطار حتى ذلك الوقت هى التى غذّت جانباً من حكاياته خلال السنوات القادمة. وكانت إحداها البداية الجنسية الغريبة وهو فى الثانية عشرة من عمره. والحكاية ستتضمنها قصة الغراميات العاصفة لفرمينا داثا فلورينتينو أريثا ، التى حدثت بشكل طبيعى ، وفى غير أوانها بينما كان جابرييل يقوم بمأمورية لوالده فى بيت العاهرات بالقرية. وبكل براءة السنوات الاثنتى عشر للصبى وصل جابرييل وطرق الباب وسأل عن الشخص المطلوب. وعندما فتحت له الفتاة الباب حاصرته بنظراتها ، وقالت له بلا مبالغة: " آه، نعم، تعال هنا" وأخذته من يده إلى أحدى الغُرف ، وفى الظلام جردته من ملابسه وانتهكت عرضه. ويتذكر جارثيا ماركيز تلك الواقعة على أنها الشىء المُرعب الذى حدث له ، لأنه لم يعلم شيئاً عما يحدث هناك ، ولقد كان متأكداً من أنه سيموت"[٣]. وهذا هو نفس الشعور الذى ستحس بعض شخصياته من الرجال فى بدايتهم الجنسية ، مثل العقيد أوريليانو بوينديا مع تلك المجهولة الساذجة حينذاك إيريندرا ، أو الرومانسى أريثا مع روسالبا فى القارب النهرى.

وعقب موت الجد والخروج من أراكاتاكا ولقائه من جديد مع والده ؛ كانت هذه البداية الجنسية غير المتوقعة فى الثانية عشرة من عمره: كانت الطفولة فى أراكاتاكا

مرحلة قصيرة ، ولكنها كانت مكثفة ومليئة بالأحداث ، لقد تجاوزت الطفولة مرحلة المراهقة وسلمته إلى مرحلة الشباب دون إجراءات روتينية كبيرة ، لأنَّ شهادات أقاربه وأصدقائه كانت تسمح بالاعتقاد - أنَّه فى تلك السن المبكرة - كان جابرييل مع ذلك فتى ناضجًا نفسيًا وفكريًا إلى حدٍ كبير لكى يتم اعتباره بالغًا رشيدًا. كان فى الواقع كما ينم عن ذلك سلوكه وتصرفاته ، ربما لأنه كما قال مارسيل بروست واعترف به جارثيا ماركيز فى وقت لاحق: لقد عاش عندما أتمَّ التاسعة من عمره التجارب الأساسية التى غذَّت قصصه ورواياته.

هكذا كان ، وإن كان لا يزال لم يُدرك. ففى تلك اللحظة التى بدأ فيها دراسته الثانوية وهو فى الثالثة عشرة من عمره كانت حياته متوجة بالبحث اللاشعورى والمفارقات: النمو صوب الجذور ، النضج فى اتجاه الطفولة ، الوطن الحقيقى الذى حدثنا عنه بودلير وسانت - ألسبورى ، وعن تلك الرحلة البطيئة الحافلة بالأحداث إلى الجذور ؛ بدأت تظهر رواياته وقصائده الأولى وحكاياته وقصصه الرائعة.

وعلى الرغم من أنَّ جابرييل لم يكتب قصائده الأولى وقصته الأولى ذات الاهتمام الأدبى حتى بلغ السابعة عشرة أو العشرين من عمره ، فمن المحتمل أن يكون قد تعرَّض لواقعة أو لحادثة من بداية رحلته إلى أصوله وأول عودة له إلى أراكاتاكا : فى عام ١٩٤٠ وهو يدرس فى السنة الأولى الثانوية لمرافقة جدته التى أجريت لها عملية لإزالة المياه الزرقاء من عينيها. وبعد موت العقيد بثلاث سنوات كانت ترانكلينا على حافة جنون الشيخوخة ؛ كانت منحنية القامة ضئيلة الجسم ، وفى عينيها قليلة الإبصار مازال الأموات يتزاحمون كما هى العادة دائمًا. لقد حملها أفراد أسرة جارثيا ماركيز إلى بارَّانكيا أملاً فى أنَّ الجراحة ستنقذها من فُقدان بصرها ، ولكن ذلك لم يحدث ، ويتذكر الكاتب أنهم عندما عادوا من أراكاتاكا فإنَّ العملية تركتها كما كانت تسبح فى ليل دامس دون حدود كاورسولا إجواران فى شيخوختها وكانت تلك المرة هى الأخيرة التى يجتمع فيها أفراد الأسرة من جديد فى أراكاتاكا.

ولم تكن العودة الأولى لاستئصال الجذور والقلق مثل تلك التى ستتم بعد اثنتى عشرة سنة مع والدته: ولكن على - أية حال - لقد أثر على الكاتب كثيرًا التأكد من أنَّ

الجدة توفيت فى وحدتها وظلامها الدامس ، وكذلك لأنَّ الأرواح استحوذت على المنزل الذى شهد ولادته أرواح وأشباح الزَّمن. لقد ذبُلت أشجار اللوز عند مدخل المنزل ، وكذلك زهور البيجونيا الكائنة بالممر ، والحديقة الغنَّاء متعددة الألوان فى فناء المنزل والخضرة الدائمة التى كانت خراف أعياد الميلاد ترعى فيها. وقد رأى أنَّ باقى أراكاتاكا لم يكن استثناءً من هذه القاعدة العامة: فالأرواح والأشباح أشعلوا الجو حرارةً ، وحلَّت الوحدة فى جميع الأرجاء ، وقد حَلَّ الصدأ بالأسقف الزنكية وهُجِرت معظم منازل البلدة.

كما أنَّ منزله لن يتأخر سوى ثلاث سنوات ليُهدم. فبعد وفاة التى لم تكل ولم تمل : فرانثيسكا ثيمودوسيا ميخيا ؛ العمة الأم فى ٥ فبراير١٩٤٣ انتقلت ترانكلينا وألبيراكاريو إلى سوكرى حيث تُوفيت فى ١٥ ابريل ١٩٤٧ بعد أن فقدت بصرها وعقلها تمامًا بعد خلطها لأسماء موتاها الأعزاء مع أشعار متناثرة لسبيرو كتالينا وكانديلاريو أوبيسو . ومن العجيب أنَّ حفيدها فى ذلك الوقت وعمره عشرون عامًا كان مولعًا بالشعر ، وظلَّ يحفظ أشعارًا لبيترارك ودانتى وجارثيلاسو وكيبيدو وروبين داريو ونيرودا ؛ بينما كان يتظاهر بأنَّه يدرس الحقوق فى جامعة بوجوتا الوطنية.

وقد بدأ جابرييل دراسته الثانوية فى فبراير١٩٤٠ فى مدرسة سان خوسيه(٤) ؛ التى كانت عبارة عن مخزن كبير مربع الشكل يتكون من ثلاثة طوابق ، مجاورة لكنيسة مما أضفى عليه المظهر المغلق لأحد الأديرة حيث كان يدرس فيه ستمائة طالب ومعظمهم من الطبقات المتوسطة والدنيا. ومع ذلك كانت حينذاك إحدى أحسن المدارس بالمدينة ؛ فالإدارة ، والانضباط الذى يتميز به اليسيوعيون حافظ على مرتبة هذه المدرسة ، وهذا هو السبب ؛ فضلاً عن شهرية قيمتها ثلاثة بيزو ، ولهذا فإن أسرة جارثيا ماركيز سجلت نجلها فى مدرسة سان خوسيه. فالانضباط الذى ساد منزل الأجداد سيجد فى المدرسة اليسوعية استمراريته بالنسبة للفتى البالغ من العمر ثلاثة عشر عامًا ، وقد بدأ يظهر عليه جوانب ملفتة للنظر ، نظرًا لشغفه بالقراءة والرسم ، والسهولة والخط الجيد الذى تميزت به كتابته.

وهناك تعرَّف على العديد من الفتيان الذين سيكون بعضهم رفاقًا له فى المغامرات الصحفية ، والبعض الآخر تولى مناصب سياسية واقتصادية فى الدولة.

ويتذكر الصحفي والوزير السابق خوان ب. فرنانديث وينويتسكي أنَّ جابرييل كان فتى نحيلاً نحيفًا يكره ممارسة الرياضة ، وكان يرتدي بنطلونات خضراء وسترة فاضحة[٥] ، مما كان يتناقض تمامًا مع شخصيته الخجولة والمنطوية على نفسها ، وكان من برج الحوت، وهوايته الاستثنائية كانت القراءة والرسم. وفي وقت الفسحة كان رفاقه يرونه منعزلاً في أحد أركان الحديقة تحت شجرة حيث كان يلتهم كتبًا لخوليو فيرني، وإيميليو سالجاري. وبهذا الشكل كان فتى أراكاتاكا يحصل على خمس درجات لحُسن سلوكه ، وكان خجله يجعله يبدو فظًا ، أما تسريحته الغريبة ، والفرق على الجانب الأيسر من رأسه فكان يبدو لهم كأنه غريبُ ومن عُمرٍ آخر غير عمرهم، وكانوا يلقبونه " بالعجوز". لم يكن هذا بُعدًا وخجلاً فقط ، ولكنها كانت ملامح الشباب المبكرة ، لأنَّ جابرييل مثل فلورينتينو أريثا كان حظه غريبًا لأنه كان يبدو عجوزًا منذ طفولته "

بتلك الألفاظ سيتذكر بعد ثلاثة وخمسين عامًا الأب إجناثيو ثالديبار مدرس الأدب في السنة الأولى بالمرحلة الثانوية: أنه لم يمارس رياضة قط، كان منطويًا على نفسه مفكرًا ، وكانت نظراته تنُمُّ عن كونه شخصًا رشيدًا يعرف تفاصيل كثيرة ، وليست لديه القدرة على القيام بفعل ذميم ، ولكنه مع ذلك كان له سحرُ خاص وروح فكاهية كبيرة. وكان في وقت الفسحة قد اعتاد البحث عن أساتذته ومدرسيه للحديث عن كتب أو عن أشياء من الحياة ، وكان دائمًا له آراء مثل شخص كبير. وعلى طرف نقيض من رفاقه السابقين يضيف الأب ثالديبار :" لا أحد شك في أنَّ جابيتو سيصل إلى ما وصل إليه ؛ لقد كان فتى ضمن باقي الأطفال كان يحب العُزلة ، وكان شغوفًا بالقراءة. كان أنيقًا في ملبسه ومظهره. وكان هذا هو كل شيء .

وسُرعان ما تغيرت شخصية فتى أراكاتاكا ، أو بمعنى أصح حيث أطلق العنان لإبراز مزاجه الحقيقي: الفكاهي أو المازح[٦]. إنَّ الساحليين بصفة عامة أناس يحبون الفكاهة والمزاح ، ولذلك فإن الدعابة والفكاهة بالنسبة لهم هي أهم شيء جادٍ في العالم وأحد العناصر الجديرة بالتصديق في العلاقات الشخصية. وهكذا فإن جابرييل الذي نشأ على الانضباط والكرامة بشكلٍ صارمٍ على أيدي أجداده وعماته الذين ينحدرون من أصول إسبانية بدأ يضع في حيز التنفيذ العملي ما كان يعرفه دون أدنى شك : لكي تستطيع العيش بين مصارعي الديكة في بارَّانكيا ؛ من الأفضل أن يكون

الفرد واحداً منهم. ويتذكر جارثيا ماركيز نفسه أنه فى مدرسة سان خوسيه أذهل الجميع وأصابهم بالجنون من حُسن حديثه ، وعظِم أسلوبه الذى يخطه قلمه. وخير دليل على ذلك التعليقات الإخبارية والأشعار التى كان يكتبها لريبيستا خوبينتود " مجلة الشباب" الخاصة بالمدرسة: كانت باكورة إنتاج حياته.

ولكى يستطيع اليسوعيون فرض الانضباط والنظام على التلاميذ بصورة أفضل قاموا بتقسيم وتصنيف الطلاب إلى أقسام تتكون من طلاب من مختلف السنوات يتم تجميعهم وتصنيفهم وفقًا لسنهم ولقامتهم ، وقد أطلقوا على الأقسام أو المجموعات القسم الأول والثانى والثالث ، وكان يشرف على كل قسم مدرس ، هو الذى كان يجمع الطلاب ويتحدث إليهم فوق منصةٍ عن موضوع يتعلق بالنظام والانضباط أو عن موضوع رياضى أو أكاديمى قبل أن يتوجه التلاميذ إلى فصولهم. وكان طلاب الفرقة الأولى والثانية والثالثة الثانوية يُشكلون المجموعة الأولى وقد انتمى إليها جابرييل على مدى عامين طويلين فى مدرسة سان خوسيه (فى عام ١٩٤١ رسب فى الصف الثانى بسبب مشاكل صحية واضطر لإعادته فى العام التالى) ، وداخل كل مجموعة أو قسم تم تشكيل مجموعات فرعية وفقًا لأهواء وميول الطلاب. وقد تزعم جابرييل مجموعة الأدباء وأساتذة الإنسانيات. وعندما لاحظوا عليه نهمه الشديد للقراءة وجَّهُه اليسوعيون صوب الآداب ، وقدموا له كتاب الأدب الذى كان بمثابة مذكرات أو مفكرات أُعدَّت له خصيصًا ليتلاءم مع المجموعة حيث تبارى فيها الكتاب الكلاسيكيون والقوميون والإقليميون. وقد قرأ جابرييل الكتاب من أوله لآخره بنفس الولع والشغف الذى كان قد قرأ به الجزء غير المغلّف من كتاب" ألف ليلة وليلة" فى منزل الأجداد وهو فى التاسعة من العمر. أمَّا تحمسه الثانى (أو الأوَّل) فقد كان الشعر ، وقد حفظ قصائد كاملة طويلة مثل "El VÉRTIGO" الدوَّار ؛ لكاتب ما بعد الرومانتكية الأسبانى جاسبار نونيث دى أرثى.

وفى دفء هذه القراءات ، والأمور اليومية للمجموعة الثانية ، أو القسم الثانى كتب جابرييل أوَّل أشعاره وتعليقاته الصحفية(٧) التى نشرها فى(مجلة الشباب) بالمدرسة : " أخبار القسم الثانى"، و" تلقائيات القسم الثانى" ، و"من أحد أركان القسم الثانى" و " سفاهاتى" ، وأخبار القسم الثانى (بالشعر) وقد وقعها بأسماء الكابتن أرانيا وجابيتو وجابرييل جارثيا(٨).

كانت (مجلة الشباب) متواضعة للغاية ، ولكن إعدادها وتأثيرها كانا مقبولين ، وقد أسسها اليسوعيون فى العام الذى بدأ فيه جابرييل المرحلة الثانوية بغية تشجيع وتحفيز الإبداع والعمل الإنسانى لتلاميذهم. ومن المرجح أن يكون أحد العوامل الحاسمة لبدء نشر المجلة هو الحمى الأدبية التى جاء بها إلى المدرسة فتى أراكاتاكا . وفى جزء من الصفحة الافتتاحية كتب مدير المجلة فى عددها الأوَّل الأب ترينو ميجيل سيرّانو: ستكون هذه المجلة البداية لكثير من طلابنا الأعزَّاء لكى يبدأوا مسيرتهم ككُتاب وأدباء وجدليين وعلماء اجتماع وعلماء... وفيما بعد سيتذكر هؤلاء بحبٍ طفولى المجلة التى نشرت لهم مقالاتهم الأولى فى مجال الأدب(٩) .

وكانت المجلة مفتوحة للمدرسين وأرباب الأسر ، وبها أبواب مخصصةٌ للمدرسة والمدينة والدولة والشخصيات الفنية والتاريخية والعلمية. ولم يكن جابرييل أحد المتعاونين الأدبيين البارزين ؛ بل كان كاتب كافة النقوش للأعداد الستة الأولى. ويلاحظ فيها الرسام الخيالى الذى كان عمره يتراوح ما بين ثلاثة عشر وخمسة عشر عاماً. إنَّ ولع جابرييل بالرسم ، والفكاهة التى وُلِدت فيه فى الرابعة من عمره فى ظل جده قد بلغ ذروته إلى حدٍ كبير مع " مجلة الشباب" لكى تكتمل فى ثيباكيرا أثناء المرحلة الثانوية لتفسح المجال بعد ذلك لولعه الاستثنائى بالشعر والرواية.

وكانت أسباب تعليقاته الصحفية الأولى وسفاهاته تدور حول الأحداث اليومية فى المدرسة: بداية العام الدراسى والرحلات والمقابلات الرياضية وتغيير المدير وافتتاح المكتبة الجديدة، وكذلك أسماء الزملاء وألقابهم وعاداتهم وسلوكياتهم ، وكانت تبريرات جيدة لكى يكتب عنها الشاعر المبتدئ أو ليُعدِّ تعليقًا. ولم يُلحَظ فى هذه المؤلفات الأولى حماس الأهمية أو الخلط أو الغموض الفكرى. وكل ما كان يبحث عنه المؤلف هو التسلية والمزاح مع أصدقائه ، إلى جانب الإعراب عن اعتراضه على القواعد المتشددِة فى المدرسة اليسوعية. كان يفخر بأمرين لا ينفصمان : الفكاهة والسُخرية لمناهضة كل ما هو جادٍ وصارمٍ من طبيعته المناهضة للفكرية من بعض الوقاحات ، والتمرد ، والعصيان ، التى ستصبح بعض السمات البارزة فى أعماله الأدبية. ولكن هذا لا يشير إلى أنَّ السفاهات والتعليقات الصحفية التى كتبها فى دفء القسم الثانى كانت البدايات الأدبية لجابرييل جارثيا ماركيز ؛ بل على العكس من ذلك ؛ فعلى الرغم من

قافيته وعبقريته الهائلتين بالنسبة لفتى يبلغ من العمر ثلاثة عشر أو خمسة عشر عامًا فقد كانت تُعاكس أو تتناقض تمامًا مع القصائد والحكايات التى كتبها فيما بعد فى ثيباكيرا ويوجوتا. وقد اعترف – نفسه – بذلك ويذكر: إنَّه فى تلك الفترة كان يلعب بالأبيات الشعرية ، ولم يكن قد دخل بعد حيز الأدب ، ولم يكن لذلك أىُّ بعد إبداعى، ولم يكن قد استيقظ للأدب حتى ذلك الحين: لقد كنت فى البداية" وهذا ما حدث ، وعلى عكس ما كان يحدث عادةً للكتاب المبتدئين ، فإنَّ جابرييل لم يصدق سفاهاته الأولى ؛ بل أبرز سماتها: منْ يُريد معرفة منْ كتب هذه التفاهات فليتوجه برسالة لجابيتو. كان يخطُّ هذه العبارة دائمًا فى نهايات " سفاهاتى"(١٠). ولم تكن سفاهات فكانت عبارة عن أشعار اعدَّها جيدًا بمهارة فائقة كما يتذكرها دائمًا بعض زملائه: خوسيه كونسويجرا الذى أصبح لقبه مزاحًا مستمرًا: إنَّ صديقى خوسيه كونسويجرا لا يشتكى من لقبه لأنه يقول إنَّ الحماة قد أجهزت عليه. أما سانتو لوماثا ، الذى كانت خلقته الصغيرة والشجاعة سببًا لنكتة: سانتولوماثا يُلاكم / ويكسب أية مباراة / ولكن إذا كانت المباراة جادة / يختبئ كالفأرة. أو تشونا إيميرو الذى صوَّره هكذا بشقاواته: تشونا إيميرو فاتنٌ أخاذ / ليس لديه وقت يُضيعه / إنَّ البائس قديسٌ.../ عندما يكون نائمًا"(١١) .

وبمراجعة تعاون جابرييل جارثيا ماركيز مع خمس مجلات وصُحُف فى الفترة ما بين ١٩٤٠ ، ١٩٤٢ ودوره البارز فى الأعداد الستة الأولى من مجلة الشباب ، حيث تُسجل جوائزه وأوسمته بسبب استيعابه الأكاديمى يوضح أنَّ جابرييل كان مستريحًا ومسترخيًا فى جو بارَّانكيا. ويوضح على وجه الخصوص أنه أحس بالعنصر الطبيعى وهو يتنفس الجو والمناخ الأدبى والفكرى فى القسم الثانى ، حيث ازدادت قراءاته بشكل ملحوظ عن قراءاته الأولى فى أراكاتاكا وسينثى وفى مدرسة كارتخينا دى لاس إندياس " قرطاجنة الأمريكية". وهى توضح أيضًا أنَّ القساوسة والدراسات الأكاديمية والمدرسة بانضباطهما الرهبانى شبه العسكرى كانت بمثابة سترة ضيقة وغير مُريحة بالنسبة له ، حيث إنه نشأ وترعرع مُتمتعًا بمزيد من الحريات ولين الجانب من قِبَل أجداده. إنَّ فُقدان الطفولة الذهبية بدأت تسبب له – مثل الحصوة فى الحذاء – اعتلالاً روحيًا معينًا فى كافة الأوساط والأماكن ، حتى ولو كانت الأكثر راحة ورفاهية أينما

وُجِـد و حيـثما حَلَّ. وكما يقول ماريو بارجاس يوسا: إنَّ أراكاتاكا كانت جُرحًا وبدلاً من أن يندمل بفـعل الزمن كـان يلتـهب ولا يتـمـاثل للشـفـاء. إنـَّهُ الحنـين المتزايد بمرور الأيام ، إنَّهُ الوجود البـاطنى الذى اضطر الطفل إلى أن يقـيس به العـالم الجـديد الذى يحيط به"[١٢].

الفصل الخامس

- ذهاب للتعرف على البرد
- نَهْرُ الحياة
- أخطر لحظة فى حياته
- منحة من أحد راقصى البوليرو (رقصة أسبانية)
- ثيباكيرا
- مدرسة الليسيه الوطنية للبنين
- أرقام اليانصيب
- الحصبة الأدبية
- الحجر والسماء
- الرئيس كارلوس مارتين
- مجموعة الثلاثة عشر
- البدايات الصحفية : (المجلة الأدبية).
- المدرس كارلوس خوليو كالديرون
- مؤلف القصائد
- الحكاية الأولى
- رسَّامٌ فريدٌ

وفي يناير عام ١٩٤٢ وقُبيل أن يُكمل ستة عشر عامًا من العمر واجه جارثيا ماركيز أهم حدث في حياته ، وربما يكون الأكثر فائدة من جميع أحداث حياته: الخروج من المنزل للبحث عن وسيلة لتمويل دراساته الثانوية ليخفف من الأعباء الأسرية على والده.

وعلى الرغم من النجاح الذى حققه والده فى مجال الطب التجانسي فى سوكرى ؛ كانت الأسرة لا زالت تعيش مواجهة العديد من الصعوبات الاقتصادية الكبيرة ، وكان عدد أفرادها يتزايدون من عامٍ لآخر. وفى تلك اللحظة كان لجابرييل سبعة أشقاء: لويس إنريكي ، ومارجوت ، وعايدة أوليخيا، وجوستابو ، وريتا ، وخايمى ؛ ولم يبق سوى شهرين ويُولد إيرناندو. وبالتأكيد كان أمامه خياران أو بديلان: أولهما أن يبقى مع الأسرة وهو يرى المستقبل يُلقى بظلاله القاتمة ، أو ترك الأسرة ، ومحاولة إنقاذ نفسه بمفرده[1]. ومن المحتمل أنَّ قوة إرادة الكاتب التى بدأت تتبلور صوب المصير المحتوم هى التى دفعته أيضًا إلى الخيار الثاني. وهذا ما حدث حيث سافر إلى بوجوتا ومعه بعض خطابات التوصية من والده ، عازمًا على أن يتقدم إلى المسابقة الوطنية لمنح وزارة التعليم. فاجتهاده العلمى فى مدرسة سان خوسيه وقراءاته الغزيرة والمكثفة والمتجددة ورغبته فى إيجاد وسيلة مُلزمة ومُحفزة له فكريًا بثَّا فيه الثقة فى المؤسسة الجديدة ، حيث بدأ فيها الطريق المعكوس للابن الضال. ولم يتخيل هذا المراهق الساحلى أبدًا أن يواجه – وإن كان متوقعًا – ذلك التناقض بين الكاريبى ومنطقة جبال الأنديز ، الأمر الذى كان يستحيل تحمله لمراهق صغير السن فى السادسة عشرة من عمره.

وبفضل تذكرة نهرية ومائتى بيزو قدمتها له الأسرة من دخلها الضعيف تمكّن جابرييل من مواجهة أوَّل مغامرة مهمة فى حياته. فالأم حزينة لأنها ستفارق نجلها الأكبر من جديد. وقد أعدَّت له حُلة من نسيج أسود لوالده مستعينة بماكينة حياكة قديمة ماركة سنجر بالبدَّال . وعندما قامت الأسرة بكاملها بوداعه فى الميناء النهرى، نفس الميناء النهرى الذى ورد ذكره فى عمله " العقيد لا يجد منْ يُراسله" ، و "نبأ

موت مُعلن" كان جابرييل مذهولاً مما يتعذر معه التعرف عليه ، فالحُلة التى كان يرتديها تبدو واسعة عليه إلى حدٍ ما ، كما أنَّ القبعة لم تكن مناسبة لرأسه ، ولكى يزداد الطين بلة فإنَّه كان يحمل صندوقًا أشبه بتوابيت الموتى[٢] ، وكان يضم الملابس ذات الألوان الزاهية. والمعاطف التى ستقيه البرد فى بوجوتا ، والكتب التى سيقرأها من جديد لتحافظ له جيدًا على حماسته الأدبية.

وقد قام بجولة فى لنش فى أنهار ماخونا وسان خورخى وماجدلينا حتى ماجانجى حيث استقل الباخرة القادمة من بارَّانكيا ، حتى وصل بعد أسبوع إلى ميناء سالجار عند سفح جبال الإنديزالشرقية. وقد سافر معه فتيان ساحليون كانوا يبحثون عن منحة أو يعودون من إجازاتهم. ويتذكرهم جابرييل جارثيا ماركيز فى " الحب فى زمن الغضب" بوصفهم زمرة من الطلاب المشاغبين المنهكين ، ويخيم عليهم الحنين فى آخر جولات إجازتهم. وكان من بين المسافرين رجلٌ نظيفٌ يرتدى حُلة أنيقة بصديرى ، كأنه هندى أحمر من بوجوتا ، ولم يفعل شيئًا سوى قراءة الكتب ومزيد من الكتب. وقد لفت نظر جابرييل كما شدَّ نظر الرجل طريقة إنشاده للأغانى الشعبية مع زملائه لكى يكتسبوا قليلاً من النقود[٣]. لقد حدث بينهما اتصال ودى. وكان هذا اللقاء أحد اللقاءات المهمة فى حياة الفتى جابرييل؟ جارثيا ماركيز .

وفى تلك الأوقات كانت الملاحة فى نهر ماجدلينا الشريان النهرى التاريخى لكولومبيا تتم فى بواخر من ثلاثة طوابق ومدخنتين بشكلٍ يختلف عن بواخر نهر المسيسبى كانت عجلة الدفع بها فى المقدمة ، وكانت تمر ليلاً وكأنها قرية مضيئة ، وكانت تترك سيلاً من الأغانى الموسيقية ، وأحلامًا متعددة لدى القرى المتناثرة على ضفة النهر"[٤]. إنَّ الرحلة حتى ميناء سالجار يمكن أن تستغرق أسبوعًا أو أسبوعين تبعًا لحالة الباخرة والنهر. ومع ذلك لم يكن التأخير سببًا للقلق لأحد منهم لأنَّ الباخرة بطيئة أو معطلة ، فقد كانت تتحول إلى حفلة عائمة ، وتكملة للجولة الأخيرة. كان الاستمتاع بسيمفونية الطبيعة المتمثلة فى أجزاء النهر التى تمر بها الباخرة وطوفان السنجاب أو البلشون وقصائل الببغاوات ، وضجيج القرود طويلة الذيل ، وأماكن تجمع السمك ، كل ذلك كان يُضفى على صفحة النهر روعة وبهاءً فضى اللون. وكانت التماسيح تستمتع بحمامات الشمس فى وقت الظهيرة ، وفوق البحر تُرضع صغارها على الشواطئ. لقد

كان الملهى الحيوانى يتحول إلى سحر حقيقى عندما يبزغ الفجر أو يَغرب النهار بضوء الشمس الغليظ الأعزل عند الأصيل فى الغابات على ضفاف النهر. وفى السنوات الخمس التالية كان جارثيا ماركيز يُكرر هذه الرحلة الساحرة حتى استقر فى روحه أنها كانت إحدى التجارب الساحرة والمثمرة فى حياته. وبالفعل فإنَّ "نهر الحياة"(٥) كما سيسميه فيما بعد فى مقاله الصحفى سيصبح فى وقت لاحقٍ نهر الحب فى " الحب فى زمن الغضب" ونهر الموت والهزيمة فى " الجنرال فى متاهته".

وفى ميناء سالجار توجَّه صوب بوجوتا فى قطار لم يختلف كثيراً عن ذلك القطار الصغير الأصفر الذى كان يراه يومياً قادمًا إلى أراكاتاكا فى تمام الحادية عشرة صباحًا وهو طفلٌ صغيرٌ. لقد كان قطارًا يُشبه التحفة الفنية، وطوال خط سيره كان يمر بقرى ومناظر طبيعية أقيمت فى زمن برئ وهادئ ، وبمرور السنوات أصبح هذا القطار الصغير - إلى جانب البواخر ذات المدخنتين - أحد أكبر مصادر الحنين والاشتياق لجبال الإنديز لدى ماركيز: كان قطار ميناء سالجار يصعد الكورنيش الصخرى طوال يومٍ كاملٍ ببطء شديد. وفى المناطق المرتفعة كان يتوقف لكى يأخذ قوة دفع جديدة ليعاود مرَّة أخرى الصعود وهو يلهث كالتنين ، وأحيانًا كان من الضرورى على الركاب النزول والسير على القدمين حتى الكورنيش التالى لتخفيف حمولة القطار". وكان جابرييل ماركيز يتذكر القرى المتناثرة على خط سيره " بأنها باردة جدًا ، وحزينة للغاية" حيث كانت تُباع وجبات صفراء اللون ، وعصيدة مثلجة كأنها أطعمة مستشفى"(٦).

وكان جابرييل وأصدقاؤه يواصلون الرحلة بالباخرة ، ولكن فى كل مرةٍ بحماس أقل لأنه كلما اقتربوا من بوجوتا يقل الأكسجين ويُجَمِّدُ البرد أرواحهم. ولم تكن الأغلبية تُجيد الغناء والرقص فقط ؛ بل كان الكثيرون يجيدون العزف بمهارة على الجيتار والأكورديون متسببين فى تبادل القبلات بين العاشقين الولهانين. وسرعان ما يصل القطار اللاهث إلى الهضبة العُليا التى يبلغ ارتفاعها ألفين وستمائة مترًا ، ويبدأ فى السير بسرعة " نجد الرجل الهندى الأحمر ، الذى ظلَّ طوال السفر يلتهم الكتاب تلو الآخر وقد اقترب من جابرييل وطلب منه أن يكتب له إحدى أغانى البوليرو ، وهى رقصة أسبانية من تلك التى غنَّاها هو وأصدقاؤه أثناء رحلة الباخرة. وقد شرح له الرجل أنَّ

له خطيبة في بوجوتا ، وأنَّ هذه الأغنية ستنال إعجابها بالتأكيد. ولم يكتب له جابرييل الأغنية فحسب بل علَّمه اللحن قليلاً[٧] بنفس السعادة التي ستساعد بها بيلار تيرنيرا المحبين الهاربين في ماكوندو. ودون أن يدري فإن جابرييل بهذا الصنيع قد حالفه الحظ السعيد[٨] الذي كان يفتقر إليه عند الوصول إلى عاصمة الجمهورية (بوجوتا).

وكان إليسر توريس أرانجو أحد الأقارب البعيدين هو الذي أوصاه والد جابرييل بأن يستقبله في محطة السافانا في تمام الساعة الرابعة مساء ، وعندما رأى مع جابرييل هذا الصندوق الخشبي المحاط بأربطة معدنية أوعز إليه قريبه بأن يحملاه في عربة نقل إلى اللوكاندة التي كانت على بعد ست نواصي من المحطة ، وعندما شرعا في السير خلف عربة النقل أدرك جابرييل أنه تقريبًا غير قادر على التنفس بسبب ارتفاع المكان عن سطح البحر. وقد بدا جابرييل شاحبًا ومذهولاً وهو يرتدي حُلة والده السوداء ، بعد أن ضبطتها له والدته ، وصندوقه الضخم الذي يُشبه تابوت الموتى. بدا جابرييل فتى أراكاتاكا لرفاقه الساحليين الآخرين باللوكاندة بشارع ١٩ كأنه شبحٌ استعماري أكثر من كونه طالبًا ساحليًا.

وكانت اللوكاندة في منزلٍ قديم دون نوافذ ، وكانت أبوابه تطل على حديقة داخلية بها زهور إبرة الراعي " الجيرانيوم" والياسمين كانت تُذكره بالمنزل الذي وُلدَ فيه. وعند إغلاق باب الغرفة كان النزلاء يظلون محبوسين وكأنهم في خزانة أمنية. ومع ذلك ففي أوَّل ليلة نامها في بوجوتا لم يستطع جابرييل التخلص من العقدة الخلقية المتمثلة في كراهيته للأماكن المغلقة ، لأنه بمجرد دخوله السرير صاح صيحة خوف ورُعب أفزعت جيرانه النائمين: لقد شعُرَ بأنَّ شخصًا شاطره المزاح ، وأنه بلل سريره. وقد شرح له الساحلي الذي كان ينام بجواره وهو يكاد يموت من الضحك بأن أحدًا لم يمزح معه ، ولكنها رطوبة بوجوتا. وقد أدرك جابرييل حينئذٍ لماذا لا توجد نوافذ بالمنزل ، ولماذا كانت المنازل التي بها نوافذ تُغلق بإحكام شديد خشية شدة الرطوبة. وقد طمأنه مواطنه وهدأ من روعه قائلاً: إن هذا مختلف عما في الساحل ، ينبغي على الشخص أن يتعلَّم كيف ينام في بوجوتا"[٩] .

وطبقًا لتصريحات جابرييل جارثيا ماركيز ؛ فإن ذلك المساء المشئوم من شهر يناير عام ١٩٤٣ عندما وصل إلى بوجوتا ربما كان أخطر لحظة في حياته ؛ فهي

اللحظة الوحيدة التى اضطر فيها إلى البكاء حُزنًا وغمًا. ولم يكن الأمر أقل من ذلك. لقد كان مراهقًا وخجولاً دون حماية. لقد جاء من عالم ليس مختلفًا فقط ؛ بل على العكس تمامًا من ذلك الذى سيواجهه الآن. فقد كان عالمه ترتفع درجة الحرارة فيه إلى ثلاثين درجة فى الظِّل ؛ عالمٌ لم ير فيه جبلاً واحدًا باستثناء المرتفعات الفرعية لسلسلة سيرًا نيبادا فى سانتا مارتا حيث كان الأكسجين متوفرًا ، وكان ينتابه الإحساس بالاختناق من كثرة الحياة والحيوية ، وحيث تكثر الموسيقى الصاخبة والمودة والنساء والمزاعم لم تُكمم الحياة كثيرًا، والجميع - أثرياء وفقراء - ينعمون بسعادة تملأ وجوههم. أمَّا بوجوتا فهى على النقيض من ذلك تمامًا ؛ فقد بدت له اضطراريًا مدينة باردة وحزينة ذات سماء ومناخ اجتماعى رماديين حيث تندر النسوة ، أو كُنَّ محبوسات ، ويكثر الرجال الحزانى ، وبعض الانجليز المداريين البيروقراطيين الصامتين الذين كانوا يتحدثون بصورة معقدة كما فى قصص فرانز كافكا.

وبعد ذلك بثمانية وعشرين عامًا - وقد غزته نسمات من الاشتياق والحنين - وصف جارثيا ماركيز مدينة كوابيسه بهذا الشكل: " إنَّ أوَّل ما لفت انتباهى فى تلك العاصمة المكفهرة كان كثرة الرجال بها وهم يهرولون فى الشارع ، وكان الجميع يرتدون مثلى حُللاً سوداء وقُبعات ، وعلى العكس من ذلك لم تكن بها أيَّة سيدة. كما لفت نظرى أيضًا تلك الجياد القوية بدنيًا التى كانت تجرَّ عربات البيرة تحت هطول المطر ، وشرر عربات الترام عندما كانت تعبر النواصى تحت المطر ، وعوائق المرور لإفساح الطريق أمام الجنازات التى لا تُحصى تحت المطر. لقد كانت الجنائز الأكثر حزنًا فى العالم ، بعربات المحراب الأكبر ، وجيادٍ مكسوة بالقطيفة السوداء ، والخوذات المفتوحة التى تشبه القُبَّعات من الريش الأسود ، وجنازات أفراد الأسر النبيلة حيث كانوا يشعرون بمخترعى الموت. وتحت رذاذ المطر الخفيف فى ميدان نيبيس " الجليد" عند الخروج من إحدى الجنائز رأيت أوَّل امرأة فى شوارع بوجوتا ، وكانت نحيفة وصامتة ، وذات وجاهة منقطعة النظير ، وكأنها ملكة وقت الحداد ، ولكننى ظللت إلى الأبد دون إشباع نصف رغبتى الأخرى ، فقد كانت السيدة تُغطى وجهها بنسيج صفيق لا يسمح برؤيته "[١٠] .

حينئذٍ وبالقرب من ذلك الميدان فى شارع خيمينيث دى كيسادا ، وأمام مبنى المحافظة كانت أخطر لحظة فى حياته كما فى قصيدة ثيسار باييخو[١١] : لم يقاوم أثر الوحدة وانفجر باكيًا[١٢].

وفى المدينة الملبدة بالغيوم الغزيرة الأمطار تحت مظلة المطر والقبعات السوداء والمعاطف استطاع التعرف على الهنود الحمر الذين جاءوا ذات يوم وأخذوا دبلتى زواج جديه عندما كان جابيتو فى الخامسة من عمره من أجل تمويل الحرب ضد بيرو. هم أنفسهم الذين كانوا يقومون بكافة الحيل القانونية للدفاع عن مصالح شركة الفواكه المتحدة ، وهم أنفسهم بزى الجنود الذين مرُّوا أمام منزله فى السنوات التالية لمذبحة عمال الموز عام ١٩٢٨ . حينئذٍ أدرك أن أخطر لحظة فى حياته كانت تحدث فى " عالم آخر" الذى حدَّثوه عنه وهو لا يزال طفلاً.

وبعد ذلك بأيام استيقظ مبكرًا فى تمام الساعة الثامنة صباحًا لكى يقف فى الطابور أمام وزارة التعليم الكائنة فى ذلك الحين بشارع خيمينيث دى كيسادا لكى يسجل اسمه فى امتحان مسابقة المنح. لقد كان الطابور طويلاً ؛ معظمه من الطلاب الفقراء بالبلاد. وبالنسبة لجابيتو الذى كان يتحمل برد وحزن بوجوتا بالكاد ؛ فإن ذلك الصباح كان يبدو له لا نهائيًا. ولكن حينئذٍ عندما كان على بُعدِ شبرٍ من باب الوزارة ، وعلى غير المتوقع ابتسم له الحظُّ: جاء الرجل المغرم الذى كان قد كتب له الأغنية فى القطار قُبيل ذلك ببضعة أيام. وسأله ماذا تفعل هنا؟ فأجابه جابرييل بأنه يتنظر فى الطابور لأداء امتحان المنحة ، وكان حزينًا بعد عدة ساعات من الانتظار. حينئذٍ قال له الرجل: لا تكن جبانًا وتعال معى ، وقد اصطحبه إلى مكتبه مُجتازًا الطابور : لقد كان المدير الوطنى للمنح[١٢].

كان يُدْعى أدولفو جوميث تمارا. كان ساحليًا مثله من بلدة ثينثيليخو. وكان محاميًا شابًا مثقفًا ، عُيِّن لتولى هذا المنصب فى ذلك العام فقط. لقد كان المنصب يفرض عليه أناقة ونظافة إنجليزيتين ، كان يتسم بهما هؤلاء الهنود الحمر المتأنقين مثل كبار الموظفين من مواطنى بوجوتا. ولذلك فإن جارثيا ماركيز تذكره بعد بضع سنوات وقال عنه : إنه الهندى الأحمر العاشق الولهان الذى ساعده فى الحصول على منحةٍ دون مزيدٍ من الإجراءات. وقد أدى جابرييل امتحانًا ممتازًا صححه المدير بنفسه وأجازه. وقد لاحظ جوميث تمارا وهو يصحح أنَّ خط الفتى ممتاز ، فضلاً عن جودة تعبيراته. هذا المراهق الذى لم يتجاوز ستة عشر عامًا من العمر الذى كان قد خطَّ له كلمات الأغنية فى القطار لخطيبته ماريا لويسا نونيث. لم تكن مجرد تفاصيل ؛ فالتعبير

الأنيق المنمق وجودة الخط كانا أكبر نقطتى ضعف هذا الموظف المثقَّف البالغ من العمر ستًا وعشرين عامًا.

وعندما سأله جوميث تمارا عن أى مدرسة يريد الالتحاق بها فى بوجوتا بهذه المنحة ، لم يخطر ببال جابرييل سوى مدرسة سان بارتولومى ، إحدى المدارس الشهيرة بالمدينة منذ العهد الاستيطانى ، التى تعلم فيها معظم أبناء الطبقات القيادية والثرية بالبلاد. وقد كان مُدير المنح صريحًا معه: " لن أستطيع إرسالك إلى مدرسة سان بارتولومى لأنَّ كل ما ترى من هذه الأوراق المتكدسة عبارة عن توصيات من الوزراء وأناسٍ مُهمين. ولكن لماذا لا تفعل شيئًا؟ اذهب إلى مدرسة ثيباكيرا إنها مدرسة ممتازة وقريبة من هنا"(١٤). وقد شعر جابرييل بخيبة الأمل لأنه لم يستطع دخول مدرسة سان بارتولومى(١٥) ، واضطر لقبول مدرسة الليسيه الوطنية المتواضعة للبنين فى ثيباكيرا والتى لم يسمع عن اسمها من قبل.

إن الغُربة والبرودة فى بوجوتا سيعانى منهما لأقصى درجة فى ثيباكيرا. تلك المدينة الاستيطانية الصغيرة الجميلة الواقعة على بُعد خمسين كيلو مترًا شمال بوجوتا ، والتى حرارتها وارتفاعها يماثلان العاصمة تمامًا. ومثل لا كانديلاريا فإن الحى الرئيسى فى بوجوتا مَبْنى أسفل بعض الرُّبى ، وهو بمنازله وشوارعه وميادينه وكنائسه الاستعمارية يُشبه تمامًا منازل وشوارع وكنائس وميادين بوجوتا. وبهذا الشكل بدت لفتى أراكاتاكا الحزين مدينة ثيباكيرا والتى كان تعدادها خمسة آلاف نسمة آنذاك صورة مُصَغَّرة لبوجوتا لكنها أكثر برودة وغربة منها عندما وصل مع مساعده للتسجيل بالسنة الثالثة الثانوية فى ٨ مارس(١٦) .

كانت القرية سابقة على اكتشاف أمريكا ، ويشتق الاسم من الأصلى تشيكاكيتشا وهى كلمة هندية أصلية تعنى سفح الثيبا ، وهى ربوة عن سفحها قام تشيبتشاس (الهنود الحمر) بتشييد القرية الأصلية. آخر مقاومة واجهها رجال جونثالو خيمينيث دى كيسادا لتأكيد فتح الهضبة الأنديزية كانت على وجه التحديد فى ثيباكيرا- وليس من العجيب أنَّ أوَّل مقاومة واجهوها كانت فى أراضى أراكاتاكا وضواحيها على أيدى مؤسسيها هنود الشاميلاس الحمر المتوحشين - وكانوا قد وصلوا إليها فى أبريل عام ١٥٢٧ .

وبعد مسيرة طويلة ومؤلمة من سانتا مارتا عبر نهر ماجدلينا ، بعد أن خلبتهم الطبيعة الجميلة وملح مناجمها. لقد قاوم هنود حمر التشيبتشاس السيطرة الاستعمارية خلال قرن تقريبًا ، وبهذا الشكل لم يتمكن الأسبان من تأكيد استغلال ملاَّحاتها إلا بعد أن قضوا عليهم في ١٦٢٢ . وبالقرب من سفح ربوة ثيبا قام المستعمرون بتشييد ثيباكيرا الحالية ؛ إحدى أجمل مدن منطقة السافانا. وكان نشاطها في تربية الماشية ، فضلاً عن ازدهارها الاقتصادي وجاذبيتها الاستعمارية ، وكنيستها تحت الأرض من الملح كانت تعتبر إحدى عجائب الدنيا ، كانت سببًا في أن تُصبح إحدى أهم المدن السياحية في كولومبيا.

ولكن في ظل الظروف التي سبق وصفها لم يتمكن جابرييل من اكتشاف مفاتنها السياحية ولا الاهتمام بماضيها البطولي: فببساطة شديدة كانت ثيباكيرا بالنسبة له امتداداً خطيراً لبوجوتا. ولذلك فقد حبس نفسه تمامًا بين جدران المنزل القديم الذي كان يُقيم فيه ، والكائن قريبًا من الميدان. وبعد ذلك بسنوات يتذكر الكاتب كأنه "دير بلا تدفئة ولا زهور". وفي الواقع لقد كان بناءً استيطانيًا رائعًا من طابقين على شكل مربع بسقف من القرميد وشُرفات من الخشب ، وكان يتم الدخول إليه من باب كبير عمره قرن من الزمان وحول الفناء المستطيل بالمنزل وبين الأعمدة الخشبية وأصص الجرانيوم كانت توجد الإدارة وغرف المدرسين والمطبخ والحمامات. وعبر سلم خشبي كبير ومريح كان يؤدي إلى الطابق الثاني ، حيث كان يوجد المُصلَّى والمكتبة وعنابر غُرف النوم. وفي المبنى الثاني حديث التشييد كانت توجد الفصول والفناء الأكبر المخصص للفُسح والراحات.

وكان عدد طُلاب المدرسة مائتين وخمسين طالبًا من مختلف العرقيات الثقافية في البلاد ، ومعظمهم حصل على منح داخلية بالمدرسة. وعمومًا فإنَّ الطلاب كانوا من أسر فقيرة ، ولكنهم كانوا على كفاءة كبيرة ، ولديهم الرغبة والحاجة في اغتنام فرصة المنحة. إنَّ فرصة التمكن من الاطلاع على التنوع الثقافي للبلاد ، والتمتع بمستوى أكاديمي جيد بمدرسة الليسيه الوطنية في ثيباكيرا سيعترف بهما جارثيا ماركيز بعد ذلك بسنوات كثيرة قائلاً : " إنني أعتقد أنَّ أهم شيء في ثيباكيرا كانت المواجهة بين مختلف ثقافات الدولة ، وليس فقط ثقافة الداخل. وأخيراً أدركت أنه لحُسن حظي أنهم أرسلوني إلى مدرسة الليسيه الوطنية في ثيباكيرا ، لأنها كانت المدرسة الداخلية التي ضمت

المنوحين الفقراء فى البلاد. أتذكر أننى كافحت كثيراً لكى أنضم إلى مدرسة سان بارتولومى فى بوجوتا ، ولكن هناك لم يكن لدىّ شىء أفعله : لقد كانت مدرسة التوصيات الكبيرة، مدرسة الأسر الكبيرة بالبلاد مدرسة السياسيين. ولذلك فقد أرسلونى إلى ثيباكيرا ، وكانت المدرسة الثانية فى التصنيف ، وكانت أفضل بكثير. وأنا مدين بكل ما تعلمته إلى الثانوية".

وكان أهم العوامل الحاسمة جودة المدرسين. فكثير من هؤلاء المدرسين الذين قَدِموا إلى مدرسة الليسيه كانوا ماركسيين أو ذوى توجهات تقدمية ، فقد تعلموا فى المدرسة العُليا على يد خوسيه فرانثيسكو سوكراس ووزارة التعليم ، وكانوا ينفونهم فى أطراف البلاد حتى لا يسمموا أفكار شباب بوجوتا. وإلى جانب التأثير أيديولوجياً إلى حد ما كانت النتائج ممتازة لأنَّ كل مدرس كانت له سلطة مستقلة فى مادته ، وكان تربوياً هائلاً ؛ فمدرس التاريخ مانويل كويو ديل ريو على سبيل المثال لم يكن فقط يُعير تلاميذه خُفْية كُتباً عن الماركسية ؛ بل كان يُدَرِّس لهم تاريخ أمريكا بشكل دقيق ومحايد. والمهندس إدواردو أنجولو فلوريس رفيق سابق لجارثيا ماركيز يقول عن ديل ريو: " بالفعل لقد أثَّر فيهم بنظرته الموضوعية عن التاريخ ، وعلى وجه الخصوص فى جابرييل: ويعتقد أنه أكبر شخص أثر أيديولوچياً فى فتى أراكاتاكا . وكذلك مدرسو اللغة الأسبانية والأدب والرياضيات والفلسفة ظلوا مخلدين فى ذاكرة جابرييل جارثيا ماركيز ، وكذلك مجموعة بارزة من الأطباء والمهندسين المعماريين والمحامين الذين أتموا دراستهم الثانوية معه ١٩٤٦ .

وكان من بين العوامل الحاسمة فى التحصيل الأكاديمى لجابرييل – بلا شك – النظام الرهبانى بالمدرسة الداخلية. فبمجرد أنْ يدق الجرس فى تمام الساعة الخامسة وخمس وأربعين دقيقة صباحاً كان ينبغى على التلاميذ الاستحمام خلال ثلاثة أرباع الساعة فى الحمامات بالماء البارد على ثلاث دُفعات. وفى تمام السادسة والنصف يجب أن يكونوا قد لبسوا ملابسهم جيداً وانتعلوا نعالهم وأظافرهم نظيفة والأسِرَّة مفروشةً ومرتبةً. وبعد تناول طعام الإفطار " شانجوا" (شوربة من البصل واللبن) والقهوة والبيض والخُبز وقطع الخبز المُحَمَّص يدخل الطُلاب حصصهم الأولى. وفى تمام التاسعة يذهب الطلاب إلى قاعة الطعام لتناول (البسكويت والبقسماط المصحوب

بالماء أو بالخبز. ثم يدرسون ساعتين أخريين لكى يتناولوا فيما بعد وجبة الغذاء فى تمام الثانية عشرة. وبعد الهضم السريع يتوجه التلاميذ فى صفوف إلى الملاعب الرياضية ، على بُعد خمسائة متر من الليسيه ، لتلقى حصة التربية البدنية على مدى ساعة. وفى الساعة الثانية يعودون إلى الفصول الدراسية حتى الرابعة ، ثم يستريحون قليلاً لتناول وجبة خفيفة أو أحد المرطبات. وتنتهى الدراسة فى تمام السادسة ، ويأخذ التلاميذ نصف ساعة للاستراحة ليُستأنف اليوم الدراسى " الفترة الثانية" ومن السادسة والنصف إلى السابعة يتعشى التلاميذ ، وفى الساعتين التاليتين ؛ كان التلاميذ يستغلونها فى عمل واجباتهم الدراسية فى نفس فصولهم ، أو الراحة بالغناء والعزف على أحد الآلات الموسيقية. وأخيراً فى تمام التاسعة يأتى موعد الذهاب إلى الفراش فى عنابر غُرف النوم بالطابق الثانى حيث يشرف عليهم أحد الأساتذة فى غُرفة نوم مخصصة له فى وسط العنبر ، ولا زال هناك المزيد: فبينما كان التلاميذ ينامون كان المدرس يقرأ بصوت مرتفع فصلاً من القصة المقررة "الجبل السحرى" أو "الكونت مونتكريستو" "الجنود الثلاثة المسلحون" ، مدام بوفارى وكنتاكلارو. وعندما يُدرك أن الغالبية قد نامت يغلق المدرس الكتاب ويرقد فى غُرفة نومه.

ومع ذلك فإزاء الغربة والبرودة فى ثيباكيرا ؛ كان هذا النظام الرهبانى بمثابة سبب الخلاص لجابرييل. وعلاوة على ذلك : كانت عطلات نهاية الأسبوع تُزيد هذه الغربة والبرودة ، حيث يظل جابرييل محبوساً فى غرف النوم يقرأ القصص وكتب الشعر بينما كان المساء ينقضى بين أشجار الكافور فى منطقة السافانا. وكان يلعب كرة القدم قليلاً يوم الأحد ، وكان – فى المساء – قد اعتاد الذهاب إلى بوجوتا لكى يتعرف على المدينة الكبيرة ولزيارة اليسوعيين إجناثيو ثالديبار ولويس بوسادا مالدونادو اللذين كانا مدرسيه وصديقيه فى القسم الثانى بمدرسة سان خوسيه فى بارًانكيا. أمّا فيما يتعلق بالذهاب إلى القرية وإلى كنيسة الملح والتسلى مع الأصدقاء ؛ فقد كان كل ذلك يقتله من الملل لبُعده ألف كيلومتر عن أراكاتاكا مدينته الحارة. ولذلك – وبسبب السعادة الغامرة لدراسته الأكاديمية – سيصرح بعد ذلك بثمانية وثلاثين عاماً: إنه بعد أن فاز بالمنحة لإتمام دراسته الثانوية فى ثيباكيرا كان ذلك بمثابة كسبه لليانصيب، ويقول أيضًا إنً تلك المدرسة كانت عقاباً ، وتلك البلدة الجليدية الباردة كانت ظُلمًا. لقد

طمست تماماً المدرسة ، والمدرسة الثانوية. إنَّه أمرٌ مرعبٌ أن يُخضعوا شخصاً ما لهذا العذاب ، وكطريقة للتنديد بالنظام التعليمي يستشهد بما قاله برنارد شو : منذ طفولته اضطر لقطع تعليمه لكي لا يذهب إلى المدرسة(١٧) .

ولكن لا ينبغي أن ننساق إلى مبالغاته: فجابرييل لم يتفوق فقط على باقي التلاميذ في تلك المواد التي لم تكن تحظى بإعجابه ؛ بل كان أفضل طالب في الدفعة من طلاب الثانوية عام ١٩٤٦ . وخصوصاً بفضل اليانصيب الذي فاز به في بوجوتا ، والعذاب الذي عانى منه في ثيباكيرا ، فإن حياته اكتسبت خبرة من حيث الجودة لا يمكن التنازُل أو التراجع عنها: لقد كان في المدرسة الداخلية بجبال الإنديز – وفقاً لاعترافاته – حيث أصيب " بالحصبة الأدبية" لتظهر بكل قوة موهبته ككاتب. وكما سنرى لولا ثيباكيرا لما كان جارثيا ماركيز كاتباً مرموقاً ، وخاصة بدون بوجوتا وإن كان لأسباب مختلفة لن يكون كاتباً مرموقاً بدون أراكاتاكا .

وفي الواقع فإنَّ فيروس الحصبة الأدبية قد أُصيب به في بارَّانكيا في مدرسة سان خوسيه ، أو ربما في أراكاتاكا نفسها عندما قرأ وهو في التاسعة من عمره الجزء منزوع الغلاف من كتاب ألف ليلة وليلة. وما فعله الاعتصام في ثيباكيرا كان بمثابة المساعدة على نمو الفيروس. وبدءاً من مكتبة القرية كانت هناك مجموعة كتب ضمت المؤلفين الكولومبيين في المحافظة ، حتى مجموعة أرالوثي التي كانت عبارة عن مواجز عن كبار الكتاب الكلاسيكيين ، فإنَّ جابرييل جارثيا ماركيز قد قرأ المكتبة المدرسية. ومن هنا اكتسب تكويناً دقيقاً عن الأدب الكولومبي الذي اتسم بندرة مؤلفيه في تلك الفترة ، باستثناء الذين درسوه للتخصص في المرحلة الجامعية. لقد كان الحماس الأدبي كبيراً وكذلك الغربة ، وعندما قرأ كل كتب الأدب ظلَّ يلتهم أيَّ نص وقع في يديه بما في ذلك ثلاثة أجزاء ضخمة من الأعمال الكاملة لفرويد ، وكتب الماركسية التي أعارها إياه خُفية أستاذ التاريخ. أمَّا الروايات التي لم يستطع قراءتها بنفسه ؛ فقد ترك له المدرس حرية اختيار عناوين القصص التي يريدها. ومن بين الكتب الغريبة التي قرأها حينذاك كان أحدها مثمراً للغاية بالنسبة له: نبوءات نوستراداموس ، وكان هذا أحد الأحداث الجرثومية في شخصية ميليكياديس(١٨). وعلى الرغم من ذلك كله فإن ولعه بالشعر ظلَّ مستمراً طوال دراسته الثانوية والعام الأوَّل من دراسته الجامعية.

وكانت فى مقابل أيام الدراسة الأكاديمية والتحمس الأدبى الحلقات الليلية حيث كان يتم فيها استعراض العادات والأساطير لمختلف مناطق البلاد على أنغام الجيتار أو الأوكورديون . وبمرور الوقت فإنَّ الجالية الساحلية الغفيرة بدأت تخفف حدة فترة الاحتباس الأولى لفتى أراكاتاكا ، وسرعان ما أحبَّ جابرييل حفلات الرقص فى عطلات نهاية الأسبوع ، التى كان صديقه خوسيه بالينثيا وهؤلاء الساحليون الآخرون يقيمونها فى أى مكان يُدْعون إليه ، ولكن فى الظروف الأكثر صعوبة فإنَّ الحصبة الأدبية لم يكن بالإمكان إخفاؤها ؛ ففى خضم الرقص كان بعض الزملاء يهجرون خطيباتهن لكى يجلسوا فى أحد الأركان لتبادل الآراء بشأن الملف اللانهائى للأدب.

إنَّ الذين درسوا مع جارثيا ماركيز أو عرفوه فى تلك الفترة ما بين السادسة عشرة والتاسعة عشرة من العمر يتذكرونه على أنه ذلك الفتى النحيل بعينيه الجاحظتين، وشعره الأسود المجَعَّد، والذى كان يحتمى من البرد بسترة كبيرة من الصوف لم يجرؤ أنْ يُخرِج منها يديه لأنه لم يتمكن من التغلب على الخوف الملازم له خشية الإصابة بالتهاب رئوى يقضى على حياته فى تلك الهضبة الأنديزية. أما فى الحصص الدراسية ؛ فقد كان جاداً للغاية منتبهًا بورع منقطع النظير . كان يوجه أسئلة كثيرة تتعلق بموضوع الدرس ، وكان يُعجبه أن يسأله المدرسون لكى يستمع الآخرون إلى آرائه ، وخاصة فى مادة الأدب. أما خارج الفصل ؛ فقد كان على العكس من ذلك تمامًا كاريبيًا أصيلاً: مازحًا وساخرًا ، وكذلك متمرداً. أمّا فيما يتعلق بسلوكياته ، وبعد أن كان يحصل على خمس درجات من خمس درجات فى أراكاتاكا فإنَّ ذلك بدأ يتصدع ، إلى جانب رفاقه الساحليين فى تلك البيئة الصحراوية اعتباراً من السنة الرابعة الثانوية ، وربما يكون ذلك رد فعل لبعده عن موطنه الأصلى ، ونتيجة للمدرسة الداخلية فى ثيباكيرا . فبعضهم – مثل طبيب المسالك البولية أرماندو لوبيث الذى لم يدرس مع جابرييل – قد عَرِفَ كل تفاصيل مغامراته وتعاساته كتلميذ فى مدرسة داخلية ؛ يؤكدون – بالفعل – أنَّ فتى أراكاتاكا عاش فترة من عدم الانضباط التام. ففى الليالى التى كان مدرس الحراسة يرقد مستغرقًا فى نومه كان هو وأصدقاؤه يتدلون من أطراف ملاءات رُبِطت مع بعضها لكى يذهبوا إلى مسرح ماكدوال ، أو لرؤية

خطيباتهن. ويذكر الشاعر كارلوس مارتين المدير السابق لمدرسة الليسيه عام ١٩٤٤ "أنه فى بعض الليالى وأثناء غيابه حدث تمويه للقيام بتمرد قام التلاميذ فيه بتبادل إلقاء الوسادات والأحذية على حساب القراءة والنوم. وقد اتصلوا بى - على وجه السرعة - فى المنزل ، وفى رد فعل استبدادى غير متوقع واستثنائى من جانبى أمرت بأن يُشكل التلاميذ صفوفًا وينزلوا إلى الفناء دون إمهالهم كى يُغيروا ملابسهم. وبعدإلقاء كلمة موجزة وسط ظلام الممرات وفى ضوء القمر الخافت ، عاد الجميع إلى عنابر غُرف النوم فى نظام وهدوء. من الذى كان بإمكانه التفكير فى الفائز بجائزة نوبل يصعد السلالم القديمة بالملابس الداخلية رغم برودة الفناء متوجهًا إلى غُرفة النوم"(١٩).

ولحُسن الطالع فإنَّ السلوك المخالف للنظام لجابرييل إلى جانب انصياعه الأدبى الأمين لمعلمه كارلوس خوليو كالديرون إيرميدا سيكون لهما أهمية نسبية فى ميلاد الكاتب النثرى القادم.

وعلى الرغم من الحياة الأكاديمية والأدبية المكثفة لتبادل الخبرات فى المعايشة مع زملائه ، والحب والإعجاب الذى أحاط به هؤلاء جابرييل كشخص كاريبى طيب ، فإنه كان يستعيد كامل حيويته الجسدية والعاطفية عندما يعود إلى سوكرى مع الأسرة فى إجازات نهاية العام الدراسى. ولكن تذاكر الذهاب والعودة فى القطار والباخرة لم يكونا فى متناول مصروف جيبه المتواضع ؛ لذلك فقد كان مجلس آباء المدرسة يُقيم السهرات وأنشطة أخرى ، ويشترون بعوائدها تذاكر لجابرييل ورفاقه الفقراء جداً للعودة إلى الساحل لرؤية ذويهم. فالحر، والخضرة، وشراهة تناول ثمار المانجو والجوافة، والأغانى والرقصات الطويلة، والشخصية المتفتحة للساحليين ؛ كل ذلك جعله من جديد فى وسط العواطف المتجددة. وكان يشعر بازدواجية الحياة لأنه إلى جانب ذلك أيضًا كان ينتهز فرصة الإجازة لكى يلتهم الكتب التى لم يستطع قراءتها فى المدرسة وهو مضطجع على أريكة فى ظلال أشجار المانجو بمنزل والده الذى - فى نهاية الأمر - استطاع أنْ يُشيِّد منزلاً واسعًا بما فيه الكفاية ومُريحًا "وأبيض كالحمامة ؛ بل شديد البياض" على ضفاف نهر لاموخانا.

وفى إحدى حفلات الرقص التى حضرها عددٌ غفير من الطلاب ، بدأ جابرييل يشعر بالحب تجاه طفلة فى الثالثة عشرة من العمر ، أنهت توًا دراستها الابتدائية :

كانت سليلة أسرة بارشا باردو ، جيران وأصدقاء أسرة جارثيا ماركيز . لقد فتنته عيناها السوداوان الناعستان ، وجيدها النحيف وإيماءاتها ، وحركاتها الغامضة. إنَّ خجله حمله على تجاوز التعريضات الغرامية ، وفى تلك الليلة نفسها طلب منها الزواج مثلما حكاه تمامًا فيما بعد فى " نبأ موت مُعلن". وعلى الرغم من أنَّ الصغيرة مرسيدس بارشا لم تتأثر بذلك فى البداية واضطر إلى الانتظار ثلاثة عشر عامًا. لقد كان يعلم تمامًا أنه سيتزوجها. إنَّ هذه الطفلة التى تنحدر من أصل مصرى ستُلهم جابرييل أحسن قصائده الشعرية وهو فى الثانوية.

وعندما عاد إلى المدرسة الداخلية مُتَّبعًا نفس خط السير لرحلته الأولى فى لنش بأنهار موخانا وسان خورخى وماجدلينا لكى يأخذ الباخرة - فى ماجانجى الموطن الأصغر لمرسيدس - القادمة من بارأنكيا لكى تُقله إلى سالجار ، حيث سيركب القطار الصغير عبر سلسلة الجبال الأنديزية ، ولكن المسافة بينه وبين مدينة هنود حمر الكاتشاكوس كانت تتسع فى كل عودة من عام إلى آخر ، حتى أنه بعد عدة أعوام فى "الحب فى زمن الغضب" فلورينتيو أريثا سيتخلى فى شبابه عن السفر عبر جبال الأنديز للسفر إلى بيا دى ليبا ، وترفض فيرمينا داثا السفر إلى بوجوتا لأنها كانت تعتبرها مدينة ثلجية ومكفهرة ، حيث لا تخرج النساء فيها إلا لقُدَّاس الخامسة. كما أنَّ علاقته بثيباكيرا الجميلة ستعود بعد سنوات فى لقاء الآن لم يتحسَّن فى إبداعاته الخيالية: فى " مائة عام من العزلة" مدينة كاتدرائية الملح جاء ذكرها عابرًا وعارضًا. إنها نفس المدينة الحزينة التى تبعد ألف كيلو متر عن البحر حيث ذهب أوريليانو سيجوندو ليبحث عن فرناندا ديل كاربيو[٢٠].

وبشحنة الاشتياق والحنين المتراكم عند كل عودة كان حتميًا أن تكون الأشعار هى أوَّل تعبير عن الحصبة الأدبية لجابرييل. كما أنه خلال السنوات الثلاث فى مدرسة سان خوسيه فى بارأنكيا كان جابرييل قد قرأ أشعارًا كثيرة ؛ تقريبًا كافة الأشعار الرديئة كما يقول الكاتب ، ووقتها كان قد كتب أوَّل أشعاره المازحة ، التى نشرها له اليسوعيون فى " مجلة الشباب". ولكن ما بين تلك القراءات الأولى وقراءاته عن العصر الذهبى، التى أمدته بالعُدَّة الأساسية. فبالنسبة لى؛ الشعر والأدب سواء ، ولذلك فعندما وصلت إلى

المدرسة فى ثيباكيرا كنت أعرف عن ظهر قلب جميع الشعراء الأسبان الكلاسيكيين. لم أكن أعرفهم فقط بل كنت أتلو أشعارهم وأغنيها[٢١]، مثلما فعل أيضًا كايتانو ديلاورا مع جارثيلاسو دى لا بيجا فى " عن الحب وشياطين أخرى". وعلى وجه الدقة ففى العام الذى التحق فيه بالمدرسة الداخلية بجبال الإنديز كانت حركة "الحجر والسماء" الأدبية موضة إلى جانب شعر العصر الذهبى ، وسيكون لهما عظيم التأثير فى قصاص المستقبل.

وقد اتخذت جماعة" الحجر والسماء" اسمها من ديوان مشابه لخوان رامون خيمينيث ، وقد ضمت منذ أواخر الثلاثينيات الشعراء إدواردو كارًانثا ، وخورخى روخاس ، وأرتورو كماتشو راميريث ، وكارلوس مارتين ، وداريو سامبير ، وتوماس بارجاس أوسوريو وخيراردو بالينثيا. وقد تغذَّت الجماعة على التأثير المتأخر لروبين داريو ، والتأثير الحديث لخوان رامون خيمينيث ، وبابلو نيرودا ، وتأثير العصر الذهبى من خلال بعض شُعراء جيل ٢٧ . إنَّ جماعة "الحجر والسماء" قامت بتطوير الأشكال الشعرية التى كانت متصلبة بسبب البلاغة الصارخة للرومانتيكية ، والبرناسيين والكلاسيكيين الجُدد فى كولومبيا ، فالاستعارات الشجاعة البرَّاقة لكارًانثا ، وروخاس ورفاقهما كانت بمثابة كُرة من الأكسجين بالنسبة للشباب مثل جارثيا ماركيز الذين كتبوا قصائدهم الأولى. ولذلك يقول القصَّاص عنهم "إنهم : كانوا إرهابىِّ العصر" ولولا ما فعلته جماعة " الحجر والسماء" لما تأكد لى تحولى إلى كاتب[٢٢]. وقد أكد فى وقت لاحق: "إنَّ ما قدموه لي كان عُنصر التمرد ضد النظام الأكاديمى لأننى عندما رأيت ماذا كان يفعله هؤلاء الشعراء بجرأة ، أحسست بالتشجيع لكى أواصل مسيرتى فى الأدب ، فإنه سيستحوذ على إعجابى ؛ وبالتالى سأختار ذلك. لقد بدا لى – فى نهاية الأمر – أنه يمكن هز القاعدة فى بالينثيا"[٢٣] وعبادة الشعراء البرناسيين" وعلى الرغم من أنه فى السنة الثالثة الثانوية لم يُدَرَّس الأدب حتى الآن كان يتم تدريس اللغة الأسبانية إلا أنَّ المدرس كارلوس خوليو كالديرون إيرميدا المولع بجماعة " الحجر والسماء" كان يقرأ لطلابه ، ويعلِّق لهم على هؤلاء الشعراء. لقد كان هو نفسه ناظمًا محنكًا ومخضرمًا للأشعار ، وبين التلاميذ ومعلمهم كان يتم تبادُل القصائد والقراءات. وفى بداية السنة الرابعة الثانوية تلَقَّى المدرس كالديرون إيرميدا ذات يوم وهو فى الحصة طردًا من الكتب ففتحه وشكر الإهداء الشخصى على أحد هذه الكتب ، وقرأ

بعض القصائد بصوت مرتفع: كان ديوان "العبور الأرضي" لكارلوس أحد أفراد جماعة "حجر وسماء" والذى وصل توًا إلى مدرسة الليسيه الوطنية كمدير جديد لها. فقراءة القصائد ، وكذلك وصول مؤلفها حمّسا كثيرًا كلاً من جارثيا ماركيز ورفاقه بالمركز الأدبى "لجماعة الثلاثة عشر"[٢٤] والذى واصل معهم مختارات من هذه الأشعار والتقديمات الأدبية التى كان يقوم بها إدواردو كارًانثا فى الملحق الأسبوعى ليوم السبت.

وكان كارلوس مارتين آخر المنضمين للحركة الأدبية ، وكان فى الثلاثين من عمره ، وقد نشر كتابين ، وكان عاطلاً. وقد طرأت فكرة جيدة لصديقين من جيله بتقديمه إلى وزير التعليم لكى يجد له وظيفة تليق بمركزه ووضعه. وبالصدفة ففى نفس اليوم من أواخر مارس ١٩٤٤ انتحر المدير السابق لمدرسة الليسيه الوطنية فى ثيباكيرا مُدَرِّس الرياضيات أليخاندرو راموس ، وقد عُيِّن الشاعر مديرًا جديدًا للمدرسة. وبدأ عمله بحضور جنازة سلفه فى المنصب إلى جانب تلاميذه. وقد واصل العمل على نهج سلفه ووسائله القاسية. لقد قرّر نهاية التأثير المهيمن للرياضيات الذى كان قد فرضها إليخاندرو راموس وأفسح المجال للأدب ، وقام بإلقاء عدة محاضرات ، ووزّع كتبه على المدرسين والتلاميذ وفرض عادة القراءة الليلية فى عنابر غرف النوم.

وقد حلَّ مارتين مدرس الأدب العالمى محل المدرس كالديرون إيرميدا من أبريل إلى أغسطس أو سبتمبر من ذلك العام ، ولذلك فقد احتفى التلاميذ – وعلى وجه الخصوص جابرييل وأصدقاؤه الأعضاء فى "جماعة الثلاثة عشر" – بذلك فى سعادة غامرة. وخلال فترة توليه منصب مدير المدرسة التى استغرقت خمسة أو ستة أشهر ركز فيها على تدريس شخصية وأعمال روبين داريو ، وكان بإمكانه أنَّ يظلَّ ساعة كاملة فى شرح قطعة شعرية لروبين داريو: موضوعات القصيدة والابتكار الاستعارى والإيقاع الشعرى[٢٥]. وما بين كل قصيدة وقصيدة كان يحدثهم عن حياة الأستاذ النيكاراجوى فى نوادر وحكايات تصويرية رائعة وموعزة وموحية. لقد حدثَّهم عن ذلك الطفل الحالم روبين داريو بإحدى قُرى نيكاراجوا الذى نشأ فى كنف عمته الجدة ، والمفاجأة المذهلة التى حدثت ذات يوم عندما ظهرت له سيدةٌ جميلةٌ للغاية ترتدى ملابس سوداء إلى جانب ملابسها الجلدية ، وقُبعة كبيرةُ مزودة بريش ، وأكدت له أنها والدته الحقيقية. كما حكى لهم أنَّ أبا الحداثة الأمريكية شبَّ وترعرع فى كنف ورعاية عقيد عجوز كان يحكى له

قصص الحروب الماضية. وذات يوم تعرَّف على الثلج كمصدر للإلهام الحقيقى. وقد درس روبين داريو على أيدى اليسوعيين ، ونشر أول أشعاره المقفّاة وهو فى الثالثة عشرة من العمر(٢٦) .

وقد ظلَّ جابرييل منذ ذلك اليوم مفتونًا بشخصية وأعمال روبين داريو ، كأنه ينظر فى مرآة إلى الحكايات التى ذكرها مُدرِّسه ، لأنه أيضًا كان طفلاً حالمًا فى قرية كاريبية فى كنف جدته وشقيقة جده ، وذات يوم وهو لا يزال أقل من أربعة أعوام ظلَّ مندهشًا بسبب وجود سيدة شابة حسناء ترتدى ملابس وردية اللون وقد تطيبت وتزينت على عادة أهل المدن وأكدت له أنها والدته. وكذلك على غِرار الشاعر النيكاراجوى فإنَّ جابرييل نشأ أيضًا فى كنف عقيدٍ مُسنٍ كان قد حكى له ألف قصة وقصة عن الحروب الأهلية. وقد اصطحبه جده ذات يومٍ لكى يتعرف على الثلج. وعلى غِرار الشاعر أيضًا نشر جابرييل أوَّل أشعاره المقفاة وهو فى الثالثة عشرة من العمر ، كما أنه درس مع اليسوعيين. ومما لاشك فيه فإن كثرة المصادفات العديدة بين حياته وحياة الشاعر النيكاراجوىٍّ عززَّت إعجاب جابرييل بالشاعر روبين داريو لدرجة أنه أبرز ذلك بشكلٍ خاص فى " خريف البطريرك"(٢٧)بوصفه مؤثرًا ، وبوصفه إنسانًا.

ولم يكن التعريف بأبى الحداثة الأمريكية وحده هو الحاسم بالنسبة لجابرييل ؛ بل كانت هناك أيضًا الكتب التى أعارها إيَّاه المدرس مارتين فى تلك السنة ، وعلى وجه الخصوص : الحياة العجيبة للكاتب لخورخى سلَّميا والتجربة الأدبية لألفونسو رييس (٢٨). وقد عززت تلك القراءات تطلعاته الأدبية ، كما أمدَّته فى نفس الوقت بأوَّل تأسيس نظرى مهم. كما أنَّ المدير الشاعر ضمَّ تلميذ الثانوية الشاب إلى نادى الصداقة للشعراء الكبار الأعضاء فى حركة "حجرٌ وسماء".

وبعد وصوله إلى ثيباكيرا ببضعة أشهر تلَّقى مارتين زيارة قادة الحركة الأدبية المذكورة : إدواردو كارَّانثا وخورخى روخاس. وفى تلك الأيام كانت جماعة " الثلاثة عشر" قد طلبت مساندته ومساعدته لإصدار " المجلة الأدبية" لكى تكون بمثابة لسان حال الجماعة. ولم تكن اللحظة مواتية فحسب ؛ بل أدت بصورة حتمية إلى طباعة اللينوتيب : ففى جميع أنحاء البلاد ، وبفضل الحوار الناشئ بين أفراد جماعة "حجر وسماء" ، كان الشعر والأدب فى أوج عظمتهما ، وقد نشرت مجلات فى جميع أنحاء

البلاد . وفضلاً عن ذلك فإنه قد بقى لجابرييل أثرٌ نظراً لدوره الرائع فى مجلة "الشباب" فى بارانكيا. وهكذا نصحهم المدير الشاعر بكيفية عمل وتمويل المجلة ، كما أسهم معهم فيها: بمقال بلاغى مُتقدٍ حيث انتقد فيه حكومة الأقلية فى البلاد ودعا إلى حد ما الشباب لاحتلال قصر الشتاء الوطنى[٢٩]. وبالطبع فإنَّ كل عضو من الثلاثة عشر أسهم بمقال له أو قصيدة شعرية أو حكاية. وقد كتب جابرييل وهو فى السابعة عشرة من العمر بكل ما أُوتى من قوةٍ ، وكان أوَّل عملٍ صحفى له عبارة عن تحقيق مُقتضب عن الشباب والتعليم والموسيقى فى كولومبيا[٣٠] ، وبهذا الهدف حضر مع ماريو كونيرس رئيس الجماعة ومدير المجلة البرَّاقة إلى مقر إقامة كارلوس مارتين فى منزل ذى طابع استيطانى بميدان ثيباكيرا مع الشعراء الكبار فى حركة " حجر وسماء": إدواردو كارَّانثا ، وخورخى روخاس. وبالنسبة لطالب فى الرابعة الثانوية كانت تحاصره غزالات الإلهام كان هذا اللقاء مع الشعراء الثلاثة لحظة مهمة ، وقد أبرز ساحة اللقاء على النحو التالى: صالون كبير ذو طابع استيطانى به قليلٌ من الأثاث ، ولكنه كان زاخراً بالكتب وصُور لويس دى جونجرا ، وروبين داريو، وخوسيه أسونثيون سيلبا وباول فاليرى وخوان رامون خيمينيث.

ولكن جابرييل أسهم إلى جانب ذلك فى العدد الأوَّل للمجلة الأدبية الشابة[٣١] فقد كان يشرف على قسم : "شعراؤنا " (المخصص للشاعر خورخى روخاس) وقدَّم حكاية غنائية بعنوان: " لحظة نهر" ، وقد نُشرت فى باب آخر بعنوان نثرٌ غنائى لخابيير جارثيس" ، وهو الاسم المستعار الذى كان يُوقع به كتاباته فى ثيباكيرا. وعلى الرغم من سذاجات فتى فى السابعة عشرة من عمره فإن النصَّ الأوَّل أو الافتتاحى كان مُوحيًا بنبوغ الكاتب ؛ فهو النثر الأوَّل لجابرييل الذى يكشف بُعدًا بدائيًا إبداعيًا ، ويُعلن عن صور للأعمال القادمة مثل صور النهر ومطر الأزهار ، كما أنه يرسم أحد الثوابت لقصصه وحكاياته: النقل الأدبى بانعكاس الشخصيات والأشياء فى المرايا (للماء ، والثلج ، والحلم أو للحنين والاشتياق).

وعندما كان الثلاثة عشر ينتظرون اللحظة المواتية لتوزيع المجلة الأدبية حدث شىء غير متوقَّع فى التاريخ الكولومبى. قامت مجموعة الضباط المتمردين بإلقاء القبض على رئيس الجمهورية ألفونسو لوبيث روماريخو- وهو قريب بعيد لجارثيا

ماركيز من جهة والدته - في مدينة باشنو في محاولة انقلاب عسكرى. ولقد بعث كارلوس مارتين برقية تأييد باسم المدرسين وطلاب مدرسة الليسيه لحكومة لوبيث روماريخو التى كان يمثلها بشكلٍ مؤقت نائب الرئيس داريو إيتشانديا. وقد حضر فى نفس اليوم عُمدة ثيباكيرا إلى المدرسة بصحبة العديد من رجال الشرطة لمصادرة دعاية تدعو للتمرد ، وهى التى تمَّ إخفاؤها فى فصول المدرسة ، وأخذوا الطبعة الأولى كاملة من المجلة الأدبية. وبعد ذلك ببضعة أيام اتصل وزير التعليم - الذى كان أسند إدارة المدرسة لكارلوس مارتين - بمدير المدرسة وطالبه بالتخلى عن منصبه واستدعاه لمكتبه. ويرجع سبب إقالته وفصله من العمل ومصادرة مجلة جماعة " الثلاثة عشر" كما شرح وهو يُريه المجلة إلى المقال المتَّقد ضد حكومة الأقلية حيث جاء فى خمسة أعمدة فى الصحفة الأولى من المجلة.

ولكن عام ١٩٤٤ خاصة هو عام القصة الأولى والقصائد الأولى الإبداعية لجارثيا ماركيز. وهكذا لعب مدرس اللغة الأسبانية والأدب خوليو كالديرون إيرميدا دورًا مهمًا بارزًا فى تلك اللحظة الحاسمة للبدايات الأدبية لجارثيا ماركيز.

لقد كان المدرس خوليو كالديرون إيرميدا رجلاً عالمًا وحكيمًا ومتواضعًا. كان عُمره خمسة وثلاثين عامًا ، وقد قضى السنوات الخمس الأخيرة يقرأ شعر العصر الذهبى الأسبانى فى مدرسة صغيرة فى قرية بمقاطعة أويلا. وقد اشتهر بكونه رجلاً يقضى على المظالم فضلاً عن كونه مُنَظِّمًا فذًا للمدارس. والقضية الحرجة التى واجهها هى حل مشكلة مدرسة كان طلابها يقضون معظم النهار فى بيوت الهوى بالقرية. لقد وصل الأستاذ وجمع التلاميذ ، وألقى فيهم محاضرة عن مخاطر الأمراض التناسلية، وقد حكى لهم عن الكُتاب والفنانين الذين كانوا قد توفوا بسبب تلك الأمراض ، وقد كان هذا كافيًا لكى تعود النعاج الضالة إلى جادة الطريق(٣٢).

وبنفس الحكمة والرصانة لأغريقى قديم شرح المدرس كالديرون إيرميدا الأدب فى مدرسة الليسيه الوطنية فى ثيباكيرا ، حيث أدخل فى قلوب تلاميذه حب الأدب الكولومبى والإسبانى والعالمى. ويتذكره جارثيا ماركيز بكل الامتنان والعرفان مثلما يتذكر مدرسته فى أراكاتاكا التى علمته القراءة والكتابة وتذوق الأشعار الأولى ، وقال عنه جارثيا

ماركيز : " لقد كان رجلاً متواضعًا وحكيمًا حيث كان يأخذنا إلى متاهة الكتب الجيدة دون تفسيرات تعسفية أو مصطنعة[٣٣]. وفى بداية السنة الرابعة الثانوية وونهايتها استطاع أنْ يُقدِّم لهم هوميروس وسوفكليس ، وبيرخيليو ، ودانتى ، وشكسبير وتولستوى وفى الصف الخامس الثانوى استطاع أن يعمق معلوماتهم عن العصر الذهبى الأسبانى ، وعلى وجه الخصوص جارثيلاسو وكيبيدو ، وفى الصف السادس استطاع أنْ يُطلعهم على الأدب الكولومبى جيده وسيئه مع إصرار دائم على مؤلفى "حجر وسماء".

وهكذا كان العامان الأخيران لجابرييل فى الليسيه مثمرين فى القراءة وإعداد القصائد الشعرية ضمن نزعة جماعة "حجر وسماء". وكل ذلك كان يوقعه باسم مستعار وهو خابيير جارثيس ، وكذلك إسهاماته فى المجلة الأدبية. وبعضها مثل " لا إسبيجا" (السُنبلة) و " دراما فى ثلاثة فصول" و" موت الوردة" ، وقد كانت كلها تُعالج موضوعات فرضها المدرس كالديرون إيرميدا، والبعض الآخر كانت من إلهام الفتاة ميرسيدس ، التى كان يشتاق إليها كثيرًا ، والتى كانت تنتظره على أحر من الجمر فى سوكرى ، وكذلك من إلهام صديقتين أخريين له فى ثيباكيرا: لوليتا بوراًس وثيثيليا جونثاليث لا مانكيا. كانت ثيثيليا شقراء جذًابة ذكية وسخية ، وكانت تُضمد يدها دائمًا ، وكانت ذات إعداد أدبى جيد ، وكانت تقرأ لشعراء الموضة فى ذلك الوقت ، وبالتالى لم تكن رفيقة عاطفية فحسب لجارثيا ماركيز ، بل كانت أيضًا فتاة مثقفة استطاع أنْ يتبادل معها الحديث عن لهفته أو ولعه الأدبى. " فأغنية" و " إذا طرق بابك أحد" "الوجود الثالث للحب" ، و"قصيدة لتلميذة منعدمة الوزن"[٣٤]، ولهذه القصائد – بالفعل – نكهة لا غموض فيها لشاعر ولهان ، ولكنه مزود بالشعر والمؤلفين الذين أعجب بهم. ومع ذلك ؛ فخلافًا لما كتبه من الأشعار عندما كان طفلاً بمدرسة سان خوسيه ، فإن الشاب جابرييل فى ثيباكيرا أصبح كاتبًا ذا بال ومزودًا بالعديد من الموارد الأدبية واللغوية تسمح له – وإن كان بشكل انسجامى تنكرى – بالتعبير عن مشاعره وأحاسيسه[٣٥] .

وكانت قصيدة " أغنية" أقلها نجاحًا ، ولكنها تشرف بأنها كانت أوَّل نشر أدبى لجارثيا ماركيز :حيث نُشِرت فى ٣١ديسمبر ١٩٤٤فى الملحق الأدبى لصحيفة " الزمن" فى بوجوتا ، التى كان يُديرها الشاعر إدواردو كارَّانثا. إنَّ نشرها فى ملحق صحيفة

شهيرة طالبت بكافة الإسهامات والمقالات وقد كان ذلك بفضل اللقاء الذى جمع – فى منتصف ذلك العام – جابرييل مع كارًانثا نفسه ، وخورخى روخاس زعيمى مجموعة "حجر وسماء". وفى تلك القصيدة جابرييل نعنى (خابيير جارثيس) يرثى الموت المأساوى لصديقته لوليتا بوراًس الذى حدث منذ بضعة أشهر مضت.

على الرغم من أنَّ قصائد جابرييل كانت أفضل من قصائد مُعلمه ، فإن هذا كان يُلح عليه بأن مجاله هو النثر. لقد كان كالديرون إيرميدا يرى أنَّ غالبية قصائد تلميذه كانت تنطوى على عناصر وطبيعة روائية ، أى أنَّ قصائده كانت شعرًا يتم التعبير عنه بسهولة فى عالم الأشياء التى تحدث. كلما كتب جابرييل قصيدة كان يبحث عن معلمه ويقول له: "أستاذى مارأيك فى قصيدتى؟" وكان المدرس يمتدحها ويثنى عليها بأمانة ، ولكنه كان يكرر له دائمًا: " لا تنس أنَّ مجالك هو النثر" ، وحضَّه على كتابة الروايات ، وأن يواصل القراءة لكبار كُتَّاب النثر. وبالطبع كان جابرييل يقرأ لهم ، ولكنه كان مُصممًا على رغبته فى أنَّ يُصبح شاعرًا ، وفى اقتناعه بأنه فى قرارة نفسه يدافع ويمارس دائمًا فكرته: إنَّ الأدب هو فى المقام الأوَّل شعر". ومع ذلك فإنَّ عزم وتصميم المدرس والسلوك السئ لجابرييل – خلال العامين الأولين – سيعطيان ثمارهما سريعًا لأنَّ مُدرس الأدب كان – من قبيل الصُدفة – مسئول الانضباط بالمدرسة. وفى كل مرَّة كان جابرييل يرتكب فيها فعلة شنيعة كان المدرس يأمر بتطبيق عقوبة مثالية على التلميذ (انطوت بعضها على تهديد جادٍ بالفصل) ، وكانت تلك العقوبة تُخَفَّف بأخرى أكثر مثالية أو نموذجية ، حيث كان يفرض عليه أنَّ يكتب له حكاية أو قصة قصيرة لليوم التالى)[٣٦]. هكذا كان الأمر أو على الأقل فى هذا السياق كما كتب جابرييل جارثيا ماركيز ذات يومٍ. وفى أواخر السنة الرابعة الثانوية كتب جابرييل أوًّل قصة له: " اضطراب عقلىٌ متسلط على الذهن"[٣٧] .

كانت عبارة عن قصة لفتاة تحولت إلى فراشة كانت تطير وتطير ، وحدث لها كل شىء. ويتذكر كالديرون إيرميدا وبعض زملائه السابقين الحكاية تمامًا لأنَّ قصة جابرييل سبَّبت لهم مُتعة حقيقية. واعتبارًا من تلك اللحظة بدأ البعض يرى فى جابرييل قصاص المستقبل ذا خصائص استثنائية . وبفضل حماس المدرس فإنَّ القصة انتقلت من يدٍ إلى أخرى حتى وصلت إلى أمين الليسيه الذى قرأها بالحماس نفسه ، وقال إنها تُشبه

قصة كافكا " المسخ". ولم يكن جابرييل ولا مدرسه ولا أيٌّ من رفاقه قد سمع حديثًا عمًّا يُسمَّى بكافكا الذى لم يكن معروفًا فى كولومبيا إلا لدى قلة قليلة فقط. وقد أُخذت قصة الكاتب التشيكى إلى الفصل وتُليت بعض أجزائها. ويذكر كالديرون إيرميدا أنَّ الجميع ظلوا مندهشين من التشابه بين القصتين[٣٨]. والأمر الذى لا يمكن شرحه أنه فى تلك اللحظة لم يكن جارثيا ماركيز قد قرأ بعد قصة "المسخ" لكافكا والتى قرأها بعد ثلاثة أعوام لاحقة فى الصف الأوَّل بكلية الحقوق ؛ أى فى العام الثانى أو الثالث من مسيرته الأدبية ، ومما لا خلاف عليه هو أنَّ الجميع بالإجماع قد احتفلوا بالقصة الأولى لجارثيا ماركيز وكونه قارئًا نهمًا وشرهًا.

وكانت أهم سمات جارثيا ماركيز البارزة لسنواته فى ثيباكيرا والسنوات الأولى لمسيرته الأدبية تكمن فى ذاكرته الهائلة ، وسهولة الكتابة لديه ، وقدرة كبيرة على التقليد ، وتُراث لغوى ملحوظ كان مصدره الأساسى معجم الجد والأجداد أنفسهم. كما كانت فترة نُضج لتأمل الواقع ومقابلته بما يقرأه أو العكس ، ولكنَّ الأدب سيظل إلى الأبد تلك المادة الأكاديمية الفكرية تقريبًا التى تُؤخذ من الكتب لتُعرض كزُخرفٍ للنفس فى دردشات القهوة ، حيث إن العمل الأدبى المتأصل فى الواقع والموجه إليه لم يستيقظ فيه حتى عودته إلى قرطاجنة وبارَّانكيا بعد المعيشة فى بوجوتا.

إنَّ ولعه بالرسم الذى بدأ فى أراكاتاكا وهو فى الرابعة من عمره ظل مستمرًا فى مدرسة سان خوسيه ، وبلغ أوج ذروته – كهواية مهيمنة – فى الصفين الثالث والرابع الثانوى ، حيث بدأ يتلاشى بالقدر الذى كانت تنمو فيه الحصبة الأدبية لجارثيا ماركيز. وبما أنَّ الرسم موهبةٌ مرئية يمارسها جابرييل خلال حصص الملل والسأم ، وفى أوقات الفُسح ؛ فقد ظلت مظهرًا فنيًا خالدًا لجابرييل بين المدرسين والزملاء. ولم ينس هؤلاء براعته فى رسم سيدات عاريات بورودهنَّ وقططهنَّ وحُمُرهنَّ. وعلى الرغم من مدرس الأدب نفسه الذى كان مُقتنعًا بأن الأدب هو المجال الأمثل لتلميذه ، فإنه فى أكثر من مرَّة قد فكَّر بأن جابرييل فى الواقع سيكون مجاله الأوحد هو الرسم. وبما أنه كان يقضى الساعات تلو الساعات يرسم القطط ، والحمير، والورود؛ كنت أعتقد أنه سيكون رسَّامًا. وفى الواقع كلنا كُنا نعتقد أنه سيكون رسَّامًا لأنه كان رسَّامًا رائعًا. لقد كان بارعًا فى هذا الفن ؛ فبدون أنَّ يرفع يده كان يرسم حمارًا أو قطًا أو وردةً. وكان الشخص يظل مذهولاً وهو يتأمل كيف كان يرسم دون أنَّ يرفع يده "[٣٩].

وذات يوم كان قد رسم كاريكاتيراً للمدير أليخاندرو راموس، وهو رجلُ يخشاه الجميع بسبب قسوته ، وصرامته ، وعدم تسامحه ، والذى انتحر فى وقتٍ لاحقٍ. وقد ولَّدَ الكاريكاتير إعجابًا وسرورًا بين المدرسين ، والتلاميذ، وقد طلب كالديرون إيرميدا الكاريكاتير لكى يُريه لصاحبه. وقد توسل جابرييل كثيرًا متضرعًا ، وقائلاً لمدرسه "كيف تجرؤ يا أستاذى على ذلك؟ إذا فعلته فسيطردونى من المدرسة"[٤٠]. وقد طمأنه المدرس بأن ذلك لن يحدث ، ولن يُطرد ، واطلع المدير على الكاريكاتير. وعلى عكس ما كان يتوقعه الجميع ؛ لقد تحمَّس المدير كثيرًا لذلك ، وأبلغ جابرييل أنه إذا كان يريد أنَّ يكون رسَّامًا فهو على استعداد أن يحصل له على منحة لدراسة الرسم فى مدرسة الفنون الجميلة فى بوجوتا. وبعد ذلك بعامين سيترك جابرييل دليلاً آخر على موهبته العبقرية كرسَّامٍ عندما كوَّن فُسيفساء من الكاريكاتيرات تَضمُّ مدرسيه الثلاثة عشر إلى جانب أربعة وعشرين من زملائه فى التخرج تم الاحتفاظ بها فى مدرسة الليسيه الوطنية فى ثيباكيرا إلى جوار الفُسيفساء الحكومية لدفعة الثانوية عام ١٩٤٦ ، حتى استحوذ الولع على جابيتو بذلك.

وبالتعبير المتنوع لذكائه وموهبته ، فإنَّ طالب الثانوية ذا التسعة عشر ربيعًا قد أدى إلى بثِّ الغموض لدى جميع الناس بشأن موهبته الحقيقية: فلم يكن أحدٌ يعلم عن يقين أنَّ قارئ أراكاتاكا الشره سيكون رسَّامًا أو صحفيًا أو شاعرًا أو قصاصًا. ومع ذلك فإن مدرسه كالديرون إيرميدا أكبر مشجعيه حينذاك قال له معبرًا عن رغبته ، أكثر من كون ذلك تشخيصًا أو تنبؤًا: أنت شاعر ، ولكنك لابد أنَّ تستمر فى كتابة نثرك ، وتواصل قراءة المزيد من القصص ، والروايات لكى تكون القصاص الأوَّل فى كولومبيا[٤١].

وبعد عشر سنوات ، عندما نشر قصته الأولى قام الكاتب بتكريم خاص لمدرسه العالم السخى جزاء ما أرشده فى متاهة الكتب الجيدة محددًا بذلك مصيره الأدبى.

الفصل السادس

- طالب الحقوق
- أثينا الأمريكية اللاتينية
- رحالةٌ بين البارات والمقاهى
- الأصدقاء الكاتشكيون من الهنود الحُمر
- الحياة الجامعية
- القضية الخاسرة
- ترام الأشعار
- ليلةٌ ساهرةٌ مع كافكا
- الاستسلام الثالث
- نبوءة أوليس
- على نهج شهرزاد ، وكافكا ، وترانكلينا

أُسِّسَت المدينة الجامعية في بوجوتا في عهد الحكومة الأولى لألفونسو لوبيث بوماخيرو في منتصف الثلاثينيات ، وكانت في ذلك الوقت بضواحي المدينة. وفي المساحات الخالية بين مباني الكليات ، تلك المساحات الشاسعة من السافانا البوجوتية التي كانت لا تزال جميلة ، وفسيحة ، وتكثر بها أشجار الكافور والصنوبر حيث كان يتجول جابرييل ويتبادل الأشعار مع رفاقه المحبين للشعر الغنائي خلال أربعة عشر شهرًا درس فيها الحقوق بالجامعة الوطنية.

وعند العودة من سوكرى ، حيث كان يقضي الإجازة مع والديه التحق في فبراير ١٩٤٧[1] بالصف الأوَّل بكلية الحقوق ، ولم يكن ذلك لحبه في دراسة القانون ؛ بل لأنَّ دراسة القانون كانت في ذلك الحين الأقرب إلى اهتماماته الإنسانية ، كذلك لأنَّ الجدول الصباحي في الجامعة كان يسمح له أنْ يكتسب قليلًا من المال بالعمل في المساء بصفة متقطعة. ولكن ربما كان لديه سببٌ قديمٌ لهذا الاختيار ، وهو أنه عندما كان جابرييل طفلًا رأى أنَّ المحامين هم الذين كانوا يفوزون بتصفيق الجمهور في الأفلام السينمائية ، وهم يُدافعون عن قضايا خاسرة. ومن ناحية أخرى ؛ فإنَّ الوالد كان توَّاقًا لكي يدرس نجله الأكبر في الجامعة حيث إنَّ الفقر حرمه من ذلك ، وكان يتمنى أنْ يتخرج جابرييل صيدلانيًا لكي يحل مكانه في الصيدلية. ومع ذلك فإنَّ الأمل المكنون لدى الوالد كان أن يرى نجله قسيسًا ، ليس بسبب الوازع والاقتناع الديني بل للحاجة المادية: كان جابرييل إيلخيو يُفكر في أنَّ أوقات العسر العصيبة ستتحول إلى يُسرٍ تامٍ طالما أنَّ هناك قسيسًا بالأسرة[2].

ولكن سُرعان ما تغير شاب أراكاتاكا الخجول والحزين ، وبدأ يستبدل بالقانون الإلهي الأشعار العالمية والقشتالية ، التي استمر يطلع عليها في بارَّانكيا وثيباكيرا ، وظلت تُمثل شغفه المهيمن ، وخصوصًا أنَّ حصص الإحصاء والسكان كانت تُصيبه بالملل إلى أقصى حدٍ[3] ، وكذلك القانون الدستوري – حتى إنه رسب ذلك العام– وكان يقوم بتدريس هذه المادة صديق المستقبل ورئيس المستقبل أيضًا ألفونسو لوبيث ميتشلسن .

وهكذ ؛ فإنَّ معظم الأربعة عشر شهراً التى قضاها بالجامعة تغيب فيها عن محاضراته ، متنقلاً ما بين كافتيريات ومروج الكلية تحت ظلال أشجار الكافور والصنوبر أو فى المقاهى الصاخبة فى شارع ٧ ، حيث حاول الحصول على موعد ولو عابر سريع مع جرسونة المقهى ، وحيث كان دائمًا يتبادل الأشعار والأشعار مع زملائه الذين أصابتهم مثله الغزالة الشعرية، وهم كاميلو تورِّيس ، وجونثالو ماياريينو ، ولويس بيار بوردا الذين كوَّن معهم رباعيًا شعريًا خاصًا.

وكانت بوجوتا حينذاك مدينة تعدادها سبعمائة ألف نسمة – قُبيل اغتيال الزعيم الشعبى خورخى أليسير جايتان- كانت مدينة هادئة مثل الهضبة الأنديزية بروح قرية قشتالية كبيرة لا تزال تحتفظ بطابعها الاستيطانى ، ولكن سكانها سمحوا لأنفسهم بمفارقتها والعيش بأذواق وعادات إنجليزية ، العيش دائمًا متطلعين إلى لندن. وكان أحد المسئولين عن هذا الاختلاط الثقافى هو مؤسس المدرسة النفعية جيريمى بنتهام الذى أثرت نظرياته الاقتصادية والسياسية فى القانون الكولومبى فى القرن التاسع عشر. وجديرٌ بالذكر أنَّه فى أوج عظمة النزعة النفعية ظهرت فى كولومبيا طبقة " الكتشاكوس" التى تضم محامين وتُجار ، وخُطباء ليبراليين ، وقد أطلق عليها هذا الاسم نظراً لارتدائهم الزى على الطريقة الإنجليزية[٤]، وقد تحوَّلت هذه الشهرة بمرور الزمن إلى لقب يُطلق على أهل بوجوتا ، وبصفة عامة على كافة سكان الأنديز فى كولومبيا.

ولكن هذا كان أحد مظاهر الانفصام الثقافى فى جميع أنحاء البلاد ، حيث إنه على الصعيدين اللغوى ، والأدبى كان الشعب – بالطبع- أكثر قُربًا من مدريد مقارنة بلندن؛ فكولومبيا ، وبوجوتا على وجه الخصوص كانت تفخر وتزهو دائمًا بأنها تتحدث الأسبانية الأصلية أفضل من بقية بُلدان أمريكا اللاتينية ، وقد حافظت على ثقافة المقاهى ، والتيارات الأدبية ذات الطابع المدريدى. ولم يكن الأمر أقل من ذلك ؛ لقد أسس جونثالو خيمينيث دى كيسادا مدينة بوجوتا ، وهو أحد الغُزاة الأسبان المثقفين القلائل فى الأمريكتين ، واستناداً لما قاله المؤرخ خيرمان أرسينييجاس ؛ فقد بدأت معه الحياة الأدبية بالمدينة فى ٦ أغسطس١٥٣٨[٥] عندما أعلن البدء فى تشييد المدينة كما لو كان يُمثِّل مشهداً مسبقًا من دون كيخوته. وعندما تمَّ اختيار المكان الذى ستُقام عليه المدينة نزل الفاتح الغرناطى من فوق صَهوة جواده ، وانتزع قليلاً من العُشب ،

وقد سار بعظمة كيخوتية (مزيج من الشجاعة والزهو المقترن بالطيش) وأعلن تأسيس مدينة سانتا فيه (والتى سرعان ما أُطلق عليها سانتا فيه دى باكاتا باسم امبراطوره كارلوس الخامس) ، ثم امتطى صَهوة جواده مرَّة أخرى وأخرج سيفه من غمده مُتحدياً كل منْ يعارض خططه التأسيسية : بالضبط مثلما فعل العبقرى النبيل دون كيخوته دى لا مانشا.

ومنذ ذلك الحين والحياة الأدبية تعيش موازية للحياة اليومية والإدارية بالمدينة، وقد فرضت الشكليات نفسها على الواقع الحى للدولة. ولعزلتها عن باقى البلاد ؛ فهى تقع على ارتفاع ألفين وستمائة متر فوق مستوى البحر فى سلسلة المرتفعات الشرقية لجبال الأنديز ، وتكثُر بها الكنائس ، والأديرة ، ومدارسها الدينية. إنَّ بوجوتا التنكرية عانت من المفارقة الأخرى - حتى نهاية حقبة الأربعينيات - لكونها أقرب إلى الله والأدب أكثر منها إلى تاريخ ومصير الدولة. وقد بلغ الأمر أنَّه خلال الخمسين عامًا الماضية ساد العُرف بأنه يتحتم على منْ يُريد أنَّ يتولى منصب رئيس الجمهورية أنَّ يكون كاتبًا أو شاعرًا أو نحويًا. وبهذا الشكل؛ فإنَّه فى جمهورية الآداب والسياسة الاجتماعية أصبحت المقاهى الأدبية فى بوجوتا - منذ الحُقب الأخيرة فى القرن الماضى- أبراجًا عاجية حيث يتصافح فيها السياسيون ، والكُتاب ، والطُلاب ، وكانوا يختبرون قُدراتهم وهم يتناولون القهوة دون أنَّ يكترثوا بمنْ الذى كان يدعوهم ، ومنْ الذى كان يدفع الحساب. ولكن كما كان متوقعاً فإنَّ معظم الأدب المنتج فى ذلك الوقت كان يقوم على الحنين والاشتياق والأساليب القشتالية ، بعيداً كل البُعد عن الواقع الفعلى للبلاد. ومع ذلك؛ فقد كانت مدينة بوجوتا الوحيدة بين مُدن كولومبيا التى تتمتع حقيقة بالحياة الثقافية القوية والنشيطة. ولذلك؛ فقد أطلق عليها الأرجنتينى ميجيل كانيه الوصف الطنَّان: " أثينا أمريكا اللاتينية" ، بينما نعتها العظيم روبين داريو بأنَّها هى التى وجهّت كولومبيا بأسرها إلى " بؤرة العقول السامية". ولم يألف البوجوتيون فقط هذه الأوصاف المُبالغ فيها؛ بل استخدموها ، وعملوا على نشرها حتى الاستنزاف . وذلك لأنَّ مكتباتها العامة والخاصة ، ومسارحها، ومطبوعاتها الصحفية ، ومقاهيها الأدبية المتحمسة فى شارع٧ لم تُكذِّب شيئًا من تلك الأوصاف. وقد كان هذا أكبر حافز- إلى جانب الأصدقاء الكتشاكوس من المحامين ، والخُطباء الليبراليين والتُجار- وجده جارثيا ماركيز فى بوجوتا خلال الأربعينيات.

وكما رأينا فإنَّ أثينا أمريكا اللاتينية كانت بالنسبة لجارثيا ماركيز تعنى" التوجس والحزن" منذ ذلك المساء المشئوم فى يناير ١٩٤٣ ، عندما وطأت قدماه رصيف محطة السافانا وهو لا يزال فى السادسة عشرة من عمره ، ذلك المساء الذى انفجر فيه باكيًا أمام مبنى المحافظة فى وسط شارع خيمينث دى كيسادا. ولكن تصريحاته المتكررة التى لم تكن مبالغًا فيها قد فُسرت حرفيًا من جانب بعض الدارسين الذين أغفلوا الأهمية الإشعاعية التى كانت لبوجوتا ، وبعض أهاليها فى حياة وتكوين الكاتب لأنَّ الحقيقة التى لا مِراء فيها هى أنه لولا لقاء وتجدد اللقاء لجارثيا ماركيز مع مدينة الكتشاكوس ، والتأثير الحاسم لبعض شخصياتها البارزة ؛ فمن المحتمل أنه لولا المدينة وشخصياتها لما كان جارثيا ماركيز الكاتب المرموق الذى نعرفه خاصة أنَّه حينما يعتقد بأنَّ المدينة بالنسبة له كانت تعنى " التوجُس والحُزن" ، فقد منحها بذلك شيئًا جوهريًا: التعبير عن وجهة نظر. ولكن أهم شىءٍ لاحقٍ هو أصدقاؤه الكتشاكوس ، والجو الأدبى لمقاهى المدينة ، وإن كان فى سنوات لاحقة بعد عودته إلى الكاريبى قد اكتشف أنَّ بوجوتا كانت أكثر فكرية وحُرية منها حيوية ونشاطًا ، ولذلك فهى بريئة مما انتابه من أحاسيس ومخاوف وتوجسات.

وهذا الجو الذى كانت تتسم به مدينة بوجوتا الدينية الشهيرة وتُراماتها البطيئة ، وأمسياتها الرمادية لكثرة الدُّخان فطالبٌ يكره الجامعة مثل جارثيا ماركيز كان يقضى اليوم فى شارع ٧ ما بين ميدان بوليفار ، وشارع ٢٤ يدخل بارًا ويخرج من آخر باحثًا عن كُتَّاب ، وأصدقاء أو عن رُكنٍ ليواصل قراءة الكتاب الذى بين يديه. وبالفعل ؛ فقد كان جابرييل يُفضل كل هذا على الجامعة. وفضلًا عن ذلك ؛ فقد كان أمام جارثيا ماركيز سلسلة من المقاهى لكى يختار أفضلها: الاستورياس والمولينو والجاتو نجرو (القط الأسود)، والأوتوماتيكو ، والكولومبيا ، والرين حيث كان بوسعه لقاء أصدقائه مثل قس المستقبل المحارب كاميلو توريِّس جونثالو ماياريِنو ، ولويس بيار بوردا ، وبيلينيو أبوليو ميندوثا أو إدواردو سانتا ، وآخرين للتحدث معهم عن السياسة لقتل الوقت الرتيب البطئ بمنطقة السافانا. وكانت بعض هذه المقاهى تعد موائد خاصة بالطلاب الذين كانوا يلتفون حول شخصية مهمة سياسية أو أدبية ، أو حتى لمجرد الجلوس للدردشة فيما بينهم وإنجاز مهامهم الجامعية. وكان هؤلاء يعرفون أنهم بخمسة

سنتى من البيزو يستطيعون الحصول على منضدة ، وقهوة ساخنة، وإلى جانب ذلك جلوسهم بالقُرب من الشعُراء مثل ليون دى جرييف ، وخورخى ثالاميا ، وإدواردو كارانثا ، وخورخى روخاس أو رفائيل مايا[٦]. وكان جابرييل دائمًا خجولًا لكى يقترب من الأسماء الكبيرة ، ومع ذلك فقد كوَّن صداقة كبيرة مع الشعُراء الشبُان مثل دانييل أرانجو ، وأندريس أولجوين اللذين أطلق عليهما إدواردو كارانثا الجيل الشاب ، وكان جابرييل قد قرأ أشعارهما فى ثيباكيرا ؛ فقد كانت صديقته آنذاك ثيثليا لا مانكيتا (مقطوعة أو جريحة اليد) قارئة لأرانجو.

وفى ظلال المقاهى ، وبالاشتراك مع أصدقائه ، فإن القراءات البوجوتية لجابرييل قد أدت إلى إثراء قراءاته فى ثيباكيرا. وظل شعر العصر الذهبى العمود الفقرى لقراءاته حتى عثر على كافكا فى أغسطس عام ١٩٤٧ فرومانس جارثيلاسو ، وكيبيدو ، وجونجورا ، ولوبى دى بيجا ، وسان خوان دى لا كروث ، وفراى لويس دى ليون ، وكذلك بعض شعُراء جيلى ٩٨، ٢٧ تعرَّف عليهم جيداً الكاتب المبتدئ حيث ظلَّ يقرأ لهم طيلة خمس سنوات. ومن بين الشعُراء الأمريكيين اللاتينيين الكُبار الذين قرأ لهم روبين داريو ، وبابلو نيرودا ،والكولومبيين بورفيريو باربا خاكوب ، وليون دى جرييف فضلًا عن شعُراء جماعة " حجرٌ وسماء". ولم يكتف فقط بقراءة الأشعار تلو الأشعار ؛ بل كان يقرض الشعر أيضًا كما فى باراًنكيا وثيباكيرا. ومنهما قصيدتان" الجغرافياالزُّرْقاء" ، و" قصيدة من خلال قوقعة" قام بنشرها لويس بيبار بوردا، وكاميلو توريِّس فى " لا بيدا أونيبيرسيتاريا" (الحياة الجامعية) وهو الملحق الطُلابى الذى كانا يديرانه ، ويُشرفان عليه فى صحيفة " لا راثون" (العقل)[٧] حتى هجر جارثيا ماركيز دراسة الحقوق، والتحق بالمعهد الإكليركى الكبير فى بوجوتا.

وكان شاعر أراكاتاكا الشاب قد أطلق شاربه ، ودخن بشراهة وارتدى سترات ذات لياقة مُغلقة. وكان من الشائع أنَّ تقاليد بوجوتا ستفرض عليه استخدام رباط عُنقٍ تمشيًا مع الحُللِ (الزِّى) الكاريبى. ويتذكر بيلنيو أبوليو ميندوثا الذى تعرَّف على جابرييل فى تلك الفترة ، وأصبح رفيقه فى مغامراته الصحفية ، وأصبح من بين أصدقائه الكبار يتذكره على النحو التالى: "كان شابًا ساحليًا يرتدى زيًا مخالفًا لزى بوجوتا، حيث كان يرتدى ملابسه على الطريقة الكوبية ، كما كان يرتدى رباط عُنق

وقميصًا. كان نحيلاً وشاحبًا للغاية ونشيطًا وحزينًا ، وكان سريعًا مثل لاعب الكرة الأمريكية (بيسبول) أو مطرب رقصات الرُّمبا"[٨]. وسُرعان ما اقتحم كالبرق المقاهى أو بعض الحفلات الاقتصادية مخالفًا بزيه الأبيض ورباط عُنقه ، وجواربه الملونة الزاهية ، وجارحًا الإحساس الإنجليزى لأهل بوجوتا الذين اعتادوا ارتداء حُلل رمادية داكنة حزينة.

ويرى بعض رفاقه بالجامعة أنَّ جابرييل مواطن كاتاكا مثلما يقول بلينيو ميندوثا كان " قضية خاسرة": فهو عندما كان يذهب إلى المحاضرات كان يذهب متأخرًا لأنَّه ربَّما يكون قد سكِرَ فى الليلة السابقة أو قضى الليلة فى بيت من بيوت الهوى. وكان يبرر عدم حبه لحضور المحاضرات بأنه يُعانى من السُّل ، وأنه يعانى من مرض الزهرى ، و أنَّه مريضٌ بالالتهاب الرئوى ؛ وبينما البعض كان يصدق مرضه المصطنع ؛ كان البعض الآخر يعتبرونه شخصًا يتلذذ بالألم[٩]. لقد كان شخصًا ضعيف النفس منهارًا ، ولذلك لم يتوقع له أحدُ مستقبلاً واعدًا إلا قِلة قليلة على الرغم من أنَّه كان بين أصدقائه أكبر المولعين بجنوات الأدب.

إنَّ الانطباع المأخوذ عن جابرييل لم يكن شيئًا آخر عما ذُكِرَ؛ فقد كان يعيش بعيدًا عن أسرته وموطنه. كان يُقيم فى مدينة تصيبه بالحزن حتى نخاعه العظمى. كان يعيش بين أناس لم يشعر تجاههم بالارتياح . كان يدرس تخصصًا غريبًا عليه ، وكان أحد الطُلاب الفقراء جدًا بالمدينة الأكثر تفرنجًا ، وتأنقًا فى البلاد. وقد أقام فى لوكاندة للطلاب الساحليين فى شارع فلورين القديم ، وحاليًا شارع ٨ حيث كان يشارك صديقه دومينجو مانويل بيجا غُرفة متواضعة ، وعلى الرغم من أنَّ دخله كان متواضعًا ، فقد كان يدفع أكثر من المقيمين فى نفس اللوكاندة لكى يقدم له أصحابها بيضة مع الإفطار ؛ فقد كان الوحيد الذى يتناول بيضًا على الإفطار بين جميع نُزلاء اللوكاندة[١٠] .

وخلال السنوات الأربع التى قضاها فى ثيباكيرا ، والعامين الأوَّلين فى بوجوتا ظلَّ جابرييل يُعانى من فيروس الوحدة ، وكان تعبيره الملحوظ هو الإحساس بأنَّ وجوده لا قيمة له، وأنه كان أجنبيًا فى جميع الأنحاء باستثناء الكاريبى ، وعلى وجه الخصوص فى قرطاجنة و بارَّانكيا. ومن المحتمل أنَّ الإحساس بالغُربة كان قد تولَّد لديه قبل ذلك

بسنوات عديدة: فمنذ كان فى العاشرة من عمره ترك أراكاتاكا ومنزل أجداده. ومما هو صحيح يكمن فى أنَّه فى ثيباكيرا وبوجوتا طالبٌ فقيرٌ جدًا، وقد نَمَتْ لديه عُقدة أخرى، وستظل تلازمه طوال حياته، وتكمن فى إحساسه الدائم بأنه فى حاجة إلى آخر خمسة سنتى، وكان يقول: إذا أردت الذهاب إلى السينما لم أستطع لأنه دائمًا كان يحتاج آخر خمسة سنتى. وكانت السينما تساوى فى ذلك الوقت خمسة وثلاثين سنتيًا، ولم يكن لديه سوى ثلاثين سنتيًا. وإذا أردت الذهاب إلى حلبة مصارعة الثيران، وكانت تساوى التذكرة بيزو وعشرين سنتيًا، وكان لديه فقط سوى بيزو وخمسة عشر سنتيًا. ودائمًا كان لدى ذلك الانطباع[١١] حتى لحظات مجده وشهرته وثرائه.

وعندما كان يجد نفسه وحيدًا، ليس معه خطيبته، ولا أصدقاؤه الغنائيون الذين اعتادوا الذهاب إلى خلواتهم فى نهايات الأسبوع، كان يبتكر أيام السبت حفلات رقص صاخبة، مثلما كان يحدث فى ثيباكيرا، مع زملائه خوسيه بالينثيا صديقه الكبير خلال تلك السنوات، ودومينجو مانويل بيجا، وخورخى ألبارو إسبينوزا، وخاكوبو بيريث إستـرادا، ولويس كوريًا جارثيا، وكايتانو جنتل شيمنتى والذى سيمثله سانتياجو نصَّار فى المستقبل فى قصة جارثيا ماركيز: "نبأ موت مُعْلَنْ" وهكذا مع شاربى الخمر الساحليين الكثيرين، والذى من المحتم أنَّ تتسلل لهم الحصبة الأدبية. لقد حَلَّ جابرييل مشكلة الوحدة فى أيَّام السبت، ولكن المشكلة تعود مرَّة أخرى أيَّام الأحد؛ فقد كانت أيامًا طويلة وحيدة كانت أشبه بسور عالٍ لابد من اجتيازه للوصول إلى الأسبوع التالى. ونحن نعرف أنَّ جارثيا ماركيز كان مستاءً من ذلك اليوم، ولذلك فقد لجأ حينئذٍ إلى اختراع حِيلة ركوب الترام ذهابًا وإيابًا عدة مرَّات، وبالتالى كان جابرييل بخمسة سنتى يدور فى حلقات مُفرَّغة بالمدينة من الجنوب إلى الشمال، ومن الشمال إلى الجنوب: من ميدان بوليفار إلى شارع شيلى، ومن هذا إلى ذلك يقرأ خلالها قصائد وقصائد. إنَّ زرقة زجاج نوافذ الترام لم تُخفف من الجو العام للمدينة الجو المطير، والبارد والملبد بالغيوم خارج الترام مما كان يُضفى عليها جو الأشياء القريبة البعيدة مثل الكوابيس، ولكن وبينما كان الترام يطوف بشوارع المدينة كان جابرييل ينقذ نفسه من ملل وسأم الأحد فى بوجوتا: "كنت أقرأ أشعارًا وأشعارًا "بمعدل ديوان لكل مربع سكنى بالمدينة"[١٢] ودون الاكتراث بأنه مرَّ على مبنى "الزمن"

حيث كان يرغب دائمًا تذكر مبنى الحكومة حيث بكى من الحزن منذ أربع سنوات مضت ، وكذلك مبنى فندق تيكينداما الذى لم يستطع حتى مجرد الإطلال عليه ، ولا حتى حلبة مصارعة الثيران التى كان دائمًا ينقصه خمسة سنتى لكى يدخلها. وفى تمام الرابعة مساءً كان ينزل فى شارع شيلى حيث كان ينتظره صديقه جونثالو مايارينو ومعه كتاب شعرى تحت إبطه ليصطحبه إلى منزله الواسع الهادئ بين أشجار الكافور فى الشمال لكى يستمر فى قراءة الشعر إلى جانب تناوله وجبة خفيفة كاكاو ، وخبز وجبن: الوجبات الضرورية لأهالى بوجوتا.

ومع أوّل أضواء الليل كان جابرييل يعود إلى مقاهى شارع ٧ بحثًا عن شخص يتعطّف عليه ويتحدث معه عن الأشعار ، والأشعار التى انتهى من قراءتها اليوم. وأحيانًا كان يجد شخصًا دائمًا ما يكون رجلًا ، "وكنا نظل حتى بعد منتصف الليل نتناول القهوة ، وندخن أعقاب السجائر التى كنا قد دخناها من قبل نتحدث عن الأشعار والأشعار ، بينما بقية العالم أو الإنسانية جمعاء تبث الحب"(١٣).

وذات ليلة من ليالى الترام رأى جابرييل رؤية أسطورية ، ولا يعرف عما إذا كان ذلك يرجع لوحدته أم لتشبعه من الأشعار ، أو لكليهما ، وما هو أكيدٌ أنَّه بعد ذلك بأربعة وثلاثين عامًا سيحكيها بثبات على لسان جدته ترانكلينا ، وعمته فرانثيسكا ثيمودوسيا بنفس ثبات الجأش ، ويؤكد أنَّه رأى وهو لا يزال طفلًا أرواحًا ، وأنَّه التقى بالميت الذى كان يعيش على الناصية المجاورة لمنزل أجداده. وبالنسبة له لم يكن لديه أدنى شك لما رآه فى الترام: كان حيوانًا حقيقيًا بشحمه ولحمه (حيوان أشبه بآلهة الحقول عند الرومان) كان يرتدى طبقًا لموضة العصر كمستشار عائد من إحدى الجنازات ، ولكن قرونه كعجل ، ولحيته كتيس ، وأظلاف مُعتنى بها تمامًا تحت السروال الخيالى(١٤). وقد اتصل بأصدقائه فى تلك الليلة نفسها لكى يحكى لهم ما رآه فى الترام ، ولكنه لم يجد جونثالو مايارينو ، ولا ألبارو موتيس الذى سيتعرف عليه بعد ذلك بعامين. حينئذٍ ذهب إلى اللوكاندة القديمة المتواضعة فى شارع فلوريان ، وكتب قصته الثانية " قصة الحيوان فى الترام" وأرسلها إلى الملحق الأدبى لجريدة " الزمن" الذى نشر له منذ ثلاث سنوات قصيدةً باسم خابيير جارثيس. لم ينشروا تلك القصة ، ولم يعطوه أى رد ، وستلتهم النيران أصل هذه القصة إلى جانب بقية أمتعته بعد ذلك بعامٍ واحدٍ

عندما شبَّ حريقٌ فى اللوكاندة إثر أعمال العُنف التى تولدَّت عن اغتيال الزعيم الليبرالى خورخى أليسير جايتان.

ولكى يرى قصته الأولى منشورة تحتم عليه الانتظار بضعة أشهر حتى يلتقى بكائن خرافى آخر عند أكبر كاتب روائى فى القرن العشرين: فرانز كافكا. إنَّ هذا اللقاء ترك جابرييل جارثيا ماركيز يعانى من الدَّوار التام ، وسيوجه مصيره الأدبى ، وسيحدد السلوك المستقبلى لخياله.

وقد حدث ذات ليلة فى اللوكاندة أن كان خورخى ألبارو إسبينوزا وهو مواطنٌ ساحلى يعيش فى سينثى ، وسيصبح فيما بعد المستشار الاقتصادى لشركات كُبرى ، وكان قارئًا نهمًا ، وعنده مكتبةٌ متكاملةٌ . حدث ذات مساء أنَّ أعار لجابرييل – مثلما فعل من قبل– كتاب" المسخ" وأوصاه بقراءته ، وكان جارثيا ماركيز قد سمع بعض أجزاء هذا الكتاب قبل ذلك بثلاث سنوات فى السنة الرابعة الثانوية فى حصة الأدب لأن نص كافكا طُلِب بسبب التشابه بينه وبين أول حكاية كتبها فتى أراكاتاكا "الاضطراب العقلى المتسلط" . وصل جابرييل حينئذٍ إلى لوكاندة الساحليين ذلك المساء فى منتصف أغسطسْ ١٩٤٧ ، وصعد السلم حتى الطابق الثانى ، ودخل فى الغُرفة التى كان يقتسمها مع مواطنه دومينجو مانويل بيجا ، حيث خلع سترته ونعليه واستراح فى سريره، وعندما فتح الكتاب ذا الغلاف الوردى رأى أنه تُرجِمَ بواسطة خورخى لويس بورخيس الذى لم يكن يعرف عنه شيئًا حتى تلك اللحظة ، وبدأ يقرأ : " وعند استيقاظ جريجوريو سامسا ذات صباح بعد حلم مزعج ، وجد نفسه وقد تحول إلى حشرة ضخمة. وقد وُجِدَ مضطجعًا على ظهره الصلب ، وعندما رفع رأسه قليلاً رأى صورة محدبة لبطنه المظلمة.." أغلق جابرييل الكتاب متأثرًا ، وأطلق صيحة إعجاب: ياللهول!!، وتذكَّر فى الحال ، وقال:" لقد كانت جدتى تتحدث بهذه الطريقة"!. لقد قضى ساهرًا طوال الليلة تقريبًا ، وعاد يُجرِّب نفس الإعجاب الذى أحدثته فيه حكايات أو روايات ذلك الجزء غير المغلف من كتاب" ألف ليلة وليلة" ، والحكايات الفنتازية التى كانت تحكيها له جدته ترانكلينا ، التى تُوفيت فى سوكرى منذ أربعة أشهر ضريرة ، ومجنونة حيث كانت تخلط بين أسماء موتاها المحبوبين ، وأبيات شعرية متناثرة لسيبيرو كتالينا وكاندلاريو أوبيسو[١٥]، وكان أول تأمُل لجابرييل على الفور يتمثل فى اعتقاد

راسخ وضرورة تلقائية هو قوله" حينئذٍ فكرت: يمكن فعْل ذلك فى الأدب إنَّ ذلك يهمنى ، إنَّ هذا سأكون أنا لأننى كنت أعتقد أنَّ مثل هذه الأشياء لا يمكن فعلها فى الأدب ، وكنت أعتقد أنَّ الأدب شيءٌ آخر، وقلت لنفسى : إذا كان بالإمكان إخراج ساحرٍ من زجاجة كما فى ألف ليلة وليلة ، وإذا كان بالإمكان عمل ما فعله كافكا إذن فهذا ممكنُ فهناك خطٌ آخرٌ ، وهناك قناةٌ أخرى لكتابة الأدب"

واعتباراً من تلك اللحظة التى كانت من أبرز لحظات حياته قرَّر أنَّ يكون قصاصاً ، قصاصًا كبيرًا. قرَّر ذلك مثلما كان قد نصحه منذ بضع سنوات مُدرسه للأدب بالثانوية بقراءة كافة القصص الكبيرة ، وأفضل الروايات التى كُتبت فى تاريخ الإنسانية حتى ذلك الحين بدءًا من الإنجيل. إنَّ ولعه بالشعر حينذاك تحوَّل إلى هواية فريدة بالقصة: لا ثاريو دى تورميس ، والقوادة ثليستينا، وسربانتس ، وكافكا ، وديستوفسكى ، وتولستوى ، وجالدوس ، وديكنز ، وفلاوبرت ، وستندال ، وبلزاك ، وزولا ، وفيكتور هوجو وتوماس مان.

ولكنه لم يبدأ فى قراءة كل شيءٍ فقط ؛ بل جلس فى اليوم التالى لكى يكتب حكايته الثالثة" الاستسلام الثالث" (وهى فى الواقع أوَّل حكاية له) وفقًا للإشعاعات التى وجدها فى كافكا. لقد كتبها كما كان يكتب كافة قصصه وحكاياته: أى ممارسًا هواياته فى إزعاج أصدقائه. ويذكر جونثالو مايارينو أنَّ جارثيا ماركيز تفاعل مع الموضوع ، وتحدَّث عنه فى الوقت الذى كان يكتب فيه ويصحح ما كتبه بهمة ونشاط ليس فقط باحثًا عن الكلمة الملائمة ؛ بل أيضًا عن التوازُن. وهكذا كان يكتب حكايته الأولى. وعندما قضى عدة أيام فى كتابتها حدث شئ عارض جعله يسرع فى كتابتها حيث قرأ فى العمود اليومى " المدينة والعالم" للكاتب إدوار ثلاميا بوردا (أوليس) الذى تنشره صحيفة " المشاهد" ملحوظة للرد على الكاتب أرتورو كوريًا الذى ما لبث أن أرسل له رسالة اشتكى له فيها من أنَّ الملحق الأدبى الذى يُشرف عليه بعنوان " نهاية الأسبوع" لم ينشر سوى مقالات ، وحكايات لمؤلفين أجانب ، على الرغم من أنَّ فلسفة إصداره كانت تنص على إعطاء الأولوية لخدمة الكُتاب الكولومبيين الجُدد" وقد ردَّ ثلاميا بوردا على القارئ فى عموده أنه على الرغم من عدم وجود إنتاجُ وطنى أدبى غزير بين الشباب ؛ ففى الأيَّام القادمة سينشر إسهامات كُتَّاب محدودى الشُهرة ، وقد ذكر من

بين هؤلاء ألبارو موتيس ، وأنَّ صفحات الملحق ستفضل فى المقام الأوَّل نشر إسهامات الكُتاب الكولومبيين ، واختتم كلامه بقوله: " وآمل توَّاقًا إلى أنَّ يُرسل إلىَّ الشُعراء الجُدد ، والكُتاب ، المغمورين والمهَّمشين لعدم وجود نشر ملائم ولائق لكتاباتهم[١٦] .

وعندما قرأ جابرييل ذلك ذات يوم جمعة فى المساء وجد أوَّل فرصة كبيرة فى حياته لأنَّ الصحيفة الأخرى بالعاصمة " الزمن" كانت صعبة بالنسبة للشباب المبتدئ من أمثاله (وخير دليلٌ على ذلك كان الصمت الذى اكتنف بضعة أشهر حكايته التعيسة "حيوان فى الترام" ، لذلك جلس جارثيا ماركيز حتى أنهى حكايته الجديدة ، التى كتبها بإلهام من كافكا: " الاستسلام الثالث"[١٧]. وفى يوم الإثنين التالى وضعها فى ظرفٍ وأرسله إلى إدواردو ثلاميا بوردا فى صحيفة " المشاهد".

وكان جابرييل متأكدًا من أنَّ ثلاميا بوردا سينشرها له بعد شهر أو شهرين لأنَّ حكايته كانت ذات مذاق كافكوى ، وقد أسهمت بطريقة مختلفة للتخيل على الساحة الأدبية الوطنية. ولكن حدثت له أول وأكبر مفاجأة فى حياته عندما دخل المقهى يوم سبتٍ بعد إرسالها بخمسة عشر يومًا رأى شخصًا يقرأ حكايته التى غطت ستة أعمدة من ملحق الاسبكتادور (المشاهد). وكان أوَّل رد فعلٍ منطقى له هو الذهاب لشراء الصحيفة ، ولكن كانت هناك مشكلة كان ينقصه كما هى العادة دائمًا خمسة سنتى فعاد إلى لوكاندته فى شارع فلوريان القديم ، وحكى ذلك لصديقٍ له ، وخرج الإثنان سويًا إلى الشارع واشتريا الصحيفة[١٨]، وبالفعل: ففى الصفحة الثامنة من المُلحق " نهاية الأسبوع" لصحيفة الاسبكتادور ليوم السبت ١٣ سبتمبر١٩٤٧كانت أوَّل حكاية منشورة لجابرييل جارثيا ماركيز مع رسمٍ للرسَّام إنريكى جراو. لم تكن أوَّل حكاية تُنشر له ، ولكنها كانت أوَّل حكاية فى وسيلة إعلام مهمة على الصعيد الوطنى ، والتى بها دخل جارثيا ماركيز الأدب الكولومبى من أوسع أبوابه على الرغم من كونه لا يزال فى العشرين من عُمره.

وقد قُوبلت الحكاية بحماس من جانب بعض القطاعات ، ولكن أكثر المتحمسين لها كانوا زملاء جارثيا ماركيز الجامعيين، وقد قرأوها وعلقوا عليها تحت ظلال أشجار كافور كلية الحقوق. لقد نُشرت لزميلٍ لهم فى الصف الأوَّل حكاية – فى الواقع- جديدة فى ملحق من الدرجة الأولى مما غمرهم بالسعادة ، مثل تلك التى شعر بها المؤلف الجديد

ليكون بداية من ذلك الحين للحماس الجماعى الذى ينجم عقب ظهور كل نص لجارثيا ماركيز ، ويذكر ؛ أحدهم جونثالو مايا رينو أنَّه عندما قرأ" الاستسلام الثالث"، وقد ذكر لجابرييل فى طيش العشرين عامًا إنَّ هذه ليست حكاية بل استعارة طويلة" هذا الحكم اعتبره مايارينو بعد عدة أعوام حُكمًا مُغرضًا فى مرحلة الشباب . لقد كانت فى الواقع حقيقة كُبرى: لأنَّـه تحت زيها المتعصب كانت الحكاية أيضًا مثلًا للسيرة الذاتية.

فالحكاية تسرد قصة شخصية فى السابعة من عمرها ماتت بسبب الحُمى التيفودية (مثل العمة مارجريتا) وظلت فى حالة موت - حياة طوال ثمانية عشر عامًا- محسوس تحت رعاية أمها ، وكأن جسمها ينمو حتى الخمسة والعشرين عامًا داخل تابوت الميت نفسه ، وخلال ذلك الوقت عانت من الموت ثلاث مرَّات متتالية حتى أصبحت ميتًا مجرَّدًا بلا جسد. وعلى الرَّغم من ذلك فإنَّ أكبر مأساة للشخصية تكمن فى جلاء الفكر الذى تحتفظ به عن الحياة وأدق تفاصيلها فى عدم القُدرة على القيام برد فعل إزاء الضوضاء ، وكذلك رائحتها الجيفية التى تُعذبها ، أو إزاء ذلك الفأر الذى يحاول أن يُعيد لها قرنية العين والخوف المُرعب المتسلط على وجدانها خشية أن يعتبروها حيةً.

وانطلاقًا من طبيعته الفانتزية ، وتنوقه الغنائى ، وأسلوبه وتقنيته المستعارين فإنَّ الحكاية أو الرواية تصل إلى أدق ألياف اللاشعور ، لتعرض ذلك الخيال الإنسانى المتزايد للإنتاج اللاحق لمؤلفها كما هو الحال فى تلك القصة التى كتبها جارثيا ماركيز وهو فى غاية النُضج: " أجمل غريق فى العالم". نعم لأنَّهُ ربَّما يكون لأنَّ جابرييل مثل شخصية فى "الاستسلام الثالث" لم يكن طفل الخامسة أو السادسة الذى كانت جدته ترانكلينا تُجلسه دون حِراك فى كرسى فى تمام الساعة السادسة مساءً مُهددة إيَّاه بالأجداد الموتى الذين كانوا يتجولون فى جميع أرجاء المنزل، وبهذا الشكل فإنَّ المنزل كان يتحول فى المساء إلى منصة هائلة للنُّعوش . هل لأن جابرييل كان كشخصيته ولم يعش حتى تلك اللحظة من العشرين من عمره حياةً من البؤس ومن الوفيات المتلاحقة مثل فقدان طفولته الذهبية فى أراكاتاكا والكاريبى عندما سافر إلى ثيباكيرا لإتمام دراسته الثانوية ، ثم بعد ذلك إلى بوجوتا حيث كان يعيش تحاصره الوحدة فى منطقة السافانا الباردة والبعيدة وهو يقع فى شرك جَدب بنود القانون؟

ولكن " الاستسلام الثالث" كانت أكثر من ذلك: البراعم والملخص الإجمالي لبعض الموضوعات ، والموضوعات الفرعية لإنتاجه اللاحق مثل المنزل ، والوحدة ، والخوف ، والحنين، والموت، والتحمس لأهمية الموت ، والموت المركب ، وكون الإنسان حبيسًا. لقد بدأ بتلك الخطوة الأولى في الرحلة إلى الجذور.

وبعد ذلك بشهر ونصف في الخامس والعشرين من أكتوبر نشرت " المشاهد" قصته الثانية: " حواء داخل قطها" التي كتبها بسهولة كبيرة ، ولكنها في نفس الخط الفكري ، والكابوس الكافكوي لسابقتها ، وقد حكى فيها حالة من التناسخ ستعود إلى الظهور موضوعات مثل: الوحدة ، والحنين ، والمنزل، والخوف الوجودي، والخوف من الأجداد الموتى، والموت ، والتحمس لأهمية الموت. ولأول مرَّة تُطِلُّ موضوعات الأمراض الوراثية ، والجمال المقترن بالقدر المحتوم.

وبعد ذلك بثلاثة أيام ، وبعد نشر قصتين أحدثتا حماسًا لدى القُراء أعلن إدواردو ثلاميا بوردا (أوليس) عن مَولِد كاتبٍ جديدٍ عبقريٍ ومختلفٍ في عموده اليومي " المدينة والعالم". إنَّ تلك الملحوظة عبارة عن علامة بارزة في تاريخ النقد الكولومبي والأمريكي اللاتيني ، ليس فقط في النص الأوَّل عن جارثيا ماركيز ؛ بل أيضًا لتلك النظرة التنبؤية لما يمكن أنَّ يصل إليه الكاتب الجديد:

" إنَّ قُراء (نهاية الأسبوع) الملحق الأدبي لهذه الصحيفة أدركوا ميلاد عبقري جديد أصيل ذي شخصية قوية. لقد نُشِرت له قصتان بتوقيع جابرييل جارثيا ماركيز الذي لم يكن معروفًا حتى الآن. والآن علمت من أحد زملائي في تحرير الصحيفة أنَّ مؤلف " حواء داخل قطها" طالبٌ شابٌ في الصف الأوَّل في كلية الحقوق ، ولم يبلغ سن الرُشد حتى الآن. ولقد أذهلني هذا النبأ لأنه يُلحظ في كتابات جارثيا ماركيز نضج محيرٌ ربما يكون مبكرًا. إنَّ كتاباته جديدة ، وتصل إلى مناطق لم يتم ارتيادها في اللاشعور ، ولكن دون الحاجة إلى اللجوء لما هو تعسفي. فبداخل الخيال يمكن أنْ يحدث كل شيء. ولكن القدرة على إبرازه بصورة طبيعية وتلقائية وبساطة وبدون مخاوف ، واستخراجه اللؤلؤ من الأعماق ، إنه عمل لا يستطيع جميع الشباب في العشرين من العمر الإقدام عليه حيث لازالوا يبدأون علاقاتهم أو صِلاتهم مع الأدب.

ووُلِدَ بجابرييل جارثيا ماركيز كاتبٌ جديدٌ بارزٌ. لا أشك فى موهبته ، ولا فى أصالته ، ولا فى رغبته فى العمل ، ولكن أرفض التصديق - وهذا ليس بأى حال من الأحوال يعنى انتقاص قدره الشخصى- بأن يكون حالة فريدة بين الشباب الكولومبى"(١٩).

وعندما قرأ جابرييل هذه الملحوظة التقريظية التى خصصها له أحد الكتاب البارزين ،الذى يحظى بجمهور كبير من القُراء فى البلاد أصابه الدُّوار واعتراه قليلٌ من القلق ، ليس فقط بسبب كِبر حجم المدح والثناء ؛ بل بالمسئولية المرعبة التى ألقيت على كاهله. فقد فكَّر بأنه ينبغى عليه مواصلة الكتابة طوال حياته لكى لا يخذل أو ليس الذى - إلى جانب كونه بالنسبة له مثل كريستوفر كولمبس لأنَّه هو الذى اكتشفه ، وأحد ناصحيه الأدبيين - سيكون بعد بضع سنوات صديقه الشخصى.

إنَّ اللقاء مع كافكا ، ونشر القصتين أديا إلى ابتعاده شبه الكامل عن الجامعة. ومع ذلك فقد تمكَّن من إتمام السنة الدراسية الأولى فى كلية الحقوق فى ذلك العام، وإن كان قد رسب فى الإحصاء والجغرافيا ، ونجح بالكاد فى المدخل إلى القانون ، وكذلك فى القانون الدستورى. وإبَّان العُطلة الصيفية ذهب إلى سوكرى مع والديه وواصل كتابة الحكايات: وفى ١٧ يناير من العام التالى ، وقُبيل العودة إلى الكاريبى بثلاثة أشهر ، ومدفوعًا بسبب العُنف المنتشر فى بوجوتا نشرت له صحيفة " المشاهد" الحكاية الثالثة " توبال قابيل يختلق نجمًا" ، التى تميزت بوجود الموت فضلًا عن كونها تُمزِّق القلب فهى استثنائية. وبذلك استطاع أن ينشر ثلاث قصص فى أربعة أشهر وجميعها غريبة تمامًا فى إطار الأدب الوطنى ، وقد بدأ اعتباره الوعد البرَّاق فى القصة الكولومبية.

وعندما علم والده الطبيب التجانسى والصيدلانى فى سوكرى أنَّ نجله يهمل دراساته القانونية ويبدأ يتفرَّغ للأدب اعتبره أيضًا " قضية خاسرةً" . وبينما كان البعض يرى أنَّ القصاص الشاب أحد الوعود الراسخة للآداب الكولومبية كان والده جابرييل إيلخيو جارثيا يرى فى نجله الإنقاذ الاقتصادى للأسرة. وعلاوة على ذلك ؛ فبالنسبة لأسرة فقيرة ومحدودة الدخل كأسرته يُعَدُّ شرفًا لها أنْ يكون لديها ابنٌ فى الجامعة ، وكان ذلك يعوضها عن افتقارها للامتيازات الاجتماعية والألقاب الأسرية

العريقة. وهكذا عاد جابرييل إلى الجامعة فى فبراير ١٩٤٨ مُتبعًا خط السير نفسه النهرى فى ماجدلينا لكى يسجل فى الصف الثانى بكلية الحقوق لإرضاء والده أكثر من اهتمامه الشخصى فى مواصلة دراسته التى لم يكترث بها منذ العام الماضى.

لقد كانت التبعة على كافكا. ولأول مرّة لم يفهم جابرييل فقط على ضوء إنتاجه أنه بفن السرد قد وجد قناة مختلفة لخياله ، وفى الوقت نفسه بدأت تبرز نوعية وجودة الكاتب الذى سيصل إلى أعلى مرتبة أدبية. وبسبب عادة التشويه الأدبية التى اكتسبها أثناء دراسته الثانوية كان جابرييل يعتقد – حتى ذلك الوقت – أنَّ القصة كانت تصويراً أو إعادة إبداع للواقع تقريبًا ، إلا أنَّ كافكا أثبت له أنَّ الأمر ليس كذلك ؛ بل هو نقل أو تحويل لذلك بواسطة قوانين مختلفة تشبه إلى حدٍ كبيرٍ عالم الأحلام أكثر من تشابهها مع واقع الحياة وربما كان يجنح – لهذا السبب – تجاه الشعر أكثر منه صوب القصة.

وعلى عكس ما كان يرى بعض الدارسين مثل ماريو بارجاس يوسا فإنَّ "الاستسلام الثالث" ، و " حواء داخل قطها" ، و " توبال قابيل يختلق نجمًا" ، وعمومًا فإنَّ معظم حكايات " عيون كلبٍ أزرق" لا تشكل على الإطلاق مرحلة ما قبل القصة لجارثيا ماركيز. إنَّ مرحلة ما قبل القصة بالنسبة له هى ثيباكيرا تلك السنوات الأربع التى قضاها فى مدرسة الليسيه الوطنية للبنين حيث أصيب بالحصبة الأدبية ، وحيث قرأ بشكلٍ دائمٍ ومنسقٍ ، وكتب نثرًا وأشعارًا ساخرة يسودها الانسجام. ها هنا كاتب لا يزال فى مهده ، كاتبٌ ناشئٌ بالموهبة والتكوين، والعزم ، والتصميم، وحتى الحاجة لكى يكون كذلك. إنَّ ما يفعله كافكا من خلال " الاستسلام الثالث" والحكايات الأخرى هو إعادة توجيه خطواته فى متاهة الأدب إيضاح وتوضيح موهبته، ورغبة ومساعدة تعينه على العثور من جديد على نهج جدته ترانكلينا و" ألف ليلة وليلة". وبهذا الشكل فإنَّ المصير كان محدداً من الآن وإلى الأبد حيث سيكون جابرييل جارثيا ماركيز نجل موظف البرق فى أراكاتاكا روائيًا وقصاصًا لحكايات كما هو الحال مع شهرزاد ، وفرانز كافكا، وترانكلينا إجواران كوتيس.

الفصل السابع

- جايتان و٩ أبريل .
- بوجوتا تحترق .
- الكاتب إزاء أحداث التاريخ .
- ذهاب فيدل إلى الحرب .
- العالمى ومجموعة قرطاجنة.
- المنزل وقراءات (ربوة الشيطان) .
- " الورقة الساقطة" وميلاد ماكوندو .
- تحت ظلال المانجو فى سوكرى .
- لقاء مع سوفكليس .
- وداعًا لدراسة الحقوق .
- قرطاجنة مشتل لا ينضب .
- ألبارو موتيس وجارثيا ماركيز والغمد أو الجراب .

في اليوم الذى التقى فيه جابرييل مع ما نويل ثباتًا أو ليبيا على ناصية شارع ٧ عند ملتقاه مع شارع خمينيث دى كيسادا أمام مبنى صحيفة " الزمن " اعترف له جابرييل بأنه كان يفكر فى مغادرة بوجوتا وترك دراسة القانون ، ليس فقط بسبب الصعوبات الاقتصادية ، بل بسبب موهبته الأدبية التى تأكدت مؤخرًا(١). فلم أكن أتخيل أنه بعد بضعة أشهر ، وعلى بعد عدة أمتار من المكان نفسه ستندلع أعمال العنف المعروفة باسم أحداث بوجوتا الكبيرة التى دفعته للعودة إلى أرض الكاريبى التى يشتاق إليها وما ترتب عليها من نتائج نهائية بالنسبة لحياته ومصيره الأدبى .

وبالفعل وعلى بعد بضعة أمتار من هناك وعند رقم ١٤ - ٥٥ من شارع ٧ بين شارعى خمينيث دى كيسادا و١٤ ، وفى تمام الساعة الواحدة وخمس دقائق مساء التاسع من أبريل ١٩٤٨ قام خوان روما سيرًا وهو رجل سقيمٌ قيم متواضع بلا عمل تبرز عليه سمات الانفصام فى الشخصية بإطلاق نيران مسدسه عن كثب على الزعيم الليبرالى خورخى إليسير جايتان وهو خارج من مكتبه للمحاماه لتناول طعام الغذاء مع مساعده بلينيو ميندوثا نييرا وأصدقاءٍ آخرين . وبعد ذلك بخمس وأربعين دقيقة توفى الزعيم فى المستشفى المركزى(٢) ، وبهذا انتهت المسيرة البراقة - وفقًا لكافة التكهنات - كان سيتولى منصب رئيس الجمهورية القادم ، وكان الشخص الوحيد الذى وعد باستئصال المرض العضال المزمن للأقلية الليبرالية - والمحافظة التى قادت البلاد من جديد إلى ورطة العنف ، وهى سمة بارزة من سمات كولومبيا قبل ميلادها كجمهورية مستقلة .

وكان جايتان رجلاً مولدًا تغلب عليه الملامح الهندية الجميلة ، وهونجل صاحب مكتبة متواضعة فى بوجوتا ومدرسة ذات روح إسبرطية. وكان يتمتع بانضباط حديدى صارم علمته إيَّاه والدته. ومنذ شبابه بدأ يتدرج فى معرفته المتعمقة للقانون والسياسة ، وبعد تخرجه من الجامعة الوطنية ذهب إلى روما لكى يتخصص تحت إشراف رجل القانون العظيم إنريكو فيرِّى وفى تلك المدينة الألفية استطاع جايتان الحصول على امتياز مع مرتبة الشرف فى قانون العقوبات ، وكان يتميز ببعض الإيماءات الموسيلينية

البارزة والواضحة للعيان ، وكان من أنصار المظاهرات الجماهيرية الغفيرة[٣] ، التى سرعان ماعايشها وقد تزايدت شعبيته كزبد البحر فى أعقاب الخطاب السياسى والقانونى والأخلاقى الذى ألقاه فى البرلمان فى سبتمبر ١٩٢٩ ضد حكومة المحافظين بزعامة ميجيل أباديا بسبب مذبحة عمال منطقة زراعات الموز فى ديسمبر من العام السابق. وقبيل مثوله أمام البرلمان ببضعة أشهر كان جايتان قد زار عدة قرى فى ماجدلينا لكى يوثق خطابه تماماً حيث عرَّف تلك المذبحة بأنها أسوأ صفحة فاضحة فى التاريخ الكولومبى ، وكان من الذين أخبروه بحقائق هذه الواقعة جد جابرييل جارثيا ماركيز أمين صندوق بلدية أراكاتاكا ، وقسيس أبرشيتها فرانتشسيكو. أنجاريتا[٤] الذى عمَّد الكاتب بنفسه .

وعند وصول الليبراليين إلى السلطة فى عام ١٩٣٠ بعد خمسة وأربعين عاماً من حكم المحافظين قام الرئيس الأرستوقراطى الرفيع إنريكى أولايا إيريرا باحتضان جايتان وعينه رئيساً لمجلس النواب لفترات متتالية ، ثم أصبح عضواً فى قيادة الحزب والمرشح الثانى لرئاسة الجمهورية .

وهكذا فإنَّ نجل المُدرِّسة وصل إلى ذروة المجد السياسى وهو لا يزال فى الخامسة والثلاثين من عمره ولكن فى السياسة لم تكن هناك ذروة بعيدة المنال عليه ، وفى المجال الاجتماعى لم يستطع غزو الصالونات الأنيقة لنوادى الأرستوقراطية البوجوتية (أرستوقر أرستوقراطية العاصمة الكولومبية) ، وقد اعتبر أن أهم إهانة حدثت له فى حياته تكمن فى عدم استقباله فى الجوكى كلوب (نادى الفارس) ، وأنهم لا يزالون يطلقون عليه فى الصالونات الأرستوقراطية باحتقار " جايتان الأسود " نظراً لسمرة بشرته لكونه مولداً مختلطاً .

وقد عانى جايتان فى بداية مسيرته السياسية من التناقض الذاتى لحزبه الليبرالى: لكونه يمثل الحكومة والمعارضة فى آن . وهكذا فإن الزعيم الطموح البارز الذى كان قد اختير نائباً فى البرلمان عن الأحياء الفقيرة فى بوجوتا ، والذى تمكن من تشكيل اتحاد من اليسار الثورى لم يستمر طويلاً. ولم يكن فقط الشخص المحبب إلى الرئيس أولايا إيريرا بل أيضاً تعاون فيما بعد مع حكومة إدواردو سانتوس وألفونسو لوبيث بوماريخو وزيراً للتعليم ووزيراً للعمل والصحة وبعد ذلك انتقل إلى صفوف المعارضة الراديكالية ، ليس فقط ضد حكومة الأقلية المحافظة بل أيضاً ضد حزبه الليبرالى ولذلك فإنَّه فى انتخابات الرئاسة عام ١٩٤٥ تقدمت الليبرالية منقسمة

على نفسها بمرشحين : ترشيحه هو كزعيم جناح المعارضة بالحزب الليبرالى والمرشح الرسمى جابرييل توربای الذى كان يتولّى هزم فى النهاية حزب الأقلية المحافظة الذى تولى الحكم برئاسة المهندس ماريانو أوسبينا بيريث مواطن أنطيوكيا(٥) .

ومع ذلك فقد خرج جايتان معززًا : تولى قيادة الحزب وأخرجه إلى حيز الشارع وإلى الأحياء الفقيرة والقرى. وقد بدأت الظاهرة الشعبية لجايتان بالخطابة الرائعة والحس السياسى المرهف لزعيمه فى التزايد المطرد منذ ذلك الحين مثل زبد البحر متجاوزًا بذلك الآفاق الضيقة السياسية للكنيسة بشأن الازدواجية الحزبية فى كولومبيا . وعندما اغتيل لم يكن أحدٌ يشك فى أنّ جايتان سيكون الرئيس القادم للجمهورية لمدة السنوات الأربع المقبلة ١٩٥٠ - ١٩٥٤، لأن شخصيته السياسية اكتسبت قوة رهيبة ، فقد كان الحيوان السياسى الهائل الذى عرفته كولومبيا طوال تاريخها ولهذا فقد اكتسبت تأييد وتعاطف غالبية الشعب ؛ أغلبية من الغلاة ولكنها أغلبية مطيعة وسلسة القياد تصيح كثيرًا ولكنها صامتة كما ثبت ذلك من " مظاهرة الصمت " التى دعا إليها وتزعمها قبل اغتياله بشهرين كرد فعل على أعمال العنف المتزايدة التى عانت منها البلاد منذ الحكومة الانتقالية لألبرتو يرأس كمارجو ، والتى ازدادت حدة مع الحكومة فى ذلك الوقت برئاسة ماريانو أوسبينا بيريث .

وتلك الصيحة الهائلة للجماهير الصامتة وهى تحمل الشموع الموقدة خلال ظلام ليل جبال الإنديز ، والتى من المحتمل أن تكون قد سببت الرعب للطبقات العليا بالمجتمع والسياسة ، ومنذ ذلك الحين وكان شغلها الشاغل مطاردة جايتان وأنصاره ، ومع ذلك فإنّ الأرستوقراطيين ارتعدوا فى صالوناتهم الفاخرة فى بوجوتا كما ارتعدت فرائص حكومة الأقلية فى مكاتب السلطة. حينئذ بدأ شك مرعب يتسلل إلى ضميرهم من هو الجايتان الذى سيتولى منصب الرئيس : هل المحرض الاجتماعى الذى أرعب الجميع أوالليبرالى المتسامح الذى تولى أرفع المناصب من جانب حكومة الأقلية فى الحزب ولا يزال يحتفظ فيها بأصدقاء ممتازين ؟ ، فهولاء كانت لديهم مرايا كبيرة ينظرون فيها ويرون فيها أيضًا مستقبل الوطن لأنّ كثيرًا من الزعماء فى كولومبيا بدأوا متحمسين ثوريين وسرعان ما تحولوا إلى رجال إطفاء كناية عن التسامح والهدوء ، وكان لديهم مثال ونموذج واضح وهو الزعيم الأسطورى رفائيل أوريبى أوريبى الذى قضى نصف

حياته فى ثلاث حروب ضد نظام المحافظين ولكن انتهى به الأمر إلى أن تحول إلى أحد حصونهم الأساسيين قبيل اغتياله فى أكتوبر ١٩١٤ بالقرب من القصر الوطنى .

ويتفق المحللون الأذكياء والمحايدون لهذه الفترة فى تاريخ كولومبيا على التأكيد أنَّ حكومة الأقلية المؤيدة لسيادة البابا المطلقة لم تتحمل الشك الرهيب ، وأمرت باغتيال الزعيم الشعبى[٦] المحبوب جماهيريًا ، واتخذت من الشخص الواهن خوان روسا سيًّرا ضحيةً لخطة تم إعدادها باحكام وأشرف عليها كبار القيادات بالسلطة .

ومما هو أكيد على أية حالة فإن اغتيال خورخى إلبيسير جايتان لم يتضح على الإطلاق ، وكان بمثابة الفتيل الذى أضرم النيران فى بوجوتا وباقى أنحاء البلاد . وكان مركز هذا نفس المكان الذى اغتيل فيه بالرصاصات الثلاث التى صوبها له روسا سيًّرا فى الواحدة وخمس دقائق مساء ٩ أبريل ١٩٤٨ . وفى نفس الساعة وفى لوكاندة الطلاب الفقراء بشارع ٨ حيث كان جابرييل يقتسم غرفة مع شقيقه لويس إنريكى وصديقه خوسيه بالينثيا . كان الطالب جابرييل فى الصف الثانى بكلية الحقوق على وشك الجلوس على المائدة لتناول الغذاء. وعندما علم بنبأ الاعتداء جرى مع آخرين إلى المكان الذى اغتيل فيه جايتان ، ولكنه كان قد حمل إلى المستشفى المركزى وهو يحتضر[٧] . وجابرييل كالآخرين ظلَّ يحوم حول المكان معبراً عن تضامنه ، حتى ولو كان ذلك بالحضور فقط. وقد اشتعلت المدينة واتخذ التمرد أبعاداً هائلة وحاول جابرييل أن يبحث عن ملاذ فى اللوكاندة ، ولكنها كانت تشتعل هى الأخرى . وقد التهمت النيران أمتعة جابرييل الشخصية خاصة الكتب التى سببت له الحمى الأدبية (فى تلك الأيام كان يقرأ أوليس باهتمام كبير كاهتمام الجراح) وكان أعز شىء عليه هو النسخة الأصلية بخط يده لقصته "حيوان فى الترام" وكذلك الحكايات الثلاث التى كان قد نشرها فى صحيفة " المشاهد " وحكايات أخرى كان يكتبها فى ذلك الوقت . وقد أحس جابرييل بأنه أعزل بدون ممتلكاته الأدبية وكان قد حاول إنقاذها إلا أن بعض الأصدقاء أقنعوه بالعدول عن دخول اللوكاندة وهى تحترق[٨] ، وكان لويس بيار بوردا أحد الرفاق فى المجموعة الأدبية الرباعية يبحث مثل الكثيرين للاشتراك فى النضال ويتذكر أنَّه التقى مع جابرييل حوالى الساعة الرابعة أو الخامسة مساء ٩ أبريل عند مفترق الشارع رقم ٨ مع شارع خيمينيث دى كيسادا بالقرب من مكان حدوث الجريمة.

وقد تأثر بيار بوردا عندما رأى جابرييل مهموماً عابس الأسارير وقد اشتاط غضباً ، وكان على وشك أن يجهش بالبكاء لأنَّه كان يعرف أنه بعد عام من المصاعب الجماعية والقراءات العامة لم يظهر جابرييل أى شغف بالسياسة حتى الآن ، ولا حتى بالسياسة الوطنية الثنائية الحزبية. وعلى الرغم من أنه تخرج من مدرسة الليسية الوطنية فى ثيباكيرا بتعاطف مع الأيدولوجية الماركسية فقد كان جل اهتمامه الأدب - كما رأينا - وقد تبنى ذلك بصفة استثنائية. ولذلك فإن بيار بوردا عندما رأى جابرييل عابس الأسارير قال له مستغرباً : "اسمع يا جابرييل لم أكن أعرف أنك من أنصار جايتان " فأجابه قائلاً وهو مستاء وكأنه يبكى : "لا ، ليس الأمر هكذا بل احترقت رواياتى"

وفى الوقت الذى شهد جارثيا ماركيز احتراق كتبه وأصول رواياته الأولى بسبب أحداث التاريخ اللاإرادية كان هناك شاب كوبى فى الحادية والعشرين من العمر رخيم الصوت وذو شارب ناشئ وروح كيخوتية ، وهو الذى سيكون أحد أصدقائه الحميمين والكبار ، كان فى غاية السعادة بسبب موضوعه المفضل : "الثورات" ، وقد وحاول تزعم الجماهير الثائرة ليقودها صوب هدف محدد ودقيق ، ومع ذلك أدرك الشاب الجامعى فيدل كاسترو أن أى عمل تضامنى سيكون تضحية بلا جدوى فى عاصمة جهنم وسط هذه الضوضاء الصاخبة. فقد كانت الجماهير يتيمة وبدون أية قيادة وكانت مأساة جايتان مصيبة جماعية : بلغ عدد القتلى المئات فى الشوارع والمبانى العامة ، وقد تعرضت متاجر وسط المدينة للسلب والنهب ، وظلت بوجوتا تحترق تحت المطر بتراماتها ذات الزجاج الأزرق .

وكان كاسترو قد وصل إلى المدينة فى الأيام الأولى من شهر أبريل برفقة طلاب كوبيين أخرين بغية تنظيم مؤتمر طلاب أمريكا اللاتينية ، الذى كان بمثابة الرد السياسى على المؤتمر التاسع المناصر لأمريكا التى كانت تنظمه واشنطن لمحاصرة ومحاربة " الخطر الشيوعى " ، وهو المؤتمر الذى كان سيعقد خلال تلك الأيام فى العاصمة الكولومبية تحت رقابة الجنرال مارشال. وفى يوم ٧ أبريل كان قد التقى مع جايتان فى مكتبه بشارع ٧ ، وقد تفاهم الشخصان تماماً : وقد وعد جايتان الشاب الكوبى ورفاقه مساعدتهم بتوفير مكان للمؤتمر وختامه فى احتفال جماهيرى حاشد . وهكذا اتفقا على اللقاء مرة أخرى فى الثانية مساء فى نفس يوم ٩ أبريل للاتفاق على التفاصيل

النهائية كما تم الاتفاق قبل ذلك ، ولكن جايتان قُتِلَ قبل الموعد بخمس عشرة دقيقة . ولذلك فعندما علم كاسترو بموت جايتان كان بالقرب من مكتبه يتجول هناك مع رفيق له فى انتظار حلول ساعة الموعد معه(٩) .

وكان الزعيم الكوبى القادم لا يزال ثورياً بلا لحية وبلا تكوين أيديولوجى ماركسى ، ولكنه كان قد قرأ العديد من الكتب عن الثورات ، وكانت لديه رغبات هائلة لكى يبدأ العمل الثورى . ولذلك عندما وجد نفسه وسط الجماهير الحاشدة الثائرة اليتيمة بلا قائد أو زعيم أحسَّ بالتضامن وشارك بكل أحاسيسه فى أول ثورة فى حياته ومع ذلك فإنَّ أوَّل بطولة له لم تكن عملاً ثورياً للغاية ، فقد تمثَّل فى تحطيم آلة كاتبة. لم يكن ذلك اختياره بالتأكيد ، ولكنها كانت أول شىء شاهده عندما قرَّر الكفاح والنضال ؛ رأى رجلاً فقيراً يائساً لم يستطع تحطيم آلة كاتبة كان قد سلبها من أحد المكاتب العامة ولم يجد كاسترو وسيلة لمساعدته سوى أن يُعيره قوته وقامته الطويلة وألقى بالآلة الكاتبة على الأرض بكلتا يديه وقد سعد الاثنان سوياً وواصل كاسترو مسيرته فى شارع ٧ ودخل متمرداً فى معسكر للشرطة ، واستولى بالقوة على بندقية طراز ماوسر ومعطف للشرطة وحذاء وقبعة بلا رفرف وذهب إلى الحرب . وبعد يومين من انضمامه بطريق الخطأ فى حرس الرئاسة ، بعد أن ألقى خطاباً فى الشعب والجنود أمام المعسكر ، ولمحاولته الدفاع عن الإذاعة الوطنية ظلَّ يحرس بعض الروابى أسفل هضبة مونسيرات(١٠) .

وعندما اقتنع فى النهاية بأنَّ ذلك ليس هو الثورة التى ينتظرها ، بل كان جحيمًا من الفوضى على ارتفاع ألفين وستمائة متر فوق سطح البحر ، قرر البحث عن رفاقه والعودة إلى الفندق ، ولكى يزداد الطين بلة علم بأنَّ الشرطة تبحث عنهم لأنهم الطلاب الشيوعيون المسئولون عن هذه الجائحة. ومن الواضح أنَّ كاسترو رأى أنهم إذا ألقى القبض عليهم لن يبقى منهم شىء ولا حتى جلودهم لأنَّ وجودهم فى بوجوتا لغاية سياسية جلية أدى برجال الحكومة إلى الإعداد لادعاءات للتستر على اغتيال خورخى أليسيرجايتان. ولذلك فإنه إذا لم يتمكن كاسترو الطالب الجامعى من الاهتداء إلى وسيلة للوصول إلى سفارة بلاده ربما لما تمكَّنَ من أن يحكى لصديقه جابرييل جارثيا

مـاركيـز بعد ذلك بعد حقب " القصة الحزينة التى لا يمكن تصديقها " وهى مغامرة يوم ٩ أبريل .

وبعد ثلاثة أيام من السلب والنهب والتمرد والاضطهاد وأعمال القمع تم إغلاق الجامعة الوطنية مثل باقى المراكز العامة فى بوجوتا ومدن أخرى فى البلاد ، وظلً جابرييل بلا مأوى ولا جامعة ولا حتى قهوة يقضى فيها فترة المقيل (القيلولة) ، فبوجوتا التى كان قد عرفها منذ خمس سنوات ، والتى كانت حتى بضعة أيام خلت يتجول بين مقاهيها ، كانت قد أصابتها الحصبة الأدبية ليست موجودة الآن ، وربما لن توجد أبداً . حينئذٍ رجع معقداً إلى الكاريبى لكى يحقق ما تاقت إليه نفسه فى العام الماضى وفى دى ثى - ٣ وصل إلى بارانكيا بصحبة صديقه خوسيه بالينسيا فى ٢٠ أبريل بعد يومين من وصول شقيقه لويس إنريكى .

إنً أحداث بوجوتا لم تكن السبب الرئيسى لما سمى بالعنف ، ولكنها زادتها اشتعالاً (وقد نتج عنها أكثرمن ثلاثمائة ألف قتيل ٣٠٠,٠٠٠ قتيل) لكى تتأصل أعمال العنف كأحد عناصر التركيبة للمجتمع الكولومبى ، لقد كان هذا الحدث أحد أهم ثلاثة أحداث خطيرة فى التاريخ الوطنى بالنسبه لجابرييل جارثيا ماركيز ، وكان الأدب حدثًا هائلاً لأنـّه سمح له بالعودة إلى الكاريبى والالتقاء بموطنه الأصغر ، الأمر الذى لم يسمح له فقط باستعادة حياته العاطفية والغرامية والروحية ، بل سمح له أيضًا باكتشاف وإعادة اكتشاف الموضوعات الكبيرة لإنتاجه الأدبى بدءاً من العنف ذاته. وكان جو بوجوتا مفيداً لجارثيا ماركيز بسبب الكتب التى قرأها ، والأصدقاء الذين تعرف عليهم ، وخاصة النظرية التى منحتها إياه ، والتى تحولت فى الآونة الأخيره الى تأثير ضار الى حد كبير بسبب المناخ الفكرى والأكاديمى الذى ساد فى العاصمة .

وهكذا عاد إلى بارانكيا مدينه عواطفه وغرامياته التى كان قد عرفها قبيل أن يتمَ الثالثه من عمره ، حيث بهرته إشارات المرور والطائرة الصغيره السوداء فى الذكرى المئوية الأولى لوفاة سيمون بوليفار ، وحيث عاش عامين مع والديه ودرس خلالهما الصفين الآخرين فى المرحلة الابتدائية ، والصفين الأول والثانى فى المرحلة الثانوية. كما كانت المدينة التى كتب ونشر فيها أوَّل أشعاره وتعليقاته الصحفية الأولى. ولكنه عندما

حضر إلى الجامعة لاستكمال دراسته فى الصف الثانى بكلية الحقوق وجد أنها أيضا مغلقة بسبب آثار العنف المنتشر فى بوجوتا. حينئذٍ ذهب إلى مدينة قرطاجنة الأمريكية حيث استطاع التسجيل فى جامعتها فى ١٧ يونية.

ولكن الاهتمام الحقيقى لجارثيا ماركيز لم يكن دراسة القانون بل مواصلة الكتابة والتفرغ للصحافة. وقضاء خمسة أعوام بين أهل بوجوتا جعله يتنصل إلى حد كبير من ثقافته الكاريبيه. وعندما عاد إلى أرضه أدرك أنَّ حياة الشارع هى التى حازت إعجابه تماماً : الحكايات والأساطير والمعتقدات والأحلام الصغيرة والهزائم الصغيرة للناس ، والأغانى الشعبية. كل شىء . وعلاوة على ذلك فإن حدث بوجوتا الكبير فتح عينيه على أشياء كثيرة ، كما أثبت له أن الحكايات التى كُتِبتْ ونُشرت فى العاصمة كانت لها صلة بسيطة بواقع بلاده ، ولذلك فمدينة لوس كاتيتاكوس (بوجوتا) ببرودتها وأمطارها الغزيرة وأدب برجها العاجى سيظل فى المقام الثانى مؤقتًا ، وكذلك المضاهاة الملتوية لكافكا وجويس وبورخيس .

وكان يسير على النهج السالف الذكر إلى أن التقى ذات يوم فى أواخر مايو فى أحد شوارع المدينة الاستيطانية مع الطبيب القصاص مانويل ثباتًا أولبيبا ، الذى كان قد التقى معه فى العام الماضى فى شارع آخر فى بوجوتا ، الذو كان قد اعترف له برغبته فى العودة إلى الكاريبى لكى يتفرغ للحياة هناك وللكتابة . ولم يغفل جارثيا ماركيز أنه منذ شهرين كان دو مينجو لوبيث إيسكاورياثا (شقيق الشاعر الشعبى توريتو لوبيث) قد أسس فى قرطاجنة صحيفة الأونيفرسال (العالمى) التقدمية ، وكان رئيس تحريرها كليمنتى ما نويل ثبالا يساريًا غامضًا وقليل الكلام ولكنه يتمتع بأستاذية وسخاء وحماس لكى يصبح راعيًا وأمينًا وناصحًا للصحفيين والكتاب الشبان فى المدينة . ولم ير جابرييل أن هناك فقط يوجد الملاذ الذى يحتاج إلية بل أيضًا مدرسة الصحافة التى بات يبحث عنها، والدعم المادى الذى ينشده. حينئذٍ وأثناء اللقاء الفجائى مع ثباتا أولبيبا الذى كان صحفيًا معروفًا وهرب أيضًا من أحداث بوجوتا وتوسل إليه أن يقدمه لكليمنتى ما نويل ثبالا .

وبعد حوار طويل فى إدارة التحرير بالصحيفة تحمس ثبالا للشاب جاريثا ماركيز : لحكاياته التى كان قد قرأها فى " المشاهد" ، ولمعارفه الأدبية ورغبته الكبيرة للعمل فى

الصحافة. وقد رأى ثبالا على الفور فى جارثيا ماركيز أحد الأشخاص الذين يحتاج إليهم لتطوير وتقديم صحافة جديدة في الصحيفة التى أُسست مؤخرًا . ولذلك فتح له أبواب الصحيفة وصداقته ، وقد امتدحه فى ملحوظة تقريظية فى ٢٠ مايو. فبعد أن بدأها بشيء عن حياته والتحاقه بصحيفة الجامعة فى قرطاجنة أعلن أنَّ الدارس المجتهد والكاتب والمفكر فى هذه المرحلة الجديدة لمسيرته لن يتحلى بالصمت ، وسيكتب معبرًا فى هذه الأعمدة عن ذلك العالم من الإيعازات والإيحاءات التى يقدمها الأشخاص والأشياء يوميًا لخياله القلق والمضطرب(١١) .

ومع ذلك فإن امتحان القبول كان مخيبًا لآمال الصحفى المستجد ، وقد طلب منه كليمنتى ما نويل ثبالا أن يقدم له المقال الأوَّل عن موضوع حر ، وقد كتبها جابرييل برفاهية خياله وبرغبته الجامحة فى نظم الشعر ونثره حاد الذكاء ، وعندما سلَّمه له أخرج ما نويل ثبا لا قلمه الأحمر وبدأ يعيد صياغته من جديد فيما بين السطور(١٢). وفى تلك الليلة بدأ تحليل أسلوب رئيسه وأسلوبه فى الملحوظة نفسها ، ووجد فارقًا جوهريًا بينهما. وفى المقال التالى لم يكن هناك شطب كثير بالقلم الأحمر وبعد ذلك بأسبوعين لم يعد هناك شطب أو تصحيح واحد. وبعد مضى بضعة أشهر فرضَ أسلوبه وخياله على الصحيفة ، لدرجة أن كليمنتى مانويل ثبالا نفسه لم يتوان فى القول بأنَّ جابرييل لن يصل بعيدًا كصحفى فقط بل أيضًا ككاتب .

وهكذا بدأت المسيرة الأخرى لِمَنْ سيكون واحدًا من ألمع الصحفيين فى اللغة الإسبانية ،وربما أفضل صحفى ومحقق. لقد كانت الصحافة إحدى هواياته القديمة إلى جانب الرسم والسينما والأدب ، ومن المحتمل أنْ تكون قد تولدت لديه فى طفولته فى دفء قراءات الصحيفة التى كان يقوم بها الجدُ لحفيده. وكما رأينا لقد حاول جابرييل دون جدوى كتابة التعليق الصحفى فى الثالثة عشرة من عمره فى مجلة (الشباب) بمدرسة سان خوسيه ، وكتب على وجه السرعة مع ماريو كونبرس تحقيقه الصحفى الأوَّل فى ثيبا كيرا للمجلة الأدبية. وهكذا فإن العشرين شهرًا التى سيقضيها فى صحيفة الأونيفرسال (العالمى) ، والتى كتب فيها ٣٨ مقالاً بتوقيعه ، وغيرها الكثير بدون توقيع كانت بمثابة البداية المهمة للصحفى والكاتب لأنه فى الوقت الذى ولد فيه الصحفى ولد فيه الكاتب الحقيقى المتأصل فى ثقافته الكاريبية .

ويعترف جارثيا ماركيز بأنَّ المعجزة الحقيقية كانت تكمن فى استطاعته الهرب من الجو الفكرى والأدبى لبوجوتا فى الوقت المناسب لكى يستعيد ثقافته الكاريبية ، ولكى يكون كاتبًا مختلفًا وكان قد نشر حكاياته الثلاث الأولى فى " المشاهد" ، وكان ذلك شيئًا جيداً لأنه كان بمثابة دخوله الأدب من أوسع الأبواب ، فقد قرأ من قبل لكافكا وجويس وبورخيس وتوماس مان وجاريثلاسو ودستوفيكى وكيبيدو وآخرين ، وكان ذلك هائلاً حيث أعطاه الثقة فى نفسه وسلَّحه بأسلحة الكاتب ، كما تعرَّف على أصدقاء ممتازين قد مستهم الغزالة الأدبية مثله تمامًا وكان ذلك إيجابيًا للغاية ، لأن القراءات والمناقشات معهم أسهمت بشكل ملحوظ فى تكوينه الأدبى ، ولكن كان هناك شئ لم يقنعه. شىء بدأ جابرييل يلاحظه منذ دراسته الثانوية : العلاقة أو الارتباط بين الواقع والأدب. لقد رأى أن أدب غالبية المفكرين والكتاب فى بوجوتا - وإن كان منتشراً فى الشوارع وعلى المقاهى - كان أدبًا بعيداً كل البعد عن حياة البلاد وواقعها. وكان هو ذاته ضحية لهذا الوضع المرضى: لذلك فإن قصصه الثلاث الأولى (وتلك التى سينشرها أثناء تواجده فى قرطاجنة) هى قصص فكرية ومجردة استندت إلى أفكار تسلطت على عقله أثناء طفولته لأنه قبل أن يستفيد من تأثيرات كافكا ، وجويس وبورخيس كانت تلك الأفكار قد خدمت تقريبًا تلك القصص تلقائيًا.

وبهذا الشكل فإنَّ الصحفى والكاتب الذى يريد الاعتداد بنفسه فقط يمكن أن يظهر أو يولد اعتباراً من لقائه الجديد مع ثقافة الكاريبى ، فها هنا سينتهى الطلاق بين الأدب والواقع بين الخيال والثقافة : فى قرطاجنة وبارانكيا حيث سيستطيع جارثيا ماركيز الإمساك ببعض المفاتيح الجوهرية التى ستسمح له بالجمع بين الأدب والواقع بسهولة وتلقائية ، حيث يدخل البحر حياة الساحليين وهؤلاء فى جو البحر. وأول بينة على ذلك ستظهرُ فى تحرير صحيفة الأونيفرسال (العالمى). وأول مقال سيكون عن قرطاجنة الإستيطانية وسيكون شركاؤه الأوائل فى ذلك أصدقاؤه الذين شكَّلَ معهم مجموعة قرطاجنة المذكور كليمينى ما نويل ثبالا وهيكتور روخاس إيراثو وجوستابو إيبارا ميرلانو ، وكذلك هؤلاء الذين كانوا ينضمون إلى المجموعة أو ينسلخون عنها أو كانت لهم علاقه ملموسة معها : دونالدوبوسا إيراثو ومانويل ثباتا أوليبيا وراميرو دى إسبيريا وجورج ليه بيسويل كوتيس وسانتندير بلانكو كابيثا. إنَّها مجموعة من

الأصدقاء ، من الشركاء الأدبيين ، والتى ستكون فى غاية الأهمية بالنسبه لجارثيا ماركيز مثل تلك المجموعة الأخرى من الأصدقاء فى بارانكيا فى بداية الخمسينيات .

ويؤكد الكاتب نفسه أنَّ ثبالا كان أكثر أهمية له من رامون بنييس[١٣] ، ذلك العالم القطالونى فى " مائة علم من العزلة " وأحد الناصحين الأدبيين لمجموعة بارَانكيا. ومن المحتمل أنْ يكون الأمر كذلك لأنْ إدواردو ثبالا ليس فقط هو الذى اكتشف وساعد جابرييل جارثيا ماركيز فى تكوينه الصحفى كما فعل أيضًا إدواردو ثلاميا بوردا فى الأدب قبل ذلك بعام بل أيضًا أثَّر بثقافته الواسعة فى مجال الإنسانيات والأدب والموسيقى طوال علاقة يومية امتدت طيلة ثلاث سنوات. إنَّه كاتب لبعض السير الذاتية للقادة الليبراليين. ويُعزى إلى كليمنتى ما نويل ثبالا أنه الأول أو أحد الأوائل فى اكتشاف القيمة الأدبية للموسيقى الشعبية التى كان لها أكبر التأثير فى جارثيا ماركين. لقد كان ثبالا قليل الكلام ومنعزلا ، فى كثير من الأحيان كان ينبغى اخراج الموضوعات منه بالكاد ولكنه - على العكس من ذلك تمامًا - كان متحمسًا للثقافة وللشباب النابغين حيث لم تمنعه الصفات التى انطوت عليها نفسه ، والمذكوره آنفًا من إقامة علاقة سلسة مع الشباب الذين كانوا يلتفون حوله. وعندما كان يبدأ المحادثة يُدرك هؤلاء أنَّ قلة كلامه ترجع إلى احترامه للحدث الأدبى. وقبل أنْ يتفرغ تمامًا للأعمال الثقافية والصحفية فى بوجوتا وبارَانكيا وقرطاجنة كان قد شارك خلال العشرينيات فى الجماعة السياسية لوس نويبوس (الجدد) التى كان ينتمى إليها أيضًا خورخى إلييسير جايتان ، والتى استمدت حماسها من الثورتين الروسية والمكسيكية. وسيكون ثبالا على وجه التحديد سكرتيرًا لسفارة الاتحاد السوفيتى فى وقت لاحق مما سيمنعه من تحقيق أحد طموحاته الغالية : وهو تعيينه قنصلاً لكولومبيا فى بلباو .

أمَّا الشاعر والقصاصْ والرسام هيكتور روخاس إيراثو فكان يكبرْ جارثيا ماركيز بستة أعوام وكان متعاونًا بارزًا فى صحيفة الأونيفرسال (العالمى) ، كان قارئًا شرها ونهمًا ، ومحاورًا جذَّابًا يتحدث باستعارات حية وغير مألوفة. " لقد كان حدثًا أدبيًا حيًا ، كأنه كتاب ينتقل ويتحدث ويكثر من الايماءات. " إنَّ حيويته وخياله وأسلوبه الخالى من الشوائب ، والانسيابى والرنان مثل إحساسه بالاستعارة ، وكل ذلك كان عظيم

النفع لجارثيا ماركيز خلال فترة التكوين الأدبى والصحفى ، ولم يتوان جابرييل فى الاعتراف بذلك حيث قال : " إنَّ معرفته بهيكتور روخاس إيراثو كان بالنسبة له تجربة هائلة وواعدة"(١٤).

وكان جوستابو إيبارا ميرلانو من نفس عمر روخاس إيراثو ، وقد درس الثانوية فى مدرسة نويستر اسنيورا ديل روساريو فى بوجوتا ، حيث تعلم التعود على الكلاسيكين الإغريق والإسبان. وعندما عاد إلى قرطاجنة درس اليونانية فى أوقات فراغه من العمل بمزرعته فى ترنيرا. وبينما كان جارثيا ماركيز وروخاس إيراثو متفرغين للصحافه كان جوستابو إيبارا ميرلانو يجتهد فى التدريس بمدرسة سان بيدرو كلابير وخاصة فى المطالعة المنتظمة والبارزة للكلاسيكيين الإغريق والإسبان والأمريكان .وسيكون إيبارا ميرلانو محامى المستقبل فى الجمارك. لقد كان شخصاً ودوداً عزيزاً ذا صوت انسيابى وهادىء ، وكان أكثر القراء تعمقاً بين أفراد المجموعة .

وكان هذان الاثنان يشكلان مع جابرييل ثلاثيًا لا ينفصل عن بعضه داخل المجموعة ، ثلاثيًا يمثل عصبًا واحداً وصوتًا واحداً لخدمة الأدب وكان هذا الثلاثى متعاونًا ومتماسكًا تحت قيادة أستاذهم كليمنتى ما نويل ثبالا. وكان ثبالا يقدم لهم – مثل قرائه – قصيدة مختارة من الشعر الوطنى والعالمى فى ركنه بصحيفة الأونيفرسال (العالمى). وكان لكل منهم مضماره المحدد تقريباً. وبينما كان روخاس إيراثو قارئًا شاملاً ولكن بتركيز على الشعر وإيبارا ميرلانو يحفظ أفضل الأشعار الكلاسيكية الإغريقية والإسبانية ، كان جارثيا ماركيز – دون أن يغفل على الإطلاق الشعر – دارسًا دقيقًا لتقنية القصة ، وبالتالى فإنَّ الثلاثى كان يشترك فى ثلاثة أمور : الصداقة والأدب والمدينة .

وفى مدينة صغيرة وساحرة مثل قرطاجنة حيث كان يغلب عليها الطابع الاستيطانى فى الماضى أكثر من الحاضر وكانت هذه المجموعة مولعة بالأدب لدرجة الجنون من بين الأفراد القلائل الأحياء حقيقة من سكان المدينة ذات خبرة طاغية من الذهاب والإياب بين الحياة والأدب ، ولكن مجتمع ذلك الوقت كان ينظر إلى أفرادها كأنهم أنماط غريبة. مفكرون مبهمون غامضون موجودون فى كل مكان. فقد كانوا يلتقون فى كل مكان وفى أية ساعة فى الصباح والمساء والليل فى الصحيفة أو حيث يعيش روخاس إيرثو وإيبارا ميرلانو فى بيه دى لابويا ، وفى وسط المدينة عالية الأسوار

حيث كان يعيش جارثيا ماركيز فى منزل فرانثيسكو مونيرا فى ميدان سانتو دومينجو فى حديقة بوليفار ، وأمام باب المكتبة وعلى رصيف ميناء لوس بيجاسوس وفى المناطق الحديثة فى بوكاجراندى وعند الشاطىء .

وقد اعتاد جابرييل الانتهاء من توقيع مقاله أو ذلك المجهول (بدون توقيع) فى تمام الواحدة مساءً ، وما تبقى من المساء كان يقضيه فى الحديث وقراءة الشعر مع روخاس إيراثو إيبارا ميرلانو ودونالدو بوسا . وفى منتصف الليل كان يقوم باختيار وتنسيق أنباء البرقيات الدولية ، أو بإملاء نصوصها مباشرةً على الطباعين حينما لا يكون هناك متسع من الوقت ، أو فى التسامر مع الأصدقاء دون أن يدركوا أنهم يعدون فى تلك الدردشات معظم طبعة اليوم التالى وهكذا حتى ينتهوا من إعداد وإنهاء طبعة الصحيفة فى الساعة الواحدة أو الثانية من فجر اليوم التالى . وكما كان يعيش بالليل فقد كان يقوم بترتيب الأفكار الخاصة بالعمل مع الطباعين وكان يشهد الحياة الساخنة فى الصباح عند رصيف خليج لاس أنيماس حيث يوجد السوق المركزى أو بالذهاب إلى منزل الأسرةِ المستأجرة لماتيلدى أريناليس أو الخمارات الاستيطانية فى الميناء. وأثناء تناولهم الكئوس كانوا يستمعون إلى قصص الطوافين ليلاً التى يَغذُّون بها جانبًا من صحافتهم وجانبًا من رواياتهم . ويذكر جارثيا ماركيز بامتنان خاص الحكايات التى كان يرويها له الحارس أو الخفير بينما كان يتفحص بواسطة ضربات ضعيفه أماكن من أزمنة أخرى مغلقة فى مبنى الخمارات الاستيطانية. كانت كثير منها أساطير لمحصوله الشخصى وكان يحكيها لهم – وعلى سبيل المثال – قصة الأمة الحبشية المدفونة هناك ، التى كان قد اشتراها ثرى البلدة بمثل وزنها ذهبًا ، والتى اغتالها بنفسه للتخلص من سحر رأسها . والكاتب مثل ثرى البلدة تأثر بسحر هذه الحكاية ولم يتخلص منها إلا بعد ذلك بخمسة وأربعين عامًا عندما أدرجها فى قصته " من الحب وشياطين أخرى " ، ولكن الحكاية التى سيظل جابرييل جارثيا ماركيز ممتنًا لها هى للحارس أو الخفير المجهول والخيالى. هى "حكاية بلاكمان" الرجل نصف الساحر ونصف السفاح الذى أُخذَ إلى قرطاجنة لكى يقوم بتحنيط نائب الملك الذى غرق فى الجب لكى يظل يحكم بعد وفاته(١٥) .

والكُتَّاب الذين كان يقرأ لهم أو يعلق على أعمالهم أو يتبادل الرأى بشأنهم مع أصدقائه بالمجموعة كانوا من الكلاسيكيين الإغريق واللاتينيين والإسبان حتى جماعة

" حجر وسماء " التى كانت لا تزال موضة فى كولومبيا وكذلك عن هاوثورن وبو وميلفيل وكيير كيجارد وكلاوديل وفوكنر ودوس باسوس وكابوتى وكولدويل وفيرجنيا وولف وجوميث دى لاسيرنا وباييخو ونيرودا والشعراء الإسبان لجيل ٢٧ وجيله. وبالصدفة فى أكتوبر ١٩٤٨ سنحت الفرصة لجابرييل جارثيا ماركيز وجوستابو إيبارا ميرلانو وهيكتور روخاس إيراثو وكليمنتى ما نويل ثبا لا للحديث فى فندق الكاريبى مع داماسو ألونصو العضو البارز فى جيل ٢٧ . إن مؤلف " أبناء الغضب " كان قد ذهب لإلقاء محاضرة عن تأثير القصة الإسبانية فى الإنجليزية ، وقد استمع إليهم بسخاء جم وتعرف على نصوصهم. وقد قرأ له روخاس إيراثو قصائده ، وأطلعه إيبارا ميرلانو على مقالاته وجارثيا ماركيز على رواياته الأولى وخاصة إلى زوجة الشاعر الروائية أولاليا جالارياتو. وعند عودته إلى أسبانيا تحدث داماسو ألونصو بحماس فى أحد مقالاته الصحفية عن تلك المجموعة من الشباب المولعين لدرجة الجنون بالأدب على ضفاف الكاريبى ، حيث وجدهم مطلعين جيداً ولديهم رغبه أكيدة فى العمل . وكان أكثر هؤلاء القراء الشرهين منهجية وتواضعًا ، وربما الأكثر تعمقًا من هذه المجموعة إيبارا ميرلانو الذى كان يحتفظ بكل ملاحظاته عن قراءاته ، وقد أعد فهرسًا منظمًا لتلك الأشعار خلال العصر الذهبى ، والتى كان يعتبرها مختارات ليست لتعمقها فقط بل لإعلانها عن التحديث. وهكذا عرف جارثيا ماركيز فضلاً عن مختارات إرشادية كاشفة لجارثيلاسو دى لابيجا وسان خوان دى لاكروث وفراى لويس دى ليون ولوبى دى بيجا وكيبيدو وجونجورا وتأملاته حول " البيت ذو السبعة أسقف " وموبى ديك وسوفكليس . وكان إيبارا ميرلانو قد أوصى أصدقاءه بقراءة هذه الأشعار بعناية واهتمام كبيرين لأنها تتضمن بعض عناصر التحديث أو الحداثة . هذه الإرشادات التى اعترف بها جارثيا ماركيز فيما بعد بأنها لا تقدر بثمن لأنها سمحت له بقراءة الكلاسيكيين الإسبان مرة أخرى بمنظور مختلف عن ذلك الذى كان قد تبناه عندما قرأ عنهم فى ثيباكيرا منذ سنوات طويلة. إنَّ أسرة العصر الذهبى العظيمة لن تغادر ذهنه ووجدانه مطلقًا حتى أنه كان يصطحبها معه فى كل مكان ؛ دائمًا كان يأخذ معه مختارات جيدة من الكلاسيكيين الإسبان .

ومن بين القراءات التى كانوا يقرأونها بصوت عالٍ يذكر إيبارا ميرلانو : " موبى ديك" " والسيده دالوى " ، قصة فيرجينيا وولف التى أثَّرت كثيراً وسحرت جابرييل جارثيا ماركيز كانوا يقرأونها وهم يسيرون على ترعة تورباكو البلدة المجاورة لقرطاجنة حيث ذهبوا لقضاء عطلة الأسبوع . لقد قرأو ا القصة وعلقوا عليها بصوتٍ عالٍ ، واستمتع بها جابرييل الذى سيشق فيما بعد طريقًا جديداً . وبالطبع كان جارثيا ماركيز أكثرهم تحمسًا ، وسرعان ما أثبت برهانًا على حماسه هذا بإصدار قصته الأولى "الورقة الساقطة" .

وكان من الشائع أنَّ الاشتراك والتجاور الأدبى والصحفى لكل من روخاس إيراثو وجارثيا ماركيز سيتم التعبير عنه بالمزاح الساخر ، فطلاقة الخيال هذه سمحت للكاريبيين مجابهة الحياة دون حدود ووقار وجلال لوس كتشاكوس (جماعة المثقفين المتأنقين من المحامين والتجار والنبلاء). وكأهالى القرية يستعيرون من بعضهم الملح والشاكوش وسرج الحصان ، كان هؤلاء الجيران فى أعمدة صحيفة الأونيفرسال (العالمى) يُعيرون بعضهم الصور المجازية والاستعارات والموضوعات والشخصيات ، وعلاوة على ذلك فقد ظهر – وكشىء طبيعى تماماً – ذات مرة فى عمود جارثيا ماركيز " نقطة ومن البداية " مقال " لروخاس إيراثو عن الشاعر المفترض ثيسار جيراً بالديث[١٦]. المفترض : فى الواقع كان مصطلحًا اخترعه روخاس إيراثو وقبلته المجموعة كان يسمح لها بوضع نموذج للشاعر الأمريكى – وفى الوقت ذاته كان أفرادها يسخرون من الحياة والناس والفكر ، ولكن فى غاية الجدية فى دردشاتهم كانوا يعبرون عن رؤيتهم للتاريخ والثقافة والفن الأمريكى .

ولقد توسعت وتوثقت قراءات جارثيا ماركيز التى كان يقوم بها فى وقت واحد مع المفكر الشاب والمحامى مواطن قرطاجنة راميرو دى لا إيسبيريا ، الذى لم يكن عضواً فى جماعة قرطاجنة ، ولكن كان القصاص يرتبط به فى علاقة شخصيه وأدبية مكثفة ومثمرة مثل علاقته بالآخرين .

وسيصبح دى لا إسبريا متعاونًا دائمًا فى صحيفة "الاسبكتادور" (المشاهد) بعد بضع سنوات. وكان قد أنهى دراسته بكلية الحقوق فى ١٩٤٧ فى جامعة

أكسترنادو دى كولومبيا فى بوجوتا ولكن كثيراً من الجامعيين آنذاك لم يستطيعوا البقاء فى العام التالى بسبب أحداث بوجوتا الدامية التى منعته الدراسة من قراءتها . وفى تلك اللحظة من الحماس الأدبى التقى لا إسبيريا ذات يوم مع جارثيا ماركيز فى ركن ما بالمدينة الاستيطانية وكان قد وصل إليها مؤخراً ، ومنذ الوهلة الأولى بدأ الاثنان الحديث عن الأدب وتبادل الكتب. وظلا يقرآن لنفس مجموعة الكتاب حتى منتصف ١٩٤٩ ويعيدان القراءة لهؤلاء وهم : فوكنر ودوس باسوس وكابوتى وشتاينبيك وساورويان وهوكسلى ومالابارتى وفيرجينيا وولف. وعلى الرغم من مناقشاتهما الطويلة جداً حول كابوتى وساورويان فقد كانا متفقين على إعجابهما بفن السرد الجديد لفوكنر وفيرجينيا وولف ، وعموماً فقد كان تقاربهما بالنسبة للقصة كبيراً عما كان لجارثيا ماركيز مع الجماعة لأنهما كانا يركزان على الرواية .

وقد جمع بينهما اشتراكهما المباشر مع " جماعة المازحين " ، التى كان من الممكن أن يكون لها دور اجتماعى نشط على نحو ما حدث عندما قاما بتتويج ملكتى جمال الطالبات فى يولية ١٩٤٩ بإلقاء خطابين سيئين ورنانين حسب العادة ولكنها تضمنا مزاحاً وسخرية لكى يضحكا بحرية تامة فى الخلف ، ضحكات مشتركة انتهت بهم إلى تبادل الخطابين : قرأ جارثيا ماركيز الخطاب الذى كتبه إسبيريا كما قام الآخر بقراءة ماكتبه ماركيز مثلما حدث فى ألعاب الطفولة فى رواية " مائة عام من العزلة " بين خوسيه أركاديو سيجوندو وأوريليانو سيجوندو فإن الخطابين ظلاً فى حالة تبادل إلى الأبد ، وانتهى الأمر بإسناد خطاب لجارثيا ماركيز كان فى الحقيقة لراميرو إسبيريا وإسناد خطاب لإسبيريا كان فى الواقع لجارثيا ماركيز(١٧) .

و هناك أشكالٌ أخرى للمزاح يمكن أن تكون سلبية ولكنها ليست أقل جدوى ؛ عندما كانا يجتمعان فى ميدان بوليفار أمام قصر محكمة التفتيش وباب المكتبة للاستماع إلى الحكايات الرابيلية (نسبة إلى رابيلى الأديب الفرنسى المشهور) من صديقهما أنطونيو لويس كابراليس والمعروف باسم نيولس كابراليس ، وهو صانع أسرةٍ ويتمتع بخيالٍ واسعٍ. وكانت حكاياته تتميز بخاصية : كانت كلها تدور حول عضوه الذكرى الذى يتحول إلى شخصية ذات مغامرات مضحكة.

إنَّ أساطير العضو الذكرى التى كان يحكيها نيوليس كابراليس كانت لا تنتهى مثلما هوالحال فى " ألف ليله وليلة " لأنها كانت مرة تلو المرة تزداد تنوعًا وثراء لكثرة حظوظه السعيدة وكبواته. واستنادًا لما يقوله راميرو دى إسبيريا فإن هذه الحكايات المليئة بالصور وبالأسطورة الطاغية كانت تمثل التأثير الأول لرابيلى فى جارثيا ماركيز قبل أن يقرأ جارجانتوا وبانتجرويل" بوقت طويل. وهذا العمل - بلا شك - سيؤثر فى جارثيا ماركيز عند صياغته لهذه الظاهرة الذكورية الطاغية لدى أفراد أسرة بويندا .

وبعد قليل من انضمامه إلى صحيفة الأونيفرسال (العالمى) ، وفى دفء عودته إلى موطنه وجو الجماعة وقراءته للمؤلفين الأمريكين ، بدأ جارثيا ماركيز يكتب على أوراق الصحف ذات القطع الكبير كتابًا غامضًا وطويلاً بنية أن يكون قصته الأولى. وكما رأينا كان يقتصر قبل ذلك على كتابة قصص كابوسيه قريبه جدًا من كافكا ولكنها كانت مصطنعة ومجردة على الرغم من كونها مستوحاة من بعض أشباح طفولته. إن قراءته للأمريكيين علمته أن الأمر ليس هكذا ، وأن كل عالم طفولته فى أراكاتاكا ومنزل الأجداد ، وكذلك حروب الجد والاستغلال الأمريكى لزراعات الموز يستحق أن يحكى ويسرد. عندئذ بدأ يكتب قصته " المنزل " دون أن يعرف كيف وإلى أين يمضى ، وإن علم من أين بدأ. وقد احتاج إلى عامين لكى يدرك أنه تائه. واحتاج إلى ثلاثه أو أربعة أعوام لكى يقتنع نهائيًا بأن هذه القصة كانت طردًا كبيرًا للغاية بالنسبة لقلة خبرته الأدبية وما كان يقصد كتابته فى تلك السن هو " مائة عام من العزلة " .

وبالطريقه التى أمدها الأمريكيون إياه ، وخاصة فوكنر اجتهد جارثيا ماركيز وشمَّر عن ساعد الجد ليكتب قصته الأولى. وكان يأخذ لفافات ورق الصحف معه إلى كل مكان : إلى صالة التحرير بالصحيفة ، إلى المقاهى والميادين والقرى ليقرأها على أصدقائه وأقاربه وشركائه الأدبيين ، كما فعل مع حكاياته الأولى وسيفعل ذلك مع كل كتاب من كتبه. وفى بعض عطلات نهاية الأسبوع كان جارثياماركيز يذهب إلى توز باكو القرية المجاورة حيث كانت تعيش أسرة راميرو دى لا إسبيريا حيث ضيعة "ربوة الشيطان" وكان يقرأ خلال ساعات على صديقه إسبيريا ووالدته وشقيقته فصولاً كاملة من " الماموترتيو " المفكرة أو المجلد الكبير وهو اللقب الذى أطلقه على" المنزل " بين أصدقائه. وسرعان ما كان يتوقف عن القراءة لكى يشير بقبضة يده قائلاً : "إنَّ هذه الشخصية تحتاج إلى مزيد من الانضباط " وأثناء تلك القراءات فاجأت توماسا إسبيريا الروائى الشاب

كاشفة له عن مصادره الروائية . كان جارثيا ماركيز يقرأ وصفًا للعقيد أوريليا نو بوينديا عندما قاطعته توماسا بقولها : " إن هذا هو الجنرال رفائيل أوريبى " فسألها وكيف عرفتيه ؟ فأجابته قائلة : عرفته بالمعصمين لأنَّ الجنرال رفائيل أوريبى أوريبى كان غليظ المعصمين " وكانت جلسات القراءة الطويلة يصحبها كئووس الروم المعتق مع القراصيا المجففة التى كان والد إسبيريا يخفيها فى الجراج ، وكان جابرييل وراميرو يسرقانها بأنبوبة محقن .

وفى الواقع كانت المصادر التى يستعين بها جارثيا ماركيز متنوعة : منزل الأجداد والأجداد أنفسهم ومأساة أراكاتاكا كخلفية وحروب الجد والشخصيات شبه الأسطورية للجنرالين أوروبيى أوروبيى وبينخامين إيريرا ، وأساطير العقداء أوريليانو ناودين وفرانثيسكو بوينديا ورامون بوينديا . والآن وبعد أن عاد إلى عالم طفولته وثقافته الكاريبية لم تكن المشكلة عما يكتب بل كانت كيفية الكتابة كما يعترف بنفسه ، وأنه سيحتاج إلى خمس عشرة سنة لكى يتعلم ذلك .

واستنادًا للأجزاء التى وصلت إلينا من هذه القصة[١٨] ، وطبقًا للتعليمات التى أبداها راميرو دى إسبيريا وأخرون ممن قرأوا بعض فصولها ، يرى بجلاء أنَّ الموضوع الأساسى هو المنزل والأسرة البطريركية أسرة بوينديا التى كانت تعيش مأساتها وحدها داخل المنزل . وترى أيضًا شخصية أساسية وهى شخصية العقيد أوريليانو بوينديا وهو ينعى عزلته (الناجمة عن هزائمه العسكرية) فى عالم تبدو فيه الأشياء لها حياتها الخاصة أيضًا . إنَّ الهواء الذى يتم استنشاقه فى هذه الأجزاء من "المنزل" ليس الوحدة ولا الاشتياق أو الحنين تجاه الأشخاص والأشياء والأزمنة الماضية. ولكن كان هذا العمل بصفة عامة عملاً بلا شكل ومفككًا باستطرادات مبالغ فيها واستخدام غبى للزمن وواقعية ساذجة لم تسمح بالاتصال بالخيال الفانتازى. لم يستطع جارثيا ماركيز انتزاع حماس أصدقائه والأهم من ذلك حماسه الخاص. ولذلك ترك قصة " المنزل " بعض الوقت ، وكان يعود إليها من حين لآخر ، وفى تلك الأثناء كان جارثيا ماركيز يكتب " الورقة الساقطة " ويكمل حكايات "عيون كلب أزرق" واستمر فى ممارسته للصحافة ، كما سيعترف بذلك بعد بضع سنوات بأن القصة التى أراد أن يكتبها وهو فى الحادية والعشرين من العمر كانت "طردًا كبيرًا مبالغًا فيه " إذا أخذنا فى الاعتبار قلة خبرته الأدبية .

إن تلك الفترة من سبتمبر عام ١٩٤٨[١٩] قد شهدت أحد أهم الأحداث الحاسمة فى حياة جارثيا ماركيز وهو لقاؤه مع جماعة المازحين فى كولومبيا وهم كبار أصدقائه فى " جماعة بارانكيا" . لقد علم جارثيا ماركيز وكليمنتى ما نويل ثبالا فى قرطاجنة أن القدْرَ الأدبية كانت فى أوج غليانها فى عاصمة الأطلسى ، وقد استعر هذا الغليان على أيدى الصحفيين ألفونسو فوينمايور وخيرمان بارجاس والصحفى والروائى ألبارو ثيبدا ساموديو والرسام أليخاندرو أوبريجون والمدرسان خوسيه فيلكس فوينمايور ورامون بينيس. وقد كتب بعضهم عن حكايات جارثياماركيز التى نشرت فى " المشاهد".

ولا يعرف بوضوح متى حدث الاتصال الأول بين جارثيا ماركيز وأصدقائه من بارانكيا . ويكرر خيرمان بارجاس طول حياته أنه وألبارو ساموديو تعرفا على جارثيا ماكيز أولاً فى إدارة تحرير صحيفة (الوطن) . لقد جاء يسأل عنا وقد تحدثنا بعض الشيء وتبادلنا المفاهيم والآراء وفى الليل ذهبنا للنزهة[٢٠]. ومن الممكن أن يكون ذلك هو الاتصال الأول ، ولكن يبدو أنه لا جدال حول حدوث الاتصال الأول الشكلى والمتأنى خلال شهر سبتمبر من عام ١٩٤٨ بفضل الرحلة التى قام بها إلى بارانكيا كلٌ من جارثيا ماركيز وإيباراً ميرلانو .

لقد كان اللقاء أدبيًا هائلاً ، أى وديا خلال مساء وجزء من الليل ، حيث دخل جارثيا ماركيز وجوستابو إيباراً ميرلانو مع ألفونسو فوينمايور وخيرمان بارجاس وأليخاندرو أوبريحون فى مناقشات متشابكة ومعقدة لا تنتهى. وكان الصوت المهيمن فيها لفوينمايور وإيبارا ميرلانو وقادهما تبحرهما الأدبى إلى التطرق إلى شعر الملاحم الفرنسى والإسبانى : وعمًا إذا كانت ملحمة السيد وأغنية رولاند قد تم تأليفهما بواسطة شخص أو عدة أشخاص ، وعمًا إذا كان العرف هو الذى ألفهما ثم قام شخص بتجميعهما وأعطاهما الشكل الذى وجدناهما عليه ، وعما إذا كان عرف ملحمى فى كلتا اللغتين[٢١] ، وبين الضجيج الإتيلى الأدبى سرعان ما ظهر صوت متعقل " وصائب " دقيق كدقة الجراح فى التحليلات ؛ صوت جارثيا ماركيز وهذا إلى جانب الشهرة التى اكتسبها من حكاياته الأولى مما بهر ألفونسو فوينمايور بقوة وكذلك نجل الكاتب ، خوسيه فيلكس فوينمايور ونائب مدير صحيفة "الهيرالد" ولهذا ففى نهاية السهرة طلب جابرييل بنغمة سرية ألا يذهب إلى قرطاجنة فى صباح اليوم التالى دون أن يتحدث معه أولاً .

وقد بكَّر فوينمايور لكى يشيع فى صحيفته المزايا العظيمة للشاب جارثيا ماركيز الذى تعرف عليه مؤخر ، وحاول إقناع مدير الصحيفة خوان ب. فرنانديث أورتيجا بأن "الهيرالد" تحتاج هذا الواعد الجديد فى مجالى الصحافة والأدب. ولم يشك كلاهما فى أسباب هذا التحمس ، ولكنهما أطلعاه على صعوبة وقسوة الأحداث: لقد كانت الصحيفة في ظروف اقتصادية سيئة، ولم يكن بوسعها توظيف مزيدٍ من الأشخاص. حينئذٍ فكر مليًا فوينمايور وقال لهم : " إنَّ جارثيا ماركيز جاء ليعمل معنا وستدفعون له نصفَ ما تدفعونه لى" ، نظر المدير مستغربًا وأجابه بأنه لم يكن يعرف أنَّ فوينمايور سفيهًا إلى هذه الدرجة لكى يقترح هذا. واختتم فوينمايور كلامه قائلاً : بالطبع، إننى فى غاية السفه لكى أقدم هذا الاقتراح .

ومع ذلك وعلى الرغم من أن جارثيا ماركيز فَطِنَ بأن مستقبله سيكون فى هذه المدينة مع أصدقائه الجُدد ، فقد كان عليه الانتظار خمسة عشر شهرًا حتى يتبلور انضمامه إلى " الهيرالد" لكى يُقيم فى بارَّانكيا .

وينبغى التأكيد على أن جارثياماركيز كتب " الورقة الساقطة " فى بارانكيا متنقلاً بين " الهيرالد " وبيت الهوى المسمَّى ناطحة السحاب[٢٢] ، والحقيقة أنه كتبها فى قرطاجنة ، ولكنه أعاد كتابتها فى بارَّانكيا اعتبارًا من الشهور الأولى لعام ١٩٥٠ .

وكما قلنا لقد أعطى الروائيون الأمريكان الدفعة والحافز والمنهج لجارثياماركيز لكى يحاول بلورة عالمه القصصى انطلاقًا من الخبرات الشخصية والأسرية لطفولته ولكنه فشل فى عمله " المنزل " ، حينئذ قام بفصل عدة فروع أو أغصان من الجذع الرئيسى لكى يقوم بزراعة كل واحد منها على حدة وبطرق مختلفة على مسافات متقاربة نسبيًا حتى يستطيع ذات يوم التوصل إلى لب قصة شاملة ، وكان أول فرع مهم " الورقة الساقطة " ، وليس واضحًا تاريخ البداية فى كتابتها ، المرجح أن يكون ذلك فى الشهور الأخيرة من عام ١٩٤٨[٢٣] بعد أن جرب حظه مع القصة الأولى وبعد أن قرأ مع روخاس إيراثو وإيبارا ميرلانو " بينما احتضر " و " السيدة دالواى " حيث سمحت له تقنياتهما المركبة من الاقتراب الأول والواسع من عالم طفولته .

وبينما كان يكتب " الورقة الساقطة " بحماس أكبر من الذى أولاه لعمله " المنزل " ظلَّ يعمل فى الأونيفرسال (العالمى) يكتب عموده العشوائى " نقطة ومن البداية "

وهو يقرأ بشراهة مع أصدقاء الجماعة فى جلسات ورشة أدبية حقيقية فى الوقت الذى يحاول فيه إتمام دراسة الحقوق فى جامعة قرطاجنة حتى ولو كان ذلك لإرضاء والده فقط ، ذلك الذى كان يحلم بمحام فى الأسرة. إن هذا العمل المفرط ، إلى جانب تردى الحالة الاقتصادية التى كان يعيشها قد أثر إلى حد كبير على صحته. ويذكر جوستابو إيبارا ميرلانو : إن جارثيا ماركيز كان يعيش فى ذلك الحين فى ظروف متواضعة للغاية على الرغم من أن الصحيفة كانت تدفع له اثنين وثلاثين سنتى من البيزو عن كل مقال ، ومع ذلك لم يسمع منه قط الشكوى من قلة النقود. لقد كان جارثيا ماركيز أشبه باستقلال ذاتى - كان أشبه برجل فوق الظروف المادية وكانت نفسه تنطوى على أناقة داخلية تهتم فقط بمشاكل الشعر والقصة. ولكن عندما علم راميرور دى لا إسبيريا بما يدفعونه له عن كل مقال قال لجارثيا ماركيز بأمانة : إنه فى صحيفة الأونيفرسال (العالمى) يستغلونه خاصةً أنه كان يراه شاحب الوجه ومثقلاً لكثرة العمل ، وطلب منه الذهاب إلى مكان آخر لأداء عمله فى ظروف أكثر سخاء وسعةً .

وفى تلك الظروف وخاصةً البرد الشديد فى قرطاجنة فى الصباح كان حتميًا أنْ يصاب الكاتب بالتهاب رئوى اضطره فى أواخر مارس ١٩٤٩ إلى الراحة التامة لمدة شهر ونصف مع والديه فى سوكرى (ومن العجيب أن جده كان قد توفى فى نفس الشهر نتيجة التهاب رئوى أُصيب به من جراء ساعات الصباح الخائنة فى سانتا مارتا). ومع ذلك فإن تدهور صحته أفاده فى إثراء رصيده الأدبى ؛ ليس فقط لأنه كان لديه متسع من الوقت فضلاً عن الهدوء اللذين مكناه من استكمال روايته الأولى " الورقة الساقطة" ، بل أيضًا لكثرة الكتب الجوهرية التى قرأها أثناء فترة نقاهته تحت ظلال أشجار المانجو بمنزل والديه. وعندما لم يجد ما يقرأه أرسل خطابًا إلى أصدقاءه فى جماعة بارانكيا وكان لا يزال يرتبط معهم بعلاقات صداقة وطيدة ووثيقة ، طلب منهم أن يرسلوا له شيئًا ليقرأه. لذلك قام العالم القطالونى رامون بينيس وخيرمان بارجاس وألبارو ثيبيدا ساموديو بتعبئة ثلاث كراتين من الكتب وقام الأخير بتسليمها لشقيقه لويس إنريكى جارثيا ماركيز لكى يقوم بإرسالها إلى سوكرى فى الطائرة أو باللنش . وعندما فتح جارثيا ماركيز الطرد وجد ثلاث كراتين مليئة بالقصص وقد احتوت على

كل شيء: أهم القصص الحديثة في أوروبا ، وكتبًا أخرى لم يكن قد قرأها بعد لفوكنر ودوس باسوس وكابوتي أندرسون ودريسير وهوكسلي وكالدويل وفيرجينيا وولف .

اضطجع جارثيا ماركيز في شبكة للنوم معلقة بغصني مانجو على ضفاف نهر موخانا وبدأ يقرأ ، لكنه لم يقرأ فقط ، بل أخذ في تفكيك وتجزيء كل رواية وقصة مثل الذي يفك ساعة قطعة قطعة حتى يكتشف الآليات المعقدة والمتنوعة لفن السرد. وعندما أعاد الكتب إلى رفاقه في بارانكيا بعد شهرين أو ثلاثه أشهر كان قد انتهى من روايته الأولى " الورقة الساقطة" ووجد حلاً للمشكلة التقنية للقصة بصفةٍ عامةٍ .

وبعد نقاهةٍ ليست بطويلة بفضل وصفات الطب التجانسي التي قدمها له والده ورعاية والدته عاد جارثيا ماركيز إلى قرطاجنة في منتصف شهر مايو ، وانضم مرة أخرى إلى الأونيفرسال (العالمي) ، وقد حياه صديقه وجاره في العمود الصحفي هيكتور روخاس إيراثو بملحوظة دون توقيع أعلن فيها استكمال القصه الأولى للمؤلف الشاب البالغ من العمر اثنين وعشرين عامًا : على ضفة نهر لاماخونا (...) كان جارثيا ماركيز يضع اللمسات الأخيرة لقصته – التي ستصدر قريبًا – بعنوان " الآن نحصد العشب ". لقد سنحت لنا الفرصة للاطلاع على أصولها ، ولدينا القدرة للحكم عليها بوصفها واحدة من أهم الجهود التي تتم حاليًا في كولومبيا لكي تضع بلادنا على دروب القصة المعاصرة(٢٤) .

إنَّ أول من قرأ القصة كاملة في تلك الأيام بالعنوان النهائي لا أوخاراسكا (الورقة الساقطة) كان جوستابو إيبارا ميرلانو الدارس المنهجي للكلاسيكيين الإغريق. لقد قرأها بنفس الحب الذي يستحقه صديقه ورفيقه بالمجموعة ، وقد اتفق مع الحكم الذي أعلن عنه روخاس إيراثو في ملحوظته التي نشرها بدون توقيع ، ولكن أكثر شيء أثر فيه هو أنه وجد في هذه القصة الأولى لجارثيا ماركيز موضوعًا كان قد تناوله سوفكليس في عمله " أنتيجونا " في القرن الخامس قبل الميلاد. وسواء في عمل الإغريقي أو في عمل الكولومبي فإن دفن جثة إزاء معارضة شعب هو الموضوع الرئيسي الذي يقوى ويوجه طبيعة النزاع. ولذلك فعندما أعاد إيبارا ميرلانو الأصل وقال له بدهشة تغمره الفرحة : إن قصته جزء من أنتيجونا ظل جارثيا ماركيز مذهولاً

وطلب من إيبارا ميرلانو أن يعيره قصة سوفكليس وذهب إلى منزله ليقرأها على وجه السرعة التى لا يمكن تأجيلها(٢٥) .

وهذا التوافق الموضوعى للروائى الكولومبى الشاب البالغ من العمر اثنين وعشرين عامًا مع الأستاذ الإغريقى جعل إيبارا ميرلانو يفكر أن صديقه يمتلك الجنى اللازم لكى يصبح قصاصًا منقطع النظير ذا مميزات كلاسيكية ومنذ تلك اللحظة سيتابعه باهتمام بالغ فى كل رواية وقصة. أما جارثيا ماركيز فمن جانبه التهم كافة أعمال سوفكليس بنفس السحر والإعجاب الذى كان قد قرأ به " ألف ليله وليلة " وهو لا يزال فى التاسعة وأخيرًا أعمال كافكا وفوكنر وفيرجنيا وولف . لقد درسها بناءً على ملحوظات وتوجيهات إيبارا ميرلانو. وطبقًا لاعتراف جارثيا ماركيز فإن صديقه كان يختبره فى قراءاته للأستاذ الأغريقى(٢٦). وبهذه التوجيهات وتلك الإيحاءات القديمة والجديدة قام جارثيا ماركيز بإعادة كتابة بعض جوانب " الورقة الساقطة" وفى تعبير دائم عن امتنانه وإعجابه بسوفكليس (والذى سيكون اعتبارًا من تلك اللحظة أستاذه الدائم والقريب إلى نفسه) فقد اقتبس من " أنتيجونا " أحد الاستشهادات. وقد كان هذا أول الكمائن التى نصبها القصاص للنقاد والمدققين المتمحصين ، وبالفعل واستنادًا إلى هذا الاستشهاد فإن هؤلاء النقاد قد فسروا وروجوا فيما بعد للتأثير الكبير لسوفكليس على جارثيا ماركيز.

وهو لم ينكر هذا التأثير الذى وصل إليه بدون شك عبر الثقافة الغربية وفى الواقع كان تاريخ أراكاتاكا وطفولته العجيبة على ضوء عمل ويليام فوكنر وفيرجينيا وولف هما اللذان أمداه بالنسيج الأساسى لقصته الأولى: فالمنزل الذى شهد ولادته وشجرة الياسمين والأرواح ومنزل الصيدلية التى زارها الدكتور أنطونيو باربوسا الذى سيندمج مع البلجيكى المنتحر السيد إيميليو الفرنسى لكى يبدع شخصية الطبيب الغامض الذى انتحر وشخصية الجد ونزوحه من بارانكاس والهنود الحمر الفلاحين وبطولاتهم الحربية ، وصورة الأم التى تبدو سلسة ولكنها صارمة ، والترحال شبه الدائم للوالد ، وشركة الفواكه المتحدة والتقدم الزائف الناجم عن استغلال مزارع الموز الذى أدى فى نهاية إلى الخراب والعزلة. والقطار الأصفر الذى كان يصل كل صباح الساعة الحادية عشرة بينما كان المؤلف يتعلم الحروف الهجائية فى مدرسة مونتيسورى وفى النهاية مأساة أراكاتاكا وهو يرى عاجزًا رياح التاريخ وهى تهب .

أما فيما يتعلق بعمله الفاشل " المنزل " الذى كان وليداً ممسوخًا كبير الحجم يضم بؤراً وشخصيات هامة فى الأعمال اللاحقة لجارثيا ماركيز بما فى ذلك " مائة عام من العزلة " و"الورقة الساقطة " ، وكانت الأخيرة منهما بمثابة القصة الأولى التى كانت بها بعض العيوب التركيبية والأسلوبية ولكنها أعلنت بلا خطأ عن الأصالة والقوة الإبداعية لجارثيا ماركيز : إنها العمل الذى أعلن ميلاد ماكوندو وهى كذلك مثل "المنزل" تعلن تقريبًا عن الكتب اللاحقة للمؤلف حتى " خريف البطريرك ".

ويعد عام من هروب جارثيا ماركيز من عاصمةالبلاد بسبب أحداث بوجوتا الخطيرة عاد إليها ليستعيد ويمتلك ثقافته الكاريبية ، والأشباح الهائلة لطفولته حيث عاش أهم اللحظات الحاسمة الفاصلة فى حياته لأنَّ مصيره الأدبى كان سيختلف تمامًا إذا لم يعد ويدرك فى الوقت المناسب أن القوة الإبداعية تأتى من الخيال المظلم للقرية ، وأنَّ العمل الأدبى يتولد من تعاون ذكاء الكاتب مع محيطه الأسرى والتراث المجهول .

ومع ذلك فإن الحكايات الثلاثة التى نشرها فى الإسبكتادور (المشاهد) خلال العشرين شهراً التى عاشها فى قرطاجنة ، والثمانى والثلاثين مقالاً التى أسهم بها فى عموده " نقطة ومن البداية " فى الأونيفرسال (العالمى) على ما يبدو تُكذِّبُ جزئيًا هذا الرأى ، وإن كان الكاتب لم يسلك سوى طريق ضيق بعمله " المنزل " وواصل السير فيه بقصته "لا أوخاراسكا" (الورقة الساقطة) .

ويفسر لنا استمرار جارثيا ماركيز فى أعماله " على الضفة الأخرى من الموت " وحوار المرآة و" مرارة ثلاثة من الذين يمشون أثناء النوم" ، على نفس النهج النفسى والمجرد الذى بدأه فى الحكايات الثلاث التى كتبها فى بوجوتا ، على الرغم من أنه عاد من جديد إلى موضوعاته وثقافته ، أقول : ويفسر ذلك بأن انقطاعات جارثيا ماركيز لم تكن أبدًا فجائية بل كانت تدريجية وفقًا لخطة عمل وتأمل جماليين ؛ خطة منظمة جداً ، كما يفسر أيضًا بأن موضوع الكوابيس والتجزىء والانفصام الوجودى الذى بدأ مع حكايته "الاستسلام الثالث " ظل يمده بالشهرة والمجد حيث اعتبره البعض واحداً من أحسن كتاب القصص فى بلادنا .

وعلى الرغم من أنه دخل الصحافة فى إطار عنف التاسع من أبريل فإن جارثيا ماركيز الصحفى فى الأونيفرسال (العالمى) لا يزال أديبًا أكثر منه صحفيًا (وإن كان معظم عمله فى الصحيفة ضاع فى مقالات افتتاحية وملحوظات مجهولة المؤلف) ، وقد أراد منذ البداية أن يكون محققًا صحفيًا ومحررًا لصفحات الحوادث ، ولكنه سرعان ما أدرك أن هذا الأمر مستحيل بالنسبة له لأن الصحفيين الثابتين المختصين بذلك كانوا يتصرفون كأنهم ملاك هذه الصفحات. ولذلك أسهم فى عموده " نقطة ومن البداية " بنوع من العمل للتفكير والتروى عن تلك المظاهر والجوانب التى كانت تهمه فى الحياة والأدب ، ولكى يجرب أسلوبًا خاصًا تختفى فيه الحدود بين الأدب والصحافة . ويمكن التدليل أيضًا على أنَّ مؤلف " مائة عام من العزلة " لم يكتب جيدًا على الدَّوام وأن أسلوبه الواضح والمنسق والموسيقى والموعز جاء ثمرةً لبحث شاق وطويل. إن مقالاته فى قرطاجنة التى أشار فيها فى مرات قليلة للغاية إلى ظاهرة العنف التى أصابت البلاد يغلب على أسلوبها كثرة الاستعارات المتكلفة والمثيرة للاستغراب التى اقتسبها من نهر جماعة "حجر وسماء " وكان الأسلوب يغلب عليه النحو المعوج الوعر وفى كثير من الأحيان يصعب احتماله حيث لم يستطع كاتب المقالات حينئذ إدراك الوصلة المقنعة بين الأدب والصحافة. ومع ذلك فهناك تقدم ملحوظ فى مقالاته الأخيرة ، ومن بين ذلك المضاهاة الحكيمة لأقوال الحكمة الزائدة عن الحد فى أسلوب رامون جوميث دى لاسيرنا الذى يعد أحد أساتذته الأساسيين .

وفى وسط فرحة الحياة والصحافة والأدب الذى كانت تمثله قرطاجنة والأونيفرسال (العالمى) والأصدقاء والجماعة ، كل ذلك سبب فى نهاية الأمر أكبر ملل وسأم فى حياته. وعلى الرغم من التحاقه متأخرًا بالصف الثانى بكلية الحقوق فى أوائل مايو عام ١٩٤٨[٢٧] .

وعلى الرغم من غيابه المتكرر استطاع أن ينهى ذلك العام بتقديرات ممتازة لم يحدث أن حصل عليها من قبل خلال السنوات الثلاثة التى درسها فى هذا التخصص ، وإن كان قد رسب فى القانون الرومانى حيث لم يحصل فيه إلا على درجتين فقط[٢٨] ، وفى الصف الثالث فى العام التالى كان غيابه من المحاضرات كثيرًا ومتعمدًا ، وكان أداؤه الجامعى أقل بشكلٍ ملحوظ ، وقد نجح فى القانون المدنى بثلاث درجات ، ورسب فى الطب الشرعى حيث حصل على درجتين فقط ، أما فيما يتعلق بسيمينار القانون المدنى فلم

يقدم البحث النهائى الإجبارى[٢٩]. وبما أنه لم ينجح فى القانون الرومانى الذى رسب فيه فى العام الماضى أصبح راسبًا فى ثلاث مواد ، ولم يعلم بذلك إلا بعد عامٍ كاملٍ عندما عاد من بارّانكيا إلى قرطاجنه فى يناير ١٩٥١ بعد أن أقام فى موطنه عامًا كاملاً لكى يسجل فى الصف الرابع ، حينئذ علم بأنه اذا أراد استكمال دراسته ينبغى عليه أن يعيد الصف الثالث. وبالطبع رفض تمامًا هذا الكابوس وترك الدراسه نهائيًا. إن التحرر من القيود الأكاديمية - التى وصفها برناردشو ذات مرة بأنها أكبر عائق لتثقيف وتعليم شخص - كان فى غاية الفائدة والنفع لحماسه الأدبى .

والحقيقة أن الحصيلة كانت هائلة وممتازة فى أواخر ١٩٤٩ عندما ترك الجامعة عمليًا فقد أصبح لديه ست حكايات منحته عبر الاسبكتادور " المشاهد " شهرة يُحسد عليها كقصاص جيد ، وقد كتب " لا أوخا راسكا " (الورقة الساقطة) برواية جديدة وبدأ يمهد لإعداد عالم ماكوندو كما قرأ أهم الأشعار والقصص الكلاسيكية والحديثة ، كما اكتمل لديه الإلمام بفن السرد (كما يتضح ذلك من آخر مقال له فى عموده " نقطه ومن البداية " الذى خصصه لإدجار ألان بو فضلاً عن المقدمة التى كتبها لقصة " الشبورة الزرقاء " لصديقه جورج لى بيسويل كوتيس)[٣٠] بعد أن استعاد وامتلك ثقافته الكاريبية التى لا غنى عنها بالنسبة لجارثيا ماركيز فضلاً عن عالم طفولته العجيب. كما سمح أصدقاؤه فى قرطاجنة باستعادة مصادره وإثراء العناصر الأساسية لكى يصبح الكاتب والصحفى كما كان يريد جارثيا ماركيز أن يكون منذ سنوات ثيباكيرا.

ومع ذلك فإن علاقة جارثيا ماركيز بقرطاجنة ستكون علاقة حب - كراهية خلال العشرين عامًا القادمة. يصعب على القصاص نسيان الجوع الذى كان يعانى منه والضائقة المالية والأجر الزهيد فى صحيفة الأونيفرسال (العالمى) ، وخاصة الوفرة والبهاء الذى كان يتنعم فيه بعض قطاعات الطبقة المتوسطة فى قرطاجنة ، والتى أظهرت ازدراءً وامتهانًا لصحفى من الأقاليم. ومع ذلك لم يستطع جارثيا ماركيز نسيان كل ما قدمته له المدينة خلال هذين العامين ، وما ستقدمه له طوال ما تبقى من حياته ، لأن هذه المدينة البطولية ستظل إلى جانب كل من أراكاتاكا وسوكرى وبايدوبار وبارانكيا بمثابة المشتل الأدبى الذى لا ينضب بالنسبة للقصاص. وكما يرافق الظل الجسد فإن المدينة الاستيطانية ستلاحقه من خلال كتابين من الحكايات وأربع قصص :

بدءًا من قرطاجنة المناصرة للرق والعبودية فى سييريا ماريا لكل الملائكة ، والمدينة الجمهورية لبوليفار حتى قرطاجنة فى القرن العشرين لمرض الكوليرا والمدينة الحديثة التى نمت فيها السياحة بشكلٍ ملحوظ . ولقد وجد جارثيا ماركيز فجأة على وجه التحديد فى دير سانتا كلارا الدافع لكتابة قصته "عن الحب وشياطين أخرى"[٣١] ، بعد خمسة وأربعين عامًا . وكان ذلك فى الخمارات القديمة بالميناء عندما سمع من شفتى ذلك الحارس المجهول الحكاية التى كانت السبب فى قصته " بلاكمان بائع المعجزات الطيب ". كان ذلك فى قرطاجنة فى أواخر الأربعنييات حيث بدأت تنضج المدينة المجهولة فى" خريف البطريرك ". كان ذلك فى أحد المنتجعات حيث تم التعارف بين بطلى قصته " أثر دمائك على الجليد " وسيكون ذلك فى المنعطفات التى لا حصر لها بالمدينة المحصنة بالأسوار العالية التى تلائم جو الحب ونظم الشعر ، حيث نما الحب بين البطلين ، ثم انفصلا عن بعضهما البعض ، ولم يلبثا أن استعادا حبهما كلٌ من فلورينتبنو أريثا وفيرمينا داثا فى "الحب فى زمن الغضب" .

وسوف تقدم له هذه المدينة الساحرة أيضًا قبل رحيله إلى بارًانكيا فى ديسمبر ١٩٤٩ لحظة أخرى من لحظات السعادة فى حياته ، ألا وهى التعرف على صديقه الكبير الشاعر والقصاص ألبارو موتيس.

وقد أصبح موتيس فى السادسة والعشرين من عمره جوالاً هائلاً بفضل إحساسه بمعنى الصداقه ، وبفضل سخائه منقطع النظير ، وبفضل كونه مولعًا بالموسيقى إلى حد الهوس ، وبفضل كونه مطلعًا عاليًا على الشعر والقصة والتاريخ. وخلافًا لما كان عليه والده الصيدلانى العالم خوسيه ثيليستينو موتيس فإن ألبارو لم يكن يُشَرِّح النباتات ويجففها بل كان يحلل القصائد والقصص. إن هوايته الحقيقية كشاعر وعالم ملم بالعصر الوسيط اعتاد اخفاءها لكى يمارس عدة مهن أخرى مثل العمل مذيعًا بالإذاعة ، ورئيس الدعاية والترويج لعدة شركات. ولذلك فبمجرد وصوله إلى ساحل الأطلسى فى أوائل الأربعينيات لم يفعل ذلك بحثًا عن الإلهام ، ولكن كعميل دعايه لشركة التأمين الكولومبية. وقد التقى فى بارًانكيا مع ألفونسو فوينمايور وخيرمان بارجاس وأليخاندرو أو بريجون أصدقاء مجموعة بارًانكيا، وقد بدأ هؤلاء يتحدثون له عن جارثيا ماركيز ، ذلك الفتى النحيف ذى الشارب الكثيف الذى كان مثلهم تمامًا يبحث

عن الصداقه والأدب ، ولكن كان أهم من تحمس لكى يتعرف ألبارو موتيس على جارثيا ماركيز هو الشاعر روخاس جابرييل إيراثو. وكما قال له إدوارد ثلاميابوردا فى بوجوتا : "ينبغى عليك أن ترى جابو(جابريل جارثيا ماركيز) ، لا ، عليك أن تتعرف على جابو " هكذا ألح عليه روخاس إيراثو. ومع ذلك فلم تتم المعرفة على يد أى منهم بل حدث ذلك عن طريق جونثالو مايارينو بمدينة قرطاجنة فى أواخر عام ١٩٤٩، والمعروف أن مايارينو كان أحد أفراد الجماعة الرباعية الأدبية التى تكونت خلال السنوات الجامعية ، وقد حدث ذلك لأن مايارينو لم يكن يعرف البحر حتى تلك اللحظة.

وخلافًا للقاءات أخرى فإن لقاء موتيس وجارثيا ماركيز لم يكن فجائيًا بل كان حتميًا وكأن القدر قد خطط له ، فالحقيقة أن الاثنين كانا يقرآن سويًا ويحاول كل منهما ملاحقة الآخر منذ الأوقات البوهيمية فى بوجوتا، وكانت أول مقابلة بينهما عندما كان جارثيا ماركيز يكتب حكايته الأولى . كان جارثيا ماركيز يكتب " الاستسلام الثالث " بدافع من قصه " المسخ " لكافكا ، وذلك فى ٢٢ أغسطس عام ١٩٤٧ عندما قرأ ملحوظته إدوارد ثلاميا الذى شجعه فيها على إنهاء حكايته. وفى تلك الملحوظة ظهر اسم ألبارو موتيس كأحد الصحفيين الجدد فى الملحق الأدبى[٣٢]. وبعد ذلك بأسبوعين وقبل أسبوع من نشر حكايته الأولى ظهرت القصيدة الأولى لألبارو موتيس فى القسم نفسه ، والقصيدة الثانية ستنشر لموتيس قبل عشرين يومًا من الحكاية الثانية لجارثيا ماركيز[٣٣]. وبالتالى فإنَّ كلاهما كان يُقْرَأُ نظرًا للاهتمام الكبير الذى منح لهذا القسم ، وكذلك كل ما يكتبه ثلاميا بوردا.

ويرجح أن يكون اللقاء الشخصى الأول قد تم بينهما فى أواخر أيام عام ١٩٤٧ أو فى أوائل ١٩٤٨ فى قاعة الحفلات الموسيقية بالمكتبة الوطنية كان جارثيا ماركيز أحد روادها واعتاد الجلوس فى المقهى. وكان الآخر فى الثالثة والعشرين من عمره له أنف عقابى وحاجب تركى وجسم ضخم ونعلان صغيران مثل نعل بوفالو بيل وكان يأتى دون تأخير فى الساعة الرابعة مساءً ويطلب عزف مقطوعة موسيقية بالكمان لميندلسون[٣٤] ، وعلى الرغم من تكرار المقطوعه الموسيقية وصورة موتيس المميزة سليل يهود بيزا – فقد كان ينبغى أن يمر أربعون عامًا لكى يتعرف جارثيا ماركيز على أنغام تعليق عارض لموتيس عن ميندلسون أن الصوت الجهورى هو صوت هذا العازف هو صوت الشاب البالغ من العمر ثلاثة وعشرين عامًا الذى اعتاد المجىء دون

تأخير فى الساعة الرابعة مساءً لصالة الحفلات الموسيقية بالمكتبة الوطنية ويطلب عزف المقطوعة ذاتها .

ومن المحتمل جداً أن يكونا قد التقيا أيضاً فى المقاهى المكتظة بالناس فى شارع ٧ فى "المولينو" أو " الأستورياس " ، حيث اعتاد الاثنان الذهاب خلال الشهور السابقة على ٩ أبريل. وعلى أية حال فمن المؤكد أن الأحداث الجامحة والخطيرة فى بوجوتا حولت إلى رماد الحكايات الأولى لجارثيا ماركيز ، وكذلك الديوان الأول لموتيس تحت عنوان (الميزان) ، ولذلك فعندما قدمها جونثالو مايارينو إلى بعضهما البعض فى قرطاجنة الكولومبية فى أكتوبر أو نوفمبر ١٩٤٩ كان تقديمه إياهما بمثابة لقاء معلن عملياً. فقد تعرف موتيس ومايارينو على بعضهما البعض لأول مرة فى اليوم نفسه فى الصباح وسط بوجوتا ، وقد اعترف له مايارينو بأنه لم يعرف البحر حتى الآن على الرغم من القصائد الكثيرة التى يستطيع أن يرددها من الذاكرة ، حينئذٍ بدا لموتيس أنه من غير المعقول أن يكون هناك شخص لم يعرف البحر حتى الآن ، لذلك اصطحب مايارينو فى نفس المساء إلى قرطاجنة وتعرف على البحر من أسفل القلاع الكائنة هناك بكل مراسم الشرف. ولكن الاحتفال بالتعرف على البحر لم يكن طويلاً مثلما حدث فى الاحتفال بالصداقه عندما وصل جارثيا ماركيز .

وقد ذهب موتيس ومايارينو إلى صحيفة الأونيفرسال على الفور لانتشال جارثيا ماركيز من الروتين ، إلا أنه لم يكن موجوداً هناك وقررا انتظاره فى فندق صغير فى بوكاجراندى ، وجلسا فى شرفته يشربان ويتحدثان ويتحدثان ويشهدان مولد المساء الساحر وأفوله ، حتى انتشلتهما عاصفة إعصارية من الفردوس. وسرعان ما هاج البحر وبدأت ثمار جوز الهند تتطاير ككرات الرجبى عندما وصل جارثيا ماركيز وكان ذلك بمثابة بدء العاصفة. لقد رآه ألبارو موتيس كأنه قادم من عاصمة جهنم شاحباً نحيفاً للغايه ذا شارب كثيف وعينين جاحظتين بوسعهما اكتشاف أكثر المناطق وعورة فى خبايا النفس ، وكان يرتدى قميص ترومان ذا ألوان فاقعة " عجباً ما بكما أو قال جارثيا ماركيز لصديقه: عجباً لكما !! " ثم تناول الثلاثة العديد من زجاجات المشروبات الكحولية وقضوا الليلة وجانباً من الصباح التالى يتحدثون ويتحدثون عن القضايا الإنسانية .إن الحياة ما هى إلا أيام " تتبعها أيام أخرى " وفقاً لأحد أبيات شعر

أستاذه وصديقه أوريليو أرتورو. وبالطبع تحدث الثلاثى عن الأدب وخاصة عن قصص ويليام فوكنر. ومنذ تلك اللحظة أدرك موتيس أن الأستاذ الأمريكى كان روائيًا مبدعًا ، ولكنه لم يكن كاتبًا جيدًا بصفة عامة مثلما كان يسود الاعتقاد فى هذا الشأن. إن النقاش والجدل بين الصديقين سيستمران طيلة ثلاثين عامًا حتى أنهى هذا الجدل جارثيا ماركيز ذات صباح وهو فى المكسيك عندما أجرى اتصالاً هاتفيًا مع موتيس. اعترف جارثيا ماركيز على الهاتف بأن موتيس كان على صواب وقال: أستاذى ؛ إن فوكنر لم يكن كاتبًا جيدًا !

وعلى الرغم من أنهما لم يكن لديهما قراءات مشتركه سوى عن كونراد وبورخيس ، فإن الحقيقه أنه كانت لديهما قراءات مشتركة أثناء فترة تكوينهما الأدبى ، فقد قرأ كلاهما بحماس منقطع النظير لشعراء العصر الذهبى ولبروست وروبين داريو وبابلو نيرودا وهيرمان ميلفيل. (ومن "موبى ديك" أخذ جارثيا ماركيز النفس الأسطورى لقصصه الكبرى؛ لقد استطاع موتيس أن يجد عناصر لشخصيته دى ماكرول الجابيرو). وعلاوة على ذلك فقد اتبع التعاليم والتوجيهات الأدبية التى أسداها لهما إدواردو وكارانثا زعيم جماعة " حجر وسماء " ، وكان ذلك أثناء الدروس التى كان يلقيها كارانثا لموتيس فى مدرسة نويسترا سنيورا ديل روساريو ، أما جارثيا ماركيز فقد استفاد من تلك التعاليم والتوجيهات من الملحق الذى كان يديره كارانثا فى الصحيفة الأسبوعية "السبت".

ومع ذلك فإن الصديقين – طيلة ما تبقى من حياتهما – سيواصلان الحديث عن الأدب والحياة ، وسيظلان يهتمان بالأصدقاء والمقربين إليهما أكثر من اهتمامهما بنفسيهما ، ويحترم كل منهما الآخر لكون أحدهما ألبارو والآخر جارثيا بدون ألقاب أو أعمال أدبية. وظلت صداقتهما منقطعة النظير ، ولا تشوبها أية ظلال أو غيوم أو سُحُب. صداقة رجلين لا يتشابهان فى شىء ؛ اللهم إلا فى الذكاء والحنان والكرم ، ولكونهما كاتبين مختلفين تمامًا فإن كتبهما ستجمع بينها فكرة متسلطة مشتركة : النضج تجاه الأصل موتيس صوب كويو وامبيريس وجارثيا ماركيز صوب أراكاتاكا وسوكرى .

الفصل الثامن

- بارانكيا مدينة الأطلسى المتحمسة.
- بين سائقى سيارات الأجرة وفتيات الهوى والصيادين.
- قهوة كولومبيا ومكتبة العالم.
- المازحون فى جماعة الكهف.
- أفراح وأتراح العالم القطالونى.
- أصوات.
- كاتب عمود بصحيفة " الهيرالد ".
- ساكن ناطحات السحاب.
- بيت الهوى على نهج فوكنر.
- على أنغام البرقيات.
- " الورقة الساقطة" لا تجد من ينشرها .
- الصحيفة الأسبوعية " النبأ ".
- مراهنة " السيدة التى كانت تصل الساعة السادسة ".
- كروانات أوفيميا السوداء.
- الواقع والأدب والصحافة.

كان جارثيا ماركيز قد استقر في بارانكيا خلال فترة عيد الميلاد عام ١٩٤٩، وبعد ذلك بقليل في ٥ يناير من العام التالى[1] بدأ العمل فى صحيفة الهيرالد وذلك بعموده اليومى تحت عنوان (الزرافة) وسوف يوقع معظم إسهاماته الأربعمائة تقريبًا باسم مستعار هو وولفيانو دى سبتيموس ؛ الشخصية الواقعة بين العقل والجنون فى قصة "السيدة دالواى".

وقد ظلت قرطاجنة لفترة في الخلفية. لقد كانت بمثابة بئر من آبار التاريخ العميقة للغاية كانت بمثابة " قبر حى " بسحرها وجمالها وهدوئها. ومع ذلك بقيت مستودعًا غنيًا بالنسبة للكاتب على مدى عامين هامين فى مسيرته. ولكن فيما يتعلق بالجانب الاجتماعى – الثقافى كان وجودها محددًا للغاية ، وعلى الصعيد الأدبى كان شبه منعدم اللهم إلا إذا استثنينا من ذلك – بالطبع الشاعر الشهير لويس كارلوس لوبيث والأشهر خورخى أرتيل. ومن ناحية أخرى فإن البرجوازية (الطبقة المتوسطة) المحلية كانت قد عاملت الصحفى الشاب بجفاء بالغ ، كما أن العمل كان روتينيًا بعد عامين ، والراتب الزهيد الشحيح فى صحيفة " الأونيفرسال " (العالمى) لم يكن يكفيه للغذاء فقط. ولكى يزداد الطين بلة، انتقل كل من جوستابو إيبارا ميرلانو وراميرو دى لا إسبيريا[2] إلى بوجوتا فى أواخر يولية وتأكد أيضًا غياب هيكتور روخاس إيراثو. وهكذا فبعد تفرق الجماعة وجد جارثيا ماركيز الفرصة مواتية وسانحة لكى يستقر – فى النهاية – فى بارانكيا المدينة التى كان الكاتب يرغب فى الإقامة بها منذ عودته من بوجوتا، حيث كان ينتظره أصدقاء "جدد" ومنجزات جديدة وحياة أكثر قوة وحيوية مع خطيبته مرسيدس بارتشا باردو الفتاة ذات الستة عشر ربيعًا وصاحبة الملامح الجميلة الغريبة الشخصية الهادئة الغامضة.

إنَّ مدينة الأطلسى كانت تفتقر للتاريخ ولسحر قرطاجنة وجمالها ، ولكنها كانت على العكس من ذلك مدينة فى حالة غليان ، وذات تجارة وحركة اجتماعية وثقافية متزايدة منذ أوائل الأربعينيات. ومع ذلك فقد نسفتها الهجرة المتعددة طوال القرن العشرين (يهود وألمان وفرنسيون إسبان وإيطاليون وعرب) كانت فى ذلك الوقت المدينة العالمية فى

كولومبيا ، ونظراً لكونها الميناء النهرى الرئيسى بالبلاد أصبحت مدخلاً ومخرجًا فى غاية الأهمية ، فقد حلت محل قرطاجنة وسانتا مارتا حتى بوجوتا نفسها التى ظلت لسوء الحظ موضة فى الصحافة الدولية بسبب أعمال العنف ، ولهذا السبب نفسه ظلت معزولة أكثر من أى وقت مضى.

ومع ذلك كتب جارثيا ماركيز فى منتصف الخمسينيات أن بارًانكيا كانت مدينة بلا تاريخ[٣]. وفى الواقع كان ذلك حقيقة لأنَّ هذه المدينة لم يكن لها أساس بطولى مثل قرطاجنة أو سانتا مارتا بل كانت من بين المدن الخاملة والمتأخرة فى الكاريبى ، وفيما بعد طوال العصر الاستعمارى ظلت بارًانكيا منعزلة وفى سباتها المعهود بين الحر والتراب والرطوبة.

وكما فى أية قصة رعوية نشأت على يد بعض الريفيين والرعاة فى ١٦٢٩ فى لاس بارًانكيا دى سان نيقولاس على الضفة الغربية لنهر ماجدلينا ، وعندما أصبحت على هامش التجارة والاتصال البحرى والنهرى بسبب سيطرة قرطاجنة وسانتا مارتا ، ونظراً لصعوبة دوران السفن فى نهر ماجدلينا ظلت بارًانكيتاس – كما أطلق عليها فيما بعد[٤] – منعزلة وباقية على ما هو عليه طيلة مائتى عام. ورويداً رويداً ، وخاصة بعد إعداد الميناء البحرى فى سبانيًا بدأت بارًانكيا تنهض من سباتها الاستعمارى حتى بدأت الملاحة البخارية فى نهر ماجدلينا فى منتصف القرن التاسع عشر ، فأصبحت الميناء النهرى الرئيسى فى كولومبيا لكى يكون بمثابة بداية سيطرتها وهيمنتها على ساحل الأطلسى.

وهكذا فإنه عندما عاد جارثيا ماركيز للاستقرار فى بارًانكيا فى ديسمبر ١٩٤٩ – بعد سبعة أعوام بعيداً عنها – كانت بارًانكيا – ولا تزال مقارنة بالمدن الساحلية الأخرى مدينة بلا تاريخ تقريبًا ، ولكنها تحولت إلى أهم مركز تجارى وثقافى واجتماعى بالمنطقة. وكانت لذلك "المدينة الساحلية" حيث سادت الفكرة القديمة الراديكالية الواعية : إن الكاريبى الكولومبى دولة على حدة دون روابط مع الداخل المركزى بعيداً عن السياسيين والبيروقراطيين. واستناداً إلى هذا الموقف كان للأصدقاء الجدد للكاتب دور مهم وقد أطلق عليهم بصفة أخوية وإلى الأبد فى " جنازة الأم الكبيرة" اسم " المهزارون " وهم ألبارو ثيبيدا ساموديو وخيرمان بارجاس وألفونسو فوينمايور وأليخاندرو

أويريجـون وهم أبرز أعـضـاء جـمـاعـة بارًانكيـا الذين كـانوا يرتبطون أدبيًا بالكتـاب المخضـرمين خوسيـه فيلكس فـوينمايور ورامـون بينيس " العالم القطالونى " كـمـا فى "مائة عام من العزلة ".

وهؤلاء سوف يستعيد جارثيا ماركيز مـعـهم مدينة عواطفه التى كانت لا تزال مدينة الملذات نفسها فى فترة مراهقته بنهرها ماجدولينا الذى ينشر فيها رائحة كريهة قوية وساخنة لتعم جميع أرجائها ، ومن ثم تنتشر رائحة شبيهة برائحة السمك الطازج فى المنعطفات ممتزجة برائحـة أخـرى مـهيمنة هى رائحـة الجـوافة العفنة. تلك المـديـنة المكتظة بالسـان السـاحليين فى خضم حر شديد لا يطاق ، وتنتشر بها الحلوى (المصنوعة من البيض والسكر) والحشيش والنزهات المتأصلة فى أهلها مثل رطوبة النهر نفسـها. ولكن على الرغم من شدة الحرارة بالمدينة فإن أهلها لم يفقدوا مـرحـهم ومزاحـهم بفضل خفة روحـهم الخـالدة وكرنفالاتـهم التى لا تحـصـى كوسـيلة – ربما – للحفـاظ على أدنى قدر من الحكمة والرزانة اليومية.

ومن بين السكان العوام بالمدينة تمتع سـائـقـو السيـارات الأجـرة بحب وصـداقـة الكاتب ، وهو الذى أطلق عليهم لقب " أبطال الصـالح العام " ، وقـد ربطتـة بهم صـداقـة مستمرة حيث كان يطوف فى ليالى الفرا غ بجميع الأماكن غير المتوقعة فى بارًانكيا. كما كان صديقًا أيضًا لسيدات الهوى فى شـارع الجريمة وبيت الهوى المسمًى بيت ناطحة السـحـاب وعمـال الحـانات فى الكانـتـينات بالضـواحي والحلاقين وسـائقى عربـات النقل وصيادى الميناء ، حيث استلهم موضـوع قصـته " العقيد لا يجد من يراسله ". فـأمـاكن مثل مـيدان سـان نيـقـولاس والحى الصـينى (حـى البـغـاء) وحـارة أسـرة مـياو وبيت هـوى الزنجية أوفيميا ومنتزه بوليفار وشـارع البروحـريسو (التقدم) وصـيدلية ديميتريو بارتشا فى شـارع عشرين يولية تمثل أهم الأمـاكن التى يتـردد عليها جارثيا مـاركيز خـلال الأربعـة أعـوام التى قـضـاهـا هـذه المرة فى عـاصـمـة الأطلسى. ولكن أهـم هذه الأمـاكن كانت صـالة التـحـرير فى صـحـيفة الهيرالد. ومكتبـة العـالم ومقـهى كولومـبيـا وحانات خابى وروما والمقيلات الأدبية للجماعة.

وبعد أن يقـضـى سـاعـات من النوم فى بيت هـوى ناطحـة السـحـاب كان جـارثيـا ماركيز يصل إلى مقهى كولومبيا لكى يتم اللقاء الأول مع أصـدقائه. ثم يذهب بعد ذلك إلى قـاعــة التحـريـر بالصـحـيفـة ليؤدى عمله كمحرر وكـاتب افتتاحى وكاتب عمـود.

وفى المساء يعود إلى المقهى ومكتبة العالم اللذين كانا متجاورين تقريبًا للحديث عن الكتب ، ويلقى نظرة على المستجدات التى كانت تصل من بوينوس أيرس : الأعمال الأخيرة لكافكا وجويس وفيرجينيا وولف وفوكنر وهيمنجواى وكابوتى وكاموس وساروبان وسارتر وبورخيس ونيرودا وكورتاثار وفيليسبرتو إيرنانديث بعضها مترجمة أو قدم لها خورخى لويس بورخيس وأصدقاؤه ، والتى كان يُنْشَرُ معظمُها تقريبًا فى دارى نشر لوسادا وأمريكا الجنوبية. وعندما كانت صناديق الكتب المطلوبة تصل بالباخرة ، وهى التى كانوا يقومون بإعداد قوائمها مساعدة للأخوة روندون أصحاب المكتبة ، كان جارثيا ماركيز وأصدقاؤه يقيمان حفلاً ، وعندما تُوصد المكتبة أبوابها يعودون إلى المقهى ، وعندما يغلق المقهى أبوابه يذهبون إلى حان خابى أو روما فى منتزه بوليفار. لقد كانت المناقشات حارة وساخنة وبصوت مرتفع وبها ألفاظ وعبارات فظة ونابية لدرجة أن مجاوريهم فى الحان كانوا يخجلون(٥). وكانوا يذهبون أحيانًا إلى الحى الصينى (حى البغاء) إلى بيت هوى الزنجية أوفيميا بحثًا عن طعام فى متناول جيوبهم فى حى لاس ديليثياس (حى الملذات). وبهذه الطريقة ما بين كتاب وآخر ومحادثة ومحادثة وكأس وآخر ووجبة من هذا الصنف وأخرى من ذاك النوع ، كان جارثيا ماركيز يعود فى آخر الليل أو فى أول ساعة فى صباح اليوم التالى إلى غرفة النوم فى بيت مجون ناطحة السحاب. وإذا لم تكن هناك حفلة أو جولة بين الحانات مع الأصدقاء كان يظل فى قاعة التحرير بالصحيفة يكتب عمود اليوم التالى أو يواصل كتابة قصته " المنزل " أو يصحح للمرة الألف عمله " الورقة الساقطة".

إن المحرك لهذه الحياة المحمومة سواء الصحفية أو الأدبية كانوا من جماعة المازحين ، وعلى وجه الخصوص ثيبيدا ساموديو وخيرمان بارجاس وألفونسو فوينمايور ، فهم إلى جانب القطالونى رامون بينيس وخوسيه فيلكس فوينمايور الذين أسدوا له التوجيهات لقراءاته وصححوا له حكاياته وقصصه ، كما امتدحوا ذكاءه الفريد وقدموا له كل أنواع العون والمساعدة اليومية. وجدير بالذكر أن الشكليات تضاءلت بين أفراد الجماعة لكى تُحَدِّثَ وتطوِّرَ حالات المزاح لكى يقبلوا مفرادتها وتعبيراتها العامية التى كان يمقتها فى قرطاجنه(٦) ، حيث أدرك أن معجم الألفاظ النابية والفظة لأصدقائه فى بارَّانكيا لم يكن سوى كلمة السر للمشاركة والحب والصداقة الحقيقية. ومع مرور الوقت

سيرفعهم إلى المحراب الأكبر اعترافًا منه بامتنانه لهم ويسمح لهم أن يتنزهوا ويتجولوا على راحتهم بأسمائهم الخاصة بالحماقات نفسها ، وصنوف الجنون وسمات الكرم على صفحات عَمَلَيْه "العقيد لا يجد من يراسله" "ومائة عام من العزلة ".

وكان ألبارو ثيبيدا ساموديو العضو الرئيسي بالمجموعة متحمسًا لعصر النهضة وقد وزّع ذكاءه الهائل ما بين الصحافة والأدب والسينما والدعاية والشركات وأنشطة أخرى غير متجانسة. وفي الظاهر كان كاريبيا فظًا بخصلات شعره التي تتدلى على جبهته كأنّه سائق لسيارة نقل ، وكثـرة ألفاظه النابية وضحكته المدوية التي كانت "ترعب التماسيح الأمريكية " وطبيعته الخُلُقية في رفضه الشكليات والرسميات والوقار والجلال. ولكنه عن قرب كان رجلاً مفعمًا بالحنان والخجل والسخاء والكرم. وعلى وجه الخصوص كان شخصًا تلقائيًا وأصيلاً وفيًا لعواطفه ومعتقداته ، وكان يكتب قصصًا خفية وسرًا دون علم أصدقائه. وكان يستيقظ في الخامسة صباحًا ليقرأ كافة الكتب الممكنة حتى بعد الفجر وهو جالس في كرسي هزاز من فيينا(٧). وفي الواقع كان ثيبيدا ساموديو طفلاً خائفًا، وشخصًا وفيًا لذكريات الطفولة التي كانت تطارده منذ الغرف المظلمة التي تحتوي على ملح البارود في المنزل الكبير في ثيناجا حيث كان يعيش وهو طفل بعد مولده في بارّانكيا يوم ٣٠ مارس ١٩٢٦. وقد توفي والده وهو لا يزال طفلاً. وكونه يتيمًا جعله يظل قابعًا للأبد مع الأماكن التي لم يسبر غورها في منزله بثيناجا. ومن هنا ولدت لديه هذه الضجة الأدبية التي استطاع أن يدرجها بكل أناقة في بعض حكايات " كنا جميعًا ننتظر" وفي قصة " المنزل الكبير " ، وهما الكتابان اللذان أسهما في تجديد الرواية الكولومبية بأسلوبها البسيط والمضمر والموعز والواضح البعيد كل البعد عن أي مقصد بلاغي أو بياني.

وعندما ولد ثيبيدا ساموديو كان والدا جارثيا ماركيز لا يزالان يعانيان من أخر خطوب الدهر وتقلبات فترة خطوبتهما لكي يتزوجا بعد ذلك في مدينة سانتا مارتا ، ولم يبق سوى عامين وثمانية أشهر على مذبحة عمال مزارع الموز في السادس من ديسمبر عام ١٩٢٨ (والتي حدثت في نفس ثيناجا على مقربة من المنزل الكبير) إنها واقعة ستؤثر فيهما وستوحدهما بشكل متزايد طيلة حياتها، إنها ستكون الموضوع الوحيد " للمنزل الكبير " ، وأحد الأحداث ، بل أكثرها دموية وتأثيرًا في "مائة عام من العزلة ".

وسيكون ثيبيدا ساموديو وجارثيا ماركيز أكثر من صديقين على الرغم من كونهما شخصين مختلفين وهوية وحيدة حقيقية ، فقد كانا يختلفان فى أمور كثيرة وخاصة فى الصور والأشكال ، ولكن كان يجمعهما شيء رئيسى : الصداقة والكاريبى وحب الكاريبى والأدب والصحافة والسينما والكاتب الأمريكى فوكنر وهيمينجواى وساروبان ودوس باسوس ، وشجارهما الخالد مع كُتَّاب ومفكرى بوجوتا المتأنقين. لقد كان ثيبيدا ساموديو الذى دفع صديقه إلى السينما ومدارس الأدب والصحافة الأمريكية ، التى بدأ فيها جارثيا ماركيز فى قرطاجنة مع كليمنتى ما نويل ثبالا وجوستابو إيبارا ميرلانو وهيتكور روخاس إيراثو.وخلال الفترة التى تعرف عليه فيها اصطحبه إلى منزله المكتظ بالكتب وقد أطلعه عليها وقال له : " سأعيرك كل هذه الكتب"، وعندما تحدَّث معه جارثيا ماركيز عن قراءاته فى قرطاجنة عن هاوثورن وميلفيل وبو ، قال له ثيبيدا الذى لم يكن متحمسًا لهولاء المؤلفين بأسلوبه المتميز : " كل هذا ما هو إلا غائط". إنَّ ما ينبغى عليك هو أن تقرأ للإنجليز والأمريكيين المحدثين[8] : أى جويس وولف وفوكنر وهيمينجواى ودوس باسوس وكابوتى وكالدويل وساروبان الذى كان جارثيا ماركيز قد بدأ القراءة لهم مع أصدقاء قرطاجنة.

إن ولع ثيبيدا ساموديو بالصحافة وأدب هؤلاء الكتاب جعله يلتحق بجامعة كولومبيا ، حيث حصل على مؤهل صحفى فى أواسط عام ١٩٥ . وإن كانت إقامته فى نيويورك لم تكن إلا مبررًا ليعرف المدينة جيدًا ، وموطن الكُتَّاب الذين استحوذوا على إعجابه. وبعودته أسهم بمعلوماته وأفكاره عن السينما الأمريكية والصحافة اليومية الطازجة لتلك المدينة الكبيرة فضلاً عن أوجه التقارب الأدبية الأمريكية المنتقاة والصافية ، مما عزَّز وأثرى الأفكار الجمالية للجماعة ، وفى المقام الأول لجارثيا ماركيز كأحد أفرادها.

إنَّ ألبارو ثيبيدا ساموديو بنشاطه المكثف عن عصر النهضة لم يبد أن له اهتمامًا بشيء معين على وجه الخصوص ، بل كان يهتم بكل شيء بوجه عام. ومع ذلك فقبيل وفاته بثلاثة أعوام تم اكتشاف هوايته السينمائية (التى كانت قد بدأت فى ١٩٥٤ بعمله " الإستاكوزة الزرقاء") حيث أعد العديد من الأفلام القصيرة لتوزيعها تجاريًا. وعندما قضى نحبه بسبب اللوكيميا (سرطان الدم) فى مستشفى نيويورك الخالد فى ١٢ أكتوبر ١٩٧٢ ، كان مشروعه الكبير يكمن فى هجر كافة المشروعات الأخرى والتفرغ

فقط للكتابة في بلدة سبانيا. وبوفاته اختفى العضو الأكثر عفوية وتلقائية وأصالة ولباقة في جماعة بارَّانكيا. هذا الموت المبكر أثر كثيراً في صديقه جارثيا ماركيز. كان موتًا متوقعًا منذ خمس سنوات كما يبدو في " مائة عام من العزلة"، وكما يُقْرَأُ في نهاية قصته كان ألبارو هو أول من استجاب لنصيحة مغادرة ماكوندو. لقد باع كل شيء حتى النمر الحبيس لديه ، الذى كان يسخر من المارة في فناء منزله ، واشترى تذكرةً في قطار لم تنته رحلته قط[٩].

أما خيرمان بارجاس المختلف في الذوق والحس ولكنه من نفس الطينة ، فقد ولد في بارَّانكيا عام ١٩١٩ وتوفى في ١٩٩١ ، وقد اشتهر بين أفراد المجموعة ليس فقط بقامته الفارعة ونحافته وعينيه الخضراوين ذات اللون الأخضر الشيطاني ، بل أيضًا بتحمسه المتأني الذى كان يقرأ به للكلاسيكيين (قُدامى الكُتَّاب) ولمشاهير الكُتَّاب ولغيرهم من الجدد. وكان بمجرد أن يفتح كتابًا بين كل توقف وآخر قد تمر خمس أو ست ساعات ولم يكن بوسع أحد أو شيء في العالم أن يبعده عن الصفحة التى كان يقرأ فيها. لقد كان حكيمًا بين أصدقائه وتميز بتعطشه عند قراءته لبروست كاملاً في أسبوع واحد. لم يكن قارئًا شرهًا - كما يقال - بل كان قارئًا يتذوق الكتب جملة جملة بحماس ثابت لا يفتر ولا يكل. وربما لذلك وليس فقط لسخائه فإن صديقه جارثيا ماركيز كان يرسل له بعد ذلك ببضع سنين أصول أعماله من باريس والمكسيك ومن أى مكان يتواجد فيه لكى يتلقى تعليقات الناقد الذكى الفطن ذى النظرة الثاقبة والفاحصة الواسعة التى تُعْزَى إلى درايته ومعرفته بأصل الحكاية والقصة.

كان ناشراً للصحف وصحفيًا للخبر الساخن المتقد وللعمود ذى الصيغة غير الشخصية ، وكان ناقداً ومذيعًا بالإذاعة. وقد أعار صوته للمسلسل الإذاعى" لقد أُغْلِقَتْ الطرقُ" للكاتبة أولجا سالثيدو ميدينا ، وهو المسلسل الإذاعى الوحيد الذى أعدَّه جارثيا ماركيز طوال حياته[١٠]. وكان خيرمان بارجاس أحد النشطاء في الترويج للجماعة وأعمالها. كان التعبير العادى لتحمسه للكلمة المكتوبة والصداقة. لذلك فقد كان المراسل الأكثر اجتهاداً لزملائه الذين يعيشون في أماكن نائية ، فقد كان يرسل هو وفوينمايور الكتب المطلوبة لصديقهما جارثيا ماركيز في باريس والمكسيك وكاراكاس ، وفى أبريل ١٩٤٩ عندما كان جارثيا ماركيز ناقهًا في سوكرى قام خيرمان بارجاس وثيبيدا

سـاموديو ورامون بينيس بتلبية مطلب صديقهما ، وأرسلوا له كل الكتب الممكنة حيث كان جارثيا ماركيز يضطجع في شبكة هزازة تحت ظلال أشجار المانجو ، ولم يكن لديه ما يقرأه.

إن شغفه بالكلمة المكتوبة وممارسته للصداقة دون ظلال جعلاه يرد على العالم القطالوني في برشلونة إلى جانب أوريليايو بويندیا في" مائة عام من العزلة " [كما حدث في الواقع] مراسلاته المفعمة بالاشتياق والحنين وإلى إشعال النيران في بيت هوى صغير في ضواحي ماكوندو لكي يثبت أن ذلك لم يكن سوى اختراع محض من جانبه شخصيًا ومن جانب أصدقائه.

وهناك نقطة تعارض أخرى في الشخصية الزاخرة والفياضة والمتفتحة لثيبيدا ساموديو ، وربما لباقي أفراد الجماعة ، كانت الشخصية الهادئة العاقلة الرزينة الرسمية الوقورة لألفونسو فوينمايور الأمين والناصح الفكري للجماعة وأكبر فتيانها الأربعة ، وهو الذي توفي عن عمر يناهز السبعة والسبعين عامًا في ١٩٩٤. كان قصير النظر منذ ولادته ، ودائمًا يلبس نظارة غليظة الإطار ورباط عنق. وكان أشبه بمفكر في قلب عاصمة المزاح. كان يبدو : في الواقع ذا مزاح بربري هائل لكونه ذكيًا وراقيًا قاطعًا وثاقبًا كشفرة الحلاقة ، ولكنه على أية حال لم يتخل عن كونه أكثر أفراد الجماعة جدية ، جدية - بلا شك - تولدت عن الجو الفكري والممتاز لوالده الروائي والصحفي خوسيه فيلكس فوينمايور الذي كان يمتلك مكتبة عظيمة باللغة الأسبانية والإنجليزية والفرنسية تلك اللغات التي تعلم ألفونسو القراءة بها.

ولكن المشاركة والصداقة " والمزاح الساخر " والولع بالحياة والصحافة والأدب هي الصفات المشتركه بين جميع أفراد الجماعة هذا بغض النظر عن سماتهم الخاصة. وقد حافظ فوينمايور على صلاته الطيبة مع أعضاء جماعة قرطاجنة. لقد كان الأول الذي بهر الجميع بموسوعيته الأدبية وخاصة جارثيا ماركيز ذات مساء في سبتمبر ١٩٤٨، حيث رأى كل منهما الآخر لأول مره في خمّارة بباراًنكيا فقد كان - علاوة على تنازله عن جزء من راتبه - هو الذي دعا جارثيا ماركيز للعمل في صحيفة الهيرالد حيث كان نائب مديرها، وهو الذي رحب به في الصحيفة في السابع من ديسمبر ١٩٤٩ ،

ثم أثنى عليه بأنه أحسن كاتب حكايات طال انتظار البلاد له بفارغ الصبر وبمزيد من الارتياب[١١].

لقد أسهم الناقد والصحفى الممتاز فوينمايور للجماعة بمعلوماته الأدبية العظيمة وخاصة عن قدامى الكتاب الإغريق واللاتينيين ، وتحمسه للتوصل إلى صحافة جديدة قوية وصارمة ، سواء فى صحيفة الهيرالد أو من خلال الصحيفة الأسبوعية النبأ التى كان يديرها مع جارثيا ماركيز. كان من أنصار نشر الكلمة المكتوبة، وكان يرى بوضوح أن حيوية مليئة بمخطوطات وقصاصات صحفية من أصدقائه أو مرسلة إليهم. واستناداً إلى حكاية حقيقية حدثت ذات ليلة فى بيت هوى الزنجية أوفيميا حيث فقد فوينمايور أصول عمل مسرحى لرامون بينيس. وقد أدرج ذلك جارثيا ماركيز فى نهاية قصته "مائة عام من العزلة " هذه الخاصية المميزة له : ياليتنى تعلمت اللغة القطالونية لأترجمها (يقصد أصول العالم القطالونى) ، وقد أدخل ألفونسو لفافة من الورق فى جيوبه التى اعتاد أن يملأها بالقصاصات الصحفية وكُتُبٍ عن المهنة أو الحرف الغريبة. وذات ليلة تركها فى منزل الفتيات اللاتى كُنَّ يمارسن الهوى لسد رمقهن. وعندما علم الجد العالم الحكيم بدلاً من أنَّ يثير الفضيحة التى كان يخشاها قال بعد أن مات من الضحك : إن ذلك كان المصير الطبيعى الأدب.

وسيكون ألفونسو فوينمايور وخيرمان بارجاس وألبارو ثيبيدا ساموديو إلى جانب جابرييل جارثيا ماركيز الفتيان الأربعة الذين لا يتحدثون بوقار فهم يشربون ويتحدثون عن كل شىء ، أوريليانو بابيلونيا فى ماكوندو خلال الأيام الأخيرة ، وهم أنفسهم كما فى الواقع كان يجمعهم حب وأستاذية العالم القطالونى ، إنهم أنفسهم فى الحياة مثلما هم فى القصة كانوا يبدأون دردشاتهم فى مكتبةٍ ليختتموها فى أحد بيوت المجون، يشربون الروم والكحوليات الأخرى وهم يتجاوزون حدود الواقع والخيال بنفس التلقائية مثلما ينتلقون من النهار إلى الليل. كانت المدينة تجمعهم فضلاً عن الصداقة والأدب والصحافة والعالم رامون بينيس ، وكذلك خلل حياتى خصب والمزاح الساخر فى جوهره الخالص الصافى.

ولكن فى الحقيقة فإن الرباعى بذئ الكلام كان فى واقع الأمر يتكون من خمسة أفراد ، لأنَّ لبَّ المجموعة لم يكن يمكن إدراكه كاملاً دون وجود أقل الأفراد بذاءة فى

الكلام : إنَّه الرسام أليخاندرو أوبريجون أبرز أعضائها وأكثرهم شهرة حينذاك على الصعيد الوطنى.

كان نجلاً لنبيل أسبانى وقد ولد فى برشلونة عام ١٩٢٠، لقد جرب أو بريجون المعايشة العالمية فى باريس ، كما عرف الطمأنينة الرعوية فى قرية ألبا الصغيرة ، تلك القرية الفرنسية التى أسسها الرومان. ومع ذلك فعند عودته إلى بارًانكيافى منتصف الأربعينات رفض قبول الرفاهية البيروقراطية التى عرضتها عليه الإمبراطورية الأسرية من خلال مكتب بمصنع المنسوجات ، وانتقل إلى حقول النفط فى كاتاتومبو فى شرق البلاد لقيادة جرار[١٢] ، ولحسن الحظ فإن أول معرض له بالمكتبة الوطنية فى بوجوتا أنقذه من المصير البعيد كسائق سيارات نقل ، وكان حافزًا له لكى يواصل الرسم بولع شديد ومتزايد ، حتى أصبحت موهبته الجامحة والوحيدة دون حدود مكانية أو زمانية. وبدأ أوبريجون – فى ورشته بشارع سان بلاس – يملأ تاريخ كولومبيا وأمريكا اللاتينية بطيور العقاب السريعة بأمريكا اللاتينية (وهو طائر يبلغ طوله ثلاثة أمتار ويحلق على ارتفاعات شاهقة وهو من الطيور الجارحة) والأسماك البحرية والثيران والعصافير والأعاصير التى هى وليدة الطبيعة المدارية. إن فنه منقطع النظير سيجعل منه رساماً للأشياء والأفراد بالألوان وفى حالة الحركة. حتى الطعام الذى كان قوامه الذرة والقمح ، والذى يرجع إلى العصر الحجرى ، والذى كان يعده لأصدقائه استناداً لما يقوله جارثيا ماركيز كان موضوعًا للأشكال والألوان أكثر من كونه موضوع طعام لأنَّ أوبريجون كان قادرًا على أن يدخل فى قدْرٍ عناصر الطبيعة لكى يتركها تغلى فى كمية كبيرة من المياه مع نفس الملاك الذى يرسم[١٣].

وكان هو وثيبيدا ساموديو هما أكثر أفراد المجموعة انفتاحًا على الناس ، وبينما ذلك الانفتاح لم يحدث كاستفزاز فإنَّ أو بريجون كان يقترب بشكل خطير من هوة الانتحار. وطبقًا لعينيه الشفافتين القرصانيتين " ويديه كقشتالى قديم حنون وبربرى فى آن واحد " وكان يشبع رغبته فى العواطف القوية بالألعاب الغريبة التى كان يشاركه فيها إدواردو بيلا صاحب حان الكهف ، الحان التى انتقلت إليه الجماعة اعتبارًا من ١٩٥٤. وكانت فى كل مرة لا تسلم الجرة. فقد كان يصاب أحيانًا على الرغم من قوته البدنية الكبيرة والمعنوية اللتين كانتا بمثابة درع له ضد نوائب وشدائد الدهر، وكان كمنقذ

للغرقى المفقودين فى الظلام الدامس. وبنفس الجنون الشبابى كان يأكل جراداً حيًا فقد تمكن أوبريجون ذات ليلة من إنقاذ جسد صاحب زورق كان قد غرق فى لاثيناجا الكبيرة وهو يصطاد السمك فى المساء. وكان جارثيا ماركيز يحكى تلك الواقعة كل مرَّة يسكرون فيها. واستناداً لما يقوله له الكاتب حيث كان يشبه إلى حد كبير عمل أوبريجون (إنَّ أوبريجون كان يرسم بهذه الطريقة وكأنه ينقذ غرقى فى الظلام الدامس) وقد قدم بذلك لجارثيا ماركيز فكرة كتابة قصته " أجمل غريق فى العالم "[14] بعد بضعة أعوام من حدوث تلك الواقعة. إنَّ هذه القصة بمثابة أكبر حكاية لسيرته الذاتية.

ولعل أهم لحظة تكشف عن شخصيته وشخصية الجماعة بصفة عامة هى لقاء الرسام مع ممثل البابا الذى حاول التفاوض بشأن لوحة من أعماله لمتحف الأعمال الزيتية بالفاتيكان بعد أن نال شهرة كبيرة فى العالم أجمع كرسام. وبعد أن تعلم فن المساومة لكى يحصل على سعر ممتاز لعمله الفنى ، فقد طلب أوبريجون من الفاتيكان سعراً غاليًا مبالغًا فيه مقابل لوحته. وعندما علم مبعوث البابا السعر الذى حدده الرسام استعان بدبلوماسيته المعهودة ، وأكثر من الثناء والإطراء لإرضاء غرور الفنان وقال له إن السعر المطلوب ليس معقولاً ، ولكن عمله سيكون فى صحبة ممتازة فى متحف اللوحات الزيتية بالفاتيكان وهذا - كما هو معلوم - سيمنح الرسام شهرة هائلة. وعندما أدرك بأن قلب الرسام لن يلين وأنَّ الكلام لم يرض غروره عرض عليه مبعوث البابا علاوة على الثمن خمسة عشر ألف قُداس لإنقاذ روحه وقال له مؤكداً: لقد علمت أن حضرتك فى حاجة ماسة لذلك. ولكن أوبريجون بنفس الهدوء البهيمى الذى كان يتميز به على حافة الهاوية أنهى المفاوضات : انظر أيها الحَبْرُ ؛ فيما يتعلق بالنقود لن أخفض سنتيًا واحداً ، أما فيما يخص الخمسة عشر ألف قُدَّاس فإننى على استعداد لتخفيض كل ما تريده حضرتك[15]. فالحكايه لا تصور جيداً شخصية الرسام فقط ، بل أيضًا تبرز إحدى السمات التى تميزت بها الجماعة ككل : تفانيها فى العمل والحياة دون الرضوخ لإطراءات وثناءات الشهرة الممكنة.

وهكذا فإن أوبريجون وثيبيدا ساموديو وفوينمايور وبارجاس وجارثيا ماركيز كانوا يمثلون أعضاء الجماعة الدائمين وقد التفوا حول المخضرمين خوسيه فيلكس فوينمايور ورامون بينيس. أما الآخرون الكثيرون الذين كانوا ينضمون إليها ويخرجون

منها على فترات متباعدة ومتقاربة مثل ألفريدو ديلجادو وأولاندو ريبيرا (فيجوريتا) وخوليو ماريو سانتو دومينجو وخوان ب. فرنانديث دينويتشكسى وروبرتو بريتو وريكاردو جونثاليث ديبول وكينكى سكوبيل وبرناردو ريستريبو مايا وكارلوس وراميرو دى لا إسبيريا وجونثالو جونثاليث ، ومن حين لآخر كان هناك من بين زائرى المجموعة روخاس إيراثو والشاعر ألبارو موتيس بصفته رئيس العلاقات العامة لشركة لانسا للطيران وكان يسافر إلى بارًانكيا أسبوعيًا.

وقد أدلى كل من الأستاذين بدلوه فى الحياة الأدبية المتحمسة للجماعة. وُلِدَ الصحفى والقصاص خوسيه فيلكس فوينمايور فى بارًانكيا عام ١٨٨٥ ، وتوفى بنفس المدينه عام ١٩٦٦ ، وكان أحد النماذج التى يُحتذى بها بنثرة البسيط والدقيق والشفاف. وفى رواياته مثل "الموت فى الشارع" التى نشرت فى الصحيفة الأسبوعية (النبأ) أظهر لفتيان الجماعة المواهب الأدبية التى لا تنضب فى الحياة اليومية البائسة فى اشتياق الناس العوام بالشارع ، وحنينهم وكذلك فى كوابيسهم ومشاكلهم فى أساطير وخرافات الشعوب. وفى ذاته الوقت علم أفراد الجماعة الطريقة الأكثر فعالية وجدوى فى السرد وهى التى تكمن فى تقديم نثر بسيط وشفَّاف مثل الذى نصح به هيمينجواى ، حيث الأفراد والأشياء والأعمال يتم الإعلان عنهم وتخصص لهم صفاتهم الذاتية دون ثغرات أو فجوات بلاغية أو خِداع فكرى.

أما رامون بينيس " العالم القطالونى " أو " العجوز الذى قرأ جميع الكتب " والمؤلفون الذين قرأ عنهم فى كل وقت وحين كما ضبط عندهم حاسة الشَّم مشيرًا عليهم فى دردشات المقهى بالكتب والمؤلفين الذين ينبغى عليهم القراءة لهم فى كل وقت وحين . كما علم أفراد الجماعة أيضًا فك الحكايات والقصص للروائيين العالميين العظام ، وذلك بالتحقق من الأعمال وفصل بعض الأجزاء عن بعضها كمن يفك صواميل ومسامير قلاووظ جهاز ليعود إلى ربطها من جديد وهو ينعم بمعرفة أدق أسراره. وإذا تأخر الفتيان فى متاهات بعض الآداب يعتقد أنها مشكوك فيها لم يتوان لحظة واحدة فى استدعائهم ولفت نظرهم مذكرًا إيَّاهم بهوميرو بمثابة فى مكتبه العالم ومقهى كولومبيا أو فى حان خابى. وكان الجميع يوقرونه ويبجلونه لأنه كان " أحلى ساعة " فى الأربع والعشرين ساعة اليومية بالنسبه لهم[١٦] .

وقد بدأت قصة العلم والحكمة والإنسانية لرامون بينيس فى قرية بيرجا فى جبال البرانس عام ١٨٨٢ . وبعد أن انتقل إلى برشلونة فى طفولته تخصص فى الآداب وهو لا يزال صغير السن ، وقد برز فى أسبانيا قبيل أن يكمل عامه الثانى والثلاثين ، واشتهر كشاعر وكاتب مسرحى وسرعان ما سجل اسمه فى موسوعة إسبانيا (دار نشر إسبانية). ومع ذلك فذات يوم عام ١٩١٣ انتهى المطاف إلى الاستياء من الجو الأدبى والفكرى فى برشلونة ، وكذلك ابتعد عن الأدب والمدينة وظهر فى ثيناجا عاصمة منطقة زراعات الموز حيث التقى برجلين لهما تأثير كبير فى حياة جارثيا ماركيز : الجد نيقولاس ريكاردو ماركيز ميخيا والجنرال بينخامين إيريرا اللذين كانا يقيمان منذ بضع سنوات فى أراكاتاكا المجاورة. وقد عمل بينيس محاسبًا فى ثيناجا ولمدة عام فى إحدى شركات الموز، ولكن الوحدة والبؤس الاجتماعى ورتابة العمل جعلته يعود بسرعة إلى الأدب ويتصالح معه بفضل جمال وروعة الكوميديا الإلهية ، وقد انتقل إلى بارًانكيا فى العام التالى لكى يؤسس مكتبة ومجلة أدبية أطلق عليها اسم " أصوات " كان لها الأثر الملحوظ فى الحياة الفكريةالأدبية لساحل الأطلسى وعلى البلاد بصفة عامة[١٧].

وكان بين حنينين متقابلين كمرآتين وظلَّ القطالونى الموقَّر طوال أربعين عامًا تقريبًا ينتقل عدة مرات بين برشلونة وبارًانكيا دون أن يقرر بأى المدينتين يستقر ، حيث إن برشلونه كانت تمثل بالنسبة له الحنين الدائم والخالد ، أما بارًانكيا فكانت معقل صداقاته وعواطفه الأكيدة والصائبة ، فهنا تزوج من ابنة المدينة ماريا سالاثار.

وقد عاد رامون بينيس إلى برشلونة للمرة الرابعة فى مايو عام ١٩٣١ ، عندما سقطت ملكية ألفونسو الثالث عشر وانحاز إلى جانب الجمهورية ، وقرر البقاء نهائيًا فى وطنه ، ولكن انتصار فرانكو اضطره إلى السفر إلى فرنسا فى فبراير١٩٣٩ ، ليعود إلى بارًانكيا بعد ذلك بعام[١٨]. وتلك المرة قضى فى عاصمة الأطلسى عشر سنوات متواصلة ، تلك المدينة التى على الرغم من وجود أصدقائه بها وكثرة السنوات التى قضاها هناك لم تعجبه بسبب فوضويتها وشدة حرارتها وطابعها الترابى. كان يعيش فى غرفة مليئة بالكتب بها مكتب وآلة كاتبه وصندوق ولوحتان ودولاب للملابس وحوض لغسيل الأيدى وسرير. وكان يستيقظ مبكرًا ليُدَرِّس التاريخ والأدب فى مدرسة الآنسات وعند الظهر كان يلتقى بأصدقائه بالجماعة فى مقهى كولومبيا لتناول الكوكاكولا ، وليتحدث لهم عن مؤلفيه وكتبه المفضلة ، وفى المساء كان يرتدى البيجامة ويجلس بجوار

النافذة ليكتب أعمالاً مسرحية ومقالات ورسائل لأصدقائه الأوروبيين، وفى الليل كان يمر على مكتبة العالم ومقهى كولومبيا أو حان خابى لكى يواصل الحديث مع أصدقائه ويتناول الكوكاكولا(١٩). وهكذا انقضت سنواته العشر فى بارًانكيا حتى انتابته ذات يوم أول أحاسيسه بالموت ، فحزم حقائبه وركب الطائرة فى ١٥ أبريل ١٩٥٠ متجهًا إلى مدينته التى حنَّ إليها ، إلى برشلونة فقد انتابته الهواجس والمخاوف خشية أنْ يدفنوه فى بارًانكيا ، تلك المدينة الفوضوية شديدة الحرارة. ومع ذلك فبعد أشهر قليلة أدرك أنَّ برشلونة مدينة أحلامه لم تعد موجودة فلم تكن سوى خدعة فى حنينه واشتياقه ؛ فقد أحس بأنه كولومبيا من الكاريبى أكثر منه قطالونيًا إسبانيًا ، وأنَّ ما هو أكيد حقيقة بالنسبة له - إلى جانب قرب وفاته - هى تلك المدينة الفوضوية الحارة والترابية مدينة بارًانكياعلى الجانب الآخر من الأطلسى حيث يريد - فى الحقيقة - الموت بين حب أصدقائه الكبار.وبالفعل وقبيل وفاته فى ٥مايو١٩٥٢كان قد طلب تذكرة باخرة ليعود ويستقر نهائيًا فى كولومبيا(٢٠).

وعلى أية حال ظلَّ هناك. ولم يكن ذلك فقط لأنه سيُخَلَّدُ فى "مائة عام من العزلة " بعد خمسة عشرعامًا ملقبًا " بالعالم القطالونى" ، بل أيضًا بفضل أستاذيته التى أدار بها " الهيرالد " ومجلة " أصوات " إحدى أهم المجلات الطليعية فى كولومبيا وأمريكا اللاتينية ، وكذلك بفضل دردشاته المميزة فى الحانات والمقاهى.

وفى مجلة " أصوات " التى استمرت ثلاث سنوات فى أواخر الحقبة الثانية، وقد نشر بينيس الترجمات الأولى بالأسبانية لتشيسترتون ، وأثرى بذلك الثقافة الأدبية لكولومبيا بنصوص لكلاوديل وجايد وميلوث أبولينير وليون دى جريف وريفيردى وماكس جاكوب وإيودو برو وخوسيه أويستاسيو ريبيرا وآخرين. ولقد اهتم بوجه الخصوص بنشر أفكار جمالية حديثة لكى يساعد كولومبيا على الخروج من الإقليمية الأدبية، كما انتقد بشدة الأصاله العقيمة للإسبان والبوجوتيين (مواطنى بوجوتا من الأدباء والمفكرين وبوجوتا هى عاصمة كولومبيا). كما انتقد عُقَدَ وبساطةَ وجهل أدباء ومفكرى أمريكا اللاتينية(٢١) ومع ذلك فلم يكن يعتقد أن قبلة الحداثة ينبغى أن تكون حتمًا وبالضرورة مدينة باريس أو لندن أو نيويورك. وكان يفكر فى أنه من داخل محافظة أو قرية أمريكية لاتينية يمكن أن يكون الشخص حداثيًا وعصريًا تمامًا فى القراءات والأعمال الأدبية. وهذه الفكرة الأساسية سيتم تغذيتها ونشرها اعتبارًا من حقبة

الأربعينيات وستكون فلسفة جماعة بارًانكيا فى قراءاتها وأفكارها وأعمالها. وعلى وجه الخصوص كانت ملائمة جداً لجابرييل جارثيا ماركيز تلك الفكرة التى تَوَصَّلَ إليها وعمل على نشرها الكاتب القطالونى عن القرية العالمية ؛ هذا العالم العبقرى المصغر حيث اتسع لاحصائيات الجغرافيا والتاريخ والإنسانيات وثقافة أمريكا ، وهذا هو على وجه التحديد ما جاء جارثيا ماركيز يبحث عنه بجهد جهيد منذ عودته للكاريبى بعد جائحة بوجوتا أولاً فى (الورقة الساقطة). وعلاوة على ذلك : كان أحد مقالاته الأولى فى قرطاجنة حيث كان قد حاول إيجاد تعريف غنائى وقريب مما ستكون عليه " ماكوندو " (٢٢).

ومع أستاذين كاملين مثل رامون بينيس وخوسيه فيلكس فوينمايور أصدقاء كالأخوة متحمسين" وساخرين" ، كما هو الحال فى أعضاء مجموعة بارًانكيا فى أوائل الخمسينيات ، فليس من المستغرب أن يعترف ويقرر جارثيا ماركيز بعد سنوات كثيرة حتى المبالغة بأن أهم السنوات خصوبة وبريقًا فى حياته هى تلك السنوات الثلاث أو الأربع التى قضاها مع أصدقائه فى تلك المدينة ، وأنَّهُ كما يُقْرأُ فى" مائة عام من العزلة "كانوا أوَّلَ وآخرأصدقاء له فى حياته(٢٣). إن هذا الإطراء من جانب الكاتب – مع ذلك – سيكون له تأثير ضئيل على أصدقائه فى مجموعة قرطاجنة والإنجازات التى حققها ، إلى جانب كليمينتى ما نويل ثبالاً وهيكتور روخاس إيراثو وجوستابو إيبارا ميرلانو ، حيث إن الثمار التى قطفها الكاتب المستجد إلى جانب أصدقائه فى بارًانكيا كانت نتيجة منطقية لما كان قد غرسه وبدأه فى قرطاجنة. لقاءه الجديد مع ثقافته الكاريبية واكتشاف – من خلال عالم طفولته – الموضوعات الكبيرة المهمينة فى إنتاجه الأدبى والبحث عن أسلوب ومنهج روائيين مناسبين لموضوعاته ، والبحث عن كيفية صياغة "ماكوندو" (القرية العالمية التى اشتملت على كل حدث عاشه وكل شىء كان يحلم به الكاتب) ، واكتشاف الكتاب القدامى الكلاسيكيين الإغريق واللاتينيين ، وعلى وجه الخصوص سوفكليس : والعثور على طريقة معاصرة لقراءة الكلاسيكين الإسبان فى العصر الذهبى ، وأخيرًا كل شىء كان حاسمًا فى مسيرته الأدبية مثل لقائه مع كافكا وسوفكليس : اكتشاف ويليام فوكنر وفيرجينيا وولف وهيرمان ميلفيل الذين لم يكتشفهم – على عكس ما يقال – مع أصدقائه فى بارًانكيا بل كان مع أصدقائه فى قرطاجنة منذ تلك اللحظه التى بدأ فيها العمل بصحيفة الأونيفرسال (العالمى).

وهذا يعنى أن فترتى قرطاجنة وبارًانكيا ليستا لحظتين منفصلتين فى حياة وتطور جارثيا ماركيز ، بل إنهما مرتبطتان تمامًا لأن احداهما هى استمرار للأخرى، وعلاوة على ذلك فإن أعضاء الجماعتين كانت لديهم اتصالات فكرية وأدبية ، وكان بين البعض صداقة وطيدة ، وثمة شىء لا يمكن إنكاره وهو الإسهام الكبير الذى قدمته بارًانكيا ومفكروها لجارثيا ماركيز المؤلف القادم لرواية " مائة عام من العزلة " وذلك بفضل الطابع الكونى الذى كانت تتميز به المدينة ومفكروها وبصورة خاصة الصداقة الأخوية لأصدقاء جماعة بارًانكيا. وبعد أن نضبت البيئة الإقليمية شبه القروية للمدينة البطلة ، وبعد تفرق جماعة قرطاجنة فى أواخر الأربعينات أصبحت بارًانكيا وفتيانها بمثابة المهد والسند الأخريين الذين سمحا لجارثيا ماركيز ببلوغ حالة النضج الاجتماعى والإنسانى والصحفى والأدبى اللازمة للبدء فى خطواته البطيئة لصياغة عالمه الروائى الخالد.

وقد بدأت القفزة النهائية فى الرسوخ بصالة تحرير صحيفة الهيرالد، وعندما كسب ألفونسو فوينمايور المعركة بإدراج صديقه جارثيا ماركيز فى الصحيفة ، وذلك بالتنازل عن نصف راتبه خلال بضعة أشهر لكى يتحقق له ما أراد. وقد عهد إلى الكاتب بالإشراف على القسم الدولى : وكانت مهمته تكمن فى وضع العناوين للبرقيات التى كانت تصل عبر أجهزة التلكس أو عبر أجهزة وكالات الأنباء. ومع ذلك ومثلما حدث فى قرطاجنة ، فإنَّ جارثيا ماركيز كان يتوقُ إلى أن يصبح مجرد محقق بسيط (صحفى يعد التحقيقات الصحفية) لصفحات الحوادث. وكما حدث فى صحيفة العالمى أدرك جارثيا ماركيز بنفسه أنَّ الصحفيين المختصين بالصفحات المذكورة لم يكونوا مجرد محققين ، بل كانوا يتصرفون وكأنهم أصحاب هذه الصفحات ، وبالتالى لم يكن الأمر ممكنًا لجارثيا ماركيز. ولذلك قنع بأن يكون كاتبًا للمقالات الافتتاحية، وكاتب عمود دائم ، وافتتح فى ٥ يناير ١٩٥٠ سلسلته الخصبة الطويلة التى اشتملت على أربعمائة مقال تحت عنوان الزرافة.إنَّه الصمت الثديى (كما عرَّفه رامون جوميث دى لاسيرنا بانه مثل الحصان الطويل بحثًا عن الفضول). ومن خلال عموده كان يرقُبُ ويعلق على كل شىء دون ضوضاء ، ومثل الزرافة نفسها ستكون أبهى نظرًا لسمو أسلوبها وعظمة الخيال. ولكن نجاحه تجاوز كل الحدود حتى أدى ذلك للامتناع عن العمل فى تحرير الصحيفة. فقد اكتسب جارثيا ماركيز عادة الذهاب إلى الناحية

القريبة لشراء السجائر ولتناول بعض الكئووس ليواصل كتابة قصصه ، وبهذا الشكل اتبعه معظم المحررين بالصحيفة. وذات يوم صرخ المدير وفصله من الهيرالد. وقد ذهب فوينمايور من جديد كما سبق أن قام بدور المحامى والراعى لجارثيا ماركيز لكى يواجه نجل عمه قائلاً : انظر يا كارلوس إن جابرييل هو أهم صحفى بجريدة "الهيرالد" ألم تدرك أن الفتى كالماس الخام فلاتكن غبيًا "[٢٤] وكان خوان فرنانديث رينو يتثكى يشارك فوينمايور الرأى عندما اقترح على والده صاحب الصحيفة بأن يجعله شريكًا لتأكده من أن ذلك سيكون أفضل استثمار للمستقبل[٢٥].

ولقد كان جارثيا ماركيز - فى ذلك الحين وهو فى الثالثة والعشرين من عمره - فى حالة بين العقل والجنون ، ولذلك وقع كافة مقالاته بعنوان الزرافة باسمه المستعار وولفيانو دى سبتيموس. لقد كان طموحًا وتوّاقًا لكى يصبح كاتبًا حقيقيًا بدون أوصاف. كان مدركًا للحظة الأساسية التى يعيشها ، وللأصدقاء الوحيدين الذين لا يمكن استبدالهم فهم ينقلون له أفضل شىء عن أنفسهم ، وقد زاد ذلك من نشاطه وحماسه وحوله إلى عامل خارج على المألوف : فهو إلى جانب كتابة عموده اليومى والافتتاحى من حين لآخر كان يعمل فى قصتين ويكتب حكايات ، يعد وحده صحيفة النبأ ويقرأ كتابًا على الأقل يوميًا. وكان يسكر مع أصدقائه ليلاً ، مثلما كان فى قرطاجنة حتى يتوج بسرعة ملكة جمال ما. ولعل عام ١٩٥٠ . كان العام الأخصب والمكثف والمبهر فى حياة جارثيا ماركيز. عام لا يتكرر.كان خلاله قريبًا من خطيبته مرسيدس بارتشا وهذا غاية سعادته، تلك الفتاة الحسناء من أصل مصرى التى كانت تنتظره فى الإجازات خلف منضدة صيدلية والدها عند ملتقى (شارع عشرين يوليه) مع شارع ٦٥.

ولكن بالنسبة للأشخاص الذين لم يعرفوه حق المعرفة أكثر من الإيماءات والتحيات والأمور التقليدية مثل سائقى سيارات الأجرة وعمال الحانات وبنات الهوى وقوادى شارع الجريمة ، فإن الكاتب لم يبدُ لهم فى أحسن أعوامه ، فقد كان بالنسبة لهم المهذب ترابولوكو (الخرقة المجنونة)[٢٦] شاب شاحب الوجه ونحيف ذو شعر مجعد وعينين جاحظتين ، أشبه بالتائه الشارد سريع الخطوات ، وكان يرتدى بنطلونات مجسمة وقمصان ذات ألوان زاهية فاقعة تفقده أناقته ورونقه وينتعل نعلين مستهلَكين ، ومع ذلك كانا أقل جذبًا للانتباه من جواربه ذات الألوان الصارخة.

وفى الظاهر كـان جـارثيـا مـاركـيـز يتـسـم بمزيد من الجنون والتلذذ بالألم الرومـانـتيكى فـى الطريقـة التى عـاش بهـا فى بارًانكيا لكى يسـتطيع الاسـتمـتـا ع باللحظات السعيدة هناك ، ولكى يبدأ اضطر للنوم فى أحد بيوت الهوى قرابة العام ، وبما أنه كان يتقاضى ثلاثة بيزو فى عموده ، وأربعة لمقاله الافتتاحى من صحيفة الهيرالد ، لم تكن تكفيه للطعام والشراب فقد أُضطر للبحث عن وسيلة رخيصة للنوم مع الفتيات اللاتى كن يمارسن الحب بسبب الجوع فى (شارع الجريمة) حيث بدأ يكتشف رخص حياته : كانت الغرفة تُستأجر ببيزو ونصف فى الأربع والعشرين ساعة. وكان المكان فى مبنى قديم مستطيل الشكل مكون من أربعة طوابق بلا مصعد ، وكان يعرف بالاسم الساخر (ناطحة السحـاب) ، الكائن بشارع ريال أمام صحيفة الهيرالد. وكانت بالطابق الأول مكاتب توثيق العقود ، أما الطوابق العليا فقد كانت لبيوت الهوى. وفى الطابق الأخير كانت توجد الحمًامات العامة حيث يستخدمها القوادون والمترددون على المكان وبنات الهوى ولكلٍ دوره فى الاستخدام، وكانت غرفة جارثيا ماركيز فى بيت الهوى مربعة الشكل مساحتها ثلاثة أمتار. وكانت تُطلُّ على الشارع. وأما ضوضاء وجلبة الشارع المخجلة فقد كانت تتسلل إليه عبر النوافذ ومع ذلك كانت سلواه. فأمامه شجرتا لوز كبيرتان تشفيان حنينه، وكانت إحدى الزائرات المترددات دائمًا على بيت الهوى هذا سيدة تُدعى ماريا إنكارناثيون سيدة بدينة، تتطيب برائحة كولونيا الخزامى ، وكانت تغسل له سرواليه الوحيدين والقمصان الثلاثة الصارخة الألوان التى يمتلكها وتكويها له وكانت تسملها له ، برفقة عاشقات المهام المستعجلة[٢٧].

كانت هناك علاقة عُرفية بين الكاتب وحارس " ناطحةالسحـاب" : كان جارثيا ماركيز يصل كل مساء ويسلم الزنجى داماسو رودريجيث بيزو ونصف البيزو فى المساء أو بالليل ، فيقوم هذا بتسليمه مفتاح الغرفة. وبعد عدة أسابيع أصبحت العلاقه آلية تلقائية ، ولكن ذات ليلة وليال أُخر لم يتوفر لجارثيا ماركيز البيزو ونصف البيزو أجرة الغرفة ، حينئذ كان يصف لداماسو مأساة حياته. كان يخرج له أصول قصصه المكتوبة علـى ورق الصـحف التى كـانت مـعـه دائمًـا فى جـراب من الجلد تحت إبطه وقـال للحارس : أُنظر إنَّ هذه الأوراق التى تراها تساوى بالنسبة لى أكثر بكثير من البيزو والنصف بـيزو ؛ سـأتركـهـا لـديك وغدًا سـأدفـع لك[٢٨]، ولـم يقـبل داماسو هذا فقط

بل اعتبره قاعدة : وعندما كان جارثيا ماركيز يتوفر له البيزو والنصف بيزو كان يدفعها لداماسو ، وعندما لا يتوفر له ذلك كان يسلم الجراب الجلدى للحارس كضمان رغم أنها تتضمن أصول (الورقة الساقطة).

وهكذا ضمن غرفة رخيصة وثابتة طيلة عام تقريبًا ، وكانت ماريا إينكارناثيون تعتنى به وتسهر على مصالحه، كما أنه أصبح صديقًا لداماسو ولباقى فتيات الهوى اللاتى لم يَكُنَّ يَشْعُرْنَ نحوه بأى احترام وتعاطف أخوى ، بل كُنَّ يطلبن منه النصائح لكى يَسْتطعن مجابهة الحياة ، فضلاً عن قيامهنَّ بكتابة رسائل علاقاته الغرامية المستحيلة، ولم يستطعن التعرف على هويته الذاتية ولا منْ هو وإن كان يبدو لهن مثقفًا وله أصدقاء بارزون كانوا يأتون إليه لاصطحابه فى سيارات حكومية. وفى الصباح كنَّ يُعرنه الصابون ، فلم يكن لديه صابون قط ويدعونه على الإفطار المصحوب بالجعة والبيض المحمر. وأحيانًا أخرى كان الكاتب هو الذى يدعوهن إلى غرفته للاستماع إلى أغانٍ لحنها بنفسه بصافرة كان قد أهداها إياه خيرمان بارجاس.

وفى الحقيقه لم تكن الحياة فى " ناطحة السحاب "سيئة للكاتب الشاب الذى اقترح على نفسه الحياة بمفرده معتمداً على ما يخطه قلمه فى مدينة لم يكن بوسع أى شخص فيها الإقدام على هذه الرفاهية. وبقدر ما كانت جحيمًا إلا أنَّ فتيات الهوى كانت بالنسبة له فردوسًا عظيماً لروحه العفنه كفنان. هذا على الأقل ما كان يفكر فيه أستاذه ويليام فوكنر فى مقابلته مع "ذاباريس ريفيو" : "إنَّ أفضل مكان يعمل فيه الفنان هو أحد بيوت الهوى لأنه فى الصباح يسود الهدوء وسكينه للكتابة وأثناء الليل حفلة وأناس للدردشة"[٢٩]. ولكن جارثيا ماركيز وصل إلى أبعد من هذا لأن الحوائط الفاصله كانت رقيقه وقد سمح له هذا بالاستماع إلى أسرار العملاء الذين كانوا يفضون بها إلى فتياتهن أجيرات المتعة ، وكان النزلاء غالبًا من المفكرين والسياسيين والبيروقراطيين الأجلاء بالمدينة. وهناك تعلم كثيراً من عفة فتيات الهوى والمتعة والظروف الإنسانية للنزلاء ، لظروفهم الإنسانية الخفية ، ومنها على سبيل المثال أنهم لم يكونوا يذهبون فى كثير من الأحيان لبث الحب بل لكى يتحدثوا إليهن عن أنفسهم فى تلك اللحظات[٣٠]. وليس عبثًا أن ينقل بيت الهوى هذا كما هو إلى قصة "خريف البطريرك" وسيكون النموذج الذى سيحتذى لبيوت أخرى نشطة فى حكاياته وقصصه ، وليس من العبث

أن حارسه داماسو رودريجيث سيكون شخصية داماسو الذى يسرق كرات البلياردو فى حكايته" فى هذه القرية لا يوجد لصوص".

وطبقًا لنظرية فوكنر كان جارثيا ماركيز يرعى ملهماته فى بيت هوى ناطحة السحاب. كان يجلس على سرير خشبى فى الغرفة الصغيرة التى كانت تطل نافذتها على شجرة لوز هَرِمة ليصحح ما كان قد كتبه فى اليوم السابق حتى ساعات متأخرة من الليل فى صالة تحرير صحيفة الهيرالد ، وهى صالة تغطيها أنوار النيون ومزودةٌ بمراوح قديمة كانت تدور عبثًا لتخفيف حدة الحر ، وكانت الصالة خالية وكانَ يُصَحِحُ على أنغام آلات التلكس وعلى ضوضاء وجلبة المطبعة الرحوية فى الطابق السفلى. وعندما تتوقف جميعها فجأة كان عقل جارثيا ماركيز يفرغ تمامًا من الأفكار وكأنه استُنصِلَ تمامًا ، وبمجرد أن تستأنف الطابعات البرقية أمطارها البردية سرعان ما تعود الصور والقصص إلى ذهنه. وبينما كان شارع الجريمة يعج بالضوضاء الصاخبة بحاناته وموسيقاه كان جارثيا ماركيز يدخن بشراهة أمام ماكينة ريمنجتون (آلة تلكس) التى كان يمتلكها ألفونسو فوينمايور يحاول إخراج شياطين أراكاتاكا من جسده ؛ من طفولته فى قصته (الورقة الساقطة)[٣١]. أو فى عمله المؤجل " المنزل " القصة الأولى التى كان قد بدأ كتابتها فى منتصف ١٩٤٨ بقرطاجنة فى الوقت الذى بدأ فيه حياته الصحفية فى الأونيفرسال (العالمى). وفى بعض الليالى بعد أن يكون قد أنهى يوميته المزدوجة فى الصحيفة كان يرافق المونو دى جيرا وهو سائق تاكسى كمساعد له لكى يتجولا فى متاهة المدينة ويرفقتهما العملاء الذين يستقلون التاكسى ليلاً حتى فجر اليوم التالى، وعندما كانت المدينة تستيقظ على رائحة السمك الطازج والفواكه الفاسدة التالفة. حينئذ كان جارثيا ماركيز يعود إلى غرفته فى بيت هوى ناطحة السحاب محملاً بالقصص والنوادر للركاب المجهولين ومُحيًا روح تثير الشفقة [٣٢].

فقد كان كذلك إلى حد ما. ففى أوائل ١٩٥٠ كانت (الورقة الساقطة) قد عرفت طبعتين سابقتين وبالتالى كانت تحبو بين جنبات العالم، ولكن بناءً على اقتراح من ألبارو موتيس سلم جارثيا ماركيز قصته لمندوب دار نشر خوليو ثيسار بييجاس لكى ينشرها فى بوينوس أيرس بواسطة دار نشر لوسادا. وبعد أنْ تخلَّصَ من هذه القصة (كما كان يعتقد جارثيا ماركيز) عاد مرة أخرى إلى قصته "المنزل" وخلال الشهور

الأولى من ذلك العام عمل جارثيا ماركيز بقوة وجدية منقطعة النظير فى قصته "المنزل ، هذا المجلد الضخم تزايد حجمًا وبعد ذلك تقلص حجمه ثم عاد مرة أخرى إلى النمو المفرط : لقد كان عالمًا رحبًا فسيحًا متقلبًا لا يمكن استيعابه.

وعلى الرغم من ذلك فإن المُطَهِّرَ الأول للروائى الشاب لم يكن استحالة كتابة "المنزل" بل كان رفض دار النشر قصة " الورقة الساقطة " خلال الشهور الأولى من ذلك العام. لقد تم إرسال هذه القصة بواسطة بيبجاس إلى لوسادا برفقة " السيد المسيح مستلقيًا على ظهره " لإ دواردو كبايرو كالديرون بغية اكتساب كُتَّاب جُدد للرواية الكولومبية ، ولم يخالط الشك لحظة واحدة أصدقاء جارثيا ماركيز الذين كانوا قد قرأوا كتابه من أنه سيتم اختياره لأنه وإن لم تكن القصة المتقنة للمؤلف الكولومبى ، فقد كانت – فى ذلك الحين – قصة ثورية تمامًا على الساحة الروائية المحلية والأمريكية اللاتينية لمعالجتها موضوعًا لسو على ضوء ذكريات طفولة المؤلف بتقنيات مركبة لفوكنر وفيرجينيا وولف ؛ ولكن لجنة القراءة لدار النشر الأرجنتينية لم ترفض فقط العمل الأول لجارثيا ماركيز؛ بل أرسلت له بخطاب مدمر موقعًا من جانب رئيسها جيرمو دى تورى صهر خورخى لويس بورخيس[٣٣].

وقد جاء القصاص ذلك اليوم حزينًا آسفًا إلى الهيرالد ، وتوجَّه إلى ألفونسو فوينمايور وقال له هامسًا : أودُّ الحديث معك ولكن هناك فى محلٍ بالسوق ، وفى وسط الجزارين فى بارًانكيا وهم يتناولون الجعة أخرج خطاب دار النشرالأرجنتينية ووضعه أمام النظارة السميكة لصديقه وقال له: " اقرأ حضرتك هذه الرسالة "[٣٤]. لقد تجمَّد أيضًا فوينمايور: فرسالة الإسبانى جيرمو دى تورِّى بعد أن اعترف لكاتب " الورقة الساقطة " بمهارة أدبيه ما ، أنكرت له أى مستقبل أدبى وأوعزت إليه بأنَّ أفضل شىء يستطيع القيام به هو التفرغ لشىء آخر.

إن جارثيا ماركيز الذى نال نجاحًا فوريًا منذ أن كتب أعماله الأولى وهو لا يزال فى الثالثة عشرة من عمره انتابه المرض تمامًا. وقد اعترف بعد ذلك ببضع سنوات بأنَّه لولا موهبته القوية ككاتب لترك الأدب للأبد[٣٥]. ولم تنقذه فقط موهبته الأدبية التى لا تُقهر؛ بل أيضًا بفضل الانتقادات الأخوية والصادقة لأصدقائه ، فقد استطاع

الأصدقاء بالتعاون معًا أن يخرجوه من هذه الأزمة. وقد شجَّعهُ ألفونسو فوينمايور مذكرًا إياه " بأنَّ الكتاب الأول ليس الأفضل على الإطلاق " وأنَّ قصته جيدة على الرغم من كل شيء وأنَّ السلطة الأدبية للناقد جيرمو دى تورِّى قد حكمت ذاتيًا بعدم صلاحيتها بحكم غبى للغاية. أمَّا رامون بينيس فمن جانبه علَّق على القصة فقرة فقرة وفصلاً فصلاً، وأطلعه على النقاط التى وفق فيها ونقاط ضعفه. إنَّ بعد نظر بينيس وأمانته وصراحته لم تساعد جارثيا ماركيز على تجاوز ذلك الاكتئاب الرهيب والإقدام على الطبعة الثالثة للقصة بعد بضعة أشهر (من المرجح أن يكون ذلك فى مايو أو يونيه من تلك السنة) فى وسط اليتم الأدبى والصداقة اللذين تركه فيهما العالم القطالونى الذى شرع فى سفره الأخير إلى برشلونة فى ١٥ أبريل ، ولكن ماركيز لم يفقد الحماس المحموم للجماعة ، وفى أواخر ذلك الشهر افتتح لسان حال تعبيره الخاص الصحيفة الأسبوعية النبأ.

لقد كانت النبأ مشروعًا قديمًا لألفونسو فوينمايور وُلِدَ فى أحد الاجتماعات المعتادة للجماعة فى مقهى كولومبيا ، وقد حمله معه فى حان خابى ومقهى روما ومكتبة العالم والمقيلات الأدبية الأخرى للجماعة ، وكذلك فى قاعة تحرير الصحف ونصف بارَّانكيا. وكان راميرو دى لا إسبيريا قد عُيِّنَ حديثًا قاضيًا للشرطة لمكافحة النشل والتسول والصعلكة والماريجوانا ، وقد أوعز إليهم أن يكونوا شركة توصيةوقد أطلق على الصحيفة مؤقتًا اسم الكومانديتاريو (الشريك الموصى) حتى ذات مساء من أبريل ١٩٥٠ تبلور المشروع فى أحد الاجتماعات المسائية " بمكتبة العالم " حيث أَصَرَّ ألفونسو فوينمايور على تسميتها النبأ وتم تشكيل مجلس التحرير تحت إدارته وجارثيا ماركيز رئيسًا لتحريرها. وقد كان الجميع أعضاء فى لجنة التحرير بدءًا من الأعضاء الأساسيين فى المجموعة حتى المترددين عليها بينيس وخوسيه فيلكس فوينمايور وخيرمان بارجاس وألبارو ثيبيدا ساموديو وخوان ب. فرنانديث رينويتثكى وألفريدو ديلجادو وبرناردو ريستريبو مايا وخوليو ماريو سانتو دومينجو وألفونسو كاربونيل ورفائيل ماراياجا وميرا ديلمار وجونثالو جونثاليث. كما تم تكليف الرسامين أليخاندرو أوبريجون وألفونسو ميلو وأورلاندو ريبيرا فيجوريتا بالرسومات وأحيانًا جارثيا ماركيز نفسه بالرسومات أو بتقليد بعضها استنادًا إلى هوايته كرسَّامٍ جيد.

ويتذكر ألفونسو فوينمايور أن ذلك المساء كان هناك حماس خاص لدى أفراد الجماعة وأنهم بينما كانوا يسيرون فى الشارع بعد الخروج من " مكتبة العالم " توقف جارثيا ماركيز وأمسك بذراعه وقال سعيداً للغاية : " أستاذى نحن جماعة هائلة " وكانت هذه المرة طبقًا لما قاله فوينمايور هى المرة الأولى التى يتبلور فيها تشكيل الجماعة وإن كان سبيرو موراليس هو الذى سيطلق عليها اسم " جماعة بارًانكيا" فى مقال بصحيفة الاسبكتادور (المشاهد) فى بوجوتا(٣٦). وتشير الحكاية بصفة عارضة إلى أن إحدى السمات الرئيسية للجماعة تكمن فى تلقائيتها. وقد كانت جماعة بارًانكيا تتكون من مجموعة أصدقاء يشتركون فى عدة أمور فى مقدمتها الصحافة والأدب مثل جماعة قرطاجنة " المازحون " كانوا يجتمعون بشكلٍ غير رسمى تجمعهم الصداقة والإحساس بالتسلية والترفية وهو الإطار الذى فهموه من تفرغهم للفن والثقافة ، ويكرر فوينمايور نفسه قبيل موته بست سنوات أن أفراد الجماعة هم الذين علموا ووجهوا جارثيا ماركيز فى قراءاته ولكن بصورة فردية وليس كجماعة منظمة لأننا لم نكن أبداً كذلك وإن كان بعض الدارسين يرون عكس ذلك(٣٧)، وعلى الرغم من أن جماعة بارًانكيا كانت إحدى الجماعات الأكثر نشاطًا وثقافة واطلاعًا فى القارة بأسرها ، والهدف الرئيسى لأية جماعة من الفنانين والمفكرين يتبلور بالعديد من الأعمال الخالدة مثل أعمال ألبارو ثيبيدا ساموديو وأليخاندرو أوبريجون وجابرييل جارثيا ماركيز. فواقع الأمر أنَّها جماعة فى نهاية المطاف التفت حول المجلة الأسبوعية " النبأ "حيث قام جميع أعضائها بنشر عمل أو عدة أعمال لهم وكانت ترفع شعار الفصاحة قائلة : إنَّ كونها تفتقر إلى الشكل والمناخ الأكاديمى لا يعنى أنها ستغفل أو ستهمل الهدف الرئيسى : العمل الأدبى وتوجهه الاجتماعى.

كما أنَّ الطبيعة المختلطة أو المتنوعة " للنبأ " لكونها أسبوعية رياضية وأدبية فى الوقت نفسه تكشف عن فلسفة الجماعة وهى عدم أخذ الحياة مأخذ الجد، كما علمهم العالم القطالونى وإعطاء كل الجلال والوقار للأدب والصحافة والثقافة. لقد ظهرت المجلة لحظة أوج مجد كرة القدم الكولومبية ؛ فالمجلة ذات التقديم المتواضع والشجاع والجرىء كانت تستخدم الرياضة كسنارة تجارية للعمل على نشر ما يهمهم فى الواقع : الصحافة والأدب. وبهذا الشكل كان القراء يجدون فى النهاية تحقيقًا صحفيًا عن

الصرف الصحى بالمدينة أو مقابلة مع الأبطال الرياضيين أو لقاء مع شىء أكثر جدية مثل قصة لكافكا وساروبان وبورخيس وهيمينجواى وكورتاثار وفليسبرتو إيرنانديث أو جارثيا ماركيز نفسه.

وفى بداية طبع مجلة " النبأ " فى التاسع والعشرين من أبريل كان هناك حماس وطوفان من المقالات الصحفية لفوينمايور وجارثيا ماركيز ؛ كانت وافية بالغرض لكى يتلقاها القراء وتجد المكان المناسب الذى تستحقه. أرسل الجميع أنباءهم وتعليقاتهم وتحقيقاتهم وقصائدهم وروايتهم وكان رامون بينيس قد عاد إلى إسبانيا قبل صدور مجلة " النبأ " بخمسة عشر يوماً وكان يرسل حكايات وتعليقات من برشلونة مثل خوان ب. فرنانديث رينويتكى من باريس وبرناردو ريستريبو من الولايات المتحده الأمريكية. ونشر ثيبيدا ساموديو حكايات ممتازة، كما قدَّم الأستاذ الآخر للجماعة خوسيه فيلكس فوينمايور سبع روايات إبداعية من " الموت فى الشارع" التى كان لها تأثير كبير فى ثيبيدا ساموديو وجارثيا ماركيز، كما نشر الأخير أجزاء من قصته المستحيلة " المنزل " وأفضل حكايات "عيون كلب أزرق "مما جعلهم فى كل مرة فى حاجة إلى مادة للنشر(٣٨).

لقد كانت تنشر فى صحيفة " الهيرالد " وكان يشرف عليها كاملة جابرييل جارثيا ماركيز ويتقاضى منها خمساً وعشرين بيزو أسبوعيًا (أول راتب مهم فى حياة الكاتب) وقد اسْتُقْبِلَتْ مجلة " النبأ " استقبالاً جيداً وحافلاً فى أعدادها الأولى لأنَّ القراء اعتقدوا أنها مجلة رياضية ، ولكنهم عندما اكتشفوا الخدعة من أن طابعها الرياضى لم يكن سوى تغطية لتوجهها " الليبرالى المارق الذى يضم عناصر يسارية" ، ومداخلاتها الأدبية عزفوا عن شرائها تدريجيًا. حينئذ عزَّز المسئولون عنها القسم الرياضى بها حتى أنَّ جارثيا ماركيز نفسه كتب تحقيقًا رياضيًا كان أول تحقيق فى حياته بعنوان "الرياضى الأنيق " وهو عبارة عن ترجمة للاعب كرة القدم الأورجوانى براسكويتشيا (أى نبذة عن حياته) وكان يلعب فى صفوف فريق جينيور. ولكن مصير " النبأ " مثل كافة المجلات فى عصرها كان معروفًا: وعندما وجد فوينمايور وجارثيا ماركيز أنفسهما مضطرين للكتابة عن الرياضة ، ولم يكن ذلك من تخصصهما، ولم يحظ باهتمامهما كما وقع على عاتقهما وحدهما إعداد المجلة وتوزيعها وتحصيل ثمنها(٣٩) فإنهما بعد وقت

قصير شعرا بالإجهاد وتدهورت المجلة رويداً رويداً حتى أُغلقت بعد أربعة عشر شهراً من جرّاء المشاكل الاقتصادية والافتقار إلى إسهامات صحفية خصيصاً للمجلة وحدها.

ولكن جارثيا ماركيز ابتعد عن المجلة قُبيل إفلاسها بوقتٍ كبير، حيث تركها فى يناير ١٩٥١ عندما انتقل إلى قرطاجنة مع والده وشقيقه جوستابو وبدأ تدريس اللغة الأسبانية فى مدرسة ملحقة بجامعة قرطاجنة، وفى نفس الوقت أراد أن يسجل فى الصف الرابع بكلية الحقوق لاستكمال دراسته التى كانت قد هجرها فى أواخر عام ١٩٤٩.

وعلى الرغم من التشبع النهائى فإن مجلة " النبأ " ظلت مرتبطة بشكل أساسى - ليس فقط بأنشط عام فى حياة جارثيا ماركيز الذى قضى معظم وقته إلى جوار أصدقاء جماعة بارّانكيا - بل أيضًا بتطوير الشكل الثانى فى تعبيره الأدبى : الأكثر إضماراً وشفافية وموضوعية " رواية غريق " و " العقيد لا يجد منْ يراسله" ومعظم حكايات "جنازة ماما الكبيرة " التى ستكون بمثابة المقابل والتكملة لأسلوبه الأول الغنائى الباروكو للروايات الست الأولى فى " عيون كلب أزرق " و"الورقة الساقطة " و"جنازة ماما الكبيرة " و"مائة عام من العزلة " و "خريف البطريرك".

إنَّ الحكايات الأخيرة " لـ..عيون كلب أزرق " التى نشرت فى مجلة النبأ خلال ذلك العام : " السيدة التى كانت تصل فى السادسة " ليلة الكروانات و" شخص ما يبعثر هذه الورود " تمثل بداية الأسلوب الثانى لجارثيا ماركيز إنها وثبة هائلة منبثقة عن التأكد النهائى للمؤلف فى ثقافته الكاريبية. ولعامين من خبرته فى الصحافة ولقراءاته لكتاب مثل هيمينجواى ودوس باسوس وكابوتى وكذلك للقصة والرواية البوليسية. إنَّ قصة تأليف الروايتين الأوليين تكشف ليس فقط عن التلاحم الحيوى والأدبى بين جارثيا ماركيز وأصدقائه؛ بل أيضًا العبقرية المُعلن عنها آنفًا للروائى والصحفى الشاب بالنسبه للواقع الفورى كمصدر أساسى لعمله الأدبى.

وأحيانًا عندما كانت الروايات البوليسية التى كان يترجمها أو يقرصنّها فوينمايور من المجلات الأجنبية - طويلة للغاية - كان يطلب من جارثيا ماركيز أن يختصرها بعض الشىء دون إيجازها مع الحفاظ على طولها المناسب ؛ حينئذ كان الكاتب يأخذ قلمًا رصاصًا ليحذف الجمل والعبارات التوضيحية أو الوصفية فحسب حتى

يختصرالرواية إلى لبُها الأساسى والجوهرى وبهذه الطريقة فإن هذا العمل المتكرر تحول إلى ورشة أسلوبية لجارثيا ماركيز. وكان أفراد الجماعة يقرأون - خلال هذه الشهور- القصص البوليسية من سلسلة أو جماعة سيبتيمو ثيركولو(الدائرة السابعة) التى كان يديرها خورخى لويس بورخيس وأدولفو نيوى كساريس عندما ظهر الرهان بين فوينمايور وجارثيا ماركيز عما إذا كان مؤلف "مائة عام من العزلة " قادراً على كتابة رواية بوليسية.وقبل الكاتب التحدى وقام بعمل البحث اللازم وأعد خطة العمل وجلس يكتب الرواية(٤٠).

وعندما توغَّلَ فى الواقع الفورى بحثًا عن مادة لقصته تذكر جارثيا ماركيز قصة الموديل التى تركت الرسام أليخاندرو أوبريجون منتظراً. كان أوبريجون أستاذاً فى مدرسة الفنون الجميلة، واقترح اختيار موديل حتى يقف أمام تلاميذه ولكن فى الجو المتزمت بالمدينة كان ذلك يمكن تحقيقه فقط فى القطاع سيئ السمعة لبنات الهوى. وبدأ أوبريجون يبحث عن الموديل حتى وجدها ذات يوم بمساعدة فوينمايور وخيرمان بارجاس وأورلاندو ريبيرا فيجوريتا ؛ الشخصية الأكثر تلقائية وحيوية فى الجماعة. إنها المرأة التى استطاعت أن تقنع أوبريجون بكتابة رسالة لها باللغة الإنجليزية لكى ترسلها إلى بحَّار فى بريستول ولم تفهم جيداً اقتراح الرسام ، ولكنها وافقت على الذهاب فى اليوم التالى الساعة الثالثة مساء إلى مدرسة الفنون الجميلة ، ولكنها لم تأت على الإطلاق(٤١). إنَّ هذه الحكاية مثل حكايات ونوادر أخرى سرعان ما أصبحت بمثابة مسابقة بين أفراد الجماعة ، وقد استغل جارثيا ماركيز فتاة الهوى تلك لكى تصبح شخصية روايته البوليسية التى تَعيَّن عليه كتابتها لكى يكسب الرهان من صديقه فوينمايور. والحقيقة أنه فى الواقع لم يكن فى حاجة لذلك لأنَّه كان يعيش بين فتيات الهوى فى ناطحة السحاب يشاركهن السرَّاء والضرَّاء وكان على علم تام بالجو الذى يعشن فيه والملل والسأم الذى لا يسبر غوره من جراء مهنتهن.

وكما سيشرح بعد ذلك فى رسالة لصديقه ومواطنه جونثالو جونثاليث جوج سرعان ما استحوذت عليه رومانتيكيته القديمة وهجر رواياته نظراً لافتقاره للخبرة البوليسية وترك قصة الرهان نهائيًا لتذهب حيث يعوى الذئب ، وفى مقابل ذلك كتب جارثيا ماركيز روايته " المرأة التى كانت تصل الساعه السادسة " وهى أول قصة تشبه " عيون كلب

أزرق " وعلى الرغم من عيوبها كانت من أفضل الروايات التى كتبها فى حياته ، وإن كان المؤلف قد اعترف بأن تلك الرواية تبدو كأنها لهيمينجواى أكثر من كونها لجارثيا ماركيز ، على الرغم من وجود المناخ وبعض العناصر المشتركة بين قصته ورواية هيمينجواى القتلة[٤٢] ، والحقيقة أن رواية المؤلف الكولومبى لا تحتوى فقط على بنية مستديرة متكاملة ؛ بل أيضًا حققت سمات جمالية فاقت ما تضمنته رواية أستاذه الأمريكى. وذلك لأنه فى رواية " المرأة التى تصل الساعة السادسة" يظهر بجلاء الروائى الدقيق المنظم والإضمارى والشفاف لرواية " غريق " " والعقيد لا يجد من يراسله ".

وفى هذا الخط الجديد وانطلاقًا من نوادر وحكايات أخرى عاشتها الجماعة كتب جارثيا ماركيز بعد ذلك بقليل " ليلة الكروانات " ؛ وهى رواية حازت على التصفيق الفورى للقراء مثل الشاعرين خورخى ثلاميا وألبارو موتيس.

وكليالٍ أخريات كثيرة حضر جارثيا ماركيز مع أصدقائه إلى بار الزنجية إوفيميا ؛ وهو عبارة عن بيت هوى فى حى لاس ديليثياس ، نفس بيت هوى بيلار تيرنيرا فى ماكوندو المتدهورة وكان هذا البار بالنسبة لهم ذا جاذبية خاصة لا يمكن استبدالها : وكان يباع به الروم بكاردى المهرَّب والأرخص سعرًا فى المدينة بأسرها ، وعلى عكس ما تؤيده الأسطورة فإنَّ فوينمايور يؤكد أنه لم يكن لأحد من أفراد الجماعة أى اتصال جنسى مع الفتيات اللاتى كنَّ يمارسن من أجل سد رمقهن فى بيت الهوى المذكور ، وأنهم كانوا يذهبون فقط لتناول زجاجة الروم بكاردى مقابل ثلاثة عشر بيزو ، ولرؤية البحارة الأمريكيين وهم يرقصون ويلهون ويترنحون بأجسامهم كأطفال كبار تَحْمَرُّ وجوههم خجلاً فى صالة الرقص ، حيث كانت كروانات الزنجية أوفيميا يتنزهن كالدجاج. ومما هو أكيد أنَّ جارثيا ماركيز ذات ليله ظل نائمًا وقد جذبه فوينمايور من كتفه وقال له : "ماذا سيحدث لو أنَّ الكروانات أخرجن عيوننا ؟" كما هو معروف إن هذه الطيور بوسعها استئصال عيون الأطفال لأنها ترى أن شيئًا يتحرك فى مقلاتهم وتعتقد أنه سمك. وقد نهض جارثيا ماركيز مذعورًا على مزاح صديقه ورأى الكروانات فى صالة الرقص. إنَّ عفريته الحالم لم يتوان فى إدراك صورة أصدقائه الثلاثة الذين سيفقدون بصرهم فى أحد بيوت الهوى يتخبطون هنا وهناك لأنَّ الكروانات استأصلت عيونهم.

وكان هذا أصل أو مصدر " ليلة الكروانات " قصته الثانية العظيمة التى كتبها فى جلسة ليملأ فراغًا باقيًا فى مجلة " النبأ ".

إنَّ العلاقة المغذية مع الواقع الفورى لهذه القصص هى بعينها علاقة الشاب الصحفى بالواقع وليست هى التى ستغذى روايته التالية " شخص ما يبعثر هذه الورود " لأنَّ هذه الرواية تستند إلى تجربة الكاتب القديمة مع الأرواح المستوطنة بمنزل أراكاتاكا ، وفى الفكرة الشخصية المتسلطة على عقله لأنهم سيحملون له الزهور وأدلة وبراهين الحب حتى القبر نفسه[٤٣]. وفى هذه القصة التى كتبها بأسلوب سابقاتها كانت الوثبة من نوع آخر : فلأول مرة فى رواية جارثيا ماركيز لا يكون الموت كابوسًا بل حالة من حالات النعيم والرفاهية يقدم إمكانية ما وحتى حافزًا ما لمواصلة الموت – الحياة. وهكذا فإن روح الطفل التى كانت تود سرقة الورود من محراب منزلى لكى تضعها فى قبره ليس بميت منعى ومتلذذ بالألم وممزق بسبب التفتت الوجودى واستحالة اتصاله بعالم الأحياء ، بل هو ميت حى هادىء بحوافزه الذاتية وبوجدان إمكانياته وحدوده. فمعه تبدأ أسطورة الأموات الأحياء الذين تمت تغذيتهم بالقراءة اللاحقة لبيدرو بارامو وسيعمرون " مائة عام من العزلة " وذلك بفرض قوانينهم وأهوائهم.

الفصل التاسع

- عندما كان سانتياجو نصر هو كاتيانو جنتيل.
- ازدهار قرية سوكرى وتدهورها .
- تاريخ الأمهات الكبيرات
- الطفلة أليخاندرينا ثيربانتيس
- وفاة كايتانو جنتيل
- من سوكرى إلى قرطاجنة
- تتويج فى بانوراما
- قرص دواء
- لقاء رفائيل إسكالونا
- الأغانى الشعبية ، والمصدر الغنائى
- بحثًا عن الأوقات الضائعة
- العودة إلى الجذور
- منزل الصيدلية
- تأكيد ماكوندو
- بائع الكتب فى بايدوبار ولا خواخيرا
- مع هيمنجواى وفيرجنيا وولف ورفائيل إسكالونا وليساندرو باتشيكو فى جذور الجذور.
- الأوقات المستعادة .

وبينما بدأ الموتى يهدأون فى روايات جارثيا ماركيز معلنين عن الملكة الحيوية للكياديس وبرودينثيو أجيلار كان الكاتب - على العكس من ذلك - مُحاطًا بشظايا الموت حيث إن اغتيال صديقه كايتانو جنتيل شيمنتو الذى وقع فى سوكرى فجر يوم ٢٢ يناير ١٩٥١ كان تقريبًا أخطر لحظة فى شبابه. وقد أدخل هذا الموت فى ذاكرته أشياء منها الصعوبات الأولى التى خلَّفها له موت جده ، والطفولة الأسطورية فى أراكاتاكا ، إضافة إلى أحجار التعذيب والتنكيل التى لم يتمكن من طردها إلا بعد ثلاثين عامًا فى روايته " نبأ موت مُعلن".

وعندما وقعت المأساة كان جارثيا ماركيز قد ترك بارًانكيا ، وعاد إلى قرطاجنة لمقابلة القس جابرييل إيلخيو وشقيقه جوستابو الذى كان مراهقًا فى الخامسة عشرة من عمره. وبينما كان القس وجوستابو يبحثان عن منزل وينهيان الاستعدادات الأخيرة للانتقال الوشيك والنهائى للأسرة من سوكرى ، ظلَّ الكاتب يرسل مقالات عموده وافتتاحياته إلى صحيفة الهيرالد ، وبدأ يعطى دروس اللغة الأسبانية فى مدرسة مُلحقة بجامعة قرطاجنة ، وفكَّر فى إعادة قيده لإكمال دراساته القانونية(1) ، وفى واقع الأمر نعلم أنه كان قد هجر الدراسة منذ أواخر ١٩٤٩ . ومما هو أسوأ من ذلك أنه لم يأخذ نتيجة ودرجات الصف الثالث. وقد أدرك فقط عندما ذهب لقيد اسمه فى الصف الرابع أنه رسب فى ثلاث مواد ، وبالتالى ينبغى عليه إعادة الصف الثالث إذا كان يرغب فى أن يكون محاميًا. ولكن جارثيا ماركيز صرف النظر عن هذا العذاب ، وهجر الدراسة للأبد. وعندما علم جابرييل إيلخيو أن نجله صرف النظر عن دراسة الحقوق ، فى حل مهنى لحياته متشبثًا بالصحافة والأدب حَزِنَ حُزنًا شديدًا ، وعنَّفه بلا هوادة قائلاً له: " ستأكل ورقًا"(2). وسيكون الأمر كذلك طيلة خمسة عشر عامًا على الأقل.

وفى الواقع لم يعبأ جابرييل بذلك على الإطلاق ؛ بل على العكس : أصبح حُرًا طليقًا لكى يراهن على آخر ورقة رابحة كانت تهمه. أما حزنه الحقيقى وخسارته الفادحة مثله مثل أسرته ، ومدينة سوكرى بأكملها ؛ فقد تمثل فى الحدث المشئوم

لصديقه كايتانو جنتيل شيمنتو ، لدرجة أنَّ التأثير الأوَّل للمأساة تحول لديه إلى ضرورة لا تُقاوم لسرده فى تحقيق موسع ، وفكَّر فى الذهاب إلى سوكرى لكى يُعيد تمثيل الجريمة بكل تفاصيلها الدقيقة . ولكن موضوع الجامعة والعمل وسرعة قدوم الأسرة أدى إلى تأجيل السفر إلى أجلٍ غير مُسمًّى. ومع ذلك ؛ فقد يعزو ذلك إلى افتقاره إلى وجهة النظر لكونه صحفيًا مبتدئًا فى صحيفة إقليمية ، هو فى الواقع الذى أثناه عن عزمه لكى يتحول ذلك إلى فكرة أدبية متسلطة على عقله تُطهى على نار هادئة (تتطور فى غاية البطء) طوال ثلاثين عامًا.

وقد انتشر العنف فى سوكرى ، كما فى معظم قُرى الساحل الأطلسى ، وخاصة على الصعيد السياسى والاقتصادى والأخلاقى ، ووجد هذا العُنف مداه فى إحدى وسائل التعبير فى المنشورات الشهيرة التى كان يتبادلها أهالى سوكرى على جدران منازلهم فى أواخر الأربعينيات. إنَّ هذه المنشورات أو الإعلانات ستكون سببًا فى قصة " الساعة المشئومة" ، فقد كان الناس يوجهون بعض الاتهامات بشكل مجهول مما أدى إلى العديد من الحوادث وبعض الأعمال الدموية وإن كانت عشوائية ، وقد أدت إلى تسميم الجو العام فى القرية. وكان هذا فى إطار الشكوك المشتركة والاتهامات المتبادلة والعنف الخفى ، حيث قام الشقيقان تشيكا سالاس باغتيال كايتانو جنتيل تشيمنتو صديق جارثيا ماركيز لردِّ الشرف الممتَهن ؛ واستنادًا إلى هذا المناخ الذى لا يُطاق قررت أُسْرة جارثيا ماركيز الانتقال إلى قرطاجنة فى فبراير من نفس العام بعد شهر بالضبط من اغتيال كايتانو.

وكانت الأسرة مُقيمة فى سوكرى منذ نوفمبر عام ١٩٣٩ ، وكانت المرة الأولى التى تعيش فيها أسرة جارثيا ماركيز وقتًا طويلاً فى مكان واحد تتمتع بالهدوء والرَّخاء النسبى. ففى سوكرى وُلِدَ الأبناء الأربعة الصغار من أنجال موظف البرق وكريمة العقيد الذين بلغ عددهم أحد عشر شخصًا ، وهؤلاء الأربعة هم : خايمى ابن عشر سنوات ، وإيرناندو سبع سنوات ، وألفريدو خمس سنوات ، وإيلخيو جابرييل ثلاثة أعوام[٢] ، وقد عَمِلَ الوالد وكيلاً للمستشفى ، وفى نفس الوقت كان يمارس الطب التجانسى فضلاً عن كونه صيدلانيًا ، وبهذا حقق النجاح الذى كان يَحْلُمُ به دائمًا ، وبعد أن عاش فى عدة منازل بالإيجار استطاع فى نهاية المطاف أن يُشيِّد منزلاً

للأسرة، منزلاً فسيحاً واسعًا " أبيض كالحمامة البيضاء" فى غابة بين أشجار المانجو على ضفاف نهر لا ماخونا ، وكان جارثيا ماركيز الطالب الكاتب الشاب والصحفى حُرًا طليقًا سعيدًا أثناء الأجازات تحت ظلال أشجار المانجو يلتهم الكتب التهامًا ، ويكتب قصصًا وروايات وهو مضطجعُ فى شبكة معلقة فى تلك الأشجار ؛ فقد درس بتعمق هنا المشاكل التقنية للقصة وأنهى كتابته الأولى" للورقة الساقطة ". وهنا فقد عُذريته فى الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره ؛ فقد عرف خدمات بيت هوى ماريًا أليخاندرينا ثيربانتيس. كان قد عرف " القصة الحزينة التى لا تُصدَّق" لطفلة سُيطلق عليها مع مرور الزمن اسم إيريندرا ، وكذلك قصص شخصيات أخرى ستمثل إبداعاته الأدبية. وستظل سكوكرى مثل أراكاتاكا بارَّانكيا وبايدوبار وقرطاجنة أحد المشاتل الخصبة لخيالاته الإبداعية. وعلاوة على ذلك فإنها مثل أراكاتاكا التى ستكون نموذجًا لماكوندو لأن سوكرى ستكون موديلاً للقرية التى ستظهر فى قصته "العقيد لا يجد منْ يراسله" .و "الساعة المشئومة" ومعظم روايات "جنازة الأم الكبيرة" ، و"نبأ موت مُعْلَنٍ".

ومن العجيب أنه خلال العشرينيات والثلاثينيات كانت سوكرى قد شهدت ازدهارًا مثل الذى شهدته أراكاتاكا خلال حقبة العشرينيات ، كما ستعانى من تدهور كبير وسريع لسبب مشابه ، مما أجهز على ازدهار الوطن الصغير للكاتب.

فبعد مائتى عام من تأسيسها ؛ بدأت سوكرى تتحول فى أوائل هذا القرن إلى حلقة الوصل المهمة فى اقتصاد منطقة الحوض الغنية بالمياه ، إذ كانت تروى أراضيها عدة أنهار هى ماجدلينا ، وكاوكا وسان خورخى ولا ماخونا. وكانت سوكرى سخية فى إنتاج الماشية وقصب السكر والأرز والذرة ، وشهدت هذه القرية نموًا ملحوظًا اقتصاديًا واجتماعيًا وثقافيًا بفضل هجرة الألمان والإيطاليين واللبنانيين والسوريين والمصريين التى استمرت طِيلة الحُقب الأولى من القرن العشرين ، وقد بدأوا فى أول الأمر باعة جائلين ثم أصبحوا بمرور الوقت تُجارًا مزدهرين ، وكان منهم مربو الماشية والمزارعون. فالإيطاليون مثل أُسرة جنتيل ، وتشيمنتو وجاريبالدى وباريسى ، ومن العرب مثل أسر نصر وبارتشا ، وكورى وهانى لم تعرف سوكرى فقط العصر الذهبى لاقتصادها ؛ بل أيضًا نموها الثقافى حيث جعلت من الرياضة والمسرح والموسيقى والسينما تعبيرات

ومظاهر ثقافية يومية فى بيئة نَدُرت فيها هذه الأشياء ، أو ببساطة لم توجد أصلاً. وكان لسوكرى فى أوج مجدها مطاراتُ تُقلع منها وتهبط ست طائرات أسبوعيًا. وكانت إحدى قرى كولومبيا الأولى التى تُنشأ بها محطة لتوليد الكهرباء ، وأول قرية يُقام بها مصنع للجليد[٤] .

إنَّ مشكلة سوكرى الكبيرة إلى جانب جوها غير الصحى تكمن فى عزلتها الناجمة عن وسائل المواصلات المتردية ؛ ففى الصيف نجد أنَّ جفاف نهر لا ماخونا الطريق الرئيسى للوصول إليها كان يتسبب فى وقف الملاحة ، أما فى الشتاء فإن سياراًت النقل كانت تغمرها المياه تمامًا ، ولكى تُحلُّ هذه المشكلة التى كانت تعم جميع قُرى ضفاف نهر لا ماخونا ، فإن المبشِّر الأسبانى وراعى الأبرشية بالقرية المجاورة ماخاجوال ، خوسية جيبالدا أقنع الأهالى بضرورة شق قناة جديدة طولها كيلومتران لسحب مياه نهر لا كاوكا فى الصيف وتوصيلها إلى نهر لا ماخونا. وكما فى أوج ازدهار عصور خوسيه أركاديو بويندیا تم تنفيذ المشروع الهندسى عام ١٩٣٨ بمشاركة الجميع ، إلا أنَّ ارتجالية المشروع تسببت فى المأساة : وبسبب الارتجال ، وعدم وجود دراسات مُسبقة ، ولا بنية أساسية مناسبة فإن المياه المتدفقة من نهر لا كاوكا وسَّعت المدخل المبدئى الذى كانت فتحته متر ونصف المتر (وكانت تسمى لا بوكاديل كورا " فم القسيس") حتى بلغ خمسين مترًا خلال عشر سنوات[٥]. وبدأت الفيضانات تصب جام غضبها عامًا بعد آخر لتدمر وتقضى على المزروعات والمصانع والمنازل ، ولذلك فإن تدهور سوكرى كان أشبه بالاحتضار البطئ دون هوادة مثل الذى عرفته أراكاتاكا اعتبارًا من عام ١٩٣٢ عندما حدثت فيضانات أكتوبر من جرَّاء القناة التى شقتها شركة الفواكه المتحدة بين النهرين مما أدى إلى القضاء على ازدهار زراعات الموز بها.

وعندما استقرت أسرة جارثيا ماركيز هنا فى نوفمبر١٩٣٩ ؛ فإن المصير المأساوى لسوكرى كان قد بدأ ومع ذلك؛ فقد عاشت الأسرة فى ظل ازدهار ورخاء إلى حدٍ ما كان كافيًا لكى يتذكر الجميع أنه من المرجح أن حقبة الأربعينيات هى التى غمرتهم جميعًا بالسعادة. وبفضل عدم صحية المكان ؛ فقد شيَّد جابرييل إيلخيو صيدلية، وقدَّم وأفضل استشارة طبية بالمنطقة مما أدرَّ عليه ربحًا كافيًا لكى يستطيع الإنفاق

على أسرته كثيرة العدد وتشييده لمنزله الخاص الفسيح والمريح في الجانب الشمالي من النهر. وكان الكاتب وأشقاؤه هنا سُعداء على وجه الخصوص – في أواخر العام وأوائله – عندما كان شباب سوكرى يعودون من أحسن المدارس وجامعات البلاد لقضاء إجازاتهم مع أسرهم. وبما أن جابرييل عاش طالبًا في بارأنكيا وثيباكيرا وبوجوتا كان يتسرع في العودة لكي يعيش في سعادة خلال فترة الإجازة بعد الانتهاء من العناء والتزمت الأكاديمي ومن قسوة البرد ، ومن تمسك أهالي الإنديز بالشكليات العامة ، وكان شهر ديسمبر ويناير بمثابة الحُرية المستردة لجارثيا ماركيز. فالحر، والخضرة ، وتناول المانجو والجوافة بإفراط ، والأغاني الشعبية وحفلات الرقص الممتدة بشكل لا نهائي والحكايات والأساطير والشخصية الكاريبية المتفتحة ؛ كل ذلك كان يُعيدُ جارثيا ماركيز إلى مركز الجاذبية لثقافته ولحياته الروحية والجسدية.

وكانت مرسيدس بارتشا باردو الفتاة التي تنحدر من أصل مصري هي التي تعرَّف عليها جارثيا ماركيز أثناء حفلة رقص للطلاب ، كانت مبعث سعادة قلب ذلك الشاب. وكانت أسرتها تعيش في أحد منازل الميدان أمام منزل كايتانو جنتل. وكانت الفتاة تعود أيضًا كل الإجازات من مومبوكس وإينتيجادو لبدء فترة خطوبة أكيدة وبطيئة ومتقدة مع طالب الثانوية في ثيباكيرا والصحفي الشاب في صحيفة الأونيفرسال " العالمي" بقرطاجنة.

وفي الواقع كان الجميع يتوافقون في هذه المواعيد: مرسيدس ، وجابرييل ، وأشقاؤه ، وخوسيه بالينثيا وكايتانو جنتل (أفضل أصدقائه بالقرية ، الذين كان يرافقهم في رحلتي الذهاب والإياب عبر نهر ماجدلينا وسان خورخي ولا ماخونا) ، وكذلك جميع أفراد أسرة سالاثار وسايث. وكان الجميع يلتقون في الميدان الوحيد الواقع ما بين الميناء والكنيسة لإقامة الحفلات وممارسة الألعاب ، وعقد الاجتماعات وخاصة حفلات ومسابقات نهاية العام عندما كانت سوكرى تتزين في أحلى ثيابها ، وتعيش الانقسام الحزين لقطاعيها الكبيرين: الثوليا أباخو ، والجوجوبيو أرِّيبا (الثوليا السفلى والجوجوبيو العليا)، ولكن فتيان الجانبين كانوا يعدون اللقاءات السرِّية بملابسهم التنكرية وألعابهم واستعراضاتهم. وكان الجميع يحضرون في اليوم والساعة المحددة للتجمع في الميدان ، حيث تتواجد لجنة أو هيئة التحكيم التلقائية لإعطاء الجوائز للفائزين.

كان جوًا متعدد الألوان يحضره جمع غفير من الناس فضلاً عن كونه حيويًا حيث كان الأثرياء والفقراء يستمتعون على حدٍ سواء ؛ فأهالى سوكرى كانوا يعتبرون أهل سلام وشرف.

وتكتسب حفلة الحياة المستردة تجمعها النهائى فى منزل جارثيا ماركيز الفسيح الذى كان جابرييل يُطلق عليه اسم " المستشفى" ، وتبلغ ذروتها فى الحلقات الليلية التى كان فيها جابرييل وأشقاؤه وأصدقاؤهم يتحدثون عن الساحرات والأشباح ، وكانوا يحكون أساطير التُّراث المحلى(٦). فحكايات مثل حكاية اليهودى التائه ، وحكاية ماركيز ة دى لاسيربى ستمدان جارثيا ماركيز بما هو جوهرى وأساسى وخاصةالحكاية الأخيرة ؛ تلك الأسطورة التى استمع إليها جارثيا ماركيز أكثر من مرةٍ فى أسفاره فى طرق الضواحى إلى أن ذهب فى أواخر الأربعينيات إلى لا سيربى ليرتِّب أحداثها من جديد ويحكيها فى وقت لاحق فى عمله " دولة ساحل الأطلسى"(٧) ، وهو أول تحقيق روائى كان بمثابة التعريف الأكثر وضوحًا لمكنونه الروائى الذى سيؤدى به إلى كتابة "جنازة الأم الكبيرة" وفيما بعد " مائة عام من العزلة" .

وطبقًا للأسطورة ؛ كانت الماركيزة الصغيرة شقراء وبيضاء ، ولم تعرف زوجًا فى حياتها. وقد عاشت أكثر من مائتى عام فى ضيعتها ، التى كانت تقع فى عدة مراكز . كانت طيبة محبةً للخير ، لأنها كانت تعرف جميع الصلوات السرية لفعل الخير والشر ، لذلك كانت " الأم الكبيرة" لكل من كانت تُقدم لهم الخدمات فى لا سيربى. إنَّ الماركيزة الإسبانية الصغيرة كانت تعيش بمفردها فى منزلها ، ولكنها كانت تقوم برحلة طويلة فى جميع أنحاء المنطقة لزيارة من تكلؤهم برعايتها ؛ لمعالجة المرضى ، ولحل كل أنواع المشاكل المادية. وقُبيل أنَّ تموت قامت بتوزيع جزء من ثرواتها الإنسانية وغيرالإنسانية على الأسر الست من أقرب المعاونين لها ، كما طلبت بأن تطوف ماشيتها حول منزلها ، وقد استغرق هذا تسعة أيام حتى تم إنشاء ثيناجا دى لا سيربى التى تقع أبعد من مستنقعات دلا جواريبا جنوب شرق سوكرى وبين نهرى سان خورخى وكاوكا. وفى وسط لا ثيناجا تم دفن كافة كنوز الماركيزة الصغيرة وسرٌ حياتها الخالدة ؛ وهكذا استنادًا إلى الأسطورة والخرافة ظلت الشقراء الإسبانية مستمرة فى ممارسة هيمنتها(٨) .

إنَّ الخبرة المزدوجة الصحفية والأدبية التى تضمنتها قصة جارثيا ماركيز " دولة على ساحل الأطلسى" ستسمح له بعد سبع سنوات بتوسيع – فى " جنازة الأم الكبيرة" – وجهة النظر الأسطورية الخرافية لقصة ماكوندو فى بدايتها " الورقة الساقطة" ، والإعلان عن مجئ " مائة عام من العزلة" بأسلوبه المبالغ فيه وبغزارته الروائية . إن أسطورة الماركيزة الصغيرة دى لا سيربى ستبرز بوضوح لجارثيا ماركيز ما كان يعرفه من قبل (والتى كان قد أسماها واقعية ما هو خيالى" أو " الخيال الإنسانى المفرط"). إن الأساطير والخرافات والمعتقدات والخزعبلات تُشكل البنية الخيالية القوية أو الأقوى من الواقع الموضوعى نفسه ، وذلك بتحديد تصرفات عقلية وحالية للناس. وهكذا فإن مفهوم الواقع سيتسع وسيكون أكثر تعقيدًا فى عمله ، فضلاً عن التزامه ككاتب مع الواقع نفسه.

وعلى الرغم من أنَّ الماركيزة الصغيرة كانت حاسمة فإنها لم تكن الموديل الأوحد لشخصية " الأم العظيمة". وخلال هذه الحقبة أعنى حقبة الأربعينيات ؛ فإن جارثيا ماركيز تعرف على امرأة ثرية فى سوكرى نفسها: ماريًا أماليا سامبايو دى الباريث (الأم العظيمة تُدعى ماريًا ديل روساريو كاستانيدا إى مونتيرو) والتى يتكون منزلها من طابقين ، وهو ذو طابع هولندى ، ويقع فى الميدان ، ويجاور منزل كايتانو جنتيل تشيمنتو ، الذى سيطلق عليه مستقبلاً سانتياجو نصر. لقد كانت أمًا بمعنى الكلمة ، وكانت أسرتها من أغنى أغنياء الأسر بالقرية تمتلك الأراضى والعقارات الكثيرة ، وعددًا كبيرًا من قطعان الماشية. ولم تكن تفخر بثرائها الفاحش فقط ؛ بل كانت تزهو بجهلها المركب أيضًا ، وكانت تقول إن المعرفة والعلوم وخاصة الحساب لا فائدة لها ولا جدوى منها ؛ بل كانت ضارة ، وكانت تزهو دائمًا بثقافة الملكية والثراء على ثقافة المعرفة. وعندما توفيت ماريا أماليا سامبايو دى ألباريث شُيعت فى جنازة كبيرة مهيبة اتسمت بالبذخ والأبهة ، لدرجة أن أنجالها وأقاربها ظلُّوا يتحدثون عن ذلك فى كل مكان طيلة السنوات المقبلة(٩).

ولكن نماذج ، أوموديلات الشخصية لدى جارثيا ماركيز لم تقتصر على هاتين السيدتين فيما يتعلق بالأسطورة والخرافة ، لأن أراكاتاكا التى عاش فيها الطفل جابيتو كانت قد أسهمت ببعض الفنانات لاستكمال بنيته الفنية فضلاً عن شركة الفواكه

المتحدة والجدة العمة " يعنى شقيقة جده لأمه" فرانثيسكا ثيمودوسيا ميخيا. وكما رأينا فإن الشركة الأمريكية كانت الحوت الكبير فى تجارة الموز بقوانينها ومملكتها المستقلة تمارس سلطاتها بلا قيود أو حدود على قرى عديدة بأكملها ، وكذلك على أرفع المناصب الحكومية ، وعلى الأراضى الشاسعة والمياه ووسائل الاتصال. لقد كانت تهيمن حتى على الهواء الذى يستنشقه سكان منطقة الموز ، ولذلك كانت تعرف بين العوام مامايتا يوناى " الأم المتحدة". فالسلطة الإقليمية الهائلة للشركة أدركها الطفل جابيتو على الصعيد الأسرى فى شخصية الجدة العمة فرانثيسكا ثيمو دوسيا ميخيا ، الأم العمة أو ربة المنزل الكبيرة فهى التى بحق كانت صاحبة الأمر والنهى فى الأسرة.كانت تأمر وتنهى ، وباشرت سُلطة بلا حدود. كما فعلته الأم العظيمة ؛ فقد ماتت وهى تصدر آخر أوامرها المتعلقة بما ستكون عليه مراسم جنازتها.

ولذلك فإن الاستعارة فى " الأم العظيمة" تم إدراكها أو فهمها فى منتصف ١٩٥٩ وهى إحدى الروايات الرائدة فى أدب أمريكا اللاتينية ، فهى تستند إلى عدة نماذج ، أو موديلات فى الزمان والمكان ، وستكون كتابتها نتاجًا لتفكير وتأمل طويل ومتأنٍ. فهى مثل العمة الأم فى منزل الأجداد ، وكذلك مامايتا يوناى " الأم المتحدة" فى منطقة زراعات الموز ، ومثل ماريا أماليا ألباريث سامبايو فى سوكرى أثناء مرحلة شباب الكاتب ، ومثل الماركيزة الصغيرة فى قرية لا سيربى المجاورة. هكذا كانت تأمر وتنهى وتنسق وترتب الحياة الوطنية خلال القرن التاسع عشر " وعلاوة على ذلك" فإن الأرستقراطية من أبناء المهاجرين الأوروبيين فى أمريكا كانت أرستوقراطية إقطاعيى ، ومالكى الأراضى قائمة على البقايا الاستيطانية والتى ستتطور بين كل حرب وأخرى حتى وصلت إلى التواطؤ مع الليبراليين المقربين والمتقاربين معها فكريًا ، وإدراك الأم العظيمة للسياسة الوطنية فى أواخر القرن التاسع عشر: النظام القائم على الحزبين أثناء مرحلة الإصلاح.

فالعمة الأم – التى إلى جانب أنها ربَّت جارثيا ماركيز – كانت – قبل والده – الشخص الذى قدم له أثناء طفولته عناصر ثقافة مقاطعة بوليفار الكبيرة (التى كانت أيضًا سوكرى الحالية) ، فقط كانت من الكارمن دى بوليفار هى حقل خصب للثقافة الكاريبية ولإقليم السافانا. وقد نشأت وترعرعت هناك مع جدِّ الكاتب فكانت ابنة عمه.

لقد حملت إلى منزل أراكاتاكا عناصر كثيرة من قرى بوليفار مثل تلك التى حملها جدُّاه من لا جواخيرا. وبهذا الشكل فإن جارثيا ماركيز شبَّ على أنه يعرف أن جذوره العميقة كانت تمتد سواء إلى الشرق في جواخيرا ، أو إلى الغرب منطقة السافانا حيث كانت تمتد أصول والده والجدة العمة ، وحيث عاشت أسرته خلال حقبة الأربعينيات.

وعلى الرغم من أن لويس إنريكى وليخيا جارثيا ماركيز ذكرا أن الماركيزة المعجزة ذات الإثنى عشر ربيعًا - التى أشار إليها شقيقه فى الملحوظة التمهيدية فى قصة " عن الحب وشياطين أخرى -" لم توجد بهذا الشكل ، ولا حتى فى خيالات الجدة ترانكلينا ؛ فمن السهل أنَّ هذه بخيالها الفياض قد أعدتها له كمغاير أو كبديل لماركيزة لا سيربى ، التى من المحتمل أنَّ تكون العمة الأم قد قدمت أسطورتها من واقع تراثها الثقافى الذى استمدته من قرى بوليفار. ومما هو أكيد أن جارثيا ماركيز كان قد زار سينثى (قرية والده) لأول مرَّة وهو فى التاسعة من عمره ، وسوكرى فى الثانية عشرة ، وقد أظهر منذ الوهلة الأولى اهتمامًا كبيرًا بشخصيات وقصص وأساطير هذه القرى بصورة طبيعية وكأنها امتداد أو تكملة لشخصيات وأساطير وقصص أراكاتاكا .

وإحدى هذه القصص التى ستظل عالقة فى ذهنه وذاكرته كانت وفاة الموسيقار خواكين عضو الفرقة الموسيقية بالقرية ، الذى كان يأكل صغار الحمام - كما يُقال - حتى قام زوج عشيقته بذبحه ذات مساء فى مسرح سوكرى بينما كان يعزف الموسيقى لتحميس وتشجيع المشاهدين(١٠) ، وكان أول موت رأته أسرة جارثيا ماركيز فى سوكرى (أما الأخير فقد كان لكايتانو جنتل) فى مايو ١٩٤٠ خلال الفترة التى كانت الأسرة قد استقرت خلالها بالقرية. وسيتحول هذا الموسيقار التعيس بعد خمسة عشر عاماً إلى الراعى عازف الكلارينت الذى اغتاله ثيسار مونتيرو ببندقيته فى " الساعة المشئومة" .

ولكن القصة التى ستؤثر فيه إلى حدٍ كبير كانت قصة الطفلة المجهولة والنحيلة ، التى عرفها جارثيا ماركيز فى تلك الفترة عندما أدرك بأنه سيكون كاتبًا آجلاً أم عاجلاً. وكانت القابلة تستغلها أسوأ استغلال وبلا رحمة ، وقد تخيلها الكاتب كجدته القاسية فى إحدى رواياته الشهيرة " كانت تنتقل فى بيت هوى رحَّال أو متجول من قرية إلى قرية ، وفقًا لمواعيد الأعياد والمهرجانات وأماكنها ، تحمل خيمتها الخاصة وفرقتها

الموسيقية وحتى أكشاك الكحوليات والمأكولات (...) وقد أقامت الفتاة بالقرية ثلاثة أيام ، ولكن الذكرى التى خلفتها بعد رحيلها ظلت لوقت طويل(١١). وستستمر هذه الذكرى لدى الكاتب طوال حياته: أولاً ستطارده عبر صفحات " مائة عام من العزلة" ، ثم ستبحث عن سيناريو سينمائى ، وفى النهاية ستجد مكانها القصصى فى روايته "القصة الحزينة التى لا تُصدَّق للساذجة إيرينديرا أوجدتها القاسية".

وهناك شخصية أخرى من بيوت الهوى ؛ شخصية قريبة ومألوفة ستترك أثرها وبصماتها على الكاتب: ماريا أليخاندرينا ثيربانتس قابلة قصة " نبأ موت مُعلن". فبعد التاسع من أبريل حيث عمَّ العنف وسط وشرق البلاد وامتد إلى الشمال حتى وصل إلى مقاطعتى قرطبة وبوليفار ، وخاصة المنطقة الواقعة بين نهرى كاتاكا وسان خورخى حيث توجد سوكرى. وبمجرد وصول أحداث العنف إلى هذا المكان: تمت محاصرة القرية ووصلت إليها فى نهاية عام ١٩٤٨ قوة من رجال الشرطة لتعزيز حالة القمع والاضطهاد. حينئذٍ ظهرت ماريا أليخاندرينا ثيربانتس كحبيبة لضابط شرطة ، وبمرور الوقت ذهب الحبيبُ وبقيت هى هناك لتؤسس بيت الهوى الوحيد فى ذلك المكان. وقد حَلَّ بفراشها وفنونها الغرامية جارثيا ماركيز وجميع فتيان سوكرى ، ولكنها كانت أغرب قابلة فى العالم لأنها لم تكن فقط بمثابة أم ثانية لهؤلاء ؛ بل أيضًا لأن بعض الأمهات كُن يشعرن بالهدوء والاطمئنان عندما يعلمن بأن أنجالهن فى منزل ماريا أليخاندرينا ثيربانتس. فهناك كانوا يعقدون اجتماعاتهم بمختلف أنواع الأطعمة ، وكانوا أيضًا يقيمون الحفلات وأعياد الميلاد ، ويلعبون ألعاب الورق ويسألونها النصح والإرشاد. وعلاوة على ذلك ؛ فباتباع أماكن وطرق الأعياد العامة كانت تأخذ فتياتها من بيت الهوى وتذهب مع جابرييل وخوسيه بالينثيا وكايتانو جنتل وأصدقاء آخرين إلى ماخاجوال وسان ماركوس وكايميتو لتصارع الثيران فى حظائر الماشية ، لأن ماريا أليخاندرينا ثيربانتس كانت - إلى جانب ذلك - أول مصارعة ثيران فى ساحل الأطلسى(١٢) ، ولكنها ذات يوم عادت كما ذهبت: فى نفس اللنش عبر نهر لا ماخونا حتى انتشلها جارثيا ماركيز من طى النسيان فى " نبأ موت مُعلن" بنفس اسمها وبيت مجونها وفنونها الغرامية وقلبها الكبير.

وفى تلك الأوقات كانت أعمال العنف فى كولومبيا قد بلغت ذروتها. وأول علاماتها التى تبعث على القلق حقيقة فى سوكرى وصول طبيب أسنان من بوجوتا ، حيث جاء

إلى القرية فاراً من العنف الوحشى بالعاصمة. لقد وصل باكتئاب كبير ، وفى غاية الاستياء من النظام السياسى فى بلاده ، وأسس عيادته فى القرية. وعرفه جارثيا ماركيز لأنه كان موجوداً فى سوكرى عند وصول طبيب الأسنان خلال فترة نقاهته من الالتهاب الرئوى الذى أُصيب به أثناء فصل الصيف فى قرطاجنة . وبالطبع فإن طبيب الأسنان سيدخل ضمن قائمة شخصياته الخيالية كطبيب الأسنان فى قصتيه فى " يوم من هذه الأيام" و " الساعة المشئومة"(١٣).

وفى هذا الإطار من العنف نجد أن شبح المنشورات الحائطية قد استحوذ على شوارع سوكرى فى أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات ، مما أيقظ الوعى فى وجدان أهالى سوكرى ، وكان أحد هذه المنشورات قد وضع أسفل باب ميجيل بالينثيا (وهو الشخصية المستقبلية التى ستحمل اسم باياردو سان رامون فى " نبأ موت مُعلن") لإبلاغه بأن خطيبته مارجريتا تشيكا سالاس التى سيُطلق عليها فى القصة مستقبلاً اسم أنخيلا بيكاريو) ليست بكراً " يعنى أنها قد فقدت عذريتها" ولذلك فإن شقيقها فيكتور مانويل وخوسيه خواكين تشيكا سالاس (التوءم القادم فى القصة: بيدرو وبابلو بيكاريو) سيغتالان كايتانو جنتل تشيمنتو صديق جارثيا ماركيز (والذى سيُطلق عليه فى القصة اسم سانتياجونصر) صباح الثانى والعشرين من يناير١٩٥١(١٤).

إن حالة الحصار التى فُرِضت على القرية ، وما تبعها من حملة القمع والاضطهاد ، وتفشى الفساد بين السلطة المدنية والعسكرية ، والموضوع المُبْهم للمنشورات الحائطية التى أدت إلى إفشاء فضائح بعض الأسر ؛ كل هذا جعل المناخ فى سوكرى لا يُطاق على الصعيدين السياسى والاجتماعى ، ولذلك بدأت أسرُ بأكملها فى مغادرة القرية بالضبط مثلما حدث فى أراكاتاكا بعد مذبحة عُمال مزارع الموز وفيضانات أكتوبر١٩٣٢ . وفى أواخر ١٩٤٩ - على سبيل المثال - هاجرت أسرة بارتشا، وهى أسرة مرسيدس بارتشا من سوكرى واستقرت فى بارانكيا. وبعد ذلك بأربعة عشر شهراً خرجت أسرة جارثيا ماركيز من سوكرى متوجهة إلى قرطاجنة ، وعلى الرغم من أن اغتيال كايتانو جنتل تشيمنتو يمكن أن يكون قد عجَّل بانتقال أسرة جارثيا ماركيز إلى قرطاجنة ، فإن الحقيقة أن قرار الانتقال كان قد تم اتخاذه من قبل ، ولذلك فعندما وقع الحادث كان الكاتب موجوداً بالفعل فى قرطاجنة مع والده وشقيقه جوستابو لإنهاء استعدادات الانتقال إليها.

وتحديداً ففى صباح الاثنين ٢٢ يناير حضر كل من لويس إنريكى ، ومارجوت جارثيا ماركيز إلى الميناء برفقة كايتانو جنتل تشيمنتو لتسليم رسالة من والدتهما لويسا سانتياجا إلى والدهما جابرييل ايلخيو. وقد أبحر اللنش فى تمام الثامنة والنصف متجهاً إلى ماناجيه ، ولقد رأى الثلاثة اللنش وهو يتحرك رويداً رويداً فى هذه المياه المنخفضة الراكدة ، وأزهار اللوتس النهرية بأزهارها البنفسجية قد فاح عبيرها وانتشر شذاها بإعجاز فى أول نص غنائى للروائى المبتدئ فى عمله: " لحظة فى نهر" .

وبعد ذلك بربع ساعة قَتَل الشقيقان تشيكا كايتانو جنتل. فمنذ الصباح الباكر كانا يبحثان عنه فى جميع أرجاء القرية ، وقررا انتظاره أمام منزله وهما يتعاقران المسكرات على الجانب الآخر من المروى وأشجار اللوز بالحديقة الصغيرة. لقد كانا صديقين حميمين لضحيتهما ، ولكن الأخلاقيات المتزمتة للقرية دفعتهما للإقدام على المأساة واغتياله ، وقد أُعيدت شقيقتهما مارجريتا إلى المنزل بصحبة ميجيل رييس بالينثيا الذى كان قد تزوجها السبت الماضى ، حيث اعترفت له بأنها ليست بكراً لأن كايتانو جنتل خطيبها السابق قد اغتال شرفها وفضَّ بكارتها. وأسرة تشيكا – مثل باقى الأسر – فى ذلك المجتمع كانت تؤمن بأن العار لا يغسل إلا بالدم كما حدث قبل ذلك بعشر سنوات مع الموسيقار خواكين بيجا ، ولذلك فلم يكن أمامهما إلا بديلان: أحدهما قتل صديقهما أو اختيار موقف الجبن ، وبذلك يكونان غير جديرين بالاحترام أمام سوكرى بأسرها. وبما أنه كان إيطاليًا فارع القامة حسن الطلعة غنيًا وسخيًا فضلاً عن كونه دارسًا للطب بالجامعة الخابيرية فى بوجوتا ؛ فقد كان أحد العُزاب المرغوب فيهم فى القرية. إنه صديق كبير فى شباب جارثيا ماركيز وأشقائه ، كما كان محبوبًا من جميع أهل سوكرى حتى من جانب قاتليه إلا مارجريتا تشيكا خطيبته السابقة التى حولت حبها القديم إلى ضغينة وكراهية دموية. ولذلك، فإنها وإن كانت قد أشارت إلى كايتانو بأنه هو الذى افتض بكارتها ، فإن الحقيقة أنَّ قليلين هم الذين صدقوا روايتها واتهامها لكايتانو جنتل الذى كان يعرف ذلك مثل كل أهل القرية بأنه لم يكن الوحيد الذى نهل من مياه عذريتها.

وعندما قام كايتانو جنتل بوداع لويس إنريكى ومارجوت جارثيا ماركيز فى المطار فى تمام الساعة الثامنة وثلاثين دقيقة ، ثم ذهب ليغير ملابسه ، لأنه كان قد اتفق على

الذهاب إلى منزل أسرة جارثيا ماركيز ليصطحب أحد أبنائها إلى منزله الذى يطلق عليه بيردون ، ولكنه لم يذهب إلى المنزل مباشرة الكائن فى نهاية الشارع ؛ بل ذهب إلى منزل ماريا أماليا سامبايو دى ألباريث " الأم العظيمة" لكى يرى خطيبته أولاً وتُدعى نادية نصر. وعندما عاد من حيث أتى كانت قد مرَّت خمس عشرة دقيقة ، وعندما عَرَجَ على الناصية لكى يدخل الحديقة ليتوجه مباشرة إلى باب منزله رأى كيف توجه إليه خوسيه خواكين تشيكا من الناحية الأخرى للحديقة وهو يوجه له كافة أنواع السباب وشاهرًا مُديته. وقد أصاب الهلع كايتانو جنتل فطرق باب منزله بشدة وبضربات مأساوية ، ولكن والدته بدلاً من أن تفتح الباب أغلقته بالمزلاج ظنًا منها أن أفراد أسرة تشيكا جاءوا للانقضاض على المنزل لاغتيال نجلها بالداخل: لقد كانت تعتقد أن نجلها فى غرف الطابق العلوى ، وبعد أن تم القبض على القاتل المحبط ، ظل كايتانو يجرى على نفس الرصيف الكائن به منزله ليصل إلى منزل مونيبى جيريِّرو وخلفه فيكتور مانويل تشيكا أصغر القاتلين سنًا ، ولكنه أقواهما بنية وجسداً ، وقد استطاع اللحاق به فى آخر المنزل بجوار البركة ، فى الوقت الذى كان كايتانو يحاول جاهداً فتح باب الحارة الخلفية للوصول إلى منزله(١٥). وكانت والدته جوليتا تشيمنتو تعانى من مخاوف معلنة طوال أسبوع بسبب رؤيا سيئة ، وفأل سيِّء ؛ فمنذ عشرة أعوام ذات سبت ليلاً كانت هناك حفلة رقص بمنزلها. كانت الليلة مطيرة ، وجاء شخص ما بالمظلة السوداء ، وتركها لتفرغ ماءها فى أحد الأركان ، وكانت هناك فتاة هائجة مثيرة للفتن من بين الجوقة الموسيقية ، وأخذت المظلة وفتحتها وبدأت ترقص بها بين الناس. حينئذٍ انتزعتها منها والدة كايتانو وهى مذعورة وقالت لها: "ألا تدرين أن هذا يجلب سوء الحظ"(١٦). ولذلك فعندما علمت بأن أسرة تشيكا تبحث عن نجلها لقتله تملكها الخوف والهلع ، وأشرفت على الأبواب بنفسها لحراستها ، وأحكمت النوافذ المطلة على الشارع ، وأخذت تراقب القاتلين اللذين كانا فى الناحية الأخرى من الحديقة ينتظرانه ، ولذلك فعندما طرق نجلها الباب بضربات مأساوية قوية أسرعت إلى إغلاق الباب بالمزلاج معتقدة أن الشقيقين تشيكا كانا يريدان دخول المنزل لقتله.

وفقط عندما سمعت الضوضاء فى المنزل المجاور وصرخات تقول: " قتلوا كايتانو!" خرجت لتجد المأساة قد حلت ، ولكنها عندما لم تجد نجلها عادت كما جاءت ، فوجدته فى

الصالة الرئيسية مستلقيًا على وجهه محاولاً الإمساك بأمعائه التى خرجت من بطنه بكلتا يديه. لقد استطاع كايتانو الوصول إلى منزله عبر المطبخ حيث سار بالشارع الموازى لنهر ماخونا بعد أن تلقى سبع عشرة طعنة قاتلة طعنها إياه فيكتور مانويل تشيكا بشكل جنونى بجوار بركة منزل مونيبى جيرِّيرو(١٧).

إن وصف الجريمة فى قصة " نبأ موت مُعلن" ، وكذلك مسرح تنفيذها ودوافعها ونتائجها تتشابهان إلى حدٍ كبير مع الأحداث الحقيقية ، ولكنها تختلف فى القصة فى الآتى: إن الذى قتل سانتياجو نصر لم يكن شقيقًا واحدًا لمارجريتا تشيكا ؛ بل كانا الاثنان يطعنان ضحيتهما بالتناوب ، كما أنهما لم يغتالاه فى فناء المنزل المجاور ؛ بل أمام باب منزل الضحية ، الذى لم يُفتح له كما هو الحال فى الواقع. وقد سجل جارثيا ماركيز آخر كلمات صديقه كايتانو جنتل قُبيل وفاته هكذا : " صبرًا ياأماه ! الرضا والهدوء فإننى برئ" ، وأن ما قاله فى النهاية وهو ينظر إلى أشقائه: " انتقموا لدمائى"(١٨). وعلى العكس كان جارثيا ماركيز على وشك إرسال قصته للطبع ، بعد ذلك بثلاثين عامًا عندما علِمَ بحكاية المظلة كان ذلك بالنسبة لكاتب يقظ وحذر ومؤمنٍ بالخزعبلات مثل جارثيا ماركيز بمثابة النبوءة التى تلاءمت تمامًا مع هذا الجو المشئوم ؛ لذلك الموت الحتمى الذى لا فرار منه.

وقد دُفِنَ كايتانو تشيمنتو بسرعة فى مقابر سوكرى وسط آلام وصمت الجميع ، وقد زَيَّنت أسرته مقبرته الرخامية بلوحة تحيطها شراشيب الزينة وأوراق وزهور رصاصية وقصديرية ، وكذلك بعذراء الكارمن ومَلَكى الصمت. وقد دون على اللوحة " شاهد القبر" تاريخ ميلاده ٢ مارس ١٩٢٧ ويوم وفاته ٢٢ يناير١٩٥١ . وكانت مقبرته مزودة بزهور متنوعة دائمًا إلا زهور المارجريتا المقوتة بسبب اسم المسئولة عن موته. ومع ذلك ؛ فإن الفكرة التى كانت سائدة فى سوكرى حتى بين أفراد أسرة جارثيا ماركيز هى أن مارجريتا تشيكا سالاس لم تكن المسئولة عن مقتل خطيبها السابق ؛ بل كانت القرية بأسرها بسبب تزمت قانونها الأخلاقى. وفى الواقع لم يكن الشقيقان تشيكا يريدان قتل صديقهما كايتانو ، كما لم يكن يريد ذلك – قبل ثلاثة وأربعين عامًا – جد جارثيا ماركيز عندما اضطر إلى قتل صديقه ميدراردو باتشيكو روميرو ، ولكن الضحايا والقتلة كان قد حُكِمَ عليهم مُسبقًا. وفى هذا الصدد ؛ كان ما قام به

الشقيقان تشيكا جريمة ومأساة ذات مسئولية جماعية ، كما يشرح جارثيا ماركيز ذلك بعد ثلاثين عامًا في قصة " نبأ موت معلن" منتقدًا ومفندًا ذلك القدر المحتوم لأستاذه سوفكليس. وربما لذلك عند إعادة وتجسيد اغتيال كايتانو جينتل أخفى جريمة كايو خوليو ثيسار تلك الجريمة التاريخية التى سحرت وأثرت كثيرًا فى الكاتب [١٩].

إن المأساة الشخصية والتسلط أو الاستحواذ الأدبى لموت صديقه كانا قويين وخالدين لدرجة أن الكاتب – بعد طبع القصة – أشار بصورة خاطئة إلى أن هذه الجريمة وقعت قُبيل أن أعرف بقليل ماذا سأكون فى هذه الحياة. كنت أشعر برغبة مُلحة لسردها وربما كان الحدث الذى حدد بجلاء وإلى الأبد موهبتى ككاتب[٢٠]. وفى الواقع لم تحدث الجريمة قبل أن يعرف أنه سيكون كاتبًا ، كما أنها لم تكن الحدث الذى حدد موهبته وإن كان من الممكن أن يكون كذلك.

إن العوامل التى حددت موهبة الكاتب ، والأسباب التى عضدتها وعززتها من خلال إنتاجه هى عمومًا ، وفى الوقت نفسه متنوعة ومعقدة وبسيطة واضحة وخفية خطيرة وصغيرة شعورية ولا شعورية ، وكثيرًا ما تكون غامضة مبهمة لأنها لم تتبلور كأحداث محددة ؛ بل كانت خطًا فى الظل التقت فيه مختلف المواقف والظروف. ففيما يتعلق بجارثيا ماركيز سبق أن أشرنا إلى بعض اللحظات الحاسمة لأصل وتعزيز وتعضيد هذه الموهبة أهمها (أو أبرزها): الجدُّ والجدَّة ، وألف ليلة وليلة والخروج من أراكاتاكا والوحدة فى كل من بوجوتا وثيباكيرا وشعراء العصر الذهبى الإسبانى والجماعة الكولومبية" حجر وسماء" وقصة " المسخ" لكافكا ، ولقاء العودة مع ثقافة الكاريبى وقراءاته لليلفيل وفيرجينيا وولف وخاصة فوكنر وسوفكليس. كل ذلك إلى جانب عوامل أخرى كثيرة حدثت قبل أنّ يُغتال كايتانو جنتل الذى سيُطلق عليه مستقبلاً سانتياجو نصر. وعلاوة على ذلك : عندما حدثت تلك المأساة كان جارثيا ماركيز قد كتب حوالى خمسمائة صفحة فى الصحافة وروايات " عيون كلب أزرق" ، وعلى الأقل ثلاث روايات مختلفة لـ "الورقة الساقطة" ، كما ظلّ عازمًا على كتابة " مائة عام من العزلة" فى تلك السن المبكرة تحت عنوان المنزل. ولذلك ؛ فقد كان كاتبًا قبل تلك الواقعة ، وكاتبًا جيدًا. وكان ما ينقصه فى ذلك الحين عالمه الأدبى ، وإطار عمله الخيالى ، وقد تمثل فى رحلة العودة إلى أراكاتاكا برفقة والدته فى مارس من العام التالى وأسفاره مع صديقه رفائيل إيسكالونا إلى مقاطعتى ثيسار ولا جواخيرا لترسيخ وتعضيد موهبته ككاتب.

إن السنوات الأولى لأسرة جارثيا ماركيز فى قرطاجنة كانت مرحلة عذاب ومعاناة طويلة استمرت طوال الحقبة.فمستوى الحياة اليومية وكثرة أفراد الأسرة الذين يدرسون أدى إلى ضرورة إعادة تنظيم اقتصاد الأسرة ، حيث إن رب الأسرة جابرييل إيلخيو لم يستطع مواجهة الأعباء وحده ، ولأول مرَّة اضطر إلى الاستعانة بتعاون أنجاله الكبار للتمكن من الإنفاق على الأسرة التى كانت تضم أحد عشر شخصًا من أبنائها ، فضلاً عن الأبناء الأربعة غير الشرعيين للوالد: (أبيلاردو وكارمن روسا قبل الزواج وأنطونيو وإيمى بعد الزواج) حينئذٍ أسهم جابرييل ولويس إنريكى ومارجوت وجوستابو على الرغم من حداثة سنه – خمسة عشر عامًا – فى الاقتصاد المنزلى. وبفضل اتصالات الوالد السياسية استطاع لويس إنريكى ومارجوت الحصول على وظيفتين ثابتتين فى وزارة الزراعة وخزانة المقاطعة ، بينما حصل جابرييل وجوستابو على وظائف مؤقتة فى بلدية قرطاجنة. وكانت وظيفة الكاتب هى المساعدة فى إعداد الحصر الوطنى للسكان فى مقاطعة بوليفار ولكن جابرييل على الرغم من الحاجة وتوسلات والده له لم يرد قبول أول وآخر وظيفة حكومية[٢١] ، وقرر " أكل ورق الصحف" ، ولذلك تمسك بآلته الكاتبة. واستبعد دراسة القانون وضاعف من جهودة الصحفية ، وعاد يعمل بشكل مجهول فى صحيفة الأونيفرسال " العالمى" ، وظل يرسل مقالاته تحت عنوان الزرافة " نعنى أعمدته التى تراجع عددها" إلى مجلة الهيرالد . وكان ذلك فى الوقت الذى طلبت منه والدته نقودًا لتأثيث المنزل الجديد بشارع ريال فيخى بيبيه دى لا بوبا. جاء جابرييل جارثيا ماركيز لألفونسو فوينمايور الذى أعاره ستمائة بيزو من رصيد الصحيفة شريطة أن يدفع مقابلاً لها بالمقالات الافتتاحية التى يكتبها ، وكان الكاتب يرسل له سبع مقالات افتتاحية أسبوعيًا طوال خمسة أشهر فضلاً عن أعمدته الأخرى " الزرافة" حتى سدد له الدين كاملاً[٢٢].

وبهذه النقود استطاع جارثيا ماركيز شراء بعض قطع الأثاث من ملكة الكرنفال فى بارونا وتُدعى إيستر أبيلا ، التى كان الكاتب قد توَّجها منذ عام مضى ، وقد أرسل بقطع الأثاث مع شقيقه جوستابو إلى والدته. وبما أن شراء واقتناء قطع الأثاث هذه كان غريبًا عجيبًا ، سيكون أيضًا مصيرها التجوال والتنقل من مكان إلى آخر على مدى أربعين عامًا مع أسرة جارثيا ماركيز اعتبارًا من منزلها الأول فى ضاحية بيبيه دى

لا بويا حتى المنزل الفسيح الهادئ والمريح فى لامانجا بعد المرور بتوريثيس وتوريل ولوأمادور.

إن مهنة تتويج وإلقاء كلمات تتويج ملكات الجمال تُعَدُّ بمثابة لحظات غير مألوفة وغريبة فى حياة الكاتب. لقد كان دائمًا ناقدًا ، دون هوادة للخطابة الوطنية ، وفى انتشار ممالك الجمال كما يُرى فى " جنازة الأم الكبيرة" ، ولهذا يمكن فهم ولعه العارض بالخطب وتتويج ملكات الجمال نتيجة لتلك المزاحات الخالدة التى كان قد بدأ فى ممارستها مع راميرو دى إسبيريا فى قرطاجنة فى يوليه ١٩٤٩ عندما توَّجا ملكتى جمال الطالبات. ولذلك ربما يكون قد كرر تتويج السيدة إيستر أبيلا " سيدة السعادة الكاملة" دى بارونا ، وهو نفس ما قاله قُبيل ذلك بعام فى ألبيرا بيرجارا أو ألبيرا بريميرا دى قرطاجنة ، التى كانت تضع شهودًا لجمالها ومملكتها كلاً من تاليس دى ميليتو وإيسكيلو وسوفكليس وإيسوبو ورمسيس وإيراسمو دى روتردام وخوبال ودافيد ، وذلك بإعادة فقرتين كاملتين من أول خطبة ، ولمزيد من المزاح فإن تلك الخطبة كان قد كتبها راميرو دى إسبيريا(٢٣).

وإذا كانت هذه حكايات سرعان ما نسيها الكاتب كشقاوات شباب ؛ كان شراء الأثاث من السيدة أبيلا- على العكس من ذلك تمامًا - حدثًا لم ينسه أبدًا ، ولكى يسدد لفوينمايور ستمائة بيزو اضطر لكتابة كمية من المقالات الافتتاحية رغمًا عنه ، وربما ضد رغباته ومعتقداته السياسية والفكرية ، وقد ترك ذلك لديه مرارة كبيرة ، مما جعله يفقد الاهتمام بالمقالات الافتتاحية .

وبعد أن سدَّد السلفة أوقف تعاونه مع الصحيفة فى بارَّانكيا فى أوائل شهر يوليه ، وعاد للكتابة المحمومة فى مجلده الخالد " المنزل" ، وقام بالعديد من الأسفار لأهداف صحفية وأدبية دائمًا ، وأعد العُدة لإصدار أول صحيفة له مائة بالمائة : السريعة الزوال والضئيلة صحيفة كومبريميدو " قرص الدواء" ، صحيفة أصيلة تتكون من ثمانى صفحات يوميًا وطولها ٢٤ بوصة وتطبع ٥٠٠ عدد كل يوم ، ولم تستمر سوى من ١٨إلى ٢٣ سبتمبر١٩٥١ ، وكان هو ومعاونوه يقومون بتوزيعها شخصيًا ومجانًا كل مساء فى قرطاجنة.

وكانت الصحيفة الصغيرة على هامش أى توجه سياسى ، وكانت تبحث عن تقديم أنباء سريعة ومسلية وموجزة لقرائها عن أهم الأحداث المحلية والوطنية والدولية. وعلى الرغم من صغر حجمها وضآلة تمويلها (فقد كانت تكلفة الطبعة الواحدة ثمانية وعشرين بيزو) ، إلا أنها كانت صحيفة جسورة وجريئة أو ربما مبالغًا فيها ببساطة شديدة مثل أسلوب ملهمها ومديرها الذى فتح حصّالة مدخراته لكى يطبع العدد الأول: " عند بدء أعمالنا نتوجه بالتحية إلى الصحافة الوطنية والتجارة والمجتمع بصفة عامة ونتعهد بتقديم – وفقًا لإمكانياتنا – بهذه المغامرة اليومية ، التى تكمن مهمتها كل مساء فى تقديم برقية عاجلة للرأى العام". ومع ذلك فلم تصدر الصحيفة سوى ست مرات ، لأن الأتراك والعرب وباقى التجار بالمدينة تركوا الإعلان عن سلعهم فى هذه الصحيفة الصغيرة الحجم. حينئذ قام جارثيا ماركيز ومديره جيّرمو دابيلا بإغلاقها بمقال بهلوانى أدبى ميتافيزيقى فى افتتاحية العدد الأخير للصحيفة: "إزاء المستقبل الذى يبعث على الراحة والاطمئنان لم نجد بدًا لائقًا ومناسبًا سوى إيجاز هذه الصحيفة إلى أصغر حد تصعب معه الرؤية تمامًا. وفيما بعد فإن صحيفة كومبروميدو ستظل متداولة فى شكلها المثالى الذى تستحقه كثير من الصحف. ومنذ تلك اللحظة تبدأ هذه الصحيفة (...) لتكون أول صحيفة ميتافيزيقية بالعالم"[٢٤].

وبعد أن ألمت به المشاكل الاقتصادية ، ملَّ من العمل الصحفى الذى أصبح روتينيًا ، قرر جارثيا ماركيز حينذاك معرفة الفن الشعبى وتاريخ قرى طفولته وأجداده ، ولذلك تفرغ فى الفترة من أواخر ١٩٥١ وفبراير ١٩٥٢ للسفر إلى محافظات ماجدلينا والثيسار ولا خواخيرا. وقد رافقه فى بعض الأسفار صديقه الجديد الموسيقار رفائيل إيسكالونا الذى – على الرغم من حداثة سنه – كان شهيرًا كمؤلف مبدع للموسيقى الشعبية.

وكان جارثيا ماركيز ورفائيل إيسكالونا قد تعارفا فى بارّانكيا فى أواخر مارس ١٩٥٠ ، فى ذروة الحماس الأدبى والصحفى للجماعة ، ومنذ الوهلة الأولى عزّزا ووطدا صداقة عميقة ودائمة سيكون لها نتائج أدبية ملحوظة فى الكاتب. ذلك اليوم وصل الكاتب فى المساء إلى مقهى روما للقاء الملحق وهو يغنى أغنية "جوع مدرسة الليسيه" وهى أغنية لايسكالونا يتحدث فيها عن سانتا مارتا ومنطقة زراعات الموز فى فونداثيون وبايدوبار ، وتصف الوحدة والجوع اللذين عانى منهما المؤلف فى تلك المدينة وهو طالب

فى الثانوية بمدرسة ليسيه ثيليدون[٢٥]. ومن الناحية العملية كانت هى الأماكن التى عاش فيها الكاتب ، وهى إلى جانب الوحدة والجوع اللذين عانى منهما أيضًا فى ثيباكيرا وبوجوتا لكونه طالبًا مُعْوَزًا. كما أن الأغانى الشعبية كانت إحدى المظاهر الثقافية والأدبية الخصبة لجارثيا ماركيز ، والتى لم يكن يحفظها ويغنيها فقط عن ظهر قلب بفضل ألحان إيسكالونا على صافرة ، بل أيضًا كافة المقطوعات الكلاسيكية من هذا النوع.

إن حبه واهتمامه بهذه الأنماط الشعبية (ميرنجيس وباسيوس رسونس وبوياس وتامبوراس) يرجع إلى مرحلة طفولته ، وقد تزايد فى ثيباكيرا وبوجوتا. وعندما عاد إلى بارًانكيا وقرطاجنة بعد أحداث بوجوتا الخطيرة ، حيث اقتنع بأن هذا النوع من الموسيقى لاغنى عنه كهواء الكاريبى تمامًا ليس فقط لكى يعيش بل أيضًا لكى يكتب .

ومثل القصص والأساطير ومثل النُّصب التذكارية الأسطورية لفرانثيسكو الأومبرى ، وكعادات وأحلام وإخفاقات الساحليين كانت الأغانى الشعبية بأنماطهما المتعددة منتشرة فى الشارع تملأ الجو الجغرافى الثقافى الأكثر رحابة واتساعًا من ذلك الذى ولدت فيه الأزمات السحيقة. وعلى الرغم من ، هذه الأنماط الشعبية نُسبت إلى بايدوبار عاصمة مقاطعة ألثيسار فإن مهدها كان عدة أماكن تبدأ من ريو هاتشا (حيث يسود الاعتقاد بأن الأكورديون دخل عن طريقها) ، وينتهى بمنطقة زراعات الموز مرورًا بأماكن رئيسية مثل تومارثون وبارًانكاس وفونسيكا وبيانويبا وأوروميتا وبايدوبار وماناورى والباسو ومنطقة ثيجانا دى ثباتوثا القديمة (مولد رقصة وأغنية لا كومبيا) وألبانكورومومبوكس وبلاتو وثيناجا[٢٦] : منطقة مترامية الأطراف على شكل مثلث تُحيط به أحواض أنهار أريجوانى وثيسار وماجدلينا ؛ المنطقة الثقافية لجدًى وطفولة جارثيا ماركيز وبالتالى " لمائة عام من العزلة" ومعظم أعمال الكاتب.

وكانت الأغانى الشعبية المعروفة باسم بايناتوس كما تعرف على الصعيد الشعبى فى البداية أغانى المديح الطويلة ؛ وهى أنشودة كانت تُغنى فى إطار إنتاج الأبقار قديمًا. وقد رجع تطورهاإلى عملية التكامل العرقى والاقتصادى والثقافى للهنود الحمر والزنوج والأسبان حول هذا النشاط ، مثلما يتضح من الآلات الموسيقية الثلاث التى تُلحن بها.

الأكورديون الأوروبى ، والطبلة الأفريقية ولاكاراًسكا (آلة موسيقية لمواطنى البلاد الأصليين من الهنود الحمر كانوا يستخدمونها لتقليد ومحاكاة العصافير. وبما أن أصولها ترجع إلى أغانى المديح ، فإن دليل قطيع الأبقار كان يسير أمام القطيع فى مناطق السافانا المترامية الأطراف وهو يغنى بصوت واحد على أنغام آلات موسيقية بدائية للغاية وما يصاحب ذلك من المغامرات والمخاطر لهذه المهنة ، حيث يأتى فى المقام الأول من حيث الأهمية ما يُحكى أكثر مما يُغنى. وبعد ذلك عندما اقترنت الأغانى الشعبية بآلات موسيقية مثل الأكورديون والطبلة الأفريقية ولا كاراسكا (آلة عزف الهنود الحُمر) ازدادت أهمية تنفيذ العزف الموسيقى وخاصة الأكورديون[٢٧]. وكان عازف الأكورديون تقريباً فى معظم الأحيان الملحن والمطرب ، وبالتالى فإن جمال التنفيذ الموسيقى كان مقترنًا بالشعر الجيد وجرعة فلسفية يونانية قديمة. وفى هذا الصدد ؛ فإن مؤلفًا مطربًا لهذه الأغانى الشعبية كان يؤلف ويُلحن فقط بناء على حاجته الداخلية التى تحرك الفنانين الحقيقيين .

وفيما يبدو ؛ فإن المؤلف المطرب الأسطورى لهذه الأغانى الشعبية هو فرانشيسكو موسكوتى داثا الشهير بفرانثيسكو الأومبرى . وتنوب سيرته الذاتية بين الأسطورة والخرافة ، ولكن هناك بعض المعلومات القابلة للتصديق: وُلدَ فى ٢٤ أبريل ١٨٨٠ فى توماراًثون ، ومنذ صغره أظهر براعة خارقة فى العزف على الأكورديون ، وفى المستقبل سيحكى أو سيغنى أغانيه أو أخباره فى هذه الأسفار الطويلة من ريوهاتشا إلى باراًنكيا ماراً ببايدوبار وكل منطقة إنتاج الموز. ويؤكد رفائيل إيسكالونا أنه تعرف عليه فى ١٩٤٨ بالقرب من ريوهاتشا ، بينما نجد أنَّ فرانثيسكو الأومبرى بالنسبة لجارثيا ماركيز لم يكن سوى مزيج شعبى من الأسطورة والأدب والموسيقى والفولكلور ، وبهذا الشكل صوَّره المؤلف فى " مائة عام من العزلة". وكان باتشو رادا وبيدرو نولاسكو مثل فرانثيسكو الأومبرى قد هزما الشيطان فى مهام أكوردونية وحشية. وهذان الاسمان إلى جانب فرانشيسكو الأومبرى يكونون الثلاثية الأسطورية للأغنية الشعبية المعروفة باسم "باييناتا".

وعندما بدأ جارثيا ماركيز يهتم بهذه الموسيقى فى أواخر الأربعينيات ليس فقط بحماس فنى ؛ بل أيضًا لحماس شبه علمي بتأثير من كليمنتى مانويل ثبالا ، ومانويل

ثياتا أوليفيا كانت الأغاني الشعبية المعروفة باسم باييناتا تنحصر في بيئتها الأصلية ، على الرغم من أنها كانت تعيش أوج عصرها الذهبي مع سبعة من الشعراء المدّاحين الأسطوريين ، وهم أبيهيتوبيا وكريسنتثيو سالسيدو وميجيل كناليس وإيميلانو ثوليتا وليـاندرو دياث ولويس إنريكي مارتينيث ورفائيل إيسكالونا ، على الرغم من حداثة سنه. وعند دراسة نصوصها اكتشف الكاتب أنها لا تشتمل فقط على حكمة عظيمة وشعر هائل ، بل كانت أيضًا تسرد حكايات ونوادر بكل تلقائية بنفس الوجه الصارم لجدته وبأسلوب ألف ليلة وليلة ، والشعر الشعبي. وبمزيد من التعمق وجد أنَّ هذه القصص ترجع أصولها الحقيقية إلى المحيط الشخصي والأسرى والاجتماعي للشعراء المدّاحين ، وهي التي كانت تُعدُّ تُراثًا فنيًا وثقافيًا وأخلاقيًا لمنطقتي بايدوبار ولا جواخيرا منطقتي جدّيه ، وقد أمدّه ذلك بأفكار عديدة لكتابة عدة أعمال وخاصة " مائة عام من العزلة" ، وكما سيعترف بعد ذلك بثلاثين عامًا أن مصدرها قصيدة شعرية شعبية على شكل قصة ، أي أنها قصة أدبية طويلة عن طفولته والأجداد والمنزل الذي وُلِدَ فيه وأراكاتاكا ومنطقة زراعات الموز والكاريبي بصفة عامة[٢٨].

وبهذا الشكل فإن اهتمام جارثيا ماركيز بالموسيقى الشعبية كان مرتبطًا تمامًا لإيجاد مصادر لمؤلفاته ، كما كان مرتبطًا أيضًا - بشكل خاص- بصداقته مع الملحن رفائيل إيسكالونا الذي استمر في مناقشات متعمقة عن هذه الأغاني ، لذلك شرعا في الأسفار المشار إليها آنفًا في شهر أبريل ١٩٥٠ وأنهوها في منتصف عام ١٩٥٣[٢٩].

وكان عمر إيسكالونا يماثل عُمر الكاتب: فقد وُلِدَ في ٢٧ مايو ١٩٢٧ في باتيال بالقرب من بايدوبار ، وكان كاتبًا للأشعار مثل جارثيا ماركيز وهو عاشق في سن المراهقة كما كان أيضًا مُزوِّغًا من قاعات المحاضرات ، وكانت إحدى غرامياته قد اختلسته من ليسيه ثيليدون في سانتا ماريا عندما كان في السنة النهائية مما اضطره إلى العودة إلى بايدوبار للإشراف على مزارع وممتلكات والده. ولم ينته التشابه هنا بين هذين الشخصين ، بل إن الزمن والصُّدف تجعل هذا التشابه كبيرًا إلى أبعد حد. فكلاهما يشتركان في لقب واحد (جابرييل هو في الواقع مارتينيث ماركيز ورفائيل هو إيسكالونا مارتينيث) ، كما أنهما مناهضان للدراسات الأكاديمية ، كما أنهما من أنصار التمسك بثقافة مناطقهما ، وكان جدُّ الكاتب ووالد الملحن عقيدين في "حرب

الألف يوم" ، وظلا ينتظران ما بقى من حياتهما - معاش التقاعد ، وكانا حنونين ، وعاشقين، وسخيين ، وصديقين كبيرين لأصدقائهما فأول أغنية للملحن ، وثانى كتاب للمؤلف سيخرجان إلى حيز الضوء فى نفس مدينة ميداين ،كما أن أعمال كليهما سيكون لها دوى دولى .

وعن الموسيقى الشعبية وأماكنها المشتركة وأوجه التشابه بينهما تحدثا فيما بينهما عن ذلك فى أول لقاء لهما وهما يتناولان الجعة المثلجة فى مقهى روما . وقد حدثه جارثيا ماركيز عن أراكاتاكا وعن أسرته ، وأصدقائه. كما حدثه إيسكالونا عن آخر مؤلفاته الموسيقية ، وعن باتيال وبايدوبار ولا باث ، حيث كان والده يمتلك مزرعتين للأرز، كما دعاه لزيارته فى أسرع وقت ، وهكذا كان الأمر. وعندما كان الكاتب مانويل ثيالا أوليبا طبيبًا فى لا باث (صديقهما المشترك الذى أعد ترتيبات لقائهما ، كما أنه قد التقى بجارثيا ماركيز فى بايدوبار منذ بضعة أشهر) ولم يتوان جارثيا ماركيز فى العودة إلى عاصمة إلثيسار ، وأقام فى منزل والدى رفائيل إيسكالونا .

ويوجد نوع من الغموض بالنسبة للسنوات التى قام فيها الكاتب بهذه الأسفار الأساسية فى قرى ماجدلينا وإلثيسار ولا جواخيرا ، وهذا الغموض لا يتولد فقط لندرة وضعف المصادر (إنها اللحظات الأقل توثيقًا فى حياته) بل أيضًا لنفس التأكيدات المتناقضة التى كان يدلى بها جارثيا ماركيز هنا وهناك[٣٠] ، إن معظم الدارسين يشيرون إلى رحلة أو رحلتين وينفون أن تكون هذه الأسفار كثيرة ومتعددة ، وهى التى يمكن توثيق بعضها بصورة مباشرة أو غير مباشرة لن تتعدى الخمس رحلات. وأولها هى التى قام بها فى أواخر ١٩٤٩ أو أوائل ١٩٥٠ إلى بايدوبار ولا باث بدعوة من مانويل ثباتا أوليبيا الذى كان يبحث عن قرية على الحدود تنقذه من الاضطهاد السياسى ، وقد عُين طبيبًا فى هذه القرية[٣١]. أما الرحلة الثانية ؛ فقد كانت إلى بايدوبار فقط حيث قام بها تلبية لدعوة من إيسكالونا بعد بضعة أسابيع من تعارفهما فى بارانكيا فى عام[٣٢] ١٩٥٠ . وبرفقة عازفى الأكورديون ومنغمسين فى تلك الأغانى الشعبية التى ذكرناها من قبل (لوس باسيوس دسونس وميرينجيس قام الصديقان على مدى أسبوع بزيارة بايدوبار وقراها ونجوعها لجمع الحكايات والنوادر والأساطير ، فضلاً عن زيارة الشخصيات الأسطورية بالمنطقة ، وبعضها كانت تشكل جانبًا من ذاكرة الكاتب التى كان يعرفها

منذ طفولته من خلال حكايات وقصص عماته وجدّيه . ولكن معظم الوقت قضاه فى منزل مضيفه رفائيل إيسكالونا يستمع إلى قصص وحكايات العجوز كليمنتى إيسكالونا الذى كان عقيداً مثل جد الكاتب فى"حرب الألف يوم". حينئذٍ عاد حفيد العقيد نيقولاس ماركيز يستمع إلى نفس النوادر عن القائد الليبرالى الأسطورى رفائيل أوريبى أوريبى نفس قصص الشجاعة والتضحية للمحاربين فى معارك ريو هاتشا وكاراثوا وإيلبانكو وثيناجا وآلام مئات الجرحى فى مستشفى الإسعاف والطوارئ ، ونفس الشكاوى من ذلك المعاش المنتظر معاش التقاعد والذى لم يتقاضاه أى من المحاربين القُدامى رغم انتظارهم خمسين عاماً تقريباً بعد خوضهم تلك الحرب بين الأشقاء. إن معنى الشرف لدى إيسكالونا ، وعدم الارتشاء السياسى لهذا الليبرالى العجوز الأصيل ومظهره النبيل والمتقشف لم تجعل جارثيا ماركيز يسترجع صورة جده ؛ بل أيضاً إلى تعزيز تلك الصورة المثالية التى ستنبثق عنها شخصية " العقيد لم يجد منْ يراسله"(٢٣).

وقد أفادت هاتان الرحلتان إلى بايدوبار وقراها فى تعزيز الفضول لدى الكاتب لكى يتعرف على أرض الأغانى الشعبية (لوس بايناتوس) وكذلك لتتبع مسيرة أجداده ، وليرى بنفسه مسارح حرب الألف يوم ، وليجد خيوط الأوقات المفقودة. ولهذا فبعد تركه لصحيفة الهيرالد (بمجرد أن انتهى من سداد دينه لفوينمايور أى الستمائة بيزو) ، وبعد أن جرَّب حظه كناشر وصحفى مستقل مع صحيفة كومبريميدو الصغيرة التى أغلقت بسرعة عاد إلى بايدوبار ولا باث وماناورى ، وقُرى أخرى مجاورة فى أول جولة متأنية استغرقت عدة أشهر يمكننا تحديد وقتها على وجه التقريب فيما بين أكتوبر أو نوفمبر عام ١٩٥١ إلى أوائل فبراير عام(٢٤) ١٩٥٢ . وكان يرافقه فيها دائماً كشريكين وراعيين رفائيل إيسكالونا وثباتا أوليبيا وخاصة إيسكالونا الذى كان يعرف جيداً منطقته ، كما كان ملحناً شعبياً ، وقد تجول جارثيا ماركيز بهذه الأماكن شبراً شبراً وسجَّل ملحوظات غزيرة لا تُحصى ، وهو يعى تماماً أنه يكتشف جذور نفسه المتناهية فى العُمق لإنتاجه المستقبلى .

وقد رأى فى ماناورى نفس القرية بشارعها الوحيد الطويل ، وكان قد عرفها وهو طفل من حكايات الأسرة وهى كائنة فوق هضبة خضراء جداً يحيطها صمت وسكون يمتدان لألف عام ، حيث أخذت والدته تنسى حب موظف برق أراكاتاكا (أى والد جارثيا

ماركيز) وحيث وُلدت ريبيكا بوينديا الطفلة الشريرة التى وصلت إلى ماكوندو ، وهى تحمل فى جوال عظام والديها وجراثيم وباء الأرق. وفى لا باث - مثل بايدوبار- ظل يبحث ويكتشف مصير أجداده والعقداء الذين شملهم النسيان ويجمع الأساطير والخرافات إلى جانب تسليته مع الموسيقيين المحليين ، الذين كانت أغانيهم الشعبية تحكى المفاخر والبطولات الحربية والغرامية على غرار القصائد الشعبية الإسبانية. وكان ذلك هو الذى فتنه وأسره فى لا باث : ففى قرية ذات مزارعين هادئين اكتشف منبت الموسيقى الشعبية للباياناتا فى حالته الخام أو البكر(٣٥) ، فهناك أكثر أساتذة العزف على الأكورديون مثل الشقيقين خوان ودا جوبيرتو لوبيث ، كما كان هناك الكثيرون الذين غنَّوا ولحنوا هذه الأغانى الشعبية المتنوعة كأمر طبيعى ويومى. ويتذكر مانويل ثباتا أوليبيا - كطبيب لعازفى الأكورديون ، كما كان أيضًا وجدانهم النظرى - يتذكر أن جارثيا ماركيز كان مسروراً فى هذا الفردوس للموسيقى الشعبية مستمعًا ومغنيًا لهذه الأغانى فضلاً عن العزف على الطبل، وبنفس السرور ، وبنفس العزم - للبحث عن المواد الموسيقية الخام - أعاد الكرَّة فى العام التالى عندما عاد إلى المنطقة كبائع للموسوعات والكتب الفنية بالتقسيط.

وبانتهاء هذه الجولة عاد إلى بارَّانكيا ، وإلى صحيفة الهيرالد لكى يستأنف كتابة عموده " الزرافة" فى الثامن من فبراير١٩٥٢ ، فخبرة السفر حركت فى نفسه الاشتياق لكتابة تحقيقات صحفية ولممارسة الصحافة التى كان تواقًا دائمًا لممارستها ، وفكر فى استخدام المادة التى جمعها لكتابة تحقيق كبير. كما فكر منذ عام مضى فى كتابة تحقيق عقب اغتيال صديقه كايتانو جنتل تشيمينتو. ومع ذلك سرعان ما أدرك أن خبرة السفر تجاوزت بكثير أمر كتابة مجرد تحقيق صحفى، فالأمر يتعلق بجذوره وأصوله ، وبذاكرته فى مرحلة الطفولة. وترك ذلك كمادة أدبية خام لقصته المنزل تلك القصة الكبيرة ذات السبعمائة صفحة التى فكر فى الانتهاء منها خلال عامين(٣٦). كان الكاتب يعتقد ذلك. وحقيقة عاد إلى قصته الأولى لكى يكملها ، ولكن بعد شهر أى فى الأسبوع الأول من مارس عاد مع والدته إلى أراكاتاكا لبيع منزل جدَّيه(٣٧): إن هذه الرحلة فضلاً عن سفره اللاحق إلى لا جواخيرا كانا لهما أكبر الأثر فى تحديد مدى وإطار العمل الخيالى.

وبعد وفاة الجدين والعمَّات ظل منزل أراكاتاكا وحيداً تحت تصرف الأعشاب الضارة والأشباح . وكانت أسرة جارثيا ماركيز قد أجرته لأسرة أكونيا كوستا لوالدى زوج معلمته التى علمت القصاص القراءة ، ولكن بمرور الوقت نسى هؤلاء سداد قيمة الإيجار، كما أن الحالة المادية لأسرة جارثيا ماركيز تفاقمت مع انتقالهما مؤخراً إلى قرطاجنة. حينئذٍ قررت الأسرة بيع المنزل مقابل سبعة آلاف بيزو إلى زوجين مزارعين فقيرين للغاية كانا قد كسبا اليانصيب مؤخراً. وبهذا المبلغ شيدت أسرة جارثيا ماركيز منزل قرطاجنة الكائن بين حى بيه دى لا بوبا ولو أمادور.

وعندما كانت لويسا سانتياجا تتوجه إلى أراكاتاكا قادمة من قرطاجنة التقت مع نجلها فى بارَّانكيا الذى كان قد وصل لتوه من بايدوبار، وبما أنه كان قد هيَّج شياطينه القُدامى قرر مرافقة والدته. وقد استقلا اللنش حتى ثيناجا ، حيث التقيا بلويس إنريكى الذى استقر مؤخراً هناك موظفًا بوزارة الزراعة وواصلا رحلتهما إلى أراكاتاكا فى نفس القطار الصغير الذى كان الكاتب يراه فى طفولته يومياً كل صباح.

وعندما وصلا إلى المحطة كان قيظ شهر مارس فى ذروته وشرعا فى التجول بشوارع أراكاتاكا المتربة باحثين عن ظل أشجار اللوز ونبع الحياة ، وهو ظل لا جدوى منه لشدة القيظ. وكان جارثيا ماركيز قد غادرها وهو فى العاشرة أو الحادية عشرة من العمر، ولما عاد وجد كل شيء كما هو ، ولكنه فى الوقت نفسه متدهوراً بعض الشيء[٣٨] فمن ناحية ، أراكاتاكا لم تتغير كما كانت فى طفولته نفس محطة القطار ، ونفس مدرسة مونتسورى بين أشجار المانجو ، ونفس المساقى، الشوارع ، وأشجار اللوز المتربة، ونفس منازل الزنك الذى أصابه الصدأ ، ونفس المحلات والكانتينات الفقيرة ، ونفس الناس الحزانى. ومن ناحية أخرى بدت له الشوارع كأنها أضيق مما كان يعتقد ، والمنازل أكثر قدماً ، وأقل ارتفاعًا مما كان يتذكره ، وأشجار اللوز أكثر عراقة ومليئة بالتراب ومختلفة تمامًا عما اختزنته ذاكرته ، كما أن عالم النواصى الأربع لم يكن واسعًا فسيحًا بهذا الشكل ، كما كان فى ذاكرته، كما لم يكن برج الكنيسة التى عمَّدوه فيها عاليًا لهذه الدرجة ، كما أن الأطفال الذين تعلم معهم الحروف الأولى فى مدرسة مونتسورى أصبحوا الآن رجالاً فى الخامسة والعشرين من عمرهم مثله تمامًا ، ولكن معظمهم ليس له مستقبل ، ولا طموحات ، وكثير من أهل

البلدة دمَّرهم الفقر ، وأجهزت عليهم الوحدة ، والرجل فظيع الهيئة الذى كان يخيفه فى طفولته أصبح هَرِماً نحيفًا بلا أسنان منزويًا فى أرجوحة نومه ، وعلى وجه الخصوص منزل جديه الرحب الفسيح الرطب العليل الهواء حيث وُلِدَ الكاتب أصبح فردوسًا من الأطلال ، أصبح كاريكاتيراً ممسوخًا لما كان عليه من روعة وبهاء خلال صباه. لقد دمَّرت أرواح الزمن الشريرة المنزل و أراكاتاكا مقارنة بما ارتسمت فى ذاكرته بروعتها وبهائها. وهذا الزمن الذى أصاب أراكاتاكا ومنزل جدَّيه لم يتعد أربعة عشر عامًا وهى التى عاشها جارثيا ماركيز فى بارَّانكيا وثيباكيرا وبوجوتا وقرطاجنة ومرَّة أخرى فى بارَّانكيا: وخلال تلك الفترة أصبح جارثيا ماركيز كاتبًا واكتسب ثقافة ومنظور المدينة الكبرى.

وعندما وصلا إلى الناصية حيث منزل الجدين فى شارع مونسنيور إيسبيخو توقفا أمام صيدلية الطبيب الفنزويلى أنطونيو باربوسا. وخلف المنضدة كانت زوجة الطبيب تحيك الملابس عل ماكينة خياطة على الرغم من شدة الحر. وقد حيتها لويسا سانتياجو بعبارة مقتضبة " كيف حالك ياأمى؟ " بعد اضطراب أدريانا بيردوجو تعانقت السيدتان وبكيتا فى صمت، ولم يقولا شيئًا أكثر من ذلك ، بل انهمرت دموعهما فى صمت(٣٩). وفى هذه الأثناء سُمِعَ سُعال خفيف متكرر خلف ستارة بداخل الصيدلية: لقد كان سُعال الطبيب العجوز أنطونيو باربوسا. وقد أجلس الدكتور باربوسا الكاتب إلى جواره، وحكى له على مدى عدة ساعات كل ما حدث فى القرية منذ رحيله. وقد تساءل جارثيا ماركيز عما إذا كان ما كتبه حتى الآن له علاقة مع ما حكاه له الدكتور باربوسا الصيدلانى العجوز ، ومع ما كان يراه حوله وخاصة ذلك الزمن الذى انقضى. وكانت هذه هى المشكلة الرئيسية: "لقد انتابه الإحساس بأنه ترك الزمن خلفه" وأن ما كان يفصله ويبعده عن القرية لم تكن المسافة بل الزمن"(٤٠) ، وهذا الزمن المنصرم زمن الطفولة والجدَّين كان بمثابة لُب إنتاجه القصصى المبتدئ ، ولكن بشكل غير ناضج وفوضوى.

وبعد منزل جدَّيه كانت صيدلية الدكتور باربوسا أحد الأماكن الرئيسية فى ذاكرة الكاتب: فقد كان المنزل الذى تزاور فيه والداه عن بُعد وتبادلا أيضًا الرسائل الغرامية أثناء فترة الخطوبة المحظورة ، وكان المكان الذى تعلم فيه الأسماء الأولى لبعض الأدوية ، وقد كان هذا المنزل بمثابة بيته الثانى ، والآن سيصبح المكان الذى سيضع فيه نهاية لواحدة من أهم تجارب مسيرته الأدبية: الإثبات القاطع الذى تبلور بهذا العناق بين

والدته وزوجة الدكتور باربوسا ؛ هذا فضلاً عن الدردشة الطويلة مع الصيدلانى حيث إن هناك هوة بين الكاتب و أراكاتاكا ؛ هوة حفرها الزمن ويصعب تفاديها ، وإن إنتاجه الأدبى كان فى حاجة إلى إعادة توجيه من جديد اعتباراً من هذا الإثبات أو البرهان.

وبالطبع كان الأمر كذلك، ولكن القفزة النوعية التى سيسجلها عمله القادم (بما فى ذلك كتابته الرابعة لقصة " الورقة الساقطة") لم تكن مرتبطة فقط بعودته لأراكاتاكا ، بل أيضًا بالأسفار الأخرى التى قام بها الكاتب. إن هذه الخبرات هى التى أمدته بالعمق الزمنى والمكانى الذى افتقر إليهما فى قصة المنزل ، أى الأفكار الكبيرة الراسخة فى طفولته والتى كانت ستحدث تغييراً نوعيًا فى عمله الصحفى ، كذلك جعلته رويداً رويداً أكثر روائية وحيوية وأقل تأملاً وركوداً وجموداً (كما يتأكد ذلك من عموده "الزرافة" شىء أشبه بالمعجزة والتحقيق الموسع " دولة على ساحل الأطلسى").

وإذا كان جارثيا ماركيز قد مجَّد من جديد عودته إلى أراكاتاكا ، واعتبرها الخبرة والتجربة الحاسمة لمسيرته الأدبية ؛ فإن ذلك مرجعه إلى الانطباع الكبير الذى نجم عن تلك العودة وإلى إطار التفكير والضبط الذى قدمته له تلك العودة. ولذلك – فعلى سبيل المثال – فى سبتمبر١٩٦٧ ، وفى جامعة الهندسة فى ليما اعترف لصديقه الجديد ماريو بارجاس يوسا أنه اعتباراً من تلك العودة واعتباراً من ذلك العناق الطويل الصامت بين والدته وزوجة الدكتور باربوسا فى الصيدلية عَنَّ له أنَّ يحكى كتابةً كل الماضى فى تلك الواقعة[٤١] ، مما يفهم منه أنها كانت البداية الحقيقية لإنتاجه الأدبى. وبعد ذلك بستة عشر عامًا سيكون الكاتب أكثر وضوحاً فى مقابلة مع مجلة بلاى بوى: " أدركت فى ذلك اليوم أن جميع القصص التى كتبتها حتى ذلك الحين كانت ببساطة شديدة أعمالاً أدبية، ولم يكن لها أية صلة بالواقع"[٤٢].

والحقيقة أنه لم تعن له – فى ذلك الحين – فكرة سرد الماضى بأكمله كتابة لتلك الواقعة ، كما لم يكن كل ما كتبه حينذاك – ببساطة شديدة – أعمالاً أدبية فواقع الأمر أن محاولة الشروع فى السفر إلى الجذور لاستعادة الزمن المفقود وقت الطفولة ، ومنزل جدَّيه ونفس جديه كانت قد بدأت – كما رأينا– قبل ذلك بخمسة أعوام مع عمله " الاستسلام الثالث " ، والحكايات الأخرى فى " عيون كلب أزرق" قد استكملت بفصل

عودته إلى الكاريبى وإلى قراءته لفوكنر ، وباستحالة كتابته "للمنزل" ، وبعد أن حقق نجاحًا جزئيًا فى كتاباته الثلاثة الأولى لـ" الورقة الساقطة". إن ما حدث وهو لا يزال يشحذ أسلحته الخاصة وهو لا يزال منبهرًا بالكتاب الذين كان يقرأ لهم (فوكنر وفيرجينيا وولف وسوفكليس) ، وكونه لا يزال يفتقر للمنظور الكافى للتطرق إلى عالم الطفولة لم يستطع جارثيا ماركيز حتى ذلك الحين إعطاء رواياته الأولى الاستقلال الذاتى والرجحان الكاملين ، ولذلك فعند عودته إلى أراكاتاكا بدا له (فى واقعة ظلم مع نفسه) أنه لم يعد بعيدًا عن الكتابة الجادة ، وأن ما كتبه حتى تلك اللحظة " كان بعيدًا كل البعد عما أراه هنا" ، وبالتالى كانت تطبيقات أدبية دون أدنى اتصال مع الواقع والزمن الماضى.

إن لحظة الوضوح هذه كانت لحظة قدرية بالنسبة للكاتب لأنها سلحته بصبر لا نهائى وأنارت له الطريق لكى يصل إلى المكان الذى بدأ فيه ، والتعرف عليه حقيقةً لأول مرة كما قال إليوت: لقد كان طويلاً ومحفوفًا بالمخاطر أكثر مما كنت أعتقد. فمنزل جديّه الذى باعاه مؤخرًا بسبعة آلاف بيزو كان نقطة الانطلاق والوصول معًا. كان البداية والنهاية لكل شيء حتى " مائة عام من العزلة" على الأقل، ولكن خلف المنزل كانت هناك عدة منازل ، وخلف أراكاتاكا كانت هناك مدن أخرى مثلها ، وخلف الزمن المتوقف والمألوف وشبه اللزج ، والذى جاء جارثيا ماركيز محاولاً إدراجه فى رواياته الأولى كان زمنًا آخر ؛ زمنًا حيويًا ومكثفًا ومتحاورًا ، وقد انتابه الغموض والإبهام من زمن التاريخ وثقافة الساحل: كان زمن الجدّين فى لا جواخيرا ونزوحه إلى بارّانكاس وإلى أراكاتاكا ، إنه زمن "حرب الألف يوم"، إنه زمن معارك ريوهاتشا وثيناجا. إنه زمن فرانثيسكو الأومبرى والأغانى الشعبية (لوس باييناتوس) ، إنه زمن بوليفار الذى مات مُهانًا ومضطهدًا ومهجورًا ووحيدًا فى أبعادية سان بيدرو أليخاندرينو ، وأبعد من ذلك كان زمن فرانثيس دراك وهو يعتدى على ريوهاتشا وقرطاجنة فى القرن السادس عشر.

ولذلك ؛ فقد أحس بالحاجة الملحة للتعرف تمامًا على لا جواخيرا وتاريخ جدّيه، وفى نفس قطار العودة إلى بارّانكيا بدأ يسأل والدته عنهما: ومن هما فى الواقع ، ومن أين هما ، ومتى وصلا إلى أراكاتاكا ، ومن هو ذلك الرجل الذى اضطر جده لقتله فى مبارزة تحدٍ منذ أربعة وأربعين عامًا ، ومنْ هم فى النهاية الذين أعادوا تأسيس أراكاتاكا إلى جانب أسرة الماركيز دى إيجواران اعتبارًا من عام المذنّب هالى[٤٣].

وقد كرَّر جارثيا ماركيز من جديد ، وفى وقتٍ لاحقٍ أنه عندما وصل إلى بارَّانكيا أخذ يكتب على وجه السرعة "الورقة الساقطة" ، أى أنه هجر مجلده الكبير المستحيل لقصته الأولى ، وبدأ فى طريق آخر[٤٤]. وكما يحدث بكثرة فإن ذاكرته لم تتوافق مع التأريخ الزمنى للأحداث ، لأن هذه القصة لم يكتبها آنذاك بل أعاد كتابتها (للمرة الثالثة)لأنها كُتبت لأول مرةٍ فى منتصف عام ١٩٤٩ ، كما أكد ذلك جوستابو إيبارًا ميرلانو ، ويمكن تعضيد ذلك بتحليل بسيط لتطور أسلوب الكاتب. وعلاوة على ذلك: عندما رجع إلى أراكاتاكا منذ عامين كانت القصة قد رُفضت بعد كتابتها للمرة الثانية من جانب دار نشر لوسادا فى بوينس أيرس[٤٥].

ومن الواضح أن جارثيا ماركيز أخذ مأخذ الجدٍّ هذه المجموعة من الأخطاء ، أو الالتباسات ، ولهذا فإنه فى رسالة إلى خيرمان بارجاس فى أعقاب " مائة عام من العزلة"وقع مرة أخرى التباس آخر عندما أكد خلال نفس الرحلة مع والدته (وهو يحدده دائمًا فى عام ١٩٥٠ وليس فى ١٩٥٢ تذكَّر ضيعة الموز ماكوندو ، وقرَّر اختيار اسمها ليطلقه على المكان فى أعماله ، وقد قال فى ذلك: فى الواقع إن اللافتة التى تحمل اسم الضيعة أعتقد أننى رأيتها بالتأكيد عدة مرَّات فى طفولتى عند مرور القطار ، ولكننى نسيت ذلك تمامًا إلى أن رأيتها من جديد فى عام ١٩٥٠ ،وقررت اتخاذها عنوانًا لذكرياتى فى أراكاتاكا[٤٦]. وفى المقابلة التى منحها لمجلة "بلاى بوى" عاد ليؤكد هذا الالتباس مرة أخرى قائلاً: بالمناسبة خلال الرحلة مع والدتى مررنا أمام ضيعة الموز التى كنت أعرفها منذ طفولتى. وكانت اللافتة التى تميزها مكتوبًا عليها ماكوندو"[٤٧]. ولا شك أن هذا الاسم كان قد رآه فى طفولته ، ثم شاهده عدة مرات وهو كبير عندما كان القطار يَمُر بجوار كامايال ، ولم يكن ذلك فى عام ١٩٥٠ عندما استرجع وقرَّر استخدامه لأول مرة فى قصته " الورقة الساقطة" ، اللهم إلا إذا كان ذلك عند كتابته القصة للمرة الثانية، ولكن هذا ليس محتملاً لأن جوستابو إيبارا ميرلانو أكد – بذاكرته القوية والمنتعشة والمرتبة – أنه يستطيع أن يشهد بأنه عندما كان يقرأ " الورقة الساقطة" كانت بها كلمة " ماكوندو" ، أى قُبيل يوليه ١٩٤٩[٤٨] ، عندما كان جارثيا ماركيز لا يزال فى قرطاجنة ، وما لبث أن عاد إلى سوكرى بعد فترة من الالتهاب الرئوى .

وما رآه الكاتب – فى الواقع – عبر القطار فى مارس ١٩٥٢ هى اسم ضيعة انتاج الموز ماكوندو بحروف بيضاء على أرضية أو خلفية سبيكة من الرصاص والقصدير زرقاء مائلة إلى اللون الرمادى ، كان تأكيداً لاختياره عند كتابة " الورقة الساقطة" للمرَّة الرابعة التى شرع فيها بعد ذلك بقليل(٤٩). وكانت ماكوندو لسهولة ورخامة وعذوبة لفظها العميق المبهم هى بالفعل الاسم الذى ينبغى أن يحدد مكانه الأسطورى ، الذى أدركه اعتباراً من أراكاتاكا ومن طفولته(٥٠). ولأن الشكوك قد انتابته ، وكان قد فكَّر فى أن ماكوندو ربما ينبغى أن يُطلق عليها بارًانكيا ، ولكن رامون بينيس العالم القطالونى نصحه ألا يستخدم اسم بارًانكيا لأنه اسم مشهور ولا يصلح للأدب ، وسيفقد قصته مصداقية ورجحانًا. وكان بينيس مثل تلميذه الموهوب نصيراً للفكر الجمالى أيضًا للقرية العالمية حيث سيظل كل شىء مُشَفراً.

وبعد بضعة أيامٍ من رجوعه من أراكاتاكا كتب جارثيا ماركيز رسالة إلى مواطنه جونثاليث " جوج" فى صحيفة الاسبكتادور "المشاهد" ، حيث وصف له فيها حالة الخراب والعزلة التى وجد عليها أراكاتاكا مسقط رأسه: لا زالت هذه قرية مُتربة مليئة بالصمت والأموات. وربما تكون مضطربة للغاية بعقدانها القُدامى الذين ماتوا خلف الفناء تحت آخر شجرة موز ، وكمية لا حصر لها من البكارى ذات الستين ربيعًا قد عفى عليهن الزمن يعرقن من آخر آثار الجنس تحت قيظ الساعة الثانية ظهراً". وأشار بعد ذلك إلى هذا قائلاً: " فى هذه المرَّة غامرت بالذهاب ، ولكننى لن أعود وحدى مُطلقًا ، وخاصة بعد صدور " الورقة الساقطة" ، وبعد أن قام العقداء بإشهار بنادقهم لكى يخوضوا معى حربًا أهليةً شخصيةً واستثنائيةً(٥١). وكان قد اعترف له قبل ذلك بأنه يفكر فى طبع قصته بالاكتتاب الشعبى. هذه القصة ، ويضع لها كمقدمة تلك النصيحة التى أسدتها له دار النشر بمفهومها الرَّث التى بعث بها مجلس إدارة لوسادا بعد أن كانت الدَّار قد رفضتها من قبل .

ولم يتعد المشروع ذلك لأن التصحيح وإعادة صياغة وإعداد الأصول على ضوء الخبرة المهمة للعودة إلى أراكاتاكا جعلته يستغرق وقتًا أكثر مما كان متوقعًا ، ربما لأنه ما لبث أن أدرك أنه – على العكس مما يحدث – ينبغى عليه أن يكتب لكى يحفظ نصوصه فى الدَّرج ، على أن يخضعها للتصحيح العادى من الجان" وطبقًا لذوق أصدقائه الرفيع وشركائه الأدبيين ، أو ببساطة لم ينشر قصته الأولى لأنه لم يجد العدد الكافى من المشتركين فى الاكتتاب.

إن الحماس الذى دفع جارثيا ماركيز للعودة مرة أخرى لقصة " المنزل" وإعادة كتابة " الورقة الساقطة" يُستنتج من تضاؤل أعمدته الصحفية فى " الهيرالد" من فبراير إلى ديسمبر عام ١٩٥٢ . وخلال هذه الشهور فإن الثلاثين أو الأربعة والعشرين عموداً الشهرية خلال السنوات الماضية انخفضت إلى اثنى عشر أو ثمانية أعمدة فقط ، ولم ينشر سوى عمودين فقط فى ديسمبر فضلاً عن فصل كان قد فصله من قصة " الورقة الساقطة" ، " الشتاء" ، وهو الذى سينشر بعد ذك بخمسة أعوام بالعنوان النهائى " إيسابيل تشاهد هطول المطر فى ماكوندو" ، ولكن فتور إسهاماته فى الهيرالد يفسر أيضًا بالتعب والملل من الروتين من عملٍ لم يكن له محفزًا ومشجعًا ، لأنه لم يقدم له ما كان يبحث عنه منذ أربع سنوات : تحمس وشحذ أسلحته كصحفى وقصاصٍ ؛ الأمر الذى كان يتوق ويتطلع إليه دائمًا. ولذلك ؛ فعندما سنحت له الفرصة لترك الصحافة هجر الصحيفة والمدينة وهو فى غاية السعادة ، وذهب إلى قرىً ماجدلينا وألثيسار ولا جواخيرا كمندوب لبيع الكتب.

لقد سنحت له الفرصة هذه المرَّة ، كما سنحت له فى مرَّات أُخر ، وواتته اللحظة المناسبة ، وستظل تواتيه اللحظات الحاسمة ؛ كأنَّ القدر كان يرتب له الأفكار المشتتة لحياته. إنَّ خوليو ثيسار بيجاس المندوب السابق لدار نشر لوسادا ، الذى كان جارثيا ماركيز قد أرسل له بقصته "الورقة الساقطة" فى بوينوس أيرس منذ ثلاث سنوات قد افتتح مؤخرًا متجرًا لبيع الكتب بالأجل فى بارَّانكيا ، وأقنع جارثيا ماركيز بأن يكون واحدًا من مندوبى مبيعاته. هذا البيروانى الجوَّال كان وزير الحكومة فى عهد الرئيس بوستامنتى إى ريبيرو حتى اضطرته ديكتاتورية الجنرال أودريا إلى اللجوء لكولومبيا حيث مارس عدة مهن كرجل أعمال. إنه محاور ممتاز ومفكر ومثقفٌ للغاية. كان بيجاس رجلاً جلدًا وحالمًا ومخالفًا للقوانين على طريقة الصعاليك ، فقد كان تواجده فى بارَّانكيا أشبه بالمنفى داخل المنفى ، فقد قَدمَ من بوجوتا فارًا من اتهامات الاختلاس الخطيرة التى ارتكبها وهو يعمل مندوبًا لدار نشر لوسادا فى بوينوس أيرس(٥٢).

وعندما رأى جارثيا ماركيز أنه بوسعه أن يكسب مزيدًا من المال مع بيجاس أكثر من صحيفة الهيرالد ، خاصة أن حجته كانت قوية فى تلك الآونة ، ألا وهى التوغل بعمق وتأنٍ فى قرى لا جواخيرا حيث قَدمَ جدُّاه. ولذلك لم يفكر فى الأمر مرتين. وتنقل من

قرية إلى أخرى في ديسمبر من ذلك العام[٥٣] ، ليبدأ عمله الجديد بائعًا للكتب بالأجل. وفجأة التقى بشقيقه لويس إنريكى فى سانتا مارتا وهو يمارس مهنته الجديدة ، حيث ذهبا سويًا إلى ثيناجا ، وبدأ الكاتب يعمل فى عاصمة الموز القديمة ؛ نفس المدينة التى قتلوا فيها عمال مزارع الموز فى ديسمبر عام ١٩٢٨ ، وحيث عاش جداه قبل الاستقرار فى أراكاتاكا ، كما جرَّب حظه هناك العالم القطالونى رامون بنيس ، الذى ما لبث أن جاء إلى كولومبيا.

وقد وسع جارثيا ماركيز منطقة نشاطه فى هذه المهنة الجديدة ، حيث سافر برفقة شقيقه لويس إنريكى فيما بعد إلى بايدوبار ولا باث وماناورى مارًا بجواكامايال وأشبيلية وأراكاتاكا وفونداثيون والكُوبى . وقد زار فى هذه القرى المحامين والأطباء والقضاة وكاتبى العدل والعُمَد ، وحاول إقناعهم بأن الكتب الفنية من كل نوع وفى جميع أفرع المعرفة – التى كان يُخرجها من حقيبته الكبيرة السوداء – أنها خير حليف لهم فى عملهم اليومى ، وأن الاثنى عشرة ألف صفحة المزودة بالرسومات للعشرة أجزاء للقاموس الموسوعى "أوتيها" كان الأكسير العلاجى لسد ثغراتهم الثقافية. وبالطبع كان خجله ، وقلة خبرته أكبر من عمله الجديد. وعلى الرغم من ذلك استطاع بيع بعض النسخ ، التى لا تمثل شيئًا فى هذه الجغرافية الواسعة. لذلك فبعد أن انتهى الحماس المبدئى بدأ جارثيا ماركيز يشعر فى كل مرة أنه مُتْعَبُ ومثقلٌ من مهنة الاغتراب هذه كبائع للكتب بالأجل. وعلى العكس من ذلك ، فإن كل الذى كان يهمه حقيقة من هذه القضية هو التحدث والتحاور مع أناس القرية والعُقداء القُدامى الذين ظلوا ينتظرون معاشهم الحربى دون جدوى ، وكذل التنزه مع عازفى الأكورديون فى بايدوبار ولا باث أو ماناورى إلى جانب رفائيل إيسكالونا ومانويل ثباتا أوليبيا وشقيقه لويس إنريكى.

وعندما عاد لويس إنريكى إلى ثيناجا توغل جارثيا ماركيز برفقة رفائيل إيسكالونا وليساندرو باتشيكو اللذين رافقاه على مدى أسبوع فى جميع أرجاء لا جواخيرا حتى ريو هاتشا ، متوقفًا فى قرى جدَّيه مثل أوروميتا وبيانوبيا والمولينو وسان خوان ديل الثيسار وفونسيكا وبارَّانكاس وتوماراثون والماناورى جواخيرو[٥٤]. أما أوقات الفراغ شديدة الحرارة ؛ فقد قضوها فى فنادق متواضعة يطالعون القصص البوليسية ، وروايات الجيب. وعندما تنتهى هذه القصص يلجأون إلى الموسوعة والكتب

الفنية من عيناته كبائع. وفى بعض هذه الكتب حدثت لجارثيا ماركيز أمورُ حاسمةُ فى مسيرته ككاتب ، وفى بعضها الآخر ظل يروى بذور الأسطورة. ويتذكر فيكتور كوهين صاحب فندق ويلكوم فى بايدوبار أن ماركيز كان نحيفًا جدًا وشعره مُجعَّدًا وذا شاربٍ رفيع وعينين جاحظتين وخطوات وئيدة متأنية ، وكان يتناول طعامه فى الموعد المحدد وبشهية كبيرة ولكن بقليل من المال. وعند مغادرته للفندق لم يستطع سوى سداد ثلاثة وخمسين بيزو لكوهين من إجمالى مائة واثنين وعشرين بيزو ، وثلاثة وخمسين سنتًا مقابل الإقامة والطعام على مدى عدة أسابيع. وقد ترك له جارثيا ماركيز بعض الكتب من عيناته كبائع كتب فاشل ، ووقع له إيصالاً بالمبلغ المتبقى من الدَّين ، ونسى الموضوع تمامًا. ومع ذلك فإن فيكتور كوهين لن ينساه على الإطلاق ؛ بل احتفظ بالإيصال طيلة ثلاث حقبٍ لكى يريه إيَّاه فى عام ١٩٨٣ أثناء رحلة للأصدقاء وكان جارثيا ماركيز قد فاز قبلَها بقليل بجائزة نوبل فى الأدب(٥٥). ومنذ ذلك الحين ، وهذه المبادرة ستدرج ضمن القصص المحببة على أنغام الموسيقى والأغانى الشعبية (لوس باييناتوس) التى تُشنِّف آذان الزُّوار.

ومن المحتمل أن يكون الكاتب قد قرأ مفتونًا فى هذا الفندق إحدى رواياته التى كانت لها أهمية قصوى فى مسيرته الأدبية. فمنذ ثلاثة أشهر ومجلة لايف "الحياة" تصدر باللغة الأسبانية ، وفى بابها الأدبى كانت تُنشر قصصًا لأهم الكتاب الأمريكيين فى ذلك الحين. ومن هذا المنطلق كان جارثيا ماركيز وأصدقاؤه فى بارَّانكيا يتابعون هذه المجلة بشغف متزايد. وذات يوم والحر الخانق يحاصر الكاتب تلقى فجأة طردًا من أصدقائه: كان العدد رقم ٧ من مجلة "لايف" بالأسبانية وفيه رواية "العجوز والبحر". إن النص كان يُقرأ بسهولة فى عشرين صفحة من عمودين كبيرين مزودًا بالصور. وفى الصفحة الأولى ظهرت صورة لهيمنجواى شابًا وبلا لحيةٍ وبشاربٍ وشعر أشمط أشيب ، وخلفها تُرى قرية الصيد الكوبية كوخيمار والتى استخدمت نموذجًا للقصة . وكما حدث لجارثيا ماركيز مع نصوص جوهرية انكب على قراءتها ونسى درجة الحرارة التى بلغت الأربعين درجة مئوية فى الظل فى بايدوبار(٥٦). وكانت هذه القراءة "كعلبة من الديناميت" ، حيث إن تأثير فوكنر وجد ما يعادله. ومن ناحية أخرى؛ فطول القصة والبناء والأسلوب الشفاف عند هيمنجواى زودوا جارثيا ماركيز بعمل مناسب لفحص

الحيل الشكلية للقصة القصيرة ، والتى سيجيدها بأستاذية بعد فترة وجيزة اعتباراً من " رواية غريق" و " العقيد لا يجد منْ يراسله" .

وهناك مغامرة قراءة أخرى فى الظاهر أقل أهمية ، ولكنها ذات نتائج حاسمة لمؤلف ماكوندو ، كانت إعادة قراءة "السيدة دالواى" لفيرجينيا وولف ، وهو يطرد الذُّباب ويهذى من شدة الحر فى فندق آخر ، أثناء تواجده فى إحدى البلدان الداخلية فى لاجواخيرا . فمنذ أن قرأها لأول مرة قبل خمس سنوات مضت فى توورباكو مع روخاس إيراثو وإيباراً ميرلانو فإن القراءة الثانية تحولت إلى بوصلة وموديل لا يمكن الاستغناء عنهما أو استبدالهما مثل " أوديب ملكاً" لسوفكليس ، " المسخ" لكافاكا أو "صحيفة عام الطاعون " لديفوى. ولكن هذه المرة لم تكن إعادة قراءة القصة كلها هى التى فجرت المعجزة ؛ بل كانت فقرة واحدة فى البداية هى" ولم يكن هناك شك فى أنَّ بداخل السيارة كان يجلس شيء كبير : إنها عظمة كانت تضئ خفية فى متناول أيدى سوقية كانت لأول ولآخر مرةً على مقربة من ملكة انجلترا ، رمز الدولة الخالد الذى كان على علماء الآثار الطموحين المجتهدين التحقق من حفريات أطلال الزمن ، عندما لم تكن لندن سوى طريق مغطى بالعُشب ، وعندما كان الناس الذين يسيرون فى شوارعها فى صباح ذلك الأربعاء كومة من العظام فى معاصمهم دبل الزواج يغطيهم ترابها ، وتكثر فى أفواههم الأسنان التى نخرها السوس ، وغطتها طبقات الحشو.

وبعد ذلك بعشرين عاماً سوف يعترف بأنه كان يمكن أن يكون كاتباً مختلفاً ؛ بل رجلاً مختلفاً لو لم يستوعب خلال تلك الرحلة المضمون القدرى لهذه الفقرة ، لأنه غيَّر تماماً مفهومه للزمن ، وسمح له بأن يرى فى لحظة واحدة عملية التحلل فى ماكوندو ومصيرها النهائى(٥٧). وعلاوة على ذلك؛ ولعله لم يعرف ذلك إلى الآن ، فقد تكون هذه الفقرة هى التى أمدته بالأصل البعيد لـ " خريف البطريرك" والفصل التمهيدى لرواية " عن الحب وشياطين أخرى" . ولكن التباس جارثيا ماركيز يحتوى على حقيقة جزئية. ففى الواقع كانت إعادة قراءة تلك الفقرة إلى جانب خبرة الأسفار إلى بايدوبار ولا جواخيرا والعودة مع والدته إلى أراكاتاكا هى التى فجرتْ فيه نظرة حيوية ونافذة للزمن الراكد الذى استخدمه فى قصة " المنزل ، وفى رواية " الورقة الساقطة" ، وفى قصص " عيون كلب أزرق" . إن هذه القصص والروايات كانت تتحدث عن شخصيات ووقائع حبيسة أربعة جدران ، وزمن راكد متوقف دون انقطاع وذكريات وحنين واشتياق لأزمنة مجردة. ففى

المنزل ذكريات العقيد أوريليانو بويندبا حبيس منزل طفولته لم تكن سوى غثاء أو زبد الحنين غير المرتب ، تطفو في خضم الأزمنة الماضية ، ولكنها غير موجودة فعلاً. وفي " الورقة الساقطة" دار الحديث عن أسرة تسهر على جثة ، وأسرة قادمة من الجبال حيث عانت من ويلات حرب غير واقعية لعدم وجود خلفية تاريخية تتوافق مع الزمن.

وبفضل فقرة " السيدة دالواي" وهذه الأسفار بدأ جارثيا ماركيز يتزود بالوعي الأدبي حول الأزمنة التاريخية والأسطورية وحول الحاجة (أو الحتمية إلى ربط ذلك بالزمن الأسرى ، وبث الحيوية في هذه الأزمنة. وكأنَّ الكاتب عندما قرر أن يتجوَّل بنفسه في القرى والطرق التي سار فيها أسلافه كان مدفوعًا من جانب شخصياته التي بدت كأنَّها هي الأخرى جرَّبت ذلك ، ولهذا انتهى به الأمر إلى إدراك أهمية التجوال في الطرق المتربة والجهنمية في بايدوبار وجواخيرا. وكل طريق سار فيه وكل قرية زارها كانت مسرحًا لماضٍ أسرى وتاريخي مثل بارَّانكاس التي عاش فيها أجداده خمسة عشر عامًا ، وحيث وقعت أحداث ساعتها المشئومة ذات مساءٍ في ١٩ اكتوبر ١٩٠٨ ، أو كاراثوا وريو هاتشا حيث ناضل العقيد نيقولاس ريكاردو ماركيز ميخيا في"حزب الألف يوم" ، وهنا وهناك كانت لا جواخيرا دائمًا التي ينتمي إليها فرانثيس دراكي والمكتشفون وفرانثيسكو الأومبري.

وبهذا الشكل ؛ فإن أسفاره مع رفائيل إسكالونا ، ولقائه مع ليساندرو باتشيكو حفيد ميدرادو باتشيكو روميرو لم تكن فقط اكتشافًا لزمن أجداده وأصول ثقافته الأولية ؛ بل أيضًا كان لقاءً مع أزمنة التاريخ. وفي جذور الجذور كان قد وجد الأزمنة المفقودة مركبة ، وهي التي غذَّت إنتاجه الخيالي وخاصة في " مائة عام من العزلة".

وعند العودة إلى بارَّانكيا في مايو أو يونيه ١٩٥٣ تم وقف هذه الجولات فجأة ، وكذلك بيع الكتب بالتقسيط ، لأن الوزير البيرواني السابق خوليو ثيسار بيجاس قد تم إلقاء القبض عليه وأودع سجن النموذج في بوجوتا. ومع ذلك فإن جارثيا ماركيز القوي ، جارثيا ماركيز المفعم بالقراءات والخبرات والتجارب الشخصية واللاشخصية ، والشخصيات ، والقصص ، والأساطير والخرافات كان قد بلغ نضجه. وبالطبع جاءت بعد ذلك خبرات عظيمة مكملة. ولكن العنصر الإنساني الأساسي كان متراكمًا في ذاكرته وحساسيته. وسيظل الباقي على وجه الخصوص عملية تركيز وتفكير وتسلح أدبي دائم ومحموم.

الفصل العاشر

- العودة إلى بوجوتا
- محرر مقابل تسعمائة بيزو
- رفاق الاسبكتادور " المشاهد"
- كونراد وبيدفورد والمجموعة
- روخاس بينيا والديكتاتورية المسيحية
- فى خلية شيوعية
- ناقدٌ سينمائى
- " اليوم اللاحق للسبت"
- التقارير الكبيرة
- "رواية غريق "
- عُنفٌ وديكتاتورية وصحافة
- صدور " الورقة الساقطة"
- إهــداءٌ معلنٌ

عندما عاد جارثيا ماركيز إلى بوجوتا فى أواخر يناير ١٩٥٤ بغية الانضمام إلى صحيفة الاسبكتادور "المشاهد" وصل إلى مطار تيتشو ومعه حقيبته كجوَّال ، وطردان فى يده سلمهما إلى الشاعر ألبارو موتيس ، لكى يضعهما فى شنطة السيارة: لقد كانا يضمان أصول قصتيه " المنزل" و " الورقة الساقطة" ، وكانت الأخيرة قد شهدت أربعة كتابات أساسية على الأقل ، وكانت مثل روح حزينة تبحث لها عن ناشر. أما الأولى فعلى العكس من ذلك ظلَّت فى مهدها تنتظر فرصتها ، على الرغم من أننا إذا نظرنا إلى الأمور جيداً؛ نجد أنها وجدت فرصتها لأن مصير " المنزل" لم يكن سوى مشتل آدمى خرجت من أحد ضلوعه بشكل متماسك رواية " الورقة الساقطة" ، ومن الأضلاع الكثيرة الباقية خرجت كليًا أو جزئيًا روايات " العقيد لا يجد منْ يُراسله " ، و " الساعة المشئومة " ، و " جنازة الأم الكبيرة " ، و " مائة عام من العُزلة". لقد كانت بمثابة القصة النهر التى تضمنت وتآلفت منها هذه الأعمال حتى تولد من رواسبها ومن بين طيَّاتها الكثير والكثير.

إن الأصلين كانا يمثلان البداية الراسخة والحافلة بالوقائع لهذا السَّفر الذى قام به المؤلف إلى العالم الأسطورى لطفولته ولوالديه وجدَّيه. ورغمًا عنه كانت بوجوتا الأنديزية النائية – من جديد– بعد ستة أعوام من الغيبة هى التى ستمده بالمنظور الكافى لمواصلة هذه الرحلة إلى الداخل التى أثمرت خطوتها الأولى عن " الاستسلام الثالث" منذ سبعة أعوام فى نفس الصحيفة والمدينة ذاتها.

ولكن فى هذه المرَّة ، وإلى جانب شرف العمل فى صحيفة الاسبكتادور " المشاهد" ، ستمده بوجوتا بالمنظور المتكامل على وجه الخصوص للتفكير والتروى وترسيخ كل التجارب التى عاشها وقرأها وكتبها وتحرَّى بشأنها ، والتى بلغت ذروتها بالأسفار الأخيرة إلى بايدوبار ولا جواخيرا[١] ، ومع ذلك فإن هذه الفرصة الحاسمة كانت على وشك الضياع لأن جارثيا ماركيز لم يكن يرغب فى ترك بارَّانكيا وأصدقائه على الرغم من انتهائه من آخر مغامرة صحفية وجيزة له فى الساحل مع ألبارو ثيبيدا ساموديو رئيساً لتحرير صحيفة " الوطنى" الجديدة.

واستناداً لما قاله ألبارو موتيس وجيرمو كانو ومدير الاسبكتادور " المشاهد" وإدواردو بوردا ، ونائب مدير الصحيفة والمكتشف الأدبى لجارثيا ماركيز فإنهم جميعًا حاولوا فى بارًانكيا إقنَاع الكاتب بالعمل معهم. فموتيس لئلا يصيب الصدأ ذكاء وقريحة وعبقرية صديقه بسبب بوهيمية الساحل قال لهم: تعاقدوا معه لكونه جديراً بهذا الأمر ، ولم يتردد هؤلاء حيث قاموا بنشر حكاياته " عيون كلب أزرق" وأثنوا عليها. ولكن جارثيا ماركيز لم يُظهر بالفعل تحمسًا كبيراً للعودة إلى بوجوتا ، على الرغم من أنه سيكون محرراً لصحيفة شهيرة. حينئذٍ طلب جيرمو كانو وإدواردو ثلاميا من موتيس إقناعه شخصيًا لكى ينضم إلى صحيفتهم ، وكان موتيس مسئول العلاقات العامة بشركة إسو للنفط. وقد ذهب إلى بارًانكيا ودعا الكاتب للحضور إلى بوجوتا ، وترك له تذكرة طائرة ، ولكن جارثيا ماركيز فقد التذكرة ، حينئذٍ أرسل له أخرى عرفانًا بالجميل أكثر من اهتمامه بالعودة إلى العاصمة ، وقد تغلَّب على خوفه الفطرى من ركوب الطائرة ، وظهر ذات يوم فى أواخر يناير بمطار تيتشو القديم.

وعندما رآه جابرييل كانو صاحب الصحيفة تملكته الدهشة ، ولم يستطع إدراك أن ذلك الشاب القادم تواً من بارًانكيا الذى يرتدى ملابس ذات ألوان فاقعة، والشارب والعينين الجاحظتين والشحوب والنحافة المفرطين هو الكاتب الذى تحدَّث عنه ألبارو موتيس وإدواردو ثلاميا اللذان كانا يساندان ويشجعان رواياته ومقالاته الصحفية ، حينئذٍ صبَّ العجوز كانو كل حيرته على ألبارو موتيس قائلاً له: عجبًا ياسيد ألبارو هل ذاك الفتى يتمتع بذكاء خارق؟. ولكن مظهره ..ياإلهى ! .." ولكن موتيس بدد شكوكه فى الحال قائلاً: إنه أفضل عامل سيكون فى هذه الصحيفة لأن حضرتك ليس لديك عاملُ مثله وبعد ذلك ببضعة أيام استدعاه إلى مكتبه وقال له: اسمع ياسيد ألبارو إن حضرتك على صواب تمامًا: إن هذا الفتى درجة أولى ، ألف شكر"[٢].

وفى ذلك الحين ظلَّت مكاتب صحيفة الاسبكتادور" المشاهد" فى الطابقين الأول والثانى من المبنى بشارع خيمنيث دى كيسادا قريبة من منافستها "الزمن" بالفعل فى القلب السياسى للدولة. وفى الطوابق العُليا من هذا المبنى كانت مكاتب شركة إسو للنفط حيث يعمل ألبارو موتيس. وفى الأيام الأولى جلس جارثيا ماركيز فى مكتب

صديقه اتقاءً لشدة البرد والوحدة. ومن حين لآخر كان يكتب مقالاً تلبية لطلب مديرى صحيفة المشاهد. وكان الشقيقان كانو على يقين من ذكائه ونبوغه ككاتب ، ولكنهما لم يجرؤا على التعاقُد معه حتى يتأكدا من مواهبه كصحفي. وعندما فكرَّ جارثيا ماركيز فى العودة إلى بارَّانكيا عندما شَعُرَ بصعوبة إمكانية الحصول على وظيفة ثابتة عرضت عليه الصحيفة عقدًا كمحرر مقابل تسعمائة بيزو شهريًا(٣). كانت ذروة المجد الاقتصادى فى حياته. فالآن يستطيع العيش بمزيد من الراحة والهدوء ، ومساعدة والديه وأشقائه بشكل أفضل ، وكانوا يعانون من ضائقة مالية منذ ثلاث سنوات فى قرطاجنة. وبالتالى استطاع ترك منزل والدة موتيس فى أوساكين والاستقرار قريبًا من الصحيفة فى لوكاندة قابلة فرنسية ، وهى اللوكاندة التى كانت قد نزلت بها إيبا بيرون خلال فترة عملها كراقصة.

وبين هذه اللوكاندة ومكتب موتيس وصالة التحرير بالصحيفة وصالات السينما بالمدينة استطاع جارثيا ماركيز أن يقضى ثمانية عشر شهرًا عمل خلالها كاتبًا للمقال الافتتاحى ، ومعلقًا سينمائيًا ومحققًا صاحب نجومية فى هذه الصحيفة المسائية فى بوجوتا.

وكانت صحيفة الاسبكتادور" المشاهد" تطبع فى ذلك الحين خمسة وسبعين ألف نسخة فى الطبعة الواحدة ، وكانت الجريدة الثانية بعد صحيفة " الزمن" ، كما كانت أقدم صحيفة بالمدينة: فقد تم تأسيسها فى ميداين فى أواخر القرن التاسع عشر بواسطة أسرة كانو. وكانت مثل منافستها تحكمها المبادئ الليبرالية الديموقراطية ، ولكنها كانت تختلف فى أنها احتفظت بهامش نسبى من الاستقلالية إزاء حكومة الأقلية العلمانية ، فى الوقت الذى كانت تبحث فيه جاهدة لضم الشبان الجُدد المبدعين فى مجالى الصحافة والأدب. وكان معظم محرريها والمتعاونين معها من المفكرين والكتاب التقدميين أو اليساريين المتخفيين تقريبًا. وقد استفاد كاتب أراكاتاكا الشاب من هذين الظرفين الحاسمين ، حيث كان يتمتع بحرية التعبير فى الصحيفة. أما قريحته ونبوغه فقد تكفلا بالباقى: اكتساب مزيد من المساندة والثقة يوميًا من جانب رؤسائه وزملائه.

وكما كان يحدث له دائمًا لكى يصل إلى ما وصل إليه كاتبًا شهيرًا مرموقًا ، فإن جارثيا ماركيز لم تسبقه الطبول الخاصة عندما انضم إلى صحيفة الاسبكتادور

" المشاهد". فعلى الرغم من الشهرة التى منحتها إيَّاه رواياته المنشورة فى الصحيفة على مدى سبع سنوات فى البداية لم يكن رجلاً مرئيًا بين محرريها ، ويتذكر خوسيه سالجار رئيسه فى تحرير الصحيفة أن علاقته معه لم تتعد مثيلاتها مع جيرمو كانو وإدواردو ثلاميا بوردا (أوليس) ومواطنه جونثالو جونثاليث (جوج). ومع ذلك رويداً رويداً فرض الصحفى الخجول شخصيته الساخرة وأسلوبه فى الصحيفة ، وخارجها حتى أصبح محققها اللامع والنجم الساطع. وكانت علاقاته الإنسانية والمهنية مع رؤسائه دائمًا على درجة كاملة وممتازة. فقد كان جيرمو كانو مديراً خجولاً بسيطًا ومُلزمًا فى نفس الوقت ، حيث أمده بكل أنواع المساندة (وإن لم تكن كافية دائمًا على الصعيد المالى) إلى صديقه ومحرر الطابق. كان خوسيه سالجار رئيس التحرير - الذى لا يكل ولا يمل - يعمل يداً بيد مع جارثيا ماركيز طوال أربع وعشرين ساعة تقريبًا ، وكان سالجار خبيرًا محنكًا فى الصحافة ، لكنه لم يكن يُولى أى اهتمام للجانب الأدبى أو المغامر ، وذات يوم تجرأ وأوصى جارثيا ماركيز بالتخلى عن النزعة الأدبية، وأن يلوى رقبة طائر الأدب من أجل الصحافة(٤) ناسيًا أن قريحته الأدبية هى بالتحديد التى كانت تعضد إلى درجة كبيرة إنتاجه الصحفى. وكان ذلك واضحاً - على العكس من هذا- دائمًا مع رئيسه الآخر وأستاذه إدواردو ثلاميا بوردا نائب المدير ، وهو رجل نظراً لقريحته وقدرته الفائقة على العمل وإلهامه الخاص ككاتب وصحفى ، فضلاً عن ثقافته الواسعة كان كيانًا جديرًا بالتوقير والتبجيل بالصحيفة ، وليس ذلك فقط بسبب التقارب الأدبى ؛ بل أيضًا بسبب التشابه الجسدى مع جيمس جويس . كان ثلاميا بوردا ينشر على مدى سنوات طويلة عموداً باسم مستعار " أوليس " تطرق فيه إلى كافة الموضوعات الثقافية والأدبية. وكان هذا العمود طبقًا شهيًا لذيذًا يتذوقه يوميًا قرَّاؤه بصحيفة الاسبكتادور" المشاهد" وخاصة الكتاب الشبان. وكما رأينا ؛ فقد كان بالنسبة لجارثيا ماركيز أكثر من هذا بكثير ، فقد كانت قراءته أحد الدوافع التى حفَّزته على كتابة أول قصة له " الاستسلام الثالث". وكان فى نفس العمود " المدينة والعالم" حيث أعلن ثلاميا بوردا بعد ثلاثة أيام من نشر القصة الثانية لجارثيا ماركيز: إنه مع جارثيا ماركيز وُلِدَ شىء أشبه بالعبقرية المستقبلية للأدب الكولومبى.

وعندما جاء جارثيا ماركيز إلى صحيفة الاسبكتادور" المشاهد" كان ثلاميا بوردا يتمتع بالشهرة بوصفه مؤلف رواية "أربع سنوات على عاتقى" ، وهى القصة الشعرية

التى استقاها من أحشاء مدينة لاجواخيرا. كان ذلك خلال حقبة الثلاثينيات التى شهدت أعمال البحث والتحرى فى الإقليم الذى عاش فيه جداً جارثيا ماركيز وهى الفترة التى حاول فيها إدواردو ثلاميا أن ينتحر بتصويب رصاصة فى مقهى روما بمدينة بارّانكيا .

ولحُسن الحظ فإنّ روايته الوحيدة سمحت له بتصفية حساباته مع ماضٍ عاصفٍ ، ومنحته الحكمة والمعرفة والعادات والتقاليد لأستاذ مخضرم ومحنك. وهذا ما كان يعرفه جارثيا ماركيز وحده عندما اتصل به هذا المكتشف الذى كان بمثابة والده الأدبى، ولكنهما كانا قبل كل شىء صديقين وزميلين فى نفس المركب. وعلى الرغم من أنهما كانا صديقين فى بارّانكيا عندما كان جارثيا ماركيز يتعاون مع صحيفة الهيرالد حيث كانا قد تعارفا فى أواخر حقبة الأربعينيات فى بوجوتا بواسطة جونثالو جونثاليث (جوج) مواطن جارثيا ماركيز وقريبه من بعيد. وفى هذه الفترة الجامعية جاء جارثيا ماركيز مع صديق له لكى يقدم أول قصصه ، ولكن خجله كان مريعًا ، ولم يجرؤ على الصعود إلى الصحيفة ، وأرسل صديقه بالقصة ، وظل ينتظر على ناصية شارع خيمينيث دى كيسادا عند التقائه بشارع ٧ ، عندما نزل (جوج) ليدعوه للصعود لكى يقدمه لثلاميا بوردا ، فوجده فتىً حزينًا نحيفًا شاحبًا على وشك أن يذوب فى ضوء النهار واقفًا على الناصية بشارع خيمينيث دى كيسادا ينتظر على استحياء ما ستسفر عنه الأحداث(٥).

ومنذ ذلك الحين وثلاميا بوردا وجونثالو جونثاليث أصبحا الراعيين والرفيقين لجارثيا ماركيز فى الصحيفة ، وقد كانت تربطه بالثانى منهما قرابة بعيدة ، ورائحة الجوافة مثل القصاص تمامًا. وُلِدَ جوج فى أراكاتاكا ، وقد تعلم فى بارّانكيا ، وكان عضواً متعاونًا فى مجلة" النبأ" ، وكان مدافعًا عن حقوق السُّجناء السياسيين ، وانتهى به الأمر إلى أن يكون صحفيًا بارزًا بجريدة الاسبكتادور" المشاهد". ولكنه خلافًا لما كان عليه مواطنه جارثيا ماركيز كان جونثالو جونثاليث(جوج) عداءً وطنيًا وبطلاً فى الشطرنج ، وأنهى دراسته فى كلية الحقوق ، وأصبح أستاذًا للصحافة. ومثلما فعل جارثيا ماركيز فى صحيفة الأونيفرسال (العالمى) مع الشاعر والرّسام هيكتور روخاس إيراثو سيكرر ذلك مع جونثالو جونثاليث بتبادل الرأى فى المقالات ، حتى بلغ به الأمر

إلى اختراع اسم مستعار لكى يقوم جوج فى عموده " أسئلة وأجوبة" بالرد على مخاوفه المتنوعة عن المؤلفين والكتب(٦).

وهكذا ؛ فإن الجو العام فى ذلك الحين داخل الصحيفة المسائية فى بوجوتا قد ساعد على تعميق الصداقة والمشاركة ورقى الذوق المهنى الذى وجده فى صحيفة الأونيفرسال " العالمى" وفى الهيرالد. وبمرور الوقت انتشرت الأسطورة بأن جارثيا ماركيز عاش فعلاً فى صحيفة الاسبكتادور" المشاهد" طيلة الثمانية عشر شهراً التى عمل فيها بالصحيفة. ومع ذلك فقد ظل على علاقة مكثفة مع أصدقائه ، ومع الأدب خارج الصحيفة . ويذكر خوسيه سالجار أن جارثيا ماركيز كان يصل أحياناً إلى الصحيفة فى الصباح وتحت عينيه سواد وشحوب بالوجه كالساهرين طوال الليل ، وذلك لأنه كان يقضى معظم الليل فى بوجوتا فى كتابة القصص ، وقراءة الكتب التى يشتهيها أو فى بعض الليالى الحمراء التى كان يقيمها من حين لآخر مع أصدقائه الساحليين من أصدقائه القُدامى فى بوجوتا.

وعلى الرغم من أنه استرجع فى هذا الوقت بعض أصدقاء السنوات الجامعية قبل أحداث بوجوتا الخطيرة ؛ مثل جونثالو مايارينو ولويس بيار بوردا ، كما صادق الكثيرين من الوسط الصحفى والأدبى ، وتكثفت لقاءاته مع ألبارو موتيس ونانسى ولويس بيثنس أحد مؤسسى نادى السينما فى كولومبيا ؛ فكل هذا كان بمثابة ضرورة يومية مُلحة لجارثيا ماركيز ، وخاصة لقاءاته مع موتيس ، لأن تلك اللقاءات كانت تعبر عن صداقة الجوار الخالد الممتد عما كان كلاهما له مدافعًا ونصيرًا وخاصة أمور الحياة ، وهذا التتابع يومًا تلو الآخر فى بحر الحياة. وعلى الرغم من أن ذلك يبدو غريبًا فإن صداقة موتيس بجارثيا ماركيز ينبغى أن تكون صداقة أكثر تدفقًا على الصعيد الشخصى منها على الصعيد الأدبى ، ولكن على أية حالٍ كان موتيس بين كل حديث وآخر ، وكل كأس وكأس أخرى ، وبين كل حفلة وحفلة يُجلس صديقه فى مملكة الموسيقى الكلاسيكية ، ومع صفحات ديكنز وكونراد الخصبة بادئًا بذلك أستاذية سريةً تقريبًا كان يمارسها شاعر كويو على قصاص أراكاتاكا. وبعض الأمور المشتركة فى الحياة جعلتهما يتعديان حدود الصداقة والشراكة الشخصية. وكان من بين الأمور المشتركة الخالدة وفاة المليونير الأمريكى بيدفورد فى بارًانكيا فى العام السابق.

وكان بيدفورد عبارة عن نسخة طبق الأصل من جسد هيمنجواى ، قد وصل فى ذلك اليوم قادماً من نيويورك على متن طائرته الخاصة كمندوب لشركة ستاندرد أويل ، وقد عُهِدَ إلى ألبارو موتيس شاعر الأقليات ومسئول العلاقات العامة فى شركة إسُّو النفطية بأن ينظم حفل استقبال له على أعلى مستوى ، ولكى يضفى مزيداً من الديكور على الحفل دعا موتيس الصحفيين وبعض أعضاء جماعة بارًانكيا مثل جارثيا ماركيز وفوينمايور وخيرمان بارجاس، ولكن الموت لم يمهل المليونير الأمريكى الرائع حيث وافته المنية إثر سكتة قلبية تركته بلا حِراك وسط غانطه وبرازه ، فى إحدى غُرف فندق برادو. حينئذٍ تلقَّى ألبارو موتيس التعليمات من رئيسه بضرورة إخراج المتوفى من الفندق فى أسرع وقت ممكن ، وإعادته إلى نيويورك فى الليلة نفسها. وبما أن الإجراءات البيروقراطية جعلت من المستحيل تنفيذ ذلك ، فقد اتصل موتيس بجارثيا ماركيز وفوينمايور لمساعدته فى هذه المهمة الشاقة، وذلك بالحصول على إعفاء من المحاضر وتصريحات رفع الجثة وإعادتها إلى وطنها(٧). لقد كانت تجربة مهمة غيرت جارثيا ماركيز تماماً. ومن ذلك الحين أدرك جارثيا ماركيز وموتيس أنهما سيظلان مرتبطين بشراكة تتعدى كثيراً حدود الصداقة: إنها شراكة المعدن الأدبى المشترك. وبالفعل ، وكما يعترف بذلك موتيس نفسه ؛ إنَّ هذا الموت المحدد لرجل فى غاية الثراء ، وذى سلطات فى ظروف شبه مجهولة ، وفاحشة نبهت الكاتبين كل واحد منهما على حِدة إلى أن موضوع الموت ظاهرةٌ جديرة بالاكتشاف بكل فحشه وبكل بهائه وجلاله.

ولذلك فإن أعمالهما المختلفة تماماً سيهيمن عليها قاسمٌ مشترك ، وفكرة أساسية متسلطة: الوصول إلى الجذور ، وإلى أعماق الذاكرة ، وربما لذلك استطاع كلاهما الحفاظ طيلة حياتهما على إطار صداقة تجنح قليلاً صوب ما هو أدبى. والحقيقة أن هذه الصداقة القوية الراسخة مع موتيس تشبه تلك التى ربطته مع الشقيقين بيثنس وإيرناندو موتيس (الذى كان يقضى معهما أيام الآحاد كاملة ينشد أشعار المجون والخلاعة) . لقد كان ذلك ملاذاً مريحاً لا غنى عنه لجارثيا ماركيز أثناء الثمانية عشر شهراً التى عمل فيها بصحيفة الاسبكتادور" المشاهد" ، وليس ذلك فقط لأن بوجوتا ظلت هى المدينة الغزيرة الأمطار الحزينة والملبدة بالغيوم التى توغلت داخل عظام جارثيا

ماركيز كمرض مزمن ؛ بل أيضًا لأنها المدينة التى كانت تعانى من سرطان العنف وويلات الدكتاتورية العسكرية.فمدينة بوجوتا الأنديزية المجيدة فى منتصف الأربعينيات ، حيث الترام البطئ ، والأمسيات الرمادية بفعل الدخان المتطاير هى المدينة التى انفجر الكاتب فيها باكيًا من جرَّاء الحزن وهو لا يزال فى السادسة عشرة من عمره ، كانت فى ذلك الوقت موضوعًا من الماضى إذ بدأ يتضاعف عدد سكانها لأن الأحداث التى وقعت بها وأعمال العُنف الممتدة جلبت إليها هجرة جماعية غير منظمة أدت إلى القضاء على عاداتها بوصفها قرية قشتالية كبيرة من العهد الاستيطانى ، وبدأت تحولها إلى حاضرة مشتتة. ومتناقضة من حواضر المستقبل. وعلى الرغم من أنه سينفى ذلك بعد بضع سنوات ، فإن جارثيا ماركيز عاد يرتاد أماكنها الشهيرة ومقاهيها التقليدية مثل الأوتوماتيكو وأستورياس ، ولكن بدون الرغبة الحية والأدبية مثلما كان فى سنواته الجامعية البوهيمية ؛ بل كان ذلك لضرورة مهنية ، كما كان يفعل أيضًا مع صالات السينما بالمدينة. أما ساعاته الخصبة والهادئة ، فكان يقضيها فى لوكاندته وفى مكتب موتيس أو فى صالة تحرير جريدة الاسبكتادور" المشاهد" ، بينما اقتصرت لحظات الترفيه والتسلية على أواخر الأسبوع مع خوسيه سالجار وإدواردو ثلاميا بوردا ، عندما كانوا يستقلون السيارة ويذهبون إلى الشمال لكى يتناولوا الجعة ، ويتشبعون من الخضرة والسكينة بمنطقة السافانا إحدى أجمل الأماكن الهادئة على كوكب الأرض ، لدرجة أن محادثة وحزن الهنود الحمر كانا يبدوان كأنهما نمطان من أنماط الصمت والسكون. وعلى الرغم من ذلك فإن الأصدقاء الثلاثة لم يتخلوا عن مهنتهم تمامًا ؛ فقد كانوا يستمعون إلى مذياع السيارة تحسبًا لحدوث نبأٍ يضطرهم للعودة توًا إلى صالة التحرير بالصحيفة.

وعندما وصل إلى تلك الصالة أصبح صحفيًا ناضجًا ، وأحد أفضل المحققين الصحفيين من الناحية اللغوية. وكانت كولومبيا ترزح منذ ثمانية أشهر تحت طغيان الجنرال جوستافو روخاس بينيا ، ولهذا يمكن القول بأن جارثيا ماركيز بدأ العمل صحفيًا فى أواخر الأربعينيات عندما كان العنف سائدًا ومهيمنًا ، ولذلك فإن نضجه الصحفى سيتحقق عند تشريح هذا العنف فى ظل حكم الطاغية روخاس بينيا ، مما سيكون له نتائج نهائية حاسمة فى إنتاج الكاتب.

لقد وصل روخاس بينيا إلى الحكم فى ١٣ يونيه ١٩٥٣ بتشجيع القطاعات الرئيسية للأقلية الليبرالية المحافظة المعروفة ، وإن كان قد أعرب عن رفضه لحل عسكرى للوضع الخطير والمتأزم الذى كانت تعانى منه البلاد قُبيل توليه السُلطة بأسبوع واحد (مما يبرهن على أن الانقلاب كان مغامرة من جانب الأقلية السياسية أكثر من كونه من جانب الجيش) ومع ذلك فقد ظل الجنرال فى السلطة أربع سنوات تقريبًا.

وبعد مضى خمس سنوات على اغتيال الزعيم الليبرالى ذى الهيبة الشعبية خورخى إليسيرجايتان عمَّ العنف واستفحل فى جميع أنحاء البلاد ، حتى أصبح أحد العوامل الحاسمة ، بل القِوام النيابى الذى طبقته الحكومات المحافظة لماريانو أوسبينا بيريث ولاوريانو جوميث وخاصة حكومة الأخير منهما ، استمر فى ثياب مدنية ، ولكنه مارس حكمًا استبداديًا ربما أكثر وحشيةً من طغيان روخاس بينيا. وتشير الإحصائيات إلى أن أكثر من ثلاثمائة ألف قتيل على مدى خمسة عشر عامًا من فترة العنف نصفهم تقريبًا قتلوا خلال الخمس سنوات من ١٩٤٨ - ١٩٥٣ التى تولى الحكم فيها أوسبينا بيريث ولا وريانو جوميث[8]. وكانت المشكلة تكمن فى كيفية وقف المحافظين المؤيدين للسلطة المطلقة للبابا، والذين كانو يغذُّون أعمال العُنف من خلال السلطة ، وإن كان هذا العنف قد تأصل بشكل تقليدى. وقد دفعت هذه الظروف الأقلية الليبرالية والقطاعات الأكثر اعتدالاً من المحافظين إلى التوصل لاتفاق للإطاحة بالطاغية لاوريانو جوميث ، ووقف الخطر الثورى الذى تزعمته العصابات الأولى من المحاربين المناهضين للحكم. وكانت الإجابة هى اختراع طاغية لكى يصل إلى عرش بوليفار ، وليكون بمثابة المنقذ الذى يقوم بالتوفيق والمصالحة بين جميع الكولومبيين فى تلك الساعة المشئومة ، ولكى يمارس طغيانًا حميدًا فى المرحلة الانتقالية.

ولكن روخاس بينيا ارتكب خطأً كبيرًا ضد الوطن: لقد أخذ دور طاغية الأورا مأخذ الجد ذلك الدور الذى عُهد إليه به ، ولكنه اختلس السلطة من رؤسائه على مدى أربعة أعوام تقريبًا ، وقد كان هذا التعسُف الأكبر الذى لم تسمح به الأقلية السياسية الحاكمة فى كولومبيا. ولذلك فإن الطاغية الذى جاء إلى الحكم بتأييد من الجميع قد قام جميع أفراد السلطة بعزله. وقد أحاطت به سيرة ذاتية وفترة حكم شملت قطاعات لا حصر لها ، مما جعلته العدو الأول للكولومبيين ، حيث كان العدو الأول للديموقراطيين عن

جدارة واستحقاق ذاتيين. ولذلك تمكنوا من عزله فى ١٠ مايو١٩٥٧ من خلال إضراب مدنى وطنى ، ولكن سخريات العمل السياسى شجعت وأدت بالزعيم الليبرالى ألبرتو ييراس كامارجو المؤيد للسيادة المطلقة للبابا والمحافظ لاوريانو جوميث ؛ أدت إلى وصولهما إلى الحكم على الرغم من كونهما عدوين لدودين حتى عهد قريب. وقد اتفق الجانبان على المؤامرة ضد الطغيان قُبيل ذلك ببضعة أشهر فى سيتخيس ، ولكن من المفارقات أيضًا أن هذا الاتفاق كان مناهضًا للديموقراطية ، لأنه أفرز ميلاد الجبهة الوطنية. بهذا الاتفاق الكبير المنافى للشرعية والأخلاق لحكم الأقلية ثنائية الحزب كان الهدف فى المقام الأول هو استرداد وتوزيع السلطة بالتناوب ، والإنصاف بين الحزبين الليبرالى والمحافظ طوال ستة عشر عامًا بأفراحها وأتراحها.

وبعد المساعى الأولى صوب وقف النزيف الوطنى الناجم عن تفشى العنف ، كشَّر جوستافو روخاس بينيا عن أنيابه – كما كان متوقعًا – وأشهر سونكى البندقية والرصاص لحل المشاكل. واستنادًا لجارثيا ماركيز الذى اعتبره بمثابة أخف الضررين إزاء الطغيان الوحشى للاوريانو جوميث ؛ فإن البطولتين الخالدتين لروخاس بينيا تلخصتا فى مذبحة الطلاب فى قلب العاصمة ، عندما فضَّ الجيش مظاهرة سلمية بالرصاص ، واغتيال عدد لا حصر له من محبى مصارعة الثيران أيام الأحد على أيدى الشرطة السرِّية[٩] ، عندما احتجوا بالصفير على نجلته فى حلبة مصارعة الثيران. وقد شهد جارثيا ماركيز شخصيًا – بمحض الصدفة – مذبحة الطلاب فى ٩ يونيه ١٩٥٤ فى شارع خيمينيث دى كيسادا عند عودته من زيارة خوليو ثيسار بيجاس بالسجن ، وذلك الوزير البيروانى السابق الذى عمل معه الكاتب فى العام السابق بائعًا للكتب بالأجل [١٠]. وقد كانت المذبحة بمثابة انقلاب أو تحول ، ليس فقط فى تاريخ البلاد بل أيضًا فى الوعى السياسى والأدبى للكاتب لأنه فى إطار هذه الديكتاتورية ، وفى عمق هذا العنف الذى وُلِدَت فيه قرر جارثيا ماركيز تجربة الانحياز نهائيًا لليسار. وبهذا الشكل عكس ذلك فى معظم إنتاجه الصحفى ، وكذلك فى أعماله مثل " الساعة المشئومة" و " العقيد لا يجد منْ يُراسله" و "جنازة الأم العظيمة " ، واعتبارًا من هذه الأعمال ستتسع السلطة والعُنف.

إن الفكر الاشتراكى المناهض للرأسمالية لجارثيا ماركيز ، والمتأصل بلاشك فى شخصية جده ازداد قوةً فى المرحلة الثانوية فى ثيباكيرا فى ظل مدرس التاريخ ، وقد

ظل ينضج سراً وتدريجيًا فى قرطاجنة و بارَّانكيا ، لذلك لم ينتبه إلا نفرٌ قليلٌ من أصدقائه أنه كان يسدد حصته تضامنًا مع الحزب الشيوعى الكولومبى ، عندما كان يعمل فى صحيفة الهيرالد ، وبالسرية نفسها استمر ذلك فى بوجوتا مع بعض زملائه فى الاسبكتادور" المشاهد"(١١).

وقد حدث خلال تلك الفترة مزيد من التقارب بين الكاتب والحزب الشيوعى ، الذى كان لا يزال فى حيزٍ السرية آنذاك حتى أنه انضم إلى إحدى خلاياه ، ولكن عضويته كانت خاطفة وانحسرت فى المناقشات السياسية والأيدولوجية مع بعض زعماء الحزب. وعندما علم بذلك الأمين العام للحزب خيلبرتو بييرا أرسل يستدعيه من منزله ، وقال إنه لا مغزى أن يكون عضواً بإحدى خلايا الحزب إذا لم ينضم إلى عضويته ، وإنه سيتفاهم معه مباشرة ، وسيقدم له كل المعلومات اللازمة لعمله الصحفى(١٢). لقد كان مسلك بييرا فى الواقع وسيلة لكسب تأييد وتعاطف الكاتب الذى كان يتزايد ثقله يوماً بعد يوم. ولقد كان الشيوعيون يعُون الأهمية المتزايدة لهذا النجم الصحفى اللامع لجريدة الاسبكتادور" المشاهد" ، وعندما رأوا قامته الأدبية التى تزايدت شموخًا بعد صدور قصة " الورقة الساقطة" عام ١٩٥٥ ، حتى أنهم أزعجوا أنفسهم وأرسلوا له بإيعاز عقائدى يضر بالأدب ، وهو أن الجو الأسطورى والأسلوب الغنائى لقصته لم يكونا الملائمين للتوغل داخل الواقع الحالى فى كولومبيا(١٣). هذا الإيعاز سينعكس فى حصيلة الكتب التالية لجارثيا ماركيز مما سيزج به فى غموض نسبى حتى يسترد فى " مائة عام من العزلة " حريته الإبداعية الشاملة.

ومع ذلك لم يترك جارثيا ماركيز الشك فى أن التزامه مع الواقع ككاتب لا يمكن أن يكون التزامًا عقائديًا واستثنائيًا ؛ بل كان على العكس من ذلك ؛ حيث ينبغى أن يكون التزامًا مفتوحًا وشاملاً للواقع بأسره. وخير دليل على ذلك ستكون قصصه ورواياته ، وكذلك إنتاجه الصحفى الهائل الذى نضج تماماً خلال هذه الفترة فى بوجوتا ، منذ تلك اللحظة التى بدأ فيها التعاون بشكل مجهول فى فبراير عام ١٩٥٤ فى الافتتاحية تحت عنوان " يومٌ بيوم" ، لكى ينتقل فيما بعد إلى التعليق السينمائى لينتهى به الحال كصحفى من الطراز الأول.

وكانت افتتاحية " يومٌ بيوم" مثل جوهرة التاج في الصحيفة ، ففيها كان يكتب المدير جيرمو كانو ، ونائب المدير إدواردو ثلاميا بوردا ورئيس التحرير خوسيه سالجار ، وجونثالو جونثاليث(جوج). وبما أن جارثيا ماركيز دخل الصحيفة وشارك في الكتابة بهذا القسم ، فإن ذلك يُعد خير دليل على التقدير والحفاوة التي قُوبل بهما التلميذ الجديد من جانب مديريه ورؤسائه. وبالفعل فعندما نشر مقاله الرابع" الملكة وحدها" قال له أوليس: بهذا المقال يمكنه المشاركة في هذا الباب بجدارة(١٤). وقد أثبت المقال أيضًا أن صحافة التعليق ستظل كما كانت في صحيفتي"الأونيفرسال" "والهيرالد" معملاً لتحديد موضوعاته الأدبية: الحب والموت ، الوحدة والحنين والاشتياق والسلطة وعزلة السلطة والزمن الأصلي ومرور وجمود الزمن والعالم كقرية شاملة والأسفار الطويلة ، وفي وسط كل هذا الأهمية الحاسمة لسرد أدق تفاصيل الحياة اليومية. ولذلك فعلى الرغم من انشغاله كمعلق سينمائي وكصحفي ، ليس فقط لأنه لم يترك صحافة التعليق ؛ بل كان يوفر الوقت دائمًا كلما طلب منه رؤساؤه القيام بذلك. ويذكر جارثيا ماركيز أنه في كل مرَّة كان يوجد فيها فراغ في قسم الافتتاحية ، كان جيرمو كانو وخوسيه سالجار يتوجهان إليه يطلبان منه إعداد مقال عن أي موضوع ، مشيرين عليه بالإبهام والسَّبابة المساحة التي سيكون عليها المقال(١٥) .

وبالتحديد كان ذلك انطلاقًا من بعض المقالات المتفرقة عن السينما نُشرت في باب " يومٌ بيوم" ، وعندما طلب منه رؤساؤه كتابة مقال أسبوعي عن الفن السابع" السينما" لكي يقوم بهذا الشكل بعمل موازٍ لباب السينما في بوجوتا. فعروض "الأسبوع الأول" كان بابا رائدًا في هذا النوع لكولومبيا. وعبر هذه النافذة المفتوحة قدَّم جارثيا ماركيز تعبيرًا عنيدًا في أكثر من كونه مهنيًا لولعه القديم بالسينما ، وهو ولع يرجع إلى الأيام السعيدة للطفولة إلى جانب جده العقيد نيقولاس ريكاردو ماركيز ميخيا الذي كان قد اصطحبه ممسكًا بيده في أراكاتاكا لمشاهدة أفلام توم ميكس وأفلام أخرى أقل سذاجة. ولذلك فإن اهتماماته بالسينما كانت قديمة مثل اهتماماته بالأدب والرسم والصحافة. وفي قرطاجنة و بارًانكيا كان دائمًا شغوفًا بالسينما ، وقد اكتسبت خبرة كبيرة كمشاهد جيد ، وقد وصل به الاعتقاد والاقتناع إلى جانب رفاقه في بارًانكيا وخاصة ألبارو ثيبيدا ساموديو إلى أن السينما وسيلة تعبير عجيبة مثل الأدب نفسه .

وقد أثَّر فيه ذلك كثيراً ليس فقط عودته من الولايات المتحدة الأمريكية ؛ بل أيضًا الصداقة الحديثة مع القطالونى لويس بيثينس والتأثير والانطباع الكبيرين اللذين تركهما فى نفسه " لص الدرَّاجات " لبيتوريد دى سيكا فى أكتوبر ١٩٥٠ . وقد كان لهذا الفيلم عظيم التأثير على الكاتب من جانب الواقعية للواقعية الإيطالية الجديدة ، وعلى وجه الخصوص فيما يتعلق بما هو " مهم إنسانيًا "[١٦] ، الذى سيكون أحد العناصر الجوهرية فى عالمه الروائى. ولذلك فعندما بدأ تعليقاته الأسبوعية عن السينما فى ٢٧ فبراير ١٩٥٤ لم يكن جارثيا ماركيز مشاهداً جيداً ذا خبرة كبيرة فقط ؛ بل كان أيضًا ذا تأثير بالغ ومُلمًا بالمعلومات الجمالية والفلسفية للفن السابع " السينما". ومع ذلك لم يتعد عمله فى هذا المجال التعليق الفنى والعبقرى فى النقد السينمائى نظراً لنقص خبرته وعدم درايته بالجوانب التقنية ، وقد حالفه التوفيق فى فهم المواقف والتفاصيل القريبة من اهتماماته وتحرياته الأدبية.

ومن الأشهر الثمانية عشر التى عمل خلالها جارثيا ماركيز معلقًا أسبوعيًا يرجع له الفضل الإضافى ليس فقط لكونه أحد رواد النقد السينمائى فى كولومبيا ؛ بل أيضًا لكونه أحد المشجعين الراسخين لتأسيس سينما وطنية. لذلك ذهب إلى مركز السينما التجريبى فى روما ، لكى يصبح فيما بعد كاتب سيناريست سينمائى فى منتصف الستينيات فى المكسيك ، وينتهى به الأمر بإنشائه وإدارته لمؤسسة السينما الأمريكية اللاتينية الجديدة ومقرها هافانا بعد ذلك بعشرين عامًا.

ولكن لكى يصل إلى روما كان لا يزال تنقصه النصوص العظيمة لمرحلته الأولى كصحفى. وليس ثمة شك فى أنه لكى يُقْدِم على هذه الخُطوة الحاسمة فى مسيرته الصحفية والأدبية كان ينبغى على مديرى الاسبكتادور" المشاهد" أن يأخذوا فى الحُسبان تفننه فى المهنة الذى أثبته خلال الشهور الأولى ؛ بل أيضًا للجائزة الوطنية الرنَّانة للرواية التى منحها إيَّاه اتحاد الكتاب والفنانين فى كولومبيا فى شهر يوليه عن قصة " ذات يوم بعد السبت".

وبعد خمسة أعوام من البيات الشتوى لإعداد روايته " الورقة الساقطة" ، وصدمته الكبيرة بسبب رفض دار النشر طباعتها ، كانت هذه الجائزة بمثابة أكبر تكريم واعتراف

حصل عليه جارثيا ماركيز ككاتب . تلك الجائزة التي سينتقص من قدرها وشأنها بعد ذلك بسنوات طويلة عندما تذكّر إنه تقدم للمسابقة - في الواقع - لأن أمين اتحاد الكتاب والفنانين كان صديقًا له ، وطلب منه التقدم للمسابقة حيث إن مستوى المتقدمين كان هابطًا للغاية ؛ لذلك قرر جارثيا ماركيز المشاركة ، وأعطاه الرواية التي لم تكن قد اكتملت بعد حتى ذلك الحين[١٧]. ولكن الشاعر كارلوس مارتين الذي كان مُدَرِّسه للأدب في مدرسة الليسيه الوطنية في ثيباكيرا يذكر أنه وإيرناندو تييث كعضوين بلجنة تحكيم الجائزة اضطرا إلى بذل أقصى مساعيهما - إزاء اختلاف الآراء والأهواء - لدى لجنة التحكيم لكي تمنح الجائزة لقصة جارثيا ماركيز " ذات يوم بعد السبت". هذه القصة التي كتبها قبل ذلك ببضعة أشهر في أوقات فراغه من العمل الصحفي تؤكد أن جارثيا ماركيز عندما انضم إلى الاسبكتادور" المشاهد" كان كاتبًا ناضجًا بما فيه الكفاية ، حيث برز لديه الحس الروائي والمعرفة الأسلوبية لأفضل أعماله. وقد دارت أحداث القصة في ماكوندو مثل " الورقة الساقطة" ، و " قيلولة الثلاثاء" ، و " جنازة الأم الكبيرة " و" مائة عام من العزلة". إنه النص الماكوندي الثاني المنشور الذي يبرز القرية الأسطورية في مرحلتها النهائية غارقة في الفقر والعزلة. إنها ماكوندو التي شهدت - كما هو واضحُ - صنوف الأوبئة والكوارث الاجتماعية والطبيعية .

أوبئة وكوارث : هذه المصطلحات بدءًا من الوباء الأعظم ، وهو العزلة سيتم سردها في الإنتاج الصحفي والأدبي لجارثيا ماركيز.

وفي حكايات الجدّ ، وفي روايات التراث الساحلية والمُتَعَلِّقة بأراكاتاكا وكامي ، وفي صفحات التاريخ الوطني كان جارثيا ماركيز يرى - بمساعدة الإنجيل وسوفكليس وديفوي كامي - أن قريته ووطنه أصابتهما كل أنواع الكوارث وصنُوف الأوبئة مثل الحروب والعنف الوحشي المُقَنع ونهب الثروات الطبيعية والتهميش الاجتماعي والاقتصادي والفيضانات والجراد والتدخلات السياسية والتقليد والانفصام الثقافيين. والآن وهو في السابعة والعشرين من عمره ، وعلى أعتاب النضج كان جارثيا ماركيز يعايش هذا كله ويعاني منه: وعادت البلاد من جديد تعاني من كارثة عامة ، هي العنف ، وكأنها التعبير المباشر للشكل الخاص لممارسة السياسة في كولومبيا: ليس كأسلوب للتعايش وقيادة البلاد ، بل كوباء يومي ودائم كما كان في العصور الوسطى.

وتظهر فى "الورقة الساقطة" أولى المدلولات السياسية عن العزلة ، فقد تناولت القصة هـذه الأوتـار الحساسة والعميقة للمجتمع الكولومبى ، وبعد ذلك على وجه السرعة فى " الساعة المشئومة " ، " والعقيد لا يجد منْ يُراسله" فقد تطرق إليها جارثيا ماركيز بصورة فورية ومباشرة. إنَّ معظم تحقيقات ذلك العام قُبيل سفره إلى أوروبا ستواصل نفس السلوك السياسى والفكرى فى إطار إعداد جمالى قيم.

بالصدفة ؛ وطبقًا لقراءاته وموضوعاته المفضلة ، فإن أول تحقيق لجارثيا ماركيز كمبعوث خاص لصحيفة الاسبكتادور" المشاهد" صبَّ فيه الكاتب كل تركيزه على كارثة طبيعية (وأيضًا) اجتماعية: الانهيار المأساوى لميديالونا (الهلال) ، وهو اسم حى فى مدينة ميدايين. وكان الكاتب قد أغرى بالسفر إلى هايتى مدعوًا من صديقه ألبارو موتيس ، وعندما وصل إلى ميدايين كان على وشك العدول عن ذلك والعودة إلى بارَّانكيا(١٨) .

وعلى الرغم من أنه لم يكن مـسـتـجـداً فى هذا النوع (فـقـد سـبق له أنْ كـتب السلسلة الهائلة من ماركيزة لا سيربى ، والرياضى الأنيق ملبسًا ، وتعليقات أخرى ريفية عن أسفاره من قرى ومدن الساحل) ، فـقد كان هذا التـحقيق أول تحقيق له كمبعوث خاص للصحيفة ، ومثل هذه المسئولية جعلته يشعر بخوفٍ مرعب سيتذكره بعد ذلك بسنوات طويلة بأنه شبيه بالخوف من الأشباح الذى عانى منه وهو طفل فى منزل أراكاتاكا(١٩). ولذلك فـعندمـا وصل إلى فندق مـيدايين فكر فى التـخلى عن ذلك والعودة إلى بارَّانكيا. وعندما رأى أن السمـاء تمطر سـعـد أيما سـعـادة ، لأن المطر سيمنعه من مواجهة الأحداث ، وسيتركه جامداً غير قادر على الحراك كما لو كان فى كرسى مخاوفه من الأشباح. ولكن عندما كفَّ المطرُ عن النزول لم يكن لديه ما يتعلل به مـن أعـذار للتخلى عن مهمته. حينئذٍ خرج واستقل سيارة أجرة متوجهًا إلى ميديالونا " الهلال". وقد علم وهو فى الطريق أنه بعد أسبوعين لم يعد هناك أحدٌ فى مكان الكارثة ؛ لذلك غيرَّ اتجاهه وذهب إلى استانثياس ؛ الحى الذى سقط فيه أكثر الضحايا من جرَّاء تلك الكارثة. وهناك وجد قدْرًا مـأسـاويًا من النوادر والقصص. وكـان أهم العناصر المأساوية والقصصية يكمن فى أن أغلبية الضحايا لم يكونوا من أهالى ميديالونا " الهلال ،" بل كانوا فقراء ساروا على أقدامهم عدة كيلومترات لكى يلقوا حتفهم ، والنبأ الصحفى يغلفه عبء سياسى لأنه اشتمل على شكوى ضمنية بسبب الإهمال

الإدارى الذى تركز فى أن الانهيار الأرضى كان قد بدأ منذ ستين عامًا مضت بسبب تجمع المياه الغزيرة دون تُرع أو قنوات لصرفها ، وأن معظم الضحايا لقوا حتفهم ليس بسبب الانهيارات المتتابعة والمتلاحقة ؛ بل بسبب التضامن الذى تجاوز كل الحدود بين الأهالى دون أدنى مساعدة حكومية.

وبعد المقابلات والتحريات التى لا حصر لها وجد جارثيا ماركيز مادة كبيرة وحصيلة من القصص والنوادر والشخصيات والمعلومات ، حينذاك تذكَّر التوصيات التى كان قد سمعها من صديقه ألبارو ثيبيدا ساموديو ، التى استخلصها من الصحافة الأمريكية بشأن كيفية ترتيب مادة كبيرة بهذا الحجم فى رواية منسقة وشفافة[٢٠]. وتذكر أيضًا كتابًا من أفضل الكتب المحببة إلى نفسه " يوميات عام الوباء" لدانييل ديفوى ، واستعان فى المقام الأول بخبرته الأخيرة كباحث خاص عن واقع القرى الساحلية.

إنَّ النجاح الصحفى والأدبى للتحقيق المعنون " مراجعة وإعادة ترميم كارثة أنطيوكيا" ، الذى نُشر على ثلاث مرَّات فى أوائل أغسطس من ذلك العام ، جعل من مؤلفه الشاب صحفيًا لامعًا بين يوم وليلة. وعقب هذا التحقيق الأول توالت تباعًا التحقيقات الكبيرة لجارثيا ماركيز خلال تلك الفترة مثل " مقاطعة تشوكو التى تجهلها كولومبيا" ، و" من كوريا إلى الواقع" ، و " البطل الثلاثى يكشف الأسرار" ، وأهم الأحداث رنينًا وأهمية ، ويكمن فى : "الحقيقة بشأن مغامرتى" ، وعن "الغريق لويس أليخاندرو بيلاسكو" .

إن التحقيق عن مقاطعة تشوكو كان بالنسبة لجارثيا ماركيز بمثابة العودة الحرفية إلى الجذور ، لأنه منذ نزوله من الطائرة وجد نفسه وسط عالم عاد به إلى الوراء ، إلى أراكاتاكا مسقط رأسه لأسباب كثيرة. وكما عايش فى تقريره الأول الخوف المرعب لفترة طفولته ، ولكنه فى ذلك كان قد توصل إلى اتفاق سرى للتعايش. فهو على خلاف فرانثيس ماكومبير ؛ الشخصية التى لا تُنسى لهيمنجواى نجد أن جارثيا ماركيز لم يحاول القيام بأية بطولة لكى يطرد الخوف من جسده ؛ بل تعايش معه وألِفَه ، وفى كل مرَّة كان يتزايد إدراكه لذلك حتى جعل منه – أى من الخوف – عدوًا محبوبًا كما تعيش اللؤلؤة داخل الصدَفة . مدركًا إلى جانب ذلك أن خوفه كان هو الخوف الوجودى لجميع الرجال فى الأوقات الحاسمة للحياة ، ولذلك فلا طائل منْ محاولة استئصاله.

إن أصل تحقيق مقاطعة تشوكو يرجع إلى قصة مُضحكة تُظهر إلى أى مدى فتن جارثيا ماركيز بالجانب المغامر لهذا النوع، وكيف أن التحقيق كان بالنسبة له – مثل القصة تمامًا – عملاً من أعمال الخيال والواقع.

وقد بدأ كل هذا عندما قررت حكومة الطاغية روخاس بينيا حل وتوزيع المقاطعة النائية المهملة والمنسية لزنوج المحيط الهادى بين المقاطعات المجاورة. وإزاء هذه النظرية، وإزاء سلبية أهالى مقاطعة تشوكو أنفسهم قام مراسل صحيفة الاسبكتادور فى كيبدو بإرسال برقية عاجلة إلى بوجوتا لافادتها بالمظاهرة التى عمّت المدينة ضد هذا القانون، أو المرسوم الجائر والتعسُّفى للحكومة المركزية. وبالبرقية الثانية أقنع مدير الصحيفة جارثيا ماركيز بالذهاب لتغطية ذلك الحدث على الصعيد الوطنى. وعندما هبط جارثيا ماركيز من الطائرة برفقة المصور، وبدأ يجوب ويطوف شوارع كيبدو وسط حرٍ لا يُحتمل – مثل أراكاتاكا تمامًا – لم يجد أدنى مؤشر لأية مظاهرة؛ بل وجد أهالى تشوكو هادئين كالعادة، وقد تغلبوا على نوم الساعة الثالثة بالاضطجاع فى شبكاتهم، أو بالجلوس على المقاعد المكسوة عند مدخل الشارع.

وعندما التقى فى النهاية مع بريمو جيريِّرو وَجَدَهُ المراسل جارثيا ماركيز مضطجعًا بلا اكتراث فى شبكته، وأخبره بأن ما يتعلق بالمظاهرة الدائمة اختراعُ من بنات أفكاره، والحقيقة أنه لم يحدث هناك أى شىء لأنه لم يحتج أحدُ على شىء. وقد قال له جارثيا ماركيز إنه احتاج ليومين كاملين لكى يأتى إلى كيبدو هو ومصوره، وليسا على استعداد على الإطلاق للعودة إلى بوجوتا بخفى حُنين، وبالتالى يتحتم الدعوة لمظاهرة دائمة لكى يستطيع إرسال التحقيق الذى ينتظرونه بالجريدة على أحرٍ من الجمر. حينئذٍ توجهوا إلى المحافظة وشرحوا الوضع للمحافظ حيث قام بالدعوة للمظاهرة الدائمة من خلال فرقة موسيقية مهيبة(٢١).

وبعد يومين خرجت صورة المظاهرة فى الاسبكتادور. وبعد بضعة أيام وصل صحفيون آخرون، وكذلك السياسيون من أهل المنطقة الذين أفسدتهم مركزية الحكومة فى بوجوتا. ويومًا تلو الآخر تحولت المظاهرة إلى نهر متزايد، فى الوقت الذى كان جارثيا ماركيز يتجول فيه بجغرافية مقاطعة تشوكو، ويتحرى أخبار اقتصادها وتاريخها وثقافتها لكى يستطيع نشر تحقيقه الصحفى على أربع مرات ذلك التحقيق

الذى يُعَد أحسن التحقيقات التى أعدها طوال مسيرته الصحفية: " تشوكو المقاطعة التى تجهلها كولومبيا"[٢٢]. وقد اعتمد فى ذلك على وثائق غزيرة ، كما كان معتاداً ، وبتضامن واضح استطاع أن يقدم مقاطعة تشوكو بأراضيها الخصبة والغنية ، ولكن أناسها فقراء معُدمون نسيتهم أيدى السلطة المركزية.

لقد كان التاريخ الوبائى المتناقض نفسه مثل أراكاتاكا تمامًا ، وبلدته الكاريبية بشكل عام. فثراء وخصوبة أراضيها دفعا أهاليها إلى الضياع: ففى أراكاتاكا ومنطقة زراعات الموز كان الهلاك والضياع بسبب زراعة الموز ، وفى تشوكو كان نتيجة استغلال الذهب والبلاتين. ولكن لم يكن التشابه فى الوضعين السياسى والاقتصادى فقط ؛ بل أيضًا فى الجغرافى على وجه الخصوص ، وفى الاجتماعى والثقافى. وعندما وجد نفس الخضرة ونفس الأشياء التى تُؤكل ، وعندما رأى نفس المنازل الخشبية ، والأسقف من الزنك الذى أصابه الصدأ ، وعندما رأى أهالى تشوكو يتغلبو ن على نعاس الساعة الثالثة ظهراً ، وهم يضطجعون غير مُبالين أو مكترثين فى شبكات استراحتهم ، أو يجلسون على مقاعدهم المكسوة عند مدخل الشارع. وعندما دخل المنازل ووجد نفس مضارب الذباب ونفس المراوح العتيقة ذات الأجنحة المتعامدة ، وخاصة عندما رأى فى عيون الأهالى عزة النفس والكرامة الرفيعة أدرك جارثيا ماركيز وكأن الوقت لا يمر ؛ بل يدور حول نفسه ، كأنه عاد من جديد إلى أراكاتاكا : نعم لقد عاد جزئيًا إلى الجذور ، وسوف يعضد هذا ويقوى مفهوم ماكوندو كاستعارة لا تُخطئ واقع الأجداد والواقع الدائم لكولومبيا.

وفى تحقيقه الكبير التالى " من كوريا إلى الواقع"[٢٣] ، كان الإحساس مماثلاً أو ربما أسوأ لأنه عاد ليلتقى بتاريخ جده وجميع قُدامى المحاربين الذين شهدوا آخر حرب أهلية كبيرة.

وبعد ثلاثة أعوام من قرار حكومة لاوريانو جوميث المحافظة بإرسال أربعة آلاف متطوع إلى حرب كوريا ، عاد كثير منهم بعد أن تحولوا إلى ألف كيلو جرام من الرماد ، وآخرون عادوا كمواطنين غير متوائمين ، مدموغين بصليب الرماد الذى خلفته الحرب والعُزلة. كما أن وعود المنح والمعاشات الدائمة كانت عبارة عن وعود إنشائية لتحفيزهم على خوض مغامرة لا جدوى منها. إن تحقيق جارثيا ماركيز أثبت أيضًا أنَّ

الذين ظلوا على قيد الحياة من حرب كوريا ظلوا يعانون من مأساتين: حيث إن معظمهم كانوا من الفلاحين الفقراء والريفيين الذين أُخرجوا من ديارهم وأرضهم وانتزعوا من حرفتهم طوال أسوأ سنوات العنف ، رأوا أنفسهم ، وقد زُجَّ بهم فى تلك الحرب التى لا ناقة لهم فيها ولا جمل ، فضلاً عن كونها فى بلد ناء وكأنها مخرج لمآسيهم اليومية. لقد كانت نفس مأساة العقيد نيقولاس ريكاردو ماركيز وقُدامى الحرب الآخرين حرب الألف يوم ، ولكنها تزيد ضعفين أو ثلاثة أضعاف من حيث الحجم. لقد امتلأت كولومبيا من جديد بالجنود والعُقداء الذين لم يراسلهم أحد.

إن التحقيق المسلى والمازح عن المثَّال رودريجو أريناس بيتانكور ، الذى ما لبث أن نجحت أعماله فى المكسيك ، كان بمثابة التقاط الأنفاس فى تحرياته الماكوندية الدؤوبة ، ولكن على الرغم من ذلك فإن الرسالة الضمنية ستكون نقدية : فلم يُقدم الواقع الوطنى مزيداً من الحوافز المشجعة للمفكرين والفنانين الذين اضطروا للهجرة من وطنهم. وفى ذلك الحين كان جارثيا ماركيز يراوده حلم السفر إلى أوروبا ، كما أن قصة أريناس بيتانكور أبرزت بعض أوجه الشبه مع حياته وتحريات الكاتب. ولذلك فإن التحقيق الصحفى فى هذا الشأن كان يُطرح بصورة جزئية كتحقيق ذاتى. إنه كأريناس بيتانكور رحالة بين المدن يعيش بالكاد ويأكل ما استطاع ، ولكن لم يفارقه إصراره وعناده المهنى لتحقيق مآربه ، كما سيحدث للكاتب بعد قليل فى باريس ، حيث كان يحظى بمساعدة أصدقائه فى أحلك الأوقات الحرجة ، وذلك بكتابة مقالات لصحيفة الكولومبى فى ميديين تحت اسم مستعار هو " برابPRAB" (لرودريجو أريناس بيتانكور). كان جارثيا ماركيز ، وسيظل صديقًا للفنانين والمفكرين والسياسين المهمين الذين تعلَّم منهم أو تعاون معهم وفقًا للظروف. كما كان كالمثَّال عضواً سرياً بالحزب الشيوعى ، بعد بضع سنوات وصل إلى ذروة المجد فى المكسيك نفسها[٢٤]. وقُبيل موته بثلاثة أعوام فى مايو ١٩٥٥ يتذكر أريناس بيتانكور أنه عندما التقى مع جارثيا ماركيز فى مقهى الأوتوماتيكو فى بوجوتا لإجراء المقابلة كان الكاتب على علم بمعجزاته ومصائبه ، ولم يوجه له سوى قليل من الأسئلة وكأنَّ التحقيق مختزنٌ فى ذهنه: وفى الواقع كان التحقيق لديه بصورة جزئية فى مسيرة حياته الذاتية[٢٥].

ويتذكر أريناس بيتانكور الكاتب حينذاك كرجل نحيف شاحب الوجه عصبى، كان مدخنًا شَرِهًا ذا شارب كثيف محدد جيداً ، دخل مقهى الأوتوماتيكو بشارع خيمينيث

دى كيسادا بِحلَة قاتمة تتمشى مع الجو العام ، بمعطفٍ على طراز بوجوتا. وقد اختفت مؤقتًا الملابس الزاهية الألوان التى أفزعت صاحب جريدة الاسبكتادور" المشاهد". إن الجو العام فى الصحيفة ومقهى الأوتوماتيكو ، حيث كان يجتمع كبار المفكرين والأدباء فى بوجوتا ، وكانوا يطلقون عليها اسم جابو ، حيث كان فى ذلك الوقت كاتبًا مرموقًا ، ومرشحًا لنيل جائزة نوبل مستقبلاً. هكذا كان أصدقاؤه المقربون ومعجبوه يخاطبونه مثل إدواردو ثلاميا بوردا ولويس بيثينس المفكر والسينمائى القطالونى ، الذى كان له دورٌ بارز فى التوجه السينمائى للكاتب.

إن النجاح الكبير الذى حظى به تحقيق الغريق لويس أليخاندرو بيلاسكو والترحيب والحفاوة النقدية للطبعة الأولى " للورقة الساقطة" سيؤكدان ويعمِّقان هذا الاعتقاد.

وعندما وصلت قصة مأساة الغريق إلى أيدى جارثيا ماركيز كانت موضوعًا قد تناولته الصحافة الوطنية بإسهاب ، ولم يكن أحد يتوقع له مزيدًا من النجاح ، وقد استقبله مدير جريدة الاسبكتادور" المشاهد" جييرمو كانو بقليل من الحماس ، واثقًا ربما فى ذكاء محققه الصحفى فى أن يُعدَّ تحقيقًا يحطم الرقم القياسى فى مبيعات الصحيفة. وسرعان ما تحولت القصة المنشورة على مراحل إلى حدثٍ صحفى وأدبى وسياسى من الدرجة الأولى.

لقد سرد جارثيا ماركيز بشكل دقيق الظروف التى كانت وراء كتابة ونشر هذا التحقيق ، وكذلك نتائجه بالنسبة له شخصيًا وللجريدة[٢٦]. لقد استطاع جارثيا ماركيز وهو يتناول القهوة تلو الأخرى ، بعد أربع عشرة جلسة عمل استغرقت كل واحدة منها ثلاث ساعات ، تجسيد مغامرة لويس أليخاندرو بيلاسكو. وقد تمكن خطوة خطوة ، ويومًا تلو الأخر فى عمل شاق لمحرر صحفى ومحلل نفسى. وقد حالفه الحظ فى أن البطل كان يتمتع بذاكرة عجيبة ، وإحساس استثنائىٍ هائلٍ بالسرد. وفى البداية أصر البحار على سرد كافة الأحداث البطولية: صراعه مع الأمواج ، والتحكم فى القارب المطاطى ، ومشاجراته مع أسماك القرش ، وضبط نفسه ، والتحكم فى عقله ، حتى قال له الصحفى : ألا تدرى أنّه مرَّت حتى الآن أربعة أيام ولم تتبول؟[٢٧]. فالصحفى – بناءً على تعليمات من القصاص الذى يوجد بداخله – كان يريد معرفة كل شىء : فيما كان يفكر ، ماذا يتذكر من الغريق فى أوقات الفراغ ، كيف بدأت علاقته مع المكان الضيق فى القارب ، متى

رأى أول طائر نورس وأول سمكة قرش. وبعد كل جلسة – فى مقهى ضيق – بشارع خيمنيث دى كيسادا ؛ كان جارثيا ماركيز يخرج حاملاً ما كتبه تحت إبطه بعد أن يكون قد حل المساء بوقت كاف ويذهب إلى صالة تحرير الصحيفة ليحبس نفسه مع آلته الكاتبة ، ويكتب فصلاً كل يوم. وأحيانًا يحين موعد الانتهاء من طبع الصحيفة ، فكان رئيس التحرير خوسيه سالجار ينتزع الأوراق من الآلة الكاتبة دون تصحيح لكى يسلمها بسرعة لرجل المطبعة(٢٨).

لقد نُشرتْ الرواية فى أربع عشرة حلقة ، وحققت توزيعًا كبيرًا ، وفى اليوم السادس قام جابرييل كانو العجوز تغمره الغبطة من عثوره على الدجاجة التى تبيض ذهبًا واقترب من الصحفى وسأله" أخبرنى بشىء يابُنى : هل ما تكتبه قصة أم حقيقة؟ " وأجابه جارثيا ماركيز: "إنها قصة لكونها حقيقة ، وكل شىء فيها سُرِدَ بدقة بالغة" سأله : " هل تُقسم لى ؟ " ، قال له : " أقسم لك " ، حينئذ سأله العجوز كانو السؤال الذى يهمه : " كم فصلاً تعتقد أنك ستكتبه فى هذه القصة ؟ " قال له جارثيا ماركيز : " حوالى أربعة عشر فصلاً " ، قال له كانو : " لا ؛ بل ينبغى أن يكونوا خمسين فصلاً على الأقل(٢٩). ففى تلك اللحظة كانت صحيفة الاسبكاتادور " المشاهد" قد ضاعفت من عدد النسخ فى الطبعة الواحدة.

ويعترف الكاتب بعد ذلك بسنوات طويلة أنه – أثناء كتابة " الحقيقة حول مغامرتى" – لم يكن يدرك ماذا يفعل سوى أنه كان يسرد للقراء ما حدث بالضبط للبحار لويس أليخاندرو بيلاسكو فى قارب مطاطى أوشك على الغرق طوال عشرة أيَّام فى البحر الكاريبى. لذلك فقد قرَّر هو والبحار سرد ذلك بضمير المتكلم ، ونشرها باسم البحار ، ولذلك فإن اسم جارثيا ماركيز لم يُرفق بالتحقيق الصحفى (باستثناء الملزمة الخاصة المرفقة مع الأربعة عشر حلقة) إلا بعد ذلك بخمسة عشر عامًا ، عند إعادة طبعه فى كتاب تحت عنوان " حكاية غريق"(٣٠)، ولكن النجاح الاقتصادى والصحفى الذى حصدته الجريدة والنجاح الأدبى حَصُلَ عليه لويس أليخاندرو بيلاسكو. وبعد ذلك كما هو ثابت بمقدمة الكتاب أهدى جارثيا ماركيز حقوق الطبع باللغة الإسبانية إلى البحار ، " لأن هناك بعض الكتب ليست لمن يكتبها ؛ بل للذى عاش وعانى من أحداثها" ، وقد ظلَّ البحار يستمتع بحقوق الملكية والطبع طيلة اثنتى عشرةَ سنة ، حتى سحبها منه الكاتب دون أى تبرير(٣١). إنَّ المغامرة الغريبة للبحار التى حكاها جارثيا ماركيز تضمنت – مع

ذلك – عنصرين مُدَوِّين: أحدهما ذو طابع أخلاقى وسياسى ، والآخر ذو طابع أدبى. الأول أدى إلى خلخلة العلاقة بين الصحيفة ودكتاتورية روخاس بينيا ، والثانى أعطى للنص سمواً وقدرة على الاقتناع جعل القُراء يَقبلون الحكاية المطورة على أنها نمط جديد من القص ، وقد أدى ذلك عرضاً إلى تقوية العنصر السياسى.

لقد كان لويس أليخاندرو بيلاسكو بطلاً قومياً حيث منحه رئيس الجمهورية نيشاناً ، وقد طاف بجميع أنحاء البلاد ، ولكنه كان يحكى ما سُمِحَ له أنْ يحكيه: إن سبب بطولته فى البقاء على قيد الحياة فى البحر ، طوال عشرة أيام دون طعام أو شراب فى قارب مطاطى أشرف على الغرق ، بعد أن دفعت به العاصفة مع سبعة من رفاقه إلى بحر الكاريبى فى ٢٨ فبراير١٩٥٥ ، عندما كانت المدمرة كالداس بعد أن تمَّ إصلاحها فى موبيل بالبهاما فى طريق عودتها إلى قاعدتها فى قرطاجنة الأمريكية ، ولكن البحار عندما ملَّ من صمته كشريك فى الجريمة ، ومن سأمه من قُبلات ملكات الجمال له ، ومن استضافتهم له فى التليفزيون كبطل قومى وقدوة ، ومن استغلاله فى كافة الخزعبلات الدعائية ؛ ذهب إلى صحيفة الاسبكتادور" المشاهد" وحكى الحقيقة تماماً : فى الواقع لم تكن هناك أيةُ عاصفة فى يوم الكارثة: ولكن ما حدث ببساطة يكمن فى أن السفينة جنحت بسبب شدة الرياح ، وأن حمولتها المهربة لم تكن مرصوصة جيداً ، فسقطت فى البحر ومعها البحارة الثمانية، وهذا التفسير أو الإيضاح ينم عن جناية خطيرة وجنحتين خطيرتين.

واعتباراً من تلك اللحظة لم يعد الغريق لغزاً أو بطلاً قوياً ، حيث فقد وظيفته فى البحرية ، بينما تعرضت الصحيفة والصحفى لضغوط شديدة. ومع ذلك عجزت هذه الضغوط عن إثناء الصحيفة عن إعادة نشر التحقيق كاملاً بعد ذلك بأسبوع فى ملحق خاص مقترناً بصور تثبت بالأدلة ما أفصح عنه الغريق مؤخراً.

ولم يكن ذلك استثناءً ؛ بل كانت هذه السمة العامة للمواجهة بين الصحيفة والديكتاتورية ، حتى تم إغلاقها فى يناير من العام التالى. إنَّ معظم تحقيقات جارثيا ماركيز الصحفية كانت انتقاداً أساسياً وجوهرياً للنظام ، واتهاماً ملموساً للديكتاتورية. وبدرجة أكبر أو أقل برز ذلك فى أعماله الصحفية عن "انهيار أنطيوكيا" ، و " تهميش تشوكو" ، و " قُدامى محاربى كوريا" ، و " المثَّال أريناس بيتانكور" ، و " حكاية غريق "

ومـأسـاة الثـلاثة آلاف طفل الذين كـانوا قـد انتـقلوا من جـرَّاء أعمـال العُنف والقـمع العسكرى. وفى الواقع كانت تحقيقات جارثيا ماركيز الصحفية ذات صبغة سياسية وثورية أكثر من تحقيقات معظم معاصريه اليساريين ، وإذا كانت نصوص تحقيقاته قد أجازتها رقابة النظام الحاكم ؛ كان ذلك خلافًا لزملائه لم يمارس ديموغاجية" غوغائية" ولم يدعُ لاجتماعات سياسية ، كما أنه لم يتوغل فى مناقشات فكرية خاصة بالماركسية التى تُشجعها موسكو ؛ بل كان يكرس جهده ووقته لتقصى الحقائق ، والتفكير ، وسرد الواقع الكولومـبى فى كل سطر يخطه بقلمـه ، وفى كل صـفـحـة يُسطرها (وذلك باستخدام المعلومات التى يُمده بها رفاقه بالحزب فى معظم الأحيان). وهذا فى المقام الأول ما كان يفعله فى قصصه ورواياته ولكن بشكل مركب.

إنَّ الدقة الجمالية التى أعدَّ بها تحقيقاته كانت - بلا شك - حصان طروادة الذى مكنه من الوصول إلى قرائه فى ظل رقابة متزايدة. ففى " حكاية غريق " بلغ الذروة ، حيث كانت عبارة عن تركيبة موجزة تجمع بين الصحافة والأدب وتحرى الحقائق بشأن الواقع ، والتمكن من توصيل ذلك فى أُطر جمالية خالدة ، تلك الأطر التى كان جارثيا ماركيز قد بدأ فى إعدادها فى القصص الأخيرة " عيون كلب أزرق" وعلى وجه التحديد اعتبارًا من " المرأة التى كانت تصل الساعة السادسة" ، وفى العديد من المقالات والتعليقات الصحفية بجريدة الهيرالد. لقد كانت السينما الإيطالية والصحافة الأمريكية والكتاب من أمثال ألبرت كامى ، وإيرنست هيمنجواى ، وترومان كابوتى ، كانوا بمثابة تكملة وتوازن مقابل تأثير فوكنر ، فضلاً عن كونهم نماذج إلهامه فى معارضة الجمالية الثانية مرورًا بالدروب المكابرة " للعقيد لا يجد منْ يُراسله" ، و " الساعة المشئومة" بلغ بها الذروة الهادئة والملساء " لنبأ موت مُعلن" ، و " عن الحب وشياطين أخرى".

ولذلك فإن صدور " الورقة الساقطة" فى مايو ١٩٥٥ بدت غريبة ، ولكنها كانت فى تلك اللحظة اقتحامًا لنهجه الروائى. وفى الواقع كانت البداية الراسخة للطريق الأسطورى والخيار الجمالى ، الذى من خلال " ذات يوم بعد السبت" ، و "جنازة الأم الكبيرة" سيؤدى به إلى " مائة عام من العزلة" وكان قد بدأ هذه القصة فى قرطاجنة منذ ست سنوات مضت تحت تأثير هيرمان ميلفيل ، ووليام فوكنر وفيرجينيا وولف ، ولقائه من جديد مع ثقافته الكاريبية وأشباح طفولته.

ولم تستطع الطبعة الأولى " للورقة الساقطة" القضاء تماماً على اللعنة التى كانت تطارد جارثيا ماركيز بشدة فى مادته الخام بعد أن رفضتها دار نشر لوسادا فى بوينوس أيرس ، ولكن يهودياً مغامراً يُدْعى صمويل ليسمان باون قام بنشرها بشكل متسرع فى بوجوتا ، وبموارد قليلة لدرجة أن إدواردو ثلاميا بوردا و جارثيا ماركيز نفسه اضطر للاتصال بأصدقائهما من أصحاب المكتبات لكى يقوموا بشراء الكتاب من خمس إلى عشر نُسَخ من مخازن مطبعة سيبيا. وفيما يبدو أن ليسمان باون قد اشترى بقية هذه الطبعة الفقيرة التى لم تتعد الألف نسخة ، على الرغم من الأربعة آلاف التى جاءت فى هذه الطبعة(٣٢). ويذكر القصاص مانويل ثباتا أوليبيا الصديق القديم ، وشريك جارثيا ماركيز أنه نال جانباً من الغنيمة ؛ فقد ترك له ليسمان خمسمائة نسخة من " الورقة الساقطة" ثمناً لحقوقه عن كتابه " الصين الساعة السادسة صباحاً" الذى كان قد طُبع قُبيل هذه المجموعة بقليل. وخلال بضع سنوات ظل كاتب قرطاجنة يتحمل عبء بيع هذه الكتب هنا وهناك بقدر استطاعته لكى يحصل على حقوق ملكيته الفكرية عن الكتاب المذكور. بينما سينبغى على جارثيا ماركيز الانتظار طِيلة أربع سنوات لكى يتقاضى حقوقه من ليسمان حتى أغسطس ١٩٥٩، وذلك أثناء المهرجان الأول للكتاب الكولومبى عندما صدرت الطبعة الثانية " للورقة الساقطة " ، حيث بلغت نسخ هذه الطبعة رقماً فلكياً ؛ عشرة آلاف نسخة.

ومع ذلك فإن الطبعة الأولى التى كانت النسخة منها تُباع بخمسة بيزو خرجت إلى حيز الضوء بشىء من الكرامة. وقد زينتها رسوم فنان قرطاجنة ثيثيليا بورّاس (وعليها صورة طفل جالس على مقعد مُنتظراً) ، ومُهداة إلى خيرمان بارجاس أحد الأصدقاء الأعزاء بجماعة " المازحين" ، وقد لقيت الطبعة الأولى للقصة نقداً ممتازاً فى الأوساط الفكرية والأدبية فى بوجوتا ، وباقى أنحاء كولومبيا. وقد حيَّاها. (أى الطبعة) كل من إدواردو ثلاميا بوردا وإيرناندو تييث بمقالات كلها إطراء فى صحيفة الاسبكتادور" المشاهد" ، وقد قام بنفس الدور جونثالو أرانجو المؤسس المستقبلى لتيار " العدمية " Nadaismo" الكولومبى" بينما قام أصدقاؤه فى جماعة بارَّانكيا بتقديمها والتعليق عليها فى اجتماعات وولائم(٣٣) .

ونظرًا لكونها أول وأعز قصص جارثيا ماركيز وأول كتاب مطبوع له قام الكاتب كما كان متوقعًا بالإسراف فى الإهداءات والتوقيعات الخطية" الأوتوجرافات" لأصدقائه القُدامى وشركائه الأدبيين. وقد تمَّ البحث عن أحدهم على وجه الخصوص وتكريمه من جانب المؤلف الشاب. وقد ذهب يحمل نسخة تحت إبطه إلى أمانة التعليم فى مقاطعة كونديناماركا ، وسأل عن مكتب الرئيس الجديد لقسم المرحلة الثانوية ، وسلَّمه النسخة بالإهداء التالى: إلى أستاذى كارلوس خوليو كالديرون إيرميدا الذى حثَّنى على كتابة هذه الأحداث الحياتية اليومية"(٣٤). ومنذ أن رآه يدخل مكتبه أدرك لماذا جاء تلميذه القديم. لقد كانت لحظة يترقبها منذ منتصف الأربعينيات ، حيث سبق له أن وجَّهَهُ وأرشده داخل متاهة الكتب الجيدة فى مدرسة الليسيه الوطنية فى ثيباكيرا ، ونصحه بالابتعاد عن أشعار التلميذ الولهان، وأن يتفرغ للنثر ، ويقرأ قصصًا وروايات كثيرة لكى يُصبح أحسن قصَّاص فى كولومبيا .

إن احتفاء النقاد بقصة " الورقة الساقطة " ، إلى جانب النجاح المدوى لحكاية الغريق لويس أليخاندرو بيلاسكو قد أديا إلى تعضيد وتعزيز اسم جارثيا ماركيز أدبيًا على الصعيد الوطنى ؛ بينما وضعته صحيفة الاسبكتادور فى أرفع المناصب الوظيفية بين المحررين. وقد كان ذلك نهائيًا لكى يُقرر أصحاب الجريدة أنه حان الوقت لإرسال صحفيها ذى النجم الساطع كمراسل خاص إلى القارة العجوز(أوربا).

الفصل الحادى عشر

- صوب أوروبا مع " أفضل مهنة فى العالم".
- جنيف وقطار أراكاتاكا.
- مؤتمر الأربعة الكبار.
- صحفىٌ فى روما والبندقية.
- فى براغ ووارسو عبر فيينا .
- فرناندو بيرِى ، شيشرون فى ثينيثيتا .
- بيلينيو ميندوثا ومعجزة الجليد.
- فى جناح بفندق فلاندرى .
- نعم العقيد لديه منْ يراسله.
- باريس كانت وحشًا .
- خلف الستارة الحديدية.
- جييرمو أنجولو ولقاءات سيزيف.
- لندن ، ثم الرحيل.

إنَّ الأسباب القوية التى حملت جارثيا ماركيز على الذهاب إلى أوروبا كمراسل لصحيفة المشاهد فى يوليه ١٩٥٥ حامت حولها كافة التكهنات. ويُقال استناداً إلى الأسطورة الذاتية للكاتب إنَّ السفر كان نوعًا من النفى الإجبارى بسبب الحقد والعداوة السياسية الناجمين عن نشر رواية " الغريق" من جانب النظام الديكتاتورى لروخاس بينيا[١] . ويُقال أيضًا – وطبقًا لروايات قريبة من أصحاب الجريدة – إنَّ السفر كان فى الواقع مكافأة لنجاحه فى عمله كمحرر ومحقق صحفى طِيلة عام ونصف العام[٢] ، ودون استبعاد هذين السببين ؛ فإن تلاحُق الأحداث يمكن معه استنتاج أن حقيقة سفره كانت ترجع لطابع شخصى ومهنى: فمن ناحية كان جارثيا ماركيز يداعب هذا المشروع منذ وقتٍ طويل ، لأنه كان يريد دراسة السينما فى روما ، وكان يحتاج إلى توسيع آفاقه الثقافية ، وتكوين نظرية كافية عن كولومبيا وأمريكا اللاتينية. ومن ناحية أخرى ؛ فإن أصحاب جريدة المشاهد ؛ بنظرتهم البراجماتية الحذرة كرجال أعمال ، أدركو أن إرسال صحفيهم ذى النجم الساطع إلى أوروبا كان من أفضل الاستثمارات التى يستطيعون القيام بها فى تلك اللحظة[٣]. وكانت المرَّة الأولى التى تجرأوا فيها على إرسال مبعوث شخصى إلى القارة العجوز " أوروبا".

وربما يكون أصحاب الجريدة قد أدركوا أيضًا أن محققهم الصحفى قد ألمَّ به التعب والإرهاق طوال ثمانية عشر شهراً من العمل المكثف والمتواصل والمتنوع ، بالعديد من الأسفار ، والأبحاث المستفيضة ، المضنية والمقالات الافتتاحية ، والتعليقات السينمائية ، والتحقيقات المسهبة. وربما يكونوا قد أرادوا التخفيف عن كاهله المثقل بالأعباء وإراحته من عناء التعب والإرهاق بهذه الإرسالية الفخمة ، وبراتب شهرى ثلاثمائة دولار.

كان الإرهاق واضحًا جليًا ؛ فعندما رحل جارثيا ماركيز إلى جنيف لتغطية مؤتمر الأربعة الكبار كان قد نشر منذ ثلاثة أيام فقط سلسلة طويلة عن البطل الذى فاز ببطولة الدَّراجات ثلاث مرات وهو رامون أويوس ، ولعله كان ينوى من هذا التحقيق تكرار ما فعله مع "حكاية الغريق" ، ولكنه سُرعان ما رأى أنَّ المنتج ، وإن كان مكتوبًا

بشكل جيد فإنه لم يكن مماثلاً ، وكان من المستحيل أنّ يكون مماثلاً لأسباب منها أنه كان عملاً لصحفي يجهل عالم وتقنيات هذه الرياضة ، ولأنه كان أيضًا بادى الإرهاق. وبعد عام ونصف العام من العمل المفرط ؛ بلغ جارثيا ماركيز ذروة المجد كصحفي خلال مرحلة بوجوتا. ويذكر ألفونسو فوينمايور ،وألبارو موتيس ذلك الإرهاق الكبير والملل الذى كان يُعانى منهما الكاتب خلال الشهور الأخيرة ، وكان هذا أحد الأسباب التى من أجلها كان يفرّ إلى بارًانكيا كلما وجد الفرصة سانحة لذلك. وكان يفعل هذا مدفوعًا من الشقيقين كانو تفاديًا لتعسُف النظام العسكرى ، وكان يقوم بذلك أيضًا بدافع الحاجة إلى استعادة رائحة الجوافة (إنَّها الاستعارة التى كان يُشير بها إلى الحنين والحاجة إلى الكاريبى) ، ولرؤية أصدقاء جماعته الذين كانوا يترددون فى تلك الآونة على بار لا كوبيا " الكهف" ، ولزيارة خطيبته الخالدة مرسيدس بارتشا باردو " التمساح المقدس" ، التى لا زالت تنتظره دون جزع وتكتب له الرسائل خلف منضدة صيدلية والدها .

ومع ذلك ؛ يبدو أن الصحفى مُنهك القُوى كان قد وجد راحة مؤقتة للاسترخاء ، قُبيل أن يُعرض عليه السفر إلى أوروبا. واستنادًا لما يذكره خوسيه سالجار إنهم كانوا يُعدون موضوعًا قديمًا قدمَ ذاكرة الإنسان ، موضوعًا لم يدع لهم لحظة للهدوء ، كما لم يدعها لفاتحى ومؤسسى المدينة أنفسهم: كنزٌ هائلٌ. لقد سرت الشائعة فى جميع أنحاء بوجوتا: يوجد تحت ميدان بوليفار أمام القصر الوطنى كنز كبير كفيل بإيقاظ روبرت لويس ستيفنينون نفسه من رقاده فى مقبرته. وقد قام جارثيا ماركيز وألمونو سالجار عملاقا الصحافة آنذاك بالسير فى الطريق المعاكس للشائعات ، واستطاعا العثور على الأسطورة ، التى بدأت بالفعل تتحول إلى حقيقة ، لأنه فى منزل بشارع خيمينيث دى كيسادا عثروا على النفق – الذى مازال تحت الإنشاء – الموصل إلى مكان ذلك الكنز الهائل(٤). ولكن سُرعان ما تم السفر إلى أوروبا دون أن يستطيع استكمال التحقيق الصحفى ، الذى لو تم لكان من أروع التحقيقات التى كتبها جارثيا ماركيز فى إطار قصص المغامرات. ولكن كانت هناك كنوزٌ أخرى ، وبعض أصناف الشقاء تنتظره على الجانب الآخر من المحيط الأطلسى.

واستنادًا لما يقوله جارثيا ماركيز ؛ فإنه قُبيل السفر قام رفاقه وأصدقاؤه بالصحيفة بإعداد حفلة وداع عاصفة جعلته يستيقظ متأخرًا فى اليوم التالى ، وقد

تخلَّف جارثيا ماركيز عن الطائرة التى كانت ستُقله إلى باريس فى زمن يربو قليلاً على الثلاثين ساعة. ولحُسن الحظ؛ فإن الطائرة سوبر كونسيشن تعطلت فى أول توقف لها فى بارَّانكيا وتمكن جارثيا ماركيز من اللحاق بها فى طائرة أخرى عبر مدينة ميدايين بعد ذلك بثلاث ساعات(٥). وفى الواقع كانت ثلاثة أيام عاصفة من الاستعدادات والفزع ومواقف الودا ع. وكالعادة دائمًا؛ فإن ألبارو موتيس من مكتبه بشركة أسو كان صديق المهام الصعبة ، حيث سلم الكاتب إلى أيدٍ أمينة خبيرة ، فأنهت كل أوراق السفر لمغادرة البلاد خلال ثمانٍ وأربعين ساعة فقط. كما ودعته الصحيفة فى صفحتها الأولى ، وأعطته التذكرة وقليلاً من الزَّاد مما اضطره إلى اقتراض نقود من هنا وهناك من أصدقائه المقربين. وقد حذَّره الرسَّام أليخاندرو أوبريجون - الذى كان موجوداً فى بوجوتا آنذاك - من شدة البرد ، وأهداه جوارب طويلة من النايلون كانت لديه منذ وجوده فى باريس ، ولكن جارثيا ماركيز كان نحيفًا للغاية ، وقد بدت له الهدية نوعًا من السخرية أكثر من كونها عملاً تضامنيًا من صديقه. وقد أعطاه ألبرتو ثلاميا ابن شقيق أوليس - الذى كان قد قام بتغطية المؤتمر السابق عن السلام فى الهند الصينية ، أعطاه رسالة توصية للسينمائى الأرجنتينى فرناندو بيرِّى فى ثينيثيتا. وقد ودَّعه أوليس نفسه فى عموده اليومى " المدينة والعالم" بأطيب التمنيات والتوفيق لأفضل مشاعر الحب والصداقة والإعجاب ، معترفًا بأنه سيكون من الصعب جداً عليهم التأقلم فى غيبة " جابو". وقام الشاعر خورخى جايتان دوران - أول منْ نشر " العقيد لا يجد منْ يراسله " - بالذهاب إلى غرفة جابو قُبيل السفر لتوديعه ، وفتش فى أوراقه حيث استعاد " مناجاة إيسابيل وهى تشاهد هطول المطر فى ماكوندو" لكى ينشرها فيما بعد فى مجلته " ميتو" (أسطورة)(٦). وألبارو موتيس الذى اعتاد على رؤيته يوميًا تقريبًا على مدى عام ونصف العام كان قريبًا منه فى تلك الآونة يتحدث له عن أوروبا وتاريخها وأدبها بين كل عشاء وآخر ، إلى جوار زوجته ماريًّا لوث مونتانيه. وبالنسبة لصديقين يبدوان مثل شقيقين كانت هذه اللحظة أول أخطر لحظة فى صداقتهما ، أما الثانية ؛ فقد كانت بعد ذلك باثنى عشر عامًا عندما ترك القصاص مدينة المكسيك للانتقال إلى برشلونة.

وفى بارَّانكيا ، حيث قضى الليلة الأخيرة لكى يأخذ الطائرة المتجهة إلى باريس ، لم تكن الأمور على ما يُرام: فمرسيدس خطيبته التى تنتظره منذ عشرة أعوام ، وبينما

هى تنمو ويقوى عودها كان هو يحاول الاستقرار ، وكان قد وعدها بالزواج منذ وقت قصير. كانت حزينة وقلبها مقبوض ، ولكن على أية حال قالت له لا توجد أدنى مشكلة لتأجيل الزفاف بضعة أشهر ، طالما أن جابيتو سيتحقق له حلم معرفة أوروبا. أما أصدقاء الجماعة مثل ألبارو ثيبيدا ساموديو وألفونسو فوينمايور وخيرمان بارجاس ؛ فقد أعربوا عن بالغ حزنهم لفراقهم لجارثيا ماركيز ، ولكنهم كانوا يُدركون مدى الأهمية الحاسمة لهذا السفر بالنسبة للنبوغ الإبداعى الخلاّق لصديقهم. وقدموا له بعض الكتب ، وأهدوه مقالات وداعهم فى صحافة بارانكيا ، وقد احتفلوا به فى حانة لا كويبا " الكهف" التى كانوا قد انتقلوا إليها منذ رحيله إلى بوجوتا ، ورافقاه حتى طائرة السوبر كونسيشن بعد إصلاحها مؤخراً صباح الجمعة ١٥ يوليه ١٩٥٥ .

وبعد ثلاثين ساعة وصلت إلى باريس فى مساء اليوم التالى ، وقد هبطت الطائرة وهى فى طريقها إلى باريس فى برمودا وجزر الآزور ولشبونة ومدريد ، وفى أكثر من مرَّة تم تغيير المراوح لها. وكما كان نجماً للصحافة ، ومراسلاً خاصاً لصحيفة المشاهد ، فقد سافر ماركيز فى الدرجة الأولى ، حيث كان هناك مسافرٌ آخر فى نفس الدرجة: فرناندو جوميث أجوديلو مدير التليفزيون الكولومبى الذى تم إنشاؤه مؤخراً ، والذى كان متوجهاً إلى فرانكفورت لشراء تكنولوجيا تكميلية ، والذى كان جارثيا ماركيز يرتبط معه بصداقة من جرَّاء ولعهما المشترك بالموسيقى ، التى تحدثا عنها بين كأس وآخر حتى أبلغتهما المضيفة فى باريس أن الطائرة على وشك الهبوط ، وعليهما ربط أحزمة الأمان والجلوس فى وضع الاعتدال مثل الجنين فى بطن أمه لأن الطائرة كونسيشن المرهقة لم تستطع فرد عجلاتها على ممر الهبوط.

وفى اليوم التالى استقل جارثيا ماركيز القطار إلى جنيف حيث وصل إليها مساء يوم الأحد ١٧ يوليه ، أى بعد يومين من مغادرته بارانكيا. وعلى الرغم من أن درجة الحرارة كانت ٣٠ درجة مئوية ، وكان هذا وجه الشبه الوحيد بين العالَمين فى فصل الصيف فإن نظرته الكونية ستظل مثل الثعبان الذى يَعُضُ ذيله: " عندما كنت أسافر فى هذا القطار كنت أرى الطريق ، وأدركت أن العشب كان تماماً مثل العشب الذى كنت أراه عبر نوافذ قطار أراكاتاكا ، وقلت لنفسى : ساعات سفر طويلة ، ومزيدٌ من الشراب ، وتغيير مراوح الطائرة ، ومع ذلك يستمر العُشب تماماً مثلما كان فى

قطار أراكاتاكا"[٧]. إن طريقة المقارنة هذه للواقع الأجنبى مع الواقع الكولومبى والواقع الأصلى لم تكن فقط عادة من نظرته الكونية كقصَّاص ؛ بل كانت أيضًا طريقة أو وسيلة حتى لا يترك نفسه للانبهار بما هو جديد فى القارة العجوز " أوروبا".

وفى الظاهر لم يترك نفسه للانبهار ، ولكن عندما اضطر لإرسال برقيته الأولى شَعُرَ بالذعر المرعب ، مثل الذى عايشه قبل عام عندما اضطر لكتابة أوَّل تحقيق له كمراسل عن انهيار حى ميديا لونا (الهلال) فى ميدايين. وبمجرد أن نزل من قطار جنيف ، ودخل أول فندق رآه ، وغيَّر ملابسه ، وخرج إلى الشارع ، ونظر إلى الساعة ، وتذكَّر أن الوقت الآن فى بوجوتا الساعة العاشرة أو الحادية عشرة صباحًا فكر حينئذٍ أنه لا يزال لديه مُتسع من الوقت لإرسال أول برقية له، ولكن كيف؟. لم يكن يعرف كيف يصل إلى قصر الأمم المتحدة ، وما هو أسوأ أنه لم يكن يعرف التحدث بلغة أخرى غير الإسبانية ؛ فقد كانت فرنسيته بدائية ، وكان يتحدثها بصعوبة بالغة. وهكذا ؛ بدأ يسير فى الشارع ، وسُرعان ما شاهد قسيسًا ألمانيًا ذا ملامح باسكية كان يتحدث الإسبانية بطلاقة ، وكان ذلك بمثابة إنقاذ له. وفى قصر الأمم المتحدة انتهى من التقاط أنفاسه عندما التقى مع مندوبى الصحافة من أمريكا اللاتينية ، ومع بقية الكولومبيين: الصحفى كارلوس بويو ديلجادو ، قناصٌ كان حرًا طليقًا فى أوروبا ، وكاتب المقالات والمؤرخ خيرمان أرثينيجاس ومراسل صحيفة " الزمن" ، ومؤلف كتاب خالد: سيرة ذاتية للكاريبى ، الذى علمَّه جماله الظريف كثيرًا عن وطنه ، كما عزَّز فيه ولعه القديم بقراصنة إيميليو سالجارى[٨].

وكما هو منطقى فإن مؤتمر الأربعة الكبار بين الجنرال أيزنهاور وبولجانين ، وإيدن ، وفاورى عقد فى جنيف وسط درجة حرارة بلغت ٣٠ درجة مئوية ، وقد مثلت الحرارة الشديدة الحياة فى جنيف. وقد فهم جارثيا ماركيز هذا – فى بادئ الأمر – على أنه عدم اكتراث من جانب المدينة إزاء الحدث العظيم حيث أن الحر الشديد فى باراًنكيا لا يُصيب المدينة بالشلل ؛ بل على العكس من ذلك تمامًا يجعلها تعجُ بالناس بين الذاهبين والغادين فى مختلف أنحائها. ولذلك فقد أخذ المعلومة بحرفيتها ، بطيش الكاريبى الخام الذى ما لبث أن وصل إلى المدينة واخترع البرقية الأولى: " جنيف تنظر بلا اكتراث للاجتماع" ، وقد تصدَّرت هذه البرقية صحيفته فى اليوم التالى.

وعن المؤتمر الذى استغرق أسبوعًا ، وحضره أكثر من ألف مُراسل من جميع أنحاء العالم كتب جارثيا ماركيز برقيتين أخريين وستة تحقيقات[٩] ، ومع ذلك فإنً الصحفى الشهير واللامع لم يكن كما هو معهود فيه فى أول اتصال له مع العالم القديم. وباستثناء قدرته على عرض المعلومات وسرد الحكاية ، يصعب علينا الاعتقاد أن التقارير الأولى لنفس الصحفى الذى كان قد كتب تحقيقه الشهير " تشوكو التى تجهلها كولومبيا" ، و " الحقيقة حول مغامرتى" فإن البرقيات الثلاث والتحقيقات الستة كانت تفتقر للإعداد الجيد لدى جارثيا ماركيز ، فضلاً عن كونها مفعمة بالنوادر والحكايات السطحية ، لدرجة أن الكاتب وجد نفسه صحفيًا محدودًا وإقليميًا فى عاصمة العالم السياسية ، بينما كان يعمل في كولومبيا من إحدى المحافظات ، وكان صحفيًا كلاسيكيًا وعالميًا مرموقًا. ولكن هذا يُفسَّر بضيق الوقت ، ولكونه مثل باقى المراسلين ليس له دراية بأغوار السياسة العالمية التى يتداول حولها الزعماء الأربعة الكبار ، فضلاً عن كونه لا يعرف المدينة ويجهل اللغات الأخرى مما عّذر عليه توسيع مصادره. حينئذٍ وبمهارة ما ظَّل على هامش الأحداث وتفرَّغ للمزاح وسرد النكات ويرسل مغازلات لخطيبته فى ماجانجى ، وإلى أصدقائه فى صحيفة الاسبكتادور " المشاهد"، وإلى أصدقائه المقربين فى بارًانكيا وهو يحاول أن يبرز لهم أن أوروبا العجوز لم تبهره.

لقد كان هذا تدهورًا عارضًا: وبمجرد أن استقر فى روما وبعد ذلك فى باريس ، وكانت لديه فسحة من الوقت ، وبدأ يجوب ويطوف مدنًا أوروبية أخرى ويتعلم الإيطالية والفرنسية عاد إلى كتابة التحقيقات الكبيرة التى تليق " بأحسن مهنة فى العالم" ، بروايات هائلة مثل اغتيال الشابة الرومانية. ويلما مونتيسى ، التى بسبب فاتورتها الممتازة تجعلنا نتذكر رواية الغريق لويس أليخاندرو بيلاسكو. ومع ذلك فإن الخبرة فى جنيف ستترك مؤشرات مثمرة سيستغلها بعد ذلك فى سنوات لاحقة فى إحدى قصصه بعنوان " اثنتا عشرة قصة غريبة " ، وكانت عبارة عن مذكرات سُردت فى أسلوب قصصى للصحفى والكاتب والسينمائى الذى ذهب إلى أوروبا. الرودانو وبحيرة ليمان والبورج ليه فور ، وتمثال كالبينو ، وزهور ياسمين فصل الصيف ، وذكرى المحطة ورائحة المدينة فى الصيف ومقاهيها ، ستكون له أكبر عون فى إعداد قصة المخلوع والمنفى الرئيس لا مارتينيكا بعد ذلك بخمسة وعشرين عامًا فى قصته " سفرًا سعيدًا ياسيادة الرئيس".

وطبقًا للخطة المتفق عليها مع صحيفة الاسبكتادور ، انتقل جارثيا ماركيز من سويسرا إلى إيطاليا ليغطى المعرض السادس عشر للفن السينمائى فى البندقية. وبمزاحه المعهود والدائم يذكر أنه فى أعقاب انتهاء مؤتمر جنيف أرسلت له الجريدة تلغرافيًا تطلب منه الذهاب إلى روما خشية أن يموت البابا من الغُصة " الزغطة"(١٠). لقد أُصيب البابا بيو الثانى عشر بنوبة غُصة خطيرة فى الخريف الماضى ، عندما كان جارثيا ماركيز لايزال فى بوجوتا، ولكن الآن قد تحسن ولن يموت إلا بعد ثلاث سنوات. ومما هو أكيدُ أن روما كانت أحد الأهداف التى كانت تتوق لها نفس جارثيا ماركيز : فهناك سينيسيتا ، وربما يستطيع التعرف هناك على الذين يحوزون إعجابه ؛ بيتوريو دى سيكا وثيسارى ثباتينى. إنَّ الذين تعاملوا معه فى ذلك الحين يؤكدون جميعًا على أن حصبته السينمائية كانت قارصة أو أشد وطأة من حصبته الأدبية والصحفية.

إنَّ شدة الحرارة التى باغتته فى المحطة فى آخر يوم أحد من يوليه لم تكن مقترنة بالرطوبة كما فى بارَّانكيا ، ولكنه مع ذلك كان حرًا جهنميًا. وربما يكون أسوأ لأن درجة الحرارة بلغت خمسًا وثلاثين درجة فضلاً عن الغبار الألفى للمدينة. " إنه مثل أراكاتاكا تمامًا " قال لنفسه ، بينما كان يبحث عن حمَّال يساعده فى حمل الحقائب الرحَّالة فى تلك المدينة المشلولة. لقد وجد حمَّالاً ، ومعه أول مُرشدٍ قاده إلى فندق متواضعٍ قريبًا من شارع بيا ناثيونالى (الطريق الوطنى)(١١).

"كان طريقًا قديمًا ، وقد أعيد تمهيده وتعبيده بمواد متعددة" ، ويذكر جارثيا ماركيز أنه كان فى كل دور من طوابقه فندق مختلف. لقد كانت نوافذه قريبة من أطلال المسرح ، ولم تكن تُرى من خلالها إلا آلاف الآلاف من القطط التى كانت تنام فى مدرجاته اتقاءً للحرِّ ؛ بل كانت تُشمُّ منها أيضًا رائحة البول المتخمر العفن. وقد نصحنى مرافقى الطيب الذى كان يحصل على عمولة من جرَّاء جلبه لنزلاء للفنادق بأن أنزل بفندق فى الطابق الثالث ، لأنه الوحيد الذى كان يتضمن سعره الوجبات الثلاث (......) كانت الساعة الخامسة مساء ، وكان بالبهو سبعة عشر إنجليزيًا جالسين ، كلهم رجال ويرتدون السراويل القصيرة ، وكلهم يراودهم النُعاس. وعند النظرة الأولى كانوا جميعًا يبدون سواسية كأن شخصًا واحدًا تكرر ست عشرة مرَّة فى ممرٍ للمرايا، ولكن أهم ما لفت نظرى كانت رُكَبُهم العظمية والوردية اللون (.....) ، ومع ذلك لا أدرى أى مقدرة خفية للكاريبى

همست لى فى أذنى بأن تتابع هذه الرُكب الوردية كان عبارة عن رسالة مشئومة. حينئذٍ قلت لرفيقى خذنى إلى فندق آخر لا يوجد فيه إنجليز كثيرون جالسين فى فناء الفندق، وقد حملنى دون أن يسألنى إلى الطابق التالى. وفى تلك الليلة تسمَّم الستة عشر إنجليزيًا وجميع نزلاء فندق الطابق الثالث من طعام العشاء(١٢). وبهذه الخبرة الرومانية الغذائية الأولى كانت قصة أخرى من قصصه الغريبة" ستة عشر إنجليزيًا فى حالة تسمُم " ، وقد حدث ذلك فى الخيال فى نابولى فقط إحدى المدن الإيطالية الأخرى التى تركت أثرًا لا يُمحى فى جارثيا ماركيز ، ولكن روما كانت بمثابة فسقية أو نافورة لا تنضب من القصص والشخصيات خلال شهر أغسطس الشديد الحرارة والمهجور ، ومع ذلك لم يرسل جارثيا ماركيز سوى تحقيقين قصيرين: أحدهما عن إجازة البابا بيو الثانى عشر فى كاستيلجا ندولفو ، وثانيهما عن المؤتمر العالمى لشهود الربَّ(١٣) (جماعة دينية مسيحية تقترب من تعاليم الديانة اليهودية ، وهى مجموعة نشطة جدًا فى أوروبا). إنَّ الاهتمام بالبابا الذى خصص له خمسة تحقيقات فى خمسة أشهر كان له تفسيره المزدوج ، نظرًا لاهتمامه الشخصى والأدبى بشخصيات السُلطة العُليا والتى ستكون صحبتها وصداقتها إحدى الأمور التى كان الكاتب يفخر ويزهو بها ، لاهتمامه الصحفى بشخص أصبح أكثر شُهرة منذ الخريف الماضى بسبب نوبة الغصة الحادة مما جعل الكاتب وخوسيه سالجار لا يقر لهما قرار طيلة ثلاثة أسابيع فى تحرير صحيفة الاسبكتادور" المشاهد". ولذلك فقد تابعه إبَّان الأيام الأولى لذلك الشهر حتى قلعته الصيفية فى كاستيلجاندولفو ، حيث حضر جلستين عامتين إلى جانب المظهر الطاهر الناصع لقداسته. فالرؤية القادمة للبابا وتفاصيل " يديه الطفيليتين اللتين كانتا تبدوان كأنهما غُسلتا بالبطاس" واعتبارًا من ذلك الحين أصبح البابا شخصية عابرة ، ولكنها دائمة فى قصص وروايات جارثيا ماركيز .

وأول مرة ظهر فيها البابا فى قصة "جنازة الأم الكبيرة " ، حيث أخذه حتى ماكوندو فى زورق أسود ، وعلى وجه التحديد من كاستيلجاندولفو لحضور جنازة الأم الإقطاعية(١٤) . وكانت آخر مرة ظهر فيها باسمه العادى فى قصة " القديسة" ؛ إحدى قصصه الغريبة ، والتى حكايتها الحقيقية كان قد عرفها جارثيا ماركيز خلال هذه الأيام المجنونة فى روما.

وطبقًا لإحدى مقالاته الصحفية الخالدة(١٥) ، فقد كان يقيم بالحجرة المجاورة لغرفة مغنى الأوبرا الكولومبى رفائيل ريبيرو سيلبا فى لوكاندة بحى باريولى الهادئ

بالقرب من فيلاً بورخيس عندما ظهر المدعو مارجاريتو دوارتى كأنه شخصية تبحث عن مؤلفها ، ومع ذلك فإن ما جاريتو دوارتى كان قد وصل من قريته النائية فى جبال الأنديز الكولومبية بفضل تبرع عام لسبب جاد: هو الحصول على الاعتراف الكنسى بطهارة جسد ابنته التى توفيت فى السابعة من عمرها. وكان القنصل الكولومبى قد أرسله إلى المكان الموجود به ريبيرو سيلبا لكى يبحث عن مأوى فى اللوكاندة . وفى ذلك اليوم حكى دوارتى للاثنين حكاية معجزة القديسة كما كان يقول عنها، فضلاً عما حدث له فى رحلته ، وأسباب وجوده فى روما. والذى لم يشك فيه مارجاريتو دوارتى هو أن هذه الرحلة ستجعله أسيرًا لروما باقى حياته ، وأنه مصممٌ على عمل عملاق وباهظ التكاليف كهذا ، وأن غاية مراده هو أن يلتقى شخصيًا مع البابا.

وإذا كان مارجاريتو دوارتى قد ظل شخصًا مجهولاً فى روما القديمة ؛ فإن جارثيا ماركيز أخذ يسافر ويكتب ويستكمل نضجه ليكتب عمله الكبير ، ولكن دون أن يجرؤ تمامًا على أن يغرس أنيابه فى حكاية هى فى ذاتها قريبة جدًا من الأدب ونهايتها غير متوقعة، وقد تبدو غير واقعية فى الأدب ، وهى بالفعل ستكون ذات عائد أدبى متواضع بعد ثلاثين عامًا من تلك اللحظة(١٦).

وقد أسهمت قصة القديسة بنوع ما من الشراكة فى الصداقة الحديثة بين جارثيا ماركيز ومغنى الأوبرا رفائيل ريبيرو سيلبا ، وهو شخص كولومبى متواضع ، كالكاتب تمامًا ، أعدَّ نفسه بالمثابرة والصبر والانضباط. وبينما تفرَّغ الصحفى لمتابعة البابا خطوة خطوة خلال شهر أغسطس ؛فإن الحكم فى قضية اغتيال فتاة روما ويلما مونتيسى (فضيحة أقضَّت مضجع إيطاليا قبل عامين) ، فقد كان المغنى الأوبرالى يستيقظ مبكرًا لكى يسخن صوته ويغنى على سطح المنزل فى ذلك الحى الهادئ حى باريولى. وبعد تناول الطعام ، عندما كانت روما تنام القيلولة ، كان الاثنان يقومان بالطواف والتجوال على درَّاجة بخارية مُعَارة فى شوارع وأحياء المدينة (روما) يشاهدان فتيات الهوى الحزينات فى فيلاً بورخَّيس ، يرتدين الأورجانزا الزرقاء والبوبلين الوردى ، وبعد ذلك يقومان بتناول جيلاتى فى الناصية المجاورة.

إنَّ الصداقة مع المغنى الذى كان قد قضى ست سنوات بالمدينة ، والذى خصص له جارثيا ماركيز تحقيقًا عن نجاحه الباهر فى أوروبا(١٧) ، كانت له خير سند وعون خلال

الشهور الأولى للكاتب ؛ فقد أصبح لسانه الفصيح ، ومترجمه التلقائى فى ذلك الوقت الذى كان يجهل فيه الإيطالية ، وكان عمله يضطره للتحرك بين الناس من جميع الأصناف والأيدولوجيات ، واستشارة كثير من المصادر كما حدث له فى التحقيق التفصيلى عن اغتيال ويلما مونتيسى ، الذى خصَّص له شهر أغسطس وجزءًا من سبتمبر. وكان هذا التحقيق أول أهم الأعمال التى بعث بها جارثيا ماركيز من أوروبا إلى صحيفته فى بوجوتا. لقد قضى شهرين تقريبًا منذ وصوله ولم يكن بعد قد نشر شيئًا ذا بالٍ ؛فقد كانت التحقيقات الأولى فى الواقع التزامات عاجلة للمراسل ، وكثيرًا من الحشو الذى لا طائل وراءه. ولذلك فقد بذل جهدًا جهيدًا فى أحد أعماله المعقدة والكاملة. وكان يعرف أفضل من الآخرين أنَّ صحيفته أرسلته إلى أوروبا لكى تستمر الدجاجة التى تبيض ذهبًا فى إرسال أفضل التحقيقات من القارة العجوز. " فضيحة القرن"(١٨) كانت بالفعل نجاحًا صحفيًا آخر ، وكانت علاوة على ذلك عملاً ممتازًا لإثبات المهارات التقنية لمؤلف " نبأ موت مُعلن". وعلى الرغم من أنه لم يصل إلى الأسلوب الناعم الصافى والمؤثر لقصة " حكاية غريق" ، فإن قصة " قضية اغتيال فتاة روما ويلما مونتيسى " وإعادة تجسيد وتمثيل الجريمة ، وكذلك التحقق من هوية القتلة وكشف الاسم الحقيقى لويلما ، تبرهن بجلاء على أنَّ جارثيا ماركيز أصبح روائيًا ناضجـًا ذا مصادر هائلة ، يستطيع الشروع فى كتابة أعماله الكبيرة. ولكن القصاص سيظل شاردًا غارقًا لبضعة أشهر أخرى فى أحلامه السينمائية ، وفى تطلعاته الحميمة فى أن يُصْبح ثيسارى زفانتينى ، أو ربما بيتوريو دى سيكا.

إنَّ منصب المراسل المرموق لتغطية أحداث المهرجان السادس عشر للفن السينمائى فى البندقية ، فيما بين أواخر أغسطس وأوائل سبتمبر ، أسهم كثيرًا فى هذا الشرود. لقد ظل يشاهد أفلامًا سينمائية طيلة أسبوعين ليلاً ونهارًا مما أصابه بأول سُكرٍ سينمائى فى حياته. ولكن الظروف كانت مواتية ؛فالخريف الدائم والبرودة سرعان ما استحوذا على مملكة الزوارق ؛ بينما كانت الوفود تصل تباعًا من جميع أنحاء العالم. وكان الجديد فى الأمر وصول وفود من الدول الاشتراكية الشرقية ، الذين قَدموا مُلهمين بروح مؤتمر جنيف الأخير حيث شاركوا لأول مرَّة فى المهرجان منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. وكان تحمس جارثيا ماركيز كبيرًا (مثلما كان عليه الحال فى

تحقيقاته الكبيرة) ، ففى الأسبوع الثانى اقترح على مخرج فرنسى شاب أن يُعانى ويصور فيلمه فى كولومبيا ، حيث يوجد أناس مهتمون بإنتاج أفلام مشتركة مع فرنسا وإيطاليا انطلاقًا من أن الأفلام ينبغى أن تُقدم مناخًا كولومبيًا حقيقيًا ، ولكى تسهم أيضًا فى إعداد وتكوين ممثلين وفنيين كولومبيين(١٩). لقد كانت مبالغة ، ولكنها كانت متبلورة جيدًا فى خياله القديم للإسهام فى تأسيس سينما وطنية فى بلاده.

ومن بين النتائج الإيجابية الأخرى لهذا المهرجان تلك الاتصالات التى أجراها للسفر إلى تشيكوسلوفاكيا وبولندا بعد ذلك بعشرة أيام عبر النمسا. فقد كان حتى ذلك الوقت قريبًا من الحزب الشيوعى الكولومبى ، ومدفوعًا بفضوله للتعرف على الاشتراكية الحقيقية على الطبيعة ؛ هذا أحد الأحلام القديمة التى كانت تراوده خاصة وأن جارثيا ماركيز كانت تساوره الشكوك حول أن أى نظام مثل أى ديانة يقوم على الاعتقاد ، وكان يُدار بصورة عملية على أساس بيروقراطية مُهلكة. إن السفر إلى بولندا كان ينطوى على اهتمام إضافى ، وهو التمكن من حضور مهرجان وارسو للسينما الذى كان قد دُعىَ إليه كممثل لكولومبيا. وقد سافر فى قطار من تريستى ، حيث وصل إلى فيينا ليلة ٢١ سبتمبر ، وكان ذلك أحد الشروط التى فرضتها معاهدات ما بعد الحرب العالمية الثانية.

ومع ذلك فإن اتصاله الأول مع الاشتراكية الحقيقية كان قد أُضطر إلى كتمانه طيلة أربع سنوات. إن مناهضة الشيوعية كانت أمرًا أخرق فى كولومبيا كما فى إسبانيا ، والولايات المتحدة الأمريكية، وأن مجرد معرفة أن شخصًا عبر حدود الستارة الحديدية يمكن أن يجر عليه تبعات وويلات لا حصر لها ، وعلى صحيفته ، وخاصة فى دولة ترزح تحت حكم الديكتاتورية العسكرية ؛ ولذلك فقد تحدَّث هذه المرة عن وجوده فى فيينا فقط حيث أرسل ثلاث تحقيقات تاركًا موضوعات بولندا وتشيكوسلوفاكيا إلى ما بعد ذلك بعامين ، عندما كتب فى باريس سلسلة بعنوان " تسعون يومًا أمام الستارة الحديدية"(٢٠) .

لقد سحرته فيينا . فبعد أن تنزه فى البندقية المدينة المائية البرَّاقة ؛ فإن مدينة الرجل الثالث كانت أشبه بغابة ذهبية بها منازل يعيش فيها سُعداء ودودين ، مليون شخص من أهالى فيينا فى سعادة حديثة تولَّدت عن الحرية الشاملة التى حصلوا عليها فى النهاية ، دون وصاية القوى التى انتصرت فى الحرب العالمية الثانية. ومع ذلك ؛ فقد

بهرته أكثر مدينة فيينا بسبب فيلم كارول ريد. كما غمرته السعادة عندما زار الأماكن التى سار فيها أورسون ويلز ، وجوزيف كوتين ، وهذا دليل آخر على أن جارثيا ماركيز قَدِمَ إلى أوروبا بحثًا عن السينما أكثر منه عن الأدب. ولكن ذلك كان حتميًا لا يمكن تفاديه لأن الأدب كان ملازمًا له يرافقه كظله: فقبيل العودة إلى روما بيوم واحد ، وفى خمَّارة يتردد عليها الطُلاب اللاتينيون التقى بالسيدة التى سيلقبها بعد ذلك بفراو روبرتا (ثم بفراو فريدا فى " أستأجر نفسى لكى أحلم "). إنها مواطنة أنديزية كانت أدبًا صافيًا بمعنى الكلمة. وبالفعل كانت تؤجر نفسها – لتكسب قوتها – لتحلم فى أحضان أسرة فى فيينا.

وكما فى كل قصصه ورواياته ؛ فإن القصص الاثنتى عشرة الغريبة كانت تُغذَّى بشخصيات واقعية عرفها جارثيا ماركيز خلال هذه السنوات فى نصف أوروبا. ولكن من المستحيل عمليًا معرفة إلى أى درجة كانت هذه الشخصيات واقعية ، وفى أى نقطة بدأت تتحول إلى أدب حيث إنه على خلاف ما كان يحدث فى اللحظات الإبداعية لأعماله ، ففى هذه الحالة نستعين بشهادات جارثيا ماركيز ذاته التى أدلى بها فى مقابلات هنا وهناك ، وفى مقالاته الصحفية ،وبالطبع فإن هذا لم يتعد كونه مجرد اهتمام لنُقَّاد بيزنطيين لأن ما هو ثابت هو أن القصة السعيدة الغير قابلة للتصديق لفراو روبرتا ستكون منذ ذلك الحين – وإلى الأبد – بسيطة وصافية فى أيدى ساحر أراكاتاكا.

وعلى أية حال ؛ فإن فراو روبرتا – طبقًا لما يحكيه لنا جارثيا ماركيز نفسه – كانت تحلم فى ذلك الخريف: فى آخر ليلة تحادثا فيها وهما يسيران على ضفاف نهر الدانوب ، اعترفت له بأن آخر حلم لها مرتبط به ، وطلبت منه مغادرة فيينا فورًا وألا يعود إليها قبل خمس سنوات. وهو بما يحمل من خزعبلات وخرافات الكاريبى المركبة أخذ أول قطار وعاد إلى روما ، ولم يعد بعد ذلك أبدًا إلى مدينة الرجل الثالث(٢١).

وبينما كانت صحيفة الاسبكتادور تنشر له تحقيقاته الثلاثة عن فيينا طوال نوفمبر وديسمبر ، وثلاثة أخرى عن جينا لو بريجيدا ، وصوفيا لورين ، وأربعة تحقيقات أخرى عن البابا(٢٢) ، اجتهد جارثيا ماركيز فى دراسة الإخراج فى مركز السينما التجريبى ، حيث سجَّل فى أواخر أكتوبر على أيدى ملاكه ونصيره الجديد: السينمائى الأرجنتينى فرناندو بيرِّى.

وقد اضطر بيرِّى إلى الفرار من الحكم البيرونى بسبب معتقداته اليسارية ، وقد أمضى فى سينيسيتا خمس سنوات بعد امتحان شاق عن المواطن كانى ، وحيث نال جانبًا من الشهرة كمساعد لبيتوريو دى سيكا وثيسارى زفاتينى. وبهذا الشكل لم يجد جارثيا ماركيز أفضل منه راعيًا لكى يحاول بلورة تطلعاته السينمائية القديمة فى قبلة السينما الأوروبية حيث تخرج جيل من السينمائيين العباقرة من أمريكا اللاتينية.

إنَّ الصورة الخالدة التى احتفظ بها بيرِّى عن الكاتب هى نفسها عندما تعارفا خلال ذلك الخريف فى ثينيثيتا: إنه رجلٌ ذو قامة عادية نحيف للغاية ، وشاحب الوجه ، ذو شارب كثيف ، وطاقية ومعطف طويل كان يصل إلى عقبيه. وفى رسالة التوصية التى سلَّمها له ألبرتو ثلاميا من الشاعر خورخى ثلاميا وابن شقيق أوليس ، والموقعة فى بوجوتا ، طلب فيها بإلحاحٍ من بيرىٍّ مساعدة صديقه الكاتب والصحفى الذى يريد غزو عالم السينما. ولم يبخل الأرجنتينى بيرىٍّ على جارثيا ماركيز بأى شىء ؛ فقدم له كل شىء منظمًا ومرتبًا ومنسقًا ، وقد اصطحبه فى جميع أنحاء مركز السينما التجريبى ، كما قدَّمه إلى جميع الأشخاص الذين يهمونه(٢٣).

وقد وجد جارثيا ماركيز منذ الوهلة الأولى فى بيرِّى صديقًا آخر من أصدقائه وشركائه طوال حياته ، كما أن مدينة روما الشخصية فى حى باريولى ، حيث كان يعيش مع المغنى الأوبرالى الكولومبى رفائيل روبرتو سيلبا قد اتسعت أمامه حتى رقم ٩ فى ميدان إسبانيا ، حيث كان يعيش الأرجنتينى بيرىٍّ فى غرفة تغطى جدرانها قصاصات المجلات والصُحُف وحتى المقهى المجاور مقهى إسبانيا ، حيث كانا يتناولان الكؤوس ويتحادثان طوال ساعات عن مستقبل السينما الأمريكية اللاتينية ، وحيث كانا يحلمان بالعمل سويًا فى السينما ، وهذا ما تحقق لهما بعد ذلك بثلاثين عامًا فى مدرسة سينما سان أنطونيو دى لوس بانيوس.

ولهذا ؛ فلم يكن دافعه إلى الدراسة لمدة شهرين فقط فى مركز السينما التجريبى هو الافتقار إلى الصداقة ، أو وقوعه منذ البداية فى أسر روما ذات الألف عام ؛ بل كان الدافع هو طريقة التدريس الأكاديمى العقيم التى كانت سائدة فى المركز.

وكمولع بالسينما وكاتب يعرف تقنيات السرد كان جارثيا ماركيز يفهم جيداً الخيط الخفى الذى يُقوى السينما ذات الموضوع وهو السيناريو ، ولذلك كان إعجابه

بلا حدود بزاباتينى ، هذا الصانع السرى الذى كان وراء نجاح أفلام دى سيكا ومخرجين آخرين.كان السيناريو لذلك ، الأقرب إلى اهتماماته وأبحاثه كأديب وقصاص ، ولذلك كان هدفه واضحًا جليًا: دراسة السيناريو والسيناريو فقط، ولكنْ هذه المادة لم تكن موجودة كتخصص فى المركز ؛ بل كانت بالكاد مادة ضمن المواد التى كانت تُدَرَّس فى دورة الإخراج ، وقد وجد نفسه مضطرًا للتسجيل فى هذه الدورة.

إنَّه بما لديه من حساسية مزمنة تجاه التعليم الأكاديمى سُرعان ما انتابه السأم ، وبدأ يتغيب عن المحاضرات ، كما كان يفعل من قبل فى بوجوتا وقرطاجنة ، عندما كان طالبًا يدرس القانون. كانت المحاضرات نظرية مفرطة ، وكان الأساتذة يعتقدون أن الأكثر نفعًا وفائدة بالنسبة لمخرجى المستقبل وكاتبى السيناريو هو معرفة فن جماليات السينما ونظرية اللغة السينيمائية أو التاريخ الاجتماعى والاقتصادى للسينما. ولذلك فقد استاء جارثيا ماركيز بسرعة ، وإذا كان قد تحمَّل لمدة سبعة أو ثمانية أسابيع ، فقد كان ذلك بسبب سروره لتقدمه فى دراسة اللغة الإيطالية ، ولأنه وجد أيضًا فى الأدوار الأرضية محفزات أخرى: إمكانية رؤية كلاسيكى السينما فى مكتبة السينما ، وكذلك لكونه إلى جوار الدكتورة روسادا ، وهى سيدة لم يُعرها الطلاب وكُتَّاب السيناريو إلا قدرًا متدنيًا من الاهتمام ، على الرغم من أنها أستاذة المونتاج ، وكانت ساحرة الموبيولا (فن العرض البطئ والمشاهد المشكوك فيها). وكانت تُلحُ عليهم فى أنه بدون معرفة قوانين المونتاج التى هى بمثابة القواعد النحوية السينمائية لا يمكن للإنسان أنَّ يكون كاتب سيناريو جيدٍ على الإطلاق. ولذلك تحمَّس وقضى الأسابيع الأخيرة يدرس مع هذه الأستاذة جانب استمرارية الحكاية السينمائية[٢٤]. وبعد ذلك بعام عندما جاء المصور جييرمو أنجولو يسأل عن جارثيا ماركيز ، فإنها كانت لا زالت تتذكره بوصفه الشخص المتحمس لما يفعله، وأسِفَت لأنه ذهب لكى يعيش فى باريس[٢٥].

وخلال هذه الأشهر عانى جارثيا ماركيز من تجربة قصيرة ، حيث عمل مساعدًا ثالثًا للمخرج أليكساندرى بلاسيتى فى فيلم " خسارة أن يكون وغدًا" مما سبب له فى البداية سعادة كبيرة ليس من جرَّاء الدور الذى عُهِدَ إليه فى المركز ؛ بل للفرصة السانحة لرؤية الممثلة الأولى للفيلم: صوفيا لورين، ولكنه لم يرها. ويتذكر ذلك قائلاً : إنَّ عمله كان يقتصر- خلال ما يزيد على الشهر - على الإمساك بحبل فى أحد النواحى لمنع مرور الفضوليين[٢٦].

ومع ذلك؛ ففى هذه الحالة لم تكن خسارة بالنسبة له أن عامله كوغد ، حيث إن دوراً أكثر جاذبية فى فريق التصوير السينمائى سيفتح له شهيته السينمائية ، ولعل هذا كان يمكن أن يغير للأبد مسار حياته بتأجيل ، أو ربما إلغاء مواعيده مع " العقيد لا يجد منْ يُراسله" فى باريس ، ثم " مائة عام من العزلة" فى المكسيك ، ثم " خريف البطريرك" فى برشلونة ، ومع كتب أخرى أساسية سيتمكن من كتابتها ربما بفضل إخفاقاته المتكررة فى مجال السينما.

ولكن باريس كان من غير الممكن أن تغيب عن خط سيره الحياتى والأدبى. فعندما وصل فى قطار روما فى تلك الليلة من شهر ديسمبر١٩٥٥ ، كان جارثيا ماركيز يعتقد - مثل أستاذه هيمنجواى - أن باريس بالفعل عيد" ليس بسبب كونها مدينة عالمية ، ولا بسبب أسطورتها الأدبية وأضواء وزينات أعياد الميلاد ؛ بل لأنَّه وجد فيها المحبين يتبادلون القبلات فى جميع الأنحاء: فى القطارات ، والحافلات ، والميادين ، والحدائق ، وصالات السينما والمقاهى(٢٧). فبالنسبة لمواطن كاريبى خام ، وخيالى وحسى ؛ فإن المتعة المتكررة للحب فى مقهى عام جعلته يشك أن مدينة النور ، التاج الذى " يتوق له كل الرجال" كانت أكثر بكثير مما قاله أستاذه الأمريكى: إنها جنة عدن الخالدة ، حيث يستطيع الإنسان أن يرتكب الخطيئة دون أن تُطبق عليه فكرة الخطيئة الأصلية ، لأنه حتى فى مدينة روما الألفية بتاريخها العريق فى فنون الغرام بدا له فيها أن الحُبَّ لا يزال شيئًا نادراً يلفه الحياء والرزانة .

إنَّ باريس هى باريس تلك المدينة التى قال عنها نيرودا " إن الزمن يمرُّ وباريس باقية". إنهاالمدينة القادرة على تحويل بعض الموضات البسيطة إلى حركات أدبية وفنية مثل السريالية ، أو على تحويل الولادة المؤلمة إلى حرب الجزائر ، وأحداث مايو ٦٨ ، وتظل هى خالدة تضطجع على ضفاف نهر السين ، إنها مدينة التدفقات الطليعية والعطور التى لا تتبدل ولا تتغير ، وربما لهذا كانت تتعلق بها آمال الغريب ، وقد يعانى فيها الدخلاء من الجوع. وسوف يعانى جارثيا ماركيز من ذلك بعد وقت قليل سواء فى حالة اليقظة أو فى حالة النوم. ولكن على الرغم من ذلك ، وفى هذا التناقُض العجيب للحضارة الأوروبية ؛ فإن قصاص ماكوندو - حيث يحدث كل شىء حقيقة - سيعيش عامين بين المُتع والملذات والظلال (ظلال عميقة ومقلقة) ، لكى يكتب إحدى قصصه الممتازة ، ولكى يكتسب منظوراً حُراً وواضحاً لكولومبيا وأمريكا اللاتينية.

ولم يستطع أن يجد – حينذاك – مكانًا أفضل من شارع كوجا فى الحى اللاتينى – وهو شارع كان يعيش فى فنادقه كثير من مواطنى أمريكا اللاتينية المنفيين اضطراريًا أو اختياريًا ، وقد بدأ هذا الشارع يُعرف باسم قبيلة آل كوجا – ذلك أنه كان عصر الديكتاتوريات المنتشرة فى أمريكا اللاتينية مثل روخاس بينيا فى كولومبيا، وخوان دومينجو بيرون فى الأرجنتين ، ومانويل أودريا فى بيرو ، وأناستاسيو سوموثا فى نيكاراجوا ، ورفائيل ليونيداس تروخيو فى سانتو دومينجو ، وفولخينثيو باتيستا فى كوبا ، وبيريث خيمينيث فى فنزويلا. وبعد الأيام الأولى فى مقرات الإقامة بالائتلاف الفرنسى فى البوليفار استقر جارثيا ماركيز فى الفندق التالف المسمى فلاندرى ، الذى يُديره الزوجان لا كرويكس ، ويقع أمام فندق جراند سان ميتشيل ، حيث كان يعيش مواطنون آخرون من أمريكا اللاتينية مثل الشاعر الكوبى نيقولاس جيين ، بالإضافة إلى الطالب الشاب الذى كان قادمًا اليوم من مايوركا وهو بيلينيو أبوليو ميندوثا ، الذى سيصبح أحد أفضل أصدقائه ، وسيكون صحفيًا كولومبيًا بارعًا. وعلى الرغم من أنَّ لويس بيار بوردا كان قد عرَّفهم عليه منذ سبع سنوات فى مقهى مغمور فى بوجوتا ؛ ففى الواقع أنهما كانا يعرفان بعضهما البعض عن طريق الصحافة والأصدقاء المشتركين أكثر من التعرف فى ذلك اللقاء العابر فى أواخر الأربعينيات.

إنَّ بلينيو ميندوثا هو نجل الصحفى الشهير والسياسى الأشهر بيلينيو ميندوثا نيرا (المساعد الوثيق للزعيم الليبرالى خورخى إلييسر جايتان ، ومدير المجلة التقدمية " السبت") ؛ وقد شهد إلى جانب والده مقتل جايتان على أيدى السقيم خوان سيًّرا ، مما ترك بصمات إنسانية وسياسية لاتُمحى على بيلينيو. وقد بدأ بيلينيو وهو لا يزال مُراهقًا فى نشر نثرياته الغنائية الأولى فى مجلة" السبت" ، وقد قرأ هذه النصوص الطالب الجامعى جارثيا ماركيز(٢٨) فى الفترة التى رآه فيها لأول مرَّة. كان جارثيا ماركيز فى الصف الثانى بكلية الحقوق وما لبثت صحيفة الاسبكتادور" المشاهد" أن نشرت له قصصه الأولى. إن نشر النثريات الغنائية الأولى لبلينيو كان بفضل والده ، وقد قرأها الشاب الساحلى وهو فى العشرين من عمره ودُهِش لإنتاج بيلينيو ميندوثا وهو لم يتجاوز السادسة عشرة من العمر.

وما كان يجهله بيلينيو هو أنَّ الشاب الساحلى كان منذ سنوات ثيباكيرا قارئًا مواظبًا لمجلة والده ، وخاصة الملحق الأدبى الذى كان يديره عضو جماعة " حجرٌ وسماءٌ"

الشاعر إدواردو كارَّانثا ، وعلى غرار هذا الملحق قام جارثيا ماركيز طالب الثانوية بإعداد صحيفته الأولى " المجلة الأدبية" ، وقد أفرد قسمًا أو بابًا فيها تحت عنوان "النثريات الغنائية لخابيير جارثيس" ، حيث كان قد نشر أيضًا فى يوليه ١٩٤٤ أول نص غنائى له " لحظة نهر"(٢٩).

وهذا يعنى أنه نفس ما حدث مع أصدقاء كبار لجارثيا ماركيز (موتيس وثيبدا ساموديو وفوينمايور بارجاس) حيث إن الأدب والصحافة سبَّبا التقارُب بينهم قبل أن تجمعهم الحياة فى صداقة قبيل عيد الميلاد فى حانة لا تشوبى الباريسية بالحى اللاتينى. وقد تحدثا هذه المرَّة عن الحياة والصحافة والأدب على وجه التحديد.

لقد كان بيلينيو ميندوثا مع مواطنين كولومبيين آخرين : الكاتب أرتورو لاجوادو أستاذ الرياضيات والأديب كارلوس أوبريجون ، وعندما رآه يرتدى معطفه ذا اللون الجملى المزود بقطع من الجلد ، ونفس الشعر الأسود والمجعد ، ونفس الشارب المشذَّب جيدًا ، ونفس الزائدة الجلدية خاصة ، وأنَّهما كانا معروفين فى الصحافة الكولومبية بعد نشر " الورقة الساقطة". وتحدثا عن القصة ، وعن فوكنر ، وعن منصبه كمراسل فى جنيف وروما والبندقية. ولكن جارثيا ماركيز بالنسبة لبلينيو لم يكن ظريفًا خفيف الظل: لقد بدا له رجلاً متغطرسًا من طريقة كلامه ، حيث يتحدث عن بعد وبكثرة لدرجة أن بيلينيو ميندوثا اعتقد أن أمجاده الأولى استولت على عقله ، وربما يكون قد أصابته عدوى هؤلاء المختارين التى تصيب بعض مواطنى بوجوتا(٣٠).

ومع ذلك ففى الليلة التالية لعيد الميلاد تبددت هذه الإيحاءات عندما دعاه بيلينيو على العشاء مع أصدقائه فى منزل المثَّال الكولومبى إيرنان بييكو فى شارع جينجاود ، وبجوار دفء المدفأة تناول الجميع فخذ خنزير لذيذًا وشهيًا مع سلاطة وخمور بورديو ، حيث خلع الصحفى القناع ، وبدأ يغنى على أنغام الجيتار أغانى والده فى التعميد رفائيل إيسكالونا. وكان جابو أخويا ودودًا بسيطًا ومتواضعًا يتحرك بحريته الحقيقية ، وهذا الأمر لم يعرفه بيلينيو ميندوثا إلا بعد ثلاثة أيام بعد ذلك عندما كسا الجليد الشوارع وأسطح المنازل وحدائق باريس. فقد تساقط الجليد بغزارة ، وقد غيَّر شكل العالم ، وقد غيَّر بالمرَّة صورة جارثيا ماركيز التى كوَّنها بيلينيو عنه. ويتذكر حينئذٍ بيلينيو أنَّ

مواطن أراكاتاكا القريب في السعادة ، والسعيد في الانفتاح على الآخرين بدأ يجرى فى ميدان لوكسمبرج ، وفي بوليفارد سان ميتشيل محتفلاً بمعجزة الجليد الذى لم يكن موضوعًا أدبيًا فى بطاقات تهانى أعياد الميلاد وقصص الجان ؛ بل كان معجزة حقيقية للماء المتجمد مثل الثلج الذى عَرَفه فى الخامسة من عمره بواسطة جَده فى إدارة الأمن بشركة الموز.

وقد سَعِدَ بيلينيو ميندوثا بالأمرين: " الحمد لله أنه مجنون" ، وفكر باقتناع بأن ذلك كان بداية صداقة طويلة وعميقة[٢١]. وبمرور الوقت أصبح والده فى العماد ورفيق مغامراته الصحفية وأفكاره السياسية فى باريس وكاراكاس وموسكو وبوجوتا وهافانا وبرشلونة. وقد قضى الاثنان هذا الأسبوع الأخير من شهر ديسمبر ويناير كاملاً جنبًا إلى جنب ، حيث طافا بكافة الأماكن العالمية بالمدينة الخالدة ، وزارا الأصدقاء الجُدد حتى عاد بيلينيو ميندوثا إلى كاراكاس ، حيث كانت تعيش أسرته نفيًا طويلاً ، وبدأ يعمل فى مجلتى " الصفوة " و " اللحظة ".

ومع ذلك فلم تكن باريس هذه الحسناء النجيبة الأصلية المدينة الأولى التى حدت من نشاطه ككاتب ؛ بل ديكتاتورية بلاده؛ فقد رفعت صحيفة الاسبكتادور" المشاهد" ، مثل باقى الصحافة الديموقراطية العديد من الدعاوى القضائية ضد روخاس بيلينيو ، وقد اضطرت إلى إغلاق أبوابها طيلة – ما يربو على العامين. إنَّ نبأ إغلاقها قرأه الصديقان جارثيا ماركيز وبيلينيو ميندوثا فى صحيفة لوموند فى مقهى بشارع إيكويس. ولم ينتب القلق جارثيا ماركيز مؤقتًا لأن هدفه كان البقاء فى فرنسا أطول وقت ممكن ؛ فهو يريد التفرغ لكتابة قصصه ورواياته التى تم تأجيلها أكثر من مرَّة. ولكن الرسائل لم تعد تحمل الشيكات من الصحيفة ، وفى أوائل فبراير لم يكن معه ما يدفع إيجار غرفته لمدام لا كرويكس؛ فقامت بإرساله إلى غرفة صغيرة فى الطابق السابع حتى يستطيع سداد الإيجار ، وفعلت ذلك لما رأته يكتب دائمًا حتى الصباح.

ويبدو أن الوضع الاقتصادى بدأ فى التحسن عندما صدرت فى ١٥ فبراير صحيفة " المستقبل" ، وهى الصحيفة الجديدة التى حلت محل الاسبكتادور" المشاهد" ، وقد أشرف عليها خلال شهورها الأولى الرئيس السابق ، والرئيس القادم ألبرتو بيراس كمارجو ، وهو سياسى صبور ومثابر يُجيد عدة لغات ، وكاتب وصحفى هائل.

وفى الصحيفة الجديدة نشر جارثيا ماركيز تحقيقه الجديد فى ستة عشر جزءًا " عملية أسرار فرنسا"[٣٢] ، ومع ذلك ؛ فقد كانت الشيكات تصل متأخرة على الرغم من الرسائل التى لا حصر لها المرسلة من الصحفى إلى رئيس التحرير ، والتى سرد له فيها أدق التفاصيل المأساوية لمغامراته وظروفه المادية المتعثرة. واعتباراً من شهر أبريل أشد الشهور قسوة توقفت الشيكات عن الوصول إلى الصحفى فى باريس. وعند إغلاقها فى ١٥ أبريل أرسلت الصحيفة تذكرة العودة بالطائرة إلى كولومبيا، ولكن جارثيا ماركيز استرد ثمنها وقرَّر البقاء للعمل فى فرنسا فى " قصة المنشورات "[٣٣] ، حيث قضى ثلاثة أشهر من المعاناة والكروب.

وكان جارثيا ماركيز قد اعترف لبيلينيو ميندوثا ذات مساء فى ديسمبر عندما التقيا فى حانة لا تشوبى الباريسية أنه عازمٌ أخيرًا على كتابة " قصة المنشورات" ، قصة قديمة تطارده منذ سوكرى ؛ تلك القرية التى عاشت فيها أسرته اثنى عشر عامًا ، وحيث قضى الكاتب أعظم أجازاته الهادئة والسعيدة خلال مرحلة دراسته. كانت القصة غامضةً مبهمةً ، ولكنها تتعلق بكرامة وأمن أهل سوكرى ، كانت كسيف داموكليس. لقد بدأت تظهر أواخر الأربعينيات المنشورات المجهولة على حوائط سوكرى ، حيث تبادل أهلها كافة صنوف الاتهامات. إن هذه المنشورات التى تبعث على القلق ، خاصة فى حالة فرض الأحكام العرفية فى البلاد لتكميم الأفواه ، والقضاء على العُنف الذى كان قد اجتاح البلاد ، وأدى إلى ظهور هذه المنشورات ، وإلى حالة من الذعر الأخلاقى والاجتماعى والسياسى ، مما اضطر كثيراً من الأسر للهجرة كأسرتى بارتشا و جارثيا ماركيز. وقد أدرج الكاتب أيضًا فى القصة حادثة أخرى وقعت فى الشهور الأولى لعام ١٩٤٠: ذُبِح خواكين بيجا قارع الطبل فى فرقة سوكرى الموسيقية على أيدى زوج عشيقته، وبهذه الواقعة ، والصورة الحرفية للقرية ودرجة حرارتها التى تبلغ ثلاثين درجة مئوية فى الظل ، ونهرها الذى تكسو النباتات شاطئيه. حبس جارثيا ماركيز نفسه ليلة فى غرفته بفندق فلاندرى حتى كتب عشر صفحات ، حينئذ أدرك أنَّ الذى بين يديه ليس حكاية بل قصة. حينئذٍ وضع خطة تفصيلية ، وبدأ العمل بحماس فى كتابتها ، وقد ظهرت بعد ذلك ببضع سنوات باسم "الساعةُ المشئومة".

كان يكتب دائمًا بالليل مرتديًا الملابس الثقيلة ، وقدماه قريبتان دائمًا من فتحات التدفئة ، وذلك لأن البرد والضجيج كانا يعوقانه عن العمل. وكانت صورة خطيبته

مرسيدس أمام عينيه إنها "تمساحَه المقدس" ، وعبر النافذة كانت تُلمح من بعيد أسطح منازل الحى اللاتينى كعيون الزمن القديمة ، مما كان يعوضه نفسياً عن الغرفة الضيقة ذات السَّقف المنخفض والمائل. وكان الأثاث متقشفًا: دولاب صغير وسرير بسيط وكمودينو عليه مصباح ؛ فضلاً عن المنضدة التى كان يكتب عليها بآلته الكاتبة الحمراء المتنقلة ، تلك التى كان قد باعها له بيلينيو ميندوثا بأربعين دولاراً[٣٤]. وكانت ساعة جامعة السوربون تسرع فى مرور الوقت ، ولكن ماركيز كان يتتبع وقت شخصياته البطئ ، ورويداً رويداً يكتب الصفحة تلو الصفحة ، ويدخن سيجارة تلو الأخرى حتى الصباح الباكر عند مرور عربة جمع القمامة ، أو يسمع أصوات الدعاية لبائع الخرشوف: حينئذٍ كان يعود من الزمن الخيالى ليأوى إلى فراشة ، ليستمر فى استنشاق الهواء المفعم بدخان علبتى سجائر زهيدتى الثمن.

وكان يستيقظ فى منتصف النهار ، ويستحم فى حمامات الفندق العامة ويرتدى أحد بنطلونيه الجينز ، وسترة قديمة من الصوف وتلفيحة ، والمعطف ذا اللون الجملى المزين بقطع من الجلد. وكانت السيدة الطيبة مدام لا كروكس – فى بهو الفندق – تتحدث معه دائمًا وتسلمه مراسلاته ؛ بينما كان يداعب قططها المقعية على المكتب.

وفى أزقة الحى اللاتينى كانت هناك دائمًا رائحة القسطل المشوى " أبوفروة " ، الذى اختلطت رائحته برائحة القرنبيط المسلوق ، وكانت تُسمع موسيقى الأكورديون التى كان يحنُّ إليها من قبل ، حيث كانت تُذاع أغانى جورج براسنيس التى يفضلها الأسيويون والأفارقة ومواطنو أمريكا اللاتينية الذين كانوا مثل جارثيا ماركيز تمامًا يقفون فى طوابير طويلة ليتناولوا طعامهم فى مطاعم الحى زهيدة الثمن: الكابولادى والأكروبولى[٣٥].

وعندما يحل الليل ، وبعد زيارة الأصدقاء والأماكن ، وبعد تناول الوجبة الثالثة " العشاء" فى أى مكان ، يعود إلى فندق فلاندرى فى شارع كوجا تطارده روائح القرنبيط المسلوق (إنهارائحةُ ظلَّت تطارده حتى " مائة عام من العزلة" ، و " أثر دمك على الجليد ") ثم يصعد الطوابق السبعة درجة درجة ليحبس نفسه من جديد فى غرفته الصغيرة جداً ليعمل فى قصة المنشورات الحائطية. ولا زالت ساعة جامعة السوربون تطارده ساعة تلو الأخرى ، ولكن هذا لم يكترث به على الإطلاق: لقد عاد ليستقر فى الزمن الأكثر بطئًا ، والأكثر دفئًا لشخصيات خياله.

إن قصة "المنشورات" - مثل قصة - "المنزل" كانت انفجاراً مليئًا بالحكايات والشخصيات التى تضاعفت تطالب بفسحة من المكان والزمن لها. وبالنسبة للورقة الساقطة ؛ فإن القصة الجديدة كانت تنطوى على صعوبة إضافية ، لأنه يريد كتابة قصة لكى يقدم إجابة من خلال معالجة مباشرة للواقع وللغة على أعمال العنف المتفشى فى بلاده منذ عشر سنوات ، مثلما اقترح عليه زملاؤه اليساريون فى العام الماضى. وفى الجو العام لقرية كسوكرى ، وفى وقائع تحقيقاته التى كان قد كتبها لصحيفة الاسبكتادور ، والساعة المشئومة لتصبح قصة عن ديكتاتورية روخاس بينيا بدرجة محدودة ، حيث إن الرئيس هو العمدة ووزير العدل هو القاضى والكاردينال هو القس الأبرشى راعى الكنيسة أو الأبرشية ، أما ممثل حكومة الأقلية هو ثرى القرية[٣٦] .

وبعد عدة أشهر من العمل المكثف ؛ بدأت إحدى الشخصيات الثانوية تنمو وتكتسب ثقلاً ذاتيًا ، حتى خرجت من القصة وطالبت بمعالجة على حدة. كان عقيداً عجوزًا من "حرب الألف يوم" نُفى من ماكوندو والورقة الساقطة لأن رائحة الموز كانت تتعب أمعاءه ، وقد وصلت إلى " القرية" (لم تظهر سوكرى باسمها الحقيقى)، وقد جلس ينتظر معاشه كمحارب قديم ، بينما كان يرعى ديكًا للمصارعة ، كان أمله الوحيد فى الحياة. وفى ربيع ١٩٥٦ اضطر جارثيا ماركيز إلى هجر الخمسمائة ورقة لقصة المنشورات بعد ربطها برباط عنق ملون لكى يتفرغ للاهتمام بمطالب العقيد الشخصية القنوعة والمكثفة والمحببة إلى قلبه من جميع الشخصيات التى ابتكرها خيال جارثيا ماركيز. وعندما جهَّز كتابته الأولى لروايته " العقيد لا يجد منْ يُراسله" ، حلَّ فصل الصيف كرصاص ذائب فوق أسقف الحى اللاتينى ؛ كما تراكمت ديونه المستحقة عليه لمدام لا كرويكس شهراً تلو الآخر[٣٧].

وخلال هذه الأشهر - التى كانت أصعب شهور قضاها فى حياته ، حيث كان قد طلب مساعدات من جميع أصدقائه. وقد تلَّقى خيرمان بارجاس فى بوجوتا ؛ علاوة على ذلك مطلبًا غريبًا بعض الشيء: لقد طلب صديقه منه كتابًا عن ديوك المصارعة ؛ أفضل الكتب فى هذا الصدد وفى أسرع وقت ممكن ، حيث يتحدث عن مختلف السلالات ومميزاتها وسماتها ، وكذلك كيفية سير العمل فى حلبات مصارعة الديوك. ولم يكن

هناك كتابٌ فى هذا الصدد. والشخص الوحيد الذى يستطيع كتابة ذلك كان كيكى سكوبيل وهو فى هافانا. وقد طلب خيرمان بارجاس ذلك من كيكى سكوبيل ، وبعد بضعة أشهركان لدى جارثيا ماركيز أفضل كتاب فى غرفته الباريسية عن مصارعة الديوك كُتِبَ فى كولومبيا(٣٨).

وبلا شك؛ كان هذا العام هو عام البؤس بالنسبة للكاتب. وبمقارنة هذا العام بأعوام الشقاء والبؤس والفقر فى قرطاجنة وباراًنكيا ، كانت هذه سنوات بؤس ذهبية لأنه كان بطول وعرض الكاريبى هناك أصدقاءُ فى كل مكان يستطيع الاقتراض منهم ؛ فقد كان قريبًا إلى قلوبهم. ولكن باريس هى باريس. فقد كان يراها تنتقل من البرد إلى الحر ، ومن الحر إلى البرد طوال العام من خلال نافذة غرفته الصغيرة ؛ كما أن مرور الفصول الأربعة لم يترك أدنى بصمة أو أثر فى مملكة أمتعته الجوهرية التى لا تتغير. لقد كان ماركيز يتآكل حيًا كشخصية قصته.

وكما يتذكر جارثيا ماركيز نفسه اضطر للمعيشة على المعجزات اليومية ، لأنه استحال عليه إيجاد عمل فى باريس: فقد كان يتحدث الفرنسية قليلاً ، ولم تكن لديه أدنى إمكانية لكى يمنحوه تصريح العمل؛ ولذلك فبينما كان يكتب قصصه كان يخترع ويبتكر يوميًا طُرقًا للدفاع عن حياته ، وكيف يعيش حياته يومًا بيوم. وعندما أنفق ثمن تذكرة العودة إلى بوجوتا اضطر لاستبدال الزجاجات الفارغة والمجلات والصُحُف القديمة مقابل بعض الفرنكات الفرنسية. ولحُسن الحظ لم تنقصه على الإطلاق زجاجة خمرٍ ورغيف خبز على المائدة ، وكان دائمًا يجد مطبخ أحد الأصدقاء تحت تصرفه لكى يعدَّ المكرونة الاسباجيتى ليسد بها رَمَقَه. ودائمًا كانت هناك حيلة ؛ ذلك أنه ومواطنيه من أمريكا اللاتينية الذين كانوا يعيشون نفس ظروفه اكتشفوا أنه اذا اشترى أحدهم شريحة من اللحم يقوم الجزار بإهدائه قطعة من العظام لإعداد الحساء ، وأحيانًا كان الواحد منهم يستعير قطعة عظم لإعداد حسائه ثم يردها فيما بعد(٣٩).

وكــان يُفكر حينذاك بـأنَّ كل يوم يمكثه فى باريس يستطيع إضافة صفحة إلى كتابه ، وبالتالى كان يحقق انتصارات صغيرة فى التغلب على الصعوبات متمسكًا فى كل مرة بأحلامه التى لا تتزعزع لكى يكون كاتبًا. ولكن جاء اليوم الذى اضطر فيه إلى أنَّ

يطلب فرنكًا فى المترو. فقد استيقظ فى الصباح وأيقن أن وضعه خطيرٌ . وقد كان الحماس الذى يعمل به فى كتابة قصصه حماسًا كبيرًا ، والنتيجة مُرضية للغاية، وأن كرامته يقظةٌ فى المقام الأول ، مما جعله يتحمل أحلك الظروف السيئة للبقاء على قيد الحياة ، ولكنه عندما اضطر للسؤال ليطلب فرنكًا لأن المحطة كانت قد فاتته دون أن يُدرك ، وليس معه ما يسدد به تذكرة العودة. أحس حقيقة بحرج بالغ لأن المواطن الفرنسى مختل المزاج الذى أعطاه الفرنك لم يرد الاستماع إلى مبرراته(٤٠).

ومع ذلك فإلى جانب عمله كصحفى ، الذى سيستأنفه فى سبتمبر من نفس العام بمجلة " الصفوة" فى كاراكاس ، وجد فرصة كريمة ليكتسب قوت يومه وذلك فى الغناء فى " لا أسكالى" نادى ليلى بشارع مسييه ليه برنثيس ، حيث كان يتجمع المطربون والهواة الأمريكيون اللاتينيون الموجودون فى باريس ، ولكنه لم يغن الأغانى الشعبية على الجيتار والناى كأفضل عمل يُجيده بعد الكتابة ، ولكن أغانى ريفية مكّونًا ثنائيًا مع الرسّام سوتو دى الفنزويلى . ومقارنة بما حدث فى مجمع الجرائد ؛ فإن الليلة فى النادى الليلى كانت سخية : فقد كان يحصل على خمسمائة فرنك فى الليلة أى ما يربو قليلاً على دولار أمريكى(٤١).

كان ذلك خلال العام الصعب الذى ملأ فيه جارثيا ماركيز صناديق بريد أصدقائه بالرسائل التى تعبر عن حالته المادية التى يُرثى لها: لألبارو موتيس ، وخيرمان بارجاس فى بوجوتا ، وإلى رودريجو أريناس بيتناكور فى المكسيك وإلى بيلينيو ميندوثا فى كاراكاس، وإلى ألفونسو فوينمايور وألبارو ثيبيدا ساموديو ، وأليخاندرو أوريجون فى بارّانكيا . وكان يرفقها أحيانًا ببعض المقالات لكى ينشرها له فى أى مكان مقابل بعض النقود(٤٢). وبالطبع كان أصدقاؤه يساعدونه فى تلك الظروف الصعبة ، ولكن البريد فى ذلك الحين لم يكن سريعًا ، إلى جانب أن ضوائقه المالية اليومية ساعدت أيضًا على التباطؤ فى الرد على مراسلاته. ومع ذلك ؛ فإن الأسباب الحقيقية للتأخير هو أنّ أصدقاءه كانوا يضطرون لشراء الدولارات ، ولم يكن ذلك بالأمر اليسير حينذاك، وهناك ما هو أصعب حيث كانوا يضطرون إلى إيداعها فى رسالة محاولين بكل السُبل تفادى رقابة النظام الديكتاتورى الذى كان بكل تأكيد قد وضع اسم جارثيا ماركيز فى قائمته السوداء.

وبمجرد أن تلقى بيلينيو ميندوثا طلب النجدة فى كاراكاس ، وكانت لديه مسئوليات فى إدارة مجلة الصفوة ، بدأ ينشر له مقالات وتحقيقات عاجلة مخففًا عنه تلك الظروف الصعبة وحالة الاحتياج التى كان يمر بها. أما ألفونسو فوينمايور ، وخيرمان بارجاس ، وألباروثيبيدا ساموديو ، وأليخاندرو أوبريجون ؛ فقد قاموا من جانبهم بتأسيس ساجا " جمعية الأصدقاء لمساعدة جابيتو" ، واشتروا ورقة فئة المائة دولار واجتمعوا فى مكتبة الموندو " العالم" ليتشاوروا فى كيفية إرسالها لصديقهم فى باريس. وقد أعطاهم خورخى روندون صاحب المكتبة وعضو الحزب الشيوعى الحلّ ، شارحًا لهم كيف أنَّه تعلم فى البيت الشيوعى فى بوجوتا فتح بطاقات المعايدة البريدية نصفين لإرسال رسائل سرية. وبالتالى اتبع أصدقاؤه نصائحه حرفيًا ووضعوا العُملة الورقية فى بطاقة المعايدة البريدية وأغلقوها بدقة بالغة ، وأرسلوها إلى جابيتو إلى جانب تحياتهم الحارة إلى فندق فلاندرى بشارع كوجا رقم١٦ . وعندما كانوا فى مكتب البريد انتبهوا إلى احتمال ألا يدرك صديقهم هذه الحيلة فلن يعرف بأية حالة من الأحوال أنَّ فى البطاقة المرسلة مائة دولار ؛ ولهذا أرسلوا له على الفور رسالة يشرحون له فيها الحيلة التى لجأوا إليها. وبعد أسبوع ، وعندما كان جارثيا ماركيز يهبط من غرفته الصغيرة بالفندق ليتناول طعام الغداء قامت مدام لا كرويكس بتسليمه بطاقة المعايدة ؛ وكما ظنَّ أصدقاؤه لم يجد فيها سوى التحيات والأشواق الحارة وأطيب التمنيات التى لن تخدمه فى ظلِّ هذه الظروف الصعبة استاء أشد الاستياء وقال : يا سفلة ! أو ياقوادون ! ، وألقى بالبطاقة فى سلة القمامة ، ولكن لحُسن حظه وصلته فى نفس المساء الرسالة الأخرى ، وأسرع جارثيا ماركيز على الفور للبحث عن البطاقة الغالية بين القمامة: ووجدها كما هى[٤٢].

وقد وجد المؤلف منْ يكتب له على الأقل ، حتى ولو كان ذلك متأخرًا ، لأنه كان فى أمسِّ الحاجة لذلك ، ولكن العقيد العجوز فى قصته ، فى الوقت الذى كان يكبر فيه كان يتغذى من نفس الجوع الذى عانى منه الكاتب ؛ لقد ظلَّ ينتظر طوال ما تبقى من حياته معاش التقاعُد الذى لم يصل على الإطلاق.

إنَّ الصورة المحددة التى رسمها جارثيا ماركيز لشخصيته كانت لرجلٍ فى أوائل الخمسينيات ينتظر مركبًا فى سوق السمك ببارَّانكيا " بنوع من القلق والكرب

الصامت"[٤٤]. وبمرور الزمن أصبحت تلك الصورة مقترنة بشكل طبيعى بحكاية جده نيقولاس ماركيز ، الذى ظلَّ ينتظر طوال خمسة وثلاثين عامًا معاش التقاعُد ، نظرًا لاشتراكه فى" حرب الألف يوم". لقد كانت أيضًا قصه الجنرال خوسيه روساريو دوران فى أراكاتاكا ، والعقيد كليمنتى إيسكالونا فى بايدوبار ، وعُقداء وجنرالات آخرين فى طى النسيان ، والذين تعامل معهم الكاتب بعمق أثناء أسفاره إلى قُرى الكاريبى فى كولومبيا ، وستعود لتكون قصة قُدامى محاربى حرب كوريا التى حكى لنا عن مأساتها فى تحقيقات ممتازة.

وفى فبراير ١٩٥٥ وهو فى بوجوتا ظلت صورة هذه الشخصية تنضج ملامحها وسماتها ومصيرها ، عندما شاهد ماركيز فيلم أومبرتو لبيتوريو دى سيكا وثيسارى زفاتينى. وطبقًا لما سيعترف به جارثيا ماركيز ؛ فإن شخصية أومبرتو ، دومينيكو فيرَّارى " ذكَّرته بجده تمامًا"[٤٥] ، بسبب مأساوية الكرامة وطول الانتظار، الانتظار الذى كان فى حالة العقيد نيقولاس ماركيز أسبوعيًا ، وفى وقت محدد دون سابق إنذار ، وكان يسبب للحفيد مزيدًا من الضحك عندما كان يرافقه دائمًا كل خميس إلى مكتب البريد ولذلك فإنَّ شخصية العقيد العجوز انفصلت بنفسها عن قصة المنشورات الحائطية مطالبةً بمكان خاص لها. فكَّر جارثيا ماركيز بأن ذلك أشبه بالمسرحية الفكاهية ، ولكنه عندما وجد نفسه أيضًا منتظرًا رسالة للاستغاثة فى غرفته بفندق فلاندرى وهو يعيش معانيًا من نفس مأساة جده ، أدرك سريعًا أنها ليست بمسرحية كوميدية ؛ بل مأساة صامتة ، وأن القصة التى يكتبها أيضًا هى نفس ما كان يراه وكأن الأحداث بدأت تنطلق بين صفحات الخيال[٤٦].

وكما هو الحال فى قصة "المسخ" لكافكا ، و "الأجنبى" لكامى ، و "العجوز والبحر" لهيمنجواى ، استطاع جارثيا ماركيز أن يعبر بدقة عن أعظم استعارات الإنسان فى القرن العشرين ، مبتكرًا شخصية من نفس أحشائه الشخصية والثقافية. إن هذه الخطوة الراسخة صوب الجذور تبلورت بشكل واضح فى غرفته الصغيرة فى فندق فلاندرى ، حيث تعلَّم الكاتب على مدى عام ١٩٥٦ أنه لا شيء ولا حتى الجوع يستطيع قتل أحلام وتطلُّعات كاتب حقيقى.

وفى منتصف ذلك العام وأوائل العام التالى كتب جارثيا ماركيز القصة تسع مرّات حتى تمكن من إعداد كتاب دون شروخ أو تصدعات. كان عملاً صغيراً فذًا ليس فيه زيادة ولا نُقصان ، سواء فيما يُقال أو فيما يدخل فى دائرة الصمت ، ولكن أصدقاءه وقرّاءه انتبهوا لذلك لأن الكتاب ظل لمدة عام ونصف العام ينتقل من مدينة إلى أخرى ، ومن ناشر إلى آخر دون أن يجرؤ أحد على نشره. وقد أرسل نسخة منه على ورق الصُحُف إلى جييرمو أنجولو فى روما ، الذى وصل إلى مركز السينما التجريبى ليتتبع خطواته، وإلى بيلينيو ميندوثا فى كاراكاس ، وإلى خيرمان بارجاس فى بوجوتا. إنَّ خيرمان بارجاس مثل بيلينيو نفسه أخذ النسخة وطاف بها على جميع الناشرين بحثًا عن ناشر يقبل نشرها ، ولكن دون جدوى. إنَّه فيما يبدو كتاب مُبهم وغامض ، وقد قالوا له ذلك مراراً وتكراراً ، ولكن لن نستطيع المغامرة والمخاطرة إلا إذا قمت بدفع تكلفة المطبعة حينئذٍ سنطبعه(٤٧)، والمبلغ المطلوب كان مبلغًا فلكيًا مثل المستحق على الكاتب لمدام لا كرويكس الكريمة فى نهاية العام.

لقد احتضنته فى الغرفة الصغيرة بالطابق السابع دون أن تقبض منه شيئًا ولو لمرة واحدة ، معتقدة بأنه طالما يكتب كل يوم طوال الليل دون توقف ، فإنه شخص مهم ويُعدُ شيئًا مهمًا وليس كبقية مواطنيه من أمريكا اللاتينية الذين تخصصوا فى الغناء والسُكر كل ليلة. ولكن كرمها تعدَّى ذلك بكثير : عندما توجَّه إليها جارثيا ماركيز ليسدد لها مائة وعشرين ألف فرنك قيمة متأخرات الإيجار بفضل كرم صديقه إيرنان بييكو بدا لها المبلغ كبيراً ، وقالت له : لا ، المبلغ كبيرٌ ، وما عليك إلا أن تدفع جزءًا الآن والباقى فى وقتٍ لاحقٍ.

لن ينسى جارثيا ماركيز أبداً طيبة مدام لا كرويكس صاحبة القلب الكبير ومحادثاتها عن الطقس ، وقططها السمينة التى تحيط بها. أما هى فإنها تتذكره بحبٍ وودٍ كما كانت دائمًا: " وتتذكره على أنه السيد/ ماركيز الصحفى الذى يقطن الطابق السابع".

وفى أواخر عام ١٩٥٦ ترك فندق فلاندرى فى الحى اللاتينى ، وانتقل إلى شارع أساس ، حيث شارك تاشياكينتانا وهى مواطنة باسكية متهورة نشيطة وسخية كانت تحاول إيجاد فرصة لها بالمسرح ، بينما كانت تقوم بالخدمة فى المنازل. لقد كان حبًا

عابراً لفترة وجيزة ، ولكنه كان مكثفًا ومتناقضًا بسبب اختلاف الأمزجة والمفاهيم المختلفة عن الحياة ، وسيؤدى فى النهاية إلى صداقة أبدية بينهما ، ولكنها كانت فى ذلك الوقت خير عون له فى أحلك الظروف ، حيث ساعدته فى وقت شدته. لقد كان الأصدقاء يلقبونه بالجنرال ، ووجد فيها جارثيا ماركيز الحب والعطف والطعام ومأوىً مجانيًا لكى يستطيع استئناف كتابة قصته فى هدوء وسكينة واطمئنان ، قصة " المنشورات الحائطية" حتى صيف ١٩٥٧ . وعلى الرغم من اختلاف الطباع. وأول خلاف حادٍ بينهما حدث عندما انتهرته الباسكية وقالت له: لماذا يُضيع وقته فى كتابة قصص لا تُباع ؟ ، ولماذا لا يبحث عن مهنة أخرى مُربحة؟. وكان هذا التوبيخ بالنسبة لكاتب عنيد كجارثيا ماركيز أثره الضار. ومنذ تلك اللحظة أصبح من الصعب عليه قبول رعايتها[٤٨]. حينئذٍ أدركت أن هذا العاشق المنزلى المولع بالأدب إلى درجة الموت سوف يتخلى تمامًا عن أن يردد فى حجرة الخادمة الأغانى الشعبية " لرفائيل إيسكالونا ": " جوع الليسيه" و " سارة العجوز" ، و " ملاعيب إبليس".

وفى تلك الفترة تضاعف عدد أصدقائه الأمريكيين اللاتينيين والعرب والفرنسيين: عاد بلينيو ميندوثا من كاراكاس فى أوائل مايو ، ويتذكر أن جارثيا ماركيز كان له زمرة تضم اثنى عشر صديقًا كولومبيًا أوفياء وبوهيميين كانوا يعيشون بأى شكل ويجتمعون يوم الجمعة فى غرفة صغيرة فى شارع شيربينى، ولكنه مع المقربين الكولومبيين فقط ومواطنيه من أمريكا اللاتينية كان يجتمع بهم فى غرفة تاشيا حول وجبة إسبانية قوامها اللحوم البحرية والأرز والمتبلات مخلوطة فى إناء واحد ، فضلاً عن الخمور الممتازة للاحتفال بمعجزة أنهم لا يزالون على قيد الحياة يحلمون. وكان من الشائع أن يحمل كل منهم زجاجته من الخمر وقطعة من السجق وقطعة من الجبن: هكذا كان يفعل بلينيو ميندوثا ، وإيرنان بييكو وأرتورو لا جوادو ، ولويس بيًار بوردا عندما كان يأتى من ليبيزج لتجديد تأشيرته.

وبين كأس وآخر ، وبين الحنين والحنين كانت هناك بصفة دائمة أغانى أتاوالبا يويانكى ورفائيل إيسكالونا وجورج براسينس ، كما كان جارثيا ماركيز يغنيها على أنغام الجيتار " القيثارة". وفى ذلك الوقت لم يتمكن فقط من فك طلاسم التلاعب بالألفاظ فى أغانى براسينس ؛ بل كان ذواقة لمختلف أنواع الجبن والخمور ، وأصبح خبيراً فى لغة التورية

فى باريس . وقد دُهش بيلينيو ميندوثا كيف أن جارثيا ماركيز بهذه السرعة ، وفى عام ونصف فقط ، استطاع على ما يبدو أن يستحوذ على المدينة على الرغم أنه كان لديه وقت كافٍ يثبت ويتأكد من أن باريس لم تكن عيداً ؛ بل كانت وحشاً: كانت أشبه بأرقام اليانصيب.

وبغض النظر عن الأحلام ، وعن أصناف الجوع الذى عانى منها الغريب ، فلا زالت باريس تستأثر بكيمياء زمنها بالموضات والرجال ، تجعل الوجودية جاذبية سياحية اعتباراً من مقاهى سانت جيرمان دى بريس حيث كان سارتر يعرضها وكأنها فضول عالمى ، حتى أستاذه إيرنست هيمنجواى العاشق الأبدى لأفراح باريس بدا لجارثيا ماركيز شخصاً نحيفاً عندما رآه مع زوجته فى شارع بوليفار سانت ميتشيل ذات يوم فى فصل الربيع. وقد نظر إليه وأطال النظر إليه مثلما فعل مع أستاذه الأمريكى ويليام فوكنر ، ولكن خجله الجم جعله يتجمد بلا حراك على الرصيف المقابل دون أن يعرف ماذا يفعل ، واستطاع فقط أن يصيح واضعًا يديه على فمه قائلاً : أستاذى ولكن هيمنجواى التفت رافعًا يده إلى أعلى وردَّ عليه دون أن يراه تقريبًا: مع السلامة ياصديقى(٤٩). وبالطبع لم يشك الأستاذ أبداً فى أنَّ الرجل الصغير المجهول الذى حيَّاه من على بعُدٍ انتهى من كتابة عمل صغير رائع بتأثير أستاذه جديرٌ بأن يُوضع إلى جانب "العجوز والبحر" ، وأنه بمرور الوقت سيُصبح تلميذه الأكثر تفوقًا وعالمية من بين كافة تلاميذه وأقرانه .

ومع ذلك لم تكن حرب الجزائر حتى تلك اللحظة موضة ؛ بل كانت واقعًا محدداً ، وقد عانى جارثيا ماركيز الأمرَّين من جراء ذلك بسبب قسمات وجهه العربية ، وذات ليلة عند خروجه من السينما اعتقلته الشرطة الفرنسية على أنه جزائرى ، وضربوه ، واقتادوه إلى قسم شرطة سان جرمان دى بريس مع الجزائريين الحقيقيين الذين ارتسمت على وجوههم علامات الحزن ، كما تميزوا بكثافة شواربهم ، وقد ضُربوا أيضًا مثلما حدث لجارثيا ماركيز. ولكى يخففوا عن أنفسهم آلام الضرب فى تلك الليلة ظلُّوا يغنون حتى الصباح أغانى جورج براسنيس ؛ حينئذٍ أصبح صديقًا لهم وخاصة مع الطبيب أحمد سيبال الذى استطاع أن يُقربه ويُطلعه على قضية بلاده(٥٠). وكانت تلك الفترة التى كتب فيها عدة تحقيقات عن حرب الجزائر ومشكلة قناة السويس.

وعلى الرغم من ذلك لم تكن تلك اللحظة هى اللحظة الخالدة أثناء إقامته القاسية في باريس ، بل كانت تلك اللحظة التى عبر فيها كوبرى سان ميتشيل فى اتجاه ثيتى ، ورأى رويدًا رويدًا فى الضباب وجهًا وعينين كانتا تبكيان :حينئذٍ تجمَّد قلبه لأنه اعتقد نفسه عائدًا من إحدى مجاعاته(٥١).

هكذا وجد بيلينيو ميندوثا جارثيا ماركيز فى أوائل مايو : وقد فقد ماركيز خمسة كيلو جرامات من وزنه ، كما أن بشرته تؤكد أنه عانى الأمرَّين من الجوع ، كما أن حروف آلته الكاتبة قد تآكلت أيضًا(٥٢) ، ولكنه وجد معه عملاً صغيرًا رائعًا أكثر عالمية يطغى عليه الطابع الكولومبى واللاتينى الأمريكى ، أكثر حكمة ، وأكثر صبرًا ، ولكن بفضول هائل تجاوز كل الحدود. وهكذا اضطرا للسفر سويًا خلال الصيف إلى الألمانيتين (الشرقية والغربية) وروسيا وأوكرانيا.

إنَّ السفر إلى ألمانيا الشرقية كان تأكيدًا لما رآه جارثيا ماركيز فى بولندا وتشيكوسلوفاكيا خلال خريف ١٩٥٥: إنَّ الاشتراكية المصدَّرة من الاتحاد السوفيتى كانت بمثابة قميص للمجانين يخنق هذه الشعوب ، لأن الثورة لم تنبع من احتياجاتها التاريخية الخاصة ؛ بل جلبوها من موسكو " فى صندوق ليفرضوها عليهم دون استشارتهم". وفى ليبيزج – على وجه الخصوص – تعززت تأكيدات الكاتب.

وكانت الفكرة تكمن فى اجتياز الألمانيتين للوصول إلى برلين الشرقية مرورًا بهايدلبرج وفرانكفورت ويمار وليبزج ، حيث كان ينتظرهما لويس بيَّار بوردا الذى كان منفيًا منذ عام فى تلك المدينة. وكان بيَّار بوردا قد درس الحقوق فى الجامعة الوطنية فى بوجوتا مع جارثيا ماركيز ، والقس كاميلو تورِّيس ، وجونثالو مايارينو ، وكانوا يشكلون الرباعى الأدبى الجامعى فى ذلك الحين حول " الحياة الجامعية" ، وهو مُلحق صحفى بجريدة " العقل" التى كان يُديرها بيَّار بوردا وكاميلو تورِّيس. وعندما أصبحت ديكتاتورية روخاس بينيا أكثر وحشية وشراسة قام بيَّار بوردا ، مثل جميع اليساريين – بنفى نفسه إلى ليبزج بمنحة تُعينه على مصاعب الحياة. ومن هناك كان يزور جارثيا ماركيز فى كل مرَّة يذهب فيها إلى باريس. وفى ليالى فندق فلاندرى وحجرة الخادمة

بشارع أساس تحادثا طويلاً عن " الاشتراكية الحقيقية" وعن بلاد الشرق الأوروبى ، وعن القيود القاتلة للبيروقراطية ذات الطابع الكافكوى ، ولذلك فإنَّ فكرة زيارة ألمانيا الشرقية كان أملاً قديمًا ينضج رويدًا رويدًا كلما زار بيَّار بوردا صديقه جارثيا ماركيز.

وقد سنحت الفرصة عندما جاء بيلينيو ميندوثا من كاراكاس برفقة شقيقته سوليداد ، واشترى سيارة رينو قديمة لقضاء فترة الصيف ، وذهب الثلاثة فى السيارة بسرعة مائة كيلومتر فى الساعة عبر الطرق السريعة الواسعة التى كانت قد عَبَّدها هتلر من أجل الحرب. وبعد أن طافوا بالمدينة الجامعية النظيفة الشفافة فى هايدلبيرج ومعسكر الإبادة النازى فى بوتسينولد بالقرب من ويمار وفرانكفورت الشهيرة فى أعمال جوته (حيث زاروا الشاعر الكولومبى إدواردو كوتى لاموس) ، ووصلوا إلى ليبزج ليأخذوا بيَّار بوردا الذى رافقهم حتى برلين ، ولم يستغرق السفر سوى أسبوعين ، ولكن بالنسبة لجارثيا ماركيز كان بمثابة عدة سنوات من الخبرة.

ومنذ أن عبروا حدود الألمانيتين ذات مساء انقسم إلى شطرين (أى شطر قضوه فى ألمانيا الغربية والآخر فى الشرقية) ؛ كان من الواضح أيضًا أن الاشتراكية الحقيقية " اشتراكية التصدير" ليست فقط غير صالحة للتطبيق فى هذه الدول ؛ بل أيضًا كانت على طرف نقيض من اشتراكية ماركس ، ومناهضة للثورة الغنائية والفكرية التى تمكنت من قلب جارثيا ماركيز وجيله. إنَّ حرس الحدود بدا له كأن أفراده " غير أكفاء ونصف أميين" ، وكان مدير الجمارك ريفيًا فظًّا فى طباعه وأسلوبه ، وقد بدا له الألمان الشرقيون فى الصباح أنهم " أناس فاسدون يعانون من المرارة ، وكانوا يتناولون – بدون حماس – وجبتهم الشهية الرائعة فى الصباح المكونة من اللحم والبيض المقلى" ، كما أن الطرق الواسعة السريعة التى مهدها لهم هتلر كانت هائلة إلا أن الروس ملأوها بالعزلة وبلون سيارات النقل الرَّمادية ، وكانت هذه الطرق تخترق مناطق شاسعة من الحقول غير المزروعة ؛ فبرلين من جانب كانت اشتراكية ؛ ومن الجانب الآخر رأسمالية، وقد بدا ذلك لجارثيا ماركيز ضربًا من السفه ، وكانت برلين الشرقية كارثة ، باستثناء الشارع الواسع الفسيح شارع ستالين ، حيث كان يعيش أحد عشر ألفٍ من العمال المتميزين بيروقراطيًا ، وأغلب أهل برلين الشرقية كانوا لا يزالون يعيشون فى المبانى التى لم يتم إعادة إعمارها حتى الآن ، وكانت مبانى قذرة ، وكانوا

يتناولون أطعمة وسلعًا تنمُّ عن تدنى ذوقهم فى الأطعمة ، فضلاً عن جودتها المتدنية للغاية. لقد بدت له برلين نفسها مدينة مكفهرة عبوسة تعكس واقع البلاد الاقتصادى إذا ما قورنت بمدينة هايدلبرج النظيفة الشفافة ؛ بدت له مدينة ليبزج حزينة بها عربات الترام القديمة المتهالكة المليئة بالناس المهمشين المكتئبين ؛ فهناك تنظيم للطوابير ، وتوزيع الحصص التموينية بالبطاقات ؛ كما بدا له كل ذلك غير فعَّال ؛ بل كان أشبه بالفوضى فى ليبزج نفسها. وقد بدا له ذلك أمر محير ؛ إنه فى العالم الجديد كل شىء يبدو قديمًا وتالفًا ومتهالكًا ، وبدا له غير مفهوم أنَّ شعب ألمانيا الشرقية استولى على السُلطة وعلى وسائل الانتاج والتجارة والبنوك والاتصالات والمواصلات ، ومع ذلك كان شعبًا حزينًا ؛ بل يمكن القول بأنه أشد شعوب الأرض حزنًا من كل الشعوب التى رآها على وجه الأرض(٥٣).

لقد كانت هذه تأكيدات مؤلمة ليس فقط بالنسبة لجارثيا ماركيز ؛ بل أيضًا بالنسبة لمرافقيه الثلاثة لويس بيًّار بوردا ، و بيلينيو ميندوثا وسوليداد ميندوثا الذين تحدث معهم ليالى وأيامًا بأكملها فى برلين وفى ليبزج عن المأساة غير الخفية للشيوعية المصدَّرة ، وكذلك لموسكو المُصدِّرة لهذا النظام ، المدينة الأسطورية التى سيسافرون إليها فى أغسطس بعد عودة قصيرة إلى باريس.

وفى روما حاول جارثيا ماركيز عدة مرَّات الحصول على تأشيرة للسفر إلى الاتحاد السوفيتى كمراسل لوكالة صحفية ، ولكنهم رفضوا منحه التأشيرة أربع مرَّات ، لأنه كان من المستحيل الوصول إلى معقل الشيوعية إذا لم يكن ذلك بصورة رسمية. ولا يزال الوضع على ما هو عليه حتى الآن. ولكن مرور الفرقة الفولكلورية ديليا ثباتا بباريس التى دُعِيت للمؤتمر العالمى السادس للشبيبة فى موسكو أتاح له الفرصة لكى يكون إلى جانب بيلينيو ميندوثا بين أفرادها.

إنَّ الفرقة الكولومبية كانت برئاسة الطبيب والقصاص مانويل ثباتا أوليبيا ، الذى أدرجه فى الفرقة " كمروض للوحوش" فقد كان جميع أفرادها من الزنوج من بلدتى بالينكى ومالابيه. والحقيقة أن ثباتا أوليبيا كان أحد هؤلاء الأصدقاء الذى منذ أن تعارفا فى بوجوتا كان المُنقذ لجارثيا ماركيز فى اللحظات الحاسمة من حياته: ففى

قرطاجنة الهندية كان قد ضمه إلى صحيفة الأونيفرسال " العالمي" وفي مدينة السلام ، وفي بايدوبار كان قد طاف معه إلى جانب رفائيل إيسكالونا في فردوس الموسيقى الشعبية ، والآن من باريس كان له بمثابة حصان طروادة مع فرقته الشعبية لكي يدخل فردوس الشيوعية. ولحُسن الحظ فإن فرقة " ديليا ثباتا" قد تخلف عنها في آخر لحظة عازفًا الساكسفون والأكورديون ، وقد حلَّ محلهما جارثيا ماركيز و بيلينيو ميندوثا كعضوين مزيفين بالمجموعة أو الفرقة الموسيقية(٥٤). وفي تلك الحالة كانت عملية التزييف بيان شكلي ، حيث إن الحقيقة تكمن في أن جارثيا ماركيز كان عازفًا جيداً للناي والطبلة ، وكان مغنيًا جيدًا للأغاني الشعبية.

وقد زاد عدد الوفد بانضمام الرسَّامين إيرنان بييكو وبابلو سولانو ، وبوليدورو بينيتو ، وتريسا سالثيدو ، وماتيلدي موخيكا ، وبيَّار بوردا الذي انضم إلى الوفد في برلين. وقد كان خط السَّير طويلاً وبيروقراطيًا ، من باريس إلى برلين وبراغ وبراتيسلابا وكييف إلى موسكو ، والذي كانت بدايته حتى براغ عذابًا استغرق ثلاثين ساعةً بالنسبة لجارثيا ماركيز و بيلينيو ميندوثا ، اللذين اضطرا للسفر واقفين ، أو مضطجعين أمام باب دورة المياه ينامان قليلاً أحدهما على كتف الآخر. أما بقية الرحلة ؛ فقد كانت مريحة نسبيًا عبر حقول القمح الأوكرانية الواسعة ، وقرى العصور الوسطى في روسيا بفضل المحادثات الطويلة ، إلى جانب طاولة المشروب الكحولي التي كانت تتجول بين عربات القطار ، وإلى جانب أنغام الأغاني والموسيقى الشعبية. وعلاوة على ذلك ؛ فقد كان جارثيا ماركيز يشارك في القرع على الطبلة ضمن الفرقة الموسيقية الفولكلورية. هذا وقد أثنى جارثيا ماركيز طوال الرحلة على الكافيار الروسي مما أيقظ شهية رفاقه في السفر ، وخاصة لدى زنوج الفرقة ، وبالفعل بعد أربعة أيام من السفر تناولوا الكافيار بوفرة في فندق موسكو على الإفطار ، وحمامات المياه الساخنة التي حنُّوا وتاقوا إليها خلال رحلة السفر الطويلة.

وبعد ذلك انفصل جارثيا ماركيز و بيلينيو ميندوثا وأصدقاؤهما عن الوفد مضحين بالمهرجان العالمي للشباب لأن كل ما يهمهم هو مواصلة تتبع أخبار الآخرين لمعرفة أنباء فشل ونجاح ومعجزات " الاشتراكية الحقيقية" في معقل فردوسها؛ وبالتالي لم يكفوا عن سؤال كل من قابلوه طوال خمسة عشر يومًا موزعة بين موسكو

وستالينجراد. وكما هى العادة جمع الكاتب معلومات وفيرة وغزيرة ومحايدة حولًها خلال شهرى سبتمبر وأكتوبر إلى تحقيقات فى سلسلة تحت عنوان (تسعون يومًا عند الستارة الحديدية).

وأثناء رحلة العودة انفصل الكاتب عن رفيقه بيلينيو ميندوثا فى كييف ، وتوجّه إلى المجر. ففى موسكو استطاع الانضمام إلى مجموعة تتكون من ثمانية عشر فرداً من المراقبين الغربيين المدعوين من قبل بودابست ، وذلك لاستكمال جولته بالدول الاشتراكية التى كان قد بدأها أو شرع فيها منذ عامين؛ وكما قضى فى الاتحاد السوفيتى أسبوعين ، أمضى فى المجر خمسة عشر يومًا ، محاولاً جمع أكبر قدر من المعلومات متفاديًا كل صنوف الرقابة لكافة المرشدين لكى يعرف النبض الحقيقى لدولة كانت لا تزال بها حتى عهد قريب بصمات وآثار التمرد والغزو السوفيتى فى أكتوبر ١٩٥٦ . وفى الأيام الأولى من سبتمبر ، وقبل أن يعود بيلينيو ميندوثا إلى كاراكاس اتصل به جارثيا ماركيز من بودابست ، واعترف له والخوف يتملكه قائلاً : كل ما رأيناه كان باهتًا وشاحبًا مقارنة بالمجر"(٥٥).

وفى الحقيقة أن كل ما رآه فى هذه الدولة كان انعكاسًا أخطر بكثير لما شاهده فى كل من الاتحاد السوفيتى وألمانيا الشرقية. إن إصراره على مدى سنوات طويلة على السفر والتوغل إلى قلب السُلطة السوفيتية ، والدول التى تدور فى فلكها كان الشكل أو الصورة الواضحة التى ستقضى على المناقشة التى تمحورت حول إخفاقات ومعجزات الاشتراكية الحقيقية وملاءمة أو عدم ملاءمة تصديرها إلى بلدان أخرى.

إنّ القراءات عن الماركسية التى قام بها هو ورفاقه مع مُدرس التاريخ والكيمياء والجبر أثناء دراستهم للثانوية فى ثيباكيرا ، والأفكار الرئيسية لمذهب ماركس علَّمتهم أنّ الاشتراكية ما هى إلا مرحلة انتقالية بين الرأسمالية ، والشيوعية ، إنها فترة سيتم خلالها تطوير الظروف الموضوعية والذاتية لتحقيق قمة الرخاء المتكامل للفرد والمجتمع فى مرحلة أو عصر الشيوعية لتخليصهم من مملكة الحاجة والعوز ، ونقلهم إلى مرحلة أو عصر مملكة الحرية. وهذا كان يفترض أنه خلال عصر الاشتراكية الحقيقية التى تأصلت وقويت فى ظلّ طغيان الطبقة الكادحة كان ينبغى أن تحول هذه الطبقة ودولتها

المركزية الحديدية إلى صور من العمل الذاتى للمجتمع (وكما يقول ماركس تخليد الأفراد ، وتخليد الظلم التاريخى الموروث من الرأسمالية) بوسائل إنتاج فعَّالة ، وبتراكم الثروات الكافية ، وتطور اجتماعى راقٍ وثقافى وروحى للإنسان الجيد.

ولكن لا: إن ما رآه جارثيا ماركيز فى الاتحاد السوفيتى والدول التى تسير فى فلكه كانت اشتراكية عبارة عن حثالة ، عبارة عن فُتات ، وكانت أشبه بالسخرية المأساوية للاشتراكية التى كان يُروجُ لها كارل ماركس ، وفيدريكو إنجلز ؛ فلم تكن هناك هذه الديكتاتورية أو حكومة البروليتاريا أو الطبقة الكادحة ؛ بل ديكتاتورية بيروقراطية فظة ، تميل إلى السلب والنهب ، ترأسها مجموعة من المسنين كانت خاضعة لرئاسة طاغية: الأمين العام المناوب للحزب الشيوعى السوفيتى ، فلم تكن هناك دولة ترعى مصالح الطبقة الكادحة ؛ بل كانت هناك دولة مهيمنة على كل شىء مُدَجَّجة بالسلاح عن آخرها ، مكرسة لخدمة أساسية ألا وهى البيروقراطية ، ولم يكن هناك أدنى مؤشر لتحويل الدولة فى أشكال للعمل الذاتى لنفس المجتمع المدنى ، بل كانت هناك دولة مركزية تتزايد هيمنتها باستمرار ، دولة قوية وخاوية فى كل المعانى الإنسانية. لم يكن هناك أدنى تنمية وتراكم للثروات ؛ بل كان هناك توزيع للفقر يتزايد باستمرار ، وقد كانت التقنيات الوحيدة التى تزدهر مثل الرأسماليين التى هى التقنيات الخاصة والعسكرية.

إنَّ هذا الفساد التاريخى والسياسى للاشتراكية ذات الوجه الإنسانى الحالم من جانب آباء الماركسية كانت تغذى التناقُضات التى لاحظها جارثيا ماركيز فى الاتحاد السوفيتى ، كما يمكن أن يُفهم عند قراءة تحقيقاته من سلسلة " تسعون يومًا أمام الستارة الحديدية". وأدت هذه التناقضات إلى انهيار نظام الاتحاد السوفيتى بعد ذلك بثلاثة وثلاثين عامًا.

وبهذا الشكل ، وخلال تلك الأيام الخمسة عشر التى شاهد فيها الكاتب الكولومبى جارثيا ماركيز كل شىء وسأل خلالها عن كل شىء فى موسكو وستالينجراد ، واستطاع أن يستنطق الواقع بحياء وهدوء وتعمق ، الواقع المعقد للاتحاد السوفيتى تعقيداً لم تتسع له الدعاية الجوفاء الخاصة ، ولا فى الدعاية المضادة من جانب الأعداء. فقد بدا له جميع الناس سواسية فى موسكو فى نفس المستوى ؛ يرتدون الملابس

القديمة ، والأحذية زهيدة الثمن ، ولكنهم كانوا أناسًا جديرين بالاحترام كُرماء ، وتلقائيين بعد أربعين عامًا من الانغلاق التام والصارم ؛ كان الناس " يائسين لأن لديهم أصدقاء" وأنه أبعد من الفترينات ، والواجهات الزجاجية للتأثير على الزائرين .

كان هؤلاء الناس يعيشون وهم يعانون من مُركَّب نقص رهيب إزاء الولايات المتحدة الأمريكية. إنَّ العاصمة نفسها بدت له نظيفة للغاية ، وكذلك المترو فيها ، وصالات السينما وحاناتها ، وفنادقها ، ومطاعمها ، ولكن أهالي موسكو بملابسهم القديمة وتفصيلها السيئ للغاية كانوا لا يتلاءمون مع مدينتهم، ويعطون انطباعًا أشبه بقائد السيارة النقل الذى ربح اليانصيب. فأحد المواطنين السوفيت يمكن أن يكون ملبسه سيئًا ، وحذاءه أسوأ ، ولكنه مع ذلك يستطيع أن يرافق خطيبته ، ويتناول طعامه ، ويستحم فى الشمبانيا فى مطعم ممتاز. "كان العمال يعيشون بأعداد كبيرة فى غرفة ، ولم يكن لهم الحق سوى فى شراء طاقمين من الملابس سنويًا ، وكانوا يشعرون بغاية السعادة والغبطة عندما يعلمون بأن مَركبة فضاء سوفيتية وصلت إلى القمر" . وكانت المبانى الشاهقة الخرافية تبهرهم ، إلا أنَّ الهندسة المعمارية من وجهة نظر جارثيا ماركيز كانت متدنية مثل طريقتهم فى الملبس. إنَّ التكنولوجيا العسكرية والفضائية بدت لجارثيا ماركيز متقدمة كما فى الغرب ، ولكن موظفى البنوك ومكاتب الدولة كانوا يقدحون زناد فكرهم بأجهزة حسابية بالية ترجع إلى ما قبل التاريخ (على الرغم من أن لديهم سبعة عشر صنفًا وموديلاً من الآلات الحاسبة المتنوعة) ، كما أن سير الحياة اليومية كان متعذرًا ، حتى أنَّ دورات المياه لم تكن تعمل بشكل جيد. وخلاصة الأمر أنَّ جارثيا ماركيز رأى النظام متناقضًا : " فالمواطن السوفيتى يحق له فقط أن يمتلك حذاءً ، ولكنه يستطيع شراء جهازى تليفزيون لمنزله" ، وقد بدا له أن المواطنين الروس يدركون جيداً مجريات السياسة الداخلية، ولكنهم كانوا يجهلون تمامًا أمور السياسة الخارجية. ونظراً لعزلة نظام إنتاجهم ؛ فإن السوفيت كانوا يقضون وقتهم فى اختراع وابتكار ما تم اختراعه وابتكاره فى الغرب ، بنفس الفخر والإعزاز المشروع لكل الرواد فى هذا المجال (كما سيفعل خوسيه أركاديو بوينديا فى " مائة عام من العُزلة") ، وكانت إحدى الظواهر التى لفتت نظره هى أنَّ موسكو " أكبر قرية فى العالم" كانت تتميز بنفاق قروى ربما يكون قد انبثق عن عادات وأساليب الأب ستالين " ، هذا الريفى من جورجيا الذى

حكم البلاد وأدارها كأنها محل " صغير" إنَّ الأخلاقيات السوفيتية كانت تشبه الأخلاقيات المسيحية: فالفتيات في علاقاتها بالرجال لهُن نفس الحيل ، ونفس الظنون ، ونفس الإرب السيكولوجية المتأصلة في الإسبانيات(٥٦).

وبعد أربع سنوات من وفاة ستالين ، وبعد التقرير التاريخي لخروشوف أمام اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي. كان ستالين ظلاً هائلاً ممزقًا ، ومع ذلك كان هو الذي لا يزال يخطط في هذا البلد المترامي الأطراف ، قاذفًا الرعب والشلل في الملايين من السوفيت. ولم يكن عبثًا أن يمكث أربع سنوات ينام في الظل المشئوم للينين في ضريح الميدان الأحمر ، حيث شاهده جارثيا ماركيز ليس من ينام نوم الموت الخالد ؛ بل كمنْ يتمتع بحياة أخرى جديدة منعمة وهادئة: حياة السُلطة فيما بعد الموت في جثته الممتازة والمهيمنة على كل شيء. يقول جارثيا ماركيز: "إنه لم يكن هناك أي تأنيب للضمير ، أمَّا شاربه وبقية أجزاء جسده المحنط كان هناك خلودٌ حقيقي مثل صوره كحاكم له حضور في كل مكان ومهيمن على كل شيء. وفي زمنه الخالد في السُلطان المطلق الذي حكم به البلاد أكبر دولة في العالم طوال ثلاثين عامًا ، وفي يديه الرقيقتين الناعمتين النسائيتين كمارشال محنط " بدأت تتبلور الشخصية الأسطورية للطاغية – الآخر: غير الرزين ذي الوجود في كل مكان والخالد كما في خريف البطريرك.

ولذلك ؛ فإن نظامًا مليئًا بالمتناقضات الصارخة ، ومفعمًا بكل صنوف العجز اليومية عند تصديره لدول أخرى سيسفر عن كارثة كبرى مثل التي شاهدها جارثيا ماركيز في ألمانيا الشرقية وبولندا والمجر. وكان الاستثناء الوحيد في كل هذا تشيكوسلوفاكيا " الديموقراطية الشعبية" الوحيدة والمتماسكة ، حيث لم يلاحظ الكاتب التأثير السوفيتي الخانق مثل الدول الأخرى ربما لأنَّ هذا الشعب كان شعبًا بناءً وتاجرًا ، لا يغتر ولا ينخدع بالشعارات والحيل والخدع السياسية والفكرية . إنَّ شخصيته الوطنية القوية والمستقلة تتضح جلية في الهندسة المعمارية ، وفي الثقافة ، وفي عادات التشيكيين. فبراغ مهد أستاذه فرانز كافكا كانت مدينة " يمكن مقارنتها – على سبيل المثال– بباريس . فالمدينة يسودها النظام والذوق الرفيع والصالح العام ، وشعب بهذه الصفات سمحت له رفاهيته بأن تكون لديه صناعة متوازنة بين مختلف شعوب أوروبا". إن التشيكيين بصفة عامة " كانوا راضين سُعداء بقدرهم"(٥٧).

وعلى الرغم من النظرة الانتقادية " للاشتراكية الحقيقية" ، فإن جوهر اعتقاد جارثيا ماركيز ظل كما هو راسخًا لا يتزعزع : إن الاشتراكية المعروفة كنظام تقدم وحرية ومساواة نسبية يمكن - بل ينبغي - أن تكون مصير البشرية جمعاء ، ولكن إزاء وضوح الأحداث - ورفض أن تكون اشتراكية الاتحاد السوفيتي - اشتراكية ستالين هي النموذج الحقيقي للاشتراكية ؛ كما أنها ليست نموذجًا قابلاً للتصدير. وبعد ذلك بعامين نُشِرَ في مجلة كروموس " الألوان" في بوجوتا ضمن سلسلة" تسعون يومًا أمام الستارة الحديدية"[٥٨]. ولقد أحدثت تحقيقاته مشاعر متناقضة لدى أصدقائه من الجانبين؛ فبينما اتهمه اليساريون بأنه باع نفسه لوكالة الاستخبارات الأمريكية ، وصف الليبراليون الصحفي الشهير بأنه أصبح بوق دعاية للاشتراكية، ولكن أوَّل من دُهِش من ذلك كان صديقه وزميله وأستاذه إدواردو ثلاميا بوردا " أوليس " في خريف ١٩٥٧ ، وقُبيل أن يسافر جارثيا ماركيز إلى لندن تسلَّم في بوجوتا تلك السلسلة من التحقيقات الصحفية ، حيث كان قد كتبها لدى عودته من باريس بغية نشرها في صحيفة الاندبندينتي " المستقل". إن ثلاميا بوردا الكاتب الكبير والرجل اليساري كان نائب مدير الصحيفة " التي كانت جريدة مؤقتة بديلة لصحيفة الاسبكتادور" المشاهد" ، مما منعه من نشر التحقيقات المناصرة للاشتراكية لصديقه القديم ومساعده، ولكن في نفس الوقت أدرك أن الحقيقة التي كشفت عنها تحقيقات صديقه تعتبر ضربة قاصمة لليسار المتناغم ، وغير الحذر في بلاده ، ولذلك حفظها في مكتبه ، حيث وجدها جارثيا ماركيز بعد ذلك بعامين لدى عودته إلى بوجوتا[٥٩].

وبينما كان يكتب هذه التحقيقات في أكتوبر ١٩٥٧ في غرفة الخادمة دي نويلي وصل مواطن رحالة من أنطيوكيا كان والده بغالاً وسيكون آخر أصدقائه الكبار والخالدين :" المصوِّر دميم المحيا" جيبرمو أنجولو. كانا صديقين قديمين، وكان أنجولو يبحث عن صديقه في أوروبا طيلة عامٍ كاملٍ ، ولكن هذه هي المرَّة الأولى التي رأى فيها كل منهما شخصيًا.

لقد أصبحا صديقين من خلال رسالة بين المكسيك وبوجوتا بفضل وساطة المثَّال رودريجو أريناس بيتانكور ، الذي أرسل للكاتب نماذج من صور أنجولو لكي ينشرها له

فى الاسبكتادور. وبعد العديد من الرسائل وصل أنجولو إلى بوجوتا ليتعرف على جارثيا ماركيز، ولكن أصدقاءه أبلغوه بأنّ الصحيفة عيّنته مراسلاً لها فى جنيف والبندقية وروما ، حيث اتفقا على التعارُف خلال صيف ١٩٥٦ ، ولكن عندما ذهب أنجولو إلى العاصمة الإيطالية بغية دراسة الإخراج فى مركز السينما التجريبى كان جارثيا ماركيز يعيش فى باريس منذ ستة أشهر ، ولذلك اتفقا على اللقاء فى برلين للقيام بالرحلة المنتظرة سويًا إلى الاتحاد السوفيتى ، ولكن هذا الموعد كان مصيره الإخفاق أيضًا ، لأن أنجولو لم يستطع الوصول إلى برلين لأن الألمان الشرقيين منعوه من اجتياز الحدود. وعند عودته إلى روما وجد نسخة من " العقيد لا يجد منْ يُراسله" على ورق صُحُف ورسالة من جارثيا ماركيز تُفيد بأنهما سيلتقيان فى باريس لدى عودته من الاتحاد السوفيتى.

وعندما وصل أنجولو إلى فندق فلاندرى قالت له مدام كرويكس "إنّ السيد/ ماركيز ليس موجودًا ، لأنه مدّ إقامته فى بلدان شرق أوروبا ، حيث انتقل من كييف إلى بودابست. وقد قرر أنجولو انتظاره فى نفس الفندق لأنه لم يكن على استعداد للاستمرار فى هذا العذاب اللانهائى بحثًا عن صديقه دون أن يجده، وطلب من المديرة أن تُؤجر له أرخص غرفة بالفندق. فأجرت له الغرفة الصغيرة ذات السقف المائل فى الطابق السابع ، حيث سيشم رائحة القرنبيط المسلوق ، ولكى يستمع كل ساعة إلى دقات ونغمات ساعة جامعة السوربون. وبينما كان المصور ينتظر صديقه وهو يشاهد الأفلام القديمة فى صالات السينما القريبة جاء مواطن ساحلى شاحب الوجه نحيل الجسد ذو شارب كثيف ، ونظرة ساخرة ، ورحّالة مثله ملتفًا فى معطفه السميك وتلفيحته الصوفية ليقطع عليه قيلولته ، وقال له: ياأستاذ ماذا تفعل فى غرفتى ؟(٦٠) أخيرًا انتهت صداقة امتدت عبر الرسائل فقط لمدة عامين لتبدأ صداقة شخصية حقيقية من الحب والود والعادات والكلام والحديث المباشر ، مثل تلك التى جمعت بين كل من ألبارو موتيس ، ورفائيل إيسكالونا و بيلينيو ميندوثا وألفونسو فوينمايور وخيرمان بارجاس ، وألبارو ثيبيدا ساموديا ، وأليخاندرو أوبريجون و جارثيا ماركيز ذاته.

لقد اعتادا على رؤية بعضهما البعض فى كل مساءٍ لتناول الوجبة الثالثة " العشاء " مع مواطنيهم الآخرين فى مطعم كابولادى زهيد السعر ، ثم يتنزهان باسترخاء دون

موعد أو خط سير معين أو ثابت فى شوارع الحى اللاتينى ، وأحيانًا أخرى كانا يذهبان للسهر ليلاً مع المثَّال إيرنان بييكو والشينسى رويث ، ثم تنتهى بنزهات ووجبات عشاء وكئوس لمدة ساعات ، حيث كانوا يغنون ويتحدثون عن كل شىء. وقُبيل الانتقال إلى لندن فى نوفمبر ، وكانت هذه آخر سهرات اللهو والأكل والشُرب للكاتب مع أصدقائه فى باريس ؛ المدينة الجميلة الخيالية الضنينة التى - مع ذلك - أبقت على حياته بشكلٍ هائلٍ فى أحلك الظروف على حبل ضعيف من أوهن الأحبال الضعيفة البالية.

وعند الانتقال إلى لندن كان هدفه الحياة " أو البقاء على قيد الحياة" أطول وقت ممكن ، كما فعل فى باريس وروما لدراسة الإنجليزية ويواصل كتابة التحقيقات ، وقصة المنشورات الحائطية . إن الرحلات إلى أوروبا والاتحاد السوفيتى أثبتت له أن إنجليزيته تحتاج إلى مجهود عميق كبير ، ولذلك فإن أفضل وسيلة لذلك هى الإقامة فى مهد اللغة. فكَّر جارثيا ماركيز فى أنه يستطيع العيش فى لندن بما تدفعه له صحيفة الإندبندينتى مقابل تحقيقاته عن الدول الاشتراكية ، ولكن أوليس حفظها فى مكتبه ، وقد تجرأ بيلينيو ميندوثا ، ونشر له تحقيقين فقط - عن روسيا والمجر - فى مجلة مومينتو " اللحظة " فى كاراكاس(٦١) ، التى تولَّى رئاسة تحريرها مؤخراً.

إنَّ إقامته فى عاصمة المملكة المتحدة لم تستغرق أكثر من شهرين ، والأسابيع الستة أو السبعة التى مكثها هناك كان فيها حبيس غرفته بالفندق فى سوث كينسينجتون متظاهراً بأنه يدرس الإنجليزية ، ولكنه فى الواقع كان يقرأ ويكتب بعض القصص التى انفصلت عن قصة" المنشورات الحائطية" التى لا زالت فى حقيبته مربوطة برباط عنق ملوَّن. إنَّ الذكرى الوحيدة الحية التى بقيت لدى جارثيا ماركيز من زيارته للندن تكمن فى الجماهير الغفيرة فى ركن الهايد بارك ، حيث كان يذهب يومى السبت والأحد أسبوعيًا ليشاهد السوق المجانى للخطباء ، وللتمتع بأشعة الشمس النادرة وغير الضارة التى تخرج على استحياء خلال الخريف.

وعلى الرغم من هذه المنظورات المتشابهة ؛ فإنَّ جارثيا ماركيز كان على استعداد لمد إقامته فى أوروبا لكى يستطيع كتابة قصته غير القابلة للتصديق والحزينة قصة " العقيد لا يجد منْ يُراسله " ، وإذا كان قد استطاع البقاء فى باريس ليكتب فلماذا

لا يستطيع ذلك فى لندن ؟ ففى هاتين المدينتين بمزيد من الحماس والجرأة أكثر من سُبُل المعيشة كان يشعر بقرب حلول أعياد ميلادٍ أخرى وشتاء آخر ، وهو وحده عندما تلقى برقية من كاراكاس تقول: إن مدير مجلة " مومينتو" بفضل وساطة بيلينيو ميندوثا قدَّم له تذكرة طائرة لكى يعود ليعمل معهما محرراً. وفى غضون ثمانية أيام وصل جارثيا ماركيز ومعه أمتعة قليلة إلى مطار مايكتيا قُبيل أعياد الميلاد ، بعد عامين ونصف العام من الذهاب إلى جنيف للعمل مُراسلاً لصحيفة الاسبكتادور" المشاهد".

الفصل الثانى عشر

- ما بين كاراكاس التعيسة لبوليفار، وكاراكاس السعيدة لخوان دى فريتس.
- سقوط وهروب ماركوس بيريث خيمينيث.
- الإطلالات الأولى لخريف البطريريك.
- مرسيديس خطيبة الصيدلية.
- قيلولة الثلاثاء.
- نيكسون فى كاراكاس.
- انتصار فيديل فى هذه الأمور.
- " عملية حقيقة " وحقائق الكاتب.
- رائد الصحافة اللاتينية.
- كاميلو توريس وقصة اللص الصغير.
- جنازة الأم العظيمة.
- طبع " العقيد لا يجد منْ يُراسله".
- كاتبنا فى هافانا.
- جارثيا ماركيز مُراسلاً فى نيويورك.

وأخيراً ، وبعد أنَّ ظلَّ يتخيلها منذ طفولته وجدً أمام عينيه " كاراكاس التعيسة" بلد بوليفار التى كانت فى نفس الوقت كاراكاس السعيدة فى قصص الحوريات لخوانا دى فريتس، ولكنه لم يرها فى الوقت الذى كان يجتازها من طرف إلى طرف (من أولها إلى آخرها) ، ذلك المساء الحار فى ٢٣ يسمبر ، وقد سأل بيلينيو بجدية مفرطة وشقيقته سوليداد ميندوثا - اللذين ذهبا لمقابلته فى السيارة الصغيرة إم جى - سألهما أين توجد المدينة[1] ، وعلى الرغم من أنَّ تلك تصعب رؤيتها من بعيد بسبب طبوغرافيتها المتعرجة الملتوية ، ربما لأنَّ صورتى باريس ولندن كانتا لا تزالان فى وجدانه ، أو ربما لكونه قد رسم فى مخيلته وقلبه شيئًا خياليًا عن المهد الأسطورى لمحرر أمريكا اللاتينية سيمون بوليفار، وكاراكاس الأسطورية لخوانا دى فريتس. وسُرعان ما بدأ يكتشف العاصمة الفنزويلية الحقيقية ، المتناقضة التى تجمع بين الريف والمدينة والتى فى فجر٢٣ يناير١٩٥٨ شاهدت فِرار الطاغية ماركوس بيريث خيمينيث إلى المنفى.

إنَّ علاقته بكاراكاس كانت قد بدأت منذ الطفولة ، بمجرد الاستماع إلى كلمات الإطراء والثناء على سيمون بوليفار ، وقصص المنفيين الفنزويليين الذين كانوا قد وصلوا إلى أراكاتاكا بسبب جاذبية زراعات الموز ، مثل أسر باربوسا وفريتس وبيتانكور. ولكن زوجة الجنرال ماركوس فريتس المعارض القديم للطاغية خوان بيثينتى جوميث هى التى أصابت ذاكرة جارثيا ماركيز ، سواء ذاكرة الحنين ، أو الذاكرة الأدبية لمدينة كاراكاس بقصص وحكايات الأطفال الدائمة التى كانت تحكيها مراراً وتكراراً فى أمسيات أراكاتاكا لكى تتتابع واحدة تلو الأخرى فى " كاراكاس التعيسة" لذاكرته. وكما رأينا ؛ فإنَّ نفس خوانا دى فريتس كانت هى أيضًا القابلة لوالدة الكاتب ، منقذة إيَّاهما من موت محقق(الأم وجارثيا ماركيز)، ولذلك فعندما وصل جارثيا ماركيز إلى كاراكاس قُبيل أعياد الميلاد عام ١٩٥٧ ، لم يفعل ذلك فقط لأنَّ بيلينيو ميندوثا وجدً له عملاً فى مجلة " اللحظة" ؛ بل لأنَّــه انصاع لذلك النداء الخفى لقدره ومصيره ، فهو الآن مثل مرَّات أخرى كثيرة سيسمح له بمواصلة المعرفة وترتيب أفكار حياته وإنتاجه الأدبى.

قد رافقه بيلينيو ميندوثا ذلك المساء إلى صالات التحرير بالمجلة مباشرة ، وجلس جارثيا ماركيز على مكتبه فى صالة فسيحة بدون نوافذ ، ولكنها مضاءة بلمبات النيون حيث سيقضى معظم الوقت خلال الشهور الخمسة الأولى فى كاراكاس . لم يكن يعرفه كارلوس راميريث ماكجريجور صاحب المجلة ، مثلما كان الأمر أيضًا مع صاحب الاسبكتادور(المشاهد) قبل ذلك بأربع سنوات ، والذى استحال عليه التوفيق بين الشخصية النحيفة رثة الثياب التى جاءت من أوروبا مؤخرًا ، والكاتب الصحفى العظيم الذى حدثه عنه بيلينيو ميندوثا . ويتذكر بيلينيو ميندوثا أنَّ " المجنون" راميريث ماكجريجور لم يرد عليه تحيته الأولى[٢]. ولم يتبرم جارثيا ماركيز ، وظلَّ صامتًا حتى اليوم التالى ، حيث حبس نفسه مع بيلينيو ميندوثا لمدة أسبوع لإعداد عدد المجلة ذات الموضوع الواحد فى نهاية ذلك العام. كان الاثنان يعيشان فى حى سان بيرناندينو: جارثيا ماركيز فى لوكاندة مهاجرين إيطاليين تغلب عليها رائحة المعكرونة المسلوقة ، أما بيلينيو ميندوثا فكان يعيش فى شقة مُريحة فى أحد المبانى المرتفعة فى الحى حيث تُسمعُ أصوات البلابل والطيور مما يذكرنا بالحنين والاشتياق الحى لحياة الريف. وتقريبًا فى ساعات الفجر الأولى كان بيلينيو ميندوثا يمر ليأخذ صديقه فى سيارته إم جى المكشوفة ، ثم بعد انتهاء العمل يعيده إلى اللوكاندة ليلاً.

وأثناء الاحتفال بأعياد الميلاد والعام الجديد سنحت للكاتب فرصة العودة لكى يلتقى من جديد مع رائحة الجوافة فى كثير من محلات أهالى كاراكاس. وكان أوَّل يوم للراحة هو الأحد أول يناير عندما قرر بيلينيو ميندوثا الذهاب إلى الشاطئ لكى يفقد صديقه هذا اللون القاتم الذى اكتسبه خلال الأوقات التعيسة التى قضاها فى باريس. ولكن جارثيا ماركيز أصبح ذلك اليوم ومزاجه معتلاً كجدته ترانكلينا إجواران كوتيس ، أو ربما بزمن أساطير خوانا دى فريتيس ، لأنَّه سَرعان ما قال لبيلينيو ميندوثا فى الصباح. لدىَّ إحساس بأن أمرًا ما سيحدث ، وبالفعل فبعد دقائق كان جارثيا ماركيز وأصدقاؤه وجميع الجيران فى كاراكاس يُطلون من النوافذ والشُرفات يشاهدون تحليق القاذفات على ارتفاع منخفض ، بينما استمعوا إلى طلقات المدافع الرشاشة غير المنتظمة : إنَّ قاعدة ماراكاى الجوية شهدت تمردًا ، وقامت بقصف قصر رئاسة ميرافلوريس فى أوَّل محاولة جادة للإطاحة بالطاغية ماركوس بيريث خيمينيث[٣] ، ولكن المحاولة باءت

بالفشل لأنَّ القوات الموالية للطاغية بيريث خيمينيث قضت عليها ، ولكن الديكتاتور الذى تمتَّع بالسلطة المطلقة ستة أعوام أُطيح به بعد ثلاثة أسابيع فقط من تلك المحاولة.

لقد كانت أسابيع غمٍ وكربٍ فى كاراكاس ، وفنزويلا بأسرها حيث انطلقت موجة من الاضطهادات ، وحالات فرار واختفاءات واجتماعات للمتآمرين. كان الناس يغلون من الهتافات والمنشورات السرِّية والشائعات المضادة ، وفى كل الأماكن كان الضغط الشعبى واضحًا ضد الطُغيان الذى أوشك على السقوط والانهيار. أمّا أجهزة الأمن فكانت تقوم بالمطاردات فى جميع أنحاء المدينة ، وتعتقل السياسيين والقساوسة، والمفكرين، والصحفيين. وذات مساء بينما كان جارثيا ماركيز و بيلينيو ميندوثا فى الخارج ، وعندما وصلت أجهزة الأمن إلى مجلة " اللحظة" ألقوا القبض على طاقم التحرير بالمجلة ، واقتادوهم إلى مبنى الأمن القومى ، ولم يعرف جارثيا ماركيز وبيلينيو ميندوثا ماذا يفعلان ، وقام الصديقان – إلى جانب مدير المجلة فى نيويورك – بالطواف بجميع أنحاء المدينة فى السيارة إم جى المكشوفة حتى ساعة حظر التجول يتنقلون ما بين شارع وآخر وسط ضجيج السيارًات والمركبات ، والمنشورات التى كانت تتساقط من كل مكان ؛ فضلاً عن الغضب ، الاستياء الشعبى ، الذى كان أشبه بنهرٍ فى حالة فيضان.

لقد كانت ثلاثة أسابيع اتسمت بقلة النَّوم أمّا ليلة ٢٢ إلى ٢٣ يناير لم تكن هناك وسيلة للنوم لبرهة واحدة ؛ فقد سهر جارثيا ماركيز ، و بيلينيو ميندوثا إلى جِوار المذياع فى شقة الأخير فى حى سان بيرناندينو حتى الساعة الثالثة فجراً. شاهدا أضواء الطائرة التى كانت تُقل الطاغية ماركوس بيريث خيمينيث فوق مدينة كاراكاس ، وهو يفر هاربًا إلى سانتو دومينجو. وبعد ذلك بساعتين وصل ميندوثا وماركيز إلى مقر مجلة "اللحظة" ، وقاما باستدعاء عُمال ومحررى المجلة عبر موجات الإذاعة. وبدون استراحة ، وبمساعدة القهوة المضبوطة والمركزة عمل الجميع كفريق متكامل حتى استطاعوا إعداد طبعة اليوم التالى التى نشروا فيها مقالاً افتتاحيًا (أول مقال للمجلة) ، وتحقيقًا سريعًا حيًّا فيه عودة الديموقراطية ، وسردوا فيه سقوط الديكتاتورية[٤]. ودون أنَّ يستشيرا المدير أمرا بإصدار طبعة كبيرة بلغت مائة ألف نسخة بيعت جميعها فى غضون ساعات قليلة ، واستطاعا أنَّ يجعلا المجلة أكبر وسيلة إعلام شعبيةً وانتشاراً فى كاراكاس .

وبعد ذلك بثلاثة أيام ، وبينما كان الصحفيون الشُبَّان المتحمسون ينتظرون إلى جانب زملاء آخرين في صالة القصر الرئاسي ميرا فلوريس ، حدث شيء لم يكن معروفًا حيث ذهب قصَّاص أراكاتاكا يبحث عن مهد بوليفار ربما ترشده الرادارات الخيالية التي كانت تسردها خوانا دي فريتس خالدة الذكر.

كانت الساعة الرابعة صباحًا ، والعسكريون ما بين ديموقراطيين وانقلابيين يُناقشون طِوال الليل تشكيل مجلس الحكومة. وسَرعان ما فُتحت صالة السُلطة ، وخرج أحد العسكريين المهزومين ، وهو يُشهر مُسدسًا رشاشًا ؛ بينما كان يسير للخلف ، وترك حذاءه بقايا من الوحل في سجاجيد القصر قُبيل ذهابه إلى المنفى. لقد كانت هذه صورة مثمرة في ذاكرة جارثيا ماركيز ، حيث إنه في هذه اللحظة على وجه التحديد تذَّكر أنَّ لديه الوعي والإدراك الواضح لكي يكتب قصته" خريف البطريريك" قصة الطاغية اللاتيني الأمريكي: " كانت في هذه اللحظة، التي خرج فيها ذلك العسكري من الغُرفة حيث كان يتم مناقشة تشكيل الحكومة الجديدة بشكلٍ نهائي . في تلك اللحظة أدركت حقيقة كُنه السُلطة ، ولغزها"(٥). وقد تعززت هذه الفكرة بعد بِضعة أيَّام أثناء محادثة طويلة أجراها هو وصديقه بيلينيو ميندوثا مع كبير الخدم بقصر الرئاسة ، وهو رجل ظلَّ على مدى خمسين عامًا في خدمة جميع الرؤساء والعسكريين والمدنيين والطُغاة والديموقراطيين ، منذ بداية عهد خوان بيثينتي جوميث النموذج الرئيسي في"خريف البطريرك" ، ونفس الطاغية الذي كان قد طرد معارضه ماركوس فريتيس لكي ينتهي به الأمر بنفي نفسه وأسرته في أراكاتاكا. وأصبحت زوجته خوانا دي فريتيس بعد ذلك القابلة لجارثيا ماركيز ؛ فضلاً عن كونها أيضًا قابلته الأدبية.

ومع ذلك فإنَّ عملية الطاغية لدى جارثيا ماركيز كانت قد بدأت في التبلور منذ شهر أغسطس من العام الماضي ، (أو ربما خلال السنوات الأولى لديكتاتورية روخاس بينيا) ، عندما تأمَّل الكاتب في ضريح الميدان الأحمر في موسكو - الجسد المحنط- لستالين. كما أنَّ التحقيقات الصحفية التي أعدَّها عن الاتحاد السوفيتي كانت مخططًا إجماليًا واضحًا لما سيكون عليه البطريريك في قصته. عن إدراكه للسُلطة ، وعُزلة السُلطة ، وعلى العكس من ذلك ، ففي الطريق أوغل بذاكرته في الطفولة إلى ظلَّ الجدًّ لمخضرمي الحرب ، والمنفيين الكِبار الذين انحسر دورهم في أراكاتاكا المتربة. وليس

من الغريب أن نرى صورة السُلطة فى عمل جارثيا ماركيز مرتبطة بالقائد والزى العسكرى. إنَّ هذا أمرُ يأتى للكاتب من العالم الطفولى ، ومن ذاكرة جده. إنَّ الأسطورة العسكرية والشُهرة المدنية والأخلاقية للعقيد نيقولاس ريكاردو ماركيز ميخيا، والجنرالين خوسيه روساريو دوران ، وماركوس فريتيس بين آخرين قد أمدت الكاتب بالفكرة الأولى عن السُلطة وهو لا يزال فى طفولته، وهذه الشخصيات المنسية أو المنفية فى شيخوختها كانت بمثابة الفكرة المعاكسة لتلك الفكرة الأساسية عن السُلطة : عُزلة السُلطة . وهكذا ينبغى أنَّ يكون أساسًا متأصلاً ، ومهمًا للشخصية المهزومة والمحتضرة لبوليفار فى ضيعة سان بيدرو أليخاندرينوا ؛ المعبد الوطنى الذى زاره جارثيا ماركيز وهو لا يزال طفلاً صغيرًا برفقة جده ، وهو فى السابعة أو الثامنة من عمره.

وهكذا فإنَّ الكاتب عندما اهتم عن عمدٍ بالسُلطة والطاغية الأمريكى اللاتينى كموضوعات لإحدى قصصه يومى ٢٥ ، ٢٦ يناير عام ١٩٥٨ كان ذلك - مثلما حدث فى كل الموضوعات الكبيرة فى قصصه ورواياته - صورًا يختزنها منذ الطفولة. ويتذكر بلينيو ميندوثا أنَّ صديقه تفرَّغ تمامًا خلال تلك الأيام للغوص فى حياة الطُغاة الأمريكيين اللاتينيين ، وفى كل يوم كانا يتناولان طعام الغداء فى مطعم عُمالى بالقرب من مجلةاللحظة ، أو يتناولان طعام العشاء فى منزل ميندوثا كان جارثيا ماركيز يحكى له الأحداث الغريبة التى وجدها فى سيرهم الذاتية: فكثير منهم كانوا يعانون من اليُتم لوفاة والدهم والاعتماد الكُلى على أمهاتهم وطموحاتهم الحيوانية. ومن قراءاته فى تلك الأيام؛ فضلاً عن التحريات والتأملات ؛ كل هذا سيعطيه صورة أساسية: صورة طاغية عجوز جدًا، عجوز لا يمكن تصوره ، بقى بمفرده فى قصر كبير ملئ بالأبقار"(٦). وكان فى ذلك الحين عندما سمعه بلينيو ميندوثا يتحدث عن مشروع كتابة قصة ذات يوم عن الطاغية الأسطورى الأمريكى اللاتينى.

إنَّه نفس السر الذى أفشى به إلى مرسيدس بارتشا باردو بعد ذلك بشهرين أثناء شهر العسل ، عندما كانا فى الطائرة من بارَّانكيا إلى كاراكاس ، وقد كشف لها عن أمرين آخرين: إنه سيكتب قصة عنوانها المنزل وهو فى الأربعين من عمره (كان لا يزال فى الحادية والثلاثين) سيكتب عملاً فذًا ؛ أهم عمل فى حياته(٧) ، وقد صدقته كما صدقته فى كل شىء من قبل ، ليس فقط لأنها كانت تُدرك ميوله وقُدراته الأدبية ؛ بل

أيضًا لانها كانت تعرف جيداً تصميمه الدؤوب: وعندما كانت فى الثالثة عشرة من العمر ، وقد بدأ يغازلها فى سوكرى النائية أثناء فترة المراهقة كانت قد سمعته يقول لوالده: " أنا أعرف منْ سأتزوجها "[٨]. كانت مرسيدس قد أنهت فى ذلك العام المرحلة الابتدائية ، وكان جارثيا ماركيز فى الفصل الخامس الثانوى ، وفى نفس الليلة التى تعارفا فيها أثناء رقص الطُلاَّب اقترح عليها الزواج دون مقدمات ، كما يحكى ذلك فى "نبأ موت مُعلن" وإن كان قد ظلَّ مقتنعاً من أنَّ ذلك سيكون زواجًا أكيدًا ، والحقيقة أنَّ الطفلة لم تُعِر اهتمامًا لذلك فى البداية (كما سينبغى أنْ تقوم به ريميديوس موسكوتى مع أوريليانو بوينديا) ، وربما تكون قد رأت فيه آنذاك عصفوراً صغيراً عندما طلب منها ذلك.

وُلدت مرسيدس راكيل بارتشا باردو فى ٦ نوفمبر١٩٣٢ فى ماجانجى ؛ قرية شديدة الحرارة أرضها منبسطة سهلية ، ومنازلها مبعثرة تُحيط بها المستنقعات وفرع من نهر ماجدلينا. وهى ابنة ديمتريو بارتشا وراكيل باردو ، ويجرى فى عروق مرسيدس دم شرقى من ألف ليلة وليلة: فقد وُلِدَ والد جدها فى سوريا ؛ أمّا جدها إلياس بارتشا فقد وُلِدَ فى الإسكندرية ؛ ولذلك فإنَّ الكاتب فى نهاية "مائة عام من العُزلة" يصف جمال وحُسن زوجته " بثعبان من نهر النيل" ، وقد وصل جدها إلياس مع والدها إلى كولومبيا فى أوائل القرن العشرين ، وحصل على الجنسية فى نفس العام الذى وُلِدت فيه مرسيدس[٩]. وقد عاش جدها حوالى مائة عام ، وكانت هوايته إلى جانب التجارة قراءة الطالع للرجال فى أحد المقاهى.

أما والدها ديمتريو بارتشا ؛ فقد كان أحد أفراد جيل تاريخى من العرب الكولومبيين المغامرين ، أينما حلَّ كان يتبع خطوات وروح والده فى الصيدلة أو فى البقالة. كان رحالة كجارثيا ماركيز ؛ فقد عاشت أسرة بارتشا باردو فى ماجانجى، وماخاجوال ، وسوكرى و بارانكيا. وكانت مرسيدس الابنة الكبرى بين ثمانية أشقاء ، ولقد تعلمت فى مدرسة لوس نينيوس دى لا كروث فى ماجانجى ، وفى مدرسة الساجرادوكوارثون (القلب المقدس) فى مومبكس ، وفى مدرسة لابرسنتاثيون دى إينبيجادو وفى مدرسة ماريا أوكسيلیادورا فى ميداين ، حيث أتمت دراستها الثانوية فى ١٩٥٢[١٠]. وعلى الرغم من أنها كانت تريد دراسة علم البكتريا، وقد شجَّعها خطيبها على ذلك وأهداها كتابًا عظيمًا عن الميكروبات والجراثيم كان يبدو هائلاً فى ذلك الوقت ، فإن الزواج الذى كان وشيكًا على ما يبدو أجَّل دراستها الجامعية.

وفى أواخـر الأربعـينيـات ، فى أصـعب اللحظات وأحلك الظروف فى ظلٍّ أحداث العُنف انتقل أفـراد أسرة بارتشا باردو من سوكـرى - بعد أنَّ عـاشـوا فيـهـا خـمس سنوات تميزت بصداقتهم الوطيدة مع أسرة جارثيا ماركيز - إلى بارأنكيا ، حيث أنشأ والد مرسيدس صيدلية فى نفس ناصية شـارع عشرين يوليه عند تقاطعه مع شارع ٦٥، وقد تلقت فيـهـا المقطوعات الموسيقية والأغانى على أنغام الناى التى كان يرسلها لها بكثرة خطيبها ، عندما كان يعمل فى صحيفتى الهيرالدو والناثيونال. وكانت هذه الأعوام الوحيدة التى عاشا فيـهـا فترة خطوبة قريبين من بعضـهما ، وبعد ذلك - عندما رحل جارثيا ماركيز - ظلّت تكتب له الرسائل المليئة بزهور البالريانا المتعددة الألوان الوردية والبيضاء والحمراء ، وكانت ترسلها له إلى بوجوتا وروما وباريس. كانت رسائل طويلة آمنة ، وهادئة مثل رسائله تمامًا. لقد كانا خطيبين قديمين ، وكانا على يقين لا يتزعزع من زواجـهـمـا ، وكـانا يتـصـرفـان بوعى وحس الأزواج الذين يطول بهم العـمـر ، وفى النهاية ينتهى بهم الأمر إلى الحب الخالص كخطيبين.

وعلى عكس آخرين ؛ خضعت هذه الخطوبة لتنقلات مهنة الجوالة لجارثيا ماركيز ، ومع ذلك لم تشبها شائبة، ولم يؤثر فيها الزمن ولا المسافة ؛ بل على العكس من ذلك ؛ فقد قويت وترسخت لهذين العاملين ، كما أنَّ الصداقات والغراميات التى عاشها الكاتب قبل الزواج لم تكن فى أية لحظة بديلاً للخطيبة البعيدة ، للتمساح المقدس ؛ بل كانت جسوراً عبر الزمن للعودة إليها ، والبقاء معها ، لدرجة أنَّ هذه الغراميات كانت سريعة الأفول ، وإن كانت فى الظاهر غراميات قوية ، كما كان الحال فى شأن علاقته المجنونة مع تاشيا كيتانا المواطنة الباسكية المتهورة الحيوية النشيطة والسخية التى ساعدته فى أوقات الشدة أثناء وجوده فى باريس. " إنَّ الجمال الصامت" الشرقى ، وذكاء المشاعر والأحاسيس والسحر والرزانة والرصانة والكتمان والجرأة والصبر عند مرسيدس بارتشا باردو ؛ كل هذه الصفات جعلته يحسها ويشعر بها مهما كان بعيداً عنها. وقد قال ذلك للمواطنة الباسكية عندما ودَّعها فى باريس متجهًا إلى كاراكاس: إنه سيتزوج خطيبته فتاة ماجانجى ابنة الصيدلانى ديمتريو بارتشا[١١]. وعلاوة على ذلك: جاء هذا فى لحظة كان الكاتب لا يريد - حتى ذلك الوقت - العودة إلى أمريكا ، وكان هذا هو السبب الرئيسى وراء استقراره فى كاراكاس متعللاً بمبرر العمل الذى وفره له بيلينيو ميندوثا فى مجلة "لحظة" .

ولذلك طلب تصريحاً بعد ثلاثة أشهر لمدة أربعة أيام ، وسافر إلى بارَّانكيا ، حيث كانت تنتظره مرسيدس بكل التأكيد والصبر المعتادين فيها دائمًا لكى يتزوجا فى ٢١مارس فى تمام الساعة الحادية عشرة صباحًا بعد أربع سنوات من وعده إياها بالزواج ، وبعد ثلاثة عشر عامًا من خطبته لها بعد أنَّ أعدَّ هذه الخطوبة على نار هادئة دون تسرع أو توقف.

وفى مبنى كنيسة بيريتوو سوكورُّو (النجدة الدائمة) كان أصدقاء الكاتب الدائمون أعضاء جماعة الساخرين يُحيطون بالعروسين ووالديهما. وبعد أربع سنوات من الفراق عادوا ليلتقوا سويًا مع جابيتو ، ولكنهم وجدوه متغيراً بعض الشىء ، ربما لهيبة اللحظة التى يعيشها ، ولنحافته المفرطة ، وكان أشبه بدون كيشوت ، بيد وكأنه يظهر فى صورة جانبية على الرغم من كونها صورة أمامية. فلم يعهدوه جاداً أبداً ، وكان يرتدى حُلة غامقة اللون ، وقد ربط رباط عُنقه بطريقة هائلة ، وخاصة أنهم لم يروه ينتظر انتظاراً صامتًا ومكثفًا كالذى استقبل به خطيبته ، التى وصلت متأبطة ذراع والدها وعلى وجهها حجاب العُرس ، وفُستان أزرق اللون. ويتذكر ألفونسو فوينمايور " انتظاره المكثف" إنه انتظار يائس تقريبًا ، حتى أنَّ والد العريس جابرييل إيلخيو جارثيا ماركيز تذكر ما حدث له منذ اثنين وثلاثين عامًا فى كاتدرائية سانتا مارتا ، وكذلك فإنَّ جارثيا ماركيز نفسه استدعى إلى ذاكرته واقعة مواطن بارَّانكيا الذى لم يعرفه . كان قد رآه منذ ثمانية أعوام فى سوق المدينة ذاتها وسوف يصبح هذا إحدى الشخصيات الرئيسية التى ستظهر فى " العقيد لا يجد منْ يُراسله".

إنَّ الإجازة القصيرة التى منحوها له فى مجلة" لحظة" لم تكن كافية للاحتفالات الطويلة التى كان الأقارب والأصدقاء قد فكروا فيها للاحتفاء بالعروسين. وفى اليوم التالى للزفاف رحل المتزوجان حديثًا إلى كاراكاس ، بعد أنَّ توقفا قليلاً فى ماراكايبو. وكانت هذه اللحظة وهما يحلقان سويًا فى السماء عندما تحدث جارثيا ماركيز إلى زوجته عن أحلامه الغالية ، مثلما ستفعل أيضًا أمارانتا أورسولا مع البلجيكى جاستون على ارتفاع ٥٠٠متر فوق المجال الجوى لسانتو دومينجو ، وعلى وجه التحديد فوق أراضيها السهلية) : وهى قصة تحت عنوان" المنزل" ، وأخرى عن الطاغية أمّا عمله الهائل فسيكتبه فى الأربعين من عمره. وقد صدقته لا لأن ذلك سيحدث فقط ، بل لأنها

كانت فى حاجة إلى التصديق؛ فقد كان هذا هو الشيء الوحيد الذى يستطيع أنَّ يقدمه لزوجته ؛ يقدم لها كُلاً سيكون أكبر من الكل نفسه ، لأنَّ هذا سيكون المستقبل الناضج لإصراره الذى لا يتزعزع ، ولذكائه ونبوغه الهائل.

كما أنها صدقته - علاوة على ذلك - لأنها كانت تعلم قبل هذا أنَّ زواجهما سيكون مشاركة ، ليس فقط لخدمة الحب بل أيضًا لخدمة الأدب. ووسط هذه الكوكبة من أصدقاء زوجها الذين قدَّموا له كل عون ، وأمدوه بالسعادة ، وعلى رأس هؤلاء ألبارو ثيبيدا ساموديو ، ألفونسو فوينمايور ، وخيرمان بارجاس، وألبارو موتيس ، ورفائيل إيسكالونا، بلينيو ميندوثا ، جيرمو أنجولو. جاءت العروس لتكون لُب الاهتمام ؛ جوهر وبؤرة الاهتمام الذى كان ينقصه لكى يتزايد نضج أحد كبار كُتَّاب القرن العشرين على أوسع نطاق فى جميع المجالات ، ولكن مرسيدس ستكون - من ناحية أخرى - إحدى السيدات الأساسيات فى حياة وإنتاج جارثيا ماركيز ، كما هو الحال فى الرؤية الكونية لأهل بابل ، فقد جاءت هى لإكمال رقم التمام للنظام الكامل: الرقم سبعة بعد لويسا سانتياجا ماركيز والدته التى منحته الحياة، وترانكلينا إيجواران كوتيس " ذات الوجه الصارم ، تلك الجدة التى أغرقته بالقصص الفانتازية وأعارته وجهها الصارم لكى يسرد قصصه ، وثيموديسا ميخيا العمة التى ربته فى الحقيقة وفتحت عينيه على الثقافة الشعبية، وخوانا دى فريتيس مواطنة كاراكاس التى أنقذت حياته وأمدته بكثير من حكايات العفاريت، وروسا إيلينا فيرجسون مُدرسته فى ريو هاتشا التى علمته القراءة وحُب الشعر ، وفيرجنيا وولف السيدة الإنجليزية التى أمدته بالمفاتيح الأساسية لكى يفهم عالمه الأدبى . ولكن الوحيدة التى كان لها أكبر الفضل فى معظم أعماله هى مرسيدس بارتشا باردو ابنة الصيدلانى ، التى أدرجها باسمها الحقيقى فى ثلاثة أعمال من إنتاجه ، كما أهداها اثنين آخرين .

وبالطبع كما يتذكر بلينيو ميندوثا لم تكن أول خبرات مرسيدس فى إعداد الطعام مشجعة ، فقد شاط أرزها ، وعمَّت رائحته المساكن المجاورة، كما أنَّ اللحم الفيليه والبيض لم تُجِد طهيهما ، ولكنها سرعان ما أخذت بزمام المنزل مثلما فعلت أورسولا إيجواران ، ونظمت ورتبت السكن الصغير الذى استأجراه فى نفس حى سان بيرناندينو. لقد نظَّمت " الخلل المنظم" لزوجها ، وعثرت على كل النُسخ الأصلية المكتوبة

بخط اليد ، ووجدت قُصاصات المقالات والتحقيقات الصحفية ، والقصة المستعرة " العقيد لا يجد منْ يُراسله" ، والمجلد الضخم الخالد " للمنزل" وبعض القصص الحديثة ، ورزمة تضم ما يقرب من خمسمائة ورقة يحزمها رباط عُنق أزرق ، وخيوط صفراء ولم يكن لها عنوان حتى ذلك الوقت ، وقد سألته عن كُنه ذلك فقال لها حافظى عليها جيداً إنها " قصة المنشورات الحائطية" فى سوكرى ، وقد بدأ فى كتابتها منذ عامين فى باريس وأوصاها بالاهتمام بها والمحافظة عليها لأنَّ لديه عملاً كثيراً الآن فى مجلة " لحظة" وأولويات أدبية أخرى[١٢].

وفى الحقيقة كانت الأولويات الأدبية هى قصة المنشورات الحائطية ، لأنَّه فى لندن كان يكتب بعض الحكايات التى انفصلت عن جسد القصة ، كما سبق أنَّ انفصلت عنها أيضًا قصة " العقيد لا يجد منْ يُراسله" ، ولكن بمجرد أنَّ أخذت مرسيدس بزمام المنزل فإنَّ الكاتب أصبح بوسعه التفرغ بالليل وفى عطلات نهاية الأسبوع للعمل فى كتابة القصص التى يتكون منها مجلد " جنازة الأم الكبيرة " ، وخلال أسبوع الآلام اقترح عليه بيلينيو ميندوثا فكرة المشاركة فى مسابقة القصة والصحافة التى أعلنت عنها صحيفة الناثيونال (الوطنى) مؤخرًا ، الصحيفة الأولى بالدولة ، والتى يُشرف عليها القصاص ميجيل أوتيرو سيلبا . إنه أمرٌ مسلٍ للغاية ، وقد وجد جارثيا ماركيز الأمر سهلاً ، وبدأ العمل بعد أنَّ شمَّر عن ساعد الجد. حينئذٍ ، وبالعودة إلى عالم " الورقة الساقطة" و " ذات يوم بعد السبت" كتب فى جلسة واحدة تقريبًا قصته الرابعة عن ماكوندو " قيلولة الثلاثاء" . لقد كانت بمثابة تطوير لصورة كانت تلاحقه منذ الطفولة فى أراكاتاكا ذات يوم ، ومن خلال الغبار والشمس الحارقة جاءت إلى القرية سيدةٌ ومعها باقة من الزهور ، وطفلة فى يدها: " أمُّ اللص قادمةٌ"[١٣]. إنَّ صورة تلك الأم كانت وقورة للغاية (ويمكن أنَّ تكون ذكرى استعادتها ذاكرة جارثيا ماركيز نفسه عندما كان يسير مع والدته فى شوارع أراكاتاكا من أجل بيع المنزل الفسيح الذى وُلِدَ فيه) وكانت السيدة ترتدى فستانًا أسود ومعها الطفلة وباقة الزهور متجهة إلى المقابر لزيارة قبر ابنها الذى اغتيل منذ بضعة أيام ، ولم تُمح هذه الصورة من ذاكرته أبدًا مما سمح له بأن يكتب خلال نفس أسبوع الآلام واحدة من أفضل حكاياته. واستنادًا لما يقول الكاتب " إنها الأفضل" ومع ذلك ، فإنَّ لجنة التحكيم بصحيفة الناثيونال (الوطنى)

برئاسة ميجيل أوتيرو سيلبا قالت إنَّ القصة لا تستحق حتى مجرد الترشيح ، ولا التحقيق الروائى الذى تقدَّم به بيلينيو ميندوثا عن حياة ومعجزات جوستابو ماتشادو مؤسس وأمين عام الحزب الشيوعى الفنزويلى(١٤).

واستمر جارثيا ماركيز يعمل دائمًا طوال الليالى ، وكذلك فى عطلات نهاية الأسبوع على مدى عام ١٩٥٨ فى قصص أخرى من " جنازة الأم الكبيرة" و " ذات يوم من تلك الأيام" ، وقد سلَّمه فى بارَّانكيا إلى نيستور مدريد مالو لمجلة الأطلسى (حيث نُشِرت فى يناير من العام التالى): " لا يوجد لصوص فى هذه القرية " ، و " المساء العجيب لبالتثار" ، و " أرملة مونتييل" ، " ورود صناعية" التى كانت عنوانًا للكتاب الذى سبق "مائة عام من العُزلة" الذى سيكتبه فى بوجوتا فى منتصف عام ١٩٥٩ .

وبفضل زيارة ريتشارد نيكسون لكاراكاس ما بين مايو ويونيه استطاع الحصول على ستة أسابيع أجازة كى يواصل كتابة قصصه وحكاياته ، حيث إنَّ وجود نائب الرئيس الأمريكى عجلً بخروجه هو و بيلينيو ميندوثا من مجلة " لحظة" .

لقد وصل نيكسون فى ١٣مايو أى بعد أربعة أشهر من سقوط بيريث خيمينيث ، ولم تكن القطاعات الفقيرة بالمدينة قد نسيت النياشين التى منحتها حكومة الرئيس أيزنهاور للطاغية، ولهذا فإنَّ سيارة نائب الرئيس تم الاعتداء عليها عند مدخل كاراكاس بالأحجار والعصى والبصاق. ومثلما فعل آخرون من وسائل الإعلام ؛ رأى مدير مجلة " لحظة" أنه ينبغى تقديم اعتذار عام لحكومة الولايات المتحدة الأمريكية ، وبالتحديد كتب مقالاً افتتاحيًا للعدد القادم. ولم يكن جارثيا ماركيز و بيلينيو ميندوثا راضين عن الألفاظ المهينة لاعتذارات مدير المجلة ، وقد نشرا المقال بالحروف الأولى لكارلوس راميريث ماكجريجور مُوضِّحَين تمامًا منْ المسئول عن هذه الافتتاحية، وعندما رأى المدير ذلك اشتاط غضبًا وصبَّ جام غضبه الصبيانى لكراهية الأجانب على الثنائى الكولومبى اللذين يرجع لهما الفضل فى رفع شأن المجلة. حينئذٍ قام بيلينيو ميندوثا بسبه ، وأوصد الباب فى وجهه نهائيًا ، وعلى السُلم قابل جارثيا ماركيز الذى كان قد جاء متأخرًا ، ولذلك كان يصعد السلَّم درجتين بدرجتين فقال له : " اذهب حيث يعوى الذئب أى إلى الجحيم" ، وقد أكدَّ له جابو أنه ليست هناك أدنى مشكلة ؛ فقد كان هو الآخر سيقوم بنفس الصنيع"(١٥).

وبالتالى توفرً مزيد من الوقت لجارثيا ماركيز لكى يتقدم فى كتابة قصصه والتمتع طيلة خمسة أشهر بزيارة مختلف أنحاء المدينة والشاطئ ، والذهاب إلى السينما والمسرح بصحبة مرسيدس ؛ فضلاً عن تعميق صداقته من الكُتَّاب الشُبان بجماعة سارديو (سلفادور جارمينديا ، وأدريانو جونثاليث ليون وجارثيا موراليس ، ورامون بالوماريس ، وفرانثيسكو بيريث بيردومو) متناولاً الجعة فى مقهى إيرونيا أمام مسرح البلدية ، والحديث عن ويليام فوكنر ، وعن اثنين من الكلاسيكيين الفنزويليين على الرغم من كونهما سابقين على خورخى لويس بورخيس ، وكان لا يعرفهما أحدُ تقريبًا : خوسيه أنطونيو راموس سوكرى ، وخوليو جارمينديا .

وبما أنَّ جارثيا ماركيز كان كاتبًا فقيراً وحديث الزواج؛ لم يكن بوسعه أنْ يظلَّ بلا عملٍ لفترة طويلة ، واضطر بمساعدة بيلينيو ميندوثا للعودة إلى سلسلة كابريليس ، وفى إحدى مجلاتها وهى (الصفوة) ، التى كان قد تعاون معها من قبل من باريس بخمسة عشر مقالاً وتحقيقًا صحفيًا ، ومع ذلك فقد عيَّنه ميجيل أنخيل كابريلس رئيسًا لتحرير أتفه مجلات السلسلة : فنزويلا جرافيكا (فنزويلا بالصور) والمعروفة على الصعيد الشعبى بمجلة فنزويلا للدعارة ، نظرًا لنشرها صور فتيات بالملابس الداخلية الشفافة.ولم يبد ذلك عملاً سيئًا لجارثيا ماركيز يكتسب منه قُوت يومه طالما أنه ليس مُضطرًا لتوقيع أى شىء باسمه ، وقد بلغ به الأمر أن وقَّع تحقيقين - بصفة استثنائية - بالحروف الأولى من اسمه ؛ كانت نصوصًا مؤيدة ومناصرة لذلك أو للتعبير عن الإحساس ، وعن معتقداته السياسية والاجتماعية مثلما كان عليه الحال فى مجلة " لحظة" ولكن بدون إلهام مقالات هذه المجلة.

ومن وجهة النظر التشكيلية ؛ فإنَّ مقالات وتحقيقات مجلة " لحظة" قد تُعتبر الأفضل خلال السنوات العشر الأولى من عمله كصحفى ، باستثناء تحقيق " حكاية غريق" ، وقد تزوج جارثيا ماركيز مؤخرًا وأتم العام الحادى والثلاثين من عمره ، وقد اكتسب نضجًا كبيرًا(ويتفق أصدقاؤه وأقاربه على أنَّ جارثيا ماركيز وُلِدَ ناضجًا) على مختلف الأصعدة: الإنسانى، والفكرى، والسياسى ، والأيديولوجى، والأدبى ، والصحفى ، وكان يكتب بسهولة وإسهاب وانسيابية وجمال ، مُعالجًا أهم الموضوعات جديةً بألفة كبيرة ، وبدون مهابة أو إجلال. فنصوص مثل " كيلى يخرجُ من الظل" ، و " رجل الدين

المكافح" ، و " جيل المضطهدين" ، و "اثنتا عشرة ساعة لإنقاذه " ، و " كاراكاس بلا ماء" ، أو تلك التي أهداها لبلاده خلال ذلك العام: " كولومبيا: أخيراً تتحدث أصوات الناخبين" ، و"بيراس"[١٦] ؛ تلك المقالات التي تضع القارئ أكثر قُرباً من مؤلف "مائة عام من العُزلة" أكثر من كاتب " الساعة المشئومة" ، وإذا كان جارثيا ماركيز الناضج قد بلغ درجة قريبة من الكمال إذن لماذا تأخر حقبة من الزمن لكي يكتب رائعته القصصية ؟ . والإجابة ليست شيئاً سهلاً أو بسيطاً . فمن بين الأسباب الأخرى كان ينبغي تفسير هل حقيقة تأخرت كتابة "مائة عام من العُزلة " ، أو ببساطة هل كُتبت عندما كان الوضع يقتضي كتابتها. ومع ذلك فإنَّ الانطباع (وأحياناً الاعتقاد) المعروف هو أنَّ القصة تأخرت طوال كل هذه السنوات لأسباب خارجة عن الأدب أكثر منها أسباب تتعلق بالأدب. وإذا كان الأمر كذلك فإنَّ أوَّل سبب يجب البحث عنه في كوبا حيث قضى الملتحون في سيراً مايسترا على طغيان فولخينثيو باتيستا ، مما أدى إلى بزوغ نور الفجر في أمريكا اللاتينية بأسرها مع قدوم أوَّل ثورة اشتراكية في القارة.

ولأسباب تتعلق بمعتقداته السياسية ومهنته كصحفي فإنَّ جارثيا ماركيز و بيلينيو ميندوثا قد وجدا هويتهما دائماً مع حركة ٢٦ يوليه منذ ذلك المساء في باريس ١٩٥٦ عندما كانا يتناولان القهوة مع الشاعر نيقولاس جيين في غرفته بفندق جراند هوتيل سان ميتشيل ، وحكى لهما نيقولاس جيين بأن الأمل الوحيد الذي تراه كوبا يكمن في شاب فارع القامة عنيد ونصف مجنون يُدعى فيديل كاسترو ، كان يتحرك سريعاً في مختلف أنحاء المكسيك ، ولم يكن الاسم غريباً عليهما تماماً أي بالنسبة للمواطنين الكولومبيين فقد اشتهر كاسترو منذ ثماني سنوات في بوجوتا بسبب أحداث ٩ أبريل ١٩٤٨ عندما أرادت الحكومة المحافظة في ذلك الحين تقديمه إلى جانب طلاب كوبيين آخرين كأنه المسئول عن اغتيال خورخي إليسير جايتان، أمَّا الآن ففي أوَّل يناير١٩٥٩ استطاع كاسترو أنَّ يقود الثورة إلى شاطئ الأمان الأمر الذي تعذَّر عليه في بوجوتا. وقد احتفل جارثيا ماركيز و بيلينيو ميندوثا بهذا الحدث سعيدين في شُرفة بيو مونتي (الجبل الجميل) كما احتفلت به كاراكاس أيضاً والقارة بأسرها.

وبعد حُقبة من الديكتاتورية والظلم ، بدأ الطُغاة يتساقطون كثمرات فاكهة ناضجة تتساقط من شجرتها ، وكان أولهم خوان دومينجو بيرون في ١٩٥٥ وبعد ذلك مانويل

أودريا في ١٩٥٦وجاء الدور على جوستابو روخاس بينيا في ١٩٥٧ ثم ماركوس بيريث خيمينيث في ١٩٥٨ ثم أصاب الدور فولخينثيو باتيستا، ولكن الثورة الكوبية كانت الحركة الوحيدة ذات الطفرة النوعية الهائلة ، تختلف تماماً عما حدث في الدول الأخرى: فالأمر الآن لا يتعلق بالطبقات البرجوازية وحكومة الأقليات المعروفة التي أسقطت الطاغية عندما أصابه الدور ؛ بل انتزعت منه السُلطة . إنَّ الأمر يتعلق بمجموعة من المحاربين الملتحين على رأس الشعب غزت السُلطة من الجبال ، مما أثار الإعجاب والتضامن والقلق الكبير في كل أنحاء أمريكا اللاتينية .

وشأن كثير من الأمريكيين اللاتينيين رَغِبَ بيلينيو ميندوثا و جارثيا ماركيز في الذهاب إلى هافانا لمشاهدة هذا الحماس الثوري؛ ذلك الانفجار المليئ بالآمال والأحلام المؤجلة. وقد سنحت لهما الفرصة بعد ذلك ببضعة أيام في ١٨ يناير عندما كان جارثيا ماركيز يرتب مكتبه وينظمه في مجلة " فنزويلا المصورة" لكي يعود إلى منزله إذ دخل مواطنٌ كوبيٌ من الحركة الشيوعية في ٢٦يولية. دخل المجلة وقال له: " لقد جاءت طائرة سريعة من كوبا لكي تُقل الصحفيين الذين يريدون الذهاب إلى هافانا للاطلاع على عملية حقيقية" ، تلك التي تزعمها فيدل كاسترو ليحاكم على الملأ مُجرمي الحرب أثناء حكم الطاغية باتيستا. وبالنسبة لجارثيا ماركيز الذي كان قد كتب من قبل عن العملية الثورية الكوبية ، حيث التأييد الواضح الذي أبداه والتعاطف الذي أظهره ، وذلك من خلال تحقيق بعنوان " إيما كاسترو" شقيقة كاسترو ، فقد كانت هذه الدعوة مناسبة سعيدة بالنسبة له ، واتصل على الفور ببيلينيو ميندوثا ، وذهبا في نفس تلك الليلة بأمتعة قليلة على الطائرة الكوبية ذات المحركين، طائرة قديمة تم اختطافها من جيش باتيستا ، وكانت لها رائحة البول العفن(١٧) ، وبعد هبوط اضطراري في كاماجوبي وصل الجميع إلى هافانا ، وشاهدوا رجالاً كثيرين يرتدون زيًّا موحداً أخضر ، لون الزيتون ، وجماهير غفيرة لم تنم لأنها لم تجد وقتًا للنوم لأن الاحتفال بالحرية منعهم من ذلك ، وكان فيدل كاسترو بكل بساطة فيدل الزعيم الذي لا جِدال بشأنه ، وهو أمل الجميع لدرجة أنَّ الذين كانوا من غير أنصاره أخذوا يهتفون باسمه سُعداء به في قلوبهم ، ووثقوا فيه لتحقيق أفضل أحلامهم.

وبعد الطواف في هافانا يتحدثان ويتحاوران مع الناس ، ويجسدان نبض الثورة ، ويستمعان إلى فيدل كاسترو ، وهو يخطب في مليون شخص من مواطنيه. استطاع

جارثيا ماركيز و بيلينيو ميندوثا مشاهدة " عملية حقيقة" ، ولكي يعرف العالم أنَّ المحاكمة وإعدام مُجرمي الحرب كانت موجهة فقط لهؤلاء المجرمين وليس إلى كل أنصار باتيستا كما تقول الصحافة الأمريكية. لقد دعا كاسترو صحفيين ومراقبين من عدة دول لحضور هذه المحاكمات العاجلة. وكانت المحاكمات تتم خلال هذه الأيام في استاد سوسا بلانكو الرياضي ، وهو أحد مُجرمي الحرب أثناء عهد النظام السابق المخلوع. لقد اتهم باغتيال العديد من الفلاحين الذين اعتبرهم شركاء الجيش المتمرد، وقد حاكمته محكمة الملتحين موحدي الزِّي. لقد كان الاستاد مليئًا عن آخره ، وفي المستطيل الأخضر كان المتهم موجودًا أمام المحكمة يرتدي حُلته الزرقاء كسجين. وكان بيلينيو ميندوثا و جارثيا ماركيز في الصف الأوَّل تقريبًا عند قدمي سوسا بلانكو وهو يرتعد خوفًا من الموت القريب. لقد كان مُكبلاً بالأغلال ، وكان على وشك الفناء بسبب الصياح والهُتافات التي تصم الآذان ؛ فضلاً عن السباب وضحكات الجماهير الساخرة التواقة للقصاص ، وقد جمَّد المتهم نظرته ، وركَّز نظره صوب حذائه الإيطالي الصُنع حتى الصباح ، حيث سمع النطق بالحكم الذي يقضي بإعدامه.

وقد وقع بيلينيو ميندوثا و جارثيا ماركيز وصحفيون آخرون طلبًا بإعادة المحاكمة بناء على طلب من عقيلة المتهم وكريماته ، ولكن دون جدوى. ولم يكن هناك أدنى شك في مسئولية المتهم عما نُسبَ إليه من تُهم ، ولكن المحاكمة انطوت على كثير من الأخطاء الواضحة الجلية نظرًا لأنَّ المحكمة كانت تفتقر إلى الخبرة ؛ فضلاً عن كونها متسرعة. حينئذ وقَّع الصحفيون في اليوم التالي الطلب الذي تقدمت به زوجة سوسا بلانكو[١٨]. كما أنَّ كريمتيه التوءم الجميلتين البالغتين من العمر اثني عشر عامًا كانتا قد طالبتا بالتضامن من أجل الإبقاء على حياة المتهم ولو كان مُجرم حرب قاسي القلب ، والذي أصبح في غيبة العدالة الثورية أصبح صيدًا شهيًا وكرنفاليًا للموت.

ولقد تركت المحاكمة والحكم أثرًا لا يُمحى لدى الصحفيين الكولومبيين ، ولم يكتب جارثيا ماركيز بصورة مباشرة عن ذلك أبدًا ، مما يعكس بجلاء هذا الانطباع العميق والمؤثر[١٩]. إنَّ المحاكمة والشهادات والوثائق الوفيرة التي جمعوها لإثبات التُهمة على سوسا بلانكو ساعدت الكاتب على إعداد خطة أُولى إجمالية لبنية وهيكل " خريف البطريريك " ؛ تلك القصة التي كانت في البداية عبارة عن مناجاة بين الطاغية ونفسه ، في الوقت الذي

يُحاكم فيه بالاستاد . وبعد ذلك بعشر سنوات تغيرّت البنية تمامًا وأثريت حيث دار الحديث كما فى " الورقة الساقطة" على شكل مناجاة حول جثة.

وعلى الرغم من هذا الانطباع الذى لا يُمحى الذى تركته هذه التجربة المريرة والذى يُشبه ما كان يحدث فى السيرك الرومانى ، فإن الصحفيين الكولومبيين عادا إلى كاراكاس بعد ذلك بأربعة أيام ومعنوياتهما مرتفعة ، وعلى استعداد تام لمواصلة إسهامهما كى تحقق الثورة الكوبية أهدافها المُعلنة وغاياتها المنشودة: تحقيق العدالة والديموقراطية والسلام والمساواة والتعليم والصحة ؛ هذه الدعائم الراسخة التى ينبغى أنّ يكون عليها " الإنسان الجديد" فى أمريكا اللاتينية.

وبينما استمر جارثيا ماركيز يعمل فى مجلة " فنزويلا المصورة" ؛ فضلاً عن مواصلة كتاباته الأدبية ليلاً عاد بيلينيو ميندوثا إلى كولومبيا فى أواخر فبراير ، بعد أنّ أضنته الغربة لسنوات طويلة بعيدًا عن وطنه - وذلك على الرغم من أنهم عرضوا عليه مؤخرًا الإدارة الفنية لمجلة "الصفوة " - فضلاً عن تزايد ظاهرة النفور من الأجانب وكراهيتهم فى سلسلة كابريليس التى كان يعمل بها ، حتى أصبحت وباءً قوميًا تفشى فى فنزويلا. أمّا جارثيا ماركيز ، على الرغم من إدراكه للوضع الصعب الذى سيعانى منه ، استمر فى كاراكاس لكن لفترة ليست طويلة: كانت فكرته تكمن فى الذهاب إلى المكسيك حيث يوجد صديقه ألبارو موتيس سجينًا ليكرس وقته للكتابة ويتفرغ للسينما(٢٠).

وبدون عمل ثابت فى بوجوتا أصبح بيلينيو ميندوثا صحفيًا حُرًّا يكتب مقالاته من حينٍ لآخر فى مجلتى كروموس (ألوان) و" الشارع" إلى أنّ حلّ شهر أبريل ، وذات يوم ، وبواسطة جييرمو أنجولو تعرّف على مواطن مكسيكى سكِّير بذئ القول ، وعرض عليه أنّ يكون مُراسلاً لهافانا فى أمريكا اللاتينية كلها ، تمهيدًا لإنشاء وكالة الأنباء الخاصة بالثورة الكوبية" الصحافة اللاتينية " ، وقد أجابه بيلينيو ميندوثا بأنّه على استعداد تام للعمل ، وأن له صديقًا آخر فى كاراكاس على أتم الاستعداد أيضًا لقبول وممارسة هذاالعمل. وقد تعاقد الاثنان شفهيًا ؛ بيلينيو كمدير وجارثيا ماركيز كمحرر ، ولكنهما سيتقاضيان نفس المرتب. وبعد قبولهما الميزانية الأولى التى بلغت عشرة آلاف دولار أسرع ميندوثا فى الاتصال بصديقه فى كاراكاس. وطلب منه العودة بسرعة

إلى كولومبيا ، وأنه الآن لن يستطيع أنْ يشرح له الأمر بالتفصيل ، و أن الأمر يتعلق بوكالة جديدة للأنباء سيرأسانها سويًا. وقد بدا ذلك أمرًا هائلاً بالنسبة لجارثيا ماركيز[٢١]. فلأول مرَّة على مدى أحد عشر عامًا من ممارسته للصحافة تسنح له الفرصة للقيام بعمل مستقل عن المراكز الرأسمالية الدولية للرأى ، ويتلاءم مع معتقداته الفكرية والسياسية ، وسيكون بمثابة تعويض كبير عن تضحيته بالعودة للعمل صحفيًا فى مدينة بوجوتا الإنديزية الباردة .

وبراتب جيد وميزانية كبيرة أعد الاثنان مكتبهما فى شارع ٧ ما بين شارعى ١٧ و ١٨ ، وقد حبسا نفسيهما إلى جانب جهاز تلكس وجهاز استقبال راديو على مدى الأربع والعشرين ساعة وعدة آلات كاتبة ، وزاولا مهمتهما التى كانت تكمن فى استقبال وإرسال الأنباء إلى هافانا. وهناك عملٌ آخر موازٍ كان يكمن فى الخدمات الخاصة ، والذى من خلاله كانا ينبغى عليهما إرسال تحقيقات عن التاريخ والسياسة ، والثقافة الكولومبية. وقام جارثيا ماركيز بإزاحة التراب عن عدد من تحقيقاته الصحفية منذ أنَّ كان يعمل فى صحيفة الاسبكتادور" المشاهد" ، وأرسلها إلى هافانا بصورة موجزة ، ولكن مهمته الشاقة والجديرة بالاستحقاق كانت خارج الوكالة بواسطة الصداقة والدهاء الدبلوماسى ، كان عليهما أنَّ يقهرا عناد الصحافة الكولومبية لكى تقبل برقيات وأنباء وكالة الأنباء اللاتينية ، هذه المهمة التى كانت تزداد تعقيدًا كلما تزايد تشدد الثورة الكوبية.

وفى تلك اللحظة من الحماس الثورى سرعان ما أصبحت الوكالة قبلة اليسار الكولومبى ، حيث مرَّ بها وزراء المستقبل والسُفراء ، وقادة المحاربين المناهضين لنظام الحكم خلال حقبتى الستينيات والسبعينيات عندما كانوا يشاركون نفس أحلام الثورة الكوبية. لقد عُقدت الاجتماعات ، والمؤتمرات ، والمحاضرات ، وكثرت المناقشات التى كانت تصل إلى المقهى المجاور. ولكن كان من الصعب الاقتصار على النظرية البسيطة والمناقشات البسيطة ، ولهذا فقد تم تنظيم كل هذه الاجتماعات فى نفس مكاتب الوكالة ، وخاصة لشبيبة الحركة الثورية الليبرالية (إم. أر. إل) بقيادة ألفونسو لوبيث ميتشيلسين الذى كان بمثابة الابن الضال والعاق لحكومة الأقلية الليبرالية ، ولكن كانت هناك أعمال أكثر تحديدًا ومُلزمة فى مكاتب وكالة أنباء الصحافة اللاتينية مثل تجنيد المتطوعين للذهاب إلى جمهورية الدومينيكان للإطاحة بالطاغية تروخيو مولينا . كل هذه

النشاطات الموازية والمتكررة والمتصلة ، وكذلك فى تضامنها مع كوبا مما أدى بجارثيا ماركيز و بيلينيو ميندوثا إلى إنشاء مجلة تحمل اسمًا قديمًا ، ولكنها ذات إلهام جديد هو "العمل الليبرالى" حيث تقاسما إدارتها(٢٢) .

وعلى الرغم من أنَّ جارثيا ماركيز كان لا يزال شابًا فإنه تميز بنضج خالٍ من أدنى الثغرات فعمله متماسك مترابط يكافأ عليه جيدًا ، فهو صحفى بارع وكاتب منقطع النظير. لقد كان جارثيا ماركيز رجلاً سعيدًا مقارنة بالعام الماضى عندما كان مثل الكثير من المواطنين الكولومبيين فى كاراكاس مواطنًا كولومبيًا " سعيدًا بلا هوية" . ولم يستطع الوهم المزمن الذى سببته له مدينة بوجوتا ذات السماء الملبدة بالغيوم ، وبأمطارها الدائمة وقدرها المشئوم وعاداتها المتيبسة أنَّ يُعكر صفو وسعادة الكاتب. فلأول مرَّة كانت له شقة مؤثثة تأثيثًا جيدًا فى شابينيرو عند التقاء شارعى ٥٩ و كارِّيرا ٣ ، حيث علق بها لوحة لصديقه أليخاندرو أوبريجون وبها سمكة فضية اللون لتعادل المدينة الرمادية الحزينة التى كانت تُطل من النافذة. وكما كان فى باريس وكاراكاس ارتدى جارثيا ماركيز الجينز وسترة صوف ذات ألوان فاقعة زاهية ، وحذاء بكعب صغير وحُللاً غامقة ورباط عُنق أنيق فى المناسبات الخاصة. وعلى الرغم من كونه نحيلاً نحيفًا للغاية وشعره المجعد ، وشاربه الأسود ، فقد كان دائمًا مُحاطًا بدخان السجائر الكبيرة زهيدة الثمن التى كان يدخنها، وكان النيكوتين يتراكم بين أصابع يده اليُمنى ، وكانت مرسيدس قصيرة الشعر عقب الولادة ، شعرها أسود فاحم كلون عينيها ، وكانت تتقى برد بوجوتا بارتداء السراويل الطويلة والتلفيحة. إنها سيدة محترمة وقورة جادة لطيفة ومهذبة وشامخة ، ولكن كان يغلب عليها طابع الشقاوة النسائية. لقد كانت مرسيدس سيدة رابطة الجأش ، عاقلة ومُطلعة على بواطن الأمور: إنها خير رفقة للكاتب.

وفى الشقة الصغيرة كان لدى الكاتب كُتُبٌ قليلةٌ (ومعظمها كان قد تركها هنا وهناك) ، ومن أبرزها طبعات شارلز ديكنز المغلفة بالجلد وجارثيا لوركا ، وجراهام جرين ، والى جوار المكتب – حيث كان يعمل كل ليلة – توجد أكوام متراصة من مئات الأوراق الصفراء من ورق الصُحُف. لقد كان دائمًا مُسرفًا فى استخدام الورق ، وعندما يرتكب خطأً بسيطًا على الآلة الكاتبة ينزع الورقة ليبدأ الكتابة من جديد. هكذا كانت عادته منذ قصة " الورقة الساقطة" القصة الأولى ، والبعيدة عن الوقت الحالى ، وفى منتصف أغسطس أُنقذت من طى النسيان بفضل المهرجان الأوَّل للكتاب الكولومبى.

وكانت الفكرة هى دعم وترويج مهرجانات ومعارض الكتاب للقصاص البيروانى مانويل سكورثا ، الذى طاف بالقارة من البرازيل وبيرو إلى كوبا والمكسيك. وبمعيار جيد ودعم ممتاز اختار المهرجان عشرة كُتُب أدبية من كل دولة من بين الكُتَّاب القُدامى والمعاصرين ، وطُبِعت كلٌ منها فى طبعة فردية بلغت عشرة آلاف نسخة. لقد قُوبلت الفكرة بحماس منقطع النظير فى جميع الدول ، وقد أصبح مانويل سكورثا رجلاً ثرياً حتى حظر فيدل كاسترو خروج رؤوس الأموال من البلاد ، حيث فاجأ الكاتب وهو يستثمر كل ثروته الدولارية فى أوَّل مهرجان أو معرض للكتاب فى كوبا. واستناداً لما قاله الصحفى ألبرتو ثلاميا منسق دور النشر فى هذا المهرجان: " إنَّ هذه المصيبة الاقتصادية كانت سبباً فى أنَّ يصبح مانويل سكورثا قصاصاً فى وقت لاحق. وعلى أية حالٍ فإنَّ " الورقة الساقطة" خرجت مستفيدة من فكرة الكاتب البيروانى ، حيث طبعت ثلاثَ مرَّات بلغ إجمالى عدد نسخها ثلاثين ألف نسخة[٢٣] . حينئذٍ اكتسب جارثيا ماركيز شهرة كبيرة على الصعيد القومى كقصاص ، وحقق شعبية مابعد كتابته لأول قصة له بتسع سنوات ، وبعد أنَّ نشرها بأربعة أعوام. وكانت هذه المرة الأولى التى يقوم بتوقيع نسخ من قصته على الملأ ، إلى جانب صديقه وأستاذه وزميله إدواردو ثلاميا بوردا (أوليس) نائب مدير صحيفة الاسبكتادور " المشاهد" ، الذى كان قد نشر له أول حكاية وتنبأ له بأنه سيكون عبقرى المستقبل فى القصة الكولومبية.

ولكن علاوة على هذا الاعتراف المتأخر للكاتب فإنَّ أكبر شىء أسعد جارثيا ماركيز فى تلك الأيام تمثل فى ميلاد نجله الأوَّل فى ٢٤ أغسطس. كان النجل قوى البنية مَرِحاً ، وقد أصبح أفضل لعبة لدى والديه، لعبة كان يشاركهما فيها بيلينيو ميندوثا كأنه أحد أفراد الأسرة. كان ميندوثا دائماً بين الأصدقاء كما يحلو للكاتب ، وقد تم تعميد رودريجو فوراً على يد كاميلو تورِّيس الذى - إلى جانب كونه راعياً للأرواح وعمَّد النجل الأكبر لجارثيا ماركيز - كان شاعراً حالماً.

لقد كان كاميلو القس الوحيد الصديق لجارثيا ماركيز حقيقة. لقد تعارفا فى الجامعة ، وقبل دراسة القانون والسياسة كانت تجمعهما هواية الولع بالشعر مع كلٍ من جونثالو مايارينو ، ولويس بيَّار بوردا . لقد كانوا يكوِّنون الرباعى الأدبى بالجامعة فى ذلك الحين ، حتى أنَّ الصحيفة الليبرالية لا راثون (العقل) خصصت لهم صفحة

أسبوعيًا لكى يفصحوا فيها عن مخاوفهم واهتماماتهم الأدبية والإنسانية. ولكن كاميلو تورِّيس انتابته نزعة التصوف والزُهد فى منتصف عام ١٩٤٨، حيث ترك الجامعة وهجر خطيبته والتحق بالكنيسة. وبعد أنْ لحقت والدة القس به فى محطة القطار ، حيث أثنته عن عزمه لمدة أسبوع آخر. وقد ذهب جارثيا ماركيز وزملاءُ آخرون إلى منزل كاميلو لتوديعه ، واعترف لهم أنَّه لا مناص من ذلك لأنَّ رغبته لا تشوبها شائبة ، وأنها صادقة أكيدة ومتعمقة ، وأنه سيذهب إلى الكنيسة بلا رجعة[٢٤]. وقد تخرَّج كاميلو تورِّيس قسيسًا عندما كان الكاتب يعمل فى صحيفة الاسبكتادور" المشاهد" ، وبعد ذلك درس علم الاجتماع فى جامعة لوفينا ، والتقى مع جارثيا ماركيز فى أوروبا ، وكذلك لويس بيَّار بوردا و بيلينيو ميندوثا. وعند عودته إلى كولومبيا جمع بين ممارسة التدريس كأستاذ لعلم الاجتماع بالجامعة القومية لخدمة فقراء الأحياء المُهمَّشة جنوب مدينة بوجوتا. وعندماالتقى به الكاتب من جديد فى عام ١٩٥٩ كان كاميلو تورِّيس قسيسًا متفرغًا بكافة حواسه وأحاسيسه لخدمة الفقراء والمعوزين. وكان يتردد بكثرة على منزل جارثيا ماركيز ليتناول مع الأسرة طعام الغداء ، ولحضور حفلات نهاية الأسبوع. وذات يوم ظهر له لص صغير وتوسَّل إليه أنَّ يخفيه فى منزله. إنها قصة توضح إلى أى مدى بلغت طيبة قلب كاميلو تورِّيس ، والواقع الذى يغذى خيالات الكاتب.

وكان اللص الصغير يسطو على المنازل يسرقها ، ولكن بطريقة صحية أشبه بلصوص" ألف ليلة وليلة". وكان فى كل مرَّة يذهب فيها إلى السجن تطارده الشرطة وتنتزع منه كل ما سرق ، وحتى لو لم يسرق من جديد كانت الشرطة تودعه السجن مرَّة أخرى. وفى نوع من أنواع الابتزاز المستمر. ولكى يحميه كاميلو تورِّيس أخذه إلى منزل جارثيا ماركيز حتى يجد له عملاً ، وكان الرجل يتميز بالصمت ، وذا طابع سوداوى مع ما يتمشى ومهنته، وكان يحكى لمضيفه على المائدة أفراح وأتراح مهنته بالمنازل. ومما هو غريب أنَّ أسرة جارثيا ماركيز كانت تخرج وتترك اللص فى حراسة المنزل. وفى يوم من الأيام وجد كاميلو تورِّيس عملاً واصطحبه ليباشر عمله. وبعد ذلك ببضعة أيام فتحت خادمة جارثيا ماركيز الصحيفة ووجدت صورة فى صفحة الحوادث لرجل ميت وصاحت: " ولكن هذا هو حذاء سيدى! ، وكان التحقيق عن وفاته بعد أنَّ قتله أحد رجال الشرطة". قام كاميلو تورِّيس بأخذ الجثة ودفنها عل نفقته الخاصة [٢٥].

واستناداً لما يقوله جارثيا ماركيز فإنَّ هذه الواقعة بدأت تُغير الوعى الخيرى للقسيس إلى وعى ثورى راديكالى ؛ هذا الوعى الذى جعله يذهب إلى الغابة حيث مات وهو يقاتل كمحارب فى صفوف جيش التحرير الوطنى. وبعد ذلك هاجرت والدته إيسابيل ريستريبو إلى كوبا وأصبحت أم فيدل كاسترو بالتبنى ؛ الذى سيُصبح صديقًا كبيراً من بين الأصدقاء الكبار للكاتب.

ومن هذه الوقائع الدورية التى تُشبه الثعابين التى تعض ذيلها لم تُنشر حياة الكاتب فقط وحياة أقاربه ، وأصدقائه ؛ بل كانت أيضًا تاريخ كولومبيا ، كما هو الحال على سبيل المثال فى تحالف الجبهة الوطنية ، بالتواطؤ غير المشروع بين الليبراليين والمحافظين الذى شجعه فى مايو ويونية من نفس العام على كتابة " جنازة الأم الكبيرة"[٢٦].

وقد ظهرت الجبهة الوطنية عندما أرادت حكومة الأقليات أنْ تُزيح عن كاهلها الطاغية جوستابو روخاس بينيا ، الذى وصل إلى السُلطة بفضلها لتحقيق مآربها ، ولخدمة مصالحها ، ولإبعاد المحافظين مؤيدى السُلطة المطلقة للبابا لا وريانو جوميث ، ولوضع حواجز صد لإنهاء الأعمال النيابية والاجتماعية التى أغرقت البلاد فى بحرٍ من الدم. وعلاوة على ذلك؛ فإنَّ الجبهة الوطنية ظهرت كاستراتيجية لتفادى حدوث ثورة ستُطيح بحكومة الأقلية من الخريطة الوطنية ، ولكن التحالف أُعِدَّ بغباء وأنانية منقطعى النظير ، وبمرور الوقت أضر بالبلاد أكثر مما أفادها. ففى المقام الأوَّل عاق التطور الديموقراطى ، وحوَّل السياسة إلى شللية تخدم مصالحها ؛ كما أدى إلى زيادة راديكالية القوى السياسية على هامش الحزبين التقليديين. وكأن الزمن لم يتوقف فقط؛ بل تراجع إلى عصر الإصلاح ، عندما قام الليبراليون بزعامة رفائيل نونيث والمحافظون بقيادة ميجيل أنطونيو كارو بتأسيس جبهة مماثلة لسد الطريق أمام الليبراليين الإقطاعيين ، والمفكرين الأحرار ، أو عند السنوات الأولى من مطلع هذا القرن العشرين عقب انتهاء حرب " الألف يوم " ، عندما عاد الليبراليون الاقطاعيون والمحافظون للاتفاق من جديد لتقوية نظام حكم الأقلية ، مما جعل من الممكن التواطؤ غير الشرعى للجبهة الوطنية.

وفى الوقت الذى استعيدت فيه الديموقراطية فى فنزويلا وبلدان أخرى بالقارة ، وتمَّ تعزيز الثورة الكوبية ، فإن الجبهة الوطنية – فى رأى جارثيا ماركيز – كانت خذلانًا كبيراً

وخيبة أمل لا مثيل لهما، ومن المحتمل أنْ يكون قد حدث ذلك فى الوقت الذى عكف فيه الكاتب على دراسة التاريخ السياسى والعسكرى لبلاده بمزيد من التركيز والتعمُق ، لتوثيق خلفية قصته "مائة عام من العُزلة" ، وقد انتهى به الأمر فى التقاط هذا المعنى الثابت الجامد لتاريخ كولومبيا(٢٧). وفى هذا المعنى ، أو فى معانٍ أخرى ، كانت " جنازة الأم العظيمة" التى كتبها وسط الغليان وغضب الجبهة الوطنية ، الذى كان بمثابة الحلقة الحاسمة التى قادته إلى كتابة رائعة أعماله.

وقد صَهَرَ التاريخ والسياسة والأسطورة والذاكرة المحلية والأسرية ، واستعاد جارثيا ماركيز فهمه لصورة خالته فرانثيسكا ثيموديا ميخيا (العمة الأم التى ربته ، وكانت الآمرة الناهية فى منزل جدِّية كعقيدة بكل بالمعانى) ، والأم المتسلطة فى سوكرى ماريا أماليا سامبايو دى ألباريث (التى أعارت للقصة ممتلكاتها، ومنزلها المكون من طابقين ؛ فضلاً عن أخطائها فى سلسلة الأحداث التاريخية وجهلها المركب). وقد أخذ من العرف المحلى أسطورة الماركيز ة الصغيرة دى لا سيربى (الأم الكبيرة الاستيطانية الأسبانية) وتاريخ الهيمنة واستغلال شركة الفواكه المتحدة (الأم الأمريكية) ؛ بينما انتشل من التاريخ الوطنى المؤامرات أو التواطؤات السياسية فى عهد الإصلاح والجبهة الوطنية.

وبالنسبة لجارثيا ماركيز، فإنَّ العُزلة أو الوحدة مُصطلح مُضاد للتضامن . وفى كافة المظاهر التاريخية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية نجد أنَّ عُزلة أو وحدة جارثيا ماركيز تبدو جاهزة ومهيأة فى " الورقة الساقطة "، والآن فى " جنازة الأم الكبيرة" حاول التعمُق فى مظهريهما التاريخى والاقتصادى: الآن نعرف أنَّ الوباء الأعظم للعُزلة هو – قبل كل شيء – مرض تاريخى وهيكلى يرجع إلى العهد الاستعمارى. إنَّ ثروة الأم العظيمة الأولى كانت قد بدأت بالحصول على ثلاثة أوسمة بمرسوم ملكى ، بمقتضى مشاكل وخصومات عائلية تتعلق بالزنا بالمحارم ، وزواج المصالح مما سمح للأم العظيمة الأخيرة بتكوين ثروة مادية وأخلاقية هائلة مرئية ، وغير مرئية كانت تضم خمسة مراكز أو بلديات ، حيث كانت تعيش ثلاثمائة وخمسون أسرة من المزارعين الأجراء حتى الأحزاب التقليدية ، والأخلاقيات المسيحية ، والسيادة الوطنية استنادًا إلى ألوان العلم ، ونقاء اللغة ، وأثينا الأمريكية اللاتينية، والحظر الشيوعى ، وحقوق الإنسان ، وملكات الجمال ، وكل ما حدث وما سيحدث فى الدولة...

وعلاوة على ذلك فإنه فى " الورقة الساقطة" نجد هذه القصة تُروى من وجهة نظر الشائعة الشعبية ، التى بولِغَ فيها وتمَّ تحريفها ، مما حوَّلها فى الواقع إلى أسطورة وخُرافة مبالغ فيها بإفراط فياض ، حتى أصبح لها هذا الرنين الكرنفالى. ومع ذلك ؛ فقد تكون هذه القصة هى أخطر ضحكة ساخرة يجدها إنتاج جارثيا ماركيز لأنها تتضمن فى نفسها الغضب المقنع والمتخفى ، والنظرة الانتقادية للكاتب عن تاريخ وسياسة البلاد. وبعيداً عن الحكاية فإنَّ ما نطالعه فى " جنازة الأم الكبيرة" هو أنَّ زمن قصة ماكوندو قد تجمَّد بفضل جبروت السُلطة الاقتصادية والسياسية والروحية للأم العظيمة وأقاربها ، لكى تظل فقط فى زمن متناقض دون علةٍ أو تبرير تاريخى يصول ويجول ويقتل ويفتك ويبطش لكى يستمر الحال على ما هو عليه دائمًا. ولذلك فإنَّ خلفية هذه الرواية ، وقصة "مائة عام من العُزلة" ليس العُنف القريب أو الوشيك كما يحدث فى " العقيد لا يجد منْ يُراسله " ، و "الساعة المشئومة" ومعظم حكايات " جنازة الأم الكبيرة" ؛ بل كما جاء بصفة أصلية أساسية فى " الورقة الساقطة " الذى يتميز بالواقع الرحب الفسيح الأسطورى – الخرافى الأساسى الخاص بالسلف ، والذى يُترجم فى الحياة الواقعية على أنه أمرٌ يومى جامدُ لا حِراك فيه ، حيث يبدو دائمًا كأنه يوم الاثنين أى مرور الأيام دون أنَّ تمُر حقيقة.

إنَّ الالتزام السياسى والانتماء الأيدولوجى يتم التعبير عنهما داخليًا بعد أنَّ تحولا إلى خيال. وبهذا الشكل ، وبعد هذه الطفرة النوعية الهائلة التى تمخضت عنها " جنازة الأم العظيمة" فإنَّ جارثيا ماركيز الناضج أصبح نضجه شبه كامل ، وكان على وشك كتابة رائعة أعماله ، وهذا ما يلاحظ أيضًا فى تأملاته أثناء مقالين موجزين فى تلك الفترة " أمران أو ثلاثة أمور عن قصة العُنف" و " الأدب الكولومبى : خداع للأمة " ومع ذلك فإنَّ هذه لن تتأخر فقط سبعة أعوام؛ بل إنَّ الكاتب فى منتصف عام ١٩٥٩ عاد إلى القصة المؤجلة" قصة المنشورات الحائطية" لينهى مرحلة من إنتاجه فى كاراكاس ويتذكر بيلينيو ميندوثا أنَّ الكاتب نفض الغُبار عن الخمسمائة ورقة التى لا عنوان لها حتى الآن ، وقد قام بتقليم الشخصيات والحكايات المبعثرة ، وتفادى التأثير المبدئى لويليام فوكنر ، وكما هى عادته ظلَّ يعمل طوال الليالى ، وفى عطلات نهاية الأسبوع ، وبعد ثلاثة أو أربعة أشهر استطاع أنَّ يخط هذا المجلد الضخم[٢٨]. وكان ذلك هو اللقب

المعروف لهذه القصة ، وإن كان لديه عنوانٌ مؤقت : " أيام الأسبوع الأربعة عشر". وبعد فترة من الحجر الصحى ظلَّ يعمل حتى أواخر سبتمبر ١٩٦٠ ، عندما مرَّ بمدينة بوجوتا خورخى ريكاردو ماسيتى مؤسس وكالة أنباء برنسا لاتينا (الصحافة اللاتينية) ، واتفق على أن يذهب الكاتب إلى هافانا لكى يتم إرساله من العاصمة الكوبية إلى مكانٍ آخر.

ومع ذلك فقد ظلَّت السينما إحدى أولوياته الكبيرة ، وقُبيل أنْ يسافر إلى هافانا كان يفكر فى إمكانية ترك وكالة الأنباء اللاتينية ليعود إلى بارَّانكيا لُينشئ مدرسة للسينما على غِرار مركز السينما التجريبى فى روما ، لدرجة أنه أعدَّ مخططًا لما ستكون عليه هذه المدرسة ، ونشر الفكرة بين الأوساط الفكرية فى بوجوتا[٢٩]. حدث ذلك أثناء تلك الأيام التى ذهب فيها إلى بارَّانكيا مدعوًا من قِبل المركز الفنى بالمدينة الذى يُديره صديقه ألبارو ثيبيدا ساموديو لكى يناقش مع موفدين آخرين لوائح الاتحاد الكولومبى لنوادى السينما ، الذى سينشئونه مستقبلاً بالاشتراك مع إيرناندو سالثيدو سيلبا مؤسسه وممثله. وكان باقى الموفدين من كالى وميدايين و بارَّانكيا .

وقد حبس الموفدون أنفسهم ليلاً ونهارًا فى المركز الفنى ، وتوصلوا إلى اتفاق مبادئ ولوائح الاتحاد الكولومبى لنوادى السينما ، وعهدوا بمهمة تحرير هذه المبادئ واللوائح إلى كلٍ من جارثيا ماركيز ، وألبرتو أجيرِّى موفد نادى السينما فى ميدايين. وفى الاجتماع الأخير تم اختيار بارَّانكيا لكى تكون مقرًا لهذا الاتحاد ، واختير أيضًا ألبارو ثيبدا ساموريو أمينًا له. ولكن الأمر لم يتعد ذلك لأن ألبارو ثيبيدا ساموديو فى حفلة السُكر التالية فَقَدَ اللوائح واتفاق المبادئ فى سيارة أجرة.

ويذكر ألبرتو أجيرِّى أنَّه فى اليوم التالى بعد أنْ ملَّوا من انتظار ألبارو ثيبيدا ساموديو ، الذى كان قد دعاهم لمنزله لتناول وجبة من السمك ، قرر جارثيا ماركيز وأجيرِّى البقاء لتناول طعام الغداء فى فندق البرادو ، وأثناء الغداء قال له الكاتب إنَّ مرسيدس اتصلت به من بوجوتا ، لتخبره أنها تحتاج إلى ستمائة بيزو لأنهم سيقطعون عنها الخدمات (كهرباء ، ومياه وهاتف). وكان ألبرتو أجيرِّى محاميًا ومولعًا بالسينما ، وصاحب مكتبة ، وناشرًا ذا نيةٍ طيبة: كان قد نشر بعض الكتب ، وكان بصدد طبع الأعمال الكاملة للشاعر ليون جرييف ؛ حبًا فى مهنته أكثر من كونه عملاً تجاريًا. ومنذ

عامين كان قد قرأ باستمتاع حقيقي " العقيد لا يجد منْ يُراسله" عندما نشرتها مجلة ميتو (الأسطورة) في بوجوتا. وبما أنَّ النص لم تقبله دور النشر ، وبما أنَّ مؤلفها كان محتاجًا ؛ فقد بدا الأمر مناسبًا لسببين : الأول النشر ، والثاني صنع معروف في صديق عزيز لديه، لذلك عرض على جارثيا ماركيز طبع قصته. حينئذٍ ، وبعد الغداء أخبره بذلك: جابو، أود طبع " العقيد لا يجد منْ يُراسله". وقد دُهش ماركيز، وقال له: هل أنت مجنون ؟ أنت تعلم أنَّ الكتب لا تباع في كولومبيا!. تذكر ما حدث للطبعة الأولى " الورقة الساقطة ". كما كان هناك عائقٌ قانوني: كان جارثيا ماركيز قد وقَّع عقدًا مع دار نشر بيرو لطبع نفس العمل، ولكن بما أنَّ تلك الطبعة كانت قديمة جدًا ، أصرَّ ألبرتو أجيرِّى على عزمه قائلاً له: "لن أطبعها فقط ؛ بل سأقدم لك شيئًا من حقوق المؤلف". وقد انتهيا من التعاقُد في نفس اللحظة مقابل ثمانمائة بيزو إجماليًا ومائتي بيزو مقدمًا .

وبعد ذلك بعام - عندما أبلغه الناشر بالانتهاء من طبع الكتاب - اشتكى لألبرتو أجيرِّى عن كونه الوحيد الذى يتعاقد شفهيًا قريبًا من رائحة المانجو ، ومضطجعًا في كرسي هزَّاز من البامبو رغم الحرِّ المدارى الشديد[٣٠]. وعلى الرغم من حُسن نية الناشر ، والاحتفاء الممتاز للنقد بهذه القصة على الصعيدين الوطني والدولى ، فإن تكهنات المؤلف تحققت لسوء الحظ: لم يشتر من هذه الطبعة الأولى التى بلغت نسخها ألفي نسخة إلا ثمانمائة فقط.

إنَّ مرور خورخي ريكاردو ماسيتي ببوجوتا في أواخر سبتمبر كان سيعوق (أو سيوجه جيدًا) مرَّة أخرى مصير الكاتب. لقد كان ماسيتي صديقًا ، ومواطنًا لتشي جيفارا ، وقد منحه فيدل كاسترو ثقة مُطلقة منذ أنْ تعرَّف عليه في سيرًا مايسترا (سلسلة الجبال الرئيسية)، وعلى وجه التحديد أدى تعليق تليفزيوني له بالتليفزيون الكوبي خلال الشهور الأولى للثورة إلى تأسيس وكالة الأنباء اللاتينية ، وكان ماسيتي أوَّل مدير لها. وكان ماسيتي نشيطًا خياليًا مثل جيفارا تمامًا ؛ فضلاً عن كونه شجاعًا ، وعلى خصومة مع البيروقراطية التى تميَّز بها الشيوعيون الموالون للاتحاد السوفيتي. ومنذ الوهلة الأولى راوده حُلم أنْ تكون وكالة الأنباء اللاتينية أحسن وكالة أنباء في العالم أجمع ، محاولاً بكل السُبُل ألا يكل ولا يمل في خدمة الثورة

الكوبية. وكان كثير الرحلات إلى الدول اللاتينية لكى يتعرف شخصيًا على مندوبى الوكالة ، وليعطيهم التعليمات الجديدة ، ولذلك فقد مكث يومين فى بوجوتا وهو لايزال فى طريقه إلى البرازيل. ويذكر بيلينيو ميندوثا أنَّ ماسيتى قال لهما وهما فى منزل جارثيا ماركيز ذات ليلة إنه لا يستطيع أنْ يجمع بينهما فى الوكالة نفسها ، لأنه فى حاجة ماسة إلى أناس آخرين فى مكانٍ آخر، وإنه يتحتم عليهما أنْ يختارا منْ منهما سيذهب مع ماسيتى. وتقرر أنْ يذهب جارثيا ماركيز ، لأن بيلينيو ميندوثا كان يريد الاندراج والاندماج من جديد فى حياة بلاده بعد عدة سنوات من الغياب عنها(٣١).

وكانت الفكرة أنْ يبقى الكاتب بضعة أشهر فى هافانا ، يتعرف على كيفية سير العمل بالوكالة قبل إرساله إلى مكانٍ ثابت. سافر جارثيا ماركيز فى أواخر سبتمبر عبر بارًانكيا ، وقد توقف قليلاً فى كماجوى ، حيث رأى فيدل كاسترو لأول مرَّة. وقد جاء القائد من داخل الجزيرة ، حيث كان يفتتح بعض مزارع الدواجن، وقد وصل إلى المطار الصغير ، وقد أضناه الجوع ، وطلب أنْ يُعدوا له دجاجة ، ولكن لم يكن هناك دجاج. حينئذٍ انبرى فى خطبة طويلة عن عدم وجود دجاج فى ميناء حيث ينزل المسافرون الأمريكيون. وقد حيًا جارثيا ماركيز فيدل كاسترو من خلال ثيليا سانشيث ، وقال له بإيجاز إنه من وكالة الأنباء اللاتينية(٣٢).

ونظرًا لجدية جارثيا ماركيز ، وقُدرته الهائلة على العمل ، وأجادته التى لا مِراء فيها ككاتب فقد استطاع أنْ يوثق صداقته مع خورخى ريكاردو ماسيتى، وروبولفو ولش الكاتب الأرجنتينى المسئول عن الخدمات الخاصة. وفى الواقع فإنَّ أكثر ما أسعد جارثيا ماركيز هو إمكانية أنْ يكون قريبًا من كاتب كان مُعجبًا به منذ سنوات عمله بصحيفة "الهيرالد". وقد حدث بينهما اتصال فى العام الماضى عندما توقف ولش فى بارًانكيا قادمًا من الأرجنتين وأوروجواى والبرازيل ، وقد حضر جارثيا ماركيز من بوجوتا لمقابلته ، لكى يتلقى تعليماته عن كيفية استخدام موضوع الخدمات الخاصة، ولكن هذا لم يكن أهم شىء ؛ بل الأهم يكمن فى التعرُف عليه والتحاور معه عن قصصه ورواياته البوليسية " منوعات حمراء" ، التى كانت بنيتها المتقنة تُلهب فيه الحماس منذ سنوات طويلة ، ومع ذلك تجنب ولش الحديث عن رواياته ، وأعطى تعليماته المقتضبة والوجيزة إلى تلميذه ومرؤسه ؛ بينما كانا يتناولان القهوة فى المطار(٣٣).

وعلى الرغم من خذلانه ككاتب، فإن جارثيا ماركيز أدرك أنَّ رودولفو ولش كان إلى جانب ذلك صحفيًا ممتازًا ، ولم يفقد الأمل فى أنْ يراه مرَّة أخرى . والآن وداخل الوكالة ستتحقق آماله وأحلامه ، عندما فتح الكاتب الأرجنتينى أبواب تحفظاته ، وبدأ يقبله كمؤلف للورقة الساقطة ، و" العقيد لا يجد منْ يُراسله" . وبين الحماس الثورى ، والولع بالعمل ، والحصبة الأدبية كانت الأيام والليالى تمر سريعة كالبرق الخاطف على الكاتب الشاب خلال الثلاثة أشهر التى قضاها فى هافانا.

وكانت المدينة قد تحوَّلت إلى متاريس وعوائق كبيرة ، لأنَّ الثورة المضادة كانت بمثابة السرطان اليومى ، وكان الكوبيون ينتظرون غزوًا أمريكيًا ما بين لحظة وأخرى، وقد وضعت أكياس الرمال أمام مداخل المبانى ؛ فضلاً عن الحوائط الأسمنتية على الأرصفة ، وكانت البنادق دائمًا على أهبة الاستعداد ، وكانت الرامبا - حيث يوجد مقر وكالة أنباء أمريكا اللاتينية - أشبه بخندق فى وضع استعداد للنضال دائمًا أكثر منه شارعًا ، وكانت كوبا مدينة لا ترى النوم مثل باقى أنحاء كوبا - مثل جميع الصحفيين الوطنيين والأجانب، وكان العاملون فى وكالة أنباء أمريكا اللاتينية لا يرون النوم بالطبع ، وكان منهم منْ يخر نائمًا من كثرة الإرهاق ودوام سهر البعض أمام أجهزة التلكس أو الآلات الكاتبة أو بكاميرات التصوير.

وكان أنخيل أُوخير محررًا مُقربًا إلى ماسيتى ، ويوجه جارثيا ماركيز ، وكان الكاتب الكولومبى يقيم فى نفس مبنى الريتيرو ميديكو (الاستراحة الطبية) ، حيث يوجد مقر الوكالة مشاركًا الصحفى البرازيلى أرولدو ول فى الشقة رقم عشرين. كانت شقة صغيرة بها صالون يُستخدم كغرفة استقبال إلى جانب كونه غرفة سفرة ؛ فضلاً عن حجرتى نوم وشُرفة تُطل على بحر الماليكون الساحر وعلى خليج المويى ؛ بينما كانت تُطل من الناحية الشرقية على هافانا القديمة ، التى يوجد بها مبنى الكابيتول الفخم كأنها تورتة عيد ميلاد.

وخلال فوضى تلك الأيام كان جارثيا ماركيز ورفاقه يأكلون فى أى ساعة فى مطعم لا ثيبليس فى الطابق الأرضى بالمبنى ، أو فى مطعم الماراكاس على مقربة من مبنى الاستراحة الطبية. إنَّ هذه الأماكن - إلى جانب الطابق الخامس حيث مقر وكالة

أنباء أمريكا اللاتينية – هى التى عرفها الكاتب على مدى ثلاثة أشهر ؛ فقد كان الوقت ينقضى فى العمل بجدٍ واجتهاد ، بينما كان بمزاحه الكاريبى يقول لماسيتى : " إذاكان هناك شىء سيغرق هذه الثورة سيكون استهلاك الكهرباء"(٣٤). كان الصحفيون بإمكانهم النوم فى الخامسة فجراً والاستيقاظ فى الخامسة مساءً ، وكان العمل هو أهم شىء طالما أنَّ الجسم يتحمَّل.

وكان جارثيا ماركيز صحفيًا لا يكل ولا يمل ؛ كان صحفيًا متنقلاً يدوِّن كل شىء عن سير العمل المعقد بالوكالة كى يستطيع القيام بعمله على خير وجه عندما يُؤسس مكتبًا أو مندوبية للوكالة فى المكان الذى سُيرسلونه إليه ، ولكن ماسيتى كان يُريد الإبقاء على جارثيا ماركيز فى النشرات الإخبارية ، بينما كان ولش يرغب فى اختياره مساعداً للخدمات الخاصة. وقد أصبح الثلاثة أصدقاء حميمين، وعندما فكَّ ولش شفرة الرسائل التى كانت تبعث بها وكالة الاستخبارات الأمريكية (لا ثيا) عن الاستعدادات لغزو خليج الخنازير ؛ استدعى ماسيتى جارثيا ماركيز لكى يشاركهما هذه السعادة العُظمى الغامرة كصحفى. لقد كانت نشوة كبيرة ، ويتذكر جارثيا ماركيز تلك اللحظة كواحدة من أسعد لحظات حياته.

وقد تم الاكتشاف بمحض الصُدفة ، فى الوقت الذى كان ماسيتى فى غرفته يُتابع مختلف وكالات الأنباء لتقييم عمله، ولتحسين وكالة أنباء أمريكا اللاتينية ، وفجأة ظهرت فقرة غامضة فى وكالة أنباء تروسيكا كابلى التابعة لشركة التليفونات الأمريكية فى جواتيمالا، وقد أدرك ماسيتى ، على عكس ماكان يتصوره بعض المحررين ، حيث اعتقد أنَّ هذه الفقرة تحتوى على أمرٍ منطقى خفىٍ ، وحينئذٍ أرسلها إلى رودولفو ولش الذى استعان بكتاب عن الشفرة استطاع أنْ يفك مفاتيح هذه الشفرة كاملة بعد ليالٍ كثيرة من السهر المستمر: كانت الفقرة تتعلق بالفعل بتقرير لوكالة الاستخبارات الأمريكية مُرسل من جواتيمالا إلى واشنطن يتناول الاستعدادات للإنزال المسلح فى (شاطئ خيرون) فى شهر أبريل من العام التالى. لقد كان حماس ماسيتى كبيراً ، ولم يسترح حتى للطريقة التى يرسل بها ولش إلى مُعسكرات تدريب المناهضين للثورة متنكراً فى زى قسيس بروتستانتى بائع للأناجيل فى المنازل، ولكن الخطة لم تتبلور أى لم تخرج لحيز التنفيذ ، لأنَّ الحكومة الكوبية أبلغتهم بأن لديها خطتها الخاصة(٣٥).

ومن المفهوم أنه خلال أيام الطوارئ يُهمل الأدب ، تكون أهميته فى المرتبة الثانية أو الثالثة من حيث الأولوية. ويذكر أنخيل أوخيرا أنه سمع جارثيا ماركيز يتحدث فى تلك الأيام عن استيائه من الأدب كوسيلة تعبير عن الإنسان فى عصره. وكانت اهتماماته الأولى فى ذلك الوقت بالسينما ، ومع ذلك فإنَّ جارثيا ماركيز لم يستطع التخلص من الحصبة الأدبية بسهولة، ولذلك كانت أهم تسلياته فى تلك الأيام الصاخبة هى التحدث عن الأدب ، وعلى وجه الخصوص عن التركيبات الروائية مع رودولفو ولش وزوجته بوبى بلانشارد فى محادثات شبه سرية. لذلك لم يتذكر أحدٌ تقريبًا فى وكالة أنباء أمريكا اللاتينية أنَّ جارثيا ماركيز تحدَّث عن الأدب خلال الأشهر الثلاثة التى قضاها بالوكالة. ومع ذلك لم يتحدث فقط عن الأدب ؛ بل أيضًا ظلَّ كما هو دائمًا يتتبعه نقطة نقطة خلال ساعات الراحة القليلة فى شقته رقم ٢٠٢ فى مبنى الاستراحة الطبية. وعلاوة على ذلك زار بطريقة شبه سرية أيضًا المؤلف الشهير فيلكس ب. كايخينير ، وكان فى تلك الأيام هو مؤلف المسلسلات الإذاعية مثل "حق الميلاد" التى كان الكاتب الكولومبى يستمع إليها فى طفولته ومراهقته.

وكان كايجنيت أحد أساتذته السريين ، وقد نصحه بأن تكون رواياته ليست فقط مقروءة ؛ بل أيضًا قابلة للسمع ؛ كما فى القصص الشفهية، ولذلك فإنَّ جارثيا ماركيز بكل إعجابه بأستاذ القصص الإذاعية حضر إلى منزل كايجنيت ومعه المجلد الضخم " المنزل" الذى لم يكن قد بلغ هذا الانسجام إلى تلك اللحظة، وإن كان قد انفصلت عنه كليًا أو جزئيًا قصص " الورقة الساقطة " ، و " العقيد لا يجد منْ يُراسله" ، و " الساعة المشئومة " ، ومعظم حكايات "جنازة الأم الكبيرة ". لقد استمع إليه كايجنيت، وقرأ له وأعجب به ، ولكنه أسدى إليه نصيحتين اعتبرهما جارثيا ماركيز أهم سرين كبيرين فى فن السرد ، وقال له: لكى تستأثر باهتمام القارئ لابد أنَّ يحدث شىء فى كل فقرة (ذبابة تطير فى الهواء ، كوبُ يتهشم) ، لأنَّ ما يهم الناس هو أنَّ تحكى لهم حكايات ، وليس أنَّ تقدم لهم أوصاف مُسهبة مستفيضة وتفصيلات مُملة. والنصيحة الثانية التى أسداها وأهداها له هى: " إنَّ عملية التقديم والتأخير لا تتفق دائمًا مع مُتعة السرد الروائى مما يجعل المؤلف والقارئ يجدان فى كل فقرة جُملاً غير مُريحة وعائقة ، وهى التى نتجاهلها أو نتخطاها. وعندما يحدث ذلك فليس هناك بُدٌ من وضع الجُمل وفقًا

للترتيب النحوى الصارم والدقيق للغة الأسبانية، وأن المفاعيل الظرفية (ظروف الزمان والمكان) ينبغي وضعها تدريجيًا من الأصغر إلى الأكبر وفقًا لعدد كلماتها. وعلى سبيل المثال؛ لا ينبغي أنَّ تكتب " في منزل ماريا أمس " ، بل " أمس في منزل ماريا " ، واختتم كايجنيت كلامه قائلاً له: " إنَّ هذا الذى يبدو كأنه أمرٌ تافهٌ هو فى الحقيقة ليس كذلك ؛ حيث يتم تجنب قيام القارئ بإجهاد نفسه لكى يتجاهل أو يتفادى هذه الجُمل غير المريحة التى تتناقض مع الإيقاع الطبيعى للتنفس ، ويجعله يقبل الفقرة بكاملها بصورة انسيابية وطبيعية"(٣٦) .

وبلا شك فإنَّ جارثيا ماركيز كان يلتزم بذلك في أحسن صفحاته، ومع ذلك كانت نصائح فيلكس ب. كايجنيت ستبدو ثمارها جلية اعتبارًا من "مائة عام من العُزلة".

وقد كان الشيء الوحيد الذى استاء منه جارثيا ماركيز أثناء تلك الشهور المحمومة فى هافانا هو كيف أنَّ أنصار الشيوعيين الموالين لأنيبال إيسكالانتى استولوا تدريجيًا على الثورة ، على الرغم من الدور الضئيل الذى قاموا به ، ولكن لن يكون هناك مناص من ذلك لأنَّه كان اغتصابًا مُعلنًا منذ اللحظة التى دُفعت فيها كوبا بسبب العدوان الأمريكى إلى أنَّ ترتمى فى أحضان الأم ؛ يعنى الاتحادَ السوفيتى.

وكان جارثيا ماركيز يعرفهم جيدًا وهو في بلاده. كانوا ثوريين فى الصالونات ، وشيوعيين برباط العُنُق ، وكانوا خُطباء موسكو يبشرون وينشرون الماركسية المكهربة ، ويحاولون أنَّ يدرجوا من خلالها – كما فى سرير بروكوستو – الواقع الوطنى دون أنْ يكترثوا عما إذا كان ذلك سيكفى أم لا ، أو عما إذا كان ذلك قانونيًا أم مجرد أمر عقائدى من الموالين والمناصرين. وقد أطلق عليهم اليسار الخيالى فى كولومبيا على سبيل التحقير لقب " الجُبناء" ، ربما لعجزهم عن التفكير فى الواقع الفعلى كماركسيين حقيقيين ، أو ربما لعدم قدرتهم على القيام بأى ملحمة أو عمل بطولى ثورى. وكان جارثيا ماركيز قد اقترب من صفوفهم على استحياء ، حتى تجرأوا فى الإيعاز له بكيفية الكتابة ، ومتى يكف عنها ، حتى تعرَّف فى صيف ١٩٥٧ – على الطبيعة – على الاشتراكية الحقيقية فى بُلدان أوروبا الشرقية.

وعلى عكس كثير من معاصريه وزملائه لم يقل ، ولم يفعل شيئًا ضد الشيوعيين ، ولكن ارتباطه بهم لم يتعد تعاطفه وتأييده لهم أثناء شبابه. وإذا كان الآن يؤيد بلا

تحفظات الثورة الكوبية ؛ فقد كان ذلك لأنه يعمل منذ عامين كاملين فى وكالة أنباء أمريكا اللاتينية ، لأنَّه كان يعتقد أنَّ زعماء مثل فيدل كاسترو وتشى جيفارا وجدا دربًا - مختلفًا عما تسلكه موسكو - لكل من كوبا وأمريكا اللاتينية.

ومع ذلك ظهر هؤلاء الجُبناء مرَّة أخرى يتولون المناصب دون هوادة ، وفى صمت فى مختلف طبقات المجتمع فى السياسة ، والثقافة بسماح من حركة ٢٦يوليه ، لأنَّه إذا لم يكن هناك حزب على الطراز السوفيتى لن تكون هناك مساعدات سوفيتية. وهذا أمرٌ واضحٌ غاية الوضوح ؛ ولذلك فإنَّ وكالة أنباء أمريكا اللاتينية كانت هدفًا أساسيًا وأوليًا للطبقة الموالية والمناصرة لأنيبال إيسكالانتى ، وبدأوا حصارهم التدريجى والمنظم لتحقيق هذا الهدف. وبالنسبة لجارثيا ماركيز و بيلينيو ميندوثا ؛ فقد كان ذلك متوقعًا منذ أنَّ أبلغهم ماسيتى بأن الحزب يراقبهم ويتتبع خطواتهم من خلال جاسوس فى مكتب بوجوتا ؛ فقد كان أنصار أنيبال إيسكالانتى يعلمون تمام العلم أنَّ ماسيتى وولش و جارثيا ماركيز و بيلينيو ميندوثا - مهما كانوا يساريين - لن يكونوا أبدًا ضمن مذهبهم البيروقراطى ، لأنَّ روحهم تمنعهم من ذلك وحتى أجسادهم. وذات ليلة احتلوا وكالة أنباء أمريكا اللاتينية بحجة عقد اجتماع سياسى ، ولكن ماسيتى الذى ما لبث أنْ أغلق المكاتب مع جارثيا ماركيز قال لهم إنه لا يريد أى اجتماع دون حضور باقى الزملاء ، وأمرهم بالذهاب ليناموا. وبعد ذلك ، واستنادًا لما يقوله بيلينيو ميندوثا ، فإنهم فصلوا الكثيرين من الوكالة ، وقاموا بإرسال آخرين كمراسلين إلى بُلدان أوروبا الشرقية[٣٧]. ولكن الهوة بين هؤلاء الجُبناء والثوريين الذين يمثلون الأغلبية العُظمى كانت تتزايد اتساعًا بشكلٍ لا رجعة فيه. وبما أنَّ رياح التاريخ كانت فى صالحهم (فإنَّ مناهضة الثورة ظلت حيوية ونشطة أكثر من أى وقت مضى فى الوقت الذى يُعدُّ العمُ سام العُدَّة للغزو) كانت أسماعهم ، وعيونهم منتشرة فى كل مكان ، وقد غرسوا ثقافة الشكل كأول شكل للسلوك الاجتماعى. كل شىء : سواء كان كلمة أو نكتة ، أو مزاحًا صغيرًا أم كبيرًا ، أو رباط عُنق أمريكى ، أو أحذية إيطالية كانت سببًا فى الشك والارتياب لهؤلاء الجُبناء. وقد بدأت وكالة أنباء أمريكا اللاتينية تمتلئ بالصمت والنظرات ذات المغزى ، مما جعل المزاح ، والطبيعة الانفتاحية للكوبيين ينحسر إلى أقصى درجة. إنَّ اطلاعهم على كل شىء حيث كانوا يسمعون ، ويرون ، ويحتاطون لكل

شيء . ولهذا فإنَّ جارثيا ماركيز نفسه ذُهِلَ عندما علم أنهم كانوا قد عرفوا في نفس الوقت أنَّ مصيره الجديد كمراسل هو مونتريال.

وبعد أنَّ تدرَّب جارثيا ماركيز خلال ثلاثة أشهر عل كل الأعمال الدقيقة بالوكالة ، أوعز له ماسيتي بأن يذهب إلى كندا لكي يفتتح مكتبًا لوكالة أنباء أمريكا اللاتينية هناك. وكان جارثيا ماركيز شأنه شأن ماسيتي يعلم أنهما لن يستمرا في منصبيهما كثيراً ، ومع ذلك فقد عاد إلى بوجوتا في أواخر ديسمبر لكي يصحب مرسيدس ورودريجو في السفر إلى نيويورك في أوائل ١٩٦١ ، ثم إلى مونتريال بعد ذلك. وقُبيل أنَّ يترك هافانا بقليل سافر إلى المكسيك لمدة ثلاثة أيام لكي يرى صديقه القديم ألبارو موتيس ، الذي ما لبث أنَّ خرج من سجن ليكومبرى ، والذي لم يره منذ خمسة أعوام ونصف العام. وفي منزله بشارع أدولفو بريبتو في حي الوادي تحدثا سوياً عن الأمور الحياتية كما كانا يفعلان دائمًا ، وقد فكر جارثيا ماركيز في الاستقرار ذات يوم في المكسيك: وسيتحقق له ذلك بسرعة أكثر مما كان يعتقد.

إنَّ الإقامة في نيويورك كانت مرحلة ترانزيت بسيطة حتى يمنحوه التأشيرة ، وأسرته لمواصلة السفر إلى مونتريال. وظلَّ هناك في مكتب الوكالة بلا عُمال أو مساعدين[٣٨]. وفي ١٣ مارس ١٩٦١سنحت له الفرصة – كمراسل للوكالة للاستماع في البيت الأبيض إلى خطاب الرئيس جون كيندي الذي أعلن فيه عن مشروعه العملاق ، للتحالف مع التقدم" وهو مشروع طارئ لسد جميع المنافذ أمام الرياح الجديدة للثورة الكوبية" [٣٩]. ولكن الستة أشهر التي قضاها في الولايات المتحدة الأمريكية كانت في نيويورك حيث عاش أكثر أوقات حياته صعوبة وتوتراً. وفي الوقت الذي تزايدت فيه راديكالية الثورة الكوبية ، وكشفت فيه اللثام عن وجهها الفكري الحقيقي تزايدت الحملة المناهضة لكاسترو شدة واستعاراً من جانب الصحافة والحكومة الأمريكية ، التي كانت هيستيرية حيث ألهبت حماس وتلاحُم وتماسُك الجالية الكوبية بالمنفى ، مماجعلها تهدد يوميًا مُراسلي وكالة أنباء أمريكا اللاتينية. وكان على جارثيا ماركيز العمل هو ورفاقه وهم عُزَّل من السلاح في حماية أسياخ الحديد التي كانت بحوزتهم. وقد اشتملت التهديدات الهاتفية كل صنُوف البذاءات والفُحش من القول ، وكانت هذه التهديدات كثيرة ومستعصية ، وقد اعتاد جارثيا ماركيز أنَّ يرد عليها هو ورفاقه بشكلٍ روتيني وبفتور: قُل ذلك لوالدتك

ياديوث . وكانوا يستمرون فى عملهم وكأنَّ شيئًا لم يحدث، ولكن ذات يوم ذهبت التهديدات إلى أبعد من هذا حيث ذكَّروه بأن له زوجة ونجلاً ، وأنهم يعرفون جيداً أين يعيشان ، وأن أفضل شيء هو أنَّ يرحلوا عن الولايات المتحدة(٤٠).

ومع ذلك ظلَّ جارثيا ماركيز يعمل نهاراً فى هذا المكتب الكئيب بالمبنى القديم لمركز روكفلر ، بينما كان يُنقح ويصحح أصول قصة "الساعة المشئومة" فى غرفته بأحد فنادق مانهاتن بالقرب من الشارع الخامس. إنَّ استقالة جارثيا ماركيز لم تحدث بسبب تهديدات المناهضين لكاسترو ، كما سيدعى البعض فى سنوات لاحقة ؛ بل بسبب التهديدات الداخلية لأنصار أنيبال إيسكالانتى ، الذى استحوذ على المناصب الرئيسية والقيادية فى الحكومة الكوبية ، مما جعل من المستحيل معه تحمل هذه التهديدات والضغوط الداخلية ، الأمر الذى اضطر ماسيتى إلى الاستقالة .

وبعد ذلك بقليل فى ١٨ أبريل تمَّ غزو خليج الخنازير (عقب يومين من المبايعة الاشتراكية للثورة) ، واضطر فيدل كاسترو إلى التنديد على الملأ بالشللية ، وغطرسة وهيمنة الشيوعيين القُدامى ، وطلب من ماسيتى الاستمرار مزيداً من الوقت فى منصبه ، وطالبه بالمشاركة فى المقابلات العامة فى التليفزيون مع أسرى شاطئ خيرون؛ وبالتالى فإنَّ جارثيا ماركيز لم يقدم استقالته ليس فقط تضامنًا مع صديقه ورئيسه ماسيتى ؛ بل لأنه ملَّ العمل فى ظلَّ هذه الدسائس والمؤامرات الخبيثة والدنيئة ، ولكن عندما تمَّ الغزو لم يقدم استقالته حتى لا يبدو أنه ترك السفينة عندما أشرفت على الغرق، وقرر البقاء حتى تمر الأزمة(٤١). ولذلك فعندما وصل بيلينيو ميندوثا إلى نيويورك فى أواخر مايو قادمًا من هافانا ، وأخبره بأنه قدَّم استقالته للمدير الجديد فرناندو ريبويلتاس ردَّ عليه جارثيا ماركيز بأن استقالته أيضًا جاهزة ، وكان ينتظر مجيئه لكى يقدمها. وبمرور الوقت أصبحت رسالة الاستقالة الخطية فى يد كونشيتا دومويس أرملة ماسيتى التى أعادتها للكاتب فى ١٩٨٨ بمناسبة عيد ميلاده الستين (فى الواقع الحادى والستين). إنها الوثيقة الوحيدة التى تمَّ انقاذها على مدى عامين من العمل فى وكالة أنباء الصحافة اللاتينية ، لأنَّ الجُبناء قاموا بعملية تنظيف وتطهير شاملة لعصر ماسيتى حتى أنهم حرقوا كل أعماله وأعمال رودولفو ولش أيضًا. ومع الأخذ فى الاعتبار بأنه عمل لمدة عامين من العمل الشاق والمكثف ؛ فقد كان المكلف بإرسال التحقيقات

والتقارير من كولومبيا للخدمات الخاصة (المخابرات) ، وهذا يجعلنا نفترض أنَّ جانبًا مهمًا قد اختفى من الإنتاج الصحفى لجارثيا ماركيز. لقد كان إنتاجًا غزيرًا وخِصبًا ، وعلى درجة هائلة من الجودة ، لدرجة أنَّ الكاتب أراد أنَّ ينقذه وينتشله بعد سنوات طويلة عندما أصبح أكثر مجداً وشُهرة ككاتب عالمى ، ولكن شخصًا ما قدَّم تفسيرًا لا مبرر له: إنَّ أرشيفات عصر ماسيتى وروبولفو ولش فُقِدتْ عند انتقال مقر الوكالة إلى مكانٍ آخر(٤٢).

وعندما أراد الانتقال إلى المكسيك ، ولديه ابنُ وزوجةٌ طلب من الوكالة اللاتينية أنْ تدفع له تعويضًا عند تركه العمل ، وتقدَّم له تذاكر السفر له ولأسرته ، ولكن المسئولين الجُدد أخبروه بأنه ذهب بمحض إرادته ، وليس لأنهم فصلوه أو طردوه من العمل ، وأن التذاكر للمكسيك ليست ممكنة لأنَّـه لم يتم التعاقُد معه هناك ، وبالنسبة لتذاكر كولومبيا ؛ فهذا أمرُ واردُ ، وربما شىء من المعاش قد يعطونه إيَّاه ، ولكنه ينبغى أنْ يُطالب بذلك فى مكتب بوجوتا الذى كان بلا مدير فى ذلك الحين. وعندما أدرك الكاتب أنهم يماطلونه لانهم لم يجسروا على أنَّ يقولوا له: لا. لذلك أخذ مرسيدس ورودريجو ، ومائتى دولار فى جيبه، وركبوا حافلة جريهوند متجهين إلى نيو أورليانز حيث أعدَّ له بيلينيو ميندوثا مائة وخمسين دولارًا آخرين فى بوجوتا(٤٣).

لقد كان طريقًا جهنميًا مُحاطًا باليأس والإحباط فى طرق هامشية حزينة وغير مُعبدة جيداً ، لدرجة أنَّ المسافة كانت أو كادت لا تنتهى أبداً. وفى أطلانطا ، والاباما عاشوا التفرقة العنصرية فى أقصى صورها اللاإنسانية ، فهناك آلات المياه العامة للبيض فقط ، وهناك آلات أو مضخات مياه خاصة ومحددة للزنوج. ولقد أضاعوا ليلة كاملة فى مونتجومرى بحثًا عن مكانٍ ينامون فيه ، فلم يستطع أحدُ أنَّ يؤجر لهم غُرفة ظنًا منهم أنهم مكسيكيون ، وفى بعض القُرى الجنوبية وجدوا لافتات مكتوب عليها : ممنوع دخول الكلاب والمكسيكيين، وعندما وصلوا إلى نيو أورليانز كانوا مُنهكى القوى بسبب الوجبات الصناعية من الهامبورجر والسُجُق ، واللبن المختلط بالجعة ، وبعد أنْ أخذوا المائة والخمسين دولارًا من القُنصلية الكولومبية بالمدينة ، التى كان قد أرسلها لهم بيلينيو ميندوثا دخلوا مطعمًا فرنسيًا كبيرًا بيوكس كارِّيه لكى يسدوا رمقهم الذى عانوا منه أثناء السفر(٤٤).

وعندما وصلوا إلى لا ريدو المُترية ؛ المكان الذى يتم فيه تصوير الأفلام المكسيكية ، كانوا قد أمضوا أسبوعين فى السفر بالحافلة بالمقاطعة الواقعية ، والخيالية التى تُعرف باسم يوكناباتاويبها ، التى كان يعرفها الكاتب عن ظهر قلب ، كما يعرف راحة يده فى قصص ويليام فوكنر، ولذلك فإنَّ هذه الرحلة ليهودى ضالٍ لم تخدمه للوصول إلى المكسيك أرض الميعاد ؛ بل لكى يكتشف إلى أى مدى توجد واقعية مؤثرة تضمنتها قصص أستاذه ، ولكى يصف بعد ذلك بخمس سنوات فى "مائة عام من العُزلة" السفر بالقطار دون عودة لصديقه ألبارو ثييدا ساموديو. وعلاوة على ذلك ؛ فليس من الغريب أنَّه للوصول إلى رائعة إنتاجه تحتم على جارثيا ماركيز السفر مرتين عبر أراضى مقاطعة يوكناباتاويبها: السفر الواقعى والسفر الأدبى.

وكما يتذكر ذلك بعد بضع سنوات أنهم وصلوا يوم ٢ يوليه عام ١٩٦١ (نفس اليوم الذى انتحر فيه صديقه وأستاذه الآخر إيرنست هيمنجواى) ، وفى محطة مركزية شديدة الحرارة فى ذلك المساء بمدينة المكسيك مثل الحر الشديد فى كاراكاس عند سفح جبل أبيلا والذى رافقت صورته الكاتب فى رحلته إلى المكسيك كبرهان لا مِراء فيه على الحنين. ومع ذلك فإنَّ العاصمة المكسيكية كانت تذكره بمدينتى نابولى وباريس إلى حدٍ ما. وقد كان فى انتظار المواطن البوجوتى بمحطة القطار بمدينة المكسيك الشاعرُ والقصاص ألبارو موتيس؛ فالصداقة التى جمعت بينهما صداقة لم تشبها شائبة ، ولم يبق لدى ماركيز فى جيبه سوى عشرين دولارًا أمريكيًا. وقد بدأ جارثيا ماركيز حياة جديدة ، وإن كانت فى واقع الأمر هى نفس الحياة دائمًا.

الفصل الثالث عشر

- ألبارو موتيس وولادة اللبؤة .
- المكسيك أرض الميعاد.
- بحثًا عن رائحة الجوافة.
- الأسرة والأحداث : صحافة متعلقة بالمعدة.
- الإقامة فى كومالا.
- " بحر الزمن المفقود" .
- جائزة إسو و " الساعة المشئومة" .
- السينما والدعاية.
- سيناريوهات واختبارات دومينيكانية مع كارلوس فوينتيس.
- "مائة عام من العُزلة" .
- لقاء مع لويس هارس.
- زيارة كارمن بالثيلس.
- إهداء إلى ماريا لويسا إليو.
- كهف المافيا.
- بذل الجُهد الجهيد حتى آخر نَفَس.
- ليالى سان أنخيل إن .
- باكو بورُوا أو " القارئ المجهول " .
- هذا الغلاف لبيثينتى روخو.

- بوينوس أيرس كانت فى عيد.
- زجاجة للزمن.
- مع ماريو بارجاس يوسا فى كاراكاس وليما وبوجوتا.
- عن السفر والجذور.

عندما وصلت أسرة جارثيا ماركيز إلى المكسيك كان ألبارو موتيس يعيش فيها منذ خمس سنوات ، ومنذ عام ونصف العام كان قد خرج من زنزانات لوثبيل سجن ليكومبرى ، حيث قضى به خمسة عشر شهرًا تركت فيه أثرًا واضحًا لا يمكن وصفه ، مقارنة بتلك السنوات التى عاشها فى أمبيريس وكويو ، والتى بلورها الشاعر فى نثر انسيابى فى صحيفة ليكومبرى.

ومرَّة أخرى أصبح ألبارو موتيس الصديق المنقذ لجارثيا ماركيز ؛ فبدون مساندته وتوجيهه وأصدقائه الإسبان والمكسيكيين لما تمكن ماركيز من الصمود طويلاً أمام الجفاء المبدئى للمدينة الأستيكية (نسبة إلى حضارة مكسيكية قديمة). ولم ينكر جارثيا ماركيز ذلك ، ولهذا فقد اتصل بألبارو موتيس من نيويورك لكى يُبلغه بقرار الاستقرار فى المكسيك. وجديرٌ بالذكر أنَّ موتيس كان دائمًا تواقًا لرؤية أصدقائه الكولومبيين ، وقال لماركيز إنه ينتظره على أحرٍّ من الجمر سعيدًا فرحًا ، وأنهم سيكافحون سويًا ، وسيكونون يدًا واحدة للمضى قُدُمًا.

وهكذا أصبحوا مرَّة أخرى ، كما فى يناير١٩٥٤ ، عندما كان الشاعر فى منصبه مديرًا للعلاقات العامة فى شركة إسو النفطية ببوجوتا ، حينما أنقذ صديقه من بوهيمية بارَّانكيا ، وبعث له بتذكرتى طائرة ، وجعله يُقيم معه فى منزله ، حتى تعاقد معه مالكو صحيفة الاسبكتادور" المشاهد" كمحرر ؛ والآن ومن واقع منصبه الجديد كمندوب مبيعات لمنتجات بارياتشانو بونتى تفانى فى سخائه ودبلوماسيته لكى يوظف صديقه وزميله ؛ ليس فى ظروفٍ شبيهةٍ ؛ بل فى مدينة كانت من جميع النواحى تبدو مشابهة تمامًا لنفس مدينة بوجوتا .

ولم يكن شىء من هذا متوقعًا فى أفق حياتهم ، صباح ٢١ أكتوبر١٩٥٦ . ففى الوقت الذى كان فيه جارثيا ماركيز يصحح قصته " العقيد لا يجد منْ يُراسله" فى غُرفة صغيرة سقفها مائل فى باريس ، كان ألبارو موتيس يغادر كولومبيا بشكلٍ متسرع بلا متاع تقريبًا ، كما نصحه بذلك أستاذه الشاعر الأسبانى أنطونيو ماتشادو. ولم يكن

الدافع وراء هذا السفر المباغت والمتسرع سوى الصداقة التى كانت لا تقل أبدًا عن ولعه بالأدب والبلياردو لدى ألبارو موتيس ذلك المواطن البوجوتى.

وكرئيس للعلاقات العامة بشركة إسو النفطية بكولومبيا استطاع أنَّ يُخصص طِيلة ثلاث سنوات ميزانية لأشياء متنوعة: من بينها أندية ومراكز خيرية ، وكل صنُوف المساعدات الخاصة. وسُرعان ما بدأ الشاعر يستثمر جانبًا من هذه الميزانية فى أشياء تنبع من ضمير روحه ؛ فضلاً عن رعايته للأمور الأدبية، وكذلك لنجدة ومساعدة أصدقائه الذين عانوا من طُغيان روخاس بينيا ؛ هذا إلى جانب رعاية المعارض الفنية لبعض الرسَّامين الفقراء ، وكذلك طبع أوَّل كتاب لشاعر معوز ، أو لإعطاء تذكرة طائرة لصديق محتاج ، أو للاحتفال بالذكرى المائتين لميلاد الكاتب بريات سفارين والذى أحضر من باريس الخُبز والزُبد خصيصًا لهذا الاحتفال. وعندما دعاه رئيسه للانضباط قدَّم له موتيس تبريرات غريبة ، مما أدى إلى تقديمه بضعة مرات للقضاء. وبفضل مشاركة أصدقائه وشقيقه ليوبولدو استطاع الشاعر تفادى عقوبة السجن عندما سافر إلى المكسيك عبر ميداين وبنما.

وقد بدأ حياة جديدة فى العاصمة المكسيكية قوامها سبعمائة دولار أمريكى ، وخطابا توصية أحدهما موجهًا للويس بونيويل. لقد سحرته المدينة بثقافتها النابضة ، ولكونها تمثل الطليعية فى أمريكا اللاتينية. وكانت المكسيك لا يتعدى سكانها الأربعة ملايين نسمة ، ولذلك كانت مدينة هادئة قليلة التلوث ، وكانت تتمتع بخلفية بركانية كانت تشق سماءها المقعرة ، وهى التى كان يقرأ فى لياليها المليئة بالنجوم موكتيزوما والعودة المرعبة كيتثالكواتيل كورتيس. إنَّ شوارع المكسيك فسيحة رحبة مثل منتزه الريفورما (الإصلاح) بزهورها وورودها السخية التى كانت أشبه بمدينة باريس مدارية ، بينما كانت هندستها المعمارية تعود للعصر الاستيطانى الإسبانى ، وكانت شوارعها المرصوفة بالبلاط فى وسط العاصمة تُذكرنا بمدينة نابولى الإيطالية ، وبمراكزها الثقافية ، ومسارحها ، ودُور السينما ، وأنديتها ، ومطاعمها التى كان يتردد عليها الوافدون من مختلف أنحاء العالم. ولذلك فإنَّ المدينة فُتِحَت كالفردوس أمام الشاعر الهارب ، ولذلك لم يفكر ألبارو موتيس فى الأمر مرتين (أى لم يتردد لوهلة واحدة). وقد عجز عن المجئ إلى منزل لويس بونيويل السينمائى الأسطورى صديق جارثيا

لوركا ، وسلفادور دالى ، واستغل خطاب التوصية الثانى أفضل استغلال ، وبينما كان يحل ضيفًا في منزل الرسَّام فرناندو بوتيرو وزوجته جلوريا ثيا بدأ العمل كمدير تنفيذى للدعاية والإعلان مع أوجوستو إلياس ، حيث انتقل بعد عام إلى شركة الإنتاج السينمائى لمانويل بارباتشانو بونثى.

وعندما قرَّر أنْ يُقدَّم خطاب التوصية للويس بونيويل كانت تجمع بينهما صداقة ما ؛ فضلاً عن أنه كانت له مجموعة من أفضل الأصدقاء فى كل العاصمة المكسيكية: أوكتابيو باث الذى علق على ديوانه الشعرى " عناصر الكارثة" وكارلوس فوينتس ، وخوان رولفو ، وخوان خوسيه أرِّيولا ، وخايمى جارثيا تيرِّيس ، وفرناندو بينيتيس ، وبيثينتى روخو ، ورامون إكسيراو ، وخومى جارثيا أسكوت ، وماريا لويسا إليو ، وإيلينا بوبناتويسكا ، وخوسيه دى لا كولينا: خيرة رجال الفن والفكر المكسيكى آنذاك. وبفضل مشاركة هؤلاء الأصدقاء لم يستطع فقط العمل لكونه بلا وثائق ؛ بل بدأ التعاون مع مجلاَّت مثل مجلة جامعة المكسيك، ومجلة الأدب المكسيكية تحت إشراف خايمى جارثيا تيرِّيس وكارلوس فوينتيس على الترتيب. وبينما كان يتناول المشروبات الكحولية ، ظلَّ يتحدَّث مع لويس بونيويل عن السينما والسيدات والقصص. وبهذه الطريقة حبس نفسه أسبوعين لكى يثبت للسينمائى الأسطورى أنه من الممكن كتابة قصة قوطية فى مناخ مدارى فى الأرض الحارة ، وكتب النسخة الأولى من بيت أراوكايما. ولم يكن بونيويل على اتفاق معه فقط ؛ بل تحمس أيضًا لقصته حتى بلغ به الأمر أنْ وعده بتقديمها ذات يوم للسينما[1].

ولكن وسط هذا الكرنفال من الصداقة والأدب ، وبعد حمَّام شمس فى أكابولكو من الثانى والعشرين من شهر سبتمبر عام ١٨٥٩ ظهر الدلال الأسود فى ليكومبرى ، واعتقل ألبارو موتيس ، وأودع السجن كمرحلة تمهيدية لتسليمه لكولومبيا. ولحُسن الحظ – أو لسوئه – فقد استطاع أصدقاؤه وقف ذلك فى بوجوتا خمسة عشر شهرًا طويلة ، وهى نفس المدة التى قضاها فى ليكومبرى حيث عاش جهنم السجن الوحشى. وبفضل تحمسه الشديد للحياة والصداقة والأدب لم يستطع فقط البقاء بعد ولادة اللبؤة (كما كان يطلق السجناء على السجين الجديد الذى يَحُلُ بالسجن) ؛ بل استطاع التهام كل الكتب التى أحضرها له الأصدقاء الكولومبيون ، والمكسيكيون ، ويكتب أيضًا

نصوصًا وضاًعة ؛ كما في صحيفة ليكومبرى وموت الاستراتيجي. وكان خلال هذه الفترة النَّارية (قُبيل بضعة أشهر من الإفراج عنه في ٢١ ديسمبر ١٩٥٩) ، عندما كتب لجارثيا ماركيز في بوجوتا لكي يُرسل له شيئًا من كتاباته ليقرأه. وقد أرسل له ماركيز نسخة من قصته " جنازة الأم الكبيرة" التي ما لبث أنْ انتهى منها في منتصف ذلك العام ، ثم أرسلها فيما بعد إلى الصحفية إيلينا بويناتويسكا ؛ حيث زارها برفقة أوجوستو مونتيروٍسو لكي تقدمها لدار نشر جامعة بيرا كروث في خالابا ، ولكن الصحفية فقدت هذه الأصول. ومع ذلك فقد حدثت المأساة بعد ثلاثة أسابيع من استقرار جارثيا ماركيز في مدينة المكسيك ذهب مع ألباروموتيس إلى بيراكروث بحجة تسليم القصص المفقودة للناشر عندما قرَّر جارثيا ماركيز الاستقرار في المكسيك.

إنَّ هذه الأيام الأولى التي زاد من خطورتها إصابة مرسيدس بالدوسنتاريا كانت أيامًا عصيبة بالنسبة لجارثيا ماركيز ، ولكنها كانت أقل مأساوية بفضل التضامن الأخوى لألبارو موتيس الذى استأجر له شقة مؤقتًا في بونامباك بشارع ميريدا بالقرب منه ، ثم استأجر لهم شقة ثابتة في شارع رينان ٢١ في حي أنثوريس. وهناك بمرتبتين على الأرض له ولمرسيدس ، ومهدٍ لرودريجو في الغُرفة الأخرى بدأ قصاص ماكوندو بغزو أرض الميعاد مثل موسى، وكان عليه أنْ ينحت في الصخر لكي يحصل على الماء والقُوت اللازمين له ولأسرته.

وعلى الرغم من أنَّ معظم المفكرين المكسيكيين كانوا يعرفون قصصه ورواياته التي نُشرت حتى ذلك الوقت ، بفضل حماس ألبارو موتيس وتضامن ثلاثة أصدقاء آخرين في المدينة: المثَّال رودريجو أريناس بيتانكور ، وصاحب المكتبة والسينمائي لويس بيثينس ، والكاتب خوان جارثيا بونثي ، فإن جارثيا ماركيز لم يستطع الحصول على أي عملٍ خلال الشهرين الأولين ، وكان معظم الوقت يُهدره الكاتب وزوجته مرسيدس في الوقوف بطابور أفنية سكرتارية المحافظة لاستكمال أوراق إقامتهما. وإزاء هذه الديون المتراكمة خلال ذلك الوقت فقد استطاع العيش بفضل الراتب الضئيل الذى لا يُسمن ولا يُغني من جوع مقابل تعاونه من حينٍ لآخر مع مجلة "جامعة المكسيك" ، وكذلك مقابل تعليقاته في إذاعة الجامعة التي كان يقرأها على الهواء ، وكان يشرف على هذه الإذاعة الكاتب الأسباني ماكس آوب(٢).

وأوَّل ما كتبه فى الأراضى المكسيكية كان مقاله الرَّنان والمؤثر تكريمًا لأستاذه هيمنجواى. كان مقالاً طويلاً يُبرز مدى إعجابه بالكاتب الأمريكى ، وكيف كان يعرفه كُنه المعرفة ، وكيف تعلَّم منه الكثير والكثير. وفى المقال المعنون " مات رجلٌ ميتةً طبيعية" الذى نشره فرناندو بينيتيث فى ملحق "المكسيك فى الثقافة " تحت عنوان " المستجدات" ، ترك جارثيا ماركيز هذه النبوءة الصائبة عن أستاذه: إنَّ الزَّمن سيثبت أيضًا أنَّ هيمنجواى ككاتب صغير سيلتهم كتابًا كبارًا لمعرفته عن عُمق بالدوافع الإنسانية وأسرار مهنته" واختتم قائلاً : إنَّ أهمية هيمنجواى تكمن فى الحكمة الخفية فى إنتاجه الموضوعى ذى التركيبة أو البنية المباشرة والبسيطة وأحيانًا المقتضبة حتى فى مأساويته(٣).

وفى الأيام التى تلت تتويجه فى استكهولم اعترف جارثيا ماركيز بأنه فى اليوم التالى لوصوله فعلاً إلى المكسيك اتصل به خوان جارثيا بُونثى لكى يقول له: إنَّ كربون مقال هيمنجواى قد مزَّقته رصاصة فى اليوم السابق الساعة السابعة وثلاثين دقيقة صباحًا فى قرية كيتشوم فى إيداهو. وظلت هذه الواقعة فى ذاكرته " كبداية لعصر جديد"(٤). وبالنسبة لألبارو موتيس كان الأمر على العكس من ذلك فإنَّ اللحظة التى قابل فيها جارثيا ماركيز فى المكسيك كانت فى الواقع بعد بضعة أسابيع ، عندما قاما سويًا بالسفر إلى بيراكروث.

وعلى الرغم من جاذبية مدينة المكسيك وحجمها الإنسانى فى ذلك الوقت وحيويتها الثقافية والحب ومساعدة أصدقائه ما لبث جارثيا ماركيز أن دخل فى نوع من الذهول والشرود الضار. وقد أدرك موتيس بسرعة أنَّ هذا أحد أعراض مرض المكسيك . إنها صدمة مواجهة مدينة وثقافة معقدتين، وقد بدا انغلاقها نسخة طِبق الأصل من انغلاق نبات الصبَّار ، وأهرامات الهضبة ؛ فقد جاء جارثيا ماركيز من الكاريبى ، ومن ثقافة غير انغلاقية مفتوحة مثل البحر نفسه ، الذى فتح له مساحته الرحبة الحيوية الآفاق حتى كوبا ، وفنزويلا خلال السنوات الثلاث الأخيرة. ولكنه الآن أدرك أنه بعيداً عن مجموعة الأصدقاء الإسبان والمكسيكيين الذين ينحدرون من أصول إسبانية – نعنى أصدقاء موتيس – لم تكن هناك إمكانية للتوغل أو لاختراق المتاهة المكسيكية، وهذا اليقين جعله يطفو على حافة الغُربة أو العُزلة ؛ فضلاً عن الدليل المحزن على أنه ليس من

السهل على الإطلاق دخول مجال عالم السينما المغلق فى المكسيك ، وكان ذلك أحد الدوافع التى جعلته يقرر الإقامة فى المكسيك. وفكر موتيس بأنه لتفادى مرض المكسيك لا يوجد سوى علاج واحد ونهائى : مرافقته إلى الكاريبى إلى بيراكروث لكى يتنفس رائحة الجوافة.

وبحجة تسليم سيرخيو جاليندو فى خالابا أصول قصته " جنازة الأم الكبيرة" ذهب جارثيا ماركيز ، وألبارو موتيس صباح يوم سبت فى السيارة الفورد الحمراء - سيارة موتيس - وكان معهما فرانثيسكو ثيربانتس ، وهو شاعرٌ شاب يبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عامًا ، الذى تلقى فى هذه الرحلة تعميده البحرى ، حيث طلب منه جارثيا ماركيز صائحًا أنْ يفسحوا الطريق فمعهم عذراء البحر، وبالفعل كما توقع موتيس حدثت المعجزة فى بيراكروث أمام البحر الذى سحر القصاص فى طفولته ، وبعد أنْ جرَّب طعامًا حريفًا على مائدة مع المحافظ خرج عن صمته وشروده ، وقال: " إذا كانت بيراكروث موجودة فانه يمكننا الحديث عن الكاريبى ؛ لذلك سأظل فى المكسيك. لا توجد أدنى مشكلة ، وظل هناك . وهنا غرس أشجاره ومدَّ جذوره ، وربى أولاده ، وكتب أكثر أعماله الخالدة من رواياته ، ليقفز القفزة النهائية إلى عالم الشُهرة والمجد العالميين.

ولكن الوثبة العظيمة التى ستنقذه إلى الأبد من زمن البقرات العِجاف كانت عملية بطيئة ، وشاقة مليئة بالمرارة ، وبالترك ، والهجر لأعماله الأدبية. ولكى يبدأ ويأقل مجهود بأدنى رغبة اضطر للعودة إلى الصحافة الطائشة ، التى لا تكفى لسدَّ الرمق إزاء استحالة أنْ يشق طريقه صوب السينما. وكان جوستابو ألا تريستى تاجر أثاث ناجح ، وما لبث أنْ اشترى مجلتين للغيبة والنميمة وهى مجلة (أسرية) ، وأخرى للحوادث الدامية فى شهر سبتمبر وهما : " الأسرة " و " حوادث للجميع" ، وكان يبحث عمنْ يُديرهما. فقال له ألبارو موتيس لا تهتم ، فلديه الشخص الكفء للقيام بذلك. وعندما قرأ ألا تريستى بعض الأعمال للمدير المرشح مثل " حكاية غريق" بدت له ممتازة ، وشك فى أنْ يكون جارثيا ماركيز هو الشخص المرشح لإدارة المجلتين، ولكن ألبارو موتيس هدأ من روعه قائلاً: لا ترفضه إنه أديب، فهو أديب بالفعل، وهو أيضًا صحفىٌ ، إنه فنانٌ ذو نظرة عملية. وتم التعاقُد حينئذٍ مع جارثيا ماركيز لكى يُدير فى آنٍ واحدٍ مجلتى

" الأسـرة " و " حـوادث للجـمـيع" ، ولكنه وضع شـرطين: أولـهـمـا ألا يظهـر اسـمـه فى المجلتين بين مجموعة الصحفيين ، وثانيهما: ألا يضطر للتوقيع باسمه الشخصى فيهما. وبالفعل لم يدرج اسمه فى أى شىء يتعلق بهاتين المجلتين، وقد أدارهما لمدة عامين دون أنْ يكون له آلة كاتبة فى مكتبه. لقد كان المدير الأقل بيروقراطية يتحاور مع المحررين مـباشـرة ، وكذلك مع المصـحـحين والطبَّاعين والمصورين. وتجدر الإشـارة هنا إلى أنَّ المقالات الافتتاحية فى المجلتين تعكس بجلاء مدى الملل والسأم الذى استحوذ على القصاص من جرَّاء ممارسته لهذا العمل الذى لم يكن كافيًا لمطالب أسرته الغذائية.

وفى المبنى نفسـه أيضًا تُوجد "مـجلة سنوب" ، التى كان يمتلكها جـوسـتـابو ألا تريستى ذاته ، ويُديرها سلفادور إليثوندو ، وإيميليو جارثيا ريبيرا. كانت مـجلة ممتازة تتعلق بالإفراط ، والتكلف فى الملبس والزِّى ، وكانت تتناول الموضوعات التافهة بمزيدٍ من الأهمـية ، والموضـوعات المهمـة بمزيدٍ من الطيش ، ولكنهـا لم تكن تحقق مـبيـعات مُرضية ، وكانت تعيش على هامش نجاح شقيقتها " الأسرة" و " حوادث للجميع" ، مما جعل جارثيا ماركيز يشكو قائلاً : حضراتكم المتميزون المرفهون تعيشون على حسابى، وأنا الذى أعمل هنا لكى أتحمل رفاهية حضراتكم". وكان ذلك صـحيحًا ؛ ففى أشهر استطاع زيادة عدد نسخ مـجلتيـه " الأسـرة" و " حـوادث للجـمـيع". وبنظرته وذكائه الصحفى استطاع إخراج المجلتين من التكلف والبذاءة ، وحوَّلهما إلى مجلتين مسليتين تثيران الاهتمام إلى حدٍ كبير. وبصـفة عامـة فقد حـسَّن توزيع أبوابهـمـا وشكلهـمـا ومضمونهما: ومن بينها النصائح الأصيلة لربَّات البيوت ، وحصص إعداد الوجبات والأطعمة والتطريز ، والقيل والقال الاجتماعى ، والجرائم ، والأخبار الحسية ؛ كما أدرج قصصًا وسيرًا ذاتية على فصول أو أجزاء من أعمال أجاثا كريستى ، وتحقيقات عن ثقافات شعوب أخرى ، ومقالات عن بوذا ، والسيد المسيح ، وخوليو بيرنى ، وألبرت أينشتين. بينما تضـمنت " الأسرة" – علاوة على ذلك – بابًا للشعر نُشرَت به مختارات من شعر (لوركا ، وماتشادو وموسيت) ، وكانت مجلة حوادث تبدأ بعبارة شهيرة لأحد الشخصيات التاريخية ثم جانبًا من سيرته الذاتية(٥).

ولكـن علـى الرغم من إدراج الشعر والأشياء النادرة الغريبة فى هاتين المجلتين ، فإن جارثيا ماركيز ظلَّ غريبًا فى مجلات جوستابو ألا تريستى. وفى الوقت الذى كان

يبحث فيه عن مفتاح سمسم لكى يشق طريقه فى السينما المكسيكية ؛ فقد لاذ سعيداً فى الأراضى الغربية بمقاطعة كومالا. وذات يوم - وهو لا يزال يعيش فى شارع رينان - جاء ألبارو موتيس لزيارته كالعادة ، وسأله جارثيا ماركيز منْ هُم الكُتَّاب الذين ينبغى عليه أنْ يقرأ لهم ، وما هى الأعمال التى ينبغى عليه أنْ يقرأها فى المكسيك. فقال له موتيس : " لا تقرأ شيئًا حتى يعود" ، وبعد قليل رجع موتيس بطرد من الكتب ، وبعد أنْ نحى الكتابين النحيفين جانبًا ، قال له : " اقرأ هذه المجموعة عن الحياة اليومية ، ولا تزعج نفسك لكى تتعلم كيف تُكتب هذه الأعمال"(٦). كانت " بيدرو بارامو" و " السهل يحترق" لخوان رولفو. ولم ينم تلك الليلة حتى قرأ بيدرو بارامو مرتين ، ثم تسرع فى اليوم التالى لقراءة " السهل يحترق". لقد فُتِنَ جارثيا ماركيز بخوان رولفو ، وقد حفظ أعماله عن ظهر قلب ، وقرأها على كل منْ أراد سماعها. وخلال ما تبقى من ذلك العام اعترف - فى وقتٍ لاحقٍ - أنه لم يستطع قراءة شىء آخر لأن الباقى بدا له متدنيًا. إنَّ سحر القراءة فى أعلى درجاته من الفتنة عاد ليتكرر من جديد لدى الكاتب منذ ذلك اليوم عندما كان لا يزال فى التاسعة من عمره ؛ حيث قرأ فيه " ألف ليلة وليلة" فى أراكاتاكا، وفى العشرين قرأ قصة " المسخ" لفرانز كافكا فى بوجوتا ، وفى الثانية والعشرين قرأ سوفكليس فى قرطاجنة ، وكذلك أصبح خوان رولفو أحد أساتذته الأساسيين إلى جانب شهرزاد، وسوفكليس، وميلفيل ، وفوكنر ، وفيرجينيا وولف وكاربنتير.

وبعد ذلك بعشرين عامًا ، وفى مقال لتكريم خوان رولفو تذَّكر جارثيا ماركيز أنه منذ أنْ جاء إلى المكسيك " مرَّت ستة أشهر دون أنْ يكلمه أحد عن مؤلف بيدرو بارامو(٧). ويرى ألبارو موتيس أنَّ هذه الفترة لم تكن سوى بضعة أيام أو ربما عدة أسابيع. والدقة أو التحديد لا أهمية لهما إذا لم يكن ذلك خلال شهرى يولية وأغسطس عام ١٩٦١ ، وهى الفترة التى لم يجد فيها جارثيا ماركيز أى عمل ، وقد كتب فى ذلك الوقت " بحر الزمن المفقود" ، وهو أوَّل نص يعمد فيه إلى التأثير التحويلى لخوان رولفو ، وكان هذا العمل " بحر الزمن المفقود" هو آخر ما كتبه قبل الشروع فى اجتياز طريق الصحراء الذى سيؤدى إلى كتابة "مائة عام من العُزلة" بعد ذلك بأربع سنوات.

وكان أحد الدوافع التى جعلته يسافر إلى المكسيك هو إعداد شىء للسينما. أمّا الدافعان الآخران فكانا البحثُ عن دار نشر ذات توزيع على مستوى القارة ،

والاستمرار فى الكتابة. لقد ملَّ كونه كاتبًا للأقليات ، وفكر فى أنْ يكون كاتبًا ذا شعبية عريضة وقُراء كثيرين ؛ فقرر كتابة قصص وحكايات للأطفال ، وقد بدأ ذلك بقصته " بحر الزمن المفقود"، وعندما انتهى منها أخضعها لرأى صديقه بيلينيو ميندوثا. وقد ردَّ عليه بصراحة قائلاً : إنَّ القصة لم تُعجبه لأنه يكره الخيال. وكان جارثيا ماركيز قد تفادى دائمًا جانب الفانتازيا ، وقبل أيضًا رأى صديقه كشىء لا رجعة فيه ، وهجر مشروع كتاب حكايات للأطفال[٨].

ومن المحتمل ألا يتمكن الكاتب عبر هذا الدرب من إسعاد قُرَّائه من الأطفال ليس لأن صديقه بيلينيو ميندوثا قال له إنه ملئ بالفانتازيا ؛ بل على العكس من ذلك تمامًا : ففى الواقع إنَّ هذه القصة كانت أكثر القصص واقعية لدى جارثيا ماركيز ، بهذه الواقعية الرمزية والخيالية الهائلة التى تتميز بها أيضًا أعمال فرانز كافكا.

وعلى عكس ما أكده ماريو بارجاس يوسا بشأن " بحر الزمن المفقود"؛ فإن جارثيا ماركيز لا يختم مرحلة من حياته ككاتب"[٩]. بل على العكس من ذلك يستمر فى هذه الفترة أو يبدؤها ، ولذلك فإنَّ هذه القصة ليست همزة أو حلقة الوصل بين "الساعة المشئومة" و "مائة عام من العُزلة" ، بل إنها مقدمة لهذه. وعلاوة على ذلك إنها نفس القصة فى حالتها الجنينية، و " قيلولة الثلاثاء".

وحدث فى قصصه " الورقة الساقطة" و " يوم بعد السبت" و " جنازة الأم الكبيرة" ، وهى حلقة الوصل الفعلية بين "الساعة المشئومة" و "مائة عام من العُزلة" ؛ كما أنها مقدمة " لخريف البطريريك" ، حدث أنه حتى الآن لم يتم بلورة سلوك ونفسية وفلسفة ماكوندو تمامًا. وبالطبع هناك مخططات موجزة وتقدم هائل ، فقد تكاملت العناصر المناخية ، والجغرافية ، والمعمارية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والثقافية الأساسية لتكوين وتشكيل مستقبل ماكوندو ، ولكنها بما أنها ليست حتى الآن مرتبطة بما فيه الكفاية بديناميكية داخلية فى إطار بنية كاملة لذلك لم يتبلور سلوك ماكوندى أصيل (نسبة إلى ماكوندو) ، وهذا المسلك سيبدأ فى التبلور مع قصة " بحر الزمن المفقود " ، وإن كانت لا تدور أحداثها فى ماكوندو ؛ بل فى قرية ساحلية حيث توجد أراضٍ قليلة ، ولذلك يُلقى بالموتى فى البحر. ومع ذلك ، ففى هذه الرواية إلى جانب "مناجاة إيسابيل ترى

المطر فى ماكوندو" يظهر بشكلٍ متطور نمطُ ماكوندى متبلور، ولهذا فعلى سبيل المثال نجد الآن قسيسًا لاويًا ورجلاً يرافق زوجته لكى ترى الثلج[١٠] ، وشخصًا مجهول الهوية ، كما أنها قرية حقيقية أو مجرد سراب أو أضغاث أحلام (مثل التى يحلم بها خوسيه أركاديو بويندیا قبل تأسيس ماكوندو) حدث هائل يفوق الوصف ، يغير ملامح القرية لكى يتركها مثل أو أسوأ مما كانت عليه ، وهناك قرية وهمية غارقة فى البحر بها رجال ونساء يمتطون صهوة الحصان: إنها مقاطعة كومالا المائية.

ولذلك فإن " بحر الزمن المفقود" ؛ تمثل تحت تأثير رولفو (تأثيرًا فى المفهوم والنغمة) ؛ إنه الإنجاز الأوَّل أو الثانى فى بلورة واقع ماكوندى ذى الاكتفاء الذاتى والسؤال الذى يطرح نفسه مرَّة أخرى لماذا تأخر جارثيا ماركيز أربع سنوات لكى يجلس لكتابة "مائة عام من العُزلة " ، والإجابة واحدة من إجابتين، إنه لم يكن فقط فى شروده وذهوله السينمائيين ؛ بل كان أيضًا غارقًا فى الظروف الاقتصادية الصعبة خلال العامين الأولين فى المكسيك. كان ذلك فى أغسطس أو سبتمبر ١٩٦١ ، عندما قرر إرسال "الساعة المشئومة" إلى مسابقة القصة التى كانت ترعاها الشركة النفطية إسو فى بوجوتا .

إنَّ هذه القصة مثلها مثل " الورقة الساقطة" مرَّت بطريق شائك طويل خلال السنوات الأخيرة؛ فقد بدأت فى صيف باريس عام ١٩٥٦ ، واستمرت فى شتاء العام التالى ، وقد سافرت ما بين باريس وكاراكاس وبوجوتا فى حقيبة سفره مربوطة برباط عُنُق أزرق اللون ، وبه خطوط صفراء حتى أخذها الكاتب فى عامى ١٩٥٩، ١٩٦٠ بهذه المدينة بعد الانتهاء من قصته " جنازة الأم الكبيرة" ، وظلَّ يُنقحها فى نيويورك ، وفى المكسيك أيضًا ؛ فى الوقت الذى كان يقرأ فيه ويُعيد قراءة رولفو ، وكتب " بحر الزمن المفقود" ، ثم أجرى بها آخر التنقيحات والتصحيحات. وإلى جانب " العقيد لا يجد منْ يُراسله " ، وعلَّق جارثيا ماركيز كل آماله على "الساعة المشئومة" ، وكان هدفه أنْ يسلمها لدار نشر لها توزيع على مستوى القارة ، وطبعها إذا أمكن بعدة لغات فى آن واحدٍ ، وكان هذا ضمن الأسباب التى جعلته يأتى المكسيك ليُقيم فيها[١١]، ولكن جييرمو أنجولو ، وألبارو موتيس اقترحا عليه الاشتراك بها فى مسابقة شركة إسو الكولومبية ، وتكفل موتيس بنفسه بعملية إرسالها بالبريد. وعندما استلم مسئولو إسو المجلد بدون عنوان ، حيث استبعد جارثيا ماركيز العنوان السابق " أيَّام الأسبوع الأربعة عشر "

والعنوان الوحيد الذى عَنَّ له " هذه القرية المنفرة" كان فضيحة بكل المقاييس ، ولقد ذهل الجميع ، واعتقدوا أنَّ هذه التسمية من اقتراح ألبارو موتيس ؛ فقد جاء من المكسيك، والمشكلة التى طرأت لهم لم تكن سهلة ، لأنَّ القصة إذا فازت بالمسابقة فكيف يعطون الجائزة لكاتب اضطهدوه بقسوة ؟ ، وقد وصل لهم الحل من أكاديمية اللغة فى كولومبيا عندما علمت المسئولة عن منح الجائزة بأن الفائز ليس موتيس ؛ بل صديقه جارثيا ماركيز. ولقد تمَّ تسليم الجائزة أمام السادة الأكاديميين المثقفين مثل خيرمان بارجاس ، الذى أرسل لصديقه قيمة الجائزة ، وهى ثلاثة آلاف دولار ، أمَّا دبلوم الجائزة فقد تركه له فى حانة لا كويبا المقر المفضل لجماعة بارَّانكيا المازحة.

ولم ترض جائزة القصة التى قدمتها شركة إسو تطلعات المؤلف فقط ؛ بل عاقت مشروع نشرها ، ثم قامت مطبعة لويس بيريث فى مدريد بطبع "الساعة المشئومة" فى ديسمبر من العام التالى (وقد خرج العنوان من جملة بالقصة " لا يوجد لصوص فى هذا البلد" ، وقد تم تنقيحها على غِرار أسلوب مدريد ، وحُذفت منها الكلمات والمصطلحات المحلية والإقليمية والتعبيرات العامية والفجة تحت مبرر تنقية اللغة من الشوائب. ولم يوافق جارثيا ماركيز على ذلك فى رسالة له عبر صحيفة الاسبكتادور " المشاهد" فى بوجوتا ، واعتبر أنَّ أوَّل طبعة لقصته تلك هى التى ستصدرها دار نشر إيرا (العهد) فى المكسيك فى أبريل ١٩٦٦ ، لأنه كان قد قام بإعادة كافة الأخطاء اللغوية ، والفظاعات الأسلوبية بدافع من إرادته المُطلقة والمتعسفة(١٢).

وعلى الرغم من اعتراضات الأب فيلكس ريستريبو رئيس أكاديمية اللغة فى كولومبيا (الذى عذبته كلمتان : العازل الطبى ، والاستمناء بالكف) ، فإنَّ قصته "الساعة المشئومة" تُعد واحدة من أفضل ما كتب جارثيا ماركيز من القصص حيث تحقق له فيها الدقة والإيجاز ، والنقاء الأسلوبى كما فى قصته " العقيد لا يجد مَنْ يُراسله". لم تكن تستطيع الساعة المشئومة بمفردها الدخول فى سباق بسبب تدنى موضوعها المجزأ ، وبالفعل فإنَّ موضوعها يقتصر على سرد أحداث العُنف السياسى والرُعب الاجتماعى والنفسى ، والمواقف المتنوعة التى تورَّطت فيها شخصيات نموذجية من " القرية " ، ذلك المنزل المجهول على ضِفاف نهرٍ ؛ ونموذجه هو قرية سوكرى. إنها القصة الأكثر سينمائية التى كتبها جارثيا ماركيز مع أنها تترك إحساسًا بأنها رواية

ناقصة أو غير كاملة. ولذلك فإن هذه القصة إلى جانب " عيون كلب أزرق" لا تحظيان بتقدير مؤلفهما . لقد بلغ الأمر أنَّ شعر بالاحتقار والازدراء تجاههما ، واعتبرهما أكثر عقلانية ومحدودية، ولكنه سيُخطئ عندما يُدرجها (أى الساعة المشئومة) فى نفس التصنيف مع " العقيد لا يجد منْ يُراسله " ، التى سيقول عنها إنها إلى جوار كثير من حكايات "جنازة الأم الكبيرة" تمثل نوعًا أو نمطًا من الأدب القائم على القصدية والتفكير والتروى ، الذى يعكس نظرة ثابتة وجامدة ومحددة للواقع" ، وسواء كانت هذه الأعمال جيدة أو رديئة فهى كُتب تنتهى مع الصفحة الأخيرة[١٢]. أمّا فى حال العقيد العجوز ، فإنها على العكس من ذلك تمامًا ، لأن بعض الأعمال القليلة من نسج الخيال تبدأ فى التواجد لكى تصبح حقيقة فى الصفحة الأخيرة ، وعلى وجه التحديد فى الكلمة الأخيرة من الصفحة الأخيرة.

إنَّ سبق الإصرار مع النظرة الاستاتيكية والمقيدة للواقع لهذا النقد الذاتى لجارثيا ماركيز فى هذه الأعمال ترجع فى المقام الأول إلى عزمه فى منتصف الخمسينيات ، وبناء على تشجيع وحض أصدقائه اليساريين أراد الاقتراب من الواقع الاجتماعى والسياسى الذى كانت تعانى منه البلاد والمعروف باسم العُنف ، والذى دليلها الأدبى غير الصحيح هو انتشار ما يُسمى بـ " قصص العُنف " ، ولكنها جاءت أيضًا بسبب التأثير القوى والمهيمن للسينما الواقعية الجديدة فى إيطاليا ولمؤلفين مثل هيمنجواى وكامى ، وكذلك من جرَّاء الحاجة التى أحسَّ بها جارثيا ماركيز نفسه لارتياد واكتشاف الطريق الروائى الذى بدأه فى ١٩٥٠ بقصص وحكايات " السيدة التى كانت تصل الساعة السادسة" و " ليالى الكروانات". مهما كان أسفه لهذا الخيار الروائى الثانى لم يكن خيارًا ضروريًا وشبه حتمى فى تطور إنتاجه الأدبى ؛ بل كان مثمرًا للغاية لأن جمال وكمال " العقيد لا يجد منْ يُراسله" يبرران ذلك تمامًا، ولكن هناك أمرًا إضافيًا ، إذ لو لم يتوغل جارثيا ماركيز فى هذا الطريق الواقعى لمعالجة أو لتناول الواقع واللغة بشكلٍ مباشرٍ لما تمكن من أنَّ تتبلور لديه نظرية صحية لكى يأخذ فى اعتباره وينتبه للدرب الملائم للوصول إلى قصته الشمولية " الورقة الساقطة" ، وقد أدرك ذلك فى منتصف عام ١٩٥٩ عندما كتب روايته " جنازة الأم الكبيرة" ، حيث سار فى اتجاهٍ معاكسٍ لكى يجد من جديد طريق ماكوندو: الأكثر رحابة واتساعًا ، الطريق الأكيد والصائب صوب الجذور.

وعلى الرغم من أنَّ روايته "الساعة المشئومة" أعيدت كتابتها خلال العامين الأخيرين فإنها تنتمي إلى مرحلة انتهت فعلاً بين كاراكاس وبوجوتا ، كأنها فترة أو مرحلة ماضية انتهى منها الكاتب دون حماس كبير.

وعلى أية حال فإنَّ هذه القصة أسهمت بمنجزات ملحوظة للغاية بالنسبة للإنتاج العام لجارثيا ماركيز ، ليس فقط " لجمال أسلوبها الرائع وبهاء نثرها " ، بل لأنها كانت أول محاولة للمؤلف للتطرق إلى السر الخفي ، وعزلة السُلطة ولو كان ذلك على مستوى متواضع تمثل في عمدة قرية. إنَّ خبراته ومعايشاته وملاحظاته للدكتاتورية عند روخاس بينيا ، وبيريث خيمينيث ، وكذلك قراءاته البطيئة المتأنية " لأوديب ملكًا" و"الراحلون في مارس" بدأت تؤتي ثمارها الأولى.

وعلى الرغم من ذلك فإن أحد مصادر السعادة الكبيرة الذي ينبغي أنْ تقدمها لمؤلفها القصة الأسطورية " قصة المنشورات الحائطية" كانت الجائزة التي قدمتها شركة إسو الكولومبية قيمتها ثلاثة آلاف دولار ، والتي بها عرف الكاتب الرخاء لأول مرَّة في حياته ككاتب ، ولذلك قام بثلاثة أمور أساسية وضرورية : شراء قمصان وبيجامات لألبارو موتيس ، الذي لم يتأقلم في المكسيك على الرغم من الأعوام الستة التي قضاها في بلاد الأستيك. ثانياً: شراء سيارة أوبيل لمواجهة الحالة اللاإنسانية المتزايدة لمدينة المكسيك. ثالثًا: سداد مصاريف ولادة نجله الثاني جونثالو للمستشفى حيث وُلِدَ في ١٦ أبريل ١٩٦٢ ورزقه تحت قدميه .

وبميلاد جونثالو عندما بلغ رودريجو الثالثة من عمره اكتملت الأسرة ، وغمرت السعادة عائلة جارثيا ماركيز مما جعلها تنتقل إلى منزل فسيح ومريح في ٨٨ شارع اكستالثيوالت بحي فلوريدا ، وتركت الشقة الصغيرة في ٢١ شارع رينان ، ولكن كانت سنة ١٩٦٢ سنة التوأم الأربعة ، حيث تلقت أسرة جارثيا ماركيز الطبعات الأولى لثلاثة من أنجاله الأدبيين : " العقيد لا يجد منْ يُراسله" ، وإن كانت قد طُبِعت في سبتمبر من العام الماضي فإنها لم تصل إليهم حتى مارس من عام ١٩٦٢ ، و " جنازة الأم الكبيرة" التي رأت النور في نفس الشهر الذي وُلِدَ فيه جونثالو ، مما أسهم بألف بيزو مكسيكي لمنزل الأسرة ، و "الساعة المشئومة" التي لم تكن ترغب فيها مطبعة لويس

بيريث فى مدريد. وباستثناء الأربعة آلاف نسخة من هذه القصة لم يتجاوز عدد نسخ القصتين الآخريين الألفى نسخة ، وستتأخر أعوامًا لكى تنضب فى السوق[١٤].

وربما كان قد تعب من كونه كاتبًا للأقلية ، أو ربما لقسوة الأعباء الأسرية ؛ لذلك بات مؤكدًا أنَّ جارثيا ماركيز فى تلك الفترة بدأ يجتهد أكثر لكى تترجم كتبه وتُوزع بشكلٍ أفضل ، وتصل إلى النُقاد والصُحُف البارزة فى أمريكا اللاتينية. وبدأ يتحدث عن مشروعات كبيرة فى رسائله لبلينيو مندوثا وأصدقائه فى بارَّانكيا ، وعن التراجم والتعاقُدات الممكنة مع الناشرين ومُخرجي السينما. وعندما أبلغه ناشره ألبرتو أجيرًى من مدينة ميداليين فى أغسطس ١٩٦١ أنَّ طبعة " العقيد لا يجد منْ يُراسله " على وشك الصدور ؛ كان جارثيا ماركيز قلقًا لأنها ستتزامن مع صدور " جنازة الأم الكبيرة" ، وطلب منه أنَّ يتفق معه لحشد الآليات الصحفية علَّه يحصل على شئ أكثر من المائتى بيزو من الفئة الورقية المزيفة التى كان قد أخذها منه فى بارَّانكيا[١٥]. وعندما تسلَّم النسخ الست الأولى فى مارس ١٩٦٢ بواسطة لويس بيثنيس كتب يشتكى لأجيرًى أنه بهذه النُسخ القليلة لن يستطيع أنَّ يفعل شيئًا ، وأنه ينتظر الحصول على خمسين نسخة على الأقل لكى يبدأ توزيعها على الصحافة ، وعندما علَمِ بأن مجلة مارتشا (المسيرة) فى مونتفيديو كانت قد قدمت تعليقًا على الكتاب مليئًا بالثناء والإطراء اعتقد أنه يحتمل أنْ يكون توزيع الكتاب جيدًا فى الجنوب ، ولكن الحقيقة كانت عكس ذلك: إنَّ ناشر الكتاب فى بوينوس آيرس تورِّيس أجويرو ببساطة كان قد أرسل نسخًا من تلقاء نفسه إلى بعض النُقاد فى الأرجنتين وشيلى وأورجواى.

ولذلك ؛ فقد تمَّ ترويج الكتاب من جانب المؤلف والناشر والأصدقاء (فضلاً عن ذلك كان خيرمان بارجاس موزعًا للكتاب فى كولومبيا) ولذلك قُوبِلَت قصة " العقيد لا يجد منْ يُراسله" باحتفاء كبير من قبِل النقد فى البُلدان الرئيسية فى أمريكا اللاتينية ، وترجمة سريعة إلى الفرنسية أعدَّها الناشر جوليارد فى باريس، ولكن ما هو مُحزن أنَّ الألفى نُسخة التى طبعها ألبرتو أجيرًى لم يُبَع منها سوى ثمانمائة نسخة فقط. وإذا ما طرحنا المائة والخمسين نسخة التى تلقاها جارثيا ماركيز ، ومائة وخمسين آخرين قام الناشر بتوزيعها على النُقاد والصحافة القومية ، وبقيت تسعمائة نسخة اضطر أجيرًى لسدادها بقدر استطاعته مع باقى الأعمال الكاملة لليون دى جرييف ، وكتاب لفرناندو جونثاليث.

وإذا كان دخول جارثيا ماركيز الأوساط الأدبية والصحفية سريعًا نسبيًا بفضل ألبارو موتيس ، والاحتفاء الرائع الذى قُوبِلَ به كتاب " العقيد لا يجد منْ يُراسله " وكُتُبه الأخرى ، فإن توغله فى أوساط السينما المكسيكية كان بطيئًا وصعبًا. إنَّ مفتاح سمسم الذى سمح له مؤخرًا بالتوغل فى هذه الأوساط ، كما هى العادة دائمًا كانت الصداقة وعزمه وتصميمه ؛ فإلى جانب أوجوستو مونتيروُسو ، وخوان جارثيا بونثى وفرناندو بينيتيث فإن أصدقاءه الأوائل كانوا أشخاصًا من السينما أو قريبين من المحيط والوسط السينمائى مثل خومى جارثيا أسكوت ، وماريا لويسا إيليو ، وإيميليو جارثيا ريبرا ، وبيثينتى روخو، وخوسيه لويس جونثاليث ليون ، وخوسيه كولينا ، وألبرتو إسحاق ، ولويس الكوريثا ، وأرتورو ريبستين . كانوا جميعًا أصدقاءً لألبارو موتيس.

وكان جارثيا ماركيز قد تعرَّف على خومى جارثيا أسكوت ، وماريا إيليو فى أواخر ١٩٦٠ ، وقد أهداهما فيما بعد قصته "مائة عام من العُزلة" ، وذلك عندما قضى فى هافانا ثلاثة أيام لزيارة موتيس ، وسمحت له هذه الصداقة الأصيلة الوفية منذ الوهلة الأولى لوصوله إلى المكسيك بالحضور أثناء عطلات نهاية الأسبوع تصوير فيلم " الشُرفة الخالية" ؛ وهو الفيلم الذى سيسجل علامة بارزة فى تاريخ السينما الجديدة فى المكسيك.

إنَّ الثنائى جارثيا – إيليو نشأ وترعرع فى ظل مأساة أغلبية الأطفال الأسبان فى المهجر: هاهو الحنين الجريح للطفولة ، وهذه الأرض التى لا صاحب لها ويعيشون فيها عندما فقدوا جذورهم دون أنَّ يغرسوا أخرى بديلة لجذورهم الأصلية. ظلَّ أغلب هؤلاء المهاجرين فى دوائرهم الأسبانية يعيشون على أمل أنَّ يسقط فى العام القادم فرانثيسكو فرانكو ، وبينما كانو ينتظرون ويتحسرون على الوطن الأم ، كانوا يوسعون نشاطهم التجارى ، وينمون شركاتهم سواء النشاط السينمائى أو الجامعى أو الصحفى أو النشرى أو الأدبى أو الفنى ، مُثرين ومحوِّلين الثقافة المكسيكية أثناء حقبة الأربعينيات والخمسينيات والستينيات.

وككثير منهم كانت ماريا لويسا إيليو قد كتبت رواياتها السرية لكى تخفف عن نفسها مرارة الهجرة والحنين الجريح للطفولة الأسبانية ، وبين زوجها خومى جارثيا أسكوت ، وهو شاب مدريدى تعلَّم فى باريس ، وإيميليو جارثيا ريبرا من جزيرة إيبيثا

الأسبانية عاش فى فرنسا أيضًا ، وقد صمموا على تقديم أعمالهم للسينما بميزانية قدرها أربعة آلاف دولار ، والتعاون الأسبوعى للأصدقاء. وخلال كل عطلات نهاية الأسبوع عام ١٩٦١ أسهم كل من كارلوس فوينتيس ، وألبارو موتيس ، وخوان جارثيا بونثى ، وسلفادور إليثوندو ، وتوماس سيجوبيا ، وجون ستانتون إلى جانب أصدقاء آخرين ، وممثلين حسنى النية استطاعوا جميعًا تقديم فيلم " الشُرفة الخالية ". لقد أشار الفيلم إلى السبب الحقيقى للوحدة والغربة والحنين ، وقد صوروا هذا الالتزام العام والمشترك للكتاب المكسيكيين والأسبان فى المنفى مع السينما الجديدة ، حيث إنَّ فيلم جارثيا أسكوت قد حصل على جائزتين دوليتين ، وكان بمثابة علامة مميزة للسينما الوطنية ، حيث افتتح إحساسًا جديدًا واقترح لغة جديدة مستوحاة من القصة المبهمة أو الغامضة(١٦).

إنَّ حضور تصوير فيلم " الشُرفة الخالية" كان أوَّل اقتراب لجارثيا ماركيز من السينما المكسيكية ، وإن كان بشيء من الخجل. وتتذكر ماريا لويسا إيليو أنه بعد كل جلسة تصوير ظلَّ الكاتب خلف الأعمدة أو أى مانع لكى لا يرونه. لقد ظلَّ جارثيا ماركيز رجلاً خجولاً وحزينًا إلى حد ما ، ومنطويًا على نفسه ، وإحساسه بأنه لا جدوى منه فى بعض الأماكن كانت إحدى عُقده الدائمة ، ومع ذلك كان عزمه واضحًا غاية الوضوح : إثبات أنَّ له فائدة فى السينما المكسيكية ، وبدأ بمساعدة ألبارو موتيس ، ولويس بيثينس زيارة جماعات الكُتَّاب والصحفيين والفنانين والسينمائيين الذين كانت تجمعهم هواية الولع بالسينما ، والذين كانوا يرغبون فى تغيير اتجاه وطريق السينما المكسيكية. ولم يكن ألبارو موتيس مواظبًا على هذه الاجتماعات لأن السينما لم تكن أبدًا ضمن هواياته الأساسية، ولأنه دائمًا كان مولعًا بالحياة الاجتماعية ، وسعيدًا بها خاصة بالحياة الاجتماعية للمفكرين ؛ ومع ذلك لم يبخل فى مساعدة صديقه. وهكذا بدأ جارثيا ماركيز يجتمع مرَّة فى الأسبوع للتحدث عن السينما فى مأدبات غداء دورية مع أرتورو ريبستين، بيثنيتى روخو ، وإيميليو جارثيا رييرا ، وخوسيه لويس جونثاليث دى ليون ، والممثلة أدريانا روبل. وبعد ذلك سيجتمع كل يوم جمعة مع لويس ألكوريثا ، وألبرتو إسحاق ، وألبارو موتيس. ولكن اجتماعاته السينمائية الحقيقية كانت تتم كل يوم سبت فى مكتب الموقر لويس بيثينس فى حضور خومى جارثيا أسكوت ، وخوسيه

لـويــس جـونثـاليـث دى ليـون ، وإيميليـو جـارثيـا ريـيـرا ، وخـوسـيـه دى لا كـولينا وسلفادور إليثوندو.

وجدير بالذكر أنَّ لويس بيثينس هو راعٍ للمولعين بالسينما والرسَّامين والكُتَّاب ، وكان قد استقر بالمكسيك في سبتمبر ١٩٥٩ قادمًا من كولومبيا ، حيث عاش هناك سنوات كثيرة وترك أثرًا لا يُمحى فى ترسيخ السينما الوطنية بها فقد أسس هيئة نادى السينما بكولومبيا ، وعلم السينماتيكا أو علم الحركة المجردة فى السينما بكولومبيا ، كما أعدَّ مونتاج فيلم " الجراد الأزرق" ، الفيلم الذى أعدَّه ألبارو ثيبيدا ساموديو وأصدقاؤه على نفقتهم عام ١٩٥٤ . وكان جارثيا ماركيز قد حضر هذا المونتاج باهتمام بالغ ، وقد انتبه منذ ذلك إلى أهمية أن يعرف كاتب السيناريو تقنية المونتاج نفس العلم الذى دَرَّسته له الدكتورة روسادو أثناء دراسته القصيرة فى مركز السينما التجريبى بروما. وعندما وصل بيثينس إلى المكسيك ، فإن أوَّل شىء قام به كان البحث عن السينمائيين الشُبَّان الذين بدأوا يشقون دروبًا وطُرُقًا جديدة فى السينما المكسيكية ، ووجدهم يجمعهم تأثير" القصة المُبهمة" و " كراسات السينما".
وفى هذا الجو المشجع والملائم وُلِدت مجلة السينما الجديدة التى على الرغم من قصر حياتها فقد كان لها تأثير وطنى كبير وصدىً دولىٌ إلى حدٍ ما. كانت المجلة تحت إشراف وتشجيع لويس بيثينس الذى دفع السينما الجديدة بالمكسيك نحو المجد بأفلام مثل " فى الشُرفة الخالية" ، و "الصيغة السرية" ، و " فى هذه القرية لا يوجد لصوص" الذى أُعِدَّ استنادًا إلى قصة جارثيا ماركيز .

وفى اجتماعات أيام السبت حول صاحب المكتبة والسينمائى القطالونى كان الحديث يدور عن كل شىء ويُقترح كل شىء. هنالك اقترح ألبارو موتيس تبنى اسم مستعار يمكن للجميع استخدامه دون تمييز لتوقيع مقالاتهم بالمجلة. وقد قَبِلَ الآخرون ذلك ، ووافقوا على الاسم الذى اقترحه موتيس زاكارى أنجلو. إنَّ هذا اليهودى الكامل فى هوليود كانت له شُهرة إلى حدٍ ما ليس فقط فى التعليقات على السينما ؛ بل فى علاقاته المشبوهة مع الممثلات الحسناوات. وذات مرَّة تجرأ حتى فى سرد مشاجرة مع أحد الحمقى بسبب فيلم للويس بونيويل ، وعندما عَلِمَ بذلك الأستاذ والرائد الأراجونى (نسبة إلى إقليم أراجون فى إسبانيا) أسفَ لعدم التعرُّف عليه شخصيًا(١٧).

وبهذا الشكل ووسط العمل والدراسة كان هناك نوع من المزاح للجماعة مما يبرهن على الصداقة والشراكة التي تجمع هذه المجموعة من الكولومبيين والإسبان والمكسيكيين ، فضلاً عن ولعهم المشترك بالسينما . هذا هو الجو العام الذى وجده جارثيا ماركيز فى يوليه عام ١٩٦١ حيث أحس بالراحة ، وهناك وجد هذه الإمكانيات بالنسبة للمستقبل ، وبعد عامين وجد ثغرة فى النهاية لكى يدخل عالم السينما ، وفكر أكثر من مرّة فى إغلاق صنبور الأدب والتفرغ تماماً جسداً وروحاً للفن السابع " السينما" .

وبالفعل كانت أول فرصة ذهبية سنحت له هى : العمل مع المنتج مانويل بارباتشانو بونثى لتهيئة " الديك الذهبى" للسينما ، وهو موضوع لخوان رولفو الكاتب الذى يعرفه جيداً والمُعجب به لدرجة الفتنة فى تلك الآونة. ولذلك ترك العمل بوكالة الدعاية والإعلان ولتر تومسون التى كان قد بدأ العمل بها فى سبتمبر ١٩٦٣ هرباً من الصحافة الغذائية العقيمة ، التى لم تكن كافية لسد رمقه وأسرته ، والتى اضطر للعمل بها خلال عامين فى مجلتى " الأسرة" و " حوادث للجميع". ولذلك فقد كان السأم والملل شاملاً ، وكانت الصعوبات الاقتصادية وحدها فى البداية تُفسر أنَّ الكاتب أضاع عامين للعمل من أجل سدّ رمق الأسرة. وقد زاد الطين بِلة أنَّ راعيه وصاحب عمله جوستابو ألا تريستى جعله أكثر حزناً ومأساوية ، واضطر لمطاردته فى كل مكان من خلال متاهة كافكا. ويتذكر إيميليو جارثيا -ريبرا على سبيل المثال أنه لم يدفع له راتبه لمدة ثلاثة أشهر ، وقد طارده الكاتب وتتبعه فى كل مكان حتى قال له صاحب العمل: لا تهتم. سأدفع لك رواتبك. وقد أدخله فى سيارته ورافقه حتى حمَّام تركى حيث أعطاه الشيك وسط بخار الحمَّام. وعندما خرج جارثيا ماركيز أدرك أنَّ حروف الشيك قد طُمستْ لذلك عاد لمطاردته فى رواية جديدة لعذاب سيزيف الأبدى(١٨).

ولذلك عندما وصل إلى عالم الدعاية بمساعدة ألبارو موتيس فإن الكاتب شعر بالحرية مرتين ، وعندما ترك الدعاية بعد ذلك ببضعة أشهر لكى يتفرغ تماماً للسينما مع مانويل باربتستانو بونثى اعتقد أنه بلغ المجد لأنَّ هذا ما كان يبحث عنه منذ أيام روما: تكريس قلمه لخدمة السينما حتى يستطيع كتابة القصة ذات الصور الكاملة. لقد كان الكاتب مقتنعاً آنذاك بأنَّ السينما بقوتها الإبصارية يمكنها أنْ تكون وسيلة التعبير الأكثر ملائمة لسرد مشكلة الإنسان فى عصره. إنَّ هذا الاعتقاد سيتلاشى لديه فى

منتصف عام ١٩٦٥ ، إنَّ لم يترك بصمات واضحة في أعماله السابقة ؛ بل كان يعوقه بشكلٍ ما ، وإن كان قد أثرى البعض الآخر عملية نُضجه صوب القصة الشمولية تجاه هذا " الفيلم الكامل" الذي سيكون "مائة عام من العُزلة " ، ولكن كان ينبغي عليه الانتظار عامين آخرين مليئين بالآمال وخيبات الأمل إلى أنَّ استطاع إدراك ذلك.

لقد كان مانويل بابارتشانو كيانًا له وزنه وثقله في المكسيك. كان رجلاً سخيًا ، حيث لم يعترض مجرد الاعتراض على الاستمرار في أنَّ يدفع لألبارو موتيس راتبه خلال الخمسة عشر شهراً التي قضاها في سجن ليكومبري. وقد جمَّع بابارتشانو حوله مجموعة من السينمائيين ، والرَّسامين والكُتَّاب. إنه منتج بعض روائع أفلام لويس بونيويل وأحد مؤسسي السينما المستقلة بالمكسيك، وكان يعتقد أنه إزاء نقص الموضوعات الأصلية الجيدة ينبغي على السينما أنَّ تتغذى من الأدب ، وقد لجأ إلى كتاب مثل بنيتو بيريث جالدوس ، ورامون ماريا ديل بايي إنكلان أو خوان رولفو الذي كان يشعر بالإعجاب تجاهه. إنَّ تأييده للسينما الجديدة إلى جانب إنتاج الكُتَّاب الجُدد كان المنتج الوحيد المستقل الذي شارك عام ١٩٦٤ في المسابقة الأولى للسينما التجريبية، وذلك بإنتاج خمسة أفلام متوسطة استناداً إلى أعمال ونصوص لكل من كارلوس فوينتيس ، وخوان جارثيا بونثي ، وخوان دي لا كابادا.

إنَّ فكرة تقديم أعمال رولفو للسينما كانت الجوهرة الكبيرة لأحلامه ، ولكنه لم يجد كاتبًا جيداً للسيناريو. كان بارباتشانو بونثي يبحث عن كاتب سيناريو جيد يكون مفتونًا مثله بأعمال رولفو ، وأن يكون على الأقل كاتبًا جيداً مثله. حينئذ تذكَّر ألبارو موتيس صديقه جارثيا ماركيز حيث كان مُعجبًا أشد الأعجاب بكاتب لاكومالا ، وقدَّم ماركيز بارباتشانو ، وبالعمل بين الأدب والسينما ، وبتكريس أكبر وقت لذلك (ترك جارثيا ماركيز عمله في الدعاية والإعلان) ، وقد استطاع جارثيا ماركيز أنَّ يكتب أوَّل سيناريو له استناداً لقصة " الديك الذهبي" الذي أبدى عليه بارباتشانو اعتراضًا بسيطًا لأن الحوار كان بالكولومبية وليس بالمكسيكية. وفي هذه اللحظة دخل في اللعبة تعاون وصداقة كارلوس فوينتيس الذي ما لبث أنَّ عاد من سفره الطويل بأوروبا. وقد عرَّفه عليه موتيس في نفس صالة العروض التي كان يمتلكها بارباتشانو بونثي. وكان الشخصان قد عرفا بعضهما من خلال الرسائل ، وكذلك من بعض الأصدقاء المشتركين

كما قرأ كل منهما أعمال الآخر ، وبلا أدنى شك كان كل منهما معجبًا بالآخر ، ولكن الاستلطاف لم يكن فوريًا .

وكان كارلوس فوينتيس فى الخامسة والثلاثين من عمره أحد كبار الروائيين المبدعين المكسيكيين ، وكان من بين أهم وأفضل قصصه روايتان : " المنطقة الأكثر شفافية " و "موت أرمينيو كروث" اللتان جعلتاه يتربع على عرش القصة الأمريكية اللاتينية الجديدة الى جانب أليخو كاربنتير وخوليو كورتثار وخوان رولفو وماريو بارجاس يوسا . لقد كان كاتبًا عالميًا تأصَّل فى الأساطير المكسيكية كماكان كاتب مقالات للجيل ورجلاً رقيقًا كما يقول ثيسار بابيخو وبكل هذا العتاد الأدبى والفكرى والإنسانى كانت أعماله تجوب نصف العالم فى ثلاث لغات بخطى وئيدة وثابتة وأكيدة وطلاقة ساحرة وضحكة تلقائية وإيماءات أكثر إنسانية فى كل مرة ، ومن أسلوب ودى ومسهب وقوى أصبح أسلوبًا مقنعًا ومُفحِمًا .

وعلى الرغم من أن جابرييل جارثيا ماركيز كان أحد أفضل كُتاب أمريكا اللاتينية فقد كان – على العكس من ذلك – لايزال يعانى من نعمة بائسة ، حيث إن كتبه الأربعة أو الخمسة الأوائل كانت عبارة عن درر خفية قاصرة على أصدقائه وعلى قلة أخرى من القراء ، فكل الأمور لم تكن فى صالحه فى البداية باستثناء براعته الأدبية وحبه لمرسيدس وعلاقاته الطيبة دائمًا مع أصدقائه ، وكان يعيبه أن طلاقة لسانه لم تكن ساحرة وفاتنة وأخاذة لكونه رجلاً حزينًا إلى حد ما وخجولاً ومنطويًا على نفسه وكان يعتقد بأنه لا فائدة له فى بعض الأماكن .

وفى منتصف الخمسينات كان كارلوس فوينتيس قد قرأ القصة الأولى للكولومبى بفضل ألبارو موتيس ، ونشرها له فى المجلة المكسيكية للأدب التى كان يديرها مع إيمانويل كار بايو ، وبعض الحكايات التى تنازلت عنها مجلة ميتو (الأسطورة) فى بوجوتا مثل "مناجاة إيسابيل ترى المطر فى ماكوندو " . واعتبارًا من ذلك بدأ الشخصان المراسلة بينهما ، وهذا لأن كارلوس فوينتيس تخيل أن الكولومبى جرئ منطلق ذو حيل وواثق من نفسه مثل نثره تمامًا . وفى الواقع أنه كان كذلك ولكن لم يكن كذلك – بالتحديد عندما تعارفا – بين الجرأة والثقة بالنفس وطلاقة المكسيكى والكتمان

وانعدام الثقة بالنفس وكبت الكولومبى ، فليس من الغريب أن تكون هناك بينهما منطقة محظورة حيث ظل أحدهما بتحفظاته جانبًا وبقى الآخر فى الجانب المقابل بصنوف خجله واستحيائه ، ولكن هذا الجفاء كان مؤقتًا وسرعان ما أدى الى إحدى الصداقات والشراكات العميقة والسعيدة فى حياة كلا الكاتبين .

وطبقًا لبيثينتى روخو فإنَّ أحد العوامل التى غذَّت هذه الصداقة كانت النشر فى دار نشر إيرا (العهد) فى سبتمبر ١٩٦٣ الطبعة الثانية من ألف نسخة " للعقيد لا يجد مَنْ يراسله " ؛ تلك القصة التى علَّق عليها كارلوس فوينتيس بحماس منقطع النظير فى يناير فى العام التالى بملحق " الثقافة فى المكسيك " فى مجلة "دائمًا " ، ولكن الأمر الذى قرَّبهما بشكل نهائى كان خوان رولفو والسينما ، فعملهما سنويًا فى " الديك الذهبى " سمح لهما بالتعرف على بعضهما ككاتبين بصورة أفضل، هذا إلى جانب كونهما مولعين بالسينما وصديقين مما بدد آخر ظلال علاقتهما. وكان السيناريو عملاً جديراً بالثناء ووفيًا لقصة خوان رولفو وان كانت كفيلم أخرجه ريكاردو جبالدون وعرض فى ديسمبر ١٩٦٤[19] قد لقى فشلاً ذريعًا. لقد كان جبالدون مخرجًا تجاريًا عجوزًا مليئًا بالعادات السيئة ويفتقر للخيال ، واستنادًا لما يقوله جارثيا ماركيز جعل حياة كاتبى السيناريو مستحيلة طوال عدة أشهر ، حيث طلب منهم إعادة كتابة السيناريو عدة مرات، وجعلهما يدوران فى حلقة مفرغة (كما سيفعل ذلك العقيد أوريليانو بوينديا بالحلى الذهبية على شكل أسماك صغيرة أثناء العزلة) حتى سئما منه وقالا لبارباتشانو بونثى أنهما تركا السيناريو لكى يفعل به جبالدون مايشاء[20].

وبعد ذلك ببضعة أشهر عادا ليلتقيا مرة أخرى بدافع الولع بالسنيما وأيضًا بقصة لخوان رولفو ألا وهى تهيئة " بيدو بارامو " للسينما ، وهو المشروع الكبير لبارباتشانو بونثى الذى كان على وشك أن يتسبب فى إفلاسه تمامًا ، لقد كانت قصة السيناريو الأصلية قد كتبها كارلوس فوينتيس، ولكن المخرج كارلوس بيلو لم يكن متأكدًا ، وأراد سيناريو شبه علمى وأخضعه لرأى عدد لاحصر له من الفنيين والكُتاب من بينهم خومى جارثيا أسكوت وخوان جارثيا بونثى وألبارو موتيس وفرناندو بينيتيس وخوسيه دى لاكولينا وجاستون جارثيا . وعندما وصل السيناريو إلى جاريثا ماركيز كان الأصل الذى أعده كارلوس فوينتيس يستحيل التعرف علية لطمس معالمة وملامحه :

فقد أضاف كلٌ من هولاء أوحذف أجزاءً من هنا وهناك. وقد تدخل الكولومبي هنا كمحامٍ ذى نية حسنة للدفاع عن رولفو ، وعلى الرغم من ذلك فإن فيلم كارلوس بيلو كان من أكبر الكوارث والنكبات في تاريخ السنيما المكسيكية "[٢١]. وعلى العكس من ذلك فإنَّ العمل الدقيق خلال عدة أشهر في قصة السيناريو هذه كانت مفيدة للغاية لكي يتعرف بعمق وتعمق على الأسرار الخفية للبنية الأدبية لخوان رولفو حتى توصل إلى المفاتيح التى مكنته من كتابة " مائة عام من العزلة " بعد ذلك بقليل .

وفى نفس الوقت خطى جارثيا ماركيز خطواتة الأولى فى السينما ، وباع الحقوق السينمائية لقصة العقيد لايجد منْ يراسله (التى لم تُصَوَّر كفيلم لافتقارها إلى الشخصية ذات الطابع التجارى) ، وأفسحت المجال لقصته الأخرى (لايوجد لصوص فى هذه القرية " لكى يقوم ألبرتو إسحاق وإيميليو جارثيا رييرا بتقديمها للسينما . وبتهيئة الاثنين للقصة وإخراج إسحاق وصل الفيلم إلى النهائى وحصل على جوائز فى التهيئة والإعداد والتصوير فى المسابقة الأولى للسينما التجريبية[٢٢] ، وكانت الجائزة الأولى من نصيب فيلم "الصيغة السرِّية " لروبين جاميث الذى كتب قصة الجميل خوان رولفو. وكلا الفيلمين استوحيا من فيلم "فى الشرفة الخالية " ، وقد شارك فيها أيضا نخبة من السينمائيين والكتاب كممثلين من ذوى النيات الحسنة فى تصوير فيلم " لايوجد لصوص فى هذه القرية " ، وقد شارك جارثيا ماركيز ذاتة بفعالية فى المونتاج كما عمل بائعًا لتذاكر السينما وقام لويس بونيويل بدور القسيس الواعظ ولويس بيثنس فى دور السيد أو بالدو وخوان رولفو وكارلوس مونسيبايس قاما بدور لاعبى الدومينو وخوسيه لويس كويباس وإيميليو جارثيا رييرا قاما بدور لاعبى البلياردو[٢٣]. إنَّ الوجود الخجول لرولفو فى هذا الفيلم جاء تتويجًا لصداقته الحديثة مع ماركيز صداقة كانت قد بدأت دون تفاؤل كبير فى نوفمبر من العام الماضى عندما قدمهما للتعارف ألبارو موتيس أثناء زفاف صديقه (وعلى وجه التحديد فى اليوم الذى قتل فيه روبى أوسفالد ؛ قاتل أو مغتال كينيدى) ، وعلى الرغم من أنَّ الكاتب المكسيكي كان قد قرأ للقصَّاص الكولومبى فإن تحفظات وخجل واستحياء وكتمان ذلك ، فضلاً عن عملية علاجه من إدمان الكحوليات أدى كل ذلك إلى عدم تبلور الصداقة فورًا ، لكن بمجرد أن قويت وترسَّخت عُرى هذه الصداقة كان وجود رولفو مستمرًا فى الدردشات الأدبية إلى جانب

السينمائية التى كان جارثيا ماركيز يشارك فيها مجموعة من الكُتّاب والأصدقاء ومن بين هؤلاء: لويس كاردوثا وأراجون وإيرنستو ميخيا سانشيث وأوجوستو مونتيروسو وخايمى جارثيا تريِس وخوان جارثيا بونثى وخوسيه إيميليو باتشيكو ، وبدرجةٍ أقل ألبارو موتيس.

وبتحمسه بالإنجازات الأولى بدأ جارثيا ماركيز فى نفس العام ١٩٦٤ إلى (عامه الذهبى فى السينما) فى كتابة أول قصة سيناريو له كاملة : "زمن الموت ". لقد كانت فكرة قديمة باسم " الفلاح " ، وهى التى كانت قد ولدت من صورة ذلك القنّاص العجوز الذى تعلم حرفة الحياكة بعد أن مكث سنينًا طويلة سجينًا. تلك الصورة التى تولدت عن حكاية أونادرة عاشها جارثيا ماركيز عندما عاد ذات يوم إلى منزله ووجد البواب وهو قاتل أو سفاح قديم يُحيك سترة[٢٤]. إن قصة السيناريو التى هيأها وأعدها كارلوس فوينتيس كُتِبت خصيصًا لكى يقوم الشاب أرتورو ريبستين البالغ من العمر اثنين وعشرين عامًا لكى يشق طريقه كمخرج فى ظل والده ، وقد أصر منتج الفيلم على أن تتنكر هذه فى اسم ويسترن (الغربية) لكى يجد سوقًا أكيدًا ومضمونًا فى ألمانيا الغربية. وقد تم تصوير الفيلم فى باتشكوارو فى الفترة من٧ يونية الى ١٠ يولية عام ١٩٦٥ فى حضور جارثيا ماركيز وقد عرض الفيلم فى نفس العام[٢٥].

ولم يكن فيلم " زمن الموت " أول قصة سيناريو أصلية يكتبها جارثيا ماركيز ، بل كان تأثره الثانى بخوان رولفو ، وكان عملاً أوضح للكاتب ماكان يبحث عنه فى السينما: صياغة وإبلاغ الأفكار المتسلطة فى عمله الأدبى. وعلاوة على التقنيات فإنَّ كاتب قصة السيناريو يتصرف من الناحية العملية مثل مؤلف " الساعة المشئومة " والعقيد لايجد منْ يراسله " وفى نفس الوقت أدرج عناصر مهمة لعمله المستقبلى ، وكانت قصة السيناريو يمكن أن تُسمى أيضًا "الساعة المشئومة " و "خوان ساياجو لا يجد منْ يساعده " و " عشرون عاما من العزلة " أو " نبأ موت معلن " ، ولم يكن الزمن والبنية دوريين ومتكررين فقط بل حتى فى الأوصاف التى يصُّر بها عند إنتاج الأدب أى أدبه الشخصى ، ولينسى أن كلمات قصة السيناريو ماهى إلا أدوات لخدمة آلة التصوير وليست هيئات أوكيانات أدبية مستقلة .

وعلى الرغم من أن جارثيا ماركيز ظل يعمل بالتناوب بين السينما والدعاية والإعلان (أحيانا في ولتر ثومسون وأحيانًا أخرى في ستانتون بريتشارد آند وود) وكانت هذه السنة أكثر خصوبة : فإلى جانب مشاركته في قصة السيناريو لفيلم " لولا حياتي " وهو فيلم صغير لميجيل بارباتشانو بونثي ، فقد كتب قصتي سيناريو بموضوعين أصليين له "باستي حبي " الذي أخرجه مانويل ميتشيل و"ألعاب خطيرة " الذي تم تقديمه في جزئين : " إتش أو (H_2O) إخراج أرتورو ريبستين و " تسلية " من إخراج لويس ألكوريثا[٢٦].

وعلى الرغم من أن الفردوس الحقيقي للسينمائي جارثيا ماركيز بدأ يتحدد معالمه في أفقه (أي في أفق الكاتب) عندما قام المنتج أنطونيو ماتووك اقترع عليه وعلى لويس الكوريثا ، كانت قصص السيناريو الشهير للويس بونيويل أن يتفرغا لكتابة قصص سيناريوهات براتب ثابت. وبعد كتابة ثلاث قصص سيناريو والعديد من القصص الإجمالية استسلما[٢٧] وتمكن الكاتب من الإثبات حينذاك أن فردوس كاتب قصص السيناريو لم يكن سوى واحة ضيقة وصغيرة ، لأن حولها كانت الصحراء تمتد في صناعة تجارية معقدة ومتناقضة لم يكن فيها كاتب قصة السيناريو سوى قطعة بسيطة دائمًا ما تنتهي بفقدان هويتها. وبات من الواضح أن السينما لم تكن وسيلة " التعبير الكاملة " لصياغة وإبلاغ مايدور بعالم الكاتب الداخلي منذ أيام الطفولة حيث قام الجد باصطحابه إلى السيرك أو لمشاهدة أفلام توم ميكس ، بينما كانت الجدة تكممه ليلاً بالأرواح المستوطنة في منزل أراكاتاكا.

ويتذكر كارلوس فوينتيس بعد ثلاثين عامًا لحظات الفشل المشترك في السينما وهما يجلسان على العشب في حديقة منزله في شارع سيرًا دا جاليانا بالحي السكني "سان أنخيل إن " ، حيث تجن المكسيكي وتعجب أنه لم يستطع أن يتحمل أكثر من ذلك ، وأنه سيعتزل أو أن الكاتب الكولومبي هو الذي سئم العيش في المكسيك قائلاً : سأذهب إلى كولومبيا. لن أستطيع العمل أكثر من ذلك ككاتب قصة سيناريو إنه عمل مزرى مهين " إننا نعمل مع أميين " حينئذٍ قام فوينتيس الذي سبق أن واساه صديقه جارثيا ماركيز هو الآخر بالتسرية عن صديقة جابو : "لاتنس أن الذي نفعله الآن في السينما هو من أجل تمويل القصص التي نود كتابتها ، تذكر أنك ينبغي عليك أن تكتب قصة

رائعة " ، ولكن لم تكن هذه هي المشكلة بل كانت تكمن في أنَّ جارثيا ماركيز كان يفكر دائمًا في أن السينماهي الوسيلة الأكثر ملائمة لكل مايريد أن يرويه ، والآن وبعد عامين من العمل في السينما كان ينبغي أن يسلم بكل تواضع أنه إزاء القصة، فإنَّ السينما لم تكن فقط وسيلة محدودة للتعبير ، ولكنها كانت وفقًا للأهواء والأذواق ومصالح المنتجين والمخرجين ، لذلك كان كل ما يستطيعان عمله قليل للغاية .

وبالنسبة لكاتب ذي طموحات عادية فإنَّ منجزات جارثيا ماركيز حتى منتصف عام ١٩٦٥ لم تكن المثلى ، بل كان يبدو أنه يسبح على قمة الموجة . فقد كان يتمتع بشهرة كبيرة في كولومبيا كصحفي وقصاص ، وفي المكسيك كان يُشار له بالبنان ككاتب قصة سيناريو وكان يُهتَف باسمه كمؤلف وإن اسمه خارج دائرة الأصدقاء والنقاد بدأ الاهتمام به في عدة دول في أمريكا اللاتينة . لقد كان كاتب سيناريو ورجل دعاية ذا راتب كبير. وبدأ يسبح في بحر من الرخاء والرفاهية ، مما انعكس على جودة مسكنه (فبعد قضاء فترة في حي برادو إيرمتيا ترك منزل حي فلوريدا واستقر في " حي سان أنخيل إن " الوضَّاء والمريح الهادئ) ، وكذلك على تنوع وجودة ملابسه كما انعكس ذلك بشكل واضح على الأسرة أيضًا وعلى علاقاته الاجتماعية مع المنتجين والمخرجين والصحفيين والكتاب والرسامين والمطربين والممثلين المشهورين والممثلات الحسناوات . لقد كان رجلاً يرتدي الملابس المتناسقة بشكل تقليدي كما كان يتزين برباط عنقه الأنيق لكل من كان يراه بكثرة ، أحيانًا بمفرده وأحيانًا مع مرسيدس أو عندما يلتقي بمختلف المجموعات من أصدقائه في الحانات والمقاهي والمطاعم والأندية في المنطقة الوردية (ذلك البازار الهائل للعادات الاجتماعية المكسيكية) ، وفي غيضة من أشجار الحور (المكسيك الاستيطانية) وشارع بوكاريلي أو في الألف مكان ومكان في (منتزه الاصلاح) ، أوفي (شارع المتمردين). ومع هذا كله فقد كانت شعيرته المفضلة هي المجئ إلى جلسات الشاي المفتوحة أيام الآحاد مساءً التي كان يقيمها كارلوس فوينتيس وزوجته ريتا ماثيدو في منزله ، حيث كانت الحياة الاجتماعية مع المدعوين الكثيرين كانت في الواقع امتدادًا ترفيهيًا للعمل الأدبي والسينمائي والصحفي الذي كان دائمًا يقض مضجعهم ، وبين الحلل والسترات الجلدية التي كان يرتديها المفكرون المكسيكيون كان من الشائع ارتداء الكاتب الكولومبي سترة من الصُّوف بها مربعات بيضاء وسوداء حيث كان يحتفظ بها جارثياماركيز كحجاب من أيامه الغنائية كسينمائي في روما .

ولكن الآن وبعد عشر سنوات شعر بالخذلان من جانب الفن السابع (السينما) وكذلك بالإرهاق والنضوب ككاتب ، وقد سمعه أصدقاؤه مثل ألبارو موتيس ، وهو يقول مرارًا وتكرارًا : لن أكتب فى هذه الفترة ، فلم يكن لديه مايقدمه أو ما يقوله . وقد اعترف لبيلينيو ميدوثا فى رسائله الكثيرة التى كان يرسلها له فى ذلك الحين أنه كان يتناول المهدِّئات حيث كان يدهن بها الخبز مثل الزبد[٢٨] " وقد شهد بحالة تدنى قواه وإنهاكه اثنان من المراقبين الأمريكيين اللاتينيين وهما الناقد الأورو جوانى أمير رودر يجيث مونيجال والكاتب التشيلى الأمريكى لويس هارس تلك الحالة التى كان يعانى منها الكاتب الكولومبى"[٢٩]. ولكن ألبارو موتيس الصديق المقرب لجارثيا ماركيز ، الذى كان يعرفه كُنه المعرفة لم يصدق حقيقة أسف وحزن الكاتب إنْ كانت قد بدت له صادقة إلاَّ أنَّه لم يصدق على الإطلاق بلوغه سن العقم الأدبى ، وبالنسبة للشاعر كويو لم يكن ذلك إلا مظاهر خارجية وخاطئة لعملية هضم بطيئة وعميقة : لا ، إننى لم أصدق على الإطلاق هذا العقم الأدبى لجابو الذى كثر الحديث عنه لأنه كاتب فطرى وخلال الأعوام التى سبقت " مائة عام من العزلة " كان يدير كثيرًا من الأمور : فى المقام الأول صدمته المكسيكية التى كانت أمرًا بطيئًا وصعب الهضم ، وفى المقام الثانى إنتاج رولفو إلى جانب صدمته المكسيكية لأنَّ رولفو هو المكسيك الأصلية ، وفى المقام الثالث كان مشغولاً بالسينما الذى اعتقد أنه اكتشف هنا كل احتمالاتها وإمكانياتها القوية" .

ولذلك يشكك ألبارو موتيس فيما يتردد من أنَّ جارثيا ماركيز كان يكتب النسخة الأولى من روايتة " خريف البطريرك " خلال تلك السنوات[٣٠]: لم يقل لى جابو على الإطلاق إنه يكتب "خريف البطريرك " قبل أن يجلس ليكتب " مائة عام من العزلة " ، وعلى الرغم من أن ذلك مع جابو غير معروف فهو حرى بالمفاجآت لأن جابرييل جارثيا ماركيز لديه ترسانة من الصور والأفكار لطفولة لا تزال بكرًا ، فمن المحتمل أن يكون قد بدأ العمل فى فكرة " خريف البطريريك " ولكنه لم يذكر لى شيئًا عن ذلك مطلقًا . إنه أمرٌ غريبٌ للغاية أن يكون قد بدأ العمل فعلاً فى ذلك دون أن يخبرنى به لأننا فى تلك الفترة كنا نلتقى دائمًا كثيرًا باستمرار ، كان كلُ منا يذكر للآخر ما يفعله. لا ، وما يقال من أنه كتب ثلا ثمائة صفحة من قصة الطاغية قبل "مائة عام من العزلة " لا أصدقه. لا ،

لأنه فى تلك الفترة كان يكتب قصص سيناريو ، ويدير مجلات لكى يستطيع كسب قوته وأسرته. وبالإضافة إلى ذلك فإن جارثيا ماركيز كان قد قال فى تلك الفترة إنه لن يكتب لأنه سيتفرغ تمامًا للسينما. لقد قال ذلك عن اقتناع تام، وإن كان قد خُدع من السينما دون أن يعرف أنه سيُخدع ". إن تاكيدات ألبارو موتيس كانت تقصدها مُسبقًا تصريحات للجارثيا ماركيز نفسه فى نوفمبر ١٩٦٥ ، عندما كتب للويس هارس لإعطائه معلومات تكميلية عن قصة "مائة عام من العزلة " لكتابه " كتَّابنا: " إنى سعيد سعادة محمومة. فبعد خمس سنوات من العقم المطلق جاء هذا الكتاب الذى تم إعداده بسرعة كبيرة دون مشاكل من جانب الألفاظ ". وبعد أن كشف له أن قصة الطاغية ستكون بعنوان " خريف البطريرك " أشار عليه قائلاً : " لن تكون القصة كما كنت أعتقد كتاباً طويلاً؛ بل أطول بقليل من قصة " العقيد لايجد منْ يراسله " ولا أدرى لماذا لم يدر بخلدى هذا قبل الآن : قد ينبغى ذلك بسبب مفاجأة الطاغية لحظة المحاكمة من جانب المحكمة الشعبية. إننى أدون الملحوظات "(٣١).

وبالفعل فمنذ أوائل ١٩٥٨ حتى منتصف عام ١٩٦٥ استطاع جارثيا ماركيز فقط البحث عن مادة وجمع ملحوظات لقصته " الطاغية " ، فخلال تلك السنوات السبع لم يجد الوقت ولا الهدوء ولا المنظور الكافيين لكى يُقْدِمَ على كتابة عمل كبير مثل هذا فضلاً عن أن إلهامه كان هناك صولجانًا أدبيًا أكثر قِدَمًا ومن العيار الكبير : " المنزل " الذى ظل يجمع مادته ويدون ملحوظاته أثناء سبعة عشر عامًا ،وقد أخفق فيه عدة مرات كما فصل منه عدة أجزاء بمناهج وسُبُل مختلفة فى محاولات للاقتراب – فى مرات متلاحقة – من صلب الموضوع الأساسى .

وبما أنه كرَّس وقته لشروداته السينمائية ، وبما أنه تكيَّف مع خوان رولفو بتعمق كبير وتجاوز صدمته المكسيكية بفضل مجموعة ممتازة من الأصدقاء ، ووضع اقتصادى مستقر سرعان ما وجد الطريقة التى يكتب بها قصة "المنزل " وهو يقود سيارته الأوبيل البيضاء ترافقه أسرته من مدينة المكسيك صوب أكابولكو ، حيث تمكن من تحويلها إلى منزل صالح للسكن وذات ليلة فى منتصف عام ١٩٦٥ قام كل من ألبارو موتيس وخطيبته أنذاك كارمن ميراكلى بزيارة لأسرة جارثيا ماركيز فى منزلها بحى " سان أنخيل إن " ، قال الكاتب لصديق ما عنَّ له توًا : " أستاذى ؛ سأكتب قصة. وسأبدأ غدًا

ذلك هل تتذكر ذلك المجلد الضخم الذى لم أطلعك عليه أبدًا ، والذى سلمتك إيَّاه فى مطار تيتشو فى يناير ١٩٥٤ لكى تدخله فى شنطة السيَّارة ؟ ، إنه هذه القصة ولكنها بطريقة أخرى . وبالفعل بدأ فى اليوم التالى العمل فى "مائة عام قبل العزلة " بشكل حماسى وجنونى ، ولكن البداية كانت محفوفة بالصعوبات وعانت من التوقف خلال الشهور الأولى.

يوجد غموض أسطورى بشأن اللحظة التى بدأ فيها كتابة هذه القصة . ويقول ماريو بارجاس يوسا فى " قصة متمرد " بعد ذلك بستة أعوام بدأ ماركيز على وجه التحديد كتابة القصة فى يناير ١٩٦٥ ، ويشير جارثياماركيز إلى ذلك بعد سبعة عشر عامًا فى صباح أحد أيام شهر أكتوبر عام ١٩٦٥ " عندما جلس أمام الآلة الكاتبة كما هى عادته يوميًا ، ولكن فى تلك المرة لم أنهض إلا بعد ثمانية عشر شهرًا "[٣٢]. ومع ذلك فإنَّ بعض الأحداث والنوادر تشير إلى أن بداية هذا العمل الخالد لكاتب ماكوندو لم يبدأ مبكرًا كما أشار ماريو بارجاس يوسا ولا متأخرًا كما ذكر جارثيا ماركيز نفسه .

وأول حدث واضح هو لقاؤه مع كاتب المقالات والكاتب الشيلى - الأمريكى لويس هارس فى منتصف ذلك العام . ومنذ وقت مضى كان هارس يتجول فى القارة من الولايات المتحدة الامريكية حتى الأرجنتين ، حيث أجرى مقابلات كثيرة لكتابه الجديد بعنوان " كُتَّابُنا " مع تسعة كُتَّاب آخرين اعتبرهم رواد القصة فى أمريكا اللاتينية : خورخى لويس بورخيس وميخيل أنخيل أستورياس وأليخو كاربنتير وجواو جيمارايث روسا وخوان كارلوس أونيتى وخوليو كورتثار وخوان رولفو وكارلوس فوينتيس وماريو بارجاس يوسا. وعندما وصل إلى المكسيك ورأى فوينتيس قال له المكسيكى : ضع فى حسبانك جابرييل جارثيا ماركيز وهو كاتب كولومبى شاب ليس مشهورًا بالقدر الكافى ولكن إنتاجه شخصى وهائل ، فبالنسبة لكارلوس فوينتيس كان صديقه روائيًا كبيرًا يماثل أقرانه من الكتاب فى أمريكا اللاتينية ، إنه " أحد كتابنا " وعندما فُتِنَ هارس بقراءة أعماله الأربعة انتقل الكاتب الشيلى الأمريكى إلى باتثكوارو على بعد ثلاثمائة كيلو متر غرب المكسيك حيث وجد جارثياماركيز مع المخرج أرتورو رييستين يصوران فيلم" زمن الموت " فى الفترة من ٧ يونية الى ١٠ يولية من ذلك العام[٣٣].

وفى المقابلة التى تمت فى شهر يونية فى لوكاندة قديمة على ضفاف إحدى البحيرات قام جارثيا ماركيز لأول مرة على الملأ بسرد أدق التفاصيل عن حياته وإنتاجه الأدبى ، ولكنه لم يتحدث حتى ذلك الوقت عن مشروع قصته الكبرى ؛ فهو على الرغم من سروره وغبطته من كتبه السابقة كان يشعر بأنه فى حارة بلا مخرج يسوط نفسه بانتقاد ذاتى لا هوادة فيه ، وكما يعترف بذلك أنه لم يفكر حتى الآن فى " مائة عام من العزلة " ، وبما أننى تكلمت مع هارس عن هذه القصة وبعد ذلك بوقت طويل أخبرته فى رسالة أن القصة ستكون جاهزة فى مارس أو ابريل عام ١٩٦٧[٢٤]". وفى تلك الرسالة قدم لهارس مزيداً من التفاصيل عن مضمونها وعملية كتابتها بتاريخ نوفمبر ١٩٦٥ .

وهناك مؤشر زمنى آخر يقودنا إلى التاريخ التقريبى الذى بدأ فيه جارثيا ماركيز قصته المذكورة آنفًا ، وهو زيارة كارمن بالثيلس وزوجها لويس بالوماريس للكاتب الكولومبى فى الأيام الأولى من شهر يولية من ذلك العام. وجدير بالذكر أنَّ بالثيلس كانت مندوبته الرسمية منذ نوفمبر ١٩٦٢ . وقد عادت لتوها من الولايات المتحدة الأمريكية منتصرة بعد أن حصلت على عقد بألف دولار للكتب الأربعة السابقة لجارثيا ماركيز ، وفكرت فى أن هذه اللحظه المواتية للتعرف عليه شخصيًا. وعندما وصلت ذكرت له أنها حصلت على عقد له مع دار نشر هاربر أندرو ، إلا أن زهوها وانتصارها تلاشيا كقلعة من الرمال لأن الكاتب قال لها بصراحة وببساطة ماكان يفكر فيه : أنَّه عقد "تافه" وبالطبع لم يكن ينتقص من قدر أعماله الأدبية ، بل معبراً عن حالة عدم الحماية التى تتعرض لها حقوق المؤلف وعلى الرغم من احتفاء النقد الدولى به لم يكن يتمتع حتى ذلك الوقت باسم تجارى : فألف دولار مقابل أربع كتب ومن بينها أحد أعمالى الكاملة والجميلة التى صدرت باللغة الأسبانية وبالتالى فإن تعاقداً مثل هذا لن يعدو كونه عقداً شحيحًا ضنينًا .

وقد استقبل لويس بالوماريس وكارمن بالثيلس على مدى ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ من قبل أسرة جارثيا ماركيز بالمأدبات والحفلات والجولات الليلية بمدينة المكسيك. وكما هو معتاد وتقليدى مع المواطنين القطالونيين كان الحب والود كبيرين ، وإن كان هذان قد ظلاَّ حائرين فى البدية نظرًا للكبرياء والمكابرة اللذين يحير بهما الكاتب الذين يتعاملون معه لأوَّل مرة. ولكن خلف هذه المظاهر الخدَّاعة بدأ مندوباه يكتشفان بسرعة شخصًا

مناهضًا للمهابة وبعيداً عن الشكليات ، شخصًا مرحًا ومازحًا خطيراً ومضيفًا يقظًا وممتازًا. وفى النهاية وقَّع لهما عقداً آخر مُضحكًا بتاريخ ٧ يولية ١٩٦٥ ، حيث سمح لهما فى حضور لويس بيثينس بتمثيله كمندوبين أدبيين لكافة اللغات طوال مائة " وخمسين عامًا " ، وكما تذكر كارمن بالثيلس أن القصة التى ستحول هذا المزاح إلى واقع لم تبدأ كتابتها حتى تلك اللحظة : وسيبدأ ذلك فى الأيام التالية للتاريخ المذكور آنفًا .

إنَّ هذه الأحداث والتواريخ تسمح لنا بالتوصل إلى استنتاج بأنَّ " مائة عام من العزلة " لم يكن من الممكن أن يبدأ جارثياماركيز فى كتابتها فى يناير ١٩٦٥ ، كما أكد ماريو بارجاس يوسا بل من المحتمل فى منتصف يولية من ذلك العام بعد زيارة لويس بالوماريس وكارمن بالثيلس وفى أعقاب تصوير فيلم "زمن الموت ".

إنَّ البداية لايمكن أن تكون فى تاريخ متأخر جداً فى شهر أكتوبر كما ذكر الكاتب نفسه ، ويبدو من الثابت بالدليل أيضًا من واقع الأحداث التى حدثت ذات ليلة فى أول شهر سبتمبر من العام ذاته ، عندما أهدى جارثيا ماركيز القصة لما ريا لويسا إيليو .

لقد بدأ كل شيء فى ذلك المساء بقصر الفنون الجميلة حيث ألقى كارلوس فوينتيس محاضرة عن قصته الأخيرة " تغيير الجلد " ، وقد قام بتكريم أفضل أصدقائة على الملأ بتقديره لهؤلاء ومن بينهم جابرييل جارثيا ماركيز. "الذين تربطنى بهم شعائرنا ولقاءاتنا أيام الأحد هذا فضلاً عن إعجابى الخاص بشاعر أراكاتاكا الحماسى[٣٥] " ، وفى نهاية الدردشة دعا ألبارو موتيس إلى منزله عدداً من الأصدقاء : كارلوس فوينتيس وريتا ماثيدو وجابرييل جارثيا ماركيز وزوجته مرسيدس وخومى جارثيا أسكوت وماريا لويسا إيليو وإيلينا جارُّو وفرناندو بنيتيث وفرناندو ديل باسو ، حتى تم تشكيل مجموعة من عشرة أفراد أو من اثنى عشر فرداً وملهمًا بهذا الجو الخصب ، وبعد الخروج من قاعة الفنون الجميلة بدأ جارثيا ماركيز يحكى لهم حكايات بويندا فى الشارع والسيارة وعلى درجات السلم ، حتى وصلو إلى شقة ألبارو موتيس فى ريو أموى ، حيث تحوَّلت المحادثات والدردشات - كما يحدث فى مثل هذه الأحوال - إلى حفلة صغيرة . ومن بين المستمعين الى شاعر أركاتاكا الحماسى كانت الإسبانية ماريا لويسا إيليو التى نجحت فى أن يحكى لها فى ثلاث أو أربع ساعات أحداث القصة كاملة ، وعندما أشار

الكاتب إلى حكاية القسيس الذى يخدم المعبد خرجت مستمعتة عن فتنة وسحر السرد ، ووجهت له سؤالها الأول لانعدام المصداقية : ولكن هل يخدم المعبد حقيقة ياجابرييل؟ حينئذٍ قدم لها تفسيراً ينطوى على مزيد من الفانتازيا : ضعى فى حساباتك أنه لم يكن يتناول شايًا بل كاكاو على الطريقة الإسبانية ". وعندما وجد مستمعته خاضعة سألها ماركيز : هل أعجبتها القصة ؟. وقد ردت علية ماريا لويسا إيليو ببساطة : " إذا كنت قد كتبت ذلك فإنها ستكون جنونًا ، جنونًا هائلاً وعجيبًا " فرد عليها ماركيز قائلاً : " إنها لك ، إنها مُهداة إليك ، " إنَّ النادرة ليست عبثًا : تؤكد أنه فى أوائل سبتمبر من عام ١٩٦٥ كان جارثيا ماركيز قد قطع شوطًا كبيرًا فى كتابة مائة عام من العزلة(٣٦) ، مما يجعلنا نستبعد أن يكون قد بدأها فى أكتوبر أى فى الشهر التالى لهذا اللقاء.

ولذلك فمن السهل أن يكون جارثيا ماركيز قد بدأ كتابة قصته هذه فى منتصف شهر يولية عام ١٩٦٥ ، وأن الكتابة المستمرة والمتواصلة والمتفرقة لم تبدأ حتى أكتوبر عندما تغلب على الصعوبات الأولية ، وعندما تخلص من ارتباطاته التى قيدته بالسينما والدعاية ، مما يفسر التاريخ المعتم والغامض للأحداث ، ومع ذلك فإن الكاتب متشبث بشهر أكتوبر كتاريخ لبداية كتابة " مائة عام من العزلة ".

ومما لاشك فيه إن لقاءاته مع لويس هارس وكارمن بالثيلس ، إلى جانب العدوى وتشجيع كارلوس فوينتيس والإجهاد والإرهاق من ولعه بالسينما ، ومَلله كرجل دعاية وإعلان كانت كلها مُحَفِّزات هامة لكى يُقَرِر الجلوس ليكتب القصة التى ظلَّ يُعِدّ لها طوال سبعة عشر عامًا. وبات من الواضح أنَّ إدراجه فى " كُتَّابنا" إلى جانب الروائيين فى أمريكا اللاتينية كان بمثابة اعتماده على مستوى القارة ، فضلاً عن اعتباره بمثابة مقصورة للترويج لإنتاجه الأدبى (ولم يكن دربًا من العبث قيام جارثيا ماركيز بإعطاء معلومات موسعة إلى لويس هارس عن قصته التى لا تزال فى المهد فى نوفمبر١٩٦٥). فكتبه الأربعة المنشورة لم تكن فقط ترتقى لمرتبة كتب الروائيين الآخرين بل كان ماركيز قد بدأ الكتابة قبل كارلوس فوينتيس نفسه وكذلك ماريو بارجاس يوسا. ومع ذلك استمرت تعاسته المستوطنة: فقد ظلَّ بين هؤلاء الكُتاب أقلهم نشرًا وترجمة وشُهرة ، على الرغم من أن بعض كبار الناشرين المكسيكيين كانوا أصدقاءه ، ولكنهم لم يجرؤا على نشر كتبه لاعتباره كاتبًا للأقلية من القُرَّاء ، وكان هذا لا مناص منه. ولذلك فبغريزته

لاقتناص الفرص الحاسمة لكى يُقْدِمَ على الخطوة العملاقة وجدنا جارثيا ماركيز يغتنم فرصة إدراجه فى كتاب " كُتَّابنا" لكى يجلس ليكتب " مائة عام من العُزلة ".

ولم يكن اللقاء مع لويس هارس هائلاً فقط كحافز خارجي ، بل أيضًا لأن هارس هو الذى سيأخذ كتبه بنفسه ليقدمها إلى المدير الأدبى لدار نشر أمريكا الجنوبية فى بوينوس أيرس ؛ فرانثيسكو بورُوا وهو الشخص الأساسى الذى اعتمد عليه لنشر "مائة عام من العُزلة" ، وإلى جانب كارمن بالثيلس شارك هارس فى الترويج للكتب السابقة التى كان قد أعدَّها جارثيا ماركيز .

كما كانت زيارة المندوب القطالونى بمثابة حافز آخر على درب الإقدام على الخطوة العملاقة التى كان الكاتب يرغب فيها ، وليس ذلك فقط لأنَّ جارثيا ماركيز استطاع إثبات سِماته وخِصاله الإنسانية والمهنية (نفس الخِصال والسِمات التى تقصُّوا بشأنها فى برشلونة عندما سألوا عنه لويس بيثينس وبيثينتى روخو) ، بل أيضًا لأن نبأ العقد المشار إليه آنفًا ذى الألف دولار كان بمثابة تأكيد لإحباطه ويأسه الباعث على الأمل: فعلى الرغم من النقد الممتاز ، فإن كتبه السابقة لم تستطع المنافسة وتجد رواجًا كبيرًا وعلى وجه الخصوص " العقيد لا يجد منْ يُراسله"، ولكى يكون كاتبًا ذا رواج كبير ، وهذا ما كان يتوق ويبحث عنه لم يكن كافيًا أنْ يكون كاتبًا كبيرًا وأن أصدقاءه يحبونه حُبًا جمًا ، بل كان يفتقر إلى شىء أكبر من ذلك أو شىء آخر ، وعليه هو أن يحققه الآن وإلى الأبد بكتابة قصته العظيمة عن ماكوندو.

ومن المحتمل كما يقول ألفونسو فوينمايور أن يكون الكاتب فى تلك الأيَّام قد قام برحلاته إلى بارَّانكيا بغية جمع معلومات تكميلية لاستعادة رائحة الجوافة ، وقضاء عدة أيام مع أهله وأصدقائه. ومع ذلك وضد ما كان ينويه فى البداية هو قضاء شهر هناك ، فإنه بعد مرور أسبوع غيَّر رأيه وفكرته وعاد إلى المكسيك. وعندما ذكَّرَه ألفونسو فوينمايور بأنَّ هذا خلافًا لما كان قد وعد به فى البداية قال له جارثيا ماركيز : إنه رأى الليلة البارحة (قصة المنزل فى غاية الوضوح) ، لذلك يتعين عليه العودة إلى المكسيك وأنه فى وضع يسمح له الآن بإملاء القصة كلمة كلمة على ناسخة الآلة الكاتبة. وفى الباخرة التى أقلته من قرطاجنة إلى بيراكروث اتضحت له القصة كاملة ، ولكنه عندما

وصل إلى المكسيك كانت المشكلة الأساسية لا تزال قائمةً: النغمة. وكان ذلك عندما بدأ الكاتب وأسرته السفر إلى أكابولكو وهو شبه مذهول. وخلال هذه الرحلة اتضح له الأمر تمامًا وهو يقود سيارته الأوبيل البيضاء ؛ وهو كيفية كتابة قصته البعيدة – النهر[٢٧] ؛ نفس القصة التى كان قد شرع فى كتابتها على أوراق الصُحُف فى قرطاجنة الهندية فى منتصف عام ١٩٤٨ . ونظرًا لأنه كان يحتاج إلى نغمة مقنعة تمامًا تجعل عالم ماكوندو غير المتجانس قابلاً للتصديق . وقد أدرك توًا أن حل المشكلة كان فى أصل " مائة عام من العُزلة " ، وأنه ينبغى أنّ تُروى بنفس " الوجه الصارم" الذى كانت جدته ترانكلينا إجواران كوتيس تحكى له به وهو طفلُ قصص وحكايات الفانتازيا ، وكانت الصورة التى تذكّر أنّه رأى عليها عمته فرانثيسكا ثيمودوسيا ميخيا وهى تصدر أوامرها وتعليماتها لمجموعة من الأطفال لكى يشعلوا نارًا فى فناء منزل أراكاتاكا لإحراق " البيضة المشوهة". وبالطبع كان أيضًا نفس " الوجه الصارم" الذى ملأ به خوان رولفو مقاطعة كومالا بالأشباح والأرواح التى تذهب وتجئ. وفى خطٍ موازٍ لحل مشكلة النغمة رأى الكاتب إلى أين ينبغى عليه الوصول منذ أن كتب قصته الأولى: ليس فقط إلى المنزل الذى وُلِدَ فيه بل إلى اللحظات المفقودة عندما اصطحبه جَدُّه إلى السيرك والسينما والقدّاس أو للنزهة. وفى الواقع كان يحاول الوصول إلى أبعد من هذا وحل مشكلة النغمة التى تُحَلُّ بصورة طبيعية وتلقائية فى رواياته السابقة.

إنَّ محاولة الاعتكاف للشروع فى أطول رحلة له فشلت بعد أيام قليلة من الشروع فى المحاولة ، بسبب ارتباطاته التى لا فكاك منها مع السينما والدعاية والإعلان. وكانت هذه الارتباطات بمثابة أكبر عائق على هذا الدرب فَرْمَلَ حماسه الخلاّق ، وقد أُصيبَ الكاتب طوال بضعة أسابيع بصداعٍ شديدٍ فى رأسه لأنّ جسده وروحه كانا مشغولين تمامًا من جانب القصة. حينئذٍ ابتعد عن الحياة الاجتماعية وعن الجماعات الأدبية والسينمائية ، وتحدَّث مع رؤسائه ، وتخلص من الأعمال التى لم تكن تسد الرمق ؛ تلك الأعمال التى وصفها تهكمًا بأنها أعمال غذائية. ويتذكّر ذلك إيميليو جارثيا رييرا كاتب قصة سيناريو " لا يوجد لصوص فى هذه القرية" أنه اضطر أن يحل محله فى والتر ثومسون ، وعندما ودَّعَهم أخبرهم بأنهم سيرونه قليلاً ، وأنه سيحبس نفسه ليكتب قصة وسيتفرغ لذلك تمامًا[٢٨]. وقد تحدَّث جارثيا ماركيز مع ألبارو موتيس لكى يساعده إلى

جانب القليل من المدخرات التى كانت لديه ومبلغًا تركه له صديقه استطاع أن يجمع خمسة آلاف دولار أعطاها لزوجته مرسيدس ، وتوسَّل إليها أنَّ تتكفل بكل شيء ، وألا تزعجه بأى شيء خلال ستة أشهر على الأقل سيحبس نفسه ليكتب القصة. وفى الواقع استمرت هذه المدة أربعة عشر شهراً.

وفى "حى سان أنخيل إن "حيث كان قد استأجر شقة قبل ذلك ببضعة شهور كانت هذه الشقة هى الخلوة الهادئة المناسبة التى كان يحتاج إليها. وجديرٌ بالذكر أنَّ أبناء الطبقة المتوسطة والتُجَّار والكتاب والصحفيين كانوا يتوجهون إلى هذا الحى كملاذ للراحة وطلبًا لنقاء الجو والهواء ، فقد كان الحى بين أشجار الصنوبر والحور والدرداء والتين وزهر العسل. وكان حيًا سكنيًا ذا هندسة معمارية غير متجانسة وشوارع مرصوفة بالأحجار والزلط ، ومن خلال هذا الحى كان سكانه يستطيعون مشاهدة البراكين الطيفية والجبال ذات اللون الأرجوانى ، لأنَّ العاصمة التى بلغ تعدادها سبعة ملايين نسمة لم تعد " منطقة نقية الهواء" ، وبالنسبة لأسرة جارثيا ماركيز فإنَّ "حى سان أنخيل إن " أصبح مجاوراً لكارلوس فوينتيس فى شارع ثيًّرادا جاليانا رقم ١٦ وخومى جارثيا أسكوت وماريا لويسا إيليو فى شارع كارباتوس رقم ١٤ ، فقد كانوا يعيشون على مقربة من أسرة جارثيا ماركيز فى شارع لوما رقم ١٩ قريبًا من الأرياف.

كان المنزل يتكوَّن من طابقين وأسقف مستوية ، ونوافذ كبيرة حيث كان نصف ضوء النهار يتسلل إلى داخل المنزل. وحقيقة لقد كان المنزل كبيراً بالنسبة لأسرة جارثيا ماركيز وإمكانياتها المادية ولكنه كان مناسبًا لكى يتفادى كراهيته للحبسة والأماكن المغلقة ، وكانت هذه عقدة فطرية لدى الكاتب ، كما كان المنزل أفضل خلوة هادئة يتوق إليها الكاتب. وفى آخر حجرة الجلوس أعدَّ جارثيا ماركيز غرفة مكتبه بوضع حائط خشبى: " كهف المافيا". لقد كانت مكانًا ضيقًا ولكنه جيد التهوية والإضاءة ، فطولها ثلاثة أمتار وعرضها متران ونصف المتر، كما كانت مزودة بحمَّام صغير وباب ونافذة تُطلُّ على الفناء وكان بها ديوان وأرفف عليها كثير من الكتب ومنضدة خشبية عليها آلة كاتبة ماركة أوليبتى. وقد علَّق على هذه الأرفف لوحة تافهة كانت مثار المزاح والنكات من جانب الأصدقاء: جنية ماء سميكة أشبه بثدى كبير يضطجع على وسائد ، بينماكان إلها الحب السمينان مصنوعين من نفس الخامة ، وعلى عنقهما إكليلان من الزهور وردية

اللون. وفوق الديوان وضع لوحة زيتية أقل تكلُّفًا من الأخرى ، ولكنها كانت مُفعمَةً بالسذاجة : كانت عبارة عن طفلين يجمعان الزهور على حافة هوةٍ فى حراسة ملاك عن كثب ، بينما الكاتب يرتدى أفروله الأزرق كميكانيكى كان يجلس بجوار مدفأة كهربائية وهو يناضل ضد ملاك الشر فى ماكوندو.

أمّا باقى المنزل فكان مملكة مرسيدس: منزلٌ كبير من طابقين به قليل من الأثاث وفناء صغير فى ظلال أشجار الدرداء وحديقة مكسوة بالعُشب أمام الجراج حيث كان يلعب رودريجو وجونثالو كلَّ مساءٍ بعْد عودتهما من المدرسة. وبالتحديد أسهمت مواعيد مدرسة الطفلين فى تغيير جدول مواعيد الكاتب فإلى عهدٍ قريب كان جارثيا ماركيز لا يزال كاتبًا ليليًا (فى الواقع كان خلال ساعات فراغه من الأعمال الغذائية : العمل فى المجلتين والسينما والدعاية والإعلان ، لم يكن يكتب بل كان يقوم بتمرينات الجمباز لتنمية عضلاته)(٣٩) ، نظرًا للقصور الذاتى الذى كان يعانى منه منذ ممارسته للصحافة حتى أشارت عليه الحياة بأن ساعات الصباح هى بمثابة الجزيرة المهجورة وهى المُثلى للكتابة. وبهذا الشكل ، أى أنه بعد أن يترك نجليه فى مدرسة ويليام بالقرب من منطقة لاس أجيلاس كان جارثيا ماركيز يحبس نفسه فى غرفته التى أطلق عليها كهف المافيا فى تمام الساعة الثامنة والنصف صباحًا ، وكان يكتب خلال هذه الفترة دون انقطاع حتى الثانية والنصف ظهرًا عندما يحين موعد مجئ نجليه لتناول طعام الغداء.

وكان عمرُ رودريجو وجونثالو فى تلك الآونة سبعة وأربعة أعوام على التوالى. ويتذكران كيف أن والدهما كان يحبس نفسه فى غرفته الصغيرة فى نهاية الصالون وأنه بعد الغداء كان ينام القيلولة قليلاً ، ثم يتنزه وقتًا قصيرًا فى الحى ، ثم يعود مرةً أخرى إلى الحبسة حتى الساعة الثامنة والنصف مساءً حيث كان الأصدقاء يتوافدون بصفة دائمة ومنهم ألبارو موتيس وكارمن ميراكلى وخومى جارثيا أسكوت وماريا لويسا إيليو. وخلال أربعة عشر شهْرًا كانت أسرتا الصديقين شهودًا متميزين لإعداد وكتابة وتطور الألف قصة وقصة لبوينديا والمصير المرعب لماكوندو.

وعلى عكس وجهة نظر ولديه كان جارثيا ماركيز يشعر خلال شهور محبسه بأنه الرجل الأكثر إنسانية واجتماعية فى العالم ، بل كان الأكثر سعادة لأنه على الرغم من

الصعوبات الاقتصادية للشهور الأخيرة حيث كانت مرسيدس تدير المنزل على نمط عمته أورسلينا بصرامة وخبرة وحكمة وحنكة ، فإنَّ الكاتب لم يكن فقط يلتقى يوميًا مع أسرة بويندیا وأناس كثيرين من ماكوندو بل كان أيضًا يعتقد أنه يخترع الأدب: هكذا كانت تنساب الكلمات والقصص التى تتدفق من خياله. ولكنه لم يعش دائمًا فى إعداد كتابه كعيد من أعياد الخصوبة. لقد تذكَّرَ البداية - على سبيل المثال - بأنَّها كانت صعبة وشاقة للغاية. وعندما استطاع فى النهار أن يخط العبارة الأولى : " بعد سنوات طويلة وأمام كتيبة الإعدام كان على العقيد أوريليانو بويندیا أن يتذكَّر ذلك المساء البعيد عندما اصطحبه والده لكى يعرف الجليد على الطبيعة " ، وتساءل خائفًا " عجبًا ما الذى سيأتى بعد ذلك " ، وحتى العثور على السفينة فى قلب الغابة (فى نهاية الفصل الأوَّل) لم يصدق حقيقة أن هذا الكتاب بوسعه الوصول إلى أى مكان. ولكن اعتبارًا من تلك اللحظة بدأ التحمس المسلى للغاية(٤٠) ، وبالطبع كان ينبغى أن يكون مسليًا حتى بالنسبة لجارثيا ماركيز لأنه يكتب بهذا اللطف وتلك الإنسيابية غير المعهودين من قبل فى اللغة الإسبانية وهو يرى ميليكياديس وهو يجرُ مغنطيساته ويصيح قائلاً : إنَّ الجمادات لها حياتها الخاصة والأمر فقط يتعلق بإيقاظها ، فالروح على سبيل المثال ، كما نرى خوسيه أركاديو بويندیا وهو يتعجب من السحر غير المحدود للغجرى أو نرى القسيس نيكانور رينا وهو يهذى بعد أن تناول فنجانًا من الكاكاو ، أو نرى خوسيه أركاديو بويندیا وهو يحاول إعادة تركيب آلة الذاكرة لكى يسجل بكل دهشة جميع الاختراعات أولاً وحتى لا يتعرض لوباء النسيان فى وقتٍ لاحقٍ ، أو عندما نرى الحسناء ريميديوس وهى تصعد إلى السماء بجسدها وروحها فى ملاءة من خيوط الدوبارة أو من القُنَّب كانت لفرناندا ديل كاربيو عبر الحديقة متعددة الألوان التى تمتع بها الكاتب فى منزل جدِّيه.

ولم يكن كل شيء تسلية بالنسبة لعالم الكاتب نفسه ، فأخطر لحظات حياته التى عانى منها أيضًا فى كهف المافيا . فموت العقيد أوريليانو بويندیا على سبيل المثال يقارن فقط بذلك المساء الحزين والمشئوم خلال شهر يناير عام ١٩٤٣ بعد وصوله بقليل إلى بوجوتا وهو لا يزال فى السادسة عشرة من عمره عندما اضطر للبكاء فى شارع خيمينيث دى كيسادا أمام مبنى المحافظة ، أو ذلك اليوم فى أكتوبر ١٩٧٢ عندما بكى بكاءً مرًّا فى برشلونة لوفاة صديقه ألبارو ثيبيدا ساموديو أشهر وأعظم أعضاء " جماعة

مازحي الكهف". وأثناء التطور الطبيعي للقصة فإنَّ العقيد أوريليانو بويندیا أصبح عجوزًا بعد أن أعدَّ وجهَّزَ وخسر اثنتين وثلاثين حربًا ، وبعد أن أنجب سبعة عشر ابنًا من سيدات مختلفات ، وبعد أن بقى على قيد الحياة من كتيبة الإعدام ، وبعد أن ظلَّ حيًا عَقِبَ محاولة انتحار ، وبعد تناول جرعة كبيرة من الاستركنين كافية لقتل حصان. عندما وقع فى الدائرة المفرَّغة لوحدته وعزلته وهو يصنع حُليًا من الذهب على شكل أسماك صغيرة لكى يصهرها ويُعيدُ صناعتها من جديد، أدرك جارثيا ماركيز أنه فى الواقع كان يؤجل إحدى اللحظات المتناهية الصعوبة فى حياته بأسرها ألا وهى موت العقيد أوريليانو بويندیا. وبما أنه كان دائمًا توَّاقًا لكتابة رواية تصف بدقة بالغة لحظة بلحظة يومًا فى حياة شخص حتى يموت (ربما بسبب عدوى أوليس والسيدة مالويى) ، حاول أن يعطيه هذا الحل الأدبى لموت شخصيته ، ولكنه أدرك فى الحال بأن الكتاب سيتحول إلى شىء آخر تمامًا. حينئذٍ اختار شيئًا آخر أكثر بساطة: أن يموت العقيد وهو يتبول فى ظل شجرة القسطل (أبوفروة). وفى الواقع كان هذا هو الموت المكتوب على العقيد لأنَّ جارثيا ماركيز كان يعلم على مدى سنوات طويلة أن عسكريًا عجوزًا شَهِدَ الحرب الأهلية فى كولومبيا قضى نحبه وهو يتبول تحت شجرة. حينئذٍ وفى صباح مطير من شهر أكتوبر (وهو الشهر الذى يعتبره جارثيا ماركيز فى قصصه شهرًا قاسيًا) لقى العقيد أوريليانو بويندیا حتفه وهو يفكر فى السيرك ، وبينما كان يتبوَّل ظلَّ يفكر فى السيرك ولكنه لم يجد الذكرى. وضع رأسه بين كتفيه مثل كتكوت صغير ، وظلت جبهته مستندة إلى جذع شجرة القسطل" ، وفى ذلك المساء صعد جارثيا ماركيز إلى غرفة النوم فى الطابق الثانى من المنزل حيث تنام مرسيدس القيلولة وأبلغها بوفاة العقيد ونام بجوارها وظلَّ يبكى ساعتين كاملتين[٤١]. وبعد ذلك بقليل عندما ذهب إلى منزل خومى جارثيا أسكوت وماريا لويسا إيليو وصل إليهما ومحيَّاه أزرق اللون ضارب إلى السواد وعبوس وقد سألاه عما حدث له فقال لهما: لقد قتلت توًا العقيد أوريليانو بويندیا[٤٢]. ولم يكن سهلاً ميسورًا له وفاة أرسولا إجواران ، أو هروب سانتا صوفيا دى لا بيداد(صوفيا قديسة الرحمة أو الشفقة) بلا جدوى بعد أن ظلَّت تقدِّم خدماتها على مدى نصف قرن دون شكوى واحدة فى منزل أسرة بويندیا ، أو اللحظة التى كان مدفوعًا فيها بالخراب والدمار المحموم لماكوندو. لقد ودَّع العالم القطالونى أصدقاءه وعاد

إلى قريته مسقط رأسه لاردة . ومن هذه القرية كان الذهول والذعر يستحوذان عليه بسبب اشتياقين متقابلين كمرآتين." كان يرسل لهم خطابات يشرح لهم واقع الأحداث بوضوح وشفافية وطلب منهم: الذهاب إلى ماكوندو وأن ينسوا ما علمهم إيَّاه عن العالم والقلب الإنساني ، وأن يسبوا أوراثيو ، وأن يتذكروا في أي مكان يتواجدون فيه أن الماضي كان كذبًا ، وأنَّ الذاكرة ليست لها دروب للعودة ، وأنَّ كل ربيع ماض لا يمكن استرجاعه ، وأنَّ الحبَّ الأحمق والعنيد كان على أية حال حقيقة فانية سريعة الزوال.

ومع ذلك فإنَّ لحظة الحيرة الكبيرة التي عاني منها جارثيا ماركيز كانت عندما أوشكت القصة على النهاية. فبعد شهور كثيرة من التعايش مع القصة ليلاً ونهاراً ومع شخصياتها الخيالية ، وذات يوم في منتصف عام ١٩٦٦ أحس الكاتب أن قصة ماكوندو وأسرة بويندیا قاربت النهاية بصورة طبيعية ، وأنَّ ذلك سيكون يوم العمل الأخير ، ولكن الأمور تسارعت فجأة في تمام الحادية عشرة صباحًا. وبما أن مرسيدس لم تكن بالمنزل ولم يجد أحدًا من أصدقائه وشركائه على الهاتف لكي يحكي له شيئًا. فقد كان يحاول اختراع شيء لكي يستطيع البقاء حتى الساعة الثالثة مساءً[٤٣] ، واعترف بعد عام لاحق بأنه بعد كتابة " مائة عام من العُزلة " أحس بالفراغ وكأنَّ أصدقاءه وافتهم المنية "[٤٤].

هكذا كانت حالة الاستحواذ المطلق التي كانت ماكوندو وشخصياتها تمارسها على جارثيا ماركيز. وإذا لم يكن الأمر بسبب العوز والفقر خلال الشهور الأخيرة ، فإنَّ حالة الجنون هذه كانت ستستمر حتى مارس ١٩٦٧ (كما سبق أن أبلغ الكاتب ذلك للويس هارس في رسالته المؤرخة في نوفمبر ١٩٦٥) ، حيث اضطر لحذف جيلين من أسرة بويندیا وإغفال بعض الشخصيات ، وحذف عدة أحداث لأنه كان قد تأخر في سداد قيمة الايجار لصاحب المنزل طيلة ستة أشهر وعدة أشهر للقصاب (الجزار) وببساطة شديدة كان الكاتب قد رهن كل شيء[٤٥].

وبنفس الهدوء والتلقائية التي استطاعت فيه مرسيدس إدارة منزلها بحكمة بالغة أثناء فترات الرخاء والوفرة الاقتصادية ، استطاعت أيضًا أن تُدير شهور النُدرة والعوز والفقر عام ١٩٦٦ (إنَّ تلك الفترة يمكن مقارنتها فقط بما عاني منه الكاتب أثناء وجوده في باريس عام ١٩٥٦ ، ومن العجيب أنَّ ذلك قد حدث له وهو يكتب رائعته

الأخرى "العقيد لا يجد منْ يُراسله" فعندما سلَّمها زوجها الخمسة آلاف دولار فى منتصف العام السابق (١٩٦٥) دبَّرت مرسيدس أمرها لكى تستطيع هذه النقود تمويل المنزل لمدة ستة أشهر خلالها سيكتب القصة كما وعدها بذلك ، ولكنها عندما وجدت أن النقود قد نَفدت وهو لايزال فى منتصف القصة ، وقال لها : لا يوجد حل آخر يمكننا الإقدام عليه ، وأخذ سيارته الأوبيل البيضاء التى كان قد اشتراها بالجائزة التى حصل عليها عن قصته "الساعةالمشئومة" ، ورهنها فى بنك الرهون وأخذ مقابل ذلك مبلغًا من المال[٤٦]. وفى الواقع إنَّ نقود رهن السيارة لم تكف سوى ثلاثة أو أربعة أشهر فقط. وكانت مرسيدس تعلم جيداً أنه على الرغم من أنَّ السبب كان قهريًا ، فإنه لا ينبغى عليها أنْ تزعج زوجها لتذكره بواجباته كلما أوشكت النقود على النفاد. ولذلك بدأت ترهن بعض حُليها وجواهرها والتلفاز والمذياع حتى لم يبق لديها سوى " آخر ثلاثة مواقع عسكرية" السيشوار (مجفف ومصفف الشعر) ، والخلاط الذى كانت تجهز به الطعام لطفليها ، والمدفأة التى كانت تساعد زوجها أثناء الكتابة أثناء الأيام الباردة صباحًا ومساءً بالمدينة ، وذلك "لأنَّ مدينة المكسيك أشبه بالثلاجة بداخلها مدفأة ". وبينما كانت تسد ثغرات الحياة المعيشية يوميًا برهن هذا وذاك (وذلك دون أن ينقص الزوج الخمسمائة ورقة اللازمة للكتابةمن ورق الصُحُف ، وقد استطاعت بدماثة خلقها أن يقوم قصَّاب الحى السيد/ فيليبى بتزويدهم باللحم حتى يتيسر لها السداد ، كما أن صاحب المنزل لويس كودريير وافق أيضًا على أن يستمرا فى مسكنهما حتى ييسر الله لهما ويسددا قيمة الإيجار. ولم يكن ذلك إلا إسهامًا منهما فى أن يكتب جارثيا ماركيز رائعته القصصية. وبعد ذلك بثلاثين عامًا تقريبًا سيظل صاحب المنزل لويس كودريير سعيداً لحُسن صنيعه، وكان دائمًا يتذكر أنَّ أسرة جارثيا ماركيز كانت تسدد قيمة الإيجار فى الأيام المحددة دون أدنى تأخير أو تسويف[٤٧].

وعلى الرغم من هذا فإنَّ الأصدقاء نفوا ذلك أو لم يعيروه اهتمامًا مشيرين إلى التفافهم حول صديقهم كى يساعدوه وأسرته فى وقت عسره. وقد تحمل كل من ألبارو موتيس وكارمن ميراكلى وماريا لويسا إيليو وخومى جارثيا أسكوت المسئولية دون تبرم أو ضجر لسببين: أولاً بسبب الصداقة ، وثانيًا من أجل الأدب. ومما يثير الإعجاب فعلاً أنَّ ما فعلوه لم يكن تضامنًا أخويا فقط بل كان ذلك يتم فى سرِّية تامة وبخجل وحياءٍ

جم ، فلم يتحدثوا عن ذلك قط. كما لم يفخروا أو يزهوا بمساعداتهم التى لم تتأخر خلال شهور الشدة عندما كان جارثيا ماركيز يكتب " مائة عام من العزلة "، وإذا كانت هذه المواقف النبيلة قد عُرِفت فيما بعد، فقد كان ذلك بسبب الاعترافات المتفرقة لجارثيا ماركيز أو بسبب خيانة أصدقاء ومقربين آخرين(٤٨). وإذا تحدث الأصدقاء المقربون عن شيء لم يكن ذلك لإبراز حُسن صنيعهم وشهامتهم ، بل كان لسرد بعض النوادر التى عاشوها أو عرفوها كشهود عيان لكتابة القصة.

وكانت الأسرتان الصديقتان تأتيان إلى رقم ١٩ شارع لا لوما حوالى الساعة الثامنة مساءً ، أحيانًا قبل أن ينتهى الكاتب من واجبات اليوم التالى (ففى المساء كان معتادًا على توثيق أوراقه وترتيب ملحوظاته وإعداد خطة العمل لليوم التالى) ، ولذلك كانت الأسرتان تنتظران حتى يُفتح باب كهف المافيا ، فموتيس الذى لم يكن معتادًا على المبالغة يذكر أن صديقه "كان يخرج وكأنه انتهى من مباراة ملاكمة من اثنتى عشرة جولة : لقد كان ذلك شيئًا فظيعًا" ، وبعد أن يأوى رودريجو وجونثالو إلى فراشهما كان الأصدقاء الستة يتسامرون حتى الساعة الحادية عشرة أو الثانية عشرة ليلاً وهم يتناولون الكئوس من قنينة ويسكى. وكانت الدردشات دائمًا تدور حول القصة ، فقد كانت بمثابة الابنة المنتظرة المدللة من الجميع ، كما تناول الحديث موضوعات أخرى: الموسيقى والسينما والأصدقاء والحياة اليومية ("أى موضوعات الحياة اليومية يومًا بعد يومٍ"). وأثناء الدردشة كان القصاص يطلق بعض الأسئلة تتعلق بكم الموضوعات التى لا حصر لها لما يدور فى القصة من أحداث اعتبارًا من الجنس بين الجمبرى أو برغوث البحر ، وعادات بعض الحشرات ، حتى الطرق والوسائل المتعددة لقتل الصراصير فى العصر الوسيط ، وعادات بعض الشخصيات التاريخية. وكان هذا أمرًا طبيعيًا: فكل الأصدقاء يعرفون شغفه بالتوثيق ، ولقد رأوا أسبوعًا تلو الآخر نصوصًا لا حصر لها فى الكيمياء وروايات البحارة ووصفات إعداد الوجبات الغذائية ، وكتبًا فى الطب المنزلى ، وأخبارًا عن الأوبئة فى العصور الوسطى ، وكتبًا فى السموم وأدويتها وأنباء عن بلاد الهنود الحمر ، ودراسات عن مرض الأسقربوط والبرى برى والبلاجرا ، وكتبًا عن الحروب الأهلية الكولومبية والأسلحة النارية القديمة ؛ هذا فضلاً عن الخمسة والعشرين جزءًا التى تتألف منها الموسوعة البريطانية ، ومعاجم اللغة المتنوعة كل هذا كان يتراكم على مكتب جارثيا ماركيز.

إنَّ هذه اللقاءات اليومية الليلية الحميمة كانت بمثابة شراكة شاملة ، وقد أصبحت اجتماعات مفتوحة أيَّام الأحد مساء فى منزل ماريا لويسا إيليو وخومى جارثيا أسكوت ، حيث كان يحضرها كل من ألبارو موتيس وكارمن براكلى فضلاً عن أسرة جارثيا ماركيز مع نجليهما وأصدقاء آخرين مثل كارلوس فوينتيس وريتا ماثيدو (قبل انتقالهم إلى باريس) ، وألبارو بيثينتى روخو وإيميليو جارثيا ريبرا وخوسيه لا كولينا وأرتورو ريبستين ولويس الكوريثا . وفى الواقع كانت هذه هى اللحظة الوحيدة الأسبوعية التى كان ساكن كهف المافيا يخرج فيها أولاده للتنزه قليلاً ، فضلاً عن رؤية أصدقاء آخرين، وذلك لأنَّ نجليه كانا أثناء كل مساء فى الشهور الأخيرة قد اعتادا على الذهاب إلى منزل أسرة جارثيا إيليو عقب خروجهما من المدرسة لكى يلعبا مع دييجو نجل هذه الأسرة.

وعلى عكس هؤلاء والناقد إيمانويل كاربايو الذين كانوا قُراءه اليوميين لقصة " مائة عام من العُزلة" وقد رفض ألبارو موتيس منذ البداية الاطلاع على القصة فى أجزاء فقد كان يريد القصة بأكملها ، ولكن على أية حال كان يعيش ويتعايش معها يوميًا من خلال ما يذكره ويعلق عليه الأصدقاء الآخرون وجارثيا ماركيز نفسه. ويقول الكاتب : "إنَّ ألبارو موتيس كان يسمع الفصول بعد الانتهاء منها تمامًا وبحماس شديد ، لدرجة أنه كان يكرر ذلك فى كل مكان بعد تصحيحها وتنقيحها وإضافة ما يراه مناسبًا. وقد كان أصدقاء موتيس يحكون ذلك لجارثيا ماركيز كما حكاه لهم صديقه ألبارو ، وكثيرًا ما استحوذت على كل إضافاته"(٤٩). فبالنسبة لألبارو موتيس مُبدع ماكرول الجابيرو فإنَّ هذه الكلمات ما هى إلا كرم وسخاء من جانب جابو ، وبعد سنوات طويلة علِمَ جيدًا ما هى الأماكن التى وطأها القصَّاص ، لدرجة أنه لم يكن معتادًا التحدث كثيرًا عما كان يحكيه له أثناء كتابته "لمائة عام من العُزلة". ولكنه كان يعترف ، فكما حيرت حكاية القسيس الذى كان يتناول الكاكاو وهو يعظ مريديه ماريا لويسا إيليو : ذات ليلة وصل هو وكارمن إلى حى سان أنخيل إن حيث خرج جارثيا ماركيز وقال له : لقد كتبت مَشْهدًا لقسيس يتناول الكاكاو وهو يعظ مريديه ، حينئذْ قال ألبارو موتيس : " ياللهول! إنَّ هذا الرجل أفسدَ القصة فلايمكن أن يتناول قسيس الكاكاو وهو يُقيمُ القُدَّاس ! وخلاصة الأمر أنَّ جابو ليس قصاصًا شفهيًا مُجيدًا لقصصه ، فهو يوجز بشكلٍ كبير ، ودون أن يدرى يفعل

ذلك بصورة مضحكة ساخرة. وبالتالى يُحَوِّل قصته إلى كاريكاتير دون أن يدرك ذلك ، ولكن عندما أكمل القصة وأعطاها إيَّاى ذُهِلْتُ : لقد رأيت فى هذا الكتاب بسهولة كبيرة الكتاب، أعني: الكتاب العظيم عن أمريكا اللاتينية".

وعلى العكس من ذلك فإنَّ أسرة جارثيا إيليو قرأت القصة على أجزاء وهى ساخنة ، وكانت على علم بكل دقائقها وأسرارها يومًا بيوم وهى على الآلة الكاتبة ، وخاصة ماريا لويسا إيليو لأنها منذ أن حكى لها جارثيا ماركيز تلك الحكاية بأكملها ذات ليلة فى أوائل شهر سبتمبر ١٩٦٥ فى شقة موتيس أصبحت مدمنة للكاتب الكولومبى لا تشبع من القراءة له ، ولذلك فإنَّ رواية ماكوندو جعلتها مستمعة لها ، وفى نفس الوقت شريكة رئيسية للكاتب. فكان أحيانًا يتصل بها هاتفيًا ويقرأ عليها الذى كتبه ، وأحيانًا أخرى كان يسألها عن كيفية زى أمارانتا أورسولا فى كافة المناسبات، وعندما كان ينتهى من كتابة فصل كان يعطيها نسخة منه لكى تقرأه مع زوجها خومى جارثيا أسكوت ، ولذلك فكلاهما دخل حالة حماس واشتياق متزايدين وفريدين لمعرفة ماذا سيحدث فى الفصل التالى. لقد كانا كما يقول خوسيه دى لاكولينا هما اللذين سردا الأحداث الممتازة بالقصة بالتدريج. وفى الحقيقة لم يستطيعا إجادة سرد الأحداث للأصدقاء ، ومع ذلك فقد اعترفا بأنهما كانا متفاعلين مع القصة الرائعة. لقد كان شيئًا أشبه بالوعظ فى القُدَّاس ، " وكانا يرددان دائمًا : " إنَّ جابو يكتب " موبى ديك " أمريكا اللاتينية".

وكان الناقد إيمانويل كاربايو هو القارئ الآخر المبهور من الفصل الأوَّل حتى الأخير على مدى اثنى عشر شهرًا أو أربعة عشر شهرًا هى التى استغرقتها كتابة القصة. وجديرٌ بالذكر أنَّ كاربايو كان يُدير مع كارلوس فوينتيس "المجلة المكسيكية للأدب" ، وكان أحد النُقاد البارزين فى المكسيك ومن أكبر جراحى الأدب المكسيكى لحقبة السبعينات. كان متزوجًا من نيوس إيسبرياتى الشريكة المؤسسة لدار النشر الصغيرة المعروفة باسم إيرا وهى الناشرة لجارثيا ماركيز ، والتى كانت تنتظر القصة انتظار الخبز فى الإفطار. وبالتالى فإنَّ إيمانويل كاربايو كانت تربطه صداقة وقورة مع القصاص ، وكان يعرف قصصه السابقة اعتبارًا من " الورقة الساقطة" ، وبالتالى فإنَّ تقييمه للقصة التى كانت تُكتب آنذاك كان عاملاً مؤيدًا ومعضدًا كثيرًا لما حظى بإعجاب القصاص. ومع

ذلك فإنَّ السبب الرئيسى لقراءته القصة جزءًا جزءًا يرجع إلى أنَّ الجامعة الوطنية المستقلة بالمكسيك كانت تنوى إصدار اسطوانة بصوت الكاتب وهو يقرأ أجزاء من القصة فى سلسلة الصوت الحى لأمريكا اللاتينية ، وكان إيمانويل كاربايو المكلف بإعداد المقدمة التى كانت بمثابة التجربة أو البروفة الأولى " لمائة عام من العُزلة" والتنبؤ الصائب بما ستكون عليه القصة فى المستقبل(٥٠) .

وبالطبع كانا يلتقيان أيام السبت فى المساء. وكان جارثيا ماركيز حينما ينتهى من فصل يُسَلِّمُهُ لكاربايو الذى كأنه يلتهمه التهامًا ويقدمه مع تعليقاته الشخصية عليه يوم السبت التالى. ويقول كاربايو نفسه كانت الفصول كاملة بلا نقص لأنَّه كان يتسلمها بعد تنقيحها وتصحيحها ، ومنذ الوهلة الأولى كان يقول له إنه أمام " تُحفة روائية رائعة". لقد وجد نفسه دائمًا أمام قصة هائلة ، وكان يقرأُها " بشغفٍ كبير ولذة لا تُقارن" ، ومنذ ذلك الحين وهو يعتقد أنها ستكون أعظم قصص جارثيا ماركيز وإحدى أفضل الروايات باللغة الإسبانية خلال النصف الثانى من القرن العشرين. ولذلك فإنَّ دردشاتنا عما كان يقرأه تركزت على الجو العام والشخصيات وأحداث القصص. ولكن لم يؤثر أى من تعليقاتى فى القصة ذاتها.

لقد كان حماس كاربايو يُصيبُ زوجته نيوس إيسبريساتى بالعدوى فصلاً بعد آخر ، وكذلك بيثينتى روخو وأصحاب دار نشر إيرا. وقد سبَّبَ ذلك إزعاجًا لجارثيا ماركيز حيث اضطر إلى إخبار أصدقائه والناشرين المكسيكيين الذين كانوا متحمسين وينتظرون القصة بفارغ الصبر بأنَّ القصة لن تكون لهم بل لدار نشر أمريكا الجنوبية فى بوينوس أيرس. وبعد أن انتهى جارثيا ماركيز من كتابة القصة شرح لهم وجهة نظره قائلاً : " إنَّ النشر فى الدار المذكورة كان أملاً يراوده منذ زمن طويل ، بل إنَّ دار نشر أمريكا الجنوبية كانت كريمة سخية معه حيث طلبت منه أن تنشر له أعماله السابقة ، وأرسلت له عقدًا وخمسمائة دولار مقدمًا لنشر" مائة عام من العزلة " ، وأوضح لهم أن دار النشر إيرا صغيرةٌ ومحدودةٌ ، وأنه كان يرغب دخول السوق الكبير لكى تتم ترجمتها ، والترجمة أحد أحلامه الكبار ودوافعه التى جعلته يأتى إلى المكسيك للمُقام فيها ، والاستقرار بها منذ خمس سنوات مضت. وعلى الرغم من الحزن والألم الذى أحس به هؤلاء ، فإنهم أفضل منْ فَهِمَ تبريراته ودوافعه لعلمه تمامًا بظروفه الاقتصادية

والعُسر الذى يعانى منه كان الرسَّامُ ومصمم الرسومات بيثينتى روخو الذى أعدَّ غلاف الطبعة الأرجنتينية. ولكن التى تألمت وأسفت لذلك أسفًا كبيرًا كانت نيوس إيسبريساتى.

وقبل بضعة أشهر من الانتهاء من كتابة " مائة عام من العُزلة" كان جارثيا ماركيز قد تلقَّى الرسالة الأولى من دار نشر أمريكا الجنوبية الأرجنتينية ، وقَبِلَ ذلك العرض وكأنه قدر من الأقدار مثل شىء جاء بلا توقع لكى يضع تطلعاته القديمة فى مكانها وموضعها الصحيح. إنه الظهور الذى سيحدد أعمال جارثيا ماركيز قبل وبعد " مائة عام من العُزلة " ، أى بمثابة الحد الفاصل والعلامة المميزة فى حياة المؤلف. ولم يكن الأمر أقل من ذلك . فقد شجع دار النشر لويس بورخيس وأصدقاؤه فى دار نشر سور فى أوائل حقبة الأربعينيات ، لقد كانت سود أمريكا أحدى دور النشر الأسطورية فى أمريكا اللاتينية ، فهى تضارع سور ولوسادا ومؤسسة الثقافة الاقتصادية التى ملأت القارة بالكتب الممتازة التى أسهم كثير منها فى التكوين الأدبى لجارثيا ماركيز . وعند الانفصال عن دار نشر سور واصلت الدار مسيرتها تحت إدارة القطالونى أنطونيو لوبيث ياوساس ، وفى عام ١٩٥٨دخل فرانثيسكو بورُّوا كقارئ ومؤسس دار نشر مينوتاورو لكى يُصبح بعد ذلك مديره الأدبى. وقد كان هذا من أهم وأبرز الأحداث فى مسيرة سود أمريكا حيث أنَّ باكو أو " القارئ المجهول" كما كانوا يطلقون عليه فى دار النشر كان قارئًا لا يشبع ؛ قارئًا ذا عين طبية لا تُضارع ومروجًا ومتعهدًا وراعيًا للكُتَّاب الأرجنتينيين والأمريكيين اللاتينيين الجُدد ، وقد راهن منذ البداية على كُتَّاب مثل: خوان كارلوس أونيثى وخوليو كورتثار وليوبولدو ماريتشال. ولهذا لايبدو فجائيًا أن يُقدِّم فى أواخر ١٩٦٥ أمام بورُّوا الكاتب الشيلى الشاب - الأمريكى - لويس هارس بالنُّسخة الأصلية لكتاب "كُتَّابنا" ، وهو كتاب يتألف من عدة مقالات صحفية بشكل ذاتى للتطرق إلى أعمال عشرة روائيين كان يعتبرهم من أبرز الكُتَّاب فى الأدب الأمريكى اللاتينى الجديد. ومن بين هؤلاء جارثيا ماركيز الذى لم يسمع عنه بورُّوا شيئًا. وقد شرح لويس هارس له منْ هو جارثيا ماركيز وأين يعيش ، وأعاره الكتب الأربعة التى نُشرت للكاتب الكولومبى من قبل. وبمجرد أنَّ قرأها الناشر كتب رسالة لمؤلفها أخبره فيها بأن كتبه نالت إعجابه تمامًا ، ويود إعادة نشرها فى سود أمريكا: هذه الرسالة هى التى وضعت التَّطلعات القديمة لجارثيا ماركيز ؛ الكاتب الكولومبى فى موضعها .

وقد ردَّ عليه جارثيا ماركيز بأنه سعيد لهذا العرض ، ولكن كتبه مرتبطةٌ مع ناشرين هم إلى جانب ذلك أصدقاؤه (" العقيد لا يجد منْ يُراسله" ، و "الساعة المشئومة" كانتا فى دار نشر إيرا ، و" جنازة الأم الكبيرة" كانت فى دار نشر جامعة بيراكروث . أمّا " الورقة الساقطة" فقد أُعِيدَ نشرها فى مونتفيديو بدار نشر أركا السفينة). حينئذٍ عرض القصة التى كان على وشك الانتهاء من كتابتها ؛ إنها قصة كما قال له : علّقَ عليها كثيرًا من الآمال"[٥١] ، وطلب الناشرُ منه أجزاءً من القصة فأرسل له المؤلف الفصول الأربعة الأولى . وبما أن الناشر عَرِفَ كتبه السابقة ، فقد اكتفى بورُوا بقراءة بعض الصفحات من الفصل الأوَّل لكى يأخذ فكرة وليتأكد مثل كارلوس فوينتيس وألبارو موتيس وكاربايو وأسرة جارثيا - إيليو أنه " أمام عمل رائع" ، وبعد ذلك بقليل أرسل له العقد وخمسمائة دولار أمريكى مقدمًا. بينما كانت كارمن بالثيلس تسعى جاهدة بما لها من خبرة كبيرة مدتها عشر سنوات بسبب صراعاته مع دور النشر ، وكانت تعرف كيف تتحرك جيدًا فى المضمار البدائى للحصول على ما يُسمَّى بحقوق المؤلف. وكانت تحاول جاهدة عَبْرَ محادثات هاتفية مباشرة مع مواطن أراكاتاكا أنطونيو لوبيث ياوساس مدير وأكبر مساهم فى دار نشر سود أمريكا للحصول على عربون أكبر وتعاقد أفضل . ولكن جارثيا ماركيز أصابه التوتر خشية أن تضيع منه هذه الفرصة وألا تُطبع رواياته فى دار نشر أحلامه ، وأبلغ مندويته قائلاً : " لا تتناقشوا بشأن خمسمائة دولار فإنَّ كل ما أتوق إليه هو أنْ ينشروا لي ، وأنْ ينشروا لى حالاً". وهكذا - وبدون مزيدٍ من التسويف أو التأخير - وَقَّعَ فى ١٠ سبتمبر١٩٦٦ العقد الذى كان قد أرسله له باكو بورُوا. وقد نصَّ العقد على حصول جارثيا ماركيز على نسبة عشرة فى المائة من جملة المبيعات ، وقد نصَّ أيضًا على حصوله على عربون قدره خمسمائة دولار أمريكى.

إنَّ العقد والتاريخ تبريران جيدان أطاحا بأسطورة كارلوس بارَّال الذى رفض " مائة عام من العُزلة ". وطبقًا لما ذكره الناشر القطالونى لقد أرسل له الكاتب فى لحظة ما برقية اقترح عليه فيها قراءة القصة - وفى هذا يقول بارَّال : " لقد وصلت لى البرقية عندما كنت عازمًا على السفر، ولا أدرى هل كانت إجازة أو سفر عمل ، ولكن

الأمر يكمن فى أننى كنت بصدد سفر وشيك، ولذلك ، ولسبب لم أجد له تبريراً على الإطلاق لم أرد على البرقية فى الوقت المناسب مما جعل جابو يشعر كثيراً بالإهانة واستغنى فيما بعد عن قراءتى للقصة ، وتعاقد فوراً مع دار نشر سُودْ أمريكا . ولكننى لم أرَ قط مخطوط " مائة عام من العُزلة" وما يتردد عن أننى رأيت مخطوط أو أصل القصة ولم أستطع تقديره جيداً ما هو إلا زيف وبُهتان(٥٢). وقد أكدً جارثيا ماركيز بعد ذلك بأنً هذا كان زيفًا ، وأن القصة شَقَّت طريقها بنفسها دون أن يستطيع كارلوس بارًال نفسه الانتقاص من قدرها أو التقليل من شأنها(٥٣).

وحقيقى أن أحد قُرًائه وهو الشاعر جابرييل فيرًاتير كان قد قرأ القصة بأكملها أو جزءًا منها ، ولكن فى وقت سابق وبالصدفة ، وبعد شهر من التعاقد مع سُود أمريكا تلَّقت كارمن بالثيلس فى مكتبها ببرشلونة بشارع أورجال نسخة من القصة بهدف بذل المساعى لترجمتها إلى لغات أخرى. وقد وصل إعجاب المندوبة إلى سمع فيرًاتير بفضل خطيبته ؛ وهى فتاة أمريكية كانت تعمل فى وكالة بالثيلس ، وقد طلبت من المندوبة القصة لكى تسلمها إلى خطيبها. وكان رد فيرًاتير فورياً : وقال لبالثيلس إذا تقدمت القصة لجائزة المكتبة المختصرة لدار نشر سيكس – بارًال ستفوز بالجائزة بكل تأكيد. وقد استشارت المندوبة جارثيا ماركيز فى هذا الأمر ، ولكنه رفض العرض ليس فقط بسبب التعاقُد الذى وقًعه مع دار النشر الأرجنتينية ، بل أيضًا لأنه لم يرد أنْ تُنشر قصته تحت عنوان أى جائزة ، كما أنه لم يرد التقدم مسبقًا إلى لعبة الجوائز اللذيذة على الرغم من أنً (المكتبة المختصرة) كانت أشهر جائزة فى مضمار اللغة الأسبانية.

ولكن رفض الكاتب كان له ما يبرره بشكل مسبق وعميق ، وهو تأكده من أنه كتب عملاً رائعًا ، قصة مثل دون كيشوت ستضع فاصلاً فى تاريخ الرواية فى اللغة القشتالية. ومع ذلك وعلى الرغم من الثقة الكاملة لمرسيدس بارتشا فى نبوغ زوجها فإنها لم تكن مقتنعة عندما ذهبا إلى مكتب البريد لإرسال المخطوط إلى دار النشر فى بوينوس أيرس. فبعد عدة أشهر من قيامها ببيع ورهن كل ما لديها تقريباً كانت هذه اللحظة بمثابة انتشال لغريقين يتشبثان بالبقاء على قيد الحياة. لم ينس جارثيا ماركيز صورة مرسيدس وهى تبحث عن البيزو المكسيكى عندما أخبرها موظف البريد بأن الطرد سيتكلف اثنين وثمانين بيزو. وبما أنهما لم يكن لديهما أكثر من خمسين بيزو

قاما بتقسيم الخمسائة وتسعين صفحة إلى نصفين وأرسلا الفصول العشرة الأولى. وتوجها بعد ذلك إلى المنزل ، وأخذا " المواقع العسكرية الثلاثة الأخيرة" مجفف ومصفف الشعر ومدفأته والخلاط ، وذهبا إلى بنك الرهون ورهنوها بخمسين بيزو. وعندما خرجا من مكتب البريد القديم يملؤهما الأمل ويحيط بهما اليأس خوفًا من عدم وصول الطرد كانا سعيدين وقانعين لأنهما تركا المولود الضخم يشق طريقه بنفسه بعد أن كان كابوسًا يخيم على صدريهما ، ولذلك فإنَّ مرسيدس التى لم تكن قد قرأت الرواية حتى ذلك الوقت (لأنها لم تكن معتادة على قراءة المخطوطات) قالت لزوجها : " ياجابو تصوَّر بعد كل ما فعلنا لو طلعت هذه القصة سيئة"(٥٤).

وعلى الرغم من أنها كانت قد اعترفت قبل ذلك ببضعة أشهر بأنَّ كتابة الكتب "عملٌ انتحارى" ، فإنَّ زوجها لم يحدث أن كان أكثر ثقة وثباتًا وتأكدًا من عمله كما هو عليه الآن فى هذا الكتاب، فقد كان مقتنعًا فى قرارة نفسه بأنه ما لبث أن سلَّم " تحفته الرائعة " ، كما كان قد أكد ذلك لزوجته عندما كانا يحلقان فى الجو عقب زواجهما فى طريقهما من بارَّانكيا إلى كاراكاس أنه سيكتب رائعة أعماله وهو فى الأربعين من عمره. ولم يكن يعرف ذلك بنفسه ومن أصدقائه الذين كانوا قد قرأوها ؛ استناداً إلى الشائعة التى بدأت تنمو حول القصة فى القارة بأكملها ، وذلك من خلال التعليقات الصحفية ، ومن خلال الأجزاء التى عُرِفت من القصة مُسبقًا. وقد كان الصوت الأكيد والواثق والمتمرس والأكثر حماسة هو صوت كارلوس فوينتيس الذى تسلَّم الفصول الثلاثة الأولى من " مائة عام من العُزلة" فى يونية عام ١٩٦٦ وهو فى باريس ، وكتب على الفور فى أواخر ذلك الشهر نفسه لملحق "الثقافة فى المكسيك" فى باب " دائمًا"(٥٥) تعليقًا مُفعمًا بالمدح والثناء والإطراء على قصة صديقه ؛ تلك القصة التى كان ينتظرها منذ أن كانا يضطجعان سويًا على العُشب فى حديقة منزله بحى سان أنخيل إن بالمكسيك. وقد شجعه فوينتيس على كتابتها منتهزًا ومستغلاً العمل الغذائى بالسينما (العمل مقابل سد الرَّمق). وعلى الفور قدَّم فوينتيس هذه الصفحات الخمس والسبعين الأولى إلى خوليو كورتثار ؛ الذى قرأها بحماس مشابه لحماس فوينتيس ، ثم قدَّم الفصل الثانى للناقد الأوروجوانى أمير رودريجيث مونيجال لكى ينشره فى العدد الأوَّل من أغسطس لمجلته (العالم الجديد). ومع ذلك فإنَّ الأسبقية كانت على يد

أصدقائه فى صحيفة الاسبكتادور(المشاهد) فى بوجوتا فى أوَّل مايو كعرفان بحُسن صنيع لصحفى الجريدة القديم الذى قدَّم لهم شخصيًا الفصل الأوَّل فى مارس عندما حضر فى بوجوتا افتتاح فيلم " زمن الموت". وبعد ذلك جاءت عرابين أخرى من مجلة أمارو فى ليما خلال شهر يناير ١٩٦٧ ومن مجلة إيكو (الصدى) فى بوجوتا أثناء شهر فبراير من نفس العام(٥٦) .

وبالتالى ؛ فقد وصلت لجارثيا ماركيز مؤشرات كافية بدءًا من التى قام بها أصدقاؤه فى بارًانكيا لكى يتأكد لأقصى درجة من قصته. ولكن ما لم يتأكد منه هو : هل وصل المخطوط إلى بوينوس أيرس أم لا، لأنَّه على الرغم من أنَّ بريد ماكوندو كان بريدًا جويًا ، فقد كان يبدو بطيئًا وكأنه يتم إرساله على بغلة. ولقد استغلَّ المساعى الحميدة لصديقه ألبارو موتيس لكى يتأكد من أنَّ الأصل وصل إلى المرسل إليه. وكان الشاعر دى كويو يعمل مندوبًا منذ عام لأمريكا اللاتينية لفوكس القرن العشرين متنقلاً من مكانٍ إلى آخر، وفى سفر لبوينوس أيرس فى منتصف أكتوبر١٩٦٦ طلب منه جارثيا ماركيز أن يأخذ معه القصة خشية أن تكون قد ضاعت فى الطائرة . وعندما وصل أجرى اتصالاً هاتفيًا مع باكو بورُّا وقال له: " لقد أحضرت لك أصل" مائة عام من العُزلة" ، وقال لى : اسكت لقد تسلمتها وهى رائعة وعبقرية ولا أدرى ما رأيك" ، فقلت له : أنا لا أعرف القصة ، وأنه قادم إلى فندق بلاثا" وصل إلى الفندق وقال لى : اسمع ألا تدرى أنها قصةٌ رائعةٌ ؟ إنه كاتب كلاسيكى إنها عملٌ كامل وهائل ، وقد اقترح عليه فيما بعد الحديث لتقديمها للسينما مثل بعض الروايات ، ولكننى لم أوافقه على ذلك ، ولم أعتقد أنه كان على صواب. ولكننا تحدثنا بإسهاب عن الكتاب ، واتفقنا سويًا على أن القصة ستكون ساحقة.

لقد كان لقاؤه مع ألبارو موتيس هو المؤشر النهائى للناشر الذى أحس بكفاية الأدلة على عظمة القصة من جانب منْ يعرف جيدًا حياة جارثيا ماركيز وإنتاجه ، وقد أصاب تحمس باكو بورُّا جميع الأفراد العاملين فى دار نشر أمريكا الجنوبية ، وكذلك أصدقاءه من النقاد وصحافة بوينوس أيرس. وقد كانت هذه درجة استحقاقه العظيمة كناشر لقصة " مائة عام من العُزلة " : وهو استطاعته خلق الترقب والقدرة على الإعجاب والتأثير الملائمين ، كما حدث فى رواية الحجلة لخوليو كورتثار ، وكتب أخرى خالدة – لترى الرواية الضوء فى ٣٠ مايو١٩٦٧ وسط ترقب شديد من جماهير غفيرة.

وتقريبًا ستصل إلى الجماهير الغفيرة اعتبارًا من زيارة المؤلف لبوينوس أيرس بعد ذلك بعشرين يومًا عندما حضر تقديم وترويج كتابه ، وكذلك لحضور مسابقة القصة كعضو فى لجنة التحكيم ، وكانت المسابقة باسم (الصفحة الأولى فى أمريكا الجنوبية).

ونظرًا لتحمس باكو بوروا فى تحقيق عملية تقديم وترويج هائلتين ، فإنَّه غرس الحماس فى صديقه توماس إيلوى مارتينيث رئيس تحرير مجلة (الصفحة الأولى) ، فقد اقترح أن يتم إعداد تحقيق صحفى خاص عن المؤلف على أن يكون الغلاف بالألوان وهذا امتياز استثنائى من جانب المجلة الأرجنتينية الأولى لكاتب بارز ، ولكنه لم يكن معروفًا بالقدر الكافى حتى تلك اللحظة. لذلك أرسلت المجلة سكرتير تحريرها إلى المكسيك إيرنستو شتو الذى عاد فى أوائل يونية بتحقيق صحفى موسع حكى فيه كيف كان جارثيا ماركيز يعيش ويكتب " مائة عام من العُزلة" ، ومنْ هى أسرته ، وأين وكيف نشأ ، وما هى مسيرته الأدبية والصحفية، ومنْ هم أصدقاؤه ، وما هى مشروعاته الفورية. وقد لاحظ الصحفى أن جارثيا ماركيز رجلٌ تغمره السعادة ، ظريفٌ وصاحب نكتة لا مثيل له ، عريض الابتسامة ، يتبادل الابتسامات والعناق مع كثير من مواطنى مدينة المكسيك من أصدقائه ومعارفه خلال عامين من الإقامة بها. ومنذ أن انتهى من كتابة القصة فى سبتمبر من العام الماضى كان قد استعاد حياة الشارع ؛ يتنفس هواءً جديدًا ومجددًا . لقد كان مدركًا تمام الإدراك أنه قادم على بداية مرحلة أسطورية من مملكته ، ولكن لم يكن بوسعه الشك فى الحماس الكبير لبوينوس أيرس.

وكان من المفروض أن التحقيق الصحفى وغلاف مجلة " الصفحة الأولى " الذى يحمل صورة جارثيا ماركيز سوف ينزلان إلى الشارع قُبيل مُنتصف يونية عندما كانت " مائة عام من العُزلة " قد طُرحت فى المكتبات منذ أسبوع. ولكن فى تلك الأيام اندلعت حرب الأيام الستة بين مصر واسرائيل فاستبدل الوجه الغربى لجارثيا ماركيز فى آخر لحظة بوجه القرصان الصهيونى موشيه ديَّان ، ومن ثم تأجل نشرهما إلى الأسبوع التالى حيث توافق النشر مع قدوم الكاتب إلى بوينوس أيرس فى ٢٠ يونية[٥٧].

ومما هو مُدهش أن التحقيق الصحفى والغلاف كانا بمثابة الطبق الرئيسى على المائدة لتقديم القصة والترويج لها ، ولكن عندما نُشِرَا وخرجا إلى الشارع كانت قد نفدت الثمانى آلاف نسخة من الطبعة الأولى[٥٨] ، فى غضون خمسة عشر يومًا. فبالطبع

كان الترقب هائلاً منذ البداية ، فقد أثارت دار نشر أمريكا الجنوبية التعبئة فى كافة وسائل الإعلام فى بوينوس أيرس ، كما أنَّ الكاتب كان قد قدم أجزاءً من قصته منذ عام فى صُحُف ومجلات مهمة بالقارة.

إنَّ مثل هذا النجاح الباهر لدار النشر بهذا الشكل الفورى والقاطع أدهش الجميع. فقد طرح الناشرون فى البداية فكرة طبع خمسة آلاف نسخة ، ولكنهم عند مراجعة التجارب وإدراكهم للاهتمام والحماس الفريد داخل دار النشر وخارجها قرروا أن تكون الطبعة الأولى ثمانية آلاف نسخة. وعندما علم جارثيا ماركيز بذلك كتب لهم وهو قلق للغاية قائلاً: إنهم قد يخاطرون بهذا الكم الهائل ، وقد لا تُحقق القصة مبيعات كثيرة وسيتبقى لديهم معظم نسخ الطبعة الأولى ولكنهم ردُّوا عليه وقالوا له : لا، إنَّ القصة ممتازة ، وإنهم متأكدون من أنها ستُباع فى الفترة من يونية إلى ديسمبر(٥٩). والحقيقة أنهم كانوا يُعدون لطبعة ثانية بعد خمسة عشر يومًا من عشرة آلاف نسخة مما أدى إلى نفاد الورق بدار النشر ، ودون حصص طباعة لتغطية الطلب المتزايد نظراً لنهم القراءة للقارة بأسرها. وهكذا ففى غضون شهرين كانت هناك مفارقة كبيرة وهى أنَّ الحديث كان يدور عن " مائة عام من العُزلة " فى جميع أنحاء أمريكا اللاتينية، ولكن الناس لم يستطيعوا اقتناءها لعدم وجودها بالمكتبات. وعندما صدرت الطبعة الثالثة فى سبتمبر كانت بمثابة فرصة ذهبية وفرت الرخاء الكامل للكاتب ، لأن المكسيك طلبت عشرين ألف نسخة وكولومبيا عشرة آلاف نسخة وبقية الدول عشرة آلاف نسخة أو خمسة آلاف أو ثلاثة آلاف نسخة. وهكذا بدأ الصنبور أو النافورة الأمازونية باللغة الأسبانية. ففى غضون السنوات الثلاث الأولى بيعت ستمائة ألف نسخة ، وخلال ثمانى سنوات مليونا نسخة ، ونفس هذا الرقم بيع فى الأرجنتين وحدها خلال خمسة وعشرين عامًا. وبلاشك فإنَّ هذه الأرقام تقريبية حيث إنه كما هو معروف جيداً ليس كل الناشرين يعلنون دائمًا عن طبعاتهم الحقيقية نعنى ؛ عدد نسخها ، ومن ناحية أخرى فمن المستحيل تحديد الكم الهائل الذى أصدره الناشرون القراصنة.

ولم يتم فقط تأجيل الطبعة الثالثة حتى سبتمبر ، كما كان قد تم تأجيل الغلاف الدعائى والترويجى لمجلة الصفحة الأولى ، بل أيضًا صدرت الطبعة الأولى فى تاريخ متأخر لأنَّ التأجيلات والتسويفات كما رأينا طوال إعداد القصة وكتابتها كانت ظاهرة

ملازمة لمصير هذه القصة. وهكذا فعلى الرغم من أن الطبعة الأولى كان من المتوقع أن تصدر كحد أقصى قبل ٣٠ مايو ، فإنَّ الغلاف الأصلى لم يصل فى موعده من المكسيك واضطرت دار نشر سود أمريكانا إلى ارتجال غلاف آخر حتى لا يتم تأخير صدور الكتاب أكثر من ذلك.

وكان الرسَّام بيثينتى روخو الناشر المشارك وصديق جارثيا ماركيز قد صمم الغلاف بناءً على طلب المؤلف. وعندما غاص فى القصة يبحث عن مبررات للغلاف ظلَّ مذهولاً :فلم يستطع اختيار شخصيات لكثرة الشخصيات بها ، كما لم يستطع الاسترشاد بالموضوعات لأنَّه ضلَّ الطريق بين موضوعاتها المتنوعة والمتعددة. ويتذكر بيثينتى روخو أنه اختار حينذاك ما هو شعبى ، أى العناصر الموجودة فى الخيال الشعبى وهى ليست عناصر محددة من القصة ، لأنها لم تكن تُوضح شيئًا معينًا " ، وفوق خلفية بيضاء أعدَّ الرسَّام لوحة شبكية لونها أزرق تتألف من موضوعات وعناصر فلكلورية باللون الأسود والأحمر البرتقالى: قلوبٌ دامية وآلهة الحب (كيوبيد) النشطة وشياطين يرقصون وأهلَّة وملائكةُ مذهولون ونجومٌ ذابلة وشموس باسمة وأسماك صغيرة طائرة وقُبعات ترمزُ للجمهورية وأجراس وتوريق زخرفى ورموز للموت. فهو لم يلتقط العُمق والرسالة الشعبية للقصة ، بل اقترب أيضًا دون أن ينوى ذلك من التصميم الأوَّل لماكوندو الذى كان شعبيًا فى منطقة زراعات الموز خلال العقدين الأولين من القرن العشرين.

وقد رسم بيثينتى روخو اسم المؤلف والقصة بحروف كبيرة كى يتم عمله على أكمل وجه ، وكانت الحروف أشبه بما يستخدم فى صناديق التغليف وفى المحلات الريفية، وفى آخر لحظة عَنَّ له إضافة حرف E مقلوبًا من كلمة الغربة بالأسبانية لكى يكون له تورية ذات مدلول شعبى. ولم يكن الرسَّام المكسيكى يتخيل أنَّ شقاوة وبراعة عبقريتة الشخصية ستكون أساسًا للنظريات الأكثر تباينًا واختلافًا فى النقد الدولى ، وحتى لبعض النوادر الطريفة والمضحكة مثل تلك المتعلقة بصاحب المكتبة فى جواياكيل ، الذى لم يتوان فى الاتصال بدار نشر سود أمريكانا وطلب منها راجيًا الكف عن إرسال نسخ معيبة له حتى لا يزعج زبائنه من المشترين والقُراء واضطر إلى مسح ورسم الحرف المقلوب أو المعكوس الموجود فى عنوان القصة يدويًا.

إنَّ غلاف روخو الذى غزا القارة بأكثر من مليون نسخة جعله يكتسب شعبية كبيرة مثل القصة ذاتها متجاوزة كافة الحدود المتعلقة بالكتب ، وأصبحت صورة للهوية الثقافية ومع ذلك فإنَّ شهرة الطبعة الأولى كانت من نصيب الغلاف المزيف الذى ارتجلوه فى دار نشر سود أمريكانا ، عندما تأكدوا من أنَّ الغلاف الأصلى لن يصل. وقد قام مصممُ مجهول بإضافة سفينة على غلاف الطبعة الأولى " لمائة عام من العُزلة" وكانت السفينة موجودة فى قلب الغابة فوق خلفية زرقاء رمادية مقترنة بثلاث زهور غريبة برتقالية اللون تتفتح أسفل السفينة. وبعد ذلك بثلاثين عامًا حقق تُجار المخطوطات ثراءًا كبيرًا بما تبقى على قيد الحياة من هذه الطبعة الرئيسية التى بلغت ثمانية آلاف نسخة حيث باعوها بمئات الدولارات.

إنَّ حوافز الشُهرة الأدبية لم يكن بوسع المؤلف ذاته أن يتشكك فيها عندما نزل من الطائرة مع مرسيدس فى مطار إيزيزا يوم ٢٠يونية ١٩٦٧م ، كما لم يستطع الارتياب فى أنَّ صدور قصته ووجوده فى بوينوس أيرس سيتم وسط احتفاء منقطع النظير من جانب جماهير غفيرة. واستناداً لما يقوله باكو بورُوا: " خضعت المدينة بأسرها فوراً لفتنة القصة وسحرها ، وشرعت فى قراءتها". ولكن طبقًا لما يقوله توماس إيلدى مارتيثنيث كانت هناك مرحلة انتقالية لبضعة أيام من التوجس قبل أنْ ينطلق الجنون المحموم ، واضطر الناشرون إلى تغيير إقامة الكاتب من فندق إلى آخر ، ووضعوا تحت تصرفه سكرتيرة لكى تنتقى له المكالمات الهاتفية(٦٠).

وكان صنَّاع نجاح " مائة عام من العُزلة" قد ذهبوا إلى المطار لاستقبال مؤلفها فى تمام الساعة الثالثة صباحًا. وفى تلك الساعة وبعد سفر طويل للغاية كانوا يتوقعون أن يروا رجلاً قد غلبه النوم وتملَّكه الإرهاق وتمكن منه التعب ، ولكنهم رأوا شخصًا ينزل من الطائرة كالريح المرسلة يريد التوجه فوراً إلى المروج الخضراء لكى يشهد بزوغ الصبح البنفسجى اللون إلى جوار شوَّاية للحم. وقد استطاع مضيفوه إثناءه عن هذا الجنون واصطحبوه إلى أحد المطاعم التى افتُتحت حديثًا فى شارع مونتيفيديو. وقد رأوه إلى جانب مرسيدس بسترته ذات الألوان الكاريبية ، وسرواله المجسد الضيق على غِرار طراز بيترو كريسبى ، وأسنانه القوية المتراصة ، وحديثه المفعم بالحكمة وبروده وجرأته المعهودين فى شخصه. وقد بدأ باكو بوراً وتوماس إيلوى مارتينيث يعتقدان أن

مواطن أراكاتاكا الجوَّال هو الذى كتب هذه الرائعة الروائية التى جذبت انتباه ثمانية آلاف قارئ أرجنتينى.

ومع ذلك فخلال الأيام الثلاثة الأولى - فيما يبدو - لم ينتبه أحد لوجوده فى بوينوس أيرس وإن كان جارثيا ماركيز سَرعان ما سار إلى جانب غلاف مجلة بريميرا بلانا (مجلة الصفحة الأولى) التى ضاعفت من صورتها كأنها متاهة من مرايا خورخى لويس بورخيس فى الأكشاك والمكتبات. وذات صباح وهو يتناول طعام الإفطار فى مقهى سانتا فيه سويتشابا شعر جارثيا ماركيز ومرسيدس بالشعبية الجارفة: سيدة تخرج من السوق وتحمل كيساً كبيراً تركت نسخة من " مائة عام من العُزلة" مرئية بين الطماطم والخس[٦١]. وكان ذلك بالنسبة للكاتب بمثابة بادرة مشجعة للغاية لأنَّ القصة التى خرجت من داخل أعماق الجوف الشعبى كانت مقبولة منذ البداية كشىء خاص بالعالم الشعبى. فالكتابُ - بالفعل - قُوبِلَ بالحفاوة ليس كقصة بل على أنه مِثْلُ الحياة ".

وفى نفس تلك الليلة حضر جارثيا ماركيز وزوجته العرض الأوَّل لمسرحية فى مسرح معهد دى تيا. واستناداً لما يقوله توماس إيلوى مارتينث: تقدَّم هو ومرسيدس إلى الصالة حائرين وسط الفراءات وقُبعات الريش البرَّاقة. لقد كانت الصالة مظلمة ، ولكن لا ندرى لماذا تتبع مصباحٌ خطواتهما عندما صاح شخص مجهول قائلاً: برافو ! وبدأ فى التصفيق. وقد تبعته سيدة قائلة : هذا بسبب قصته. حينئذٍ ؛ وقف جميع الحاضرين بالصالة. وفى تلك اللحظة شاهدت بنفسى أن الشُهرة تنزل من السماء ملفوفة فى ملاءات براقة تتطاير وترفرف مثل ريميديوس الحسناء ، وقد حطَّت فوق جارثيا ماركيز رياح حصينة من الضوء ضد أضرار السنين[٦٢].

وبالنسبة للكاتب نفسه فإنَّ الحصار الجماهيرى كان قد بدأ فى أحد الاجتماعات العامة الكثيرة خلال تلك الأيام فى بوينوس أيرس ، التى كانت تعيش كأنها فى عيد من الأعياد. وخلال أوقات أو ساعات الفراغ عندما كان يشارك فى هيئة تحكيم مسابقة القصة التى أعدتها (مجلة الصفحة الأولى الأمريكية الجنوبية) مع كل من رُوا باستوس وليو بولدو ماريتشال. وكان جارثيا ماركيز يقضى ساعات فراغه فى اجتماعات واحتفالات فى حضور جماهير غفيرة: وخلال إحداها ، التى أعدَّها صديقه الصحفى

أوراثيو بيربتيسكى بُغية أن يلتقى مؤلف " مائة عام من العُزلة" من جديد مع الكاتب رودولفو ولش. ولم يكن ولش صديقه فقط عندما كانا يعملان جنبًا إلى جنب فى هافانا خلال تلك الشهور الصعبة عام ١٩٦٠ ، بل كان أحد أساتذة ماركيز السرِّيين منذ أن تعرَّف على البنية الكاملة لرواياته البوليسية. ولكنهما لم يستطيعا التحدث كثيرًا ، وقد اقتصر اللقاء الجديد على تبادل النظرات الطويلة فى صمت ، ربما بسبب خجلهما وطول الفترة التى لم يلتقيا فيها ، وربما نظرًا للوجود المرعب لهذه الشهرة المفاجئة للمؤلف الكولومبى: إنَّ جمهورًا غفيرًا التف حول الكاتب فى تلك الليلة وأكدً له أنه قرأ كتابه ، وأن أورسولا هى جدته نفسها ، وأن أمارانتا تشبه عمته وإن كانت لم تتجاوز خمسة عشر يومًا منذ صدورها ، وبالنسبة لجارثيا ماركيز كانت هذه الحفلة بمثابة " وداع للعزلة والوحدة" ، لأنَّه منذ ذلك الحين لم يستطع البقاء وحده أو بمفرده(٦٣). ولكن إذا نظرنا إلى الأمور جيداً كانت هذه بمثابة دخوله فى العزلة والوحدة فى النادى الهائل لعزلة الشهرة.

إنَّ هذا الطوفان غيَّر حياة الكاتب بسرعة البرق ، كما جعله يتربع على عرش القصة الأمريكية اللاتينية. لقد كانت القصة النتاج الصافى الخالص لنبوغه الفريد ، ومن صراعه مع الأرق كفنان للكلمة ، ولكن الأمور ربما ستكون مختلفة أو – على الأقل – أكثر بطئًا بدون الناشرين والصحفيين والنُقاد وقُرَّاء مدينة بوينوس أيرس. وفى إطار لغتنا فإنَّ بوينوس أيرس مدينة ثقافية توافرت فيها حينئذٍ كافة الظروف بدرجة كبيرة وتوازُن أمثل لقبول قصة وجعلها شعبية على الفور مثل " مائةً عام من العُزلة" ، دون المرور مُسبقًا بنيويورك وباريس أو روما. ولذلك فبعد ثلاثين عامًا سيظلُّ الأصدقاء الأرجنتينيون يتساءلون لماذا لم يعد جارثيا ماركيز مرَّة أخرى إلى بوينوس أيرس. أم أنَّ فراو روبرتا عرَّافة الأحلام قد نصحته كما فى حالة فيينا ألا يعود للعاصمة الأرجنتينية. لأنَّ المدينة التى زارها وأقامت له الاحتفالات الأولى لشهرته المستحقة لم تكن مثل مدينة المكسيك التى تتميز بالانغلاق ، وانعدام الثقة ، كما أنها ليست كمدينة بوجوتا الشهيرة وغير المبالية ، ولا مثل مدينة كاراكاس الحسية وغير المكترثة ، ولا تماثل مدينة باريس البرَّاقة والخيالية. ولا تُشبه مدينة مدريد الريفية فى العصور الوسطى وفى عصر فرانكو ، بل كانت مدينة بوينوس أيرس المثقفة والمتحمسة مهد أستاذه خورخى لويس بورخيس ،

والتى توجد بها كثير من دور النشر الأسطورية ، أسهمت مطبوعاتها من الكتب المُثلى فى إثراء تكوين وإعداد الكاتب.

وبينما تمتد الشهرة النثرية والأدبية " لمائة عام من العُزلة" فى العاصمة الأرجنتينية ، واصلت كارمن بالثيلس فى صمت نشاط النملة العاملة النشيطة لكى تتم ترجمة القصة إلى اللغات الرئيسية فى العالم. ففى الواقع أنها لم تنتظر حتى تبدأ حفلة التتويج ، لأنها لم تكن فقط على عِلم باحتياجات المؤلف ، بل لأنها أدركت على الفور مثل جميع النَّاس أنَّ القصة من العيار الثقيل. لم تكن فى حاجة لاحتفال كبير لكى يتم تقديمها بلغات أخرى. لقد بدأ عملها منذ أن تلقت نسخة من القصة الأصلية فى مكتبها – فى منتصف شهر أكتوبر من العام الماضى – فى شارع أورخيل ببرشلونة. أو ربما قبل ذلك لأنَّ الثقة التى أولاها الناس للقصة (لمعرفتهم بالقصص السابقة للكاتب ، وكانت هى من القُرَّاء المعجبين به) جعلتها تتصل بدور نشر أخرى لتقديم القصة بلغات أخرى. وتذكر كارمن بالثيلس على سبيل المثال أن باليريو ريبا المدير الأدبى لفيلترينيلى كتب لها للإعراب عن اهتمامه بالكتب السابقة لجارثيا ماركيز ، وأنه قال لها: " ولكنك تقولين إنَّ المؤلف يُعدُّ الآن كتابًا مهمًا. ماذا سيحدث لو ظهرت مرَّة أخرى ماكوندو فى الكتاب المهم الجديد الذى يُعدُّه الآن ؟. هل ستكون نفس القصة ونفس الأسطوانة" والحقيقة أنَّ فيلترينيلى كانت دار النشر الأجنبية الثانية التى تعاقدت مع " مائة عام من العُزلة" فى أكتوبر ١٩٦٧ بعد دار النشر الفرنسية سويل ، التى كانت قد تعاقدت على القصة فى أبريل بينما انضمت هاربر آندرو للتعاقد لنفس الغرض فى نوفمبر (التى كانت قد اشترت الكتب الأربعة الأولى لجارثيا ماركيز مقابل ألف دولار) اشترت أيضًا حقوق القصة للسوق الأمريكى. والعائق الوحيد الذى صادف القصة كان فى ألمانيا حيث رفضتها أربع دور نشر فى البداية: روولت وريجهر وهاوسر وأوفولباو. والوحيدة التى تعاقدت مع القصة هى كيبيهاور فى نوفمبر١٩٦٨ ، عندما تفجرت شهرة الكتاب فى فرنسا وإيطاليا(٦٤).

وبعد ترجمتها إلى اللغات الغربية الرئيسية وحصولها فى فرنسا وإيطاليا عام ١٩٦٩ على جائزة أفضل كتاب أجنبى وجائزة شيانشيانو استطاعت كارمن بالثيلس – خلال بضعة أشهر – الحصول على ستة عشر عقدًا إضافيًا لترجمة القصة فى إنجلترا

والدانمرك وفنلندا والسويد والنرويج وهولندا وروسيا والمجر وبولندا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا ويوغسلافيا (ترجمتان : صربية - كرواتية وسلوفانية) واليابان والبرتغال والبرازيل. ولذلك ، فخلال ثلاث سنوات فقط استطاعت القصة أن تخطو خطوة عملاقة في التتويج على مستوى العالم ، وبالتالي رأت المندوبة القطالونية أن عقدها المضحك لمدة مائة وخمسين عامًا أصبح حقيقة رائعة ، وقد وقَّعَ لها ولزوجها لويس بالوماريس الكاتب جارثيا ماركيز في حضور لويس بيثيس القطالوني أيضًا. وفي الواقع لقد بدأت أسطورة أخرى داخل نفس الأسطورة: " إنها أسطورة الأم العظيمة للقصة الأمريكية اللاتينية" وفقًا للتعبير المازح الجاد للكاتب البيرواني ماريو بارجاس يوسا.

وبعد حفلة التتويج في بوينوس أيرس عادت أسرة جارثيا ماركيز إلى المكسيك في أواخر يونية ١٩٦٧ وأمامها هدفٌ رئيسي : تحزيم أمتعتها وحقائبها (بعد عدة أسفار قصيرة إلى فنزويلا وكولومبيا وبيرو) ، حيث كان الكاتب يتوق الى تهيئة الظروف والعثور على أفضل المرادفات لمصطلحي مجهول المؤلف والعزلة ، لكي يجلس ويكتب قصته القادمة " خريف البطريرك" ، ولكن ما حدث له كان على عكس ذلك تمامًا. لقد وصمته بوينوس أيرس إلى الأبد بالعزلة تمامًا أي عزلة الشهرة - كأبناء السفاح الذين رُزِقَ بهم العقيد أوريليانو بويندا - ولم يستطع الفكاك منها حتى لو كان في آخر ركن بالعالم. وبالطبع فإنَّ الكاتب كان مُدركًا للنتائج المشئومة للوباء الذي أُصيب به مؤخرًا (يعني الشهرة) ، ولذلك فمن بين الدوافع والأسباب اختار مدينة حية وحيوية تطل على ساحل البحر المتوسط ورزينة مثل مدينة برشلونة ، ولكن على أية حال ، وعلى الرغم من احتمال أن يزداد الطين بِلةً ، فإنَّ الناقدَ المكسيكي إيمانويل كاربايو حذَّره من الجولات الخطيرة لمصيره كرجل مشهور.

فالناقد وزوجته نويس إيسبريساتي قاما بدعوة أسرة جارثيا ماركيز لتناول طعام الغداء تكريمًا لهما قبل وداعهما فيْ منزلهما بشارع كوميرثيو إى أدمينيستراثيون (التجارة والإدارة) ، وهما يعيان جيدًا أنهما سيودعان رجلا كتب قصة لم يتردد الناقد كاربايو في وصفها بأنها تُحفة رائدة ورائعة منذ البداية ، وأن هذا الرجل سيتحول إلى أسطورة حية. وبالفعل خلال الاجتماع قال له الناقد المكسيكي الذي تنبأ بعظم مصير " مائة عام من العُزلة " : " إنَّ هذه القصة ستُحيطك بالشهرة والمجد والمال ، وهذا

سيؤدى إلى مسخ أو تغيير شامل فى شخصيتك، وأن الشاب البسيط المتواضع الصريح والخجول الذى كتب القصة سيخطو خطوة رغمًا عن إراداته ، وسيتحول إلى شخص آخر يختلف تمامًا عما كان عليه إلى رجل سيصعب عليه الجلوس مع أصدقائه فى تلك الآونة". فقال له جارثيا ماركيز : "بالطبع لن يحدث ذلك مُطلقًا ". وقد دافع عن ذلك بكل المبررات ، وأن الأمرَ لن يتجاوز الحياة البسيطة تقوم على الصداقة والأمانة والعمل ، وكدليل عن أنَّ ذلك لن يحدث على الإطلاق وقع الأربعة جارثيا ماركيز وميرسيدس وكاربايو وإيسبريساتى على زجاجة ويسكى ماركة الحصان الأبيض. وهم كالغرقى ألقوا بزجاجة للزمن التى كانت خلافًا لزجاجات البحر ينبغى عليها أن تبلغ رسالتها دون أن تُفْتَحَ ، ولتظل فى راحتها الخالدة الأبدية كحسناء نائمة فى غابة الزمن.

إنَّ التنبؤات والمخاوف التى عبر عنها الناقد المكسيكى فى تلك المأدبة فى أواخر شهر يولية ، والتى كان قد صاغها وأوجزها قبل ذلك بأربعمائة عام ميتشيل دى مونتين بشعر فكره عندما كتب : " إن المجد والراحة لا يمكنهما أن يسكنا منزلاً واحداً ". وانتهى الأمر بجارثيا ماركيز أن قبلهما بعد ذلك بأربعة عشر عامًا على ضوء تجربته الشخصية عندما أعلن أن الشهرة تُعكر معنى الواقع شأنها شأن السُلطة تمامًا(٦٥). ولكن ليحدث ما يحدث خلال السنوات القادمة ستكون هناك دائمًا جزيرة من الأصدقاء فى حياة جارثيا ماركيز يلوذ إليها ويسترجع هذا المعنى المضطرب عن الواقع. ففى المكسيك لم يكن هؤلاء الأصدقاء كثيرين ، ولكنهم كانوا كافين ومخلصين أوفياء: كارلوس فوينتيس وخوان جارثيا بونثى وألبارو بيثينتى روخو وإيميليو ونانسى ولويس بيثينس. وقد كان ألبارو موتيس وكارمن حالة فريدة : فقد وصلت معهما أسرة جارثيا ماركيز لأبعد من الصداقة والأخوة؛ وبالتالى كان الوداع قاسيًا حقيقة بالنسبة للأسرتين: فخلال ست سنوات كانتا تقتسمان كل شىء ، كل شىء تمامًا: الأنجال والأصدقاء والشدة والرخاء والآمال واليأس والإحباط والسرَّاء والضرَّاء. وعلى وجه الخصوص تقاسما إلى جانب أسرة جارثيا إيليو تلك الحفلة (حفلة أليمة أيضًا) لإعداد وكتابة " مائة عام من العُزلة". ولذلك فعندما رحلت أسرة جارثيا ماركيز متجهة إلى إسبانيا متوقفة قليلاً فى كولومبيا وفنزويلا شعر أفرادها بأنهم أيتام من أصدقائهم ،

وسَرعان ما انفصلت كارمن موتيس عن زوجها قائلة : " آه ، لا. إنَّ الزواج كان مقترنًا بأسرة جارثيا ماركيز. أمّا بدونهما فلم يكن ذلك فى الحُسبان ! " .

وبينما كانت مرسيدس تسافر مع رودريجو وجونثالو إلى بارَّانكيا وقرطاجنة فى أواخر يولية ، وكان جارثيا ماركيز يستعجل الأيام الأخيرة فى هذه الفترة الأولى بالمكسيك فى شقة فى ميدان واشنطن كان يمتلكها لويس بيثينس (حيث إن منزلهما فى "حى سان أنخيل إن" كانا قد سلَّماه فى منتصف الشهر) ، لكى تذهب الأسرة إلى كاراكاس ، حيث حضر المؤتمر الدولى الثالث عشر للأدب الأيبروأمريكانوْ (الأدب فى أسبانيا والبرتغال وأمريكا اللاتينية) ، ولحضور تسليم جائزة رومولو جايجوس ، ولكن قبل هذه الاحتفالية المزدوجة للأدب كان كل ما يهم جارثيا ماركيز هو أن يلتقى مرَّة أخرى بأصدقائه الفنزويليين القُدامى والتعرف شخصيًا على ماريو بارجاس يوسا الكاتب البيروانى الذى حصل على أوَّل جائزة لرومولو جايجوس عن قصته (البيت الأخضر). وكما يذكرا لأن طائرات لندن والمكسيك كانت تهبط فى وقت واحدٍ تقريبًا ، وقد ظلا سويًا طوال الخمسة عشر يومًا الأولى من شهر أغسطس فيما بين كاراكاس (التى ما لبثت أن عانت من زلزال مأساوى) وميريدا وبوجوتا ثم عادا إلى اللقاء من جديد فى ليما خلال الأيام الأولى من شهر سبتمبر.

وعلى الرغم من أنَّ هذه كانت المرة الأولى التى تعارفا فيها شخصيًا ، فقد كانت تربطهما صداقة طويلة عبر المراسلة الأدبية لدرجة أنهما تشاورا فيما بينهما على كتابة قصة بأقصى سرعة عن الحرب الهزلية المأساوية التى شهدتها بلداهما فى أوائل الثلاثينيات. وبالطبع كان كلٌ منهما قد قرأ للآخر بدقة متناهية ، وكانت رسائلهما الأدبية تتسم بالإعجاب المتبادل فى كلٍ من باريس ولندن والمكسيك. وكانا معجبين بقصص الفرسان ، وبالنسبة لجارثيا ماركيز فإنَّ ماريو بارجاس يوسا " آخر الفرسان الجوالين فى الأدب" ، بينما يرى الكاتب البيروانى أنَّ جارثيا ماركيز هو " أماديس أمريكا اللاتينية" فقد اكتسب سمات شخصية من قصة " البيت الأخضر" لشخصية أخرى فى " مائة عام من العُزلة" (كما فعله الكاتب الكولومبى مع شخصيات كارلوس فوينتيس وكورتثار وكاربينتير) ، وقد كتب ماريو بارجاس يوسا مقالاً للثناء والإطراء امتدح فيه روائع هذه القصة "إنها كتاب هائل" ، وكان يود أن يكتبها هو كما اعترف

بذلك فى وقتٍ لاحقٍ ، لأن كاتب القصة أنهى أربعة قرون كاملة من الخجل والاستحياء الروائى :" إنه يتعامل مع الواقع معاملة الند للند ، وجعل من السرد هدفًا فعليًا يعكس العالم كما هو : متعدد وساحلى ومحيطى (ويعنى بذلك ساحل المحيط الأطلسى والكاريبى)[٦٦]. إنَّ هذا الإعجاب المتبادل لا يرجع فقط إلى كونهما كاتبين كبيرين للقصة فى أمريكا اللاتينية ، بل ربما لتشابه حياتهما فى طابعها السحرى تشابهاً يبدو أنه مأخوذ من صفحات بلوتاركو الهائل. فكلاهما تربيا على أيدى جدَّيهما ، لأمهما وتمتعا بكافة الملذات ، وكانا طفلين مدللين هوائيين يتحقق لهما كل ما يريدان ، وقد فقدا طفولتهما فى العاشرة من عمرهما . لقد تعرَّفا فى وقت متأخرٍ على والديهما وكانت علاقاتهما بهما علاقة جفاء لعدة أسباب من بينها أن والديهما كانا يتحفظان أو يعترضان على توجهاتهما فى الحياة: لقد درس كلاهما فى مدرسة دينية ، ودرسا الثانوية كطلاب داخلية تتسم بالحزم والعسكرية ، وقد لاذ كلاهما بالأدب ، وكتأكيد لهويتهما وسط بيئة معادية لهما أو مقززة منفرة. كما وجد كلاهما فى المسرح والشعر الركائز الأساسية فى إعدادهما وتكوينهما الأدبى ، كما كتبا أشعاراً وهما فى مرحلة المراهقة ، كما نشرا أوَّل قصة لهما فى نفس السن تقريباً . لقد قرأ كلاهما بحماس منقطع النظير لأليخاندرو دوما وتولستوى وروبين داريو وفوكنر وبورخيس ونيرودا . وبدأ كلاهما يكتسب قوته بالعمل فى صُحُف المحافظات فى ظروف سيئة ، كما سافر ا إلى إوروبا وهما فى مرحلة الشباب حيث جذبتهما الأسطورة الأدبية لباريس ، وحيث ظلا يعيشان ويتكسبان من الصحافة ، كما لقيا الأمرَّين فى مدينة النور حيث عاشا ربما أشد أيام حياتهما قتامة ومرارة ، كما استطاعا أن يواصلا كتابة أعمالهما فى غرفة صغيرة ذات سقف مائل فى سطح الفندق حيث استأجراهما من مدام لا كروبكس وزوجها فى فندقين بالحى اللاتينى ، ولم يتقاضيا منهما الإيجار لمدة بضعة أشهر نظرًا للضائقة المالية التى كانا يعانيان منها ، كما قاسيا أيضًا من رفض قصصهما الأولى من دور نشر فى مدينة بوينوس أيرس. وكلاهما ذو توجه ماركسى، كما تفاديا العضوية العاملة فى الأحزاب السياسية اليسارية ، كما كانا مدافعين كبيرين عن الثورة الكوبية ، وكانا صديقين ورفيقين لشاعر الأمريكتين بابلو نيرودا ، وانتهى بهما الأمر أنَّ أصبحا الابنين المثاليين لنفس الأم العظيمة كارمن بالثيلس ، وكنقطة وفاق أصبح الاثنان نجمين

ساطعين فى سماء القصة الأمريكية اللاتينية الجديدة ، التى يُطلق عليها بشكلٍ غير ملائم " البوم الأمريكى" (الانطلاق القصصى) .

ومع ذلك كانا رجلين وكاتبين مختلفين ومتعارضين فى كثير من الأمور بدءًا من النبوغ والعبقرية الشخصية حتى فى طبيعة أعمالهما ، اللهم باستثناء الحماس للصداقة والانضباط فى العمل والالتزام الذى لا فِكاك منه مع الأدب. وعلى الرغم من أنَّ طوارئ وظروف الحياة والصداقة والسياسة فصلت بينهما ووضعت كلاً منهما فى دروب مختلفة وحتى متعارضة فقد ظلاً يتشرفان بالتشابه الخفى فى حياتهما حيث إنهما كانا صديقين بشكل نادر لم يُرَ إلا فى حالات قليلة فى تاريخ الأدب الأمريكى اللاتينى: ولذلك لا يبدو مفاجئًا أو مباغتًا أنَّ تسليم جائزة رومولو جايجوس كانت الأولى من نصيب ماريو بارجاس يوسا عن قصته (البيت الأخضر) ، والثانية لجارثيا ماركيز عن قصته " مائة عام من العُزلة "، وهى أشهر جائزة فى اللغة الأسبانية ، وأن الكلمتين اللتين ألقياهما عند تسليم الجائزتين تضمنتا دوافع سياسية تبناها كل منهما وتعتبران فضيحتين من أكبر الفضائح السياسية – الأدبية فى أمريكا اللاتينية خلال سنوات الستينيات والسبعينيات.

ففى الكلمة التى ألقاها ماريو بارجاس يوسا يوم ٤ أغسطس أعطى درسًا هائلاً عن الأسباب الحقيقية التى تُحرِّك وتُغذِّى الكاتب ، وعن الظروف الفنية والالتزامات والسلوكيات الخلقية فى القصه. ونبَّه على أنَّ الأدب نارٌ ، " لأنه يعنى السخط والتمرد" إنَّ الدافع الوجودى للكاتب هو الاحتجاج والمعارضة والنقد"(٦٧). ولكنه عندما انتقل من النار الأدبية إلى النار الواقعية والحقيقية إلى النار الثورية التى ينبغى عليها أن تقضى على الخزى والعار والطُغيان والاستبداد والظلم فى أمريكا اللاتينية مثلما كما يقول ماريو بارجاس يوسا – حدث فى كوبا منذ ثمانى سنوات . لقد كان ذلك بمثابة طروادة فى كاراكاس " فى كاراكاس الحزينة" ، ومن المحتمل أن يكون صديقه الحميم وزميله الكولومبى قد تحرك فى مقعده بينما كان يستمع إليه ليس لأنه كان يشاركه نفس الاعتقاد والاقتناع ، فبالطبع كان كذلك ، وسيظلُّ حتى عندما هجر ماريو بارجاس يوسا المعسكر الاشتراكى بل لأن جارثيا ماركيز كان قد التزم الصمت الحكيم على الملأ بشأن الثورة الكوبية منذ أن فُصِلَ وأصدقاؤه (أو هُجِّروا بدافع من أنفسهم) من وكالة الأنباء اللاتينية عام ١٩٦١ . ولكنه على الرغم من حزنه الشديد لهذا الحدث المؤلم ،

والذى كان بمثابة الشوكة المؤلمة ، فإن هذا لم يكن السبب الكبير وراء صمته بل إنَّ الحدث الذى كان الكاتب يراه فى ذلك الوقت باستياء عميقٍ هو عملية التدخل السوفيتى المتزايد فى الثورة الكوبية. وكما رأينا فإنَّ ماركيز سافر لبضعة أشهر متجولاً فى الاتحاد السوفيتى ، والدول التى تدور فى فلكه بشرق أوروبا . ولقد عرف على الطبيعة الكارثة الماكوندية التى حطت وألمت بهذه الدول . وقد كتب تحقيقات ممتازة أكَّدها التاريخ بعد ذلك بثلاثين عامًا. كما كان قد عَمِلَ فى الصحافة اللاتينية: فى بوجوتا وهافانا ونيويورك . وقد عَرِفَ عن كثب النبضات الداخلية والخفية للثورة الكوبية وقادتها. ولذلك فإنَّ صمته لم يكن فقط فترة راحة للمحارب ، بل كان لرجل عَرِفَ بطريقة مباشرة الاتجاه التضليلى والمنحرف لثورة كان قد تحمس لها قلبًا وقالبًا دون تحفظات ، مثلما فعل كلٌ من ماسيتى وروِدلفو ولش وآخرون. لقد كان بارجاس يوسا أيضًا متحمسًا للثورة الكوبية ، ولكنه كان شابًا حاد الطبع وغير مزود بمعلومات مباشرة عن "هوية الاشتراكية الحقيقية" ، وعلى العكس من ذلك كان يسمح لنفسه بإطلاق الهراءات الثورية التى كانت تُصيب الطبقة الوسطى بالقشعريرة ، وكذلك الأقليات الحاكمة التى فى وجود رومولو جايجوس كافأوه وتملَّقوه فى الصالون المفتوح بمتحف الفنون الجميلة فى كاراكاس. كان الكولومبى والبيروانى كاتبين ومفكرين مختلفين تمامًا كما كانا مختلفين فى تآلفهما وتشابههما (فبعد ذلك كما عُرِفَ كان ماريو بارجاس يوسا يعتبر فيدل كاسترو الوحش الأسود الذى تجب محاربته والتصدى له بينما أصبح جارثيا ماركيز المراهق الثورى الوفى بلا حدود للزعيم الكوبى) ، وهذه الهوية التناقضية بالإضافة إلى مفارقة التشابه فى حياتهما هو الذى - إلى جانب أمور أخرى - سيعطى قوةٍ لصداقتهما التى لا ريب فيها.

إنَّ ماريو بارجاس يوسا الودود المبتسم والمهتم قد قسَّم الجمهور فى كاراكاس ما بين ملتبس ومفتون بهيئة وطريقة ملبسه على غِرار أهل هوليود ومداخلاته البرَّاقة والرصينة العاقلة. إنه فظٌ وخجولٌ ومستاءٌ من فضيحة شعبيته المتزايدة. أما جارثيا ماركيز ، فبشعره المتجعد وقمصانه المتعددة الألوان على نمط أهل الكاريبى رفض إعطاء الصورة الأكاديمية الجادة التى انتظرها الجميع من مبدع ومؤلف ماكوندو. لقد كان نجمًا ناشئًا سعيدًا بمصيره الأدبى ، ولكنه بدأ يشعر بعدم الارتياح من جرَّاء

انعكاسات الشُّهرة : ففى حفلة أعدَّها أصدقاؤه القُدامى تكريمًا له فى كاراكاس وضع لافتةً تقول : (ممنوع الحديث عن " مائة عام من العُزلة") ، ولذلك عندما كان يتكلم فى هذا الشأن كان بغرض التسلية والمزاح دائمًا ، وكما يذكر ماريو بارجاس يوسا نفسه أن جارثيا ماركيز اعترف للصحفيين بالوجه الصارم لعمته بيترا أنَّ قصصه كانت تكتبها زوجته ، وأنه كان يوقِّعها لأنها كانت سيئة ، ولم تكن مرسيدس ترغب فى تَحمُل المسئولية وحدها ". وعندما سُئِلَ فى التلفاز عما إذا كان رومولو جايجوس روائيًا كبيرًا فكَّر مليًا وأجاب: " فى كنايما يوجد وصف لديك فى غاية الروعة(٦٨)" ولكنه اضطر – مرَّة على الأقل – للحديث بجدية: كان ذلك فى ١١ أغسطس فى النادى الثقافى بكاراكاس أثناء الجلسة الختامية للمؤتمر الدولى الثالث عشر للأدب الأسبانى الأمريكى اللاتينى ، عندما ألقى محاضرة عنوانها " القصَّاصُ ونُقَّادُهُ ". لقد كان مذعورًا كمنْ ينتظر دوره أسفل سقالة الإعدام. كان يجلس بجوار بارجاس يوسا ويداه رطبتان ومتجمدتان من البرودة تعكس رعْبَهُ اللانهائى وهو يُدخِّن كالخُفَّاش" . وبدلاً من المحاضرة الأكاديمية التى تشنف أسماع النُقاد والأساتذة ، حكى حكاية هى ببساطة قصة ربما للتمرد على الجلال والوقار والجو الأكاديمى فى تلك اللحظة. لقد كانت البداية شاقة وعسيرة مليئة بالأحجار والصخور لترتيب الكلمات ، فترات صمت طويلة تركت المستمعين مُعَلَّقين فى مقاعدهم. ولكن رويدًا رويدًا استطاع تجميع الحكاية كاملة ، هى التى أصبحت بعد سنوات موضوع فيلم بريساخيو (النبوءة)(٦٩). وقد نالت مداخلته إعجابًا كبيرًا وتصفيقًا شديدًا أصَمَّ الأذان من أجل ما كان يهمه فى أعماق نفسه ، ألا وهى رغبته فى أن يكون : قصَّاص حكايات.

إنَّ بوجوتا الإنديزية الشهيرة لم تحسن الضجيج العام الذى خلفته قصة ماكوندو . لقد كان جارثيا ماركيز حنونًا عطوفًا ودودًا مكترثًا ومعتنيًا بأصدقائه الدائمين . والحقيقة " أنَّ المدينة كانت أقبح مُدن العالم وأشدها حُزنًا ، " واستنادًا لما قاله لقد انتهى به الأمر أن تقَّطب جبينه وجعلته أكثر فظاظة وبُعدًا عن الجمهور". ولكن لم يكن هناك شئ يفعله ، لأنَّ الخلافات مع مدينة كوابيسه كانت مرضًا مُزمنًا ومرضًا مستوطنًا بالروح. ويذكر ماريو بارجاس يوسا قبل أن يخرجا سويًا فى طريقهما إلى بوجوتا فى ١٢ أغسطس تسلَّى جارثيا ماركيز بإجراء مكالمات صامتةً بعاصمة

كولومبيا: وبعدها اكتشفت أنه يُخطط مع أصدقائه في بوجوتا برنامجًا ؛ سيستقلون سيارات سريعة ، وسينتقلون من فندقٍ إلى آخر ، ومن منزلٍ إلى آخر ، وذلك لأنَّ ماريو بارجاس يوسا والناقد خوسيه ميجيل أوبييدو لم تسنح لهما الفرصة بمشاهدة مدينة بوجوتا على بُعدٍ كبير[٧٠].

ولكن لم يتحقق له ذلك . فالشهرة والشعبية المتزايدتان لكل منهما جعلتهما شخصيتين لهما حضور ووجود في كل مكان من الناحية العملية على مدى ثلاثة أيام في مدينة بوجوتا، مدينة المثقفين والمحامين والتُجار ......الخ. وعندما عاد ماريو بارجاس يوسا إلى ليما في ١٥ أغسطس في المساء بعد مائدة مستديرة ساخنة في مجلة التيمبو (الزمن) ، (التي شارك فيها أيضًا ألبارو ثيبيدا سامو ديو وأنخيل راما وخوسيه ميجيل أوبييدو) ، وفي تكريم حضره جمهور غفير في مجلة ليتراس ناثيوناليس (الآداب الوطنية) ، وفي جلسة قام خلالها بتوقيع كتبه في المكتبة المعاصرة. وفي اجتماع شبه سريٍّ مع الشبيبة الشيوعية كان الكاتبان مُرهقين نظرًا للمجهود الجبار الناجم عن الشهرة ، لكي يتأكد لهما قول مونتين: إنَّهُ أمر حقيقي أنه لا جدوى من التمتع بالشهرة والمجد والراحة في وقت واحد.

ومن المفارقات أنهما " في ليما المرعبة" ، التي رغم استمرار المجد والشهرة فقد منحتهما شيئًا من الراحة والاستجمام أو على الأقل جعلتهما يتحليان بالصبر إزاء مصيرهما كنجمين لامعين. وربما كان السرُّ أنه خلال الأسبوع الذي زار فيه جارثيا ماركيز العاصمة البيروانية في أوائل سبتمبر مدعوًا من الجامعة الوطنية للهندسة استطاع وماريو بارجاس يوسا توثيق الصداقة وتوطيدها إلى جانب الألفة والأدب ، في حالة من التناغم الرائع. لقد بدأ ذلك بتعميد الابن الثاني لأسرة بارجاس يوسا الذي اختير جارثيا ماركيز أبًا له في العماد ، والذي أطلق عليه والده اسم جابرييل رودريجو جونثالو ، وهذا يعني التعبير الأسمى عن الحب والود والصداقة ، فقد جمع في اسم نجله اسم الكاتب الكولومبي ونجليه أيضًا. وانتهى الأمر إلى بدء حوار مفتوح بين الكاتبين عن القصة في أمريكا اللاتينية بصفة عامة ، وأعمال الكولومبي بصفة خاصة خلال يومي ٥ ، ٧ سبتمبر في قاعة الاحتفالات بكلية الهندسة المعمارية بالجامعة الوطنية للهندسة أمام جمعٍ غفيرٍ من الطُلاب[٧١]. ولكن الحوار كان هادئًا انسيابيًا متدفقًا وشبه

أسرى. ولم يَبْدُ جارثيا ماركيز فقط راضيًا عن قدره ، بل كان يبدو أنَّهُ تغلَّب على ذُعره من الحديث على الملأ. فقد كان أكثر قُربًا واعتناءً ومعتدل المزاج ، وقد كان مُسْهبًا ،.حتى أنَّـهُ كشف عن مفاتيح فنه الروائى وارتباطاته بالواقع. وبنظرته الشاملة للقصة وبفكرته المتسلطة على تحليل القصة. وقد كان بارجاس يوسا المحاور ، ومدير الحوار وموجه الأسئلة ، وإن كانا أحيانًا قد تبادلا الأدوار فيما بينهما. ولقد كانت هناك فكرة أخرى حديثة مهيمنة على الكاتب البيروانى : فهم وشرح مجمل العملية المتعددة التى أدت بجارثيا ماركيز إلى كتابة " مائة عام من العُزلة " ، وهى المهمة التى سيقوم بها ماريو بارجاس يوسا بعد ذلك بعامين عندما كتب كتابه الخالد " قصة متمرد" ، وهو كتاب وإن كان تلغرافيًا وليس على المستوى اللائق فيما يتعلق بالسيرة الذاتية فإن تجاوزه سيبقى أمرًا صعبًا لما فيه من تطوير وتحليل للأسرار والخبايا الأدبية. ومن بين الأشياء التى اتضحت فى هذا الحوار الخالد بين عملاقى القصة الأمريكية اللاتينية ؛ أمران باتا جليين : المعلومات الموسعة عن صُلب القصة ؛ فماريو بارجاس يوسا وهو فى الحادية والثلاثين من عمره فضلاً عن اهتماماته النظرية بالقصة واهتمامه العميق بانتاج صديقه وزميله ، والوعى الدقيق والواضح الذى أعدَّ به جارثيا ماركيز أعماله طوال عشرين عامًا على ضوء تحليل موسع ومتأنٍ للواقع الكولومبى والأمريكى اللاتينى. وقد ظلَّ الواقع الأمريكى اللاتينى واضحًا جليًا ، عندما اقترح البيروانى على الكاتب الكولومبى مشكلة الخيال فى إنتاج خورخى لويس بورخيس : " ألا تعتقد أن بورخيس بصورة ما يَصفُ ويبرز الخيال الأرجنتينى والخيال الأمريكى اللاتينى. و أنَّ هذا الخيال هو بعْدُ ومستوىً وحالةٌ من الواقع الشَّامل أى الاستحواذ على الأدب " ؟ ، فجارثيا ماركيز بعد إبراز إعجابه وعرفانه وامتنانه للأستاذ الأرجنتينى (لأننا نحتاج إليه لاكتشاف اللغة التى هى مشكلة جادة للغاية) أجاب : إننى أعتقد أنَّ الخيال لدى بورخيس مزيفٌ أيضًا ، فليس هو الخيال الأمريكى اللاتينى. وهنا ندخل فى مفارقات : إنَّ الخيال فى أمريكا اللاتينية هو أمرٌ واقعىٌ جدًا ويومىٌ للغاية ؛ وبالتالى فهو مُبهمٌ مع ما يُفهم بالواقع "[٧٢]. وبالطبع: إنه كان يعرف جيدًا ، ويعرف ذلك منذ أن كان طفلاً لأنَّ هذا الخيال بأمريكا اللاتينية وأنه فى عام ١٩٥٠ كان قد أسماه " بواقعية الخيال " الواقعية بالخيال" أو الخيال الإنسانى المفرط[٧٣]. لقد كانت الأرض المغذِّية والمكان العجيب الذى

عاشت فيه جدته ترانكلينا إجواران كوتيس ، وعماته الكثيرات ، وكثير من الشخصيات العجيبة فى أراكاتاكا التى عاش فيها طفولته. وقد كان هذا العصبُ الكبير والجوهر الأساسى لإنتاج جارثيا ماركيز : هو نفسه الذى حاول فهمه وتصويره والتعبير عنه فى منتصف أغسطس ١٩٤٨ ، حيث كتب فى بوجوتا " الاستسلام الثالث "بدافع من قصة المسخ لكافكا.كما أنَّ قصة " مائة عام من العُزلة" تُعَدُّ بمثابة التتويج الأسمى لهذا العزم والتصميم الهائل والقديم من جانب جارثيا ماركيز.

إنَّ هذا العزم والتصميم كان مبرراً لفكرة شخصية متسلطة على العقل كانت إحدى الخدع الكثيرة والخطيرة للحنين ، وفقًا لما اعترف به جارثيا ماركيز شخصيًا لماريو بارجاس يوسا أمام الطلاب في ليما ، ألا وهى العودة إلى منزل أراكاتاكا ، واستعادة اللحظات المفقودة مع الجدِّ نيقولاس ريكاردو ماركيز ميخيا الذى كان يصطحبه إلى السيرك والقُدَّاس والسينما أو للتنزه فى شوارع القرية ، أو عبر مزارع الموز أو لكى يستحم فى نهر المياه الباردة الشَّفافة تحت سَفح سيًرا نيفادا فى سانتا مارتا(٧٤). ومع ذلك فإنَّ حفيد العقيد استطاع التغلب بحكمة شعرية أدبية على خدعة الحنين والاشتياق ، حيث بنى عالمًا مستقلاً قويًا، عالمًا مستقلاً فاتنًا ، واستطاع أنْ يسترده ويحافظ عليه دون المساس بزمنهما ، إلى جانب ذكريات كثيرة من لحظات الطفولة التى عاشها حقًا سعيداً بجوار جدِّه. ولكنه ذهب إلى أبعد من ذلك. فقد استطاع جارثيا ماركيز إنقاذ لحظات التعاسة الكبيرة التى اعتقد أنه أصابه فيها الغم والكرب: إنها تلك اللحظات الليلية أمام الأرواح الشريرة التى كانت جدته ترانكلينا إجواران كوتيس تُرَوِّعه بها وعلاوة على ذلك ؛ فليس فقط فى العالم الذى ابتكره على غِرار عالم الواقع تمامًا فقد استطاع تحقيق ما كان يتوق إليه وهو طفلٌ : اجتياز حدود الأرواح الشريرة المستوطنة فى المنزل والتصالح معها. إنَّ حالة النفس هذه أكثر من الحالة المعنوية هى الحقيقة " المكان " الذى انطلق منه ، والذى كان يحاول جاهداً الوصول إليه (عدم العودة ، فالحقيقة أنَّ الذاكرة ليست لها دروب للعودة) للتعرف عليه لأوَّل مرَّة أى للاستحواذ عليه أدبيًا.

هوامش الفصل الأول

(١) انظر الملحوظة ٣٧ في الفصل التاسع .

(٢) فـي محـادثاتنـا بالمكسيك فـي الفترة من ٤ إلى ١٧ مارس ١٩٨٩ ذكر جارثيا ماركيز أنَّ عودته - بالفعل - إلى قريته أبرزت له أنَّ ما عاشه في طفولته ، وما يراه الآن في قريته المهملة كان بعيداً كل البُعد عما كتبه حتى ذلك الحين ، وأن هذا البرهان جعله يسلك طريقًا أو دربًا آخر فيما بعد.

(٣) وعلى عكس ما كان يكرره في بعض المقابلات لم يكتبها بعد هذه الرحلة؛ ففي الفصل السابع وملحوظتيه ٢٤ ، ٢٥ ، وكذلك في الفصل التاسع في ملحوظتيه رقم ٤٥، ٤٩ يتضح أنَّ الكتابة الأولى لقصته " الورقة الساقطة" كانت قد كُتبت قبل ثلاث سنوات تقريباً من عودته مع والدته إلى أراكاتاكا.

(٤) في المقابلة التي منحها لفريق التحرير بالمانيفيستو(البيان) (" الرحلة إلى الجنور") في بوجوتا ١٩٧٧). يؤكد جارثيا ماركيز أنَّ ذلك كان في بايدوبار بعد أربعة أعوام في " حكاية الحكاية" (في الملحوظات الصحفية في الفترة من ١٩٨٠ إلى ١٩٨٤ مدريد موندادورى ١٩٩١) كانت في البداية مقدمة لقصة " نبأ موت مُعلن" ، ويقول إنَّ ذلك كان في مناورى ديل ثيسار. إنَّ هذا الغموض والإيهام بالنسبة للأماكن يمكن أنْ يكون متعمداً من جانب جارثيا ماركيز ، ويهدف من جراء ذلك أنَّ يظل البطل الثالث مجهولاً، والذي يذكره في الحالة الأولى على أنه خوسيه بروديتثيو أجيلار ، بينما في الحالة الثانية لم يذكر اسمه. ومع ذلك فإنَّ رفائيل إيسكالونا في أحد اللقائين اللذين تمَّا بيننا في بوجوتا خلال أغسطس١٩٩٢ لم يفصح لي فقط عن اسم ليساندرو باتشيكو ؛ بل أيضًا أوضح لي أنَّ اللقاء مع ليساندرو كان في مدينة " السلام" الواقعة بين بايدوبار ومناورى.

(٥) جابرييل جارثيا ماركيز " حكاية الحكاية" المصدر المذكور.

(٦) من محادثاتي مع رفائيل إيسكالونا بوجوتا أغسطس عام ,١٩٩٢

(٧) جابرييل جارثيا ماركيز . المصدر المذكور.

(٨) هذا الوصف لبارَّانكاس أدين به لمواطنين عديدين من أهاليها ، وخاصة إلى أنَّا ديوس ، وعمدتها خوسيه دومينجو سولانو.

(٩) المصدر نفسه وخيرمان أرثينيجاس عبقرية وشخصية خورخي إساكس بوينس أيرس،أوديبا،١٩٧٠

(١٠) مانويل م. فلوريس الإيستادو (الدولة) سانتا مارتا ١٩ مارس ١٩٣٧

(١١) طبقًا لهذه المعلومة مثل معلومات أخرى من شجرة النسب أمدتني ليخيا جارثيا ماركيز مؤرخة الأسرة " جدة جدة القصاص" ، وجد والدته كانا قد وصلا إلى كولومبيا في عام ١٨٢٦ على أقصى تقدير.

(١٢) في منزل إيليدا فونسيكا ببارانكاس يمكن التعرُف على إحدى الحُلى على شكل سمكة صغيرة من الذهب قام بتصنيعها جدُ جارثيا ماركيز ، وتنتمي إلى سارة إيريثا فونسيكا نجلة حفيدة العقيد ماركيز. إنها مطابقة تماماً لتلك الحُلى التي وصفها القصاص في" مائة عام من العُزلة".

(١٣) أويرالدو بينتو روميرو " بارَّانكاس" أرض أسرة بويندا جواخيرا جرافيكا أكتوبر ١٩٨٤

(١٤) ألبارو تيرادو ميخيا. الدولة والسياسة فى القرن التاسع عشر ، فى كتاب تاريخ كولومبيا، بوجوتا. المعهد الكولومبى للثقافة ١٩٨٢ . الجزء الثانى ، وألبرتو جوميث م. "حرب الألف يوم "، بوجوتا. دار نشر لا أوبيخا نيجرا (النعجة السوداء أوكبش الفداء) ١٩٨٥ .

(١٥) كارلوس إدواردو خراميو، محاربو القرن التاسع عشر، بوجوتا، دار نشر ثيريك ، ١٩٩١ .

(١٦) خوسيه ماريا بالديبلانكيث . تاريخ مقاطعة ماجدلينا وأرض لا جواخيرا منذ عام ١٨٩٥ حتى ١٩٦٣، بوجوتا. دار نشر البوتو ناثيونال (التصويت الوطنى) ١٩٦٤ .

(١٧) كما هو الحال لدى نيقولاس ماركيز وأنجاله وأصدقائه وخالة رفائيل أوريبى ، وبيدرو نيل أوسبينا اللذين كانا صديقين كبيرين وخصمين فى أن واحد ، الأمر الذى يُوضح عبث ومأساة مصير الكولومبيين الذين عاشوا فى مواجهات من أجل مثاليات متناقضة ، ولكن بمجرد انتهاء الحرب تجانسوا فعلاً حتى تضاءلت الخلافات بينهم ، أى بين الليبراليين والمحافظين ، كما يصف ذلك العقيد أوريليانو بوينديا فى " مائة عام من العُزلة" بقوله: إنَّ الخلاف بين هؤلاء ، وأولئك يكمن فى أنَّ الليبراليين يذهبون إلى قُدَّاس الخامسة أمّا المحافظون فيذهبون إلى قُدَّاس الساعة الثامنة.

(١٨) ساباس س. سوكارّاس" ذكريات حرب الألف يوم فى محافظات باديا ، وبايدوبار وفى مقاطعة أو دائرة ماجدلينا " : ١٨٩٩ إلى ١٩٠٣ فى خوسيه ماريا بالديبلانكيث ؛ المصدر المذكور.

(١٩) أويرادو بينتو روميرو ؛ المقال السابق.

(٢٠) خوسيه ماريا بالديبلانكيث ؛ المصدر السابق.

(٢١) ساباس س.سوكارّاس ؛ المصدر السابق ، وأوكتابيو م. جوميث "حرب الألف يوم فى ماجدلينا" (معركة كراثوا) فى كتاب خوسيه ماريا بالديبلانكيث. المصدر السابق.

(٢٢) بما أنَّ باتشيكو ميدرادو روميرو كان جنديًا عاديًا ، وكان تحت وصاية عمه فرانثيسكو خابيير روميرو ؛ فقد أدرج فى لجنة الضباط يفسر عدم ظهور اسمه فى تعليقات أو أخبار ساباس سوكارّاس ، وأوكتابيو جوميث. ولكن بفضل زميل سلاح أخر ، وصديقٍ كبير لنيقولاس ماركيز ، وخوان لاثارو روبليس. نعم سيتم تسجيل اسم ميدرادو باتشيكو روميرو فى ذكرياته عن حرب الألف يوم فى محافظات باديا و بايدوبار ، ولا جواخيرا ، وسانتا مارتا ١٩٤٦ .

(٢٣) " لم يتوفر فى حرب العصابات الانضباط العسكرى ، وكان تماسكها يرجع إلى الوفاء ، والإخلاص والاحترام. ومن هنا كان على القادة أنَّ يظهروا باستمرار مهارة وشجاعة لتأكيد سلطتهم" (كارلوس إدواردو خاراميو. المصدر السابق). كان هذا أحد الأسباب التى تفسر الفارق بين جماعات حرب العصابات والجيش النظامى بقيادة بينخامين إيريرا فى المحيط الهادى وبنما ، والقوات الفوضوية والمنحطة لأوريبى أوريبى فى المحيط الأطلسى: بينما كان الأوَّل دائمًا على رأس قواته يشاركهم نفس المخاطر ؛ كان الثانى دائمًا فى حالة ترحال وتجوال بمختلف أنحاء البلاد ، وكان يظهر بالكاد من حين لآخر لتحفيز ، وتشجيع قواته بخطبه النارية الحماسية.

(٢٤) لوكاس كابيرو. مذكرات "حرب الألف يوم ". بوجوتا. المعهد الكولومبى للثقافة.

(٢٥) بالفعل فى ٢٠ أغسطس١٩٠٢ فى طريقه إلى بايدوبار و أراكاتاكا وثيناجا قال فى سان خوان ديل ثيسار: " أعتقد أنَّ نهاية الحرب ستفرضها أسباب ترجع للرحمة والشفقة الخالصة. وأنَّ مجيئى لا هدف له سوى أن تكون شروط السلام عملية " وقورة" (خوسيه ماريا بالديبلانكيث. المصدر السابق).

(٢٦) المصدر نفسه . إنّ الشهر وتاريخ الوصول ، إلى أراكاتاكا لأوريبى أوريبى ورجاله خاطئان فى هذا الكتاب لأنه يذكر أنه "كان فى الأيام الأخيرة من يوليه" وفى الواقع كان فى ٥ سبتمبر ١٩٠٢ كما ظهر فى الكتاب الذى لم يُنشر لمؤلفه لاثارو دياجو خوليو : أراكاتاكا : تاريخ لكى يُحكى ١٩٨٩ .

(٢٧) المصدر نفسه .

(٢٨) المصدر نفسه .

(٢٩) لا يمكن التأكيد على سبيل الحصر أنّه من بين هاتين الشخصيتين التاريخيتين خرج اسم شخصية أوريليانو بويندیا. ففى حرب ١٨٩٥ كان هناك أيضًا عقيد ليبرالي يُدعى فرانثيسكو بويندیا ، هو الذى عند مروره بأراكاتاكا واجه القوات الحكومية وخلع الحاكم المحافظ، وكان سببًا فى أسطورة ربما سمعها الطفل جابيتو بعد ذلك بسنوات طويلة من شفتى جده. ومن ناحية أخرى فإنّ لقب بويندیا اسم شائع الاستخدام فى منطقة ساحل الأطلسى الكولومبى. ومما هو معروف جيدًا أنّ جارثيا ماركيز قبل أن يحاول كتابة قصة "المنزل" فى أواخر الأربعينيات ، وهى أصل مائة عام من العُزلة، كان يعرف أسطورتى العقيدين رامون بويندیا ، وأوريليانو ناودين. وقد حكى لى القصّاص مانويل ثباتا أوليبيا أنّ والده أنطونيو ماريا ثباتا كتب مطبوعًا عن أوريليانو ناودين ، وأن جارثيا ماركيز قرأه فى تلك الفترة فى قرطاجنة الأمريكية .

(٣٠) خوان لاثارو روبليس. المصدر السابق.

(٣١) وفى مارس ١٩٥٢ كتب جارثيا ماركيز فى بارأنكيا إلى صديقه ومواطنه جونثالو جونثاليث فى بوجوتا: لقد عُدت إلى أراكاتاكا توًا. ولازالت قرية مليئة بالغبار، يُخيم عليها الصمت والموتى. مزعجةً بشكل زائد عن الحد بعقدائها القُدامى الذين لقوا حتفهم خلف الفناء تحت أخر شجرة موز، كما كثر بها كم العذارى ذوات الستين عامًا ، وقد صدأن ، وهنّ يتصببن عرقًا لآخر نزواتهن الجنسية بسبب قيظ الساعة الثانية ظهرًا (نقد ذاتى. صحيفة الاسبكتادور. بوجوتا ٣٠مارس١٩٥٢). وقبل ذلك بخمس سنوات تُوفيت جدته فى سوكرى ، وقد عبرت عن أخر رغبة لها التى كانت أخر ما كان يتوق إليه الجد المتوفى فى عام١٩٣٧: أن يقبض أحدٌ المعاش الموعود بعد وفاته.

(٣٢) إنّ أهل بارأنكيا يقدّمون ثلاث روايات مختلفة عن دوافع وأسباب مبارزة التحدى بين نيقولاس ماركيز ، وميدرادو باتشيكو ، وكيف وقعت الأحداث ، وطبقًا للجيل فإنّ الروايات كانت تكتسب مدلولاً مغايرًا. ومما لا شك فيه على الإطلاق أنّ الرواية الأكثر موضوعية هى دائمًا رواية الكبار المسنين إذا استثنيا منها الثغرات المتعلقة بالذاكرة ، والتغييرات التى تُدخلها الأعراف الشفهية حتمًا. واسترشادًا بهذا المعيار أو الرأى فقد التقيت وتكلمت فى بارأنكاس مع الشقيقتين إيتزابل، وكليمينثيا سالتارين، وهما فى الثانية والتسعين من العمر على التوالى. واستنادًا إلى ذكرياتهما (حيث لم أستطع العثور على أية وثيقة عن هذا الحدث لا فى بارأنكاس ولا فى ريو هاتشا، ولا فى سانتا مارتا) ، قد حاولنا تكوين الرواية الأكثر وقارًا مع موضوعية الأحداث. وبمقارنة المعلومات التى قدمتها الشقيقتان ، وبمقابلة هذه المعلومات مع تلك التى قدمها مواطنون أخرون من بارأنكاس تم إلغاء واستبعاد التغييرات والتلفيقات من العرف الشفوى ، وتم الحصول على معلومات أخرى هامشية فى الظاهر ، أو شبه منسية ، ومع ذلك كانت فى غاية الأهمية فى الحصول على رواية موضوعية للأحداث.

(٣٣) من محادثاتى مع إيتزال ، وكليمينثيا سالتارين. بارأنكاس. أغسطس ١٩٩٢ .

(٣٤) إنّ الجملة كانت تنتقل من جيل إلى جيل كما هى بين أهالى بارأنكاس .

(٣٥) إنّ معلومات النزوح والإقامة فى سانتا مارتا ، وثييناجا ، وكذلك تاريخ الوصول إلى أراكاتاكا قدمتها لى لويسا سانتياجا ماركيز إجواران والدة القصّاص فى محاثاتنا فى كارتخينا وبارأنكيا فى يولية وأغسطس ١٩٩٢

(٣٦) هكذا يظهر فى شهادة وفاته . التى حصلت عليها من أرشيف الأبرشية أو الكنيسة فى بارأنكاس .

هوامش الفصل الثانى

(١) استناداً إلى شهادات والدة جارثيا ماركيز وابنة عمها سارة ماركيز ؛ فقد أهْدِىَ لأسرة ماركيز إجواران بعد ذلك بعدة سنوات اثنان من الهنود الحُمر فى أراكاتاكا ، وهما نيكتار ، ولوثيا. أمّا ريميديوس ، أليريو اللذان لاذا بالفرار من المنزل ، ولم يعرف الكاتب سوى أبولينار الذى كان قد اعتاد العودة إلى القرية ليزور أسياده القُدامى.

(٢) إنّ الجملة والنادرة اللتين أشارت إليهما ليخيا جارثيا ماركيز لهما أهمية ما فى الأسرة مثل تلك اللحظات ، والتهيؤات لأجداد أسرة بويندبا.

(٣) أورلاندو فالس بوردا" التاريخ المزدوج للساحل(مومبوكس ولوبا) الجزء الأول، بوجوتا ، الناشرون كارلوس بالينثيا، ١٩٨٠ .

(٤) لاثارو دياجو خوليو. المصدر المذكور. إنّ النسخة التى اطلعت عليها لازالت محفوظة فى دار الثقافة فى أراكاتاكا. إنه الكتاب الأول الذى كُتب عن تاريخ القرية ، وإنّه مصدرٌ جيدٌ للمعلومات. لقد كان مفيداً للغاية بالنسبة لي لاستكمال تحرياتى عن تاريخ الشاميلاس من الهنود الحُمر ، وتأسيس وتاريخ أراكاتاكا ، وظاهرة زراعات الموز.

(٥) أليروموتور(المؤسس) ، بارُانكيا، ٤ مارس١٨٨٢ وخيرمان أرثينيجاس. المصدر المذكور.

(٦) روبرتو إيريرا سوتو ورفائيل روميرو كاستانيدا لاثونا بانانيرا دى ماجدلينا (منطقة زراعات الموز فى ماجدلينا)، بوجوتا، المطبعة الوطنية لمعهد كارو إى كويربو، ١٩٧٩ .

(٧) المصدر السابق نفسه .

(٨) ألبرتو لونا كارديناس عام ، وأيام أُخر مع الجنرال بينخامين إيريرا فى زراعات الموز بأراكاتاكا ميداين، دار نشر بيدوت، ١٩٦٠ .

(٩) روبرتو إيريرا سوتو. المصدر المذكور. ورينان بيجا، " مذبحة زراعات الموز"، بوجوتا، دار نشر أو بيخا نبيجرا، ١٩٨٥ .

(١٠) يتذكر أهالى أراكاتاكا أنّ البرادو كان أشبه بالأحلام. لويس كوريًا جارثيا صديق الطفولة الحميم لجارثيا ماركيز وصف لي ذلك المكان أنّه كان من الجمال الرائع والسلطان ، وكان شيئًا محرمًا أو محظوراً على أهالى أراكاتاكا. (يعنى المكان الذى كان يسكن فيه مسئولو شركة الفواكه المتحدة الأمريكية).

(١١) جابرييل جارثيا ماركيز (نقد ذاتى. المقال المذكور).

(١٢) لاثارو دياجو خوليو. المصدر المذكور.

(١٣) إنّ الثلج بلا شك كان معروفًا فى أراكاتاكا ، ولكنه كان مقتصراً على منازل الأمريكيين. ويبدو أنّ الغجر جعلوا منه أمراً شعبيًا فى جميع أنحاء المنطقة خلال السنوات الأولى من الحقبة الثانية.

(١٤) جاء ذلك ضمن أقوال لويسا سانتياجو ماركيز لم أقرأها ؛ بل عشتها (مقابلة مع والدى جارثيا ماركيز أجراها معهما أليجرى ليوى بمجلة التيمبو" الزمن" بوجوتا، ٨ مارس ١٩٧٠) .

(١٥) لاثارو دياجو خوليو. المصدر المذكور ، والإضافة الموجزة عن تاريخ أراكاتاكا الذى ذكرت على هامش كتاب التعميدات أعدها القسيس فرانثيسكو ث. أنجاريتا.

(١٦) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز للصحفى جوستابو تاتيس جيراً فى " جابو الكيميائى الآخر" بصحيفة الأونيفرسال (العالمى) قرطاجنة ، ٣ مايو ١٩٩٢ . وقد أكدت لى هذه النادرة لويسا سانتياجا ماركيز والدة الكاتب.

(١٧) ولكن فى الواقع أن الأسقف إسبيخو بما أنه قسيس سانتا مارتا قد اعتاد الذهاب إلى أراكاتاكا ليرأس الاحتفالات الكبرى بالقرية ، وخلال هذه الأيام كان يُقيم مع القساوسة فى منزل أسرة ماركيز إجواران حتى أنه أُطلقَ على المنزل اسم"الفاتيكان".

(١٨) إنَّ مختلف المصادر الشفوية والمكتوبة التى تم استشارتها أو الاطلاع عليها عن هذه الواقعة اعتباراً من أقوال أهل أراكاتاكا المسنين ، حتى أقوال جارثيا ماركيز نفسه تختلف بشكلٍ ملحوظ بالنسبة لأسباب ودوافع هذه المشاجرة التى تسبَّبت فى وفاة الساحلى على أيدى مواطن أنطيوكيا ، ومع ذلك فإنَّ جميع المصادر تتفق فى الإشارة إلى أنَّ هذا الموت يرجع إلى الأحقاد المكبوتة لدى أهالى أراكاتاكا على مدى سنوات طويلة ، وأنَّ الحادثة حُفرت فى ذاكرة جميع أفراد القرية. وهناك صعوبةٌ أخرى تكمنُ فى تحديد السنة التى وقعت فيها المذبحة. فبينما نجد جارثيا ماركيز يُشير – على سبيل المثال– إلى عام ١٩١٠ نجد أنَّ لاثارو دياجو خوليو يذكر أنها حدثت فى عام ١٩١٣ ، أمّا جيبرمو إنريكيث فقد حدد حدوثها فى ١٩١٢ .

(١٩) لاثارو دياجو خوليو. المصدر المذكور.

(٢٠) المصدر السابق نفسه .

(٢١) نظراً لتنوع ، وكثرة الأقنعة يذكرنا كرنفال ماكوندو حيث تنافست على تاج الجمال ريميديوس الحسناء ، وفرناندا ديل كاربيو ، وقد حدثت مجزرة تُعرف بليلة أراكاتاكا .

(٢٢) جابرييل جارثيا ماركيز " عودة إلى الجذور" فى الملحوظات الصحفية ١٩٨٠–١٩٨٤, المصدر المذكور.

(٢٣) كارلوس أرانجو ث. " الباقون على قيد الحياة من مذبحة زراعات الموز" بوجوتا. أى تى أواى ECOE 1985. فيكتور جوميث بوبيا" مزارع الموز: كانت تسع مزارع" الاسبكتادور (المشاهد) بوجوتا، ١٠ ديسمبر١٩٧٢ . مجلة أراكاتاكا رقم ٢٠١ أراكاتاكا , ١٩٨٣ وبعد ذلك بخمسة أشهر من المذبحة نشرت صحيفة الاسبكتادور فى بوجوتا يوم ١٩ مايو ١٩٢٩ مقابلة مع الجنرال المحافظ بومبيليو جوتيريث التى صرح فيها: لدى أدلة لا تُدحض تدل على أنَّ ضحايا مذبحة الموز تجاوز عددهم الألف قتيل. هذا الرقم تُخفيه الحكومة" أمّا الباقون على قيد الحياة فقد أوضحوا من جانبهم فى كتاب كارلوس أرانجو ، وبإصرار على أنَّ جميع الضحايا تقريباً قد أُلقيت جثثهم فى البحر خلال تلك الليلة. وكان أحد السائقين الذين كانوا يقودون السيارات لنقل الجثث إلى مكان وجود اللنش الذى كان يحملهم إلى الباخرة التى ستقلُّهم إلى داخل البحر. كان هذا السائق يُلقب بوبيا. لقد تمرد فى تمام الساعة الرابعة صباحاً ، ولم يرد نقل مزيد من الموتى لأنه كان مُرهقًا ومتوتراً" (سانتندير أليمان) لقد كنت هناك بالمحطة ، وقد شهدت الواقعة ، وقد رأيت سقوط قتلى من أهالى ثيناجا ، كما رأيتهم وهم يحملون الكثيرين لإلقائهم فى البحر" كارلوس ليال).

(٢٤) الصحافة ، بارأنكيا فى ١٤ ديسمبر ١٩٢٨ .

(٢٥) صحيفة الاسبكتادور، بوجوتا في١٩ مايو١٩٢٩

(٢٦) إنَّ رسالة القُنصل الأمريكي في بوجوتا جيفرسون كافِّي مؤرخةً في ١٥ يناير١٩٢٩، وقد نُشرت في وسائل الإعلام بعد ذلك بوقتٍ كبير.

(٢٧) جاء ذلك ضمن السيرة الذاتية الموجزة لراؤول إدواردو مايتشا في كارلوس أرانجو ث. المصدر المذكور.

(٢٨) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز للصحفي جوستابو تاتيس جيراً. المقال المذكور.

(٢٩) ويؤكد أحد الباقين على قيد الحياة من هذه المذبحة وهو سيكستو أوسبينا نونيث – على سبيل المثال – " ... قامت القوات على مدى ثلاثة أشهر طوال مدة الحصار بعمليات قمع رهيبة ، وكان الإنسان يرى قتلى في كل مكان". كارلوس أرانجو ث. المصدر المذكور.

(٣٠) من محادثاتي مع لويسا سانتياجا ماركيز ، ومارجوت ، وليخيا جارثيا ماركيز ، قرطاجنة ، يولية وأغسطس١٩٩٢ .

(٣١) جاء ضمن السيرة الذاتية الموجزة لإدواردو مايتشا ، في كارلوس أرانجو ث. المصدر المذكور.

(٣٢) روبرتو إيريرا سوتو. المصدر المذكور.

(٣٣) ذكر في تصريحات سانتندير دوران جوميث(ابن شقيق الجنرال خوسيه روساريو دوران) لكارلوس أرانجو ث. المصدر المذكور. في البرقية التي أرسل بها مجلس منتجي الموز في أراكاتاكا إلى صحيفة لابرنسا (الصحافة) في بارَّانكيا، والتي نشرتها في ٥ ديسمبر١٩٢٨ . وقد ذُكرت أسماء لجنة الوساطة برئاسة الجنرال خوسيه روماريو دوران، ولكن لم يظهر اسم جد جارثيا ماركيز ، ومع ذلك فإنَّ كلام سانتندير دوران جوميث يؤكد أنَّ العقيد ماركيز كان ضمن اللجنة المذكورة يبدو لنا لا جدال فيه ، لسببٍ بسيط : أنَّ ذلك لكونه نجلاً لشقيق الجنرال دوران ، ومقرَّباً من العقيد ماركيز ، ووجب عليه معرفة هذه المعلومة دون أدنى شك.

(٣٤) روبرتو إيريرو سوتو. المصدر المذكور. وريتان بيجا. المصدر المذكور.

(٣٥) في " مائة عام العُزلة" حلَّ هذا المرسوم محل المرسوم رقم١ ، وقد تم إدماج المرسومين: حيث طُلب من الجماهير الغفيرة بالتفرق مهدداً إيَّاهم بالذخيرة الحية وإطلاق النيران ، كما اعتبر المضربين " فرقةً من الأشرار المخرِّبين". إنَّ المرسوم الذي تُلِيَ في الواقع قبل المذبحة كان بالفعل المرسوم رقم ١، بينما الذي قُرأ في الخيال كان المرسوم الرابع.

(٣٦) روبرتو إيريرا سوتو يعطي بصفة عامة رواية دقيقة وموثقة عن هذه المذبحة في منطقة زراعات الموز في ماجدلينا ، ويذكر أنَّ نتيجة رفع الجثث كان ثلاث عشرة جثة وتسع عشر جريحاً" ، ولكن المحضر الرسمي الذي يدرجه إيريرا سوتو كاملاً في النص يتحدث بالتحديد عن تسعة قتلى وثلاثة جرحى" ، وعلاوة على ذلك توجد وثائق بالصور عن المقبرة الجماعية للقتلى التسعة لكورتيس بارجاس.

(٣٧) خورخي إلييسير جايتان، مذبحة زراعات الموز ،بوجوتا، وثائق وشهادات.

هوامش الفصل الثالث

(١) إنَّ أفضل من بحث عن شجرة نسب الكاتب كانت شقيقته ليخيا بدافع مذهبها الدينى المرمونى البدعى ، إنَّ المعلومات بشأن أسرتى الأب والأم قدمتها لي ليخيا أخت جارثيا ماركيز ؛ فجميع المعلومات فى هذا الفصل يرجع الفضل إليها ما لم تذكر مصادر أخرى ، أو من دردشاتى مع جابرييل جارثيا ماركيز ، أو والدته لويسا سانتياجا ماركيز ، أو أشقائه لويس إنريكى ، وجوستابو خايمى ، ومارجوت ، وعايدة أوليخيا جارثيا ماركيز ، وكذلك ابنتى خالتيه سارة ماركيز ، ومارجوت بالديبلانكيث ، ومعلمته الأولى روسا إيلينا فيرجسون ، وصديق طفولته لويس كارميلو كوريًا جارثيا ، والعديد من أهالى أراكاتاكا الذين تحدثت معهم خلال أسفارى المتعددة إلى أراكاتاكا والتى بدأت فى يناير ١٩٧٣

(٢) ليخيا جارثيا ماركيز تشك فى أنَّ والدها - نظرًا للفقر المدقع الذى كانت تعانى منه الأسرة - لم يسجل نفسه رسميًا فى جامعة قرطاجنة ؛ بل كان يحضر بصورة غير رسمية بعض الدراسات بمدرسة طب الأسنان ، وهذه المعلومة لم أستطع التحقق منها لأن أرشيفات تلك الفترة لم تكن موجودة فى جامعة قرطاجنة.

(٣) ومن العجيب أنَّ كارلوس إنريكى باريخا سيكون بعد ثلاثة وعشرين عامًا أستاذًا بكلية الحقوق لجارثيا ماركيز بالجامعة الوطنية فى بوجوتا.

(٤) خوسيه فونت كاسترو. المفاتيح الحقيقية لقصة "الحب فى زمن الغضب" صحيفة البابيس" الدولة"، مدريد، فى ١٩ يناير١٩٨٦ .

(٥) المصدر المذكور نفسه.

(٦) المصدر المذكور نفسه.

(٧) جابرييل جارثيا ماركيز "حكاية الحكاية" المصدر المذكور.

(٨) خوسيه فونت كاسترو. المقال المذكور.

(٩) إنَّ نفس جابرييل إيلخيو اضطر لتأجيل اقتراحه بالزواج فى بعض الأحيان لأنَّ الخالة فرانثيسكا رفضت الابتعاد عن شجرة اللوز ، حيث كان يتحدث مع لويسا سانتياجا ماركيز ، لأن ايلخيو قد توسل إليها بأن تتركهما بمفردهما لحظة لأنَّه كان لديه أمر خاصٌ سيخبر به خطيبته. ولكن الخالة فرانثيسكا لم ترفض فقط طلبه بل ردت عليه أيضًا قائلة : ماذا يمكن أنَّ تقوله للطفلة لويسا؟ ، ولا تستطيع الاستماع إليه خالتها. إنَّ هذه النادرة والجملة أو العبارة يسجلها جارثيا ماركيز فى قصته " الحب فى زمن الغضب" بين الخالة إيسكولاستيكا داثا وفلورينتينو أريثا.

(١٠) خوسيه فونت كاسترو. المقال المذكور.

(١١) لقد استاء دائمًا والد الكاتب أنَّ يذكر ماريو بارجاس يوسا عن جارثيا ماركيز فى قصة " متمرد " (برشلونة، بارَّال للناشرين، نوفمبر١٩٧١) أنَّ والد الكاتب رُفِضَ فى منزل أهل ماركيز إجواران لأسباب

اجتماعية وأسرية. والحقيقة أنّ هذه الأسباب كانت مشهورة بين الأقارب والمقربين إلى أسرة جارثيا ماركيز، كما أنه من الحقيقة أيضًا أنّ أسرة ماركيز إجواران في البداية رفضت كل خطيب لنجلتها مهما كان وضعه الاجتماعي.

(١٢) من محادثاتي مع أنطونيو باربوسا نجل دوريث الصيدلي الذي يحمل نفس الاسم والعديد من مواطني أراكاتاكا ، أراكاتاكا ، يوليه ١٩٩٢ .

(١٣) من دردشاتي مع سانتندير إنفانتي صانع الألعاب النارية في أراكاتاكا، يولية ١٩٩٢ .

(١٤) من محادثاتي مع أنًا ريوس ، وجراثيانو بريتو، بارًانكاس، أغسطس١٩٩٢ . وكان بريتو المكلف بإحضار البغال لهم إلى بيانويبا إلى منزل الجنرال ساباس سوكاراس (الصديق القديم للعقيد نيقولاس ماركيز) لكي يحمل السيدة ترانكلينا ونجلتها لويسا سانتياجا إلى بارًانكاس.

(١٥) خوسيه فونت كاسترو، المقال المذكور.

(١٦) إنّ هذه القصة تتذكرها جيداً مثل قصص أخرى ؛ أنًا ريوس لأنها سمعتها من والديها أرثينيا وأويخينيو ريوس.

(١٧) ليس صحيحًا كما يؤكد ماريو بارجاس يوسا في قصة " متمرد" أنّ انتقال جابرييل إيليخو جارثيا إلى ريو هاتشا كان يرجع بناءً على ضغوط من العقيد ماركيز: لقد كان الانتقال بناءً على رغبة ومبادرة شخصية من والد الكاتب ، كما حكته لي والدة جارثيا ماركيز .

(١٨) خوسيه فونت كاسترو، المقال المذكور .

(١٩) استنادًا لوالدة الكاتب ؛ هناك خطأ في تاريخ عقد زواجها ؛ فالعقد ينص على أنّ لويسا سانتياجا ماركيز إجواران ، وجابرييل إيليخو جارثيا مارتينيث تزوجا في اليوم الثاني عشر من يونية١٩٢٦، والحقيقة أنّ الزواج كان في الحادي عشر لأنها تتذكر أنّ الزواج كان بالضبط نفس يوم عيد القلب المقدّس للسيد المسيح.

(٢٠) إنّ العبارة لم تكن فقط بمثابة منافسة ومسابقة بين الأسرتين؛ بل أيضًا أدرجها جارثيا ماركيز حرفيًا في قصته" الحب في زمن الغضب" .

(٢١) إنّ شهادة التعميد (الموجودة في المجلد الثاني عشر.الصحيفة١٢٦ . هامش ٣٢٤ مكتبة سان خوسيه في أراكاتاكا) تقول: إنّ جابرييل جارثيا ماركيز " وُلِدَ في السادس من مارس عام ألف وتسعمائة وسبعة وعشرين (١٩٢٧)" ، والمعلومة الأخرى التي تؤكد ميلاد الكاتب عام ١٩٢٧ دون أدنى خطأ ، وليس ١٩٢٨ لأن شقيقه لويس إنريكي هو الذي وُلِدَ في الثامن من سبتمبر(١٩٢٨)" وفقًا لشهادة التعميد الكائنة في المجلد الحادي عشر الصفحة٩٦ والهامش١٩٢ بنفس الكنيسة أو الأبرشية بأراكاتاكا.

(٢٢) خوسيه فونت كاسترو، المقال المذكور.

(٢٣) لاثارو دياجو خوليو ، المصدر المذكور.

(٢٤) في جارثيا ماركيز وأسرته يوجد الشك بشأن أنّ يكون هناك احتمالٌ بأنّ جابيتو في الثانية من عمره تقريبًا اصطحبه والداه إلى بارًانكيا في يناير١٩٢٩، وأنه في العام التالي بعد ولادة مارجوت أعيد إلى أراكاتاكا مع جديه، ولكن رسالة من الخالة فرانثيسكا ثيمودوسيا ميخيا بتاريخ ٢ مايو١٩٢٩ تُبدد هذا الشك. وكانت الرسالة موجهةً إلى زوجة أخيها أويخينيو ريوس في بارًانكاس ، وهذا ما يهمنا من تلك الرسالة: لويسا تعيش في بارًانكيا ولكن النجل الأكبر هنا في منزل جديه ، والثاني الذي سيكمل ثمانية أشهر ، وهو الذي في الصورة (...) الكبير يُسمى جابرييل ، ونطلق عليه جابيتو لم يظهر في الصورة لأنه لا يُوجد مصور هنا" الرسالة تنتمي إلى أرشيف أنًا ريو.

(٢٥) جاء ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لسوسانا كاتو أن جارثيا ماركيز عاد إلى بوليفار إلى ميدان المعركة" بروثيسو، المكسيك في ١٤ أبريل ١٩٨٩ . وفي محادثاتنا في المكسيك يومي ١٤، ١٧ مارس١٩٨٩ . لقد حدثني جارثيا ماركيز عن هذا السفر إلى بارانكيا ، كأنه اليوم الذي اصطحبوه لكي يتعرف على شقيقته مارجوت". وبعد ذلك ، وبالحديث مع والدته وشقيقتيه في قرطاجنة الأمريكية خلال شهر يولية وأغسطس١٩٩٢، وبمناسبة مرور مائة عام على وفاة بوليفاراستطعت الاستنتاج أن الكاتب التبس عليه الأمر بين اليوم الذي اصطحبوه لكي يتعرف على أخته عايدة روسا ، وذلك الذي أخذوه للتعرف على شقيقته الأخرى مارجوت والذي كان قبل ذلك بعام.

(٢٦) جوستابو كاستيون ليثيرو ، وخيلبير جوميث ، وخايمي سانتوس بريرثا. إعادة بناء الذاكرة المعمارية، واقتراح إعداد المنزل متحفًا لجابرييل جارثيا ماركيز في أراكاتاكا (رسالة تخرج) جامعة خورخي توليدو لوثانو (قسم الكاريبي) كلية الهندسة المعمارية، قرطاجنة دي إندياس١٩٩٢ . ومع جوستابو كاستيون ليثيرو الأكثر اهتمامًا بأدب المهندسين المعماريين الثلاثة. لقد قضيت أسبوعًا في أراكاتاكا لأتأكد على الطبيعة من المعلومات والخرائط كعمله الرائع. وإلى جانب المعلومات التي حصلت عليها من لويسا سانتياجو ماركيز ، ومارجوت جارثيا ماركيز، وسارة ماركيز ، وعمل المهندسين المعماريين الشبان الثلاثة ، كما كان ذلك كافيًا ونهائيًا لإعادة بناء المنزل الذي وُلِدَ فيه الكاتب.

(٢٧) لويس هارس، "جارثيا ماركيز أو الضعف" في كتاب " كُتَّابنا" بوينس أيريس، دار نشر أمريكا الجنوبية، نوفمبر١٩٦٦، وجابرييل جارثيا ماركيز ، وماريو بارجاس يوسا، القصة في أمريكا اللاتينية: ديالوجو (حوار)، ليما ، دار نشر كارلوس ميا بارترى UNI 1968 .

(٢٨) جاء ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لبلينيو أبوليو ميندوثا في "رائحة الجوافة" برشلونة، دار نشر بروجيرا أبريل ١٩٨٢ .

(٢٩) هذه الحكاية قصتها عليَّ (أنطونيا) (انظر الاسبكتادور "المجلة الأسبوعية التي تصدر يوم الأحد" بوجوتا ، ٢٢ أكتوبر١٩٧٢) ، وقد أكدتها لي حرفيًا سارة ماركيز بعد ذلك بعشرين عامًا في محادثاتنا بسانتا مارتا في أغسطس ١٩٩٢ .

(٣٠) جابرييل جارثيا ماركيز" لا كوندوريما الكلمات" في ملحوظات صحفية١٩٨٠-، ١٩٨٤ ، وكلمة كوندوريما كلمة أقليمية ربما تكون من فنزويلا، وتعني " الكابوس"، ولكن جدَّ الكاتب أعطى لها مدلولاً بمعنى " العذاب الدائم". وفي " نبأ موت مُعلن" ظهرت هذه الكلمة على لسان أنخيلا بيكاريو: "...... لقد أحسست وكأنني تخلصت تمامًا من العذاب الدائم للموت".

(٣١) جابرييل جارثيا ماركيز ، وماريو بارجاس يوسا. المصدر المذكور.

(٣٢) من محادثاتي المذكورة مع سارة ماركيز.

(٣٣) من محادثاتي مع روسا إيلينا فيرجسون ، ميداين، يونية١٩٩٢، ومارجوت بالديبلانكيث بوجوتا، يوليه ١٩٩٢ .

(٣٤) جابرييل جارثيا ماركيز ، وماريو بارجاس يوسا. المصدر المذكور.

(٣٥) لا يوجد أحدٌ في أسرة جارثيا ماركيز متأكدٌ من الكتابة الصحيحة للاسم الثاني للخالة فرانثيسكا؛ فكل واحد يكتبه كما يحلو له: بحرفي SS أو بحرف S واحد أو بحرف S في البداية أو C في آخر الاسم،ولكن في رسالة لها تنتمي إلى أرشيف أنًّا ريو رأيت أنها تُوَقِّع فرانثيسكا Francisca C. Mejía مما يدل على أنَّ الاسم ثيمودوسيا Cimodosea كانت تكتبه على الأقل بحرف C في بداية الاسم.

(٣٦) جارثيا ماركيز، وماريو بارجاس يوسا. المصدر المذكور.

(٣٧) أى أنَّ الحكاية كما حكاها جارثيا ماركيز لبارجاس يوسا فى الحوار المذكور الذى دار بينهما يومى ٥ ، ٧ سبتمبر١٩٦٧ فى الجامعة الوطنية للهندسة بمدينة ليما لا يمكن أنْ يكون قد حدث بهذا الشكل مثلما حكته لي سارة ماركيز، والخالة فرانثيسكا لم تكن تعرف الحياكة ، ولكن الخالة ألبيرا هى التى كانت تجيد الحياكة. وبالإضافة إلى ذلك عندما حدثت واقعة الكفن لم يكن جارثيا ماركيز موجوداً فى أراكاتاكا ؛ بل كان فى بوجوتا لحضور امتحان للحصول على منحة بوزارة التعليم وهو الامتحان الذى مكنه من إتمام دراسته الثانوية في ثيباكيرا.

(٣٨) جاء ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لكلاوديو ديريفوس فى بلاى بوى إنترفيو: "جابرييل جارثيا ماركيز " بلاى بوى ، يناير ١٩٨٣ (التيمبو في بوجوتا حيث نشر رواية موجزة وترجمة لكارلوس .E ريستريبو، فى ٩ يناير١٩٨٣ والتى استشهد منها).

(٣٩) وعلى سبيل المثال فى لويس هارس المصدر المذكور، جابرييل جارثيا ماركيز ، وماريو بارجاس يوسا. المصدر المذكور، وبيلينيو أبوليو ميندوثا .المصدر المذكور.

(٤٠) جاء ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لبيلينيو أبوليو ميندوثا .المصدر المذكور.

(٤١) جابرييل جارثيا ماركيز، وماريو بارجاس يوسا .المصدر المذكور.

(٤٢) جاء ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لإيرنستو جونثاليث بيرميخو فى"جارثيا ماركيز: الآن مائتا عام من العُزلة" ترينوفو، مدريد، نوفمبر١٩٧٠، وبيلينيو أبوليو ميندوثا ،المصدر المذكور.

(٤٣) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز إلى ماريانيلا بالبى فى "البوليفارالكاريبى وليس الرومانى"، الناثيونال (بوث سوبليمينتا") كاراكاس فى ٢٣ فبراير ١٩٨٩ ، وطبقًا للكاتب كان الجد يصطحبه لتضليل الرقابة أو الحراسة الجمركية لأنَّ القمصان الحرير والعطور كان يدخلها عن طريق التهريب.

(٤٤) إنَّ الحكاية التى قصتها علىَّ ليخيا جارثيا ماركيز تعتبر إحدى اللحظات القوية فى طفولة الكاتب.

(٤٥) جاء ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لسوسانا كاتو. المقال المذكور.

(٤٦) جاء ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لبيلينيو أبوليو ميندوثا. المصدر المذكور.

(٤٧) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لجوستابو تاتيس جيِّرا .المقال المذكور.إنَّ الحسناء الأمريكية المجهولة كانت تُسمى باتريثيا براون فى "مائة عام من العُزلة" ، وبعد الطوفان الذى قضى على "الحظائر المكهربة" وزراعات الموز، ولم يبق منها سوى قفاز داخل سيارتها التى أطفأتها راهبات الثالوث أو التثليث.

(٤٨) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لإنريكى سانتوس كالديرون، وخورخى ريستريبو فى "إننى ملتزم ومتورط حتى النخاع مع الصحافة السياسية". البديل رقم ٢٩، بوجوتا من ٢٥مارس إلى ١٠ أبريل، ١٩٧٥ .

(٤٩) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لجوستابو تاتيس جيِّرا. المقال المذكور.

(٥٠) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز للويس هارس.المصدر المذكور. وإلى ماريا إيستر خيليو فى " الكتابة الجيدة واجب ثورى" ترينوفو، مدريد١٩٧٧ .

(٥١) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيزلمانويل بيريرو، هافانا، ١٩٧٩ .

(٥٢) جابرييل جارثيا ماركيز : "العودة إلى الجذور".المصدر المذكور.

(٥٣) المصدر السابق نفسه .

(٥٤) استشهاد من جانب ماريو بارجاس يوسا في جارثيا ماركيز " قصة متمرد". في يونية ١٩٩٢ تحدثت مع أوسبالدو روبليس كتانيو الذى كان قاضياً فى كالى وعاد ليحدثنى فى هذا الصدد فى آخر لقاء له مع جدة جارثيا ماركيز. وطبقًا لما ذكره كان اللقاء فى أواخر عام ١٩٤١ قبل أنْ تموت الخالة فرانثيسكا ثيمودوسيا ميخيا ، التى وجدها فى صحبتها كفيفة تماماً.

(٥٥) خورخى إليسير جايتان.المصدر المذكور.

(٥٦) ذُكِرَ فى تصريحات جارثيا ماركيز لجوستابو تاتيس جيْرا .المصدر المذكور.

(٥٧) جابرييل جارثيا ماركيز ،"ذاكرة سعيدة فى كاراكاس". الاسبكتادور(المشاهد)، بوجوتا فى ٧ مارس ١٩٨٢ .

(٥٨) جابرييل جارثيا ماركيز : " العودة إلى الجذور".المصدر المذكور.

(٥٩) المعلومات حول معنى والأصل الاشتقاقى لاسم ماكوندو كان الفضل فيها للخدمات الإعلامية للموسوعة البريطانية. اشتقاقاته ، وتنوعاته الاشتقاقية فى مختلف اللغات الإفريقية المتعددة.

(٦٠) إنريكى بيريث أربيلايث النباتات المفيدة فى كولومبيا، ميداين. دار نشر فيكتور هوجو ، ومن محادثاتى مع لويس كارميلو كورِّيا جارثيا ، بارَّانكيا ، أغسطس١٩٢٢، بيدرو أنطونيو بيريث مونيوث وديونيسيو سانشيث ، جواكامايال ، أغسطس١٩٩٢ .

(٦١) جابرييل جارثيا ماركيز " الشعر فى متناول الأطفال" فى ملحوظات صحفية ١٩٨٠- ١٩٨٤ . المصدر المذكور.

(٦٢) جاء ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لبيلينيو أبوليو ميندوثا .المصدر المذكور.

(٦٣) جابرييل جارثيا ماركيز"الزى الفوسفورى" التيمبو (الزمن) ، بوجوتا فى ديسمبر ١٩٩٢ .

(٦٤) منذ ظهور"الحب فى زمن الغضب" انتشرت هذه الرواية ، التى نصت على أنَّ جدُّ القصَّاص تُوفى بسبب وقوعه وهو يحاول اصطياد ببغاء من أحد أغصان شجرة المانجو، كما حدث للدكتور خوبينال أوربينو فى القصة، ولكن كما ذكرت لي سارة ماركيز التى شهدت الأحداث إنَّ سقوط أو وقوع العقيد ماركيز لم يكن فقط من فوق غصن شجرة المانجو؛ بل حدثت الوفاة بعد عامين من ذلك نتيجة عدة ظروف. وفى شهادة الوفاة الموجودة فى أرشيفات الكنيسة بكاتدرائية سانتا مارتا ذكر أنَّ الجدُّ تُوفى نتيجة الإصابة بالتهاب رئوى.

(٦٥) وطبقًا لبيانات شهادة الوفاة الكائنة فى المجلد الحادى والثلاثين.الصفحة ٢٩٩ رقم ٦٣-٢٠ من أبرشية الساجرادو ، وسان ميجيل فى سانتا مارتا . وفى نفس يوم ٤ مارس نشرت صحيفة الاستادو (الدولة) فى سانتا مارتا فى باب " الحياة الاجتماعية" نبأ وفاة جدُّ الكاتب. وفى الساعات الأولى من صباح اليوم تُوفى السيد نيقولاس ر.ماركيز. نبعث بتعازينا إلى أهله وذويه". وبين هذا التاريخ ، و١٩ من نفس الشهر نشرت فى الصحيفة ذاتها ترجمتان للصديقين ، وبرقية عزاء من مجلس مدينة أراكاتاكا ، مما يُبرهن الحب الكبير والتقدير الذى كان يتمتع به جدُّ جارثيا ماركيز ليس فقط فى أراكاتاكا؛ بل أيضًا فى جميع أنحاء محافظة ماجدلينا.

(٦٦) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لبيلينيو أبوليو ميندوثا .المصدر المذكور.

هوامش الفصل الرابع

(١) القرار رقم ١٩٠ وزارة التعليم الوطنى (المجلس المركزى للشهادات الطبية)، ١٣مايو عام ١٩٣٨ . إنَّ المعلومات الموجودة فى هذا الفصل إذا لم يتم الإشارة إلى مصادر أخرى تأتى من محادثاتى مع جابرييل جارثيا ماركيز، ووالدته لويسا سانتياجا ماركيز، وأشقائه لويس إنريكى ، ومارجوت، وعايدة، وليخيا جارثيا ماركيز ، وأستاذه القديم ، والأب اليسوعى إجناثيو ثالديبار.

(٢) خوان جوساين، " جارثيا ماركيز: هذا المجهول" كروموس (ألوان) رقم٢٨٠٤، بوجوتا، ١٩٧١ .

(٣) جاء ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لروساريو أجوديلو فى محادثات مع جارثيا ماركيز" بويبلو (ملحق السبت الأدبى) مدريد فى ٢ مايو ١٩٨١ .

(٤) داسو سالديبار، جارثيا ماركيز: واقع بدأ ألا يكون" الاسبكتادور(المشاهد) ("مجلة الأحد")، بوجوتا فى ٩ أكتوبر ,١٩٧٧ ، عندما استشرت أرشيفات مدرسة سان خوسيه التى كانت لا تزال كاملة، ولكن بعد سنوات لاحقة مع الولع بجارثيا ماركيز المتزايد ، وبنقل المدرسة إلى مكانٍ آخر اختفت الوثائق المتعلقة بالكاتب. فشهادات التقديرات للعامين الأوَّل والثانى الثانويين تبرهن على أنَّ التحصيل الأكاديمى للتلميذ " جابرييل جارثيا" . وشهادة عام ١٩٤١تلك السنة التى مَرض فيها تشير إلى حضور غير منتظم للغاية حتى مايو، عندما اضطر إلى ترك الدراسة بالسنة الثانية ، وعاد مع والديه إلى سوكرى.

(٥) خوان ب. فرنانديث رينو ، يتذكرُ عندما كان جارثيا ماركيزجابيتو (أى جابى الصغير) مجلة التيمبو (الزمن) "قراءات أيام الآحاد" ، بوجوتا ، أكتوبر ١٩٨٢ .

(٦) "ماما جايو" من أين جاء مصطلح " ماما جايسمو" و" ماما جايستا"، إنه تعبير شعبى ذو استخدام شائع اليوم فى كولومبيا ، حيث يحدد المعنى أو المغزى المزاجى المرح لسكان ساحل الأطلسى . وبصفة عامة يستخدم كمرادفات " تومار البيلو" أى يسخر من أو يستهزئ من ، ولكن فى مصطلحات جارثيا ماركيز " مامار جايو" يعنى المزاج الرقيق والمزاح الراقى أو اللحم سيئ الطعم أو المذاق . إنه كما حدده جارثيا ماركيز بنفسه يتعامل مع الأمور الجادة جداً والمزعجة للغاية ، وكأننا لا نأخذها مأخذ الجد خوفًا من المهابة والوقار". مامار جايو Mamar gallo طبقًا لعلماء لغة العرقيات . إنه تعبير قادم من فنزويلا ، وعلى ما يبدو يرجع أصله إلى مربى الديوك الرضاعة أو مص عرف الديوك. ويعنى أيضًا فى بعض المناطق الكولومبية مداعبة أو تقبيل العضو التناسلى للمرأة.

(٧) فيكتور جونثاليث سولانو يؤكد على وجود محاولات أدبية سابقة: وكحالة مجهولة فنحن بإمكاننا الإشارة إلى عمر الحادية عشرة (......) . كتب جابيتو بألفاظ ريفية ما يمكن أنْ يُطلق عليه اقتحامه الأوَّل لمجال الأدب ؛ التى تتكون من خمس صفحات كرَّاسة على شكل بحث أسماه" محبرتى وأنا "و" لماذا أنَّا كذَّاب" (جارثيا ماركيز فى بندول الزمن) . أنترميديو - ملحق الكاريبى، بارَّانكيا فى ٢٤ أكتوبر ١٩٨٢). ونظرًا للعنوانين المذكورين يمكن أنَّ يكون ذلك صحيحًا ، ولكن ليس فى الحادية عشرة من عمره ؛ بل قبل بلوغه هذه السن ،

ولكن في محادثاتي التي جرت مع جارثيا ماركيز بالمكسيك أبدى الكاتب تشككه وارتيابه عن وجود هاتين المحاولتين الأدبيتين : "لا أعتقد أنْ هذين الموضوعين المدرسيين في فترة مونتيسوري ، لأنني فقط تعلمت القراءة والكتابة في العام الثاني ، وكنت أقرأ باستمرار في الصف الثالث بالمدرسة، واعتباراً من ذلك العام كنت أرسم. إنّ أول موضوعات كتبتها في بارّانكيا عندما كنت تلميذاً في مدرسة سان خوسيه ،ولكن قبل ذلك لا؛ فقد كانت رسومات ورسومات ، ونُشرت في مجلة خوينتود في أعدادها ٦،٤،٣،٢،١ على التوالي في شهور يونية، وسبتمبر، ونوفمبر عام١٩٤٠ومارس١٩٤١ونوفمبر١٩٤٢ .

(٨) مجلة خوينتود (الشباب) العدد١ . بارّانكيا، يونية ١٩٤٠ .

(٩) مجلة خوينتود (الشباب) العدد٤ . بارّانكيا ، مارس ١٩٤١ .

(١٠) هذه الأشعار تنتمي إلى تعاونه الصحفي" من خلال ركن في المنزلة الثانية" ، وقد نشرتها مجلة خوينتود (الشباب) بالعدد الثالث في نوفمبر ١٩٤٠ .

(١١) ماريو بارجاس يوسا. المصدر المذكور .

هوامش الفصل الخامس

(١) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لخيرمان كاسترو فى "جابو يحكى قصة حياته" الاسبكتادور (المشاهد) ، بوجوتا من ١٦ إلى ٢٣ مارس ١٩٧٧(هذا التحقيق كان امتيازًا مبدئيًا من الكاتب إلى نفس الصحيفة للتليفزيون الكولومبى بمناسبة نقل أو إذاعة الإعداد التليفزيونى لقصته "الساعة المشئومة" ، وهى المرّة الأولى التى يمنح فيها جارثيا ماركيز مقابلة لوسيلة إعلام مسموعة مرئية). وقد ذُكر بين بعض الأصدقاء المقربين للكاتب أنها كانت أحد الأسباب التى جعلته يترك المنزل للعلاقة السيئة التى كانت تربطه بوالده. هذا أمر محتمل ؛ ففى رائحة الجوافة اعترف جارثيا ماركيز لبيلينيو ميندوثا: " النتيجة أنّ علاقاتنا كانت (علاقته مع والده) حتى المراهقة صعبة" ، وبعد ذلك بأربعة عشرعامًا بينما كان يشرف على ورشة عمل فى قرطاجنة الأمريكية مع اثنى عشر صحفيًا أنه فى ثيباكيرا اضطر للحصول على درجات ممتازة لكى يظلّ يستمتع بالمنحة لأنه كان لا يرغب فى العودة إلى منزله ، لأن الكاتب كان يشعر بالسعادة خارجه (انظر كارلوس أرّوبو، جارثيا ماركيز: أنا لا أعرف قواعد النحو" البابيس (البلد)، مدريد فى ٣١ ديسمبر١٩٩٥).

(٢) جابرييل جارثيا ماركيز، " بوجوتا١٩٤٧" فى ملحوظات صحفية ١٩٨٠-, ١٩٨٤المصدر المذكور.

(٣) خيرمان كاسترو كايثيدو، المقال المذكور.

(٤) جابرييل جارثيا ماركيز، " نهرالحياة" فى ملحوظات صحفية١٩٨٠-١٩٨٤،المصدر المذكور.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) المصدر السابق نفسه .

(٧) خيرمان كاسترو كايثيدو، المقال المذكور.

(٨) فى الحقيقة بدأ نجمه يضئ أثناء الرحلة النهرية بالباخرة ليس فقط لأنّه تعرّف على الرجل المتيم، بل ربما للنادرة التى حكاها لى فى بوجوتا لورينثو سولانو بيلايث محافظ لا جواخيرا السابق وحفيد لورينثو سولانو جوميث الصديق الكبير لجدّ جارثيا ماركيز: إنها قصة لم أستطع توضيحها. ولا أدرى أكانت فى ١٩٤٣ أم فى ١٩٤٤ عندما كان فى باخرة تابعة للشّركة البحرية الكولومبية كان هناك طالبٌ على ظهر الباخرة يبكى لأنه فقد حافظة نقوده بكل ما فيها من مائتى أو ثلاثمائة بيزو. لقد وجدتها فى حمّام الباخرة، وعندما عاد الفتى أعطيتها إيّاه. لقد عانقنى شاكرًا إيّاى ثم تناولنا بعض كئووس الروم المخلوط بالكوكاكولا. وعلى ما يبدو لى إنّ صاحب الحافظة كان جابرييل جارثيا ماركيز ، ولكننى لم أره بعد ذلك قط. ولكن بعد بضع سنوات عندما كان يعمل فى الاسبكتادور (المشاهد) ، ونشر أول كتاب له وكل مرّة كُنْتُ أرى فيها صورته فى الصحف كنت أتذكر نادرة حافظة النقود".إنّ جميع المعلومات المذكورة فى هذا الفصل إذا لم يذكر مصدر آخر هى من محادثاتى مع جارثيا ماركيز وأشقائه لويس إنريكى ، ومارجوت جارثيا ماركيز ، وأستاذه الشاعر كارلوس مارتين ، وزميله السابق المهندس المعمارى إدواردو أنجولو فلوريس ، وطبيب المسالك البولية أرماندو لوبيث ، والتلميذ السابق بمدرسة الليسيه الوطنية فى ثيباكيرا والطبيبتين جلاديس وثونى كالديرون وكريمات كارلوس خوليو

كالديرون إيرميدا أستاذ الأدب لجارثيا ماركيز فى ثيباكيرا ، وماريا لويسا نونيث ، وماريا لويسا جوميث دى أجيرى ، وأرملة ونجلة المحامى أدولفو جوميث تمارا على التوالى، ومن المدير الوطنى للمنح الذى ساعد شاب أراكاتاكا فى الحصول على المنحة فى بوجوتا لإتمام دراسته الثانوية فى ثيباكيرا .

(٩) خيرمان كاسترو كايثيدو .المقال المذكور.

(١٠) جابرييل جارثيا ماركيز، " بوجوتا١٩٤٧". المصدر المذكور.

(١١) فى " أخطر لحظة فى الحياة" للقصائد النثرية لثيسار بابيخو رجل يعترف : إنَّ هذه هى أخطر لحظة فى حياتى ، حيث كانت تكمن فى وحدتى وعزلتى". إنَّ هذه العزلة كما هو معلوم ستكون أخطر لحظة فى حياته ، إنها الوباء الأعظم فى حياة شخصيات جارثيا ماركيز.

(١٢) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لدانى سامبر فى" القصَّاص جارثيا ماركيز لن يعود للكتابة"، مجلة التيمبو (الزمن) "قراءات أيام الأحد"، بوجوتا فى ٢٢ ديسمبر ١٩٦٨ .

(١٣) خيرمان كاسترو كايثيدو،المقال المذكور.

(١٤) المصدر السابق نفسه .

(١٥) ومن الغريب أنَّ أول أشعار مُقفَّاة والتعليقات الصغيرة لجارثيا ماركيز كان قد نشرها فى مجلة خوبينتود (الشباب) بمدرسة سان خوسيه ، وهى موجودة الآن فى مكتبة هذه المدرسة بفصل مساعى اليسوعى والمؤرخ فورتوناتو إيريرا .

(١٦) فى دفتر التسجيل فى ١٩٤٣رقم ١٨٢ ذُكِرَ فيه أنه سجِّل فى الصف الثالث بالمرحلة الثانوية قادماً من مدرسة سان خوسيه فى بارَّانكيا " كطالب داخلية حاصل على منحة". إنَّ أرشيفات مدرسة الليسيه الوطنية القديمة للبنين توجد فى مدرسة لاساى الحالية. وكما حدث فى بقية كولومبيا فإنَّ الولع بجارثيا ماركيز هو ما جعل معظم الأرشيفات المذكورة تهتم بكل ما يتعلق بحياة وإنتاج الكاتب. ومن أرشيفات لاساى الحالية لا توجد شهادتا قيد أو تسجيل جارثيا ماركيز فى الصفين الخامس والسادس فى المرحلة الثانوية ، وكذلك لوحتا الفُسيفساء لدفعة خريجى الثانوية عام١٩٤٦: الرسمية والكاريكاتير التى رسمها جارثيا ماركيز بنفسه.

(١٧) ذكر ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لروساريو أجوديلو. المقال المذكور.

(١٨) هذا الإيضاح قام به جارثيا ماركيز فى أبريل١٩٩٢ على متن الباخرة الفرنسية ميليكاديس ، التى رست فى ميناء قرطاجنة الأمريكية لتحية القصَّاص.إنَّ كلمات جارثيا ماركيز مذكورة فى المقال المذكور لجوستابو تاتيس جيراً .

(١٩) كارلوس مارتين " نبأُ صغير يتعلق بجابو" ، نص قرأه المؤلف فى إذاعة نيدر لاند فى أكتوبر ١٩٨٢ بمناسبة منح جائزة نوبل لجارثيا ماركيز.

(٢٠) جاء ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لبيلينيو ميندوثا . المصدر المذكور.

(٢١) جاء ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لخوان جوستابو كوبو بوردا فى كومادريو ليتراريو خلال أربع ساعات مع جارثيا ماركيز، فى الأدب الآخر لأمريكا اللاتينية، بوجوتا، أنكورا- بروكولتورا، ١٩٨٢ .

(٢٢) المصدر السابق نفسه .

(٢٣) جيرمو بالينثيا (١٨٧٣-١٩٤٣) كان أبرز ممثلى شعراء كولومبيا البرناسيين ، وكان شعارهم " التضحية بالعالم لتنقية بيت شعر" ، فى الخامسة عشرة من عمره فى مدرسة سان خوسيه فى بارَّانكيا لم يكن جارثيا ماركيز يقرأ ذلك فقط؛ بل كان يُنشده فى سهرات المدرسة ، ولكن فى ثيباكيرا ترك ذلك بدافع من تأثير مجموعة الحجر والسماء". وكان رأيه كقصاص شهير رأياً مدمراً عن بالينثيا: عند إعادة قراءة ما كتبه جيرمو

بالينثيا أدركت أنه كان شخصية مغرورة تماماً ، إنه كالخجل العام حيث لم أجد بيتًا واحداً جيداً من شعره" (جاء ذلك في تصريحاته لخوان جوستابو كوبو بوردا).المصدر المذكور.

(٢٤) خيرمان سانتا ماريا، " كارلوس خوليو كالديرون إيرميدا أستاذ جارثيا ماركيز" جازيتا (مجلة المعهد الكولومبي للثقافة) رقم ٣٩ ، بوجوتا ، ١٩٨٣ . كارلوس مارتين يذكّرني في رسالته المؤرخة ٢٠ يوليه ١٩٩٢ التي كتبها في لاهاي ؛ أنّ كتابه الشعري بالفعل بعنوان" عبور بري" ، الذي نشر في ١٩٤٢، وقد عرفه الأستاذ كالديرون وبعض التلاميذ في١٩٤٤ . لقد عرف جابو آنذاك ديواني الشعري الأوّل كما عَرفَ مطبوعات أو إصدارات إدواردو كارانثا وخورخي روخاس.

(٢٥) يذكرني كارلوس مارتين في رسالته المذكورة أنه في فصله قرئت عدة مرات القصيدتان الشعريتان المشئومتان" والليليون لروبين داريو.

(٢٦) روبين داريو ، سيرة ذاتيه ، مدريد ، موندادوري ، ١٩٩٠، والنص لكارلوس مارتين الذي قُرِئَ في إذاعة نيدرلاند. المقال المذكور.

(٢٧) كأنها أخذت من صفحات بلو تارك يمكن سرد أكثر من خمسة وعشرين موقفًا متشابهًا أو مماثلةً بين روبين داريو ، وجارثيا ماركيز. وليس من العبث أنّ يكون النيكاراجوي والكولومبي من كبار المؤلفين للعصر الذهبي إلى جانب أن بابيخو وبورخيس هما أعظم القصاصين والشعراء في اللغة الأسبانية. ولذلك فإنّ الوجود القريب والخصب لروبين داريو في " خريف البطريرك" جاء ليثبت ويبرهن على التأكيد المعروف لجارثيا ماركيز وهو أنّ هذه القصة بين جميع القصص التي تشتمل على أكبر عدد من مفاتيح سيرته الذاتية.

(٢٨) خ.ج. كوبو بوردا. المصدرالمذكور. بالنسبة لهذه القراءات المبكرة لجارثيا ماركيز وكارلوس مارتين يحكي لي في رسالته التي كتبها في لاهاي: إنّ المرة الأخيرة التي رأيته فيها في كولومبيا اعترف لي بأنه لم ينس قط أنني ضغطت عليه لكي يقرأ كتاباً ضخمًا بهذا الشكل ، مثل التجربة الأدبية لألفونسو رييس ، قلت له شيئًا في ذلك على سبيل المزاح إنّ هذا يرجع لحسك ونبضك كناشر".

(٢٩) كارلوس مارتين، " إزاء الصوت الجديد" جازيتا ليتراريا (المجلة الأدبية) (لسان حال المركز الأدبي لمجموعة الثلاثة عشر بمدرسة الليسيه الوطنية) ثيباكيرا في ١٨ يوليه ١٩٤٤ .

(٣٠) ماريو كونبيرس ، وخابيير جارثيس ، " استبيان اليوم" جازيتا ليتراريا، ثيباكيرا في ١٨ يولية ١٩٤٤ .

(٣١) العدد الأوّل من لا جازيتا ليتراريا(لسان حال المركز الأدبي لمجموعة الثلاثة عشر بمدرسة الليسيه الوطنية) صدرت يوم ١٨يوليه١٩٤٤، وإن كانت قد طُبعت قبل ذلك، وتتكون من ثماني صفحات ، تتكون كلٌ منها من خمسة أعمدة. مقالات ، وأخبار ، وتعليقات ، وروايات ، وأشعار للتلاميذ والمدرسين بمدرسة الليسيه الوطنية. وكانت إسهامات خابيير جارثيس (جارثيا ماركيز): في باب شعراؤنا" و" استبيان اليوم" و" لحظة النهر" تظهر في صفحتي ٥ ,٧ وتتضمن لا جازيتا ليتراريا بعض الصور الدعائية على استحياء في عمودين أسفل الصفحة ، وبهذه الدعاية كانت المجلة تمول نفسها بنفسها. إنّ هذه المعلومة لم أستطع تأكيدها ، ولكن جميع الشهادات تشير إلى أن المجلة لم يصدر منها سوى عددين أو ثلاثة أعداد. وقد حصلت على العدد الأوّل بفضل سماحة ولُطف الشاعر كارلوس مارتين.

(٣٢) خيرمان سانتا ماريا، المقال المذكور.

(٣٣) جابرييل جارثيا ماركيز، " الشعر في متناول الأطفال" ، المصدر المذكور.

(٣٤) ظهرت أشعار جارثيا ماركيز خلال فترة ثيباكيرا فى عدة مطبوعات كولومبية نظراً لأن أصحابها كانوا أصدقاء قدامى للكاتب، وقد أوضحوا لنا ذلك.

(٣٥) ولم يكن جارثيا ماركيز يكتب وينقح قصائده التى استوحاها من إلهامه ، ولكنه أيضاً كان يقرض الشعر بسهولة لأصدقائه وزملائه أو لخطيباتهم ، كما كان يفعله وهو فى الثالثة عشرة ، وفى الخامسة عشرة من عمره فى مدرسة سان خوسيه فى بارَّانكيا. إنَّ زميله إدواردو أنجولو فلوريس على سبيل المثال يتذكر هذه الأبيات: عيناك تشعان بريقًا كثيراً/ طفلة سبب سرَّائى / عيناك كالمصباحين/ قوتهما خمسة وعشرون بوجيها". إنَّ الفتيان الآخرين الذين كانوا يقرضون الشعر لم يذهبوا لمدرس الأدب لكى يصحح لهم أشعارهم ؛ بل كانوا يبحثون عن جابرييل، وكان آخرون يغافلونه ويسرقون السوناتاس أى القصائد الشعرية لكى يهدونها إلى خطيباتهم. وكما يتذكر جونثالو مايارينو ، وذات يوم ، وأثناء الرقص فى نهاية الأسبوع أراد زميلُ لجابرييل أنْ يغازل خطيبته (أى خطيبة جابرييل) ؛ حيث قرأ لها سوناتا كان صديقه قد أرسلها إلى خطيبته من قبل. وكانت الفتاة سعيدة ، وتركت الشاعر النصَّاب المنتحل ينشد الأشعار المسروقة ، وقد ردت عليه قائلة: " أنا جاريِّد غير لى الروشتة" (مشيرة بذلك إلى قصيدة للشاعر المكسيكى خوان دى ديوس بيثا) أى أنها المرسل إليها.

(٣٦) وفى المقابلة التى منحها كارلوس خوليو كالديرون إيرميدا إلى خيرمان سانتا ماريا، المقال المذكور، والمدرس جارثيا ماركيز لم يشر إلى لحظات لعدم انضباط تلميذه السابق فى ثيباكيرا. ولكن فى المحادثات التى أجريتها مع كريمتيه (إنَّ المدرس العجوز كان قد تُوفى منذ قليل) الطبيبتين جلاديس ، وثونى كالديرون حيث أكدتا لي - بالفعل - أنَّ والدهما كان قد تحدث إليهما أكثر من مرَّة عن فترة عدم الانضباط لطالب الثانوية جابرييل جارثيا ماركيز ، كذلك الروايات التى كان يفرضها عليه كعقاب.

(٣٧) من النسخة الأولى لجارثيا ماركيز لا يُعرف هل الأصل موجود أم لا. هناك أصول كثيرة للكاتب ينبغى البحث عنها واستردادها. فعن" المرض النفسى المتسلط" يتحدث المدرس كارلوس خوليو كالديرون إيرميدا فى المقابلة المذكورة مع خيرمان سانتا ماريا، وكذلك حدثنى عنها المهندس المعمارى إدواردو أنجولو فلوريس فى دردشاتنا فى بوجوتا ، ١٨يوليه١٩٩٢

(٣٨) خيرمان سانتا ماريا ، المصدر المذكور.

(٣٩) المصدر السابق نفسه.

(٤٠) المصدر السابق نفسه.

(٤١) المصدر السابق نفسه.

هوامش الفصل السادس

(١) وطبقًا للتسجيل رقم ٦٥ فى الصفحة ٣٢ بتاريخ ٢٥فبراير١٩٤٧ بكلية الحقوق بالجامعة الوطنية. نجد تقديرات جابرييل جارثيا ماركيز فى المواد التسع للصف الأول، وكذلك تقديرات المواد الأحد عشر فى الصف الثانى موجودة فى هذه الصفحة ، وجديرٌ بالذكر أنَّ الكاتب هجر الدراسة فى الصف الثانى فى ٩ أبريل ١٩٤٨ . وفى الهامش السفلى بالناحية اليمنى توجد ملحوظة بالقلم الرصاص تقول: " سَجِّل فى جامعة قرطاجنة". المعلومات التى نقدمها فى هذا الفصل إذا لم تذكر مصادر أخرى تأتى من محادثاتى مع جابرييل جارثيا ماركيز وشقيقه لويس إنريكى وأصدقائه لويس بيار بوردا، وجونثالو مايارينو ، ولويس كارميلو كوريًا جارثيا.

(٢) جاءت ضمن تصريحات جارثيا ماركيز إلى خوان لويس ثيبريان فى " صورة جارثيا ماركيز نادى القُرَّاء، سبتمبر١٩٨٩ .

(٣) الدرجة من صفر إلى خمس درجات وقد رسب فى مادة الإحصاء والسكان ؛ حيث حصل على ٢ من ٥ درجات ، ونجح فى القانون الدستورى والدولى ؛ حيث حصل على ٣ درجات ، ويوجد كشط فى هذه الدرجة. أمَّا المواد الأخرى التى درسها فى الصف الأوَّل فهى: القانون المدنى، والقانون الرومانى ، والاقتصاد السياسى العام ، والأحياء ، والتاريخ السياسى الاقتصادى فى كولومبيا ، ومدخل إلى القانون.

(٤) فى عام ١٨٥٤ انقسم الليبراليون الذين كانوا يتولون الحكم آنذاك إلى فريقين. الفريق الأوَّل ضم التجار والمحامين والخطباء ، وقد أطلق على هؤلاء اسم لوس كاتشاكوس (التجار والمحامون والخُطباء). أما الفريق الثانى فقد تألف من الحرفيين ، ومجموعات شعبية أخرى ، وقد لُقبوا جواتشيس ، نظرًا لصناديق الاقتراع التى كانوا يستخدمونها.

(٥) خيرمان أرثينييجاس ، الملح ، والذهب والزُّمرد " و" هكذا كانت بوجوتا " بوجوتا، دار نشر جاما، ١٩٨٧ .

(٦) كان أهم مقهيين لهما طابع اجتماعى وأدبى كبير هما أستورياس الكائن فى شارع ١٤ بين طريقى ٦ ، ٧ والأوتوماتيكو بشارع خيمينيث دى كيسادا بين طريقى ٥، ٦ . وفى هذين المكانين كان الكُتاب يلتقون من مختلف الأجيال مع الشباب الجامعى. وهناك حكاية توضح هذا التقارُب – على سبيل المثال– تلك التى يحكيها الشاعر ألبارو موتيس الصديق الحميم لجارثيا ماركيز: " لن أنسى أبدًا أننا كُنا ذات مرةً هناك ننتقد كاتبًا فى ذلك الحين. وعندما سمع ذلك ليون دى جرييف قال: لكى نقول هذه الأشياء لابد أنْ نعرف – يا إلهى– حتى ولو بالاسم جياومى وأبولينير" ، وقد أجبته قائلاً: لقد قرأت له. التفت دى جرييف برأسه تجاهى وسألنى عن العمر. وعندما أجبته حك لحيته ، وقال: لا يحق أن يكون الإنسان فى العشرين من العمر ... لايحق ذلك. ولكن من الرائع أنْ يكون الشخص قد قرأ لأبولنير" فرناندو كيروث، " المملكة كانت لى" (محادثات مع ألبارو موتيس) ، بوجوتا، دار نشر مجموعة نورما، أبريل١٩٩٣ .

(٧) القصيدتان لجابرييل جارثيا ماركيز تم استردادهما نتيجة لسعيٍ شخصي للويس بيار بوردا ، وقد نُشرتا في يولية ١٩٤٧ في صحيفة لا راثون (العقل) . " الحياة الجامعية " كانت تصدر كل ثلاثاء ، وقد صدرت فقط أثناء ١٩٤٧ . وكما يشير اسمها كانت تهتم بالموضوعات، والمشاكل الجامعية وخاصة القضايا الإنسانية والأدبية. إنها قصائد جارثيا ماركيز التي ظهرت في باب" الشعراء الجامعيين".

(٨) بيلينيو أبوليو ميندوثا " القضية الخاسرة" في لا ياما والإيبلو (اللهب والثلج). برشلونة ، دار نشر بلانيتا، ديسمبر ١٩٨٤ .

(٩) بيلينيو أبوليو ميندوثا نفس المصدرالمذكور يحكي أنه بعد التعرف على جابرييل جارثيا ماركيز في مقهىً بمدينة بوجوتا ، حيث قدَّمني له وعرَّفني عليه لويس بيار بوردا قال عنه إنه يتلذذ بالألم. ذات يوم ذكر في الجامعة أنه مريض بالزهري. وفي يوم آخر قال "إنه يُعاني من مرض السُل الرئوي. كان يشرب إلى أنْ يسكر ، وكان لا يحضر الامتحانات، كان ينام في بيوت الهوى، واخساراتاه، إنه ذكيٌ عبقري. ولكنه هو قضية خاسرة على الإطلاق". وعلى الرغم من أنَّ هذا الكلام يمكن أنْ يترجم رأيًا عامًا بين رفاقه آنذاك عندما كان جارثيا ماركيز طالبًا بكلية الحقوق تبدو أنها آراء مُبالغ فيها من جانب ذاكرة بيلينيو أبوليو ميندوثا على لسان لويس بيار بوردا ، لأنَّه كما يُرى كان يقدِّر رفيقه في القراءات الأدبية والصحفية إلى أقصى درجة.

(١٠) جاءت ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لدانييل سامبر، المقال المذكور.

(١١) جاءت ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لخيرمان كاسترو كايثيدو ، المقال المذكور.

(١٢) جابرييل جارثيا ماركيز، "بوجوتا ١٩٤٧" المصدر المذكور.

(١٣) المصدر السابق نفسه.

(١٤) المصدر السابق نفسه.

(١٥) وعلى العكس فإن رُفات الجد نيقولاس اختفى من المقابر المركزية بسانتا مارتا في أواخر الثمانينيات أمَّا رُفات الجدة ترانكلينا فقد نُقِلَ من سوكرى إلى قرطاجنة ، حيث يرقد في مستودع العظام بالكاتدرائية.

(١٦) إدوارد ثلاميا بوردا (أوليس) " المدينة والعالم " صحيفة الاسبكتادور (المشاهد)، بوجوتا في ٢٢ أغسطس ١٩٤٧ .

(١٧) جارثيا ماركيز حكى مراراً وتكراراً أنه كتب أو أتم قصته" الاستسلام الثالث" عندما قرأ ملحوظة أوليس ، وقد فعل ذلك بدافع التضامُن الجيلي: لكي يثبت للكتاب أنَّ جيله قادرٌ على أنْ يكون منه كُتَّابٌ. وعلى الرغم من كون ذلك حقيقيًا وصحيحًا ، فإن الشرح أو التفسير هائلٌ ومصطنعٌ حيث أنَّ ما هو منطقي أو الشيء المنطقي الوحيد هو التفكير أنَّ ذلك الشاب ذو العشرين ربيعًا أتمَّ قصته وأرسلها إلى صحيفة الاسبكتادور" المشاهد" عندما سنحت له فرصة واضحة ومواتية لكي ينشروا له أعماله. ومن الصعب الاعتقاد أنَّ فتى يكتب أوَّل قصة له أنْ يكون قد اتخذ هذا الموقف النبيل والمهم .

(١٨) جاء ضمن تصريحات جارثيا ماركيزلخيرمان كاسترو كايثيدو، المقال المذكور.

(١٩) إدواردو ثلاميا بوردا، " المدينة والعالم"، صحيفة الاسبكتادور" المشاهد"، بوجوتا، الثلاثاء ١٨ أكتوبر ١٩٤٧ . لم تخرج الملحوظة لأنَّه كما أكدَّ جارثيا ماركيز إلى جانب أوَّل قصة له في سبتمبر من ذلك العام.

هوامش الفصل السابع

(١) من محادثاتي مع مانويل ثباتا أوليبيا في بوجوتا ، ١١ يوليه ١٩٩٢، لقد ذكر لي هذا أنه من المحتمل أنْ يكون قد تعرَّف على جارثيا ماركيز قبل ذلك بكثير ، ولكنه بدأ يتذكره اعتباراً من هذا اللقاء في أواخر١٩٤٧، وأنه يتذكره جيداً لأنَّ جارثيا ماركيز وهو لا يزال طالباً جامعياً اعترف له أنه يعاني من مشاكل مادية لكي يستكمل دراسته، وأن كل ما يرغبه هو أنْ يكون كاتباً. إنَّ المعلومات الأخرى التي وردت في هذا الفصل - إذا لم أذكر مصادر أخرى - تأتي من محادثاتي مع مانويل ثباتا أوليبيا نفسه، وجارثيا ماركيز، ولويس بيار بوردا، ولويس إنريكي جارثيا ماركيز ، وخوان ثباتا أوليبيا، وجوستابو إيباراً ميرلانو، وألفونسو فوينمايور ، وراميرو دي لا إيسبيريا ، وألبارو موتيس ، ومن الدردشة التي لم تُنشر لجارثيا ماركيز مع طلبة مدرسة الصحافة صحيفة البابيس ، وجامعة الأوتونوما بمدريد ، في ٢٨ أبريل ١٩٩٤ .

(٢) رفائيل جالان ميداين، " جريمة أبريل" بوجوتا، دار نشر أيكوي، أبريل ١٩٨٦ .

(٣) دانييل بيكاوت ، الأمن والعُنف : كولومبيا ١٩٣٠-١٩٥٤، الجزء الثاني ، بوجوتا ، مجموعة القرن الحادي والعشرين للنشر ، أغسطس ١٩٨٧ .

(٤) خورخي أليسيرجايتان ، المصدر المذكور.

(٥) دانييل بيكاوت، المصدر المذكور. وبينخامين أرديلا دوارتي ، " جايتان والليبرالية الشعبية"، في تاريخ كولومبيا ، الجزء الأوَّل ، الملزمة ٢١، بوجوتا ، دار نشر لا أوبيخا نيجرا، ١٩٨٦ .

(٦) انظر على سبيل المثال دانييل بيكاوت، المصدر المذكور، وجونثالو سانشيث، ودوني ميرتنس قُطَّاع الطُرق، والإقطاعيون ، والفلاحون (حالة العنف في كولومبيا، بوجوتا أنكورا للنشر، ١٩٨٣) نظرية القاتل السياسي لخورخي إلييسير جايتان تتأكد عندما يتم تحليل الماضي القريب لخوان روسا سيراً قاتله الفعلي. في يأسه للعثور على عمل. جاء في يوم من الأيام إلى مكتب جايتان قبل بضعة أشهر لكي يطلب مساعدته، ولكن الزعيم الليبرالي أخبره بأنه يصعب عليه الاستجابة لمطلبه بسبب القيود التي تفرضها الحكومة المحافظة، وقد اقترح عليه الذهاب إلى الرئيس ماريانو أوسبينا بيريث. وفي سكرتارية الرئاسة طلبوا منه مزيداً من التفاصيل بشأن طلبه ، وهذا يعني أنَّ حكومة المحافظين نما إلى علمها منْ هو وفي أي وضع يكون. ومما يثير الشك أنَّ خوان روسا سيراً تحوَّل من موظف فقير إلى رجل ذي مشروعات للسفر إلى شرق البلاد ، ومعه مئات من البيزو سمحت له قُبيل أيام من الجريمة بشراء مسدس قديم دون أدنى مساومة.

(٧) بيتر ستوني ، " لنكتشف عالم جابرييل جارثيا ماركيز" استشهاد لبيدرو سوريلا في جارثيا ماركيزالآخر . السنوات العجاف ، مدريد ، موندادوري ، ١٩٨٨ .

(٨) بيلينيو أبوليوميندوثا " سيرة ذاتية منزلية لقصة " مجلة التيمبو" الزمن " ، " قراءات أيام الأحد" ، يونية ، ١٩٦٣ .

(٩) جاء ذلك ضمن تصريحات فيدل كاسترو لأرتورو ألابى فى مأساة بوجوتا. مذكرات النسيان ، بوجوتا ، دار نشر بلوما (القلم) ، ١٩٨٣ .

(١٠) المصدر السابق نفسه.

(١١) كليمنتى مانويل ثبالا، " تحية لجارثيا ماركيز"، صحيفة الأونيفرسال (العالمى) ، قرطاجنة ، ٢٠ مايو ١٩٤٨ .

(١٢) المقال الأول لجارثيا ماركيز لصحيفة الاونيفرسال (العالمى) كان عن المدينة الاستعمارية وحظر التجول ، وقد نُشر فى ٢١ مايو ١٩٤٧ فى الصفحة الرابعة ، حيث افتتح به عموداً بعنوان " نقطة ومن البداية أو من أوّل السطر".

(١٣) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لجاك جيرالد ، التى ذكرها فى مقدمته لنصوص ساحلية، برشلونة ، دار نشر بروجيرا، فبراير ١٩٨١ .

(١٤) جابرييل جارثيا ماركيز ، " هيكتور روخاس إيراثو " ، الهيرالد ، بارّانكيا ، ١٤مارس ١٩٥٠ .

(١٥) جابرييل جارثيا ماركيز ، " بهلوان ملوّن خلف الباب " فى ملحوظات صحفية من ١٩٨٠ إلى ١٩٨٤ المصدر المذكور.

(١٦) انظر العمود" نقطة ومن أوّل السطر" بصحيفة الأونيفرسال (العالمى) فى ٢٩ يونية ١٩٤٨، المذكور فى نصوص ساحلية. إنَّ الاسم الحقيقى لهذا العمود عن الشاعر الوهمى ثيسار جيراً بالديس تم الإفصاح عنه بواسطة خورخى جارثيا أوستا فى " جذور السحر المشترك" صحيفة الاسبكتادور" المشاهد " ، " المجلة الأحدية "، بوجوتا ، ١٦ أغسطس ١٩٩٢ . وفى اليوم التالى لنشر مقال روخاس إيراثو فى عمود جارثيا ماركيز صدر فى نفس الصحيفة تحقيق لما يُدعى جيراً بالديس أعدَّه مانويل ثبالا وروخاس إيراثو ، وإيباراً ميرلانو ، وجارثيا ماركيز ، حيث أفصحوا فيه عن فكرهم الأدبى وآرائهم القاسية عن الثقافة والتاريخ فى بُلدان أمريكا اللاتينية.

(١٧) وفى " عندما توّج جارثيا ماركيز ملكات الجمال " (مجلة التيمبو) ، " قراءات أحدية "، بوجوتا فى ٨ نوفمبر ١٩٨٧) ، خورخى جارثيا أوستا نسب إلى جارثيا ماركيز الكلمة التى ألقاها فى ٥ يوليه١٩٤٩ فى تتويج ملكة جمال الطالبات إلبيرا بيرجارا. وعندما عرضت النص على راميرو دى لا اسبيريا قال لى – بالفعل – إنَّ هذه الكلمة ألقاها جارثيا ماركيز ونُشرت فى الأونيفرسال (العالمى) باسمه ، ولكن النص فى الحقيقة هو من إعدادى ، وقد أطلعه على نص جارثيا ماركيز : وهو نصٌ نُشرَ أيضاً فى نفس الصحيفة باسم دى لا إسبيريا ، وقد ألقاه هذا فى نفس اليوم فى تتويج ملكة الجمال الأخرى كارمن ماروجو ، ولكن فى الواقع كان من إعداد جارثيا ماركيز. وبتحليل أسلوبى النصين يتأكد لنا دون أدنى ريب ما ذكره راميرو دى لا إسبيريا. وبعد ذلك بسبعة أشهر فى تتويج ملكة جمال بارانو فى ١٨ فبراير١٩٥٠ كرَّر جارثيا ماركيز فقرتين حرفياً من كلمة دى لا إسبيريا.

(١٨) انظر على سبيل المثال " منزل أسرة بويندىا " ، و " نجل العقيد " و " كريمة العقيد " " والعودة من ميمى ". حيث جمَعها جاك جيرالد فى " نصوص ساحلية " و " رجل قادم تحت المطر" فى مقال آخر بين التجار والمحامين والخطباء (لوس كاتشاكوس) ، برشلونة، دار نشر بروجيرا، أبريل ١٩٨٢ .

(١٩) إنَّ شهر وسنة هذا اللقاء حددهما جاك جيرالد فى مقدمته لـ " نصوص ساحلية" ، وقد أقرُهما جوستابو إيباراً ميرلانو فى محادثاتنا فى بوجوتا ، ٢٧ أغسطس ١٩٩٢ .

(٢٠) جاء ذلك فى تصريحات خيرمان بارجاس لخورخى ميدينار وندون فى " لم يتبق لجابو إلا الكتابة للأطفال " ، صحيفة الاسبكتادور" المشاهد "، بوجوتا ، ٢٢ أكتوبر ١٩٨٢ . وفى معنى مشابه تذكر هذااللقاء الأوّل فى مقابلة أجراها ألبارو ميدينا لاستطلاع الرأى " من قهوة كولومبيا إلى حانة لا كويبا" ملحق الكاريبى ، بارانكيا ، ١٤ أكتوبر ١٩٧٣ . وكان هذا هو اللقاء الأوّل لجارثيا ماركيز مع مجموعة بارانكيا ، وقد تأكد ذلك من تعليق لاحق لألفونسو فوينمايور للصحفية الكوبية ليديثى بالينثويلا (فى رياليداد ونوستالخيا لجارثيا ماركيز: الواقع والحنين لجارثيا ماركيز) ، هافانا ، دار نشر بابلو دى لا تورينتى ، ١٩٨٩): إنه يعتقد – لأن الذاكرة تخونه فى بعض الأحيان أنه تعرَّف على جارثيا ماركيز فى ١٩٤٩ . كما أنه لا يتذكر سبب تقديمه للصحفى خيرمان بارجاس – وهذا يعنى أنَّ ألفونسو فوينمايور يعترف بأن خيرمان بارجاس التقى مع جارثيا ماركيز قبل أنْ يلتقى به فى سبتمبر ١٩٤٨ .

(٢١) فى محادثاتنا فى بارانكيا بتاريخ ٢٢ أغسطس١٩٩٢، لم يتذكر ألفونسو فوينمايور وجود إيبارًا ميرلانو ولا الرسام إليخاندرو أوبريجون فى هذا اللقاء مع جارثيا ماركيز. وبعد ذلك فى الرسالة المؤرخة فى ١ يناير ١٩٩٣ عاد ليؤكد لى : ليس صحيحاً أنَّ محادثاتى الأولى مع جابيتو يكون قد حضرها الصديق الكبير جوستابو إيبارًا ميرلانو". ولكن طبقًا لما حكاه لى إيبارًا ميرلانو لم يكن موجودًا فقط ، بل كانت مداخلته فى الحادثة هى الأبرز إلى جانب ألفونسو فوينمايور. ويتذكر إيبارًا ميرلانو أيضًا وجود الرسام اليخاندرو أوريجون نظرًا لما يلى: لقد حكى له أوبريجون أن شعر إدواردو كارانثا لم يحظ بإعجابه ، على الرغم من كونه رائد حركة" حجر وسماء" الشعرية والتى قرأ لها كثيرًا جارثيا ماركيز.

(٢٢) إنه مكان مشترك ذكره الكاتب. فخلال سنوات يحاول جارثيا ماركيز جاهدًا ربط تكوينه الأدبى والصحفى الحقيقى وكتابة " الورقة الساقطة " فى مدينة بارانكيا والجو العام لأصدقاء هذه المدينة على حساب قرطاجنة وأصدقاء قرطاجنة. حتى أنه أكدَّ على الملأ: " فى ١٩٥٠ عندما كنت فى بارانكيا(ولكى نكون صرحاء كان ذلك فى قرطاجنة ولكننى لم أذكر أصدقاء قرطاجنة لأنهم كانتشاكوس (المحامون والتجار والخطباء) ، كتبت " الورقة الساقطة" (تصريحاته لدانييل سامبير بيثانو، المقال المذكور). وبعد ذلك بسنوات قَبلَ ذلك قائلاً: كتبت نصف قصتى الأولى......... فى الساعات المبكرة الحارة ذات الشذى بجوار مطبعة صحيفة الأونيفرسال (العالمى) ، قرطاجنة " (السحر المرُّ للآلة الكاتبة"، فى ملحوظات صحفية ١٩٨٠-١٩٨٤). وفى الواقع كما يُبرِّر فى الملحوظتين٢٤، ٢٥ بهذا الفصل فإنَّ قصة " الورقة الساقطة " كُتِبت فى نسختها الأولى فى قرطاجنة خلال (من المحتمل) أواخر ١٩٤٨ والأشهرالستة الأولى من ١٩٤٩ .

(٢٣) فى محادثاتنا بالمكسيك تذكر جارثيا ماركيز أنه عندما عاد من بوجوتا إلى الساحل بدأ يقرأ للكاتب الأمريكى فوكنر ، وقد أفاده ذلك فى اقتباس طريقته فى الكتابة ، كما أبرزت له تلك القراءات لفوكنر الأهمية الأدبية لعالم طفولته فى أراكاتاكا وزراعات الموز ، حينئذ بدأ كتابة لا كاسا (المنزل) التى هجرها بعد أنْ كتب الفصول الأولى لكى ينتقل على الفور إلى " الورقة الساقطة" ، وهكذا فإنَّ بداية كتابة هذه القصة كانت فى قرطاجنة خلال الثلاثة أشهر الأخيرة ، الشهرين الأخيرين من ١٩٤٨ . وذلك بالطبع تاريخ تقريبى ولكنه ليس خاطئًا إذا أخذ فى الحُسبان أنَّ شهادات إيبارًا ميرلانو وروخاس إيراثو فإنَّ الورقة الساقطة كتبت فى أوَّل نسخة لها ما بين مايو ويولية من عام١٩٤٩ .

(٢٤) " عودة زميل" ، الأونيفرسال (العالمى) ، قرطاجنة ، ١٥مايو ١٩٤٩ . العنوان" الآن نقص العُشب" ويشير المؤلف المجهول لذلك المقال الذى وفقًا لجميع الأقوال هو روخاس إيراثو ، وهو أحد العناوين المتعددة لقصة " الورقة الساقطة" فى البداية. ويؤكد جيرالد فى مقدمته" نصوص ساحلية" أن العنوان الغريب كما أوعز إليه به جارثيا ماركيز كان من اختراع روخاس إيراثو، وأن هذه القصة لم تُوجَد أصلاً. ومع ذلك فى

أكتوبر ١٩٧٢ حكت لي عايدة جارثيا ماركيز- التي كانت راهبة آنذاك- في كوياكبانا - أنطيوكيا أنَّ شقيقها وضع للقصة عدة عناوين تتذكر منها على وجه الخصوص " الآن نقص العُشب" انظر داسو ساليبار، الراهبة عايدة جارثيا ماركيز " ، صحيفة الاسبكتادور" المشاهد " ، " مجلة الأحد "، بوجوتا ، ٢٢ أكتوبر ١٩٧٢ . ومن الممكن أن يكون العنوان لروخاس إيراثو ، وقد استعاره جارثيا ماركيز لأن الصديقين في تلك الفترة كانا يكتبان في أعمدة الأونيفرسال (العالمي) ، وكانا يستعيران كل شيء : العناوين ، والاستعارات ، والشخصيات ، والموضوعات ، ولكن الحُجة الدامغة في أنَّ روخاس إيراثو أشار إلى " الورقة الساقطة" بهذا العنوان من ذكريات فوكنر ، يكمن في الرأي الذي أبداه بشأن هذه القصة في نفس المقال: إنها أحد أكبر الجهود التي تبذل حاليًا في كولومبيا لإدراج بلادنا في دروب القصة المعاصرة في أمريكا اللاتينية. إنه حُكم مبالغٌ فيه من جانب شخص في غاية الذكاء ومُطَّلع مثل روخاس إيراثو استطاع فقط الإشارة إلى " الورقة الساقطة" وليس قصته" المنزل" والتي كان الكاتب قد هجرها مؤقتًا ، وأن الحُكم على الأجزاء التي وصلت إلينا لايمكن أن تستحق هذا الحكم المتحمس. ومن ناحية أخرى ؛ فإن إشارة وتعليق روخاس إيراثو على القصة الأُولى لجارثيا ماركيز يعتبر أحد الموضوعات القوية الراسخة التي تسمح لنا - وضد كافة التأكيدات لأغلب كاتبي السيرالذاتية للقصاص ، وعلى الرغم من أنَّ جارثيا ماركيز أرَّخ للقصة في بارَّانكيا عام ١٩٥٠- أنَّ قصة "الورقة الساقطة" كُتِبت أثناء فترة قرطاجنة ، وأن النسخة الأولى كانت جاهزة في مايو/ يوليو ١٩٤٩ .

(٢٥) في رسالته المؤرخة في ٩ فبراير١٩٩٣ في بوجوتا ذكر لي إيبارًّا ميرلانو أنه قرأ " الورقة الساقطة" قبل سفره إلى بوجوتا لكي يستقر بصفة نهائية في هذه المدينة . وتاريخ سفره كان في ٢٦ يوليه ١٩٤٩ أو قبل ذلك بقليل لأنه صدر في ذلك اليوم بصحيفة الأونيفرسال (العالمي) مقال مجهول المؤلف مودعًا إيَّاه الذي كتبه له جارثيا ماركيز. وفي رسالة أخرى مؤرَّخة أيضًا في بوجوتا في ١٥ سبتمبر ١٩٩٤ وأكثر دقة: بالتالي فإنَّ قصة الورقة الساقطة كانت قد كُتِبت وصُححت في يوليه ١٩٤٩". إنَّ هذا هو الموضوع الأكثر صلابةً من الموضوعات المتعددة التي تؤكد أنَّ جارثيا ماركيز كتب قصته الأولى في قرطاجنة ، وأنه في منتصف ١٩٤٩ كانت النسخة الأولى جاهزة: تلك التي قرأها روخاس إيراثو، وإيبارًّا ميرلانو.

(٢٦) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز إلى خ.ج. كوبو بوردا. المصدر المذكور.

(٢٧) على الرغم من أنه لم يُسجَّل حتى ١٧ يونية طبقًا لما تشير إليه شهادة القيد رقم ١٢٩ المذكورة في الكتاب رقم ٧ الورقة ٥٨ ، ٥٩ ، والتي توجد بأرشيفات جامعة قرطاجنة.

(٢٨) جارثيا ماركيز غاب خلال هذا العام خمس عشرة مرَّة : تسع مرات في القانون الدولي العام، وست مرات في القانون الروماني. أما تقديرات المواد فهي كالتالي: علم الاجتماع العام: ٥ درجات ، والقانون الدستوري ٥ درجات ، والقانون الكنسي أو الديني: ٥ درجات، والقانون الدولي العام : ٥ درجات ، والقانون المدني: ٤ درجات ، وتاريخ النظريات الاقتصادية: ٤ درجات ، والاجتماع سيمينار: ٤ درجات ، والقانون الروماني: درجتان ، وعلم طبائع الإنسان وعلم النفس : لم يدرسهما.

(٢٩) وبالنسبة للصف الثالث ؛ فقد سجَّل في ٥ فبرايرالي ١٩٤٩ برقم١١١ . وقد تضاعفت نسبة غيابه مقارنة بالصف الثاني: بلغ غيابه أربعًا وستين يومًا : منها سبعة وثلاثون في القانون المدني ، وستة في سيمينار القانون المدني، وواحد وعشرون في القانون الأسباني وقانون الهنود الحُمر. أمَّا تقديرات المواد في الصف الثالث فهي على النحو التالي: علم الاجتماع الأمريكي: ٥ درجات ، وقانون العقوبات العام: ٤ درجات، والقانون الدولي الأمريكي وتاريخ كولومبيا: ٤ درجات ، والقانون الأسباني والهُنود الحُمر: ٤ درجات، والمالية العامة: ٣ درجات ، والقانون المدني: ٣ درجات، والطب الشرعي: درجتان، وسيمينار القانون المدني: لم يُقدِّم البحث المطلوب.

(٣٠) جابرييل جارثيا ماركيز، " المراسم الأولية"، مقدمة لقصة: الشبورة الزرقاء لجورج بيسويل كوتيس،قرطاجنة، طبوغرافيا، دياريو دى لا كوستا (صحيفة الساحل) ، ديسمبر١٩٤٩ . وإلى جانب مقدمة جارثيا ماركيز فإنَّ هذه القصة نُشرت بمقدمة مضادة لسانتندير بلانكو ، لأنه كما يتذكر مانويل ثبالا أوليبيا فإنَّ بيسويل كوتيس لم تُعجبه مقدمة جارثيا ماركيز ، لأنه لم يُثن عليها الثناء الإجبارى بين الأصدقاء ورفاق الجماعة ؛ بل بكل المرح والرقة حيث سرد الأخطاء والعثرات - دون هوادة - التى ارتكبها فى القصة.

(٣١) وفى الواقع إنَّ دافع أو سبب " عن الحب وشياطين أخرى" وجده بعد ذلك بسنوات طويلة وربما فى أوائل الثمانينيات بينما كان يُوثّق ويجمع معلومات لقصته" الحب فى زمن الغضب". إنَّ الأمر يتعلق بواقعة تاريخ قرطاجنة الأمريكية الذى رواه إدواردو لا ماتيرى المعروف باسم السيساتيو إديفينيس ، وهى عبارة عن دعوى قضائية بين الرُهبان الكبوشيين ، ولوس كارليساس (أعضاء ينتمون إلى حزب سياسى يتمسك بالتقاليد القومية والدينية ، وتتخللها قصة حب بين التلميذة المستجدة خوانا كليمينثيا دى بارثيس إى بانيو ، ونائب المحافظ (جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لجوستابو تاتيس جيراً، المصدر المذكور).

(٣٢) ويشير إدواردو ثلاميا بوردا (أوليس) فى الملحوظة التى قرأها جارثيا ماركيز: "(...) وقريباً ستظهر فى الباب الأدبى فى هذه الصحيفة أعمالٌ لمؤلفين مثل أرتورو كمانتشو راميريث، ألبرتو أنخيل مونتويا ، وكارلوس لوبيث نارباييث ، وألبارو موتيس ، وكُتاب أخرون". صحيفة الاسبكتادور" المشاهد" ، بوجوتا فى ٢٢ أغسطس عام ١٩٤٧).

(٣٣) فى الملحق " نهاية الأسبوع" الاسبكاتادور (المشاهد)، السبت ٦ سبتمبر١٩٤٧، وقد ظهرت بشكل بارز قصيدة " ٢٠٤ " لألبارو موتيس ، فى ٤ أكتوبر من نفس العام ، لعنات وسباب ماكرول الجابييرو ".

(٣٤) جابرييل جارثيا ماركيز، " صديقى موتيس" ، صحيفة البابيس ، مدريد ، ٣٠ أكتوبر ١٩٩٣ .

هوامش الفصل الثامن

(١) جاك جيرالد ، مقدمة لنصوص ساحلية. المعلومات التى لم يتم ذكر مصادرها فى هذا الفصل وردت فى محادثاتى مع ألفونسو فوينمايور ، وجوستابو إيبارًا ميرلانو وراميرو دى لا إسبريا وألبارو موتيس.

(٢) ودَّعَ جارثيا ماركيز الاثنين بمقالين صحفيين مليئين بالحب والإعجاب، وقد وصفه إيبارًا بأنه نموذج إنسانى فوق العادة"، ومفكر فى المعنى الصحيح لهذا المصطلح أو اللفظ" الذى يربطه به حب مُطلق" (مقال مجهول بصحيفة الأونيفرسال (العالمى) ، قرطاجنة ، ٢٦ يولية ١٩٤٩) . وبعد ذلك بيومين وفى نفس الصحيفة مقال موقع باسمه" سفر راميرو دى لا إسبيريا" ودعه بتعليقات مشابهة ، وأضاف بأنَّ الصديق سيفتقدونه كثيراً " لكى يتحملنا أيامًا كاملة يقرأ أصول قصةً لا يمكن نشرها دون موافقته"(أى أنَّ جارثيا ماركيز ينبغى أنْ يشير هنا إلى قصته" الورقة الساقطة" وليس " لا كاسا" (المنزل).

(٣) الطبيعة تقرر الدعوى القضائية القديمة بين ميناء كولومبيا وبوكاس دى ثينيثا" صحيفة الاسبكتادور" المشاهد"، بوجوتا، ٨ مارس ١٩٥٥ (تجميع جاك جيرالد فى: "بين الكاتشاكوس" (أى المحامين والتجار والخطباء).

(٤) بالنسبة لعالم الاجتماع والمؤرخ مواطن بارًانكيا أورلاندو فالس بوردا ، المصدر المذكور ، الاسم الأول الرسمى للمدينة ، كان سان نيقولاس دى بارًانكياس وهو الاسم الذى أطلقه المستعمرون البيض الأوائل فى بدايات القرن الثامن عشر. وبالنسبة لآخرين فإنَّ الأصل الحقيقى لبارًانكيا يرجع إلى الأزمنة القديمة للرجل التمساح ، الصياد الذى بفضل سحر أحد الهنود الحُمر، وايو تحوَّل نصفه إلى حيوان والنصف الآخر إلى إنسان. والبعض يعتقدون أنَّ أصل المدينة كان كفرًا للهنود الحُمر القُدامى من قبيلة كاماتش (خوليو أولاثيريجى " تاريخ التمساح الأمريكى" البابيس. العدد الأسبوعى . مدريد ، ٢٧ أغسطس١٩٩٥).

(٥) خيرمان بارجاس " جارثيا ماركيز: مؤلف قصة سيسبب ضجيجًا إينكوينترو ليبرال (اللقاء الليبرالى) بوجوتا ، ٢٩ أبريل ١٩٦٧ .

(٦) فى لقائنا ببوجوتا، ذكر جوستابو إيبارًا ميرلانو أنه فى قرطاجنة فى عام ١٩٤٩ لم يكن جارثيا ماركيز عضوًا فى المجموعة الساخرة ، بل هو إلى جانب كونه جادًا لم يكن يتحمل أية كلمة عامية أو سوقية".

(٧) بيلينيو أبوليو ميندوثا، " تابين كاتب" فى لا ياما والإيلو (اللهب والثلج) ، ودانييل سامبير بيثانو ، " مقدمة لمختارات من ألبارو ثيبيدا ساموديو ، بوجوتا، المعهد الكولومبى للثقافة ، ١٩٧٧ .

(٨) جاء ضمن تصريحات جارثيا ماركيزلـ غ.ج. كوبو بوردا المصدر المذكور.

(٩) نبوءة الموت لألبارو ثيبيدا ساموديو فى " مائة عام من العُزلة" سمحت بالتأكيد على أنَّ الطابع النبوئى هو عُنصر عام فى إنتاج كاتب أراكاتاكا (يعنى جارثيا ماركيز). وفى الحال بدأ حصر النبوءات الأخرى التى وقعت بالفعل أو فى انتظار حدوثها ، مثل سفر البابا بابلو السادس إلى كولومبيا بعد ذلك بتسعة أعوام بعد أنْ سرده الكاتب فى " جنازة الأم العظيمة" (مع نفس الرئيس الأصلع مرفوع القامة ، ونفس رئيس

الوزراء باسترانا اللذين استقبلا البابا فيما بعد) العثور على رجل من أسرة بويندیا فی بارانكيا له ذيل خنزير. العثور فی الأرجنتين بواسطة فرناندو بيدال بوثى مدير دار نشر أمريكا الجنوبية على جانب من باخرة مهجورة في وسط الغابة ، أو العثور فی الكاريبی فی أعقاب صدور قصة " الحب فی زمن الغضب" على عدة بواخر غارقة بكنوز من العهد الاستعماری.

(١٠) جاء ذلك ضمن تصريحات خيرمان بارجاس فی " لم يبق لجابو سوى الكتابة للأطفال" الاسبكتادور ، بوجوتا ، ٢٢ أكتوبر ١٩٧٢ .

(١١) ذكره جاك جيرالد فی مقدمته لنصوص ساحلية. المصدر المذكور.

(١٢) ألفونسو فوينمايور. تعليقات عن جماعة بارانكيا ، بوجوتا ، المعهد الكولومبى للثقافة ، ١٩٧٨

(١٣) جابرييل جارثيا ماركيز، أوبريجون أو الهواية بلا حماية " فی ملحوظات صحفية ١٩٨٠- ١٩٨٤، المصدر المذكور.

(١٤) نفس المصدر السابق، فرانثيسكو بورا أول ناشر" لمائة عام من العزلة" ، وقد أطلعنى على التوافق بين هذه القصة و " العملاق الغريق" لبايارد على الأقل فی طرح البداية للروايتين. ولكننا نتفق على أنه ليس ممكنًا أنْ يكون الكولومبى قد قرأ أصل قصة بايارد فی ١٩٦٩ . (وعلاوة على ذلك فإنَّ قصة ماركيز " أجمل غريق فی العالم" كُتبت فی ١٩٦٨ والترجمة الإسبانية لتلك القصة نُشرت بعد ذلك بثلاث سنوات) وعلى أية حال فإنَّ فكرة الرواية عن الغريق كانت فكرة قديمة متسلطة على ذهن جارثيا ماركيز، وقد ذكر ذلك فی رسالته بعنوان " نقد ذاتی" التی بعث بها إلى جونثالو جونثاليث فی مارس ١٩٥٢ .

(١٥) ألفونسو فوينمايور، المصدر المذكور.

(١٦) جابرييل جارثيا ماركيز ، " بطاقتی للسيد رامون " ، فی نصوص ساحلية. المصدر المذكور.

(١٧) جاك جيرالد بين جبال الإنديز والكاريبی (العمل الأمريكی لرامون بيثنس) ، ميدايين ، دار نشر جامعة أنطيوكيا ، ديسمبر١٩٨٩ .

(١٨) المصدر السابق نفسه.

(١٩) جابرييل جارثيا ماركيز" شارب الكوكاكولا" فی نصوص ساحلية.المصدر المذكور.

(٢٠) جاك جيرالد، المصدر المذكور.

(٢١) المصدر السابق نفسه.

(٢٢) ذلك المقال عن الطائرات المروحية أو العمودية حيث ذكر جارثيا ماركيز بعض السمات الماكوندية: تذكر " ألف ليلة وليلة ". ذكر سحر البسط السحرية والتی بمجرد سماع صوت تحمل الإنسان فوق الإبل والجبال ... يتحدث عن تلك القرية الرعوية المجهولة التی مرت على هامش رحلتنا. قال إنَّ بطن القرية كانت مقوسة مليئة بجانبية الفواكه وبصمت كان يشبه صمت أم نائمة. وكان النهر منطلقًا، ذلك النهر الذی لا يمكن الاستغناء عنه والذی كان ينساب فی هدوء وهو ملئ بالعناقيد، والأطفال وكأن المشهد الطبيعی لا يتحرك إلا بسبب ذاكرة القرية (صحيفة الأونيفرسال" العالمی ") ، قرطاجنة ٢٦ مايو ١٩٤٨ .

(٢٣) وهكذا يشير القصَّاص إلى الأصدقاء أوريليانو بابيلونيا: ألبارو (ثيبيدا ساموديو) ، خيرمان (بارجاس) ألفونسو (فوينمايور) و جابرييل جارثيا ماركيز، واستنادًا لما حكاه لي ألفونسو فوينمايور ونحن نجلس سويًا عند نافورة تريبی عام ١٩٦٩ اعترف له جابرييل جارثيا ماركيز بالآتی: " أستاذی إنَّ أهم شیء حدث لی فی حياتی هی تلك الفترة التی قضيتها فی بارانكيا هو أننی أحسست أنَّ تكوينی وإعدادی تم هناك ، لقد وجدت كيف تفتحت لی السُّبُل لكی أصبح ما أتوق إليه " وبعد ذلك ببضع سنوات كرر له ذلك فی المكسيك ،

وبعد عام من حصوله على جائزة نوبل لخص بهذا الشكل حبه وعرفانه وإعجابه بأصدقاء جماعة بارَّانكيا: كانوا حاسمين بالنسبة لتكويني وإعدادي الفكري ، لقد وجهوا قراءاتي الوجهة الصحيحة، ساعدوني وأعاروني الكتب. ومن العجب وعلى الرغم من كافة الظروف الحياتية ظلُّوا جميعًا أفضل أصدقائي" (ماريا تريز أيرَّان، جائزة نوبل بعد عام من ذلك الحدث " ، صحيفة الاسبكتادور" المشاهد "، بوجوتا ، ١١ نوفمبر ١٩٨٣).

(٢٤) جاء ذلك ضمن تصريحات للصحيفة الكوبية لديثي بالينثويلا . المصدر المذكور.

(٢٥) خوان ب. فرنانديث رينوويتسكي ، " عندما كان جارثيا ماركيز جابيتو"، مجلة التيمبو (الزمن) ، بوجوتا ، ١١ أكتوبر ١٩٨٢ .

(٢٦) خوان جوساين،"العودة من ماكوندو"، تحقيق صحفي نُشرَ أولاً في الاسبكتادور ببوجوتا يومي ١٧، ١٨ يناير ١٩٧١ ، ثم أدرج في جابرييل جارثيا ماركيز يتحدث عن جابرييل جارثيا ماركيز، بوجوتا، دار نشر رينتيريا ، ١٩٧٩ . ويشير جوساين أنه وأصدقاءً صحفيين آخرين كانوا ينتظرون جارثيا ماركيز في مطار بارَّانكيا في ١٤ يناير ١٩٧١ ، وعندما رآه سائق سيارة أخرى يهبط من الطائرة مرتديًا قميصًا أصفر بلون الجوافة تذكر أنه منذ عشرين عامًا مضت كانوا يطلقون على جارثيا ماركيز لقبًا في بارَّانكيا : يصاحب الملابس المجنونة".

(٢٧) جاء ذلك ضمن خيرمان بارجاس، في جارثيا ماركيز " مؤلف عمل سيُحدث ضجيجًا " خوان جوساين ، وجابرييل جارثيا ماركيز : " ذاك المجهول " و جابرييل جارثيا ماركيز في " رحلة إلى الجذور " . تصريحات لفريق التحرير في صحيفة المانيفستو (البيان).

(٢٨) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز في " رحلة إلى الجذور" المقال المذكور، " رائحة الجوافة" المصدر المذكور.

(٢٩) في " لقاء رفيقين " (ريبيستا ليبرى (المجلة الحرة) ، باريس ، ١٩٧٢) ، قال جارثيا ماركيز لصديقه بيلينيو أبوليو ميندوثا: إنَّ تصريح فوكنر" الذي نشرته ذا باريس ريفيو عندما كنت أعيش في بارَّانكيا، وعلى وجه التحديد في أحد بيوت الهوى" وهذا غير صحيح لأن تصريح مؤلف ضوء أغسطس نُشرَ في عام ١٩٥٦ عندما كان جارثيا ماركيز يُقيم في باريس.

(٣٠) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لبيلينيو أبوليو ميندوثا في" لقاء رفيقين " المصدر المذكور.

(٣١) ذكر ألفونسو فوينمايور أنه في لقائهما ببارَّانكيا أن جارثيا ماركيز كتب أو أعاد كتابة قصة " أوراق الشجر البالية " أو" الورقة الساقطة " في ورق الصُحُف بعد أن ينتهي من عمله في صحيفة الهيرالد. وسرعان ما كان يجلس ليناقش صديقه عن ملائمة أو عدم ملائمة بعض الجُمل والعبارات. وأتذكر بعض العبارات التي أعرب لي عن شكه فيها لأنها بدت له مطموسة على غرار الأسلوب الفوكنري: "........وقد اجتاز الحصان النهر كأنه يحمل بين ساقيه غضب الله ". وقلتُ له اتركها وماذا سيحدث ".

(٣٢) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لخوان جوساين في " العودة إلى ماكوندو" ، المقال المذكور.

(٣٣) أول تأكيد مكتوب وعُرِف عن هذا الرفض هو لجارثيا ماركيز نفسه ، الذي قال في رسالة نُشرت في صحيفة الاسبكتادور" المشاهد " بتاريخ ٣٠ مارس ١٩٥٢ لمواطنه وصديقه جونثالو جونثاليث (جوج) من بين أشياء أخرى: " أنت تعرف أنَّ دار نشر لوسادا رفضت نشر قصة " أوراق الشجر البالية " ، أو " الورقة الساقطة "، ولكن هذا التأكيد متأخرٌ وأدى إلى الغموض بشأن العام الذي كُتبت فيه القصة والتاريخ التقريبي الذي رفضتها فيه دار النشر الأرجنتينية، وفي محادثاتنا بالمكسيك ذكر لي ألبارو موتيس أنه عندما تعرَّف على

جارثيا ماركيز فى قرطاجنة فى أكتوبر أو نوفمبر ١٩٤٩ قال له إنه انتهى من قصته الورقة الساقطة ، وهو الذى أوصى عليه فى بوجوتا خورخى ثيسار بييجاس مندوب دار نشر لوسادا الأرجنتينية حينئذٍ ينبغى أنْ يكون قد أرسلها بجانب " المسيح من الظهر" لإدواردو كبابيرو كالديرون فى أواخر ١٩٤٩ أو أوائل ١٩٥٠ بحدٍ أقصى ، وأن جارثيا ماركيز عرف رفض كتابه قبل ١٥ أبريل من ذلك العام – لماذا؟ لأنه فى ذلك التاريخ عندما عاد نهائيًا رامون بيثنس العالم القطالونى إلى برشلونة ، واستنادًا لجارثيا ماركيز ذاته كان أحد الشخصيات الذين ساعدوه على تجاوز خمود الهمة الذى سببه له رفض قصته (تصريحاته لليوبولدو أثانكوت فى " جابرييل جارثيا ماركيز يتحدث عن السياسة والأدب" إنديثى (الفهرس) رقم ٢٣٧ ، مدريد ، نوفمبر ١٩٦٨).

(٣٤) جاء ذلك ضمن تصريحات ألفونسو فوينمايور إلى ليديثى بالينثويلا.المصدر المذكور. ورسالة جييرمو دى تورِّى إلى جارثيا ماركيز التى يبدو أنها غير موجودة. فعرف فقط ما جاء فيها نتيجة تعليقات الكاتب وقليل من الأصدقاء مثل ألفونسو فوينمايوركانوا قد قرأوها فى ذلك الحين.

(٣٥) جاء ذلك ضمن تصريحاته إلى ليوبولدو أثانكوت ، المقال المذكور.

(٣٦) ألفونسو فوينمايور ، المصدر المذكور.

(٣٧) ليديثى بالينثويلا،المصدر المذكور.

(٣٨) جاك جيرالد" قصة كرونيكا"، جازيتا ، الجزء الرابع رقم ٣٥ ، المعهد الكولومبى للثقافة ، بوجوتا ، ١٩٨١ .

(٣٩) ومع ذلك كان ذلك بالمساعدة المتكررة لخيرمان بارجاس الذى قال بعد ذلك بسنوات إنَّ صحيفة كرونيكا كانوا يوزعونها من محل إلى آخر ، وأيضًا ثمنها الزهيد كنا نحصله من محل إلى آخر على شكل مشروبات (رامون بيثينس الذى عرفته"، بونتو رخو (النقطة الحمراء) رقم ٢ ، بوجوتا، ١٩٧٥).

(٤٠) جابرييل جارثيا ماركيز ، " نقد ذاتى " ، المقال المذكور. فى محادثاتنا اعترف ألفونسو فوينمايور بصحة هذا الرهان ، ولكنه أكدُ أنه لم يتذكر مزيدًا من التفاصيل بشأنه.

(٤١) ألفونسو فوينمايور، المصدر المذكور.

(٤٢) جاء ذلك ضمن " نقد ذاتى" المقال المذكور. وبالفعل " القتلة " يمكن أنْ تُعَنْوَن أيضًا " الرجل الذى كان يصل فى تمام السادسة " أو " قصة نبأ موت مُعلن ".

(٤٣) إنَّ هذا الموضوع تكرَّر على سبيل المثال فى " أوراق الشجر البالية" أو " الورقة الساقطة" و" قيلولة الثلاثاء"، " ماريا ورأيان" وبطرق متعددة فى " مائة عام من العُزلة". وحتى فى مقدمة" اثنتا عشرة حكاية غريبة" يُشير جارثيا ماركيز إلى تاريخ القصة التى أصابته بالإحباط ، والتى تستند على حُلمٍ حضر فيه إلى جانب أصدقائه مواكب جنائزهم الشخصية.

هوامش الفصل التاسع

(١) جاء ذلك ضمن تصريحات إنريكى جارثيا ماركيز للصحفى خوان جوساين فى " واقع موت مُعلن " ، الاسبكتادور ، بوجوتا ، ١١ مايو ١٩٨١ . إنَّ المعلومات التى لم يتم الإشارة إلى مصادرها فى هذا الفصل واردة من محادثاتى مع جابرييل جارثيا ماركيز ، وأشقائه لويس إنريكى ، وجوستابو ، وخايمى ، وإليليخيو ، ومارجوت ، وعايدة وليخيا جارثيا ماركيز ، وألفونسو فوينمايور، ورفائيل إسكالونا ، ومانويل ثباتا أوليبيا، ولويس كارميلو كوريًا جارثيا ، وهوجو بيجا ، وإلبيرا ثالاثار وآخرين من مواطنى سوكرى.

(٢) جابرييل جارثيا ماركيز ، " حكاية الحكاية" المصدر المذكور.

(٣) وُلِدَ خايمى فى ٢٢ مايو ١٩٤٠، وإيرنانو فى ٢٦ مارس ١٩٤٣ وألفريدو ريكاردو فى ٢٥ فبراير ١٩٤٦، وإليليخيو جابرييل فى ١٤ نوفمبر١٩٤٧ . لقد وُلِدَ أربعة أنجال فى أراكاتاكا: جابرييل خوسيه ، ولويس إنريكى، وليخيا، وجوستابو ، وثلاثة فى بارانكيا: مارجريتا، وعايدة روسا ، وريتا ديل كارمن.

(٤) إيليخيو جارثيا ماركيز ، الموت الثالث لسانتياجو نَصْر ، مدريد ، موندادورى ، سبتمبر ١٩٨٧ .

(٥) المصدر السابق نفسه.

(٦) استنادًا لما قاله جوستابو جارثيا ماركيز كانوا ينامون جميعًا طوال تلك الليالى فى نفس الغُرفة لأنَّ النوم فى ذلك الحين كان كابوسًا مُرعبًا لأنَّ القصص كانت مستمرة فى الأحلام أيضًا" .

(٧) فى التحقيق الصحفى " رحلة إلى الجذور" المقال المذكور، يقول جارثيا ماركيز: إنَّه عرف لاسيربى لأنه كان هناك. ومع ذلك قال لي شقيقه لويس إنريكى إنه كان شبه متأكد من أنَّ جابيتو لم يذهب إلى لا سيربى على الإطلاق ". وفى مقدمة " بين الكاتشاكوس " (بين المحامين والتُجار والخُطباء) يقول جاك جيرالد انطلاقًا من تأكيدات الكاتب إنه حصل على معلومات لسلسلة لا سيربى من خلال محادثات كثيرة فى سوكرى ، حيث تواترت أنباءُ كثيرةُ عن هذه المنطقة الغريبة ، وإن كان يحدد بالتخصيص أنَّ الذى زوده بهذه المعلومات أنخيل كاسيخ بالينثيا صديق عاش فى سوكرى ، وبعد ذلك فى قرطاجنة". ولكن ليس من المستبعد ، ونظرًا للحزم الذى يلتزم به الصحفى فإنَّ جارثيا ماركيز قد يكون قد قام فى النهاية برحلة سريعة إلى أراضى لا سيربى المرعبة ، لكى يؤكد ويوثق معلوماته لأنَّه فى التحقيق المذكور يُشير إلى أنه يعرف لا سيربى، كنت فى لا سيربى ولكننى لم أرَ"الكنز الذهبى" ولا " التمساح الأبيض" و" ولاشىء من هذه الأشياء" بل كان واقعًا يعيش داخل وجدان الناس، ولذلك فإنَّ ما يحكونه لك لن يساورك أدنى شك بأن ذلك حقيقة لا مِراء فيها.

(٨) جابرييل جارثيا ماركيز، " ماركيزة لا سيربى الصغيرة" ، فى "بين المحامين والتجار والخطباء". إنها أول جزء من الأربعة أجزاء عن " دولة على الساحل الأطلسى" ، وهو عنوان مميزُ لم يحتفظ به المؤلف اعتبارًا من الطبعة الأولى الكاملة للسلسلة فى صحيفة الاسبكتادور" المشاهد" أيام ٧ ، ٢١، ٢٨مارس ، ٤ أبريل ١٩٥٤ (الجزء الأول نُشِرَ فى مجلة لامبارا (المصباح) الجزء الأوَّل رقم ٥ ، بوجوتا ، ١٩٥٢ .

(٩) داسو سالديبار ، " الراهبة عايدة جارثيا ماركيز " ، صحيفة الاسبكتادور" المشاهد" " مجلة الأحد "، بوجوتا ، ٢٢ أكتوبر ١٩٧٢، وإيليخيو جارثيا ماركيز. المصدرالمذكور. وفي سفرى إلى سوكرى ما بين ١٧، ١٨ أغسطس عام ١٩٩٢ استطعت إثبات صحة أسطورة ماريا أماليا سامبايو دى ألباريث. وطبقًا لما يُقرأ فى لوح المرمر (شاهد قبرها) وُلِدت فى ١٦ فبراير ١٨٩٨ وتُوفيت فى ١ نوفمبر١٩٥٧ .

(١٠) جاء ذلك ضمن تصريحات لويس إنريكى جارثيا ماركيز لخوان جوساين. المقال المذكور.

(١١) جابرييل جارثيا ماركيز " الساذجة إيرينديرا وجدتها إيرينى باباس" فى ملحوظات صحفية ١٩٨٠-١٩٨٤ المصدر المذكور. يقول المؤلف بالنص:" منذ سنوات كثيرة، وفى ليلة نزهة فى قرية بعيدة بالكاريبى تعرفت على طفلة فى الحادية عشرة من العمر كانت تمارس البغاء على أيدى قابلة يمكن أنْ تكون جدتها(...)، وكان عمرى فى ذلك الحين ستة عشر عامًا، وكنت أدرك أنه أجلاً أم عاجلاً ساكون كاتبًا". ونظرًا لأنَّ جارثيا ماركيز اعتاد على الخطأ فى عمره حيث ينقص منه عامين أو عامًا ينبغى أنْ نُرجع الأحداث لعامى ١٩٤٤، ١٩٤٥ وخلال هذين العامين كان يقضى إجازته فى سوكرى على وجه التحديد. وعندما سُئِلَ عن صحة هذه النادرة أو الحكاية أجابنى لويس إنريكى جارثيا ماركيز إنه لا يذكرها ولا يذكر أنها حدثت فى سوكرى ، ونظرًا لتاكدى من ذاكرته الجيدة فإنَّ هذا جعلنى أفكر أنَّ حكاية الطفلة الداعرة لا ينبغى أنْ تكون قد حدثت فى سوكرى ؛ بل فى إحدى القرى الأخرى القريبة. وعلاوة على ذلك فإنَّ الكاتب لم يكن شاهدًا مباشرًا بل يحتمل أنْ يكون قد سمعها فى إذاعة بنما كما يقول الكوبيون.

(١٢) جاء ذلك ضمن تصريحات لويس إنريكى جارثيا ماركيز لخوان جوساين . المقال المذكور و جابرييل جارثيا ماركيزفى "حكاية الحكاية" ، المصدر المذكور.

(١٣) جاء ذلك ضمن تصريحات جابرييل إيليخيو جارثيا والد القصَّاص لهارلى د. أويرهيلمان، فى "جابرييل إيليخيو جارثيا يتحدث عن جابيتو" تجميع بيتر إيرلى فى جارثيا ماركيز ، مدريد ، تاوروس ، أكتوبر ١٩٨١ . فى منتصف ١٩٧٤ كانت لى دردشة مع والد جارثيا ماركيز فى منزله بحى لا مانجا فى قرطاجنة، ومن بين أشياء أخرى حدَّثنى عن هذه الشخصية وأنا فقط بسبب بعض أخطاء الذاكرة ، وقد وجدت طبيب الأسنان المنفى ذاتيًا فى أراكاتاكا.

(١٤) إيليخيو جارثيا ماركيز ، المصدر المذكور.

(١٥) نفس المصدرالسابق ، ولويس إنريكى جارثيا ماركيز فى " واقع موت مُعلن" ، المقال المذكور.

(١٦) يبدو إنَّ هذه الحكاية لم تنتقل إلى الذاكرة الشعبية لأنَّ جارثيا ماركيز دقيق كما هى عادته ، ولم يسجلها فى تحرياته المسبقة لكتابة قصته" نبأ موت مُعلن". وقد حكاها لى شقيقه لويس إنريكى فى بارَّانكيا، وقال لى إنَّ الكاتب عرفها عندما كانت القصة فى المطبعة.

(١٧) إيليخيو جارثيا ماركيز، المصدر المذكور فى رحلتى إلى سوكرى حاولت إعادة تمثيل الجريمة بكافة تفاصيلها ، وعلى الرغم من أنَّ تحرياتى اتفقت مع الأحداث الرئيسية وسرعان ما أدركت أنَّ العُرف لم يتغير فقط عدة مرَّات ؛ بل كان كل مواطن من سوكرى يضيف التفاصيل والمتغيرات التى يخترعها ، ونفس الشيء عند إعادة تمثيل أحداث أخرى تاكدت فى أراكاتاكا وبارَّانكاس وثييناجا وبارَّانكيا وقرطاجنة ، وكل قرية أو مدينة على الساحل. وهكذا على سبيل المثال إلبيرَا سالاثار صاحبة فندق بيراكروث والمنزل القديم لكايتانو جينتيل أعطتنى رواية أخرى للأحداث تختلف فى كثير من المظاهر (وقد أكدَّ لى أنها كانت شاهدة عيان) من تلك التى يقدمها أشقاء جارثيا ماركيز الذين يحتفظون برواية حقيقية وصادقة عن التفاصيل الدقيقة لهذه الجريمة التى أثرت فيهم كثيرًا. ولهذا فقد قررت الاسترشاد بتصريحاتهم. وقد سمح لى السفر إلى سوكرى علاوة على ذلك التاكد من صدق معلوماتهم والتواريخ والأسماء والأماكن ، وكذلك الموقع والمسافة بينها (أى بين

هذه الأماكن). وقد كان في غاية الفائدة بالنسبة لي النّوم ليلة في فندق بيراكروث. كما أنني تمكنت أيضًا من التأكد من الأوصاف التي قدمها جارثيا ماركيز في قصة "المنزل"، الميدان ، والباب ، والنهر، والقرية هي كما هي حرفيًا في غاية الدقة.

(١٨) نفس المصدر السابق ، ولويس إنريكي جارثيا ماركيز في واقع موت مُعلن" المقال المذكور. واستنادًا إلى ما قالته إلبيرا سالاثار كانت آخر كلمات المحتضر: " ماما أحضروا لي أصبعي الذى ظلَّ في المنزل الآخر. ماما إنني بريء. الهدوء والسكينة والصبر. انتقموا لدمي". وحكاية الأصبع كانت حقيقية على ما يبدو، وهي أحد الأشياء القليلة جدًا التي لم يذكرها جارثيا ماركيز في القصة : فمع أوّل طعنة بتر فيكتور مانويل تشيكا أصبع كايتانو (بتر خُنصر اليد اليُمنى لكايتانو، وقد ظلّ بجوار بركة أو حوض المنزل المجاور). خوسيه سالاثار شقيق المالكة الحالية لمنزل كايتانو أخذته وأدخلته في جيب قميصه لكي تدفن الجثة كاملة.

(١٩) الذى رأى بصورة أفضل واقعة اغتيال خوليو ثيسار في سانتياجو نَصًر هو خوسيه مانويل كماتشو ديلجادو في " نبأ موت مُعلن: إنَّ إعادة كتابة القصة" ، هوياس (الآثار) (مجلة جامعة الشمال) ، بارأنكيا ، أغسطس ١٩٩٤ . وفيما يتعلق بالسبب الذى ذكره جارثيا ماركيز في قصته عن أسطورة القدر، انظر تأملاته في " حكاية بعد الحكاية" في ملحوظات صحفية ١٩٨٠ – ١٩٨٤ . المصدر المذكور.

(٢٠) جابرييل جارثيا ماركيز ، " حكاية الحكاية" المصدر المذكور.

(٢١) جاك جيرالد، في مقدمة نصوص ساحلية، ويؤكد بالفعل أنَّ جارثيا ماركيز لم يحضر هذا العمل: فالفوضى الإدارية كان مُبالغًا فيها ، وكان نشاطه الوحيد يتلخص في تقاضي مرتبه، وكان – بلا ريب – غير كاف لميزانية الأسرة ، ولكن لم يكن يستحق ذلك لأنّه وشقيقيه لم يشترك في إعداد الإحصاء السكاني ، ومع ذلك فإنَّ جوستابو جارثيا ماركيز في دردشتنا بتاريخ ١٩ أغسطس١٩٩٢ أكدَّ لي في بارأنكيا أنَّ أخاه لم يقبض شيئًا ، لأنّه لم يحضر إلى العمل ، أما هو فقد عمل لمدة عشرة أشهر مقابل مائة بيزو شهريًا، وأنه تمكن من الحصول على أول راتب له بعد سبعة أشهر. أما لويس إنريكي من جانبه فقد اضطر للعمل في البداية كمخبر سرى بضعة أشهر قبل الالتحاق للعمل بوزارة الزراعة والاستقرار والإقامة في ثيناجا في نوفمبر ١٩٥١ .

(٢٢) ويذكر فوينمايور جيدًا اقتراضه ستمائة بيزو استنادًا لما قاله لي لأمرين: أولاً بسبب الأثاث وثانيًا لأنَّ ماركيز اضطر إلى سداده بمقالات افتتاحية مما عكرَّ عليه صفو حياته طوال عدة أشهر، بينما حقّقت له المقالات الراحة النفسية في حياته.

(٢٣) جابرييل جارثيا ماركيز ، " كلمات للكة" في نصوص ساحلية . المصدر المذكور. وبالنسبة لتأليف راميرو دى لا إسبيريا للخطاب الأوّل في قرطاجنة حيث إنَّ فقرتيه الأخيرتين نسخهما جارثيا ماركيز هنا. انظر الملحوظة ١٧ من الفصل السابع.

(٢٤) جاك جيرالد ، مقدمة نصوص ساحلية. المصدر السابق وخورخي جارثيا أوستا ، " أيام القرض " ، الأونيفرسال (العالمي) ، قرطاجنة ، ١١، ١٩ ديسمبر ١٩٨٢ .

(٢٥) كونسويلو أراوخو توجيرا ، رفائيل إسكالونا ، الرجل والأسطورة ، بوجوتا ، دار نشر بلانيتا ، أغسطس ١٩٨٨ .

(٢٦) ثيرو كيروث أوتيرو الأغنية الشعبية ، الرجل والغناء ، بوجوتا ، إيكاروا ، فبراير ١٩٨٣ .

(٢٧) نفس المصدر السابق و جابرييل جارثيا ماركيزفي " جارثيا ماركيز يتحدث عن الموسيقى"، تصريحات أدلى بها لأرماندو لوبيث للمجلة الكوبية أوبينا (قُل رأيك) ، وقد أعيد نشرها في الاسبكتادور (المشاهد) ، بوجوتا ، ٢٩ ديسمبر ١٩٨٥ .

(٢٨) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيزلمجلة كوراليبى ، فى " عندما كان إيسكالونا يُطعمنى" ، بوجوتا ، أبريل١٩٨١: لم أتعب قط من القول بأن قصه " مائة عام من العُزلة" ليست إلا أنشودة شعبية تتكون من ٣٥٠ صفحة ، وأى شخص سمع أغنية شعبية أصلية سيُدرك أنْ ذلك ليس نكتة مازحة، ولا سخرية مُضحكة. " مائة عام من العُزلة" عبارة عن رواية لأحداث يومية للمنطقة ، حيث نشأت وازدهرت الأغنية الشعبية على وجه التحديد".

(٢٩) جارثيا ماركيز اعترف على الملأ مراراً وتكراراً بإعجابه وامتنانه لرفائيل إيسكالونا: "لقد تعرفْت على إيسكالونا. أمعن النظر: لقد بدأنا العمل سوياً. لقد قمنا بعدة رحلات للمتعة إلى لا جواخيرا...هناك رحلة من إيرينديرا عبارة عن رحلة قمت بها مع إيسكالونا إلى لا جواخيرا..." (الرحلة إلى الجذور"، المقال المذكور). وبعد ذلك بأربعة أعوام صرح لمجلة كوراليبي: لقد ساعدنى إيسكالونا كثيراً ، وقد كنا دائمًا صديقين ممتازين، ولقد حضرت ميلاد كثير من الأغانى الشعبية التى كتبت ألحانها. إنْ إيسكالونا عبقرى فى هذه الحياة. وهذا أمرٌ فى غاية الجدية!. هل تتصور إدراج كمية كبيرة من الموضوعات فى ثمانية أسطر؟ ، إنْ هذا هو الإعجاب الكبير الذى أشعر به تجاه إيسكالونا وجميع ملحنى الأغانى الشعبية" (عندما كان إيسكالونا يطعمنى"المقال المذكور). وطبقًا للسيرة الذاتية للملحن كونسويلو أراوخو فإنْ الكاتب اختتم إعجابه تجاه إيسكالونا فى قلب استكهولم أثناء أيام احتفاله بالحصول على جائزة نوبل حيث أهدى نسخة من "مائة عام من العُزلة" إلى صديقه: إلى رفائيل إيسكالونا الشخص الذى يشتد به إعجابى فى العالم أجمع" أمّا عدا ذلك فالان تعرف أنْ القدرة الكبيرة لبنيته الروائية لا ترجع إلى كتاب مثل هيمنجواى وجراهام جرين بل أيضًا – وفى المقام الأوْل – إلى الأغانى الشعبية هذا الينبوع الساحر.

(٣٠) وعلى سبيل المثال فى" الرحلة إلى الجذور"، المقال المذكور: هل تعرف كيف مولْت كل رحلتى التى استغرقت أكثر من عام عندما كنت أتجول من مكان إلى آخر فى جميع أنحاء المنطقة ؟... كنت أبيع موسوعات !. إنْ هذه الرحلة لم تستغرق سوى خمسة أو ستة أشهر فقط. أمّا الذى استغرق أكثر من عام؛ فقد كانت الرحلات المتعددة التى قام بها إلى ماجدلينا، وبايدوبار، ولا جواخيرا، ولذلك فعند الحديث بهذا الشكل فإنْ جارثيا ماركيز يجعل من جميع رحلاته وأسفاره رحلة واحدة أو سفراً واحداً. وعلاوة على ذلك ففى الآونة الأخيرة فى نفس القصة المختلفة" (مقدمة الرجل فى الشارع) لسيمينون، برشلونة، توسكيتس، فبراير١٩٩٤ ، عاد مرّة أخرى الغموض عندما أرّخ للرحلة إلى لا جواخيرا كبائع للكتب (والتى تمت فيما بين ديسمبر ١٩٥٢ ومايو أو يونية ١٩٥٣) فى ١٩٤٩ تلك السنة التى على ما يبدو قام فيها برحلته إلى بايدوبار ولاباث مدعواً من مانويل ثباتا أوليبيا.

(٣١) فى محادثاتنا بتاريخ ١١ يولية ١٩٩٢ بمدينة بوجوتا، مانويل ثباتا أوليبيا كان يبدو أنه يتذكر تلك الرحلة الأولى لجارثيا ماركيز إلى بايدوبار ولا باث مدعواً من جانبه. وقد ذكر فقط الرحلة التى قام بها الكاتب لبيع الكتب برفقة رفائيل إيسكالونا، وقد نسى أنْ هذه الرحلة الثالثة التى قام بها للمنطقة. ولكن السنة التقريبية للرحلة الأولى يمكن تحديدها من مصادر أخرى. الأولى أعطانى إياها نفس ثباتا أوليبيا عندما أخبرنى بأنه فى أواخر ١٩٤٩ ، وبعد التخرج طبيباً فى بوجوتا توجه إلى لا باث عن طريق قرطاجنة ، والتقى ثانية بجابرييل جارثيا ماركيز الذى كان يعمل منذ عام فى الأونيفرسال (العالمى) وذلك بفضل وساطته على وجه التحديد. كان حينئذ عندما دعا مانويل ثباتا أوليبيا الكاتب لكى يزوره فى لا باث. وقد أكد هذه الزيارة جارثيا ماركيز بنفسه لجاك جيرالد (انظر الملحوظة ٧٩ من مقدمة نصوص ساحلية.المصدر المذكور) ، وانطباعات هذه الرحلة دونها فى عمود لاخيرافا (الزرافة) فى صحيفة الهيرالد (أبليتو بيا، إيسكالونا ثيا") فى ١٤ مارس ١٩٥٠ . حيث أكد أنه بالفعل كان مع مانويل أوليبيا فى بايدوبار. إنْ تاريخ النشر يوحى بأن الرحلة تمت مؤخراً ،

ولكن إشارة من الكاتب جعلتنى أعتقد أنّ الرحلة الأولى كان قد قام بها فى ديسمبر١٩٤٩ ربما قبل أنْ يستقر فى بارأنكيا. ويشير جارثيا ماركيز " نفس القصة المختلفة" أنّ المرة الأولى التى قرأ فيها قصة " الرجل فى الشارع" لسيمينون كان فى ١٩٤٩" ، عندما توقف في مسيرته الصحفية وبدأ يبيع الكتب الفنية والموسوعات بالتقسيط فى قُرى ونجوع لا جواخيرا الكولومبية ". إنّ هذا زيف بالتأكيد أن يكون ذلك العام هو الذى قام فيه ببيع الكتب أثناء زيارته للمنطقة بل الرحلة التى قام بها إلى بايدوبار ولا باث مدعواً من مانويل ثباتا أوليبيا.

(٣٢) كونسويلو أراوخو نوجيرا، المصدر المذكور يؤكد أنّ الكاتب والملحن تعرفا على بعضهما فى ٢٤ مارس ١٩٥٠ ، والحقيقة أنّ ذلك تم فى اليوم السابق على هذا التاريخ ، كما يؤكده جارثيا ماركيز فى عموده لاخيرافا" الزرافة" بصحيفة الهيرالد الذى نُشر فى نفس التاريخ. وتشير أراوخو نوجيرا إلى أنّ الشهر التالى سافر جارثيا ماركيز إلى بايدوبار مدعواً من جانب إيسكالونا، وأنه قضى أسبوعًا كاملاً". إنه تاريخ مشكوك فيه لأنه فى أبريل ، وحتى فى الشهور التالية من ذلك العام لم تتخلف أو تتأخر مقالات جارثيا ماركيز فى صحيفة الهيرالد لكى يؤكد أنه تغيب خلال تلك الفترة لمدة أسبوع كامل. إنّ التغيب الملحوظ عن عموده لم يحدث حتى أواخر مارس وأبريل وأوائل مايو ١٩٥١ ، وهى تلك الفترة التى عاد فيها جارثيا ماركيز إلى قرطاجنة ليلتقى بأسرته التى ما لبثت أنْ وصلت إلى سوكرى.

(٣٣) وتؤكد كونسويلو أراوخو نوجيرا المصدرالسابق أنه فى نهاية إقامة جارثيا ماركيز فى منزل والدى رفائيل إيسكالونا، وبعد أنْ تحادث ساعات كثيرة مع كليمنتى إيسكالونا المسن كانت لدى الكاتب الخطوط العريضة، وسمات بطل إحدى القصص القصيرة الجميلة فى الأدب العالمى: " العقيد لا يجد منْ يراسله". إنها مبالغة أنْ نطرح ذلك بهذا الشكل ، لأنّ جارثيا ماركيز لكى تختمر فكرة كتابه اعتمد على التاريخ المشترك لعدة شخصيات حقيقية بدءًا بشخصية جده ، وفى بعض الأحيان إلى ظروف السيرة الذاتية.

(٣٤) وبما أنّ مغامرة قصته" القرص" لم تنته حتى أواخر سبتمبر ١٩٥١ يُفترض أنّ جارثيا ماركيز لم يقم بهذه الرحلة حتى أكتوبر أو نوفمبر أو ربما حتى ديسمبر من ذلك العام. لقد توقف عن كتابة عموده لا خيرافا (الزرافة) فى صحيفة الهيرالد فى أوائل يولية ، ثم عاد إلى الكتابة فى ٨ فبراير ١٩٥٢ فى نهاية هذه الجولة.

(٣٥) جابرييل جارثيا ماركيز ، " شيء أشبه بالمعجزة " ، فى نصوص ساحلية، المصدر المذكور.

(٣٦) جابرييل جارثيا ماركيز ، نقد ذاتى ، المقال المذكور.

(٣٧) فى النسخ الأولى للكتاب استخدمت التاريخ التقريبى للرحلة الذى أعطانى إيّاه جارثيا ماركيز فى محادثاتنا بالمكسيك: فيما بين ٢٥ ، ٢٨ فبراير١٩٥٠ وهى السنة التى ذكرها دائمًا أصدقاؤه فى بارأنكيا وبعض كاتبى سيرته ودارسيه. ومع ذلك ولعلمى بأن هذا التاريخ مهمٌ للغاية فى حياة الكاتب، وأنه تختلط وتلتبس عليه السنوات فى إشاراته الخاصة بالسيرة الذاتية فكرت فى ضرورة التأكد من ذلك من والدته وأشقائه. السيدة سانتياجا ماركيز ، التى ستكمل العام التسعين من عمرها لم تتذكرالسنة جيداً، ولكن نجلتها ليخيا " مؤرخة الأسرة" التى قالت لي بصفة قاطعة إنّ رحلة والدتها مع شقيقها لبيع منزل جديها لم يكن فى ١٩٥٠ بل كان فى ١٩٥٢ ، عندما كانوا قد استقروا منذ عام فى قرطاجنة. ولم يساورها الشك فى هذا الشأن لأنها فى أوائل ذلك العام عرفت أراكاتاكا ، ولم يكن البيت قد بيع حتى ذلك الحين على الأقل خلال الشهور الأولى لأنها ذهبت عدة مرات لتقاضى الإيجار من أسرة أكونيا أكوستا. ثم أكدَّ لي شقيقها لويس إنريكى فى وقت لاحق أنّ ١٩٥٢ هو التاريخ الأكيد لرحلة شقيقه مع والدته لبيع منزل جديه: لأنه كان قد ذهب للعمل فى ثيناجا كموظف بوزارة الزراعة فى نوفمبر ١٩٥١ ، وبعد ذلك بثلاثة أو أربعة أشهر التقى هناك بوالدته وشقيقه جابرييل ، وهما فى طريقهما إلى أراكاتاكا. ولذلك فلم يكن أدنى شك: كان سفر الكاتب مع والدته لبيع منزل جديه كان فى عام ١٩٥٢ . وكان السفر فى شهر مارس كما سجل ذلك الكاتب فى رسالته" نقد ذاتى" ، حيث

اعترف فيها جارثيا ماركيز لصديقه ومواطنه جونثالو جونثاليث: " لقد وصلت توّا إلى أراكاتاكا ..." وقد وصف له فيها حالة الخراب والعُزلة التي وجد عليها القرية. إنَّ التاريخ التقريبي : كان في الأسبوع الأول من شهر مارس، ولهذا يستنتج من ذلك من أنَّ جارثيا ماركيز ترك كتابة عموده لا خيرافا (الزرافة) في صحيفة الهيرالد الأمر الذي كان يفعله دائمًا عندما يتغيب عن بارَّانكيا.

(٣٨) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لماريو بارجاس يوسا ، في " القصة في أمريكا اللاتينية " : حوار، المصدر المذكور.

(٣٩) نفس المصدر السابق ، ويضيف جارثيا ماركيز أنَّ والدته وأمه في العماد تعانقتا وبكيتا على مدى نصف ساعة ". إنَّ هذا بلا شك مبالغةٌ من الكاتب لأنه في بلدة ترتفع بها درجة الحرارة إلى خمس وثلاثين درجة في الظلِّ ليس من الممكن أنْ يتحمل شخصان العناق على مدى نصف ساعة.

(٤٠) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لمجلة " بلاي بوي" التي أعادت نشرها مجلة التيمبو (الزمن) تحت عنوان "بلاي بوي مقابلة مع جارثيا ماركيز"، المصدر المذكور، بوجوتا، ٩ يناير ١٩٨٣ ، في هذه المقابلة يتذكَّرالرحلة مع والدته إلى أراكاتاكا بشكل يشبه ما أورده به في حواره مع ماريو بارجاس يوسا ، وبعد ذلك مع خ.ج. كوبو بوردا في اللقاء الأدبي على مدى أربع ساعات مع جابرييل جارثيا ماركيز. المصدر المذكور. وليس لديه الآن " خمسة عشرعامًا" ، بل واحدًا وعشرين عامًا" (وفي الواقع كان يكمل عامه الخامس والعشرين) " ولم تبك والدته وأمه في العماد نصف ساعة ".

(٤١) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز إلى ماريو بارجاس يوسا.المصدر المذكور.

(٤٢) جاء ذلك في "بلاي بوي" ، مقابلة مع جارثيا ماركيز المقال المذكور. وبعد ذلك بستة أعوام في حواراتنا بالمكسيك قال: عند مقارنة ما كتبته حتى الآن مع أراكاتاكا التي وجدتها أثناء زياراتي بدا لي ذلك بعيدًا كل البُعد عما أراه وأشاهده هنا.

(٤٣) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز إلى خ. ج. كوبو بوردا، المصدر المذكور.

(٤٤) نفس المصدر السابق، ورائحة الجوافة. المصدر المذكور. في محادثاتنا بالمكسيك كرَّرالشيء نفسه : " حينئذٍ تركت " لا كاسا" (المنزل) وكتبتُ " الورقة الساقطة " عندما عدت أي أنني بدأت من درب آخر".

(٤٥) في رسالة " النقد الذاتي" المؤرخة في بارَّانكيا في مارس ١٩٥٢ بعد عودته بقليل من أراكاتاكا اعترف جارثيا ماركيز لصديقه جونثالو جونثاليث: أنت تعرف الآن أنَّ دار نشر لوسادا رفضت نشر " الورقة الساقطة" كما رأينا في الملحوظة ٣٣ من الفصل الثامن، وقد عرفت المؤلف قبل ١٥ أبريل ١٩٥٠ ، إذن لماذا يُصرُّ على أنه كتب قصته الأولى في بارَّانكيا بعد عودته من أراكاتاكا تلك العودة التي حددها في فبراير ١٩٥٠ ؟ هناك ثلاث إجابات ممكنة أو ربما ثلاث طُرق لإعطاء نفس الإجابة. الأولى أنه منذ نشر الورقة الساقطة ١٩٥٥ فإنَّ النقد أصر على التأثير الفوكنري الواضح في هذه القصة ، حتى أنَّ جارثيا ماركيز استاء تمامًا (لأنَّ النقد كان من جانب واحد لم ير فقط تأثير فيرجينيا وولف ومؤلفين آخرين ؛ بل تجاهل أيضًا الحدث الجوهري وهو أنَّ مصدر القصة هو طفولته ومنزل جدَّيه وأراكاتاكا) وربما لهذا السبب نجده قد وضع نفسه على طرف نقيض من النقاد، وأراد الإقناع بأن "الورقة الساقطة " كان قد كتبها فقط عقب عودته مع والدته إلى أراكاتاكا (وهذا ما يُفسر لماذا في لحظة ما بدأ يؤرخ للرحلة إلى أراكاتاكا في فبراير ١٩٥٠). أما الإجابة الثانية فإنها تُدرج في الأولى ، لأننا كما رأينا أنه فقط اعتبارًا من هذه اللحظة الحاسمة بدأ جارثيا ماركيز يرى بوضوح الجذور وموضوع القصة وهدف وغاية فنه الروائي ، وبدأ يشعر أنه كاتب أصيل حقيقة ، أو لديه الإمكانية لكي يكون كذلك لكونه أمرًا مُتاحًا له ، ولذلك عاد إلى كتابة القصة للمرة الثالثة على ضوء خبرته بعد الزيارة. وفيما يخص الإجابة الثالثة ، فهي ذات طابع عاطفي لأنه يؤكد أنه كتب "الورقة الساقطة " بعد سفره إلى أراكاتاكا

(وهذا يعنى ، طبقًا لكلامه فى ١٩٥٠ ، تلك السنة التى كان مرتبطًا فيها بأصدقائه فى بارّانكيا) وتاريخ ذلك فى ١٩٥٠ كما فعله فى الطبعة الأولى بدار نشر س.ل.ب. سنحت له الفرصة لإعداد تكريم خالد للمدينة ولأصدقاء الجماعة ، حيث أنَّ صداقتهم ورفقتهم يعتبرها أهم شيء فى مسيرته الأدبية.

(٤٦) جاء ذلك ضمن تصريحات خيرمان بارجاس فى "لم ينقص جابو سوى الكتابة للأطفال" المقال المذكور.

(٤٧) جاء ذلك فى " بلاى بوى" مقابلة جارثيا ماركيز، المقال المذكور.

(٤٨) من الرسالة التى بعث لي بها جوستابو إيّبارا ميرلانو، مؤرخة فى بوجوتا فى ١٥ سبتمبر١٩٩٤ .

(٤٩) عند سؤاله عن الروايات المتعددة " الورقة الساقطة" فى لقائنا الثانى بالمكسيك، فى ١٧ مارس ١٩٨٩، قال لى جارثيا ماركيز:إنَّ قصة " الورقة الساقطة" لم تمر بكتابات متعددة ، ولكننى تأخرت كثيرًا فى كتابتها. لا ، هذه القصة كانت من الإلهام: وعلى الفور بدأ بوسيلتها ونغمتها وأسلوبها وبكل شيء. لا، إنَّ كل ما حدث أننى قرأتها كثيرًا لأننى كنت حينئذ يسودنى انطباع بأنه يخترع شيئًا ، وإن كان هذا يبدو لي شيئًا صبيانيًا ؛ بل فى كولومبيا لم يكن صبيانيًا بالنسبة لعمر الأدب". ومن جانبه جوستابو إيبارًا ميرلانو أكدَّ لى فى رسالته المؤرخة فى سبتمبر١٩٩٤: صحح جابرييل القصة عدة مرات حيث أشار إلى كتابات سابقة" ، هى التى قرأها قبل يولية ١٩٤٩ ، وبما أننا نعرف منهج عمل جارثيا ماركيز والشكوك التى ساورته فى هذه القصة الأولى وخطوب الدهر التى مرت بها القصة الأولية ولذلك فمن الملائم أو شبه الحتمي التفكير فى أنه اضطر إلى كتابتها مرات كثيرة، وأن قصة "الورقة الساقطة" إذا لم تكن القصة التى أعدها بدقة بالغة فهى من أهم القصص التى حظيت بهذا الإعداد والتجهيز. وبالتأكيد لن نستطيع تحديد العدد الدقيق لمختلف رواياتها دون أنْ نعرف مختلف المسودات ، ولكن يمكن القول بأنها كتبت أربع أو خمس مرات فى البداية ، إذا ما تتبعنا خطوب الدهر والظروف التى رافقت كتابة هذه القصة. الأولى كانت التى قرأها هيكتور روخاس إيراثو، وجوستابو إيبارًا ميرلانو فى مايو أو يونية ١٩٤٩ (دون أنْ نحسب أنه من الممكن أنْ يكون قد كتبها أكثر من مرة قبل ذلك). أمّا الثانية فهى تلك التى أعدّها جارثيا ماركيز بعد قراءة سوفكليس بناءً على إيعاز من جوستابو إيبارًا ميرلانو الذى دُهش وقال له: إنَّ قصة " الورقة الساقطة " عظيمة وحينئذ استعارها وأسرع فى قراءتها فى لقائنا ببوجوتا جوستابو إيبارًا ميرلانو وذكر لى: " وبعد ذلك وعلى ضوء القراءة ، (جارثيا ماركيز) أعاد كتابتها وكتكريم للأستاذ اليونانى أشار إلى بداية قصة " الورقة الساقطة". وهذه الكتابة كانت بناءً على إيعاز من ألبارو موتيس ، جارثيا ماركيز أرسل القصة إلى مندوب دار نشر لوسادا فى بوجوتا فى أواخر ١٩٤٩. أمّا الثالثة (أو الكتابة الثانية) وهو ما فعله الكاتب بعد رفض دار النشر القصة ، وأخذ انتقادات العالم القطالونى رامون بيثينس ، ألفونسو فوينمايور وخيرمان بارجاس فى مارس أو أبريل أو مايو ١٩٥٠ وأواخر تلك السنة. وهذه هى الرواية التى يتبناها أصدقاء بارّانكيا ودارسو الكاتب ويعتبرونها الأولى، وهى تلك التى أراد الكاتب أنْ تكون كذلك طبقًا للأسباب التى شُرحت فى الملحوظة ٤٤ . وهكذا – على سبيل المثال– أكد لي ألفونسو فوينمايور أنَّ جارثيا ماركيز بدأ كتابة قصة " الورقة الساقطة" فى صالة تحرير صحيفة الهيرالد (أى فى أوائل ١٩٥٠) على آلة كاتبة ماركة ريمينجتون، وكانت ماكينتى التى أهديتها لمتحف رومانتيكو فى بارّانكيا "، بينما نرى أنَّ جاك جيرالد الدارس الفرنسى للإنتاج الصحفى للكاتب يؤكد فى مقدمته "لنصوص ساحلية ، " مما يوضح أن كتابة " الورقة الساقطة" بدأت منذ يونية أو يولية١٩٥٠ إلى يونية ١٩٥١" ، وفيما يتعلق بالمرة الرابعة (أوالكتابة الثالثة) فهى التى كانت نقطة انطلاقها عودة جارثيا ماركيز إلى أراكاتاكا مع والدته السيدة لويسا سانتياجا ماركيز التى بدأها فى مارس أو أبريل ١٩٥٢ فى آن واحد مع الاستمرار فى كتابة القصة المؤجلة دائمًا والتى هجرها فى نهاية الأمر " لا كاسا" (المنزل) . إنه قد كتب " الورقة الساقطة" بعد هذه الرحلة

المشار إليها آنفًا ، ويُحتمل أنَّ تكون هذه المرَّة بعد قراءة متأنية لنفس القصة ، حيث أنَّ هناك تفاصيل وأوصاف التقطها الكاتب بعد عودته إلى أراكاتاكا مع والدته، وعلى سبيل المثال نجد كذلك انعقيد المجهول فى القصة: هنا بقيت قرية خربة بها أربع محلات مظلمة وفقيرة ، وأصحابها أناس على المعاش وحاقدون يُرعبهم ويروعهم ماضٍ مزدهر ومرارة حاضر سيء لا جدوى منه" أو ذلك الوصف لإ يسابيل نجلة العقيد: وجهت وجهى صوب النافذة ورأيت على الناصية الأخرى اشجار اللوز الحزينة المليئة بالغبار ، ومنزلنا خلفها تهزه رياح غير مرئية ، رياح الدمار وهى أيضًا فى مرحلة ما قبل الصمت والانهيار النهائى." إنَّ الفقرة الأولى عبارة عن نظرة وإحساس جارثيا ماركيز عن قريته عندما عاد إليها بصحبة والدته فى الأسبوع الأوَّل من شهر مارس ١٩٥٢ . أما الفقرة الثانية هى نظرته للمنزل الذى وُلِدَ فيه نظرة قُطرية أو ماثلة من صيدلية أنطونيو باربوسا ، حيث كانت والدته وأمه فى العماد أو ريانا بيربوجو تتعانقان ، واستنادًا لما قاله الكاتب ، تبكيان فى صمت طوال نصف ساعة". وكان خلال هذه الرواية عندما قام جارثيا ماركيز بنزع الفصل " مناجاة إيسابيل ترى المطر فى ماكوندو" الذى نشره أولاً فى صحيفة الهيرالد فى ٢٤ ديسمبر ١٩٥٢ بعنوان " الشتاء" وفى الطبعة الثانية (المهرجان الأول للكتاب الكولومبى، أغسطس ١٩٥٩) حذف الكاتب جزءًا كبيرًا من الفصلين الرابع والسابع، وعدَّل أو حذف عبارات كثيرة من الطبعة الأولى التى صدرت فى بوجوتا عن دار نشر س. ل.ب.مايو١٩٥٥ .

(٥٠) فى الحوار مع ماريو بارجاس يوسا يقول جارثيا ماركيز:" لا أود القول بأن أراكاتاكا هى ماكوندو فبالنسبة لى ... إنَّ ماكوندو هى الماضى ، وبما أنَّ هذا الماضى يجب أنَّ نضيف إليه الشوارع والمنازل والحرارة والناس ، ووضعت لها صورة هذه القرية شديدة الحرارة والمتربة الخربة والمنتهية ذات المنازل الخشبية وأسقفها من الزنك التى تشبه كثيرًا أسقف المنازل فى جنوب الولايات المتحدة الأمريكية . إنها قرية تشبه كثيرًا قرى فوكنر ، لأنَّ شركة الفواكه المتحدة هى التى شيدتها. والآن فإن اسم القرية يأتى من ضيعة مزارع الموز التى كانت على مقربة ، وكانت تُدعى ماكوندو" (قصة أمريكا اللاتينية: حوار، المصدر المذكور .

(٥١) جابرييل جارثيا ماركيز ، نقد ذاتى ، المقال المذكور.

(٥٢) جاك جيرالد، مقدمة "نصوص ساحلية". المصدر المذكور. ألبارو موتيس الذى كان صديقًا لبيجاس هو الذى أمدَّنى بمعظم هذه المعلومات عن شخصية بيجاس.

(٥٣) كونسويلو أراوخو نوجيرا فى سيرتها الذاتية عن رفائيل إيسكالونا. المصدر المذكور. تُؤكد أنَّ سفر الكاتب بدأ فى أكتوبر من هذا العام ، ولكن هذا غير صحيح لأنَّ جارثيا ماركيز لم يبدأ هذه الرحلة حتى أوائل ديسمبر عندما هجر صحيفة الهيرالد نهائيًا. وهذا ليس صحيحًا أيضًا لأنَّ جارثيا ماركيز نفسه أرخ له فى ١٩٤٩ فى مقدمته (" نفس القصة المختلفة") لقصته الرجل فى الشارع. المصدر المذكور، لسيمينون: المرة الأولى التى قرأتها فيها فى ١٩٤٩) عندما توقفت عن نشاطاتى الصحفية الأولى، وكنت أبيع الموسوعات ، والكتب الفنية بالأجل فى قرى لا جواخيرا". وعلى الرغم من أنَّ ذلك كان صحيحًا ، عندما اعترف بذلك قبل ثلاثة عشر عامًا لـ غ. ج. كوبو بوردا. المصدر المذكور: عندما خرجت من صحيفة الهيرالد فى بارَّانكيا ذهبت إلى لا جواخيرا فترة من الزمن ومعى حقيبة لبيع كتب الطب، وموسوعة أوتيها". وبعد ذلك يضيف : " وذات يوم فى بايدوبار شديد الحر فى أحد الفنادق وصلتنى مجلة لايف " الحياة" أرسلها هؤلاء المجانين فى بارَّانكيا: وهناك كانت قصة " العجوز والبحر" ، وكانت بمثابة عبوة من الديناميت" لقد صدرت رواية هيمنجواى فى العدد ٦ من مجلة لايف باللغة الأسبانية فى ٣٠ مارس ١٩٥٣ ، مما يسمح لنا بالاستنتاج عن يقين بأن رحلة جارثيا ماركيز كبائع للكتب فى بايدوبار ولا جواخيرا كان خلال النصف الأوَّل من ذلك العام.

(٥٤) فى لقاءاتنا فى بوجوتا خلال أغسطس ١٩٩٢ ، وفى محادثات هاتفية لاحقة أكدَّ لى رفائيل إيسكالونا أنَّ الرحلات إلى هذه الأماكن مع الكاتب (الرحلة إلى لا جواخيرا الصحراوية سيستفيد منها جارثيا

ماركيز) فى قصته" السانجة إيريندير")، وقد أصرّ على أنه كان مرشده الدائم ، ويؤكد أنّ: " مائة عام من العُزلة" خرجت من بايدوبار ولا جواخيرا لأن الفولكلور فى أراكاتاكا لا يحتاج إلى نصف ساعة لتحليله. لقد رافقته فى كل مكان ، وقد علمته وحكيت له كل شيء . وذات مرّة اصطحبته إلى توبي بالقرب من لا باث ، وجعلته يشاهد شجرة تمر هندى عملاقة قد جفت. وقد سألنى جابو لماذا وقد قلت له : لأنّ قسيساً تبوّل على جذعها".
ولقد دوّن جابيتو كل شيء ويحكى إيسكالونا أن أصدقاءه اشتكوا له: اسمع يارفائيل ، إنّ صديقك هذا كثير الأسئلة للغاية" وقد تركه إيسكالونايتحدث مع الناس وذهب مع الموسيقيين.

(٥٥) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز فى " نفس القصة المختلفة " المصدر المذكور، وليديثى بالينثويلا. المصدر المذكور. وفى هذه المقدمة لقصة"الرجل فى الشارع" لسيمينون ، جارثيا ماركيز أنّ الإيصال الذى كان مديناً بقسيمة أوإيصال لفيكتور كوهين قيمته تسعمائة بيزو " ، ولكن الصحفية الكوبية ليديثى بالينثويلا والتى كان معها الإيصال بلاشك تشير إلى معلومة مختلفة تماماً: " نظراً لهذه الطيبة غير المعتادة فى أصحاب الفنادق ، فإنّ كوهين احتفظ بالإيصال المستحق له على جارثيا ماركيز والمؤرخ فى ٣٠ مارس١٩٥٣ . وفى خانة المبلغ ظهر الدين على أنه ١٢٢ بيزو ، ٥٣ سنتى (كولومبى) ، وقد سدد منها ٥٢ بيزو. وهناك توقيع من الدائن أسفل الإيصال " (الواقع والحنين لجارثيا ماركيز. المصدر المذكور).

(٥٦) العدد ٧ من مجلة لايف باللغة الأسبانية صدر فى ٣٠ مارس ١٩٥٣، وهذا يعنى أنه فى نفس اليوم الذى هجر فيه جارثيا ماركيز بايدوباربعد أنْ وقّع الإيصال لفيكتور كوهين متجهاً صوب لا جواخيرا الداخلية، وريو هاتشا. وبما أنّ المجلة وصلت إليه بعد عدة أسابيع ، ومن المحتمل ألا يكون قد تسلمها فى بايدوبار حيث قرأ قصة هيمنجواى ، أو إذا كان قد حدث ذلك هنا ينبغى أنْ يكون فى مايو أو يونية من رحلته الفاشلة كبائع للكتب بالأجل. واستناداً لجاك جيرالد فى مقدمة بين كاتشا كوس (أى المحامين والتجار والخُطباء) ، يذكر جارثيا ماركيز أنه قرأ هذا النصّ، وقد قتله الحر فى غرفته بفندق ريو هاتشا، ولكنه كان متحمساً للقراءة خلال الفترة التى كان يبيع فيها الكتب". ومع ذلك كما يُرى فى الملحوظة ٥٢ فإنّ خ.ج. كويو بوردا قال له إنّ ذلك كان فى بايدوبار. ومن المحتمل ألا يكون جارثيا ماركيز يتذكر بالضبط فى أى من المدينتين كان موجوداً فى ذلك الوقت ، وقرأ قصة هيمنجواى " العجوز البحر" ، ولكن المكان فى حد ذاته ليس مهماً. إنّ المعلومة التى ينبغى إبرازها أنّ ذلك كان خلال الجولة عندما قرأ تلك القصة.

(٥٧) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لبيلينيو أبوليو ميندوثا فى " لقاء رفيقين"المقال المذكور، ورائحة الجوافة. المصدر المذكور، ففى كلتا الحالتين يذكر جارثيا ماركيز نص فقرة قصة فيرجينيا وولف حرفياً.

هوامش الفصل العاشر

(١) وهذا يعنى أنه على الرغم من أنْ دعم ومساندة الاسبكتادور (المشاهد) كان جوهرياً لجارثيا ماركيز ؛ فإن هذه المرة كان الكاتب هو الذى أعطى لبوجوتا، وكولومبيا ، والعالم ثمار نضجه المبكر. نفكر مع الناقد الأوروجوانى أنخيل راما فى أنْ الاكتشافات الموضوعية والقوانين الجمالية التى انتهجها الكاتب فى أواخر ١٩٤٧، وبدايات ١٩٥٤حيث عاد إلى بوجوتا لن تتغير جوهرياً اعتباراً من عمله فى الاسبكتادور (المشاهد) ، حيث يمزج بين ما هو أدبى ، وبين التحقيق الصحفى والسينما والقلق السياسى - الاجتماعى ، بل ستتعمق إلى أكبر حد (أنخيل راما، البداية الأدبية لجابرييل جارثيا ماركيز"، مركز الأبحاث اللغوية والأدبية، جامعة بيراكروثانا ، إكسالبا، يناير - ديسمبر١٩٧٥) .

(٢) من محادثاتى مع ألبارو موتيس ، المكسيك ، ١٧نوفمبر ١٩٤٩ . استناداً إلى ما يتخيله بيدرو سوريلا فى جارثيا ماركيز الآخر. السنوات العجاف ، المصدر المذكور. قال له جيبرمو كانو إنّهُ لن يستطيع أنْ يؤكد له عما إذا كان صحيحاً انضمام جارثيا ماركيز نتيجة حيلة حاكها جيداً ألبارو موتيس بالاتفاق مع شخص ما بالصحيفة لكى يقترب من الاسبكتادور ، ثم بعد ذلك يطلب منه البقاء أو الاستمرار". إنّ المعلومات التى لم تذكر مصادرها فى هذا الفصل واردة من محادثاتى مع ألبارو موتيس ومانويل ثاباتا أوليبيا، وألفونسو فوينمايور ، وخوسيه سالجار، ولويس بيّار بوردا وجونثالو مايا رينو وكارلوس مارتين وروبريجو أريناس بيتانكور ، ونانسى بيثينس ، وخوسيه لويس دياث جرانادوس.

(٣) جاك جيرالد، مقدمة لنصوص ساحلية، المصدر المذكور.

(٤) جابرييل جارثيا ماركيز" لوحة الأنباء تلك" فى ملحوظة صحفية ١٩٨٠ - ١٩٨٤، المصدر المذكور.

(٥) النادرة نفسها التى أشار إليها جونثالو حكاها لى الكاتب خوسيه لويس دياث جرانادوس قريب جارثيا ماركيز.

(٦) بيدرو سوريلا. المصدر المذكور.

(٧) بالنسبة لهذه الحكاية التى سردها لى موتيس فى محادثاتنا بمدريد فى ٧ نوفمبر ١٩٩١ ؛ كان يشير إلى جارثيا ماركيز فى مقالة صديقى موتيس"، المقال المذكور.

(٨) جاء ذلك على سبيل المثال فى مانويل بيكاوت، المصدر المذكور. وجونثالو سانشيث وبونى ميرتينس، المصدر المذكور.

(٩) جابرييل جارثيا ماركيز " حكاية هذه القصة "، مقدمة لـ " لحكاية غريق" برشلونة، دار نشر توسكيتس ، مارس١٩٧٠ .

(١٠) جاك جيرالد، مقدمة لنصوص ساحلية ، المصدر المذكور.

(١١) جييرمو كانو مدير الصحيفة اعترف لبيدرو سوريلا. المصدر المذكور. أستطيع أن أقول لك شخصيًا أنني لم أكن أعرف أنَّ جارثيا ماركيز عضو فى الحزب الشيوعى ، ولا كان يشارك فى جمع التبرعات من زملائه بالعمل. كنت أعرف نعم أنَّ جارثيا ماركيز كان ذا فكر يسارى تقدمى".

(١٢) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لخوان لويس ثيبريان ، المصدر المذكور.

(١٣) ماريو بارجاس يوسا، جارثيا ماركيز: "قصة متمرد ". المصدر المذكور. وبيلينيو أبوليو ميندوثا، رائحة الجوافة ، المصدر المذكور. جارثيا ماركيز يتذكر أنَّ أصدقاءه الأعضاء فى الحزب استطاعوا أنَّ يسببوا له عقدة ذنب رهيبة عندما قالوا له: إنَّ قصة " الورقة الساقطة " لا تندد بشيء ، إنها لا تكشف عن أى شيء .

(١٤) جاك جيرالد، مقدمة بين كاتشاكوس (بين التجار، والمحامين والخُطباء) المصدر المذكور.

(١٥) نفس المصدر السابق.

(١٦) فى هذا الجانب من التأثير (على الرغم من أنَّ الأمر يتعلق بالتأثير والمصادفة) للواقعية الإيطالية الجديدة فى إنتاج جارثيا ماركيز قد أصاب الدارس الفرنسى جاك جيرالد فى ملاحظته فى المقدمة المذكورة، ولكن كان الناقد الأوروجوانى أنخيل راما ، المصدر المذكور هو أفضل منْ أدرك جوهر ما هو إنسانى هام فى رواية جارثيا ماركيز.

(١٧) جاء ذلك فى اعترافات جارثيا ماركيز فى " بلوى كون الانسان كاتبًا شابًا" فى ملحوظات صحفية ١٩٨٠ -١٩٨٤ .المصدر المذكور.

(١٨) جاك جيرالد ، المصدر المذكور.

(١٩) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لخيرمان كاسترو كايثيدو ، المقال المذكور.

(٢٠) جاك جيرالد ، المصدر المذكور.

(٢١) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لخيرمان كاسترو كايثيدو. المقال المذكور.

(٢٢) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز،"مقاطعة الشوكو التى لا تعرفها تعرفها كولومبيا" صحيفة الاسبكتادور" المشاهد " ، بوجوتا ، ٢٩ سبتمبر إلى ٢ أكتوبر١٩٥٤ .

(٢٣) جابرييل جارثيا ماركيز،" من كوريا إلى الواقع"، صحيفة الاسبكتادور" المشاهد" ، من ٩ إلى ١١ ديسمبر١٩٥٤ .

(٢٤) جابرييل جارثيا ماركيز مثَّال كولومبى كبير تبنته المكسيك " ، الاسبكتادور ، بوجوتا ، ١ فبراير ١٩٥٥ .

(٢٥) فى ١٩ يولية فى ١٩٩٢ فى منزله بكالداس بالقرب من ميداين ، رودريجو أريناس بيتانكور حكاها لى جارثيا ماركيز أنه اقترح عليه أنْ يُعد له تحقيقًا صحفيًا: لقد كان لديه كل شيء مرتبًا وجاهزًا فى ذهنه. إنه كان يعرف جيداً ما كُتِب عنى، وكان يعرف كل شيء : السيمينار، عادات أسرة قروية فى أنطيوكيا ، وكثرة تنقل هذه الأسرة بحثًا عن الاستقرار والقوت. إنَّ التحقيق الصحفى إذا أمعنت النظر يعتبر تحقيقًا ذاتيًا إلا أنه ينتقل من الأدب إلى الحجر". إنَّ المثَّال كان يعتقد دائمًا أنَّ جارثيا ماركيز لم يبحث عنه لكونه كاتبًا لأننى لم أكن موضع اهتمامه، ولن أكون كذلك ؛ بل كان ذلك بسبب انتمائى للحزب الشيوعى لأنه كان بالحزب أو كان قريبًا من فكر وأيدولوجية الحزب.

(٢٦) جابرييل جارثيا ماركيز ، " حكاية تلك القصة " من مقدمة لـ " حكاية غريق " المصدر المذكور.

(٢٧) من تصريحات جارثيا ماركيز لم تنشر فى الدردشة التى قام بها فى مدرسة الصحافة بصحيفة البابيس (الدولة) وجامعة الأوتونوما بمدريد فى ٢٨ أبريل ١٩٩٤ .

(٢٨) المصدر السابق نفسه.

(٢٩) المصدر السابق نفسه.

(٣٠) منذ أنْ نشرت دار نشر توسكيتس في برشلونة هذا التحقيق الصحفي في سلسلة نصوص هامشية في مارس ١٩٧٠ أصبح الكتاب أكثرها طباعة وقراءة للمؤلف ، حيث بلغت احصائية المبيعات خلال خمس وعشرين سنة إلى عشرة ملايين نسخة في مختلف أنحاء العالم.

(٣١) استناداً لما قاله لويس أليخاندرو بيلاسكو عندما صدر الكتاب في مارس١٩٧٠ كتب له جارثيا ماركيز رسالةً عبَّر له فيها عن أنَّ الحقوق ملك له، وأشار عليه بضرورة القيام بذلك لكي يتقاضاها (جاء ذلك في تصريحات إلى لويس ديلجادو في "الغريق يُقاضي جارثيا ماركيز" مجلة التيمبو (الزمن) بوجوتا ٢٩ يولية ١٩٨٧، ومنذ مارس١٩٧٠حتى ديسمبر ١٩٨٢ كانت حقوق الطبعة الأسبانية تصله دون تأخير، ولكن اعتباراً من هذا التاريخ وبدون أدنى تفسير لم تعد الدجاجة تبيض له بيضاً من الذهب. لقد أصبح بيلاسكو رجل صناعة مزدهر ، واشتكى إلى مندوبة الكاتب الأدبية كارمن بالثيلس دون أنْ يجد رداً طوال ثلاثة أعوام حتى مارس ١٩٨٦ تراسلُ محامو الطرفين وانتهت القضية في فبراير ١٩٩٤ لصالح الكاتب حيث قضت المحكمة بأنَّ الكاتب هو المؤلف الوحيد للكتاب.

(٣٢) جابرييل جارثيا ماركيز، قصة" الورقة الساقطة "، بوجوتا. دار نشر س.ل.ب.مايو ١٩٥٥ ، وهناك ملحوظة تقول إنَّ عدد نسخ هذه الطبعة ٤٠٠٠ نسخة ، ولكن وفقًا لعدة شهادات فإنَّ طبعات صمويل ليسمان باون لم تتجاوز الألف أو الألفي نسخة.

(٣٣) إدوارد ثلاميا بوردا، أوليس أهداه العمود بأسره " المدينة والعالم"، صحيفة الاسبكتادور" المشاهد " ، قصة " الورقة الساقطة "، في يونية ١٩٥٥، كتب إيرناندو ثيث تعليقًا على الطبعة الأسبوعية للصحيفة نفسها في ١٢ من ذلك الشهر قبل ذلك بأسبوعين ، ومع ذلك كان قد ظهر تعليق مجهول في العدد الأوَّل لمجلة ميتو (الأسطورة) تحت إشراف الشاعر خورخي جايتان دوران في بارأنكيا : لقد كتب أصدقاء الجماعة عدة مقالات ، وقد برز من بين هذه المقالات مقالٌ لعازف البيانو روبرتو بريتو سانشيث المنشور في صحيفة الهيرالد في ١٤ يولية : أي في نفس اليوم الذي كان فيه جارثيا ماركيز موجوداً في أوروبا ، وقبل ذلك بشهر في ١٥ يونية أعدَّ الأصدقاء مأدبة تحية لأول قصة لجارثيا ماركيز، وقد كان ذلك حدثًا في الصحافة المحلية في ١٦ أكتوبر ، وعندما كان الكاتب موجوداً في روما نشر جونثالو أرانجو في صحيفة الكولومبي في مدينة ميداين تعليقًا عميقًا بعنوان " جارثيا ماركيز: هو فوكنر في كولومبيا".

(٢٤) جاء ذلك في تصريحات لكارلوس خوليو كالديرون إيرميدا لخيرمان سانتا ماريا ، المقال المذكور.

هوامش الفصل الحادى عشر

(١) فى " حكاية هذه القصة" مقدمة " لحكاية غريق" يُشير جارثيا ماركيز: " قبل عامين سقطت الديكتاتورية ، وبقيت كولومبيا تحت إشراف نُظُم أخرى أنيقة ، ولكنها لم تكن أنظمة عادلة بينما بدأت فى باريس هذا المنفى الشارد ، وقليلٌ من الجفاف الذى يُشبه كثيرًا قاربًا أشرف عل الغرق"، وبعد ذلك بسبعة أعوام ، وفى تصريحات لخيرمان كاسترو كايثيدو، المقال المذكور عاد ليؤكد النفى الاضطرارى : بعد صدور " حكاية الغريق " ازدادت الحالة سوءًا فى كولومبيا، لقد كان ذلك فى عهد طغيان روخاس بينيا. لقد كانت الصُحُف مراقبة، ولدىَّ انطباع منذ عشرين عامًا بأنَّ الديكتاتورية لم يعجبها التحقيق الصحفى. وخشية أية مشاكل قرر المسئولون فى إدارة صحيفة الاسبكتادور (المشاهد) أن أذهب إلى جنيف كمبعوث خاص لمؤتمر الأربعة الكبار".

(٢) صرح مدير الصحيفة جييرمو كانو إلى بيدرو سوريلا، المصدر المذكور" أعتقد أنَّ سفر جارثيا ماركيز إلى أوروبا حدث فيه كل شىء كجائزة جائزة لنجوميته الصحفية طوال عامين فى الاسبكتادور ، ولكن على وجه الخصوص فى انطباعى أو وجهة نظرى، ورغبة فى أنْ يسلك دروبًا جديدة وليفتح آفاقًا جديدة لنبوغه المتميز".

(٣) جاك جيرالد، الدارس الفرنسى للإنتاج الصحفى لجارثيا ماركيز يراه هكذا: " إذا كانوا قد أرسلوه إلى أوروبا لأنهم كانوا متأكدين من أنَّ إنتاجه الصحفى سيكون ممتازًا ، وسيؤدى إلى زيادة مبيعات وتداول الصحيفة مقدمة بين كانشاكوس" (بين المحامين والتُجار والخُطباء" المصدر المذكور).

(٤) خوسيه سالجار فى محادثاتنا ببوجوتا ، ١٣ أغسطس١٩٩٢ . ذكر أنَّ سفر جارثيا ماركيز إلى أوروبا لم يكن فقط قد أدى إلى فشل التحقيق الصحفى : بل أيضًا إلى إغلاق الصحيفة من جانب طغيان روخاس بينيا. والأمر أنه لم يعد يعرف شيئًا عن الموضوع باستثناء أنَّ النفق كان مُغلقًا ، وقد هجرت الصحيفة. إنَّ المعلومات التى لم يتم الإشارة إلى مصادرها واردة من محادثاتى مع خوسيه سالجار ، وألبارو موتيس وألفونسو فوينمايور ، وفرنانو بيرى ، ورودريجو أريناس بتناكور، ومرسيدس بارتشا باردو.

(٥) جابرييل جارثيا ماركيز، " العودة إلى الجوافة"، فى ملحوظات صحفية ١٩٨٠ - ١٩٨٤ المصدر المذكور ، " جابو يحكى قصة حياته " المقال المذكور.

(٦) جاء ذلك فى اعترافات جابرييل جارثيا ماركيز فى "كيف تكتب قصة ؟ ، " فى ملحوظات صحفية ١٩٨٠ - ١٩٨٤، المصدر المذكور. ومناجاة "إيسابيل ترى المطر فى ماكوندو " ، وقد تم نشره تحت عنوان " الشتاء" فى صحيفة الهيرالد فى بارَانكيا ، ٢٤ ديسمبر١٩٥٢ .

(٧) جاء ذلك فى تصريحات جارثيا ماركيز لخيرمان كاسترو كايثيدو. المقال المذكور.

(٨) المصدر السابق نفسه.

(٩) تحقيقات جنيف: "الأربعة الكبار باللون الفنى" ، "عميلى المهذب إيكى"، كيف يكون عش نمل الصحافة " ، " أباء العماد الأربعة السُعداء"، " خوف الأربعة الكبار " ، " برج بابل الحقيقى " ، " سيدات جنيف العظيمات الثلاث". وقد نُشرت فى صحيفة الاسبكتادور" المشاهد" أيام ٢٢، ٢٣، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٣١ يولية ١٩٥٥ على الترتيب.

(١٠) ماريو بارجاس يوسا، المصدر المذكور.

(١١) جابرييل جارثيا ماركيز ، "رومافى الصيف" فى ملحوظات صحفية ١٩٨٠-١٩٨٤ .

(١٢) نفس المصدر السابق. العدد ١٧ الذى يذكرنا بالسبعة عشر نجلاً غير الشرعيين للعقيد أوريليانو بوينديا، ومن المحتمل هنا أنْ يكون اختراعًا يبحث عن الترابط مع المفهوم السحرى - القدرى الذى يرمز إليه هذا الرقم فى عمل جارثيا ماركيز.

(١٣) " أس. اس. فى أجازة" و " الاستعداد لنهاية العالم"، وقد نُشر فى صحيفة الاسبكتادور" المشاهد" فى ٨ ، ١٥ أغسطس ١٩٥٥ على التوالى.

(١٤) ليس فقط سيجعل البابا يزور ماكوندو فى جنازة الأم الكبيرة ، الأمر الذى سيحدث تاريخيًا بعد ذلك بتسع سنوات مع زيارة البابا بابلو السادس لكولومبيا عام ١٩٦٩، بل سيدخل موكب السوق الملتف حول البابا أثناء استراحته الصيفية، وكذلك المرأة مقطوعة الرأس التى عثرت عليها الشرطة فى تلك الأيام فى بحيرة كاستيليجا ندولفو.

(١٥) " الحياة الطويلة السعيدة لمارجريتو دوارتى" فى ملحوظات صحفية ١٩٨٠- ١٩٨٤ المصدر المذكور.

(١٦) على سبيل المثال لم يتعمق جارثيا ماركيز فى هذه القصة من " الاثنتا عشرة حكاية الغريبة فى الحياة" التى كان يعيشها مارجريتو دوارتى فى روما، بينما كان ينتظر تطويب نجلته الطاهرة، ولذلك فهو القديس الحقيقى، وليست نجلته أمر لا يمكن تصديقه لأنَّ القصة هى التى ينبغى أن تسرد لنا ذلك، وليس الكاتب فى تدخل تعسفى فى وجهة نظرنا.

(١٧) " انتصار غنائى فى أوروبا" نُشر فى صحيفة الاسبكتادور" المشاهد" فى ١١ ديسمبر ١٩٥٥ .

(١٨) نُشرَ فى أربعة عشر جزءًا فى الفترة من ١٧ إلى ٣٠ سبتمبر ١٩٥٥ .

(١٩) جابرييل جارثيا ماركيز " مدير فرنسى فى البندقية مهتم بالإنتاج السينمائى فى كولومبيا" ، صحيفة الاسبكتادور" المشاهد" ، بوجوتا فى ٧ سبتمبر، ١٩٥٥ .

(٢٠) جاك جيرالد ، مقدمة " من أوروبا إلى أمريكا"، برشلونة ، دار نشر بروجيرا، فبراير١٩٨٣ .

(٢١) جاء ذلك ضمن اعترافات جارثيا ماركيز فى" أستأجر نفسى لكى أحلم"، فى ملحوظات صحفية ١٩٨٠ - ١٩٨٤ .المصدر المذكور.

(٢٢) التحقيقات الصحفية الثلاثة عن فيينا تحت العنوان المميز" فى مدينة الرجل الثالث" ، وقد نشرت فى ١٣، ٢٠، ٢٧ نوفمبر، والأربعة تحقيقات عن البابا" قداسة البابا عن قُرب" فى ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢ ديسمبر والتحقيقات الثلاثة عن صوفيا لورين وجينا لولو بريجيدا " حرب الجوارب الحريمى" ، ٢٦، ٢٧، ٢٨ ديسمبر١٩٥٥ . إنَّ الموضوعات والشخصيات المختارة وكذلك العناوين تُوضح أنَّ جارثيا ماركيز لم يكن فقط موجودًا وسعيدًا فى أوروبا ، بل كان مبهورًا بها. فالمزاح والجرأة وطريقته فى تناوله ومعالجته للموضوع الأوروبى ، وبمقارنته دون عقد مع ما هو كولومبى أو أمريكى لاتينى يمكن أنْ يؤدى إلى الاعتقاد - كما يفكر فى ذلك الكثيرون - فى أنَّ الكاتب لم يكن منبهرًا بالقارة القديمة. إنَّ الذين يعتقدون فى ذلك ينسون أنَّ عبقريته وطريقته فى الكتابة مستاءتان من هذا الانبهار لأنَّ جارثيا ماركيز فنانٌ كبيرٌ أمام هدفه الروائى.

(٢٣) فى محادثاتنا مع أنطونيو دى لوس بانيوس ، ٢٢ أكتوبر ١٩٩٤ ألح على فرناندو بيرّى فى أنّ الصورة الأولى التى لديه عن جارثيا ماركيزهى تلك التى كان يرتدى الطاقية والمعطف ، وأنهما تعارفا فى ثينيثيتا مما يوحى أو يوعز بأن ذلك كان فى الخريف فى أواخر أكتوبر عندما كان الكاتب عائداً لتوه من سفره إلى بولندا، وتشيكوسلوفاكيا عن طريق النمسا. وهذا يقودنا إلى الاستنتاج الصائب فى أنّ جارثيا ماركيز لم يتمكن من الدراسة فى مركز السينما التجريبى أكثر من شهرين من أواخر أكتوبر إلى أواخر ديسمبر عندما انتقل إلى باريس.

(٢٤) جاء ذلك فى اعترافات جارثيا ماركيز فى كيف تُحكى قصة ، بوجوتا ، دار نشر بولونتاد ، ١٩٨٥ .

(٢٥) جييرمو أنجولو ، " بحثًا عن جابو المفقود " فى تجميع لمقالات لعدد من الكُتّاب ، بوجوتا ، دار نشر كولكولتورا، ١٩٨٣ .

(٢٦) جاء ذلك فى كلمة ألقاها جارثيا ماركيز فى احتفال افتتاح مقر هيئة السينما اللاتينية الأمريكية الجديدة فى ٤ ديسمبر ١٩٨٦، صحيفة الهيرالد" المجلة الأسبوعية " بارانكيا فى ٢٨ ديسمبر١٩٨٦ .

(٢٧) جابرييل جارثيا ماركيز ، " من باريس مع وافرالحب " ، ملحوظات صحفية ، ١٩٨٠ - ١٩٨٤ . المصدر المذكور.

(٢٨) بيلينيو ميندوثا لم يحدد سنة هذا اللقاء فى " القضية الخاسرة " لا ياما والإيليو (اللهيب والثلج) ، المصدر المذكور. ولكن لويس بيّار بوردا يعتقد أنّ ذلك كان قُبيل سفر بيلينيو إلى أوروبا فى أول منصب دبلوماسى له فى ١٩٤٨ بعد ٩ أبريل بقليل" (جاء ذلك ضمن السفير الأخيربوجوتا، دار نشر العالم الثالث ، يولية ١٩٩٢).

(٢٩) بين أبواب السبت التى بدأ جارثيا ماركيز قراءتها فى ١٩٤٤ . بعد وصول الشاعر كارلوس مارتين لإدارة مدرسة الليسيه الوطنية للبنين فى ثيباكيرا كانت هناك أحدها بعنوان " نثر غنائى" والتى - بلا شك - قام طالب الثانوية الشاب بإعدادها لباب نصوصه الغنائية فى المجلة الأدبية المتوهجة.

(٣٠) بيلينيو مينوثا ، المصدر المذكور.

(٣١) المصدر السابق نفسه.

(٣٢) " عملية أسرار فرنسا " ، نُشرَ فى الانديبنديتى (المستقل) ، فيما بين ١٨ مارس ، ٥ أبريل ١٩٥٦ ، وهذا فى رأينا هو التحقيق الصحفى الوحيد السيء الذى كتبه جارثيا ماركيز أثناء مسيرته الصحفية الطويلة اللامعة بدون بنية ولا أسلوبه المعتاد ، ولا إيقاع ، ولا مزاح. هذا التحقيق الصحفى على ما يبدو كُتِبَ على وجه السرعة دون إعداد مُسبق ، ودون مضاهاة لمادته الصحفية. وبالتأكيد فإنّ اللغة ، وعدم معرفة التاريخ والسياسة والمجتمع الفرنسى كانت عوائق كبيرة بالنسبة للصحفى الذى اضطر للكتابة لكى يكتسب قوت يومه.

(٣٣) ماريو بارجاس يوسا ، المصدر المذكور. وجاك جيرالد، مقدمة من أوروبا وأمريكا. المصدر المذكور.

(٣٤) بيلينيو أبوليو ميندوثا ، المصدر المذكور.

(٣٥) المصدر السابق نفسه.

(٣٦) من محادثاتى مع خوسيه لويس دياث - جرانا دوس ، بوجوتا ، ١٤ يوليه ١٩٩٢ . دياث - جرانادوس ، وهو قريبٌ لجارثيا ماركيز ، وقد تعامل عن قُرب معه عندما كان الكاتب فى أواخر ١٩٥٩ وأواخر١٩٦٠ موجوداً فى بوجوتا يُعيد كتابة " الساعة المشئومة " ، وكان حينئذٍ عندما سمعه يتحدث عن الدوافع السياسية الخفية لقصته.

(٣٧) بيلينيو أبوليو ميندوثا ، " سيرة ذاتية منزلية لقصة " ، مجلة التيمبو ، " قراءات يوم الأحد " ، بوجوتا، يونية١٩٦٣ .

(٣٨) خيرمان بارجاس ، " حول العقيد لا يجد منْ يُراسله " ، فى جابرييل جارثيا ماركيز إلى جين ميتشيل فوسى ، فى مقابلة مع جارثيا ماركيز ، إيماخين (صورة) ، كاراكاس ، ١٩٦٩ (ذكر ذلك ماريو بارجاس يوسا، المصدر المذكور).

(٣٩) جاء ذلك فى تصريحات لجارثيا ماركيز لجين ميتشيل فوسى فى "مقابلة مع جارثيا ماركيز" إيماخين (صورة) كاراكاس ، ١٩٦٩ (ذكر ذلك ماريو بارجاس يوسا المصدر المذكور سابقًا) .

(٤٠) بيلينيو أبوليو ميندوثا ، رائحة الجوافة ، المصدر المذكور.

(٤١) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لأرماندو لوبيث ، فى " جارثيا ماركيز يتحدث عن الموسيقى ". الهيرالد ، بارَّانكيا ، ٢٩ ديسمبر ١٩٨٥، ولخوان لويس ثيبريان ، المصدر المذكور.

(٤٢) استنادًا للمثَّال رودريجو أريناس بيتانكور، أرسل جارثيا ماركيز له رسائل إلى المكسيك يطلب منه دولارات ، وقد أرفق معها بعض المقالات لكى ينشرها له فى الصحافة المكسيكية. وقد قرأ المثَّال الرسائل على صديقه جيرمو أنجولو الذى لم يكن له صلة بالكاتب فى ذلك الحين سوى عبر المراسلة الأدبية، وقد تسلَّى الشخصان بهذا الموقف. قل لهذا الشخص الحقيقة كما هى: إننا أيضًا ليس لدينا ما نأكله تعجَّب أنجولو قائلاً وفقًا لما حكاه رودريجو أريناس بيتانكور.

(٤٣) إنَّ الحكاية قصَّها على ألفونسو فوينمايور فى بارَّانكيا أثناء محادثاتنا يوم ٢٢ أغسطس ١٩٩٢ . ومن العجيب أنها حكاية لم تشر إلى جارثيا ماركيز على حد علمى فى مقابلاته الصحفية ، ربما بسبب هذا الحياء الناجم عن البؤس الذى ألَّم أيضًا بالعقيد الذى لم يُراسله أحد.

(٤٤) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز إلى بيلينيو ميندوثا ، فى رائحة الجوافة ، المصدر المذكور.

(٤٥) جاك جيرالد ، مقدمة بين كاتشاكوس (بين التُجار، والمحامين، والخُطباء). المصدر المذكور.

(٤٦) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لخيرمان كاسترو كايثيدو ، المقال المذكور.

(٤٧) خيرمان بارجاس ، المصدر المذكور.

(٤٨) إنَّ الحكاية سردتها لي مارجوت جارثيا ماركيز. ومعظم المعلومات عن تاتشيا كينتانا قدَّمها لي لويس بيَّار بوردا الذى تعرَّف عليها فى باريس خلال هذه السنوات.

(٤٩) جابرييل جارثيا ماركيز ، " هيمنجواى الشخصى " ، فى ملحوظات صحفية ١٩٨٠ – ١٩٨٤ .

(٥٠) جابرييل جارثيا ماركيز ، " من باريس مع وافر الحبِّ " و " جيورجيس براسينس " فى ملحوظات صحفية ١٩٨٠ – ١٩٨٤ المصدر المذكور سابقًا . وخوان لويس ثيبريان. المصدر المذكور سابقًا .

(٥١) جابرييل جارثيا ماركيز ، " من باريس مع خالص الحبِّ " ، المصدر المذكور.

(٥٢) خلال فصل الربيع هذا قادمًا من كوبنهاجن زاره الطبيب والصحفى خوان ثباتا أوليبيا شقيق القصَّاص مانويل ثباتا أوليبيا ، يذكر أنه عندما همَّ بالعودة إلى قرطاجنة الأمريكية قال له جارثيا ماركيز بأكبر قدر من الوقار الممكن: " إنه كان يكتسب قوت يومه من آلته الكاتبة، ولكنها كانت بها مشكلة حيث طُمس حرف من حروفها – فما رأيك ؟. قال له الكاتب الحزين. إنه ليس حرف X وحرف Y أو حرف . Z لا إنه حرف A"! وقد أعطاه خوان ثباتا أوليبيا نقودًا لكى يُصلح الآلة الكاتبة، وعندما رآها الفنى صاح من الحزن قائلاً: إنها متهالكة ياسيدى!"

(٥٣) جابرييل جارثيا ماركيز " الستارة الحديدية" هى عصا مطلية باللونين الأحمر والأبيض " ، " برلين ماهى إلا هُراء " ، " منزوعو الملكية يجتمعون لكى يحكو همومهم ومشاكلهم " ، فى " تسعون يومًا عند الستارة الحديدية " إنها سلسلة من التحقيقات الصحفية قام بتجميعها جاك جيرالد فى " من أوروبا وأمريكا" ، المصدر المذكور.

(٥٤) فى " القضية الخاسرة " ، المصدر المذكور، يقول بيلينيو ميندوثا بذاكرة سيئة فى غاية الوضوح: من الناحية الرسمية أصبحنا معتمدين كأعضاء فى فرقة الباليه الشعبى الذى كان يتكون من الملونين أو الزنوج من الساحل الكولومبى" ، مانويل ثباتا أوليبيا على العكس من ذلك حكى لى ، كان هو الذى تمكّن من إدخال بيلينيو أبوليو ميندوثا وجارثيا ماركيز فى فرقته عندما لم يكن لديهم أىُّ بارقة أمل فى السفر إلى موسكو.

(٥٥) بيلينيو ميندوثا ، فى " القضية الخاسرة " ، المصدر المذكور.

(٥٦) جابرييل جارثيا ماركيز ، " لقد كنتُ فى روسيا " ، تم تجميعه فى " من أوروبا وأمريكا " ، المصدر المذكور.

(٥٧) جابرييل جارثيا ماركيز" للمرأة التشيكية كانت الجوارب النايلون بمثابة جوهرة ثمينة " ، و" الناس يتصرفون فى براغ كما يحدث فى أى دولة رأسمالية"، فى " تسعون يومًا عند الستارة الحديدية"، المصدر المذكور.

(٥٨) جابرييل جارثيا ماركيز " تسعون يومًا عند الستارة الحديدية " ، كروموس ، بوجوتا فى ٢٧ يوليه ، ٣ ، ١٠ ، ١٧ ، ٢٤ ، ٣١ من شهر أغسطس ، ٧ ، ٢١ ، ٢٨ من سبتمبر١٩٥٩ . إنّ عناوين التحقيقات العشرة هى كما يلى : الستارة الحديدية هى عصا مطلية بالأحمر والأبيض" ، " برلين ما هى إلا هُراء" ، " منزوعو الملكية يجتمعون لكى يحكوا همومهم " و " للمرأة التشكية كانت الجوارب الحريمى من النايلون بمثابة جوهرة ثمينة " و " الناس يتصرفون فى براغ مثل أى دولة رأسمالية " ، " العيون المفتوحة فى بولندا فى حالة الغليان " و " الاتحاد السوفيتى : مساحته ٢٢,٤٠٠,٠٠٠ كم٢ بدون إعلان كوكاكولا واحد " ، و " موسكو أكبر قرية بالعالم " ، و " فى ضريح الميدان الأحمر يرقد ستالين دون تأنيب ضمير " ، و " الرجلُ السوفيتى بدأ يتعب من التناقُضات".

(٥٩) جاك جيرالد ، مقدمة من أوروبا إلى أمريكا ، المصدر المذكور.

(٦٠) جيبرمو أنجولو ، المقال المذكور. يقول أنجولو: " إنّ اللقاء كان ذات مساء فى الشتاء " ، ولكن فى الواقع كان خريفًا آخر أى فى أوائل الشتاء حيث أنّ جارثيا ماركيز كان قد سافر إلى كاراكاس : فى ٢٣ ديسمبر١٩٥٧ .

(٦١) جابرييل جارثيا ماركيز، " لقد زرت المجر " و " كنت فى روسيا " ، مجلة " لحظة " كاراكاس ، ١٥، ٢٢، ٢٩ نوفمبر ١٩٥٧ .

هوامش الفصل الثانى عشر

(١) بيلينيو أبوليو ميندوثا، " القضية الخاسرة" فى " اللهب والثلج" المصدر المذكور. من أصدقاء جارثيا ماركيزالمقربين القُدامى بيلينيو ميندوثا ، هو الوحيد الذى كتب بتوسع عن حياته حيث تجاوز الوفاق والإعجاب. وقد انتُقِدَ بأنه بالغ فى الأدب فى سرد قصة صديقه (أى أنه أدّب سيرته الذاتية) . والحقيقة أنه بالقراءة الحذرة وبمعلومات جيدة حيث إنَّ النزعة الأدبية تستند إلى احترام وقور ودفين لموضوعية الأحداث. صحيح أنَّ صفحات بيلينيو ميندوثا قد حذفت الإشارات الزمنية ، وهذا إلى جانب انسيابية أسلوبه يبدو وكأنه يقترب من القصة أكثر من المقال الخاص بالسيرة الذاتية ، ولكنه يعرف ويُدرك جيداً بدقة ووضوح السمة الإنسانية والنفسية لكى يظهر الحقيقة العميقة للأحداث. وهكذا فإنَّ " القضية الخاسرة" تبدو لنا أفضل صورة كُتبت عن القصاص ، ولذلك فقد اتخذناها مرجعًا لإعادة ترتيب أحداث الأربعة عشر شهراً لإقامة جارثيا ماركيز فى كاراكاس ، والعامين اللذين قضاهما يتعاون مع وكالة الصحافة اللاتينية. أما المعلومات الأخرى فى هذا الفصل والتى لم يُشر إلى مصادرها واردة من محادثاتى مع أدريانو جونثاليث ليون، وخوسيه فونت كاسترو، وألبرتو ثلاميا ، ومرسيدس بارتشا - باردو ، وهيكتور بارتشا بيليا ، وخوسيه لويس دياث - جرانادوس وألبرتو أجيرىّ ، وألفونسو فوينمايور ، وأنخيل أوخيير ، وإليسيو ألبرتو دييجو.

(٢) بيلينيو أبوليو ميندوثا ، المصدر المذكور.

(٣) نفس المصدر السابق و جابرييل جارثيا ماركيز ، " ذاكرة كاراكاس السعيدة "، المقال المذكور.

(٤) " صباح الخير ياحرية " و " الشعب فى الشارع " ، مجلة " لحظة " ، كاراكاس ٢٤ يناير ١٩٥٨ (قام بتجميعها جاك جيرالد فى " من أوروبا إلى أمريكا " المصدر المذكور.

(٥) جاء ذلك فى تصريحات جارثيا ماركيز إلى بيلينيو أبوليو ميندوثا فى " رائحة الجوافة" المصدر المذكور.

(٦) نفس المصدر السابق ، وإيرنستو جونثاليث بيرميخو ، جارثيا ماركيز: الآن مائتا عام من العُزلة" ، النص رقم ٤٤ ، مدريد فى ١٤ نوفمبر ١٩٧٠ .

(٧) جاء ضمن تصريحات مرسيدس بارتشا باردو إلى خيرمان كاسترو كايثيدو حيث أوردها كاسترو فى " جابو يحكى قصة حياته " المقال المذكور

(٨) المصدر السابق نفسه.

(٩) طبقًا لقرار الداخلية بمقاطعة بوليفارفى ٢٣ مايو ١٩٣٢ ، ومنه يتضح أنَّ جدّ مرسيدس من سوريا اليوم جبل لبنان ، وكان مقيمًا فى مدينة ماجانجى.

(١٠) الصفوف الأوَّل ، والثانى ، والثالث بالمدرسة الإبتدائية درستها فى مدرسة لوس نينيوس كروث فى ماجانجى من ١٩٤٢ إلى ١٩٤٤ ، أما الرابع والخامس من المرحلة الابتدائية ، والأول والثانى من المرحلة الثانوية فى مدرسة القلب المقدس للسيد المسيح فى مومبوكس من ١٩٤٥ إلى ١٩٤٨ ، أمّا الثالث والرابع

فى المرحلة الثانوية فى مدرسة لا برستاثيون فى أنبيجادو عامى ١٩٤٩ ، ١٩٥٠ ، أمّا الخامس والسادس فى مدرسة ماريا أوكسلياردورا بمدينة ميداين عامى ١٩٥١، ١٩٥٢ . ودرجات الصفّ الثالث والرابع بالمرحلة الثانوية توحى بأن مرسيدس بارتشا باردو لم تكن فقط طالبة ممتازة ، بل كانت أيضًا واحدة من أفضل اثنتين أو ثلاث طالبات بالمدرسة خلال السنتين المذكورتين.

(١١) استنادًا للويس بيّار بوردا كما اعترفت له تاتشيا كينتانا بنفسها أنه عندما التقى بها مصادفة فى أوائل ١٩٥٨ فى مقهى بوليبارد سان جيرمان فى باريس: هنا ظهرت تاتشيا كانت نيته الزواج بمرسيدس ، كما أبلغ ذلك إلى تاشيا نفسها وفقًا لروايته" (من رسالة لويس بيّار بوردا للمؤلف المؤرخة فى ٢٠ فبراير ١٩٩٦ بوجوتا).

(١٢) فى ١٩٦٧ اعترف الكاتب للصحفى بيرنارد ماركيز من وكالة الصحافة اللاتينية أنه بعد الانتهاء من القصة؛ كان يسير بها وهى ملفوفة ومربوطة برباط عنقه ، وقد وضعها فى حقيبته عندما كان يكتسب قوته من الصحافة. وأتذكر أنه عندما وصلت مرسيدس بارتشا باردو إلى كاراكاس حيث كنتُ أعيشُ . عندما كنت أرتب هذه الفوضى المنظمة فى غرفتى سألتنى ما هذا ياجابو؟ ما هذا؟. إنها قصة لا تُلقيها فى القمامة من فضلك " ..." (" جارثيا ماركيز: " ماضى وحاضر قصة" ، ألتيرناتيبا (البديل) العدد ٩٣ ، بوجوتا، من ٩ إلى ١٦ أغسطس ١٩٧٦). ومع ذلك ، وبعد ثلاث سنوات يعترف بعكس ذلك تمامًا للصحفى الكوبى مانويل بيريرو: " عندما عُدت من أوروبا إلى كاراكاس كانت معى السّاعة المشئومة ملفوفة ومربوطة برباط عُنق (...) وفى هذه الفترة تزوجت من مرسيدس، وعندما بدأت ترتيب المنزل سرعان ما أخرجت هذه اللفافة من الورق المربوطة برباط العنق ، وقالت لى: ماهذا ؟ ، وقد أجبتها إنها قصة ، ولكنها لن تخدمنى ، والأفضل التخلص منها حتى لا أفكر فيها من جديد لأنه قد تفتحت لى آفاق أخرى" (الثورة الكوبية خلصتنى من التشريفات الكريهة البغيضة بهذا العالم"، بوهيميا، هافانا ١٩٧٩). ومن هاتين الروايتين المتناقضتين اخترت الرواية الأولى لأنها الأقرب إلى الحقيقة . لأننا كما نعرف جارثيا ماركيز لا شيء أهم لديه من مخطوطاته بعد حياته والحب والصداقة ؛ فمن الملائم الاعتقاد فى أنّ تلك الرواية ينبغى أنْ تكون الإجابة التى قدمتها له زوجته المتحمسة.

(١٣) انظر الملحوظة ٥٠ من الفصل الثالث.

(١٤) بيلينيو أبوليو ميندوثا ، " القضية الخاسرة" ، المصدر المذكور، الرواية مزودة بالرسم التوضيحى للرسّام فرناندو بوتيرو لم تُنشر حتى مرور عامين بعد ذلك فى مجلة التيمبو (الزمن)، " قراءات يوم الأحد" ، بوجوتا ، ٢٤يناير١٩٦٠ . وخلال هذه السنة نفسها قام أوجوستو مونتيروسو – بناءً على إيعاز من السينمائى القطالونى لويس بيثينس – بإعادة نشره فى دار نشر جامعة المكسيك، مجلة UNAM.

(١٥) بيلينيو أبوليو ميندوثا ، المصدر المذكور. وجاك جيرالد ، مقدمة من أوروبا وأمريكا ، المصدر المذكور.

(١٦) نُشرت كلها فى مومينتو (اللحظة) ما بين يناير ومايو ١٩٥٨ وقد جمعها جاك جيرالد من أوروبا إلى أمريكا. المصدر المذكور.

(١٧) جابرييل جارثيا ماركيز " ليس لدىّ أى عنوان " ، مجلة بيت الأمريكتين ، رقم ١٠٠، هافانا ، يناير وفبراير١٩٧٧ .

(١٨) بيلينيو ميندوثا ، المصدر المذكور.

(١٩) بالطبع أنْ يكون أمرًا توضيحيًا أيضًا للحكمة (أو الصمت) الذى يعالج بها جارثيا ماركيز موضوعات الثورة الكوبية. والمناسبة التى سنحت له بذلك كانت ، عندما كتب المقال " ليس لدىّ عنوان" ولكن الكاتب ينهى الرواية فى تلك اللحظة بالضبط التى وصل فيها إلى هافانا فى ١٩يناير ١٩٥٩ .

(٢٠) بيلينيو أبوليو ميندوثا ، المصدر المذكور، وجاك جيرالد ، المصدر المذكور.

(٢١) المصدر السابق نفسه.

(٢٢) المصدر السابق نفسه.

(٢٣) جابرييل جارثيا ماركيز ، قصة " " الورقة الساقطة " المهرجان الأول للكتاب الكولومبى ، دار نشر توريس أجيرى ، ليما، بيرو ، ١٩٥٩ . وسواء هذه الطبعة أو الطبعة الأولى فى ١٩٥٥ فهما مهداتان لخيرمان بارجاس ، وإن كان الكاتب لن يحتفظ بهذا الإهداء فى الطبعات التالية. ولكى يتم وضع مهرجان الكتاب الكولومبى موضع التنفيذ ذهب مانويل سكورثا إلى بوجوتا ، واقترح على الصحفى ألبرتو ثلاميا نجل الشاعر خورخى ثلاميا الذى كان يشرف على المهرجان ، وقد اختاروا رئيسًا شرفيًا له القصاص إدواردو كبايرو كالديرون .

(٢٤) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لبيلينيو أبوليو ميندوثا فى " لقاء الرفاق " المقال المذكور إلى خيرمان كاسترو كايثيدو، المقال المذكور، وخوان لويس ثيبريان، المصدر المذكور.

(٢٥) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لبيلينيو أبوليو ميندوثا، المقال المذكور، وخيرمان كاسترو كايثيدو، المقال المذكور.

(٢٦) وطبقًا لشهادات بيلينيو أبوليو ميندوثا (انظر جاك جيرالد، مقدمة " من أوروبا اليأمريكا"). إنَّ كتابة هذه الرواية الجوهرية من إنتاج جارثيا ماركيز توافقت مع النشاطات الأولى للمؤلف فى وكالة أنباء أمريكا اللاتينية ، أى فى الأيام الأولى من شهر مايو عام ١٩٥٩، وهذا ما يؤكده بيلينيو أبوليو ميندوثا بنفسه فى وقتٍ لاحقٍ حيث كتب فى " القضية الخاسرة " إنه فى أغسطس من ذلك العام عندما وُلِدَ النجل الأكبر لجارثيا ماركيزكان الكاتب يُعيد كتابة قصته " الساعة المشئومة ".

(٢٧) فى هذا الصدد تشارك التحليل ووجهة نظر جاك جيرالد (أنظر مقدمة من أوروبا إلى أمريكا).

(٢٨) بيلينيو أبوليو ميندوثا ، " السيرة الذاتية السرية لقصة ".

(٢٩) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لجاك جيرالد لمقدمة بين كاتشاكوس (بين المحامين والتُجار والخُطباء) ومن أوروبا إلى أمريكا.

(٣٠) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لألبرتو أجيُرى المؤرخة فى المكسيك فى ١٧ أغسطس ١٩٦١ .

(٣١) بيلينيو ميندوثا " القضية الخاسرة " ، المصدر المذكور.

(٣٢) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز للصحفى الأرجنتينى أوراثيو بيربيتسكى فى "جابو يتحدث عن وولش" (النسخة التى حصلت عليها صورتها من نسخة أخرى من قسم الصُحُف بمكتبة بيت الأمريكتين، ولا تحتفظ باسم المجلة أو الصحيفة ولا السنة ولا التاريخ).

(٣٣) المصدر السابق نفسه.

(٣٤) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لإيرنستو جونثاليث بيرميخو، المقال المذكور.

(٣٥) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز إلى أوراثيو بيربيتسكى ، المقال المذكور، وفى " ذكريات صحفى" بالملحوظات الصحفية ١٩٨٠ إلى ١٩٨٤ . المصدر المذكور.

(٣٦) الشاعر والسينمائى الكوبى إليسيو ألبرتو دييجو نجل الشاعر أليسيو دييجو ، الصديق المتعاون مع جارثيا ماركيز هو الذى حكى لى هذه الحكاية فى محادثاتنا بالمكسيك فى ٢٤ نوفمبر١٩٩٤ . وقد ذكَّر لى

إليسيو ألبرتو دييجو كذلك أنَّ الكاتب لم يعترف فقط بهذا الإعجاب بفيلكس ب. كايجنيت ، بل أيضًا تأثير الشفاهية للقصة الإذاعية في إنتاجه.

(٣٧) بيلينيو أبوليو ميندوثا ، " القضية الخاسرة " المصدر المذكور.

(٣٨) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز إلى أورلاندو كاستيانوس للبرنامج " رسميًا بصورة " لإذاعة هافانا، كوبا ، وقد أعيد نشره في بريسما دبل ميريديانو ٨٠ ، هافانا من ، ١-١٥ أكتوبر١٩٧٦ .

(٣٩) جابرييل جارثيا، " شبح التقدم " في ملحوظات صحفية ١٩٨٠-١٩٨٤ .المصدر المذكور.

(٤٠) بيلينيو ميندوثا ، " القضية الخاسرة " ، المصدر المذكور.

(٤١) جاء ذلك ضمن التصريحات التي أدلى بها جارثيا ماركيز لأوراثيو بيربيتسكي ، المقال المذكور.

(٤٢) كان نفس الصحفي الأرجنتيني أوراثيو بيربتيسكي الذي حاول استعادة - ربما بإيعاز من جارثيا ماركيز - وثيقة ما من عهد ماسيتي وولش وجارثيا ماركيز ، ولكن طبقًا لما يشرحه في نفس المقابلة مع الكاتب الكولومبي " بعد مساعي كثيرة" في الصحافة اللاتينية قالوا إنه لم يتم الاحتفاظ بشيء من تلك الفترة " وقد علّق جارثيا ماركيز على ذلك: إنه من المحتمل جدًا أنْ يكون قد تم القضاء على هذه الوثائق لأسباب أخرى: للتلاعب في تاريخ وكالة أنباء أمريكا اللاتينية. وهذا لا يهمني أنْ يكون ذلك مسجلاً ، وأنك ستقوم بنشره. ومن الممكن أنْ يكونوا قد مزقوا جميع الأرشيفات التي كانت في عصر ماسيتي وولش بغية إعطائه شهادة ميلاد مختلفة للصحافة اللاتينية لأنَّ هذه المقالات كانت كما ينبغي أنْ تكون ، ولكن بالنسبة لإنسان منظم وذي فكر منطقي كانت غير متجانسة بشكل مُرعب ، ومن المحتمل أنَّ تكون حتى مناهضة للثورة" .

(٤٣) بيلينيو أبوليو ميندوثا ،" القضية الخاسرة " المصدر المذكور.

(٤٤) إيرنستو ستشو، "رحلات السندباد جارثيا ماركيز"، الصفحة الأولى ، رقم ٢٣٤، بوينوس أيرس، من ٢٠ إلى ٢٦ يونيو١٩٦٧، بيلينيو ميندوثا، " القضية الخاسرة " ، المصدر المذكور، وجابرييل جارثيا ماركيز " العودة إلى المكسيك " في ملحوظات صحفية ١٩٨٠ - ١٩٨٤ المصدر المذكور.

هوامش الفصل الثالث عشر

(١) جاء ذلك ضمن تصريحات ألبارو موتيس إلى فرناندو كيروث في "المملكة كانت لي"، بوجوتا، دار نشر نورما ، أبريل ١٩٦٣ . والمعلومات التي لاتتم الإشارة إلى مصادرها في هذا الفصل واردةٌ في محادثاتي مع كلٍ من ألبارو موتيس وكارلوس فوينتيس ، وماريا لويسا إليسيو ، وبيثينتي روخو ، وإيمانويل كاربايو، ونانسي بيثنس ، وكارمن بالثيلس ، ومرسيدس بارتشا باردو ، وجونثالو جارثيا بارتشا، وخوسيه دي لا كولينا ونيوس إسبريساتي ، ولويس كودوربير ، وفرانشيسكو ثيربانتيس ، وأوجوستو مونتيرُوسو ، وأرتور ريبيستين (الذي أوضح لي بعض التواريخ من خلال ادواردو جارثيا أجيلار) وألبرتو أجيرِي ، وألفونسو فوينمايور ، وباكو بورُوا ، ودانييل سامبير.

(٢) جابرييل جارثيا ماركيز ، أشواق موجزة ، دياريو ١٦ ، الثقافة ، مدريد في ٦ يناير ١٩٨٦ .

(٣) جابرييل جارثيا ماركيز ، " رجلٌ مات ميتةً طبيعية " نوبيداديس (المستجدات) المكسيك في الثقافة " المكسيك في ٩ يوليو ١٩٦١ .

(٤) جابرييل جارثيا ماركيز ، عودة إلى المكسيك ، في ملحوظات صحفية ١٩٨٠ - ١٩٨٤ المصدر المذكور.

(٥) كلتا المجلتين أسسهما فرانثيسكو سايرولس: الأسرة في ١٩٣٠ وحوادث للجميع في ١٩٣٣ . كانت الأولى منهما توزع أيضًا في إسبانيا ، وباقي دول أمريكااللاتينية. وبما أنَّ جارثيا ماركيز لم يرد أنْ يظهر اسمه فيهما ، وكان من بين هيئة إدارتها جوستابو ألا تريستي، ولكننا عندما كنا نقرأ المقالات الافتتاحية كان من السهل التعرف على أسلوب الكاتب: " جاءت اللحظة لكي يلتحق الطفل بالمدرسة. لقد كَبُرَ الطفل ، ولم يكن قطعة اللحم هذه التي كادت أنْ تتفسخ بين أيدينا ، الآن يسير على قدميه ، ويتحدث باستمرار وينظر إلى كل ما حوله في دهشة يبحث ويسأل ويريد الاستحواذ على العالم ، الذي على الرغم من اتساعه يبدو الطفل جزءًا صغيراً منه، ولكن الطفل يؤمن بوجوده ويمكنه الإحاطة به بذكائه وعبقريته الناشئة". (" امتداد المنزل"، الأسرة رقم ٦٦٣، المكسيك ، ١٥ أكتوبر ١٩٦١). ربما كان جارثيا ماركيزيتحدث في هذه اللحظة عن تجربته الأبوية الخاصة لأنَّ رودريجو النجل الأكبر ما لبث أنْ أكمل العامين من عمره.

(٦) ذكر ذلك في " أشواق وجيزة "، المقال المذكور.

(٧) المصدر السابق نفسه.

(٨) جاء ذلك في إجابة لجارثيا ماركيز ردًا على سؤال لخيرمان بارجاس في " المفكرون يستجوبون جابرييل جارثيا ماركيز " إعداد إيبا نوربيند في مجلة أومبري دي موندو (الرجل المتمرس نو الخبرة) ، ١٩٧٧ .

(٩) ماريو بارجاس يوسا ، جارثيا ماركيز : " قصة متمرد " ، المصدر المذكور.

(١٠) فى الطبعة الأولى للقصة (المجلة المكسيكية للثقافة ، رقم ٥ - ٦ ، المكسيك ، مايو - يونية ١٩٦٢) يُقال أنَّ توبياس " رافق كلوتيلدى كى تتعرف على الثلج". تلك العبارة التى غيرها جارثيا ماركيز رافق كلوتيلدى كى تتعرف على النقود فى طبعة القصة ، المدرجة فى مُجلد القصة الحزينة ، التى لا يمكن تصديقها للساذجة إيريندرا وجدتها القاسية ، المكسيك ، دار نشر إيرميس ، ١٩٧٢ .

(١١) إنَّ هذا على الأقل هو ما يعترف به الكاتب للناشر ألبرتو أجيرِّى فى رسالته المؤرخة فى ١٧ أغسطس١٩٦٧ بالمكسيك: " القصة (تُشير إلى الساعة المشئومة) كانت منتهية، وإن كانت بدون عنوان ، ولن أعطيها لك. لقد عدت طموحًا وأريد أنَّ تنشر فى أن واحدٍ فى عدة لغات. وهذا ردٌ على سؤال برسالته: لماذا أنا موجود بالمكسيك"؟

(١٢) جابرييل جارثيا ماركيز، "ملحوظة على الطبعة الأولى " ، فى " الساعة المشئومة"، المكسيك، دار نشر إيرا (العهد) ، أبريل ١٩٦٦ . والملحوظة كاملة هى هذه: " إنَّ أوَّل مرَّة طُبعت فيه" الساعة المشئومة " ، فى عام ١٩٦٢، سمح مصحح التجارب لنفسه بتغيير بعض الألفاظ ، وقوَّم الأسلوب وباسم النقاء اللغوى ، وفى هذه المرَّة قام المؤلف بتصحيح الأخطاء اللغوية والفظاعات الأسلوبية باسم إرادته السيادية المطلقة والمتعسفة. هذه هى الطبعة الأولى " للساعة المشئومة ". أمَّا أوَّل طبعة فى مدريد فقد صدرت فى ٢٤ ديسمبر ١٩٦٢ فى مطابع لويس بيريث.

(١٣) جاء ذلك فى تصريحاته لبلينيو أبوليو ميندوثا فى رائحة الجوافة. المصدر المذكور.

(١٤) العقيد لا يجد منْ يُراسله ، ميداين ، أجيرِّى الناشر، سبتمبر١٩٦١، " جنازة الأم الكبيرة" إكسالابا ، جامعة بيراكروث ، أبريل ١٩٦٢ (تتضمن " قيلولة الثلاثاء" ، " ذات يوم من الأيام " ، " لا يوجد لصوص فى هذه القرية " ، " مساء بالتّار العجيب " ، " أرملة مونتييل " ، " يوم بعد السبت " ، " وورود صناعية " ، " جنازة الأم العظيمة ").

(١٥) من الرسالة المؤرخة فى ١٧ أغسطس ١٩٦١ بالمكسيك يُشير جارثيا ماركيز إلى المائتى بيزو التى أعطاها له أجيرِّى فى بارانكيا فى سبتمبر من العام الماضى كمقدم للثمانمائة بيزو كحقوق للمؤلف. وفى رسالة لاحقة مؤرخة أيضًا فى ٢٠ مارس ١٩٦٢ بالمكسيك يُظهر الكاتب ارتيابه فى المبيعات بالمكسيك ، ولكنه كان متفائلاً بسبب النقد: هنا - بلا شك - لن يكون هناك بيع بشكلٍ كبيرٍ ، ولكن على العكس من ذلك فإنَّ النقد سيكون مدويًا، فكل أصدقائى دائمًا تنقصهم الموضوعات بالصحف والمجلات ، ينتظرون نسخهم لكى يبدأوا فى إطلاق رصاصاتهم. لقد حاولت ألا يبدأوا حتى الآن لأننى أفضِّل أنَّ تكون الأمور مرتبة ومنسقة جيداً ، وسيكون هذا ممكنًا عندما يتوفر لدىَّ هنا عددٌ كافٍ من النُسخ" .

(١٦) إدواردو جارثيا أجيلار، جارثيا ماركيز، الاغراء السينمائى، المكسيك، أفلام UNAM، ١٩٨٥ .

(١٧) جاء ذلك فى تصريحات إيميليو جارثيا ريبرا لإدواردو وجارثيا أجيلار فى " مقابلة إيميليو جارثيا ريبرا ، جازيتا ، الجزء السادس ، رقم ٣٩ ، كولكولتورا ، بوجوتا ، ١٩٨٣ .

(١٨) المصدر السابق نفسه.

(١٩) الدِّيك الذهبى (١٩٦٤). أفلام كلاسا ، مانويل بارباتشانو بونثى. منتجٌ مشارك: فيدريكو أميركو. رئيس الانتاج: إنريكى مورفين. مخرج: روبرتو جابالدون. إيرنستو: ١٧ ديسمبر ١٩٦٤، الزمن: تسعون دقيقة.

(٢٠) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لميجيل تورِّيس فى القصاص الذى أراد العمل بالسينما" ، مجلة السينما الكوبية ، هافانا، ١٩٦٩ .

(٢١) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لأوجوستو م. توريس فى " جابرييل جارثيا ماركيزوالسينما" ، لنتحدث عن السينما، عدد ٤٧ ، ليما ، مايو - يونية ١٩٦٩ .

(٢٢) إدواردو جارثيا أجيلار. المصدر المذكوروتصريحات لإيميليو جارثيا ريبرا إلى إدواردو جارثيا أجيلار، المقال المذكور، القروض فى " لا يوجد لصوص فى هذه القرية" هم: الإنتاج: مجموعة كلاوديو وألبرتو إساك، الإخراج: ألبرتو إساك ، الموضوع عن نفس القصة لجابرييل جارثيا ماركيز، الاعداد ألبرتو إساك وإيميليو جارثيا ريبرا ، الممثلون: من بين آخرين نجد: لويس بيثينس (السيد أوبالدو) ، لويس بونيويل (قسيس) وخوان رولفو (لاعب الدومينو) وخوسيه لويس كويباس (لاعب البلياردو) ، وكارلوس مونسيبايس (لاعب الدومينو) وجابرييل جارثيا ماركيز (بائع تذاكر السينما) ، وإيميليو جارثيا ريبرا (خبير البلياردو) وأرتورو ريبستين ، وإيلينورا كارينجتون. الذى تم تصويره اعتباراً من ٢٦ أكتوبر ١٩٦٣ وتم افتتاحه فى ٩ سبتمبر١٩٦٤ . الزمن: تسعون دقيقة.

(٢٣) إدواردو جارثيا أجيلار ، المصدر المذكور.

(٢٤) جاء ذلك فى تصريحات جارثيا ماركيز لميجيل توريس. المقال المذكور.

(٢٥) معلومة تاريخ التصوير ، التى كانت حاسمة لتحديد اللحظة التقريبية التى بدأ فيها جارثيا ماركيز يكتب "مائة عام من العزلة" أدين بها للمسعى الشخصى لإدواردو جارثيا أجيلار أمام أرتورو ريبستين. قروض " زمن الموت" هم : الإنتاج أفلام الاميدا وثيسار سانتوس جاليندو، وألفريدو ريبستين ج. ر. المخرج أرتورو ريبستين. الموضوع: جابرييل جارثيا ماركيز . الإعداد: جابرييل جارثيا ماركيز وكارلوس فوينتيس. أفيشات: بيثينتى روخو.

(٢٦) ماريو بارجاس يوسا، المصدر المذكور وإدواردو جارثيا أجيلار. المصدر المذكور.

(٢٧) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لميجيل توريس. المقال المذكور.

(٢٨) بيلينيو أبوليو ميندوثا، " القضية الخاسرة" المصدر المذكور.

(٢٩) أنظر أمير رودريجيث مونيجال، الجديد والتاريخ المغلوط فى "مائة عام من العزلة"، المجلة الوطنية للثقافة ، رقم ١٨٥ كاراكاس، يولية وأغسطس وسبتمبر١٩٦٨ ، ولويس هارس، جابرييل جارثيا ماركيزأو الضعف" فى كُتّابنا ، بوينوس أيرس، دار نشر سود أمريكانا (أمريكا الجنوبية) ، نوفمبر ١٩٦٦ . رودريجيث مونيجال يشير إلى أنه عندما تعرف عليه يناير فى ١٩٦٤، جارثيا ماركيز كان رجلاً مُعذباً، الساكن الهائل لجهنم: العقم الأدبى". ومن جانبه، لويس هارس الذى زاره فى يونية ١٩٦٥، يقول: كان يمر بفترة شك منهجي من تلك الفترات التى لم يمسك فيها بقلمه ويخط سطراً واحداً على الورق فى فترات سوء الحظ : يشعر بأنه مُنهك وخاو تتناوب عليه صنوف الصعوبات والعوائق ويقرر أنه مُنهك ومحطم".

(٣٠) فى " لقاء رفيقين" ، المقال المذكور، جارثيا ماركيز يقول فى بيلينيو ميندوثا: " إنّ القصة التى أكتبها الآن (هذا يعنى خريف البطريرك)، وقد توقفت عن كتابتها فى المكسيك، فى ١٩٦٢بعد أنْ كتبت ٣٠٠ ورقة ، والوحيد الذى أنقذ منها كان اسم شخصية" فى " رائحة الجوافة" عاد ليُصرُّ على نفس الشىء ففى " القضية الخاسرة " ، المصدر المذكور، بيلينيو ميندوثا يؤكد " كان ذلك عندما توقف فى كتابة الرواية للمرة الثانية " خريف البطريرك " ؛ فقد جلس أمام آلته الكاتبة لكى يكتب " مائة عام من العُزلة ".

(٣١) لويس هارس، المصدر المذكور.

(٣٢) جابرييل جارثيا ماركيز، ظلُّ الكاتب فى السينما ، فى ملحوظات صحفية ١٩٨٠ - ١٩٨٤ ، المصدر المذكور.

(٣٣) من المحتمل أنَّ يكون جارثيا ماركيز لم يحضر عملية التصوير كلها حيث إنه ما بين ٥ ، ٧ يولية كان فى مدينة المكسيك فى استقبال مندوبيه الأدبيين كارمن بالثيلس ولويس بالوماريس القادمين من الولايات المتحد الأمريكية.

(٣٤) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز، فى الصفحة الأولى، بالملحق صحفة ١٢، بوينوس أيرس ، ١٦ أكتوبر١٩٩٤ . إنَّ نص جارثيا ماركيز أدرج كتكملة فى مقابلة مع باكو بوروا، الناشر الأسطورى " لمائة عام من العُزلة ".

(٣٥) كارلوس فوينتيس، " لا أعتقد أن يكون فرضًا على الكاتب أنْ يُسمِّن صفوف الفقراء المعوزين"، " الثقافة فى المكسيك"، ملحق سيمبرى " الروائيون أمام الجمهور" لتقديم نصُّه ويشير مديرو الملحق إلى أنَّ المحاضرة كانت " منذ أسابيع" ولذلك فإنَّ الليلة التى أهدى فيها " مائة عام من العُزلة " إلى ماريا لويسا إيليو كان من المفروض فى ٨ سبتمبر أو قُبيل ذلك بقليل.

(٣٦) خاصةً إذا أُخِذَ فى الاعتبار أنه قبل ذلك بسنوات اعترف الكاتب أنه عندما ذهب ليصف المشهد لـم يقدم القسيس شيئًا حتى جرَّب بالكاكاو ؛ انظر خوان لويس ثيبريان . (المصدر المذكور) ، وهذا يعنى أنه فى أوائل سبتمبر ١٩٦٥ كـان جـارثيا مـاركيـز قـد كتب - على الأقل - الأربعة أو الخمسة فصول الأولى من القصة.

(٣٧) إيرنستو ستشو ، المقال المذكور ، وبيلينيو أبوليو ميندوثا ، " رائحة الجوافة " ، المصدر المذكور.

(٣٨) جاء ذلك فى تصريحات إيميليو جارثيا ريبرا لإدواردو جارثيا أجيلار ، المقال المذكور.

(٣٩) لويس هارس، المصدر المذكور، يحكيه على النحو التالى: " لقد قال لنا عندما لم يكن يصور: إنَّه كان يعمل كالعبد بصفة دائمة وبمثابرة ، يستيقظ الساعة السادسة صباحًا " لكى يحافظ على سخونة الموتور" (المحرك) ، ولكـن عمـل يـوم كامل كانت حصيلته ثمانية أو عشرة أسطر لفِقرةٍ قد يكون مصيرها سلة القمامة ليلاً " .

(٤٠) جاء ذلك ضمن تصريحاته لبيلينيو أبوليو ميندوثا، فى " رائحة الجوافة" المصدر المذكور.

(٤١) جاء ذلك فى تصريحات لجارثيا ماركيز إلى فريق التحرير لصحيفة مانيفستو (البيان) ، المصدر المذكور ، و بيلينيو أبوليو ميندوثا ، المصدر المذكور.

(٤٢) جاء ذلك ضمن تصريحات خومى جارثيا أسكوت (لمنْ أهداها " مائة عام من العُزلة" إلى إدواردو جارثيا أجيلار ، فى مقابلة لخومى جارثيا أسكوت " ، جازيتا ، الجزء السادس ، رقم ٣٩ ، كولكولتورا ، بوجوتا ، ١٩٨٣.

(٤٣) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لبيلينيو أبوليو ميندوثا ، المصدر المذكور.

(٤٤) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لايرنستو ستشو، المقال المذكور.

(٤٥) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز أثناء المائدة المستديرة " بويندیا، وماكوندو والعالم" التى عُقِدت فى موسكو فى ١٩٧٩، وقد أعيد نشرها بأمريكا اللاتينية ، رقم ١، موسكو ، ١٩٨٠ .

(٤٦) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لمانويل بييريرو ، المقال المذكور ، وبييرنـاربو مـاركيـز، المقال المذكور.

(٤٧) طبقًا لتصريحات جارثيا ماركيز لمانويل بييريرو، المقال المذكور، عندما صدرت "مائة عام من العُزلة"، لويس ريبر اتصل به هاتفيًا وقال له: " ياسيد جارثيا ماركيز إن حضرتك ستتسبب لى شرفًا كبيرًا إذا ذكرت أنْ لى صِلة بهذا الكتاب"، والآن السيد كوبورييـر بعد أنْ بلغ من العمر أرذله عندما استقبلنى فى ٣٠

أكتوبر١٩٩٤ في نفس منزل لا لوما رقم ١٩ ، وبيرود إنجليزى للغاية حدثنى عن المنزل وكيف أنه أجرّه لأسرة جارثيا ماركيز لشهرته الكبيرة ، وكيف أنهم سرقوا منه اللوحات المعدنية للمنزل مرتين. وككل أثر فإنّ ذلك المنزل ملئٌ بالوحدة : بوحدة هائلة.

(٤٨) على سبيل المثال، في يوليه ١٩٧٦، جارثيا ماركيز اعترف إلى برناردو ماركيز، المقال المذكور: " خلال الشهور الثمانية عشر التى كتبت خلالها (مائة عام من العُزلة) لم يبق لدينا ولا سنتى : كنا نعيش على المساعدات التى يقدمها لنا الأصدقاء، وبالنقود التى حصلنا عليها نتيجة رهن أمتعتنا ، وفى النهاية برهن السيارة التى حدثتك عنها" ، وعلى العكس فإنّ ألبارو موتيس عندما تحدثتُ عن هذا الموضوع ابتسم وبعد صمت قصير أضاف: إنّ هذه الأشياء التى قدمها كل منا للآخر حقيقة ليست مسجلة ، وإننى متأكدٌ أنّ جابو لا يتذكرها أيضًا . ولم يبق لنا إلا أن نعرف أنّ أحدنا على استعداد تام لمساعدة الآخر فى أى شىء سواء كانت النقود نقودى أو نقوده. وكانت ماريا لويسا إيليو أكثر إيجازًا : بالنسبة لي لم يطلبوا منى شيئًا ، لقد منحتهم الحب (يقصد أسرة جارثيا ماركيز) والصداقة ، كما منحونى أيضًا الحب والصداقة، ومع ذلك كما اعترف به جارثيا ماركيز لم تنقص بالمنزل أكياس المواد الغذائية عندما كنا فى حاجة إليها . كما أنّ نجلى الكاتب فى الشهور الأخيرة لكتابة القصة كانا يذهبان دائمًا ويمكثان يمكثان فى منزل ماريا لويسا إيليو عقب خروجهما من المدرسة ، حتى يذهب والدهما لإحضارهما إلى المنزل فى المساء

(٤٩) جابرييل جارثيا ماركيز ، " صديقى موتيس" ، البابيس (الدولة) ، ملحق " الكتب" ، مدريد ، ٣٠ أكتوبر١٩٩٣ .

(٥٠) تقديم إيمانويل كاربايو أدرج فى مختارات كثيرة من المقالات عن إنتاج جارثيا ماركيز ، فى أمريكا وأوروبا تحت عنوان لجارثيا ماركيز ، قصّاصٌ أمريكى لاتينى كبير" .

(٥١) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز فى الصحفة الأولى ، المقال المذكور.

(٥٢) جاء ذلك ضمن تصريحات كارلوس باراّل إلى داسو سالديبار، فى كارلوس باراّل: " بحارٌ على الأرض" ، مجلة جامعة المكسيك رقم ٤٠٩ - ٤١٠ ، المكسيك، فبراير- مارس ١٩٨٥ ، ومن الممكن أنّ تكون برقية جارثيا ماركيز قد وصلت إلى كارلوس باراّل فى أواخر يونية أو أوائل يولية ١٩٦٥، فى بداية فترة الإجازات الصيفية أى قُبيل أنّ يتلقى اقتراح دار نشر سود أمريكانا (أمريكا الجنوبية) .

(٥٣) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز " للصحفة الأولى " . المقال المذكور.

(٥٤) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيزالى بيرناردو ماركيز ، المقال المذكور ، ولخيرمان كاسترو كايثيدو، المقال المذكور. وقد حكى لى هذه النادرة ألفونسو فوينمايور بطريقة مشابهة ، ولكن الرواية التى سردها جارثيا ماركيز، وبيلينيو ميندوثا بعد ذلك بخمس سنوات فى " رائحة الجوافة " ، المصدر المذكور تختلف إلى حد ما. يقول الكاتب: " لقد كانت مرسيدس عندما انتهيت من الكتاب هى التى أرسلت المخطوط بالبريد إلى دار نشر سود أمريكانا" (أمريكا الجنوبية) ، وقد أضاف بيلينيو ميندوثا: إنّ مرسيدس حكت لي ذلك ذات مرّة حيث أخذت المخطوط وذهبت إلى البريد وهى تفكر فى نفسها متساءلة هل بعد كل هذا العناء والمعاناة ستكون قصة سيئة ؟" .

(٥٥) كارلوس فوينتيس ، جارثيا ماركيز: "مائة عام من العُزلة" سييمبرى ! (دائمًا)، " الثقافة فى المكسيك ، رقم ٦٧٩ ، المكسيك ، ٢٩ يونية ١٩٦٦ .

(٥٦) نشرت أمارو الفصل الثانى عشر فى العدد الأوّل وإيكو (الصدى) الفصل السابع عشر فى عددها ٨٢ . وعلاوة على الفصل المنشور فى المجلة المكسيكية التى تُدعى " حوارات ، والعالم الجديد " فى باريس التى قامت بنشر جزء آخر فى مارس ١٩٦٧ .

(٥٧) إيرنستو سننشو، رحلات السندباد جارثيا ماركيز " الصفحة الأولى " رقم ٢٣٤، بوينوس أيرس، من ٢٠ إلى ٢٦ يونية ١٩٦٧، كما أدرج في هذا العدد أيضًا تعليق توماس إيلوى مارتنيث: " أمريكا: القصة العظيمة " جابرييل جارثيا ماركيز: " مائة عام من العُزلة" التي يطلق عليها أنها استعارة دقيقة للحياة الأمريكية ومشاجراتها وأحلامها السيئة وإحباطاتها ".

(٥٨) انتهت الطبعة الأولى في ٣٠ مايو١٩٦٧، في شركة الطباعة والنشر الأرجنتينية شركة مساهمة ، شارع ألسينا ٢٠٤٩ ، بوينوس أيرس ، وقد وُزعت أو صدرت في ٥ يونية. ولذلك عندما صدرت الصفحة الأولى كانت القصة بالسوق منذ خمسة عشر يومًا ، وقد نفدت الطبعة عن أخرها.

(٥٩) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز إلى هيئة تحرير مجلة سوينيل ، في جابرييل جارثيا ماركيز: إلى القفص" بروكسل ١٩٧٥، وإلى خوان لويس ثيبريان، المصدر المذكور.

(٦٠) توماس إيلوى مارتينيث ، " اليوم الذى بدأ فيه كل شيء " لكي يحبني أصدقائي أكثر وأكثر ، تكريم لجابرييل جارثيا ماركيز ، مقدمة واختيار خوان جوستابو كوبو بوردا ، بوجوتا ، قرن الإنسان للنشر ، ١٩٩٢ .

(٦١) المصدر السابق نفسه.

(٦٢) المصدر السابق نفسه.

(٦٣) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لأوراثيو بيربتيسكى، المصدر المذكور.

(٦٤) فرانثيسك أرُيو ، " قصة كتاب " ، الباييس ، ملحق الكتب ، مدريد ، ٢٨ نوفمبر ١٩٩٢ .

(٦٥) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لبيلينيو أبوليو ميندوثا ، في " رائحة الجوافة " المصدر المذكور.

(٦٦) ماريو بارجاس يوسا ، "مائة عام من العُزلة " : " أماديس في أمريكا " ، أمارو ، رقم ٢ ، ليما ، يولية – سبتمبر١٩٦٧ .

(٦٧) جاء ذلك في " الأدب نارٌ " في ضد التيار (١٩٦٢ – ١٩٨٢) ، برشلونة ، سييكس بارًال ، نوفمبر ١٩٨٣، بارجاس يوسا في ١١ أغسطس التاريخ ألقى فيه كلمته ، ولكن القصاص الفنزويلي أدريانو جونثاليث ليون يقول : لقد كانت قبل ذلك ، وبالفعل فإنَّ الناقد خوسيه ميجيل أوبييدو يذكر في كتابه عن بارجاس يوسا، اختراع الواقع (برشلونة ، بارًال للنشر ، أكتوبر١٩٧٧) ، كان في٤ أغسطس.

(٦٨) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز: " قصة متمرد " ، المصدر المذكور.

(٦٩) المصدر السابق نفسه.

(٧٠) المصدر السابق نفسه.

(٧١) نص الحوار نُشِرَ باسم الاثنين أسفل العنوان " القصة في أمريكا اللاتينية ": الحوار، المصدر المذكور. هذا الحوار يمكن اعتباره ما قبل تاريخ " قصة متمرد "، أما ماعدا ذلك سيكون رسالة دكتوراه بارجاس يوسا التي قُدمت في يونية ١٩٧١ في جامعة كمبلوتنسي بمدريد (جامعة مدريد المركزية).

(٧٢) نفس المصدر السابق.

(٧٣) جاء ذلك في " قصة لترومان كابوتي" في نصوص ساحلية. المصدر المذكور.

(٧٤) بعد ذلك بعشر سنين وسَّع جارثيا ماركيز هذا الاعتراف في أوُّل تحقيق تليفزيوني: " لقد سادني الانطباع دائمًا أنني كنت حائرًا بعض الشيء لأنَّه من خلال جميع كتبي وقصصي كان هناك عجوز يحمل

الطفل ويحمله لكى يرى ميتًا ، ويحمله للتنزه والفسحة ، ويحمله للسينما ... كان جدى يصطحبنى دائمًا إلى السينما ، وكان لدىَّ انطباع بأننى لم أصل قط الى لُبِّ المشكلة حتى وصلت إلى "مائة عام من العُزلة" ، وقد رافقته لكى أعرف الثلج. وكان ذلك بالضبط حيث كنت أحاول جاهدًا الوصول منذ أنْ كان عمرى أربع أو خمس سنوات. وأعتقد أننى لم أكن أستطيع الكلام (أى قبل أن أبدأ الكلام) عندما رأيتُ الثلج" (خيرمان كاسترو كايثيدو، المقال المذكور).

صور وخرائط

المنزل الذى شهد ولادة

جابرييل جارثيا ماركيز



١ - ولدت الجدة ترانكلينا إجواران كوتيس فى ريو هاتشا فى ٥ يوليه ١٨٦٣ ، وتوفيت فى سوكرى يوم ١٥ أبريل ١٩٤٧ .



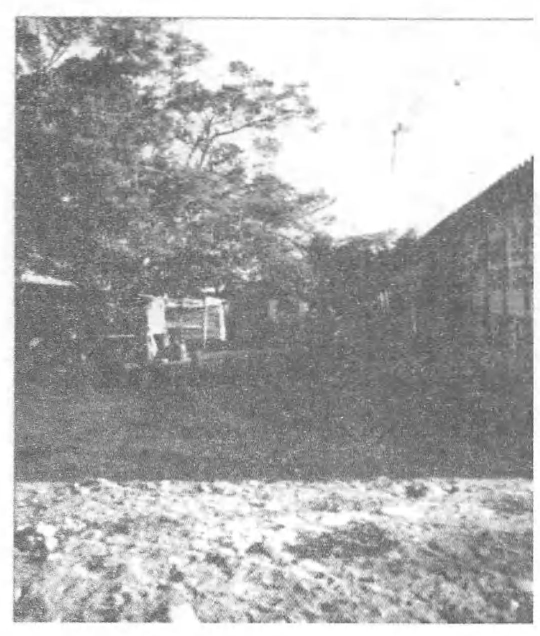
٢ - ولد الجد نيقولاس ريكاردو ماركيز ميخيا في ريوهاتشا يوم ٧ فبراير ١٩٦٤ ، وتوفى في سانتامارتا يوم ٤ مارس ١٩٣٧ .



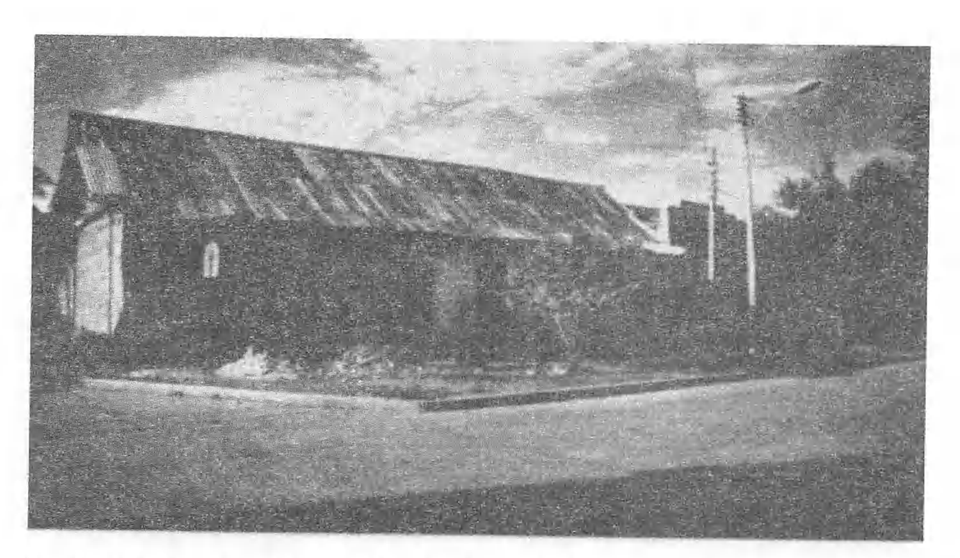
٣ - الجد قبيل وفاته بقليل. كان يعاني من آثار سقوطه من فوق السلم في أراكاتاكا ، وتوفي نتيجة إصابته بالتهارب رئوى .



٤ - الميـدان المركـزى فى بار انكاس ؛ حيث بدأت المواجهة بين نيقـولاس مـاركـيز ومـيـدرادو باتشيكو فى إبريل ١٩٠٨ .



٥ - مكان الحـارة القـديمة فى بارانكاس حـيث قـتل نيـقـولاس مـاركـيـز - فى مـبـارزة- مـيـدرادو باتشيكو فى ١٩ أكتوبر ١٩٠٨ .



٦ - مقر العمدية القديم فى بارانكاس : هنا سلم نيقولاس ماركيز نفسه لصديقه العمدة توماس بيلايث .



٧ - المنزل القديم للجنرال فرانثيسكو خابيير روميرو عم ميدرادو باتشيكو ، حيث استضيفت ترانكينا أجواران هى وأنجالها بعد الحادثة المشئومة .



٨ - والدا جابرييل جارثيا ماركيز : جابرييل إيلخيو جارثيا مارتينيث ولويسا سانتياجا ماركيز إجوران .



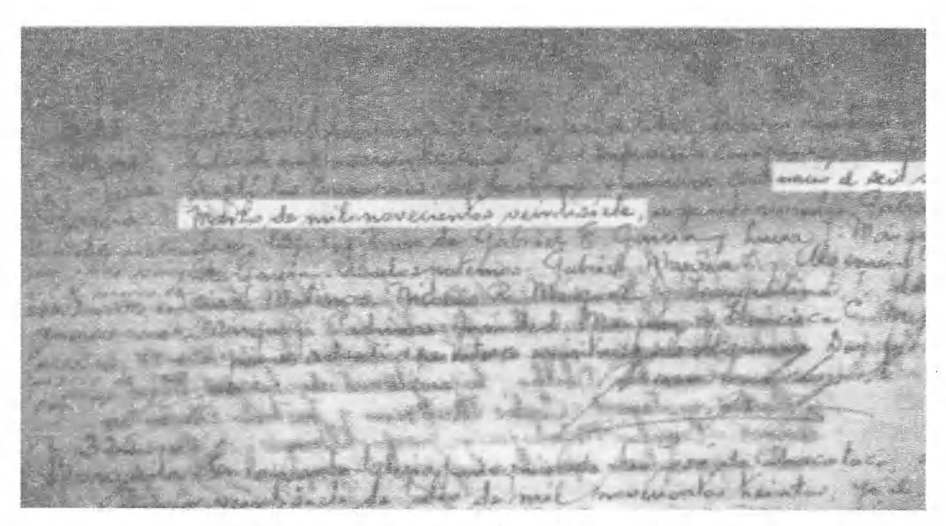
٩ - والدة القصاص فى سنى شبابها .



١٠ - جارثيا ماركيز فى الرابعة من عمره فى حديقة منزل أركاتاكا إلى جوار زهرة من هافانا .

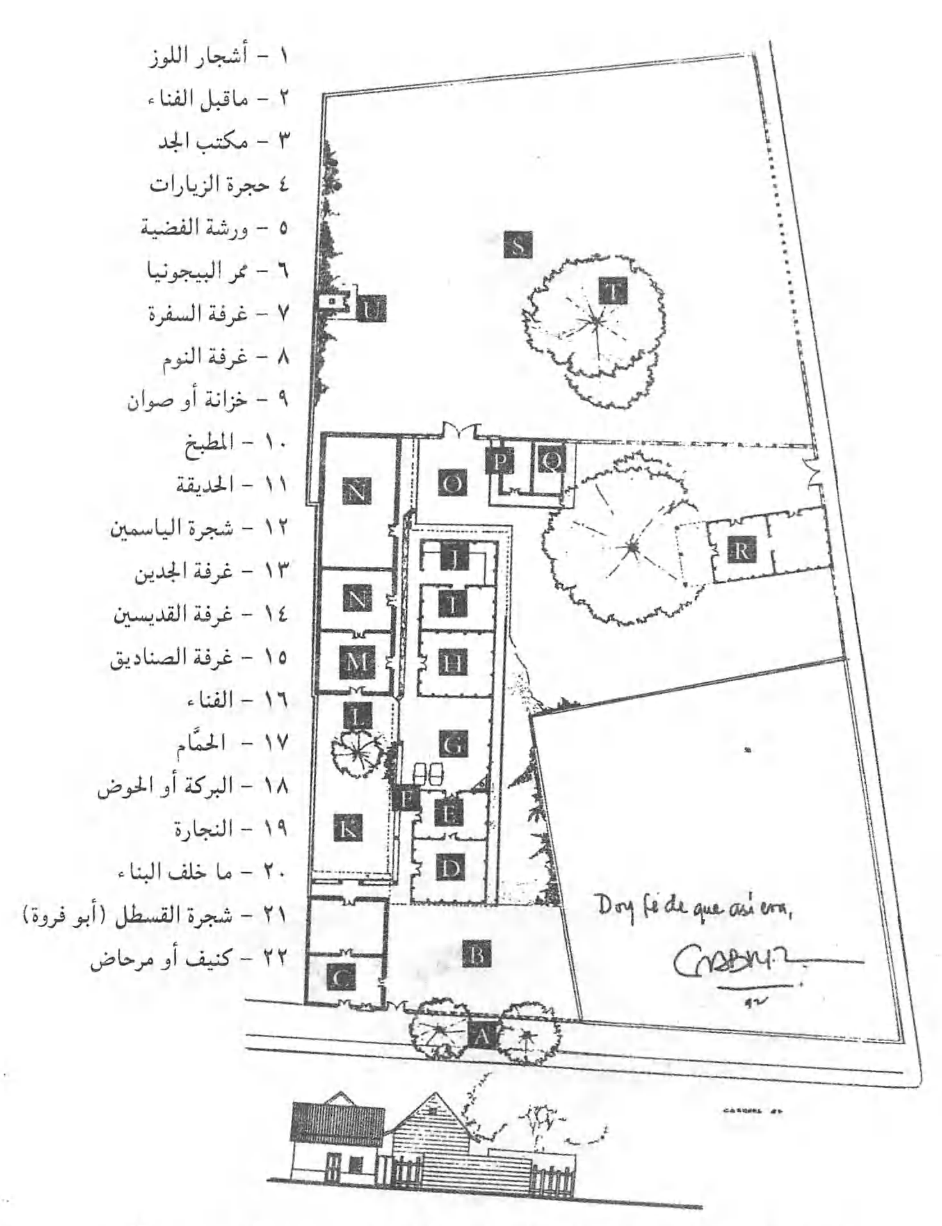


١١ - الكاتب فى الثامنة من عمره (فى الوسط) ؛ عندما كان فى الصف الأول الابتدائى فى مدرسة مونتيسورى. ويرى فى الصورة من اليسار إلى اليمين شقيقاته مارجوت وليخيا وعايدة ونجل عمه إدواردو كبايرو وشقيق الكاتب لويس إنريكى.

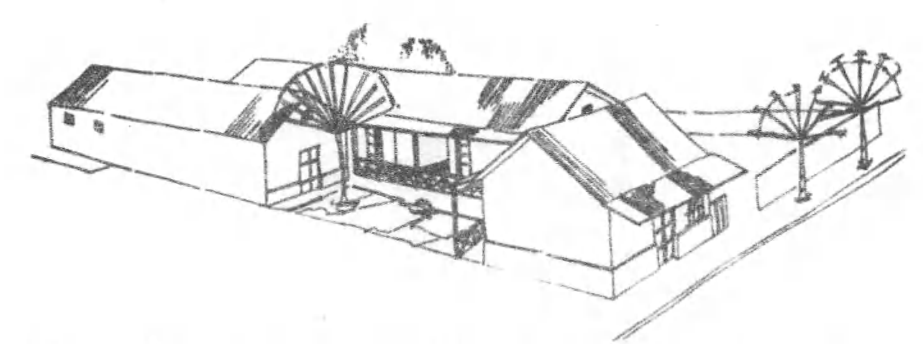


Marzo de mil novecientos veintisiete,

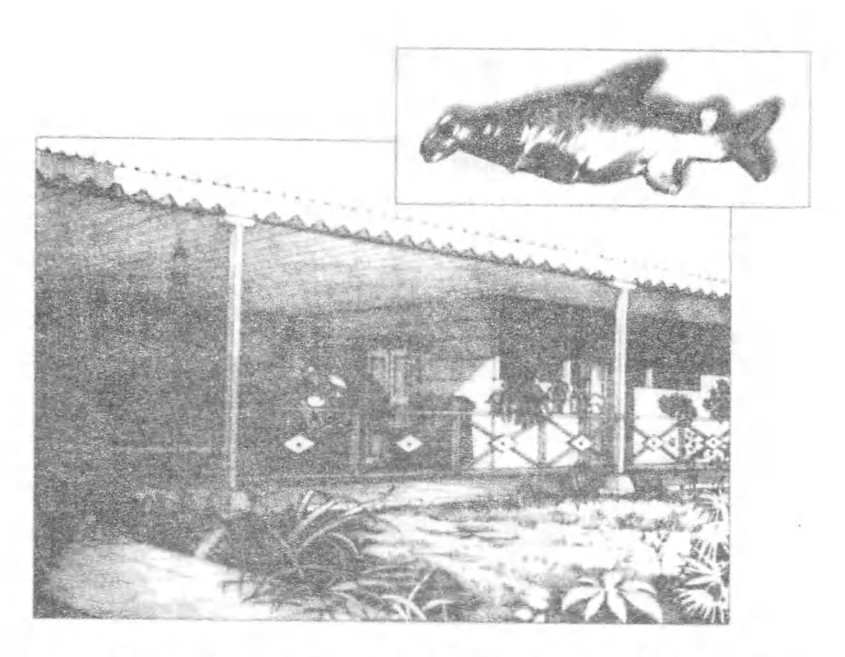
١٢ - شهادة تعميد الكاتب ، يقرأ فيها أنه ولد فى ٦ مارس ١٩٢٧ .



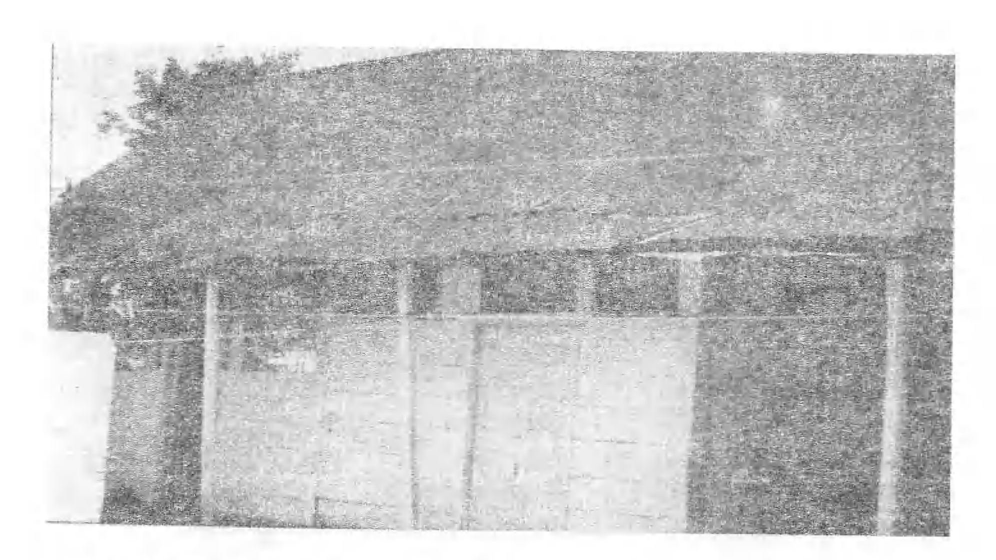
١٣ - الطابق السفلى والطابق العلوى بالمنزل الذى شهد ولادة الكاتب استناداً للمهندسين المعماريين جوستابو كاستيون وجيلبير كار ابايو وخايمى سانتوس. كما يرى أن الأجزاء التى يرمز لها بـ (D,E,F,G,H,I,J) هى كما هى فى مائة عام من العزلة ؛ طبقا للدماء المتسربة من جثة خوسية أركاديو.



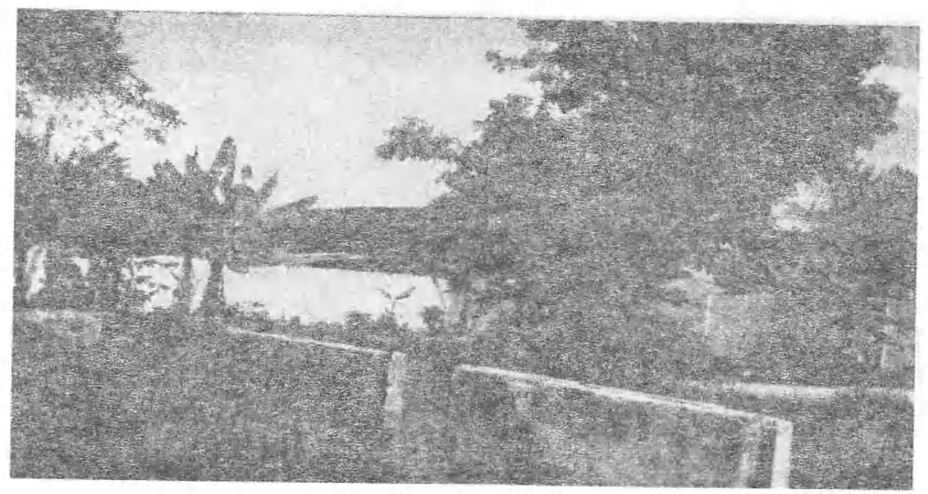
١٤ - صورة للمنزل. كانت الأجزاء الثلاثة خليط من الطوب الأحمر والخشب وأسقفه من الزنك والقش. وقد ولد جارثيا ماركيز فى الغرفة الأولى بالجزء الثالث بجوار شجرة الياسمين .



١٥ - هكذا كان ممر زهور البيجونيا فيما بين حجرة السفرة ورشة الفضة (على اليمين) ، حيث كان الصائغ نيقولاس ماركيز يصنع حليا على شكل أسماك صغيرة مثل التى تظهر فى الصورة .



١٦ - باقى المنزل. من اليسار إلى اليمين الخزانة أو الصوان وغرفة ، وجانبًا من غرفة الطعام وممر زهرة البيجونيا .



١٧ - قطعة أرض بها بعض الأشجار وباقى المنزل القديم .



١٨ - حفل زفاف سارة ماركيز (٢٥ ديسمبر ١٩٣٦). إنها إحدى الصور القليلة داخل المنزل. من اليسار إلى اليمين مارجوت وعايدة جارثيا ماركيز.



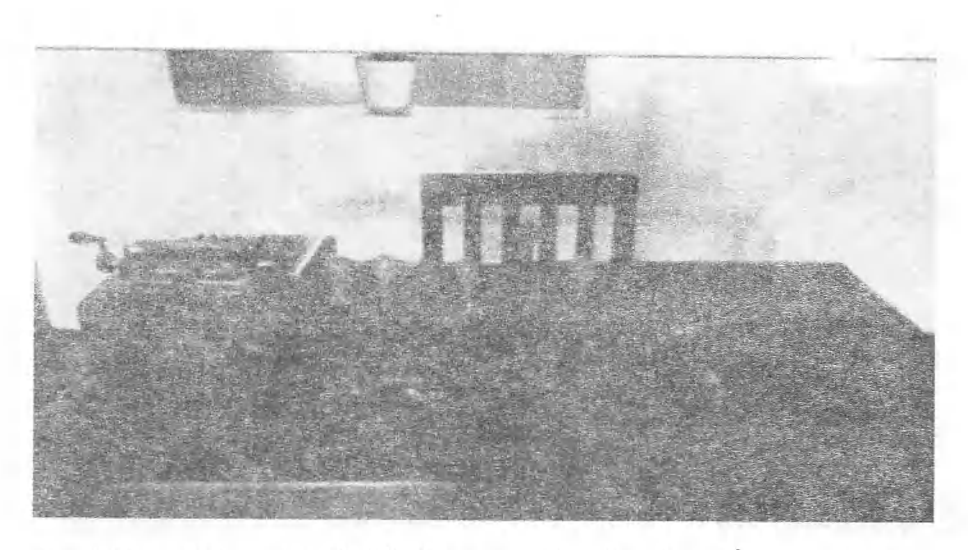
١٩ - فى المكان نفسه حيث توجد شجرة القشدة كانت هناك شجرة القسطل الشهيرة حتى مطلع حقبة السبعينيات.



٢٠ - المنزل القديم بأكمله تقريباً الذى هدم وشيد مكانه هذا المنزل الحديث ، حيث يوجد اليوم متحف جابرييل جارثيا ماركيز.



٢١ - منزل موظف البرق (التلغراف) خلف كنيسة أراكاتاكا.



٢٢ - منضدة وأجهزة مكتب البرق القديم. ومن هذا المكان كان جابرييل إيلخيو جارثيا يبعث برسائل الحب الشفرية إلى خطيبته لويسا سانتياجا ماركيز إلى قرى أخرى بمشاركة زملائه.

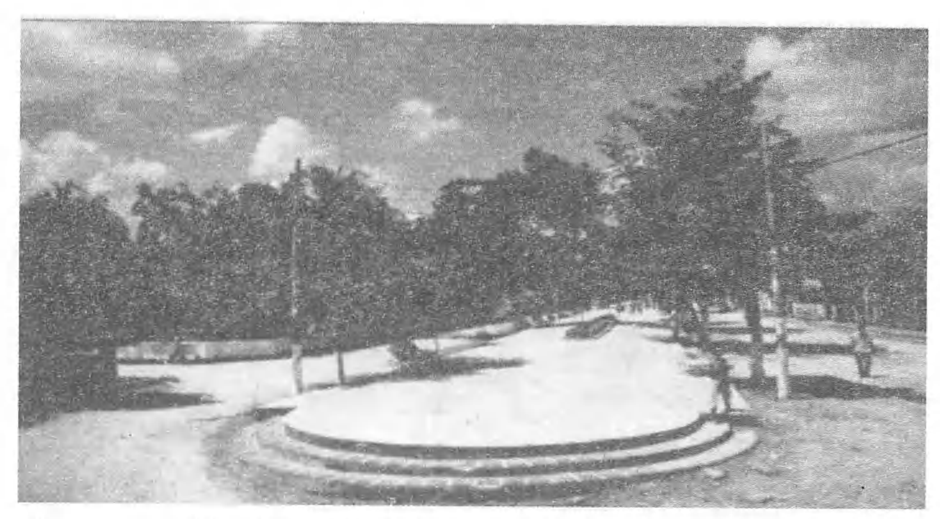
٢٣ - منزل وصيدلية الدكتور أنطونيو باربوسا ، وهما مكانان مهمان فى حياة وإنتاج الكاتب . هنا كان الوالد يترك رسائل لوالدة الكاتب خلال فترة الخطوبة المحظورة ، وكان يزورها عبر النافذة الكائنة بالصورة اليسرى .



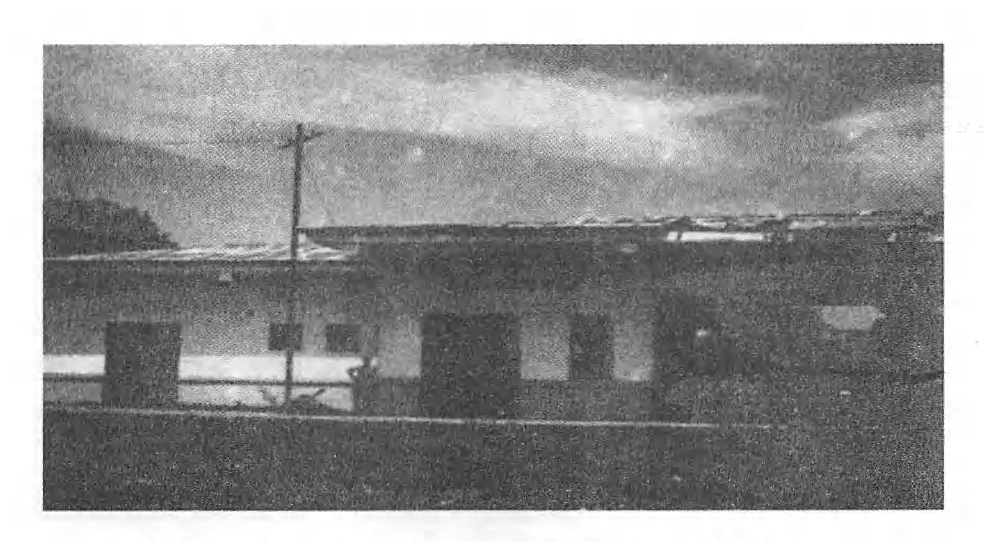
٢٤ - شارع الأسقف إسبيخو . على يسار منزل الصيدلية ، و على اليمين الناصية ، حيث يوجد منزل المتوفى ، المجاور أسرة ماركيز دى إجواران.



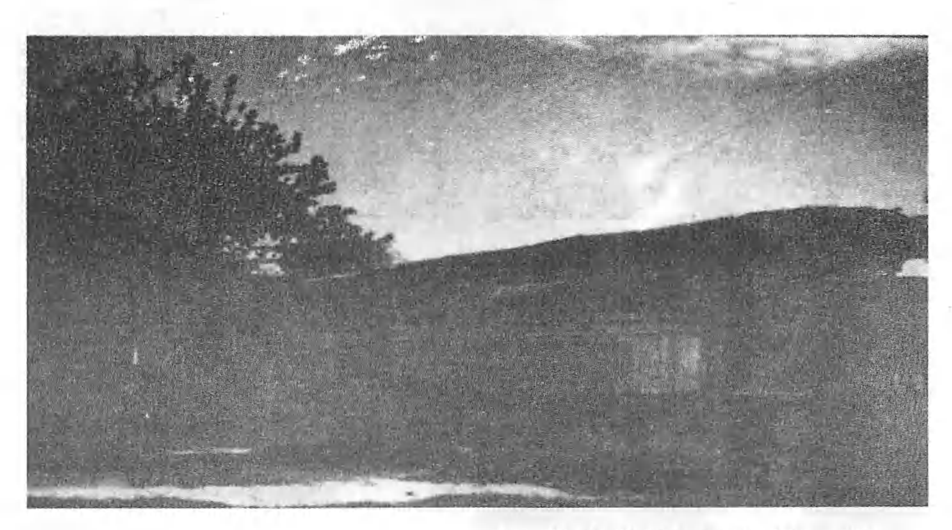
٢٥ - كنيسة سان خوسية أراكاتاكا حيث تم تعميد جابرييل ماركيز فى ٢٧ يوليه ١٩٣٠ كما أنه أى الكاتب عمل مساعداً للقسيس فرانثيسكوث. أنجاريتا.



٢٦ - شارع الكاميون (حوض لكى تشرب فيه الماشية) ، الذى كان الطفل جابيتو يجتازه للذهاب إلى مدرسة مونتيسورى فى العمق على اليسار.



٢٧ - محطة أراكاتاكا ، حيث كان القطار يصل يوميًا الساعة الحادية عشرة صباحًا.



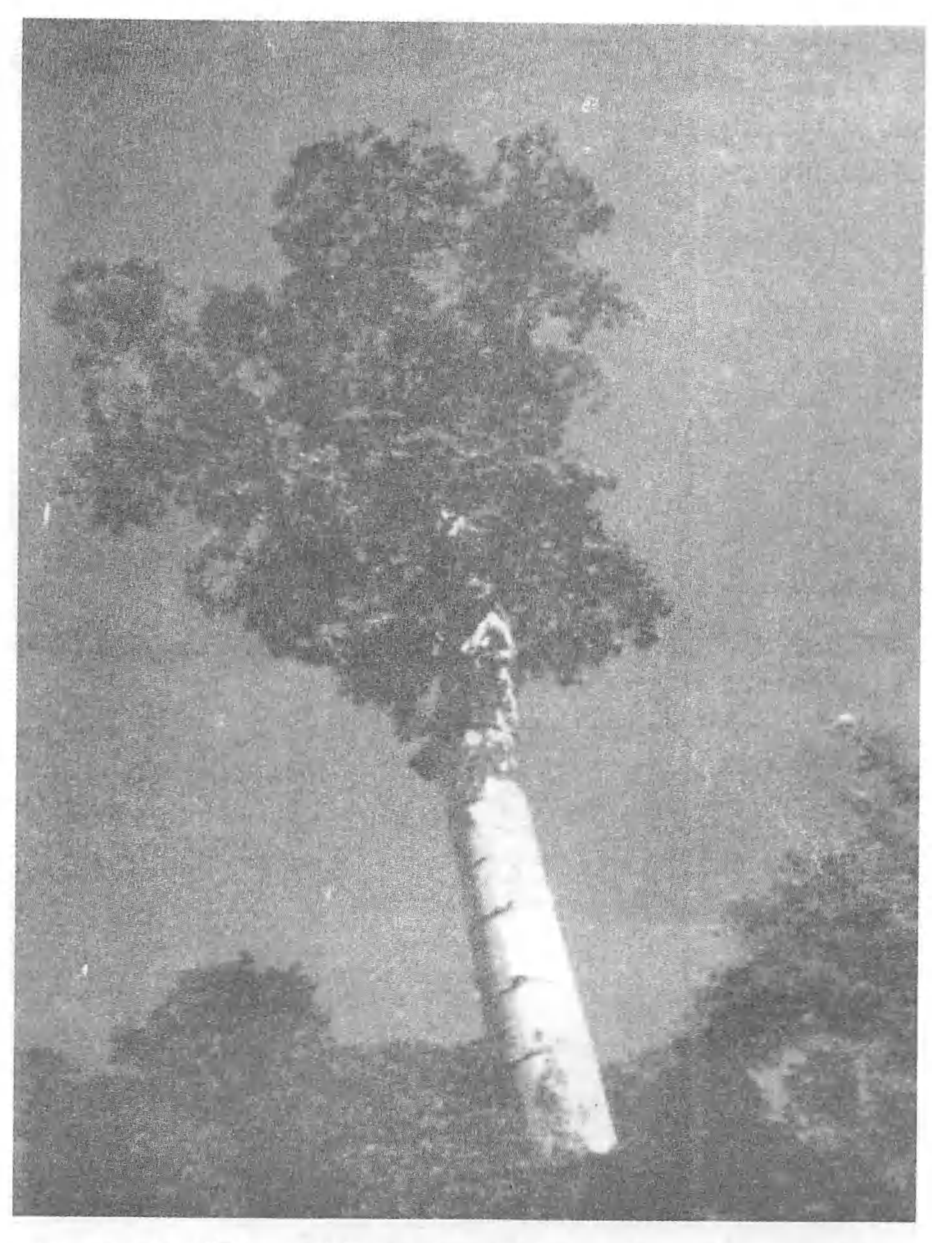
٢٨ - بقايا قطارات شركة الفواكه المتحدة.



٢٩ - روسا إيلينا فيرجسون معلمة ريو هاتشا التى علمت جابرييل جارثيا ماركيز القراءة والكتابة وغرست فيه حب الشعر.

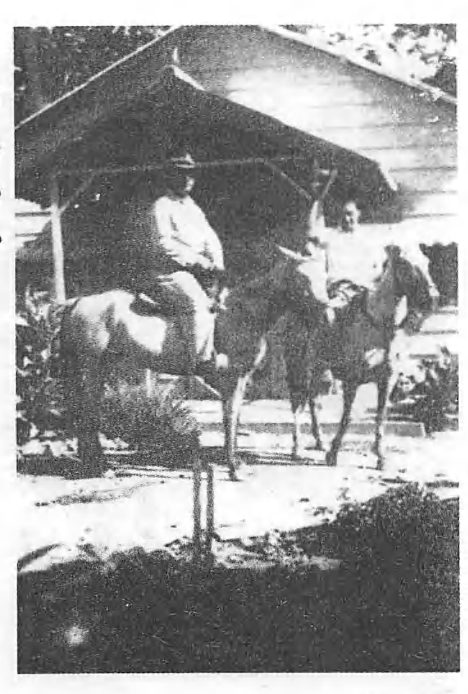


٣٠ - مدرسة مونتيسورى التى أسستها روسا إيلينا فيرجسون ، حيث التحق الكاتب بحضانتها والصف الأول .



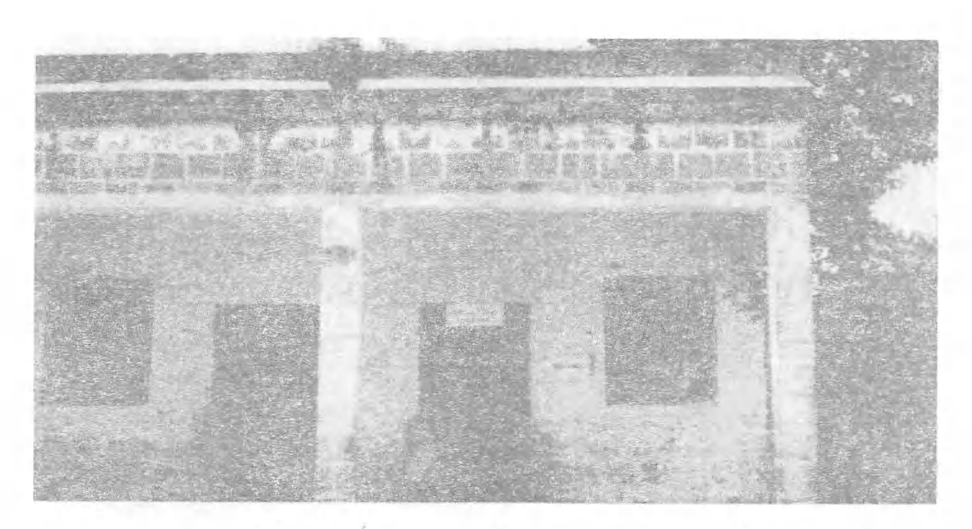
٣١ - شجرة ماكوندو. كثرت هذه الأشجار بالمنطقة خلال الحقبتين الأولى والثانية من القرن العشرين. أما اليوم فلا يوجد منها سوى بعض النماذج عند سفح سلسلة سيرا نيفادا بسانتا ماريا.

٣٢ - منزل ضيعة أو مزرعة ماكوندو (١٩٤٨) فى الفناء كانت توجد شجرتان ماكوندو عملاقتان كانتا السبب فى تسمية المكان باسم ماكوندو. إلى اليمين حقل إيلياس بالينثيا والد ميتشيل بالينثيا-دوث .



٣٣ - ضيعة أو مزرعة ماكوندو على ضفاف نهر أشبيلية ، بين جواكامايال وأشبيلية ومنها أخذ جارثيا ماركيز اسم قريته الأسطورية أو المجازية .

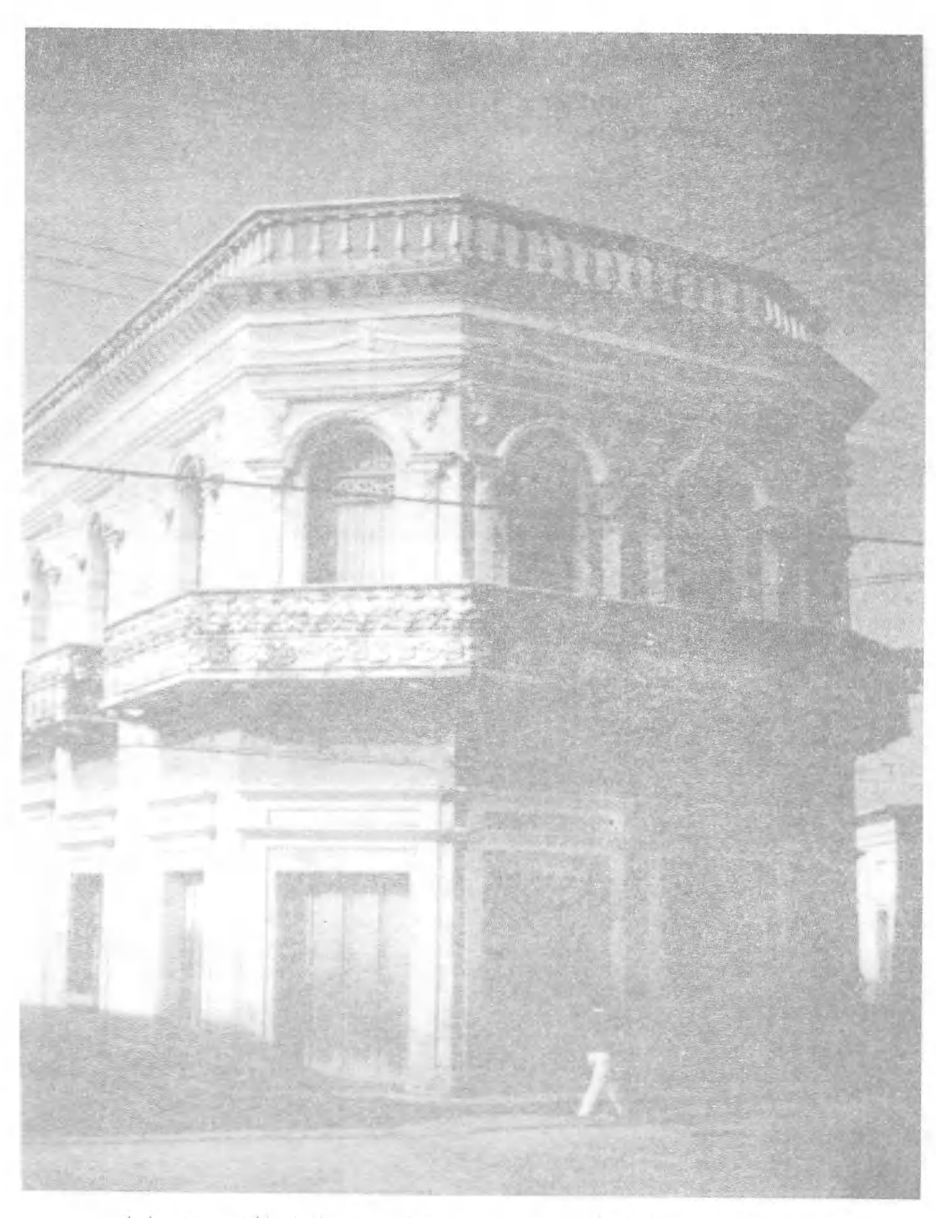




٣٤ - بيت ماكوندو الخالى. وقد شيد حوله كفر فيما بعد أطلق عليه اسم ماكوندو.



٣٥ - خط السكة الحديد عند جواكامايال ، حيث يمكن قراءة الاسم من القطار بحروف بيضاء على أرضية زرقاء رمادية من الزنك والرصاص والقصدير.



٣٦ - منزل ما يسمى بالطراز الجمهورى من عصر الرخاء فى إنتاج الموز فى ثيينا جا.



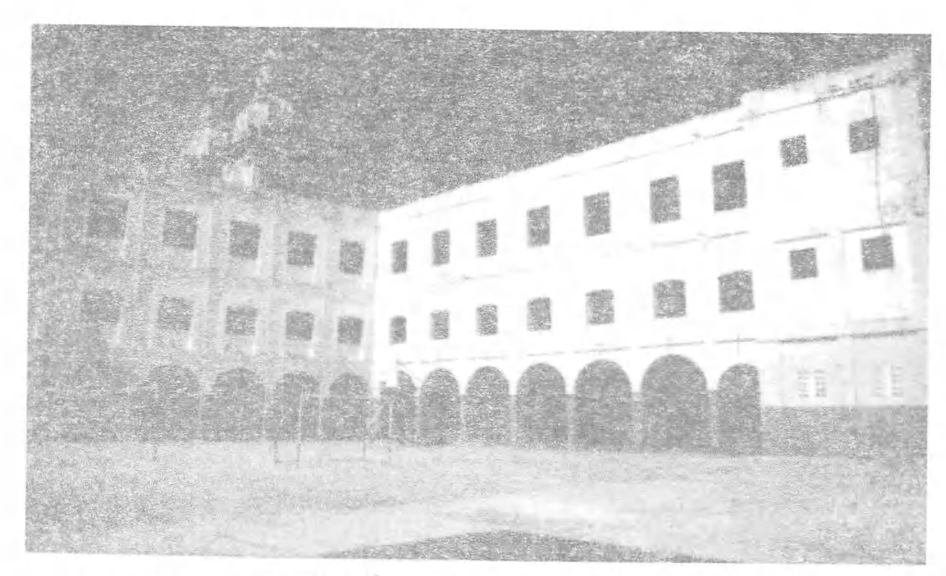
٣٧ – المنزل الكبير ، حيث عاش ألبارو ثيبيدا ساموديو وهو طفل وهو الذى تدور أحداث قصته التى تحمل نفس الاسم .



٣٨ – المكان حيث كانت توجد محطة القطار القديمة فى ثييناجا. والتمثال الذى أعده المثال رودريجو أريناس بيتانكور وهو الذى يذكرنا بمذبحة عمال مزارع الموز، موضوع المنزل الكبير ، وأحد الأحداث الأساسية فى مائة عام من العزلة.



٣٩ – الكاتب فى الثالثة عشرة من عمره ، عندما أنهى دراسة الصف الأول الثانوى بمدرسة سان خوسيه، بارانكيا ، ١٩٤٠ .



٤٠ - مدرسة سان خوسيه ببارانكيا ، حيث درس الصف الأول الثانوى فيما بين ١٩٤٠-١٩٤٢ .



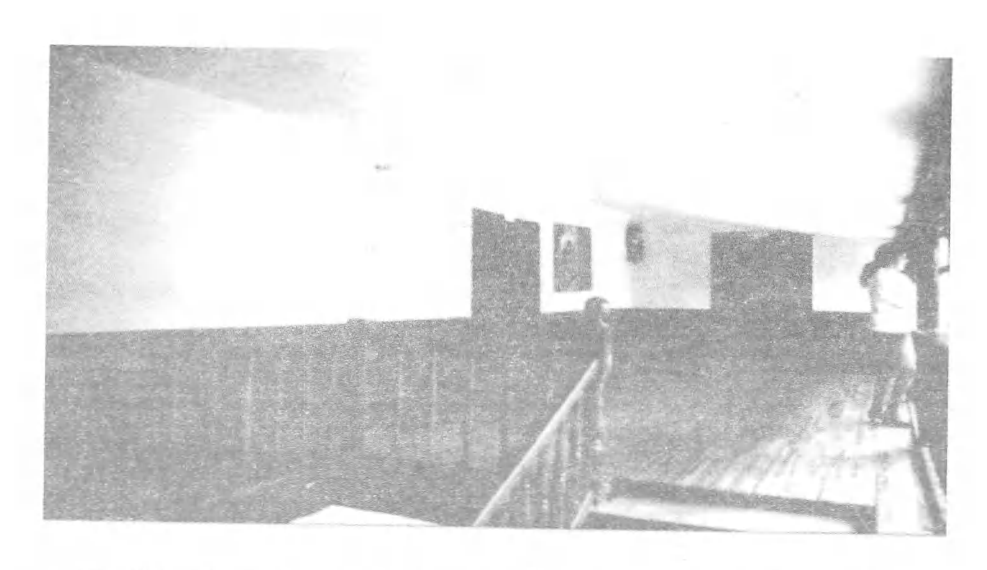
٤١ - مجلة خوبينتود (الشباب) مدرسة سان خوسيه التى نشرت التعليقات والأشعار الأولى لجارثيا ماركيز.



٤٢ - الميدان المركزى فى ثيباكيرا بالقرب من الربى الأنديزية.



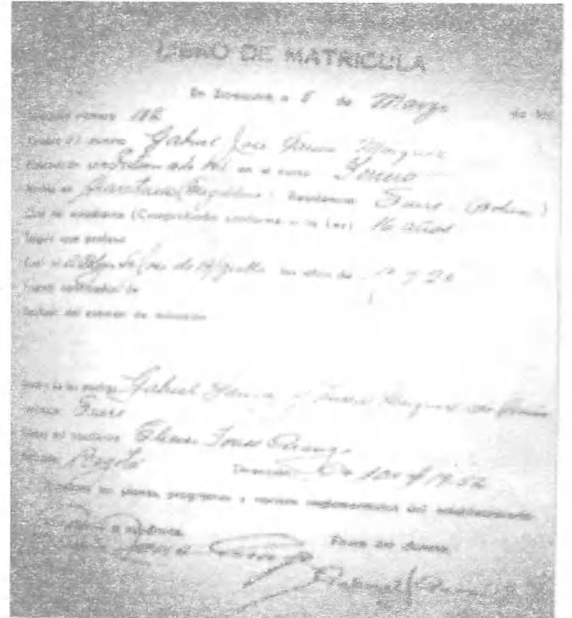
٤٣ - الليسيه القديمة للبنين فى يثيباكيرا ، حيث درس الكاتب السنوات الأربع الأخيرة من المرحلة الثانوية فيما بين ١٩٤٣-١٩٤٦ .



٤٤ - عند الباب الأيسر كان محراب أو مصلى مدرسة الليسية ، وفى العمق كانت توجد المكتبة التى قرأها جارثيا ماركيز عن بكرة أبيها فى غضون أربع سنوات .



٤٥ - البهو المؤدى إلى غرف النوم فى مدرسة الليسية الوطنية فى الطابق الثانى.


LIBRO DE MATRICULA

Mayo

Firma del alumno

٤٦ - شهادة التسجيل للعام الثالث فى الثانوية.



٤٧ - أدلفو جوميث تمارا، المدير الوطنى للمنح الذى ساعد جارثيا ماركيز فى الحصول على منحة لإتمام دراسته الثانوية.



٤٨ - الشاعر كارلوس مارتين : مدير مدرسة الليسية الوطنية للبنين فى ثيباكيرا خلال ١٩٤٤، والذى وجه الكاتب للاطلاع على أعمال روبين داريو .



٤٩ - كارلوس خوليو كالديرون إيرميدا : مدرس الأدب ، وأحد الأشخاص الذين أثروا فى مستقبله الروائى.



٥٠ - مرسيدس بارتشا باردو ، الطالبة الجذابة التى ألهمت بعض قصائد طالب الثانوية جارثيا ماركيز.



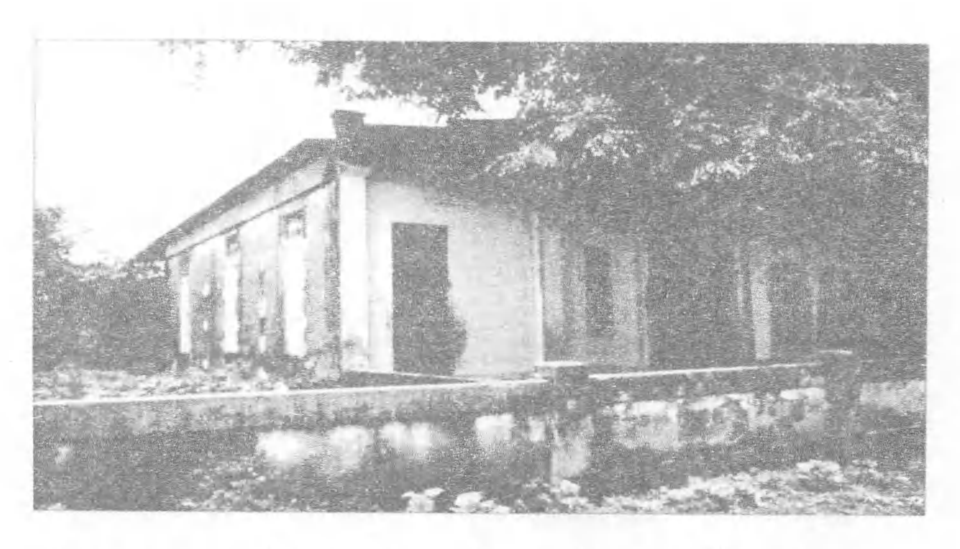
٥١ - لوحة الفسيفساء لدفعة الثانوية عام ١٩٤٦ بمدرسة الليسية الوطنية للبنين فى ثيباكيرا مع مدرسيها .



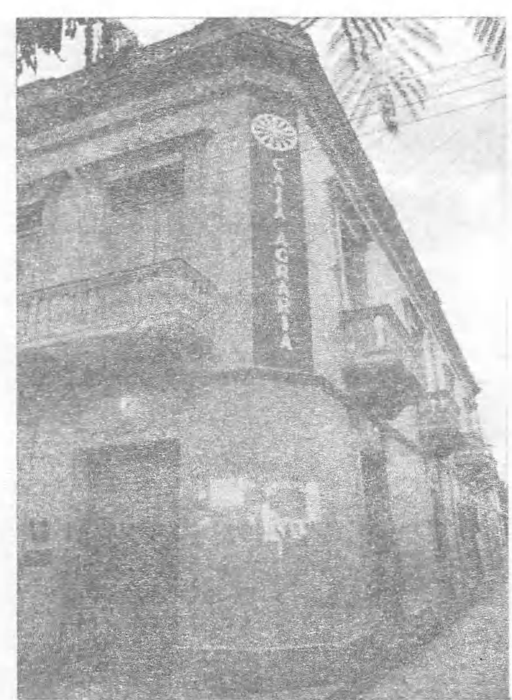
٥٢ - طالب الثانوية جابرييل جارثيا ماركيز .



٥٣ - الميناء القديم فى سوكرى على نهر ماخونا. وهو نفسه الذى يظهر فى قصة "العقيد لايجد من يراسله ،" و"نبأ موت معلن" .



٥٤ - بقايا منزل أسرة جارثيا ماركيز فى سوكرى : هنا كتب المؤلف أول نسخة من قصة "أوراق الشجر البالية" (الورقة الساقطة) ، وقرأ الكتب الكثيرة تحت ظلال أشجار المانجو .



٥٧ - منزل ماريا أماليا سامبايو دى ألباريث (الأم العظيمة) المجاور لمنزل كايبانو جنتيلى .



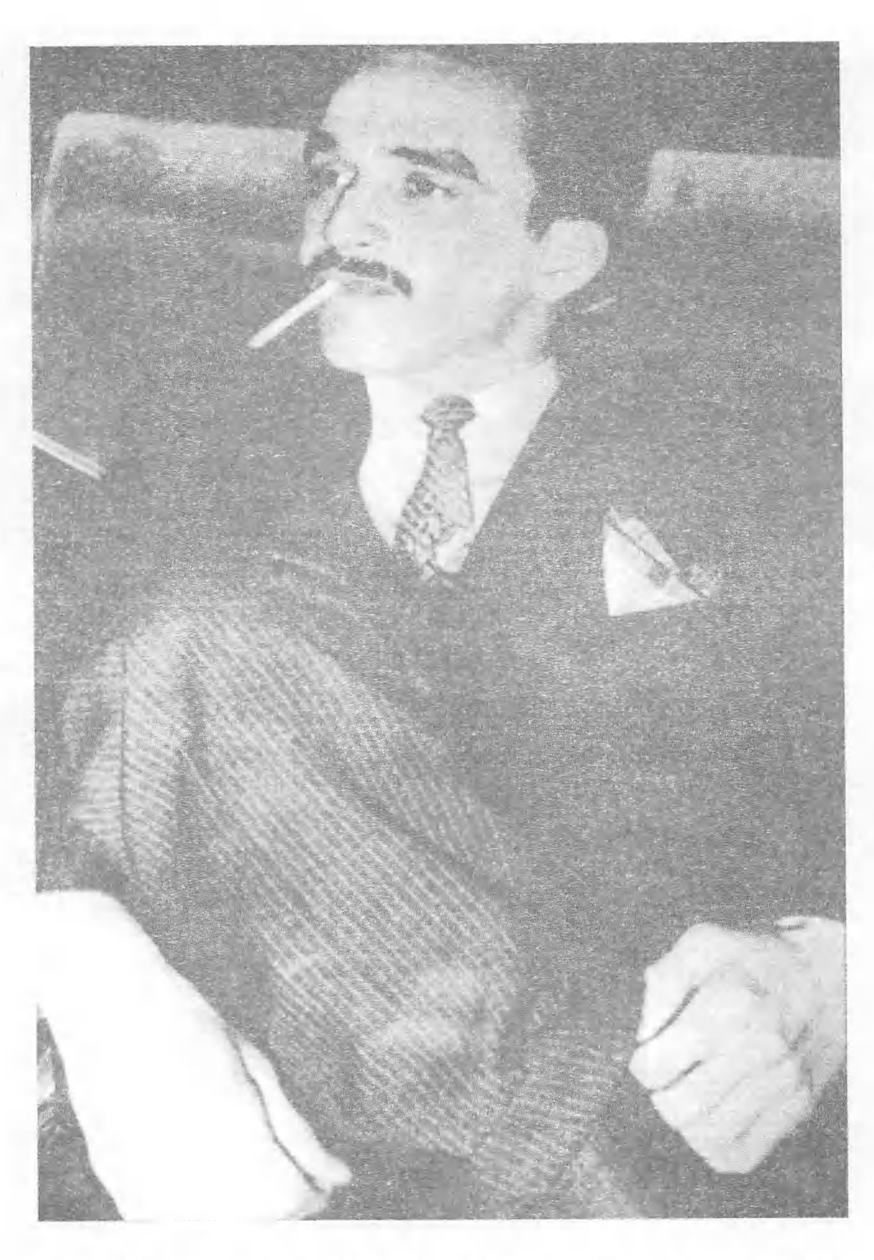
٥٨- مقبرة ماريا أماليا سامبايو فى جبانة سوكرى .



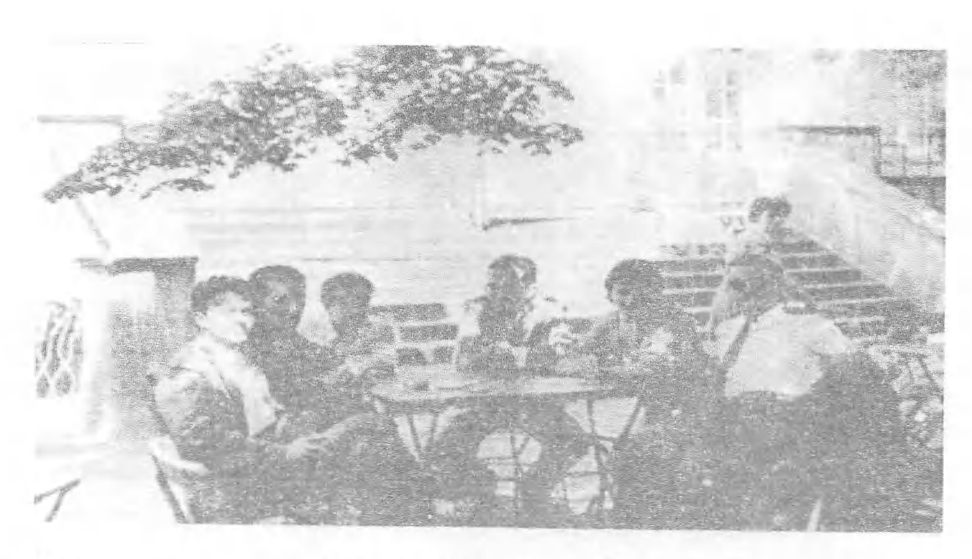
٥٩ - ألبارو موتيس وخوليو ثيسار بييجاس وخوانيتا باتى، نيويورك (الحى اللاتينى) ٢١ يناير ١٩٥١ ، وجدير بالذكر أن الثانى كان وزيراً سابقًا فى بيرو ، وقد عمل معه جارثيا ماركيز بائعًا للكتب بالتقسيط فى بايدوبار وجواخيرا .



٦٠ - مجموعة بارانكيا من اليسار لليمين الواقفون : ألفريدو ديليجادو ، وكارلوس دى لاإسبيريا ، وخيرمان بارجاس ، وفرناندو ثيبيدا ، وأورللاندو ريبرا (الشخصية). الجالسون: روبيرتو بريبتو وإدواردو فوينمايور ، وجابرييل جارثيا ماركيز ، وألفونسو فوينمايور ، ورامون بينيس (العالم القطالونى) ، ورفائيل مادارياجا .



٦١ - جابرييل جارثيا ماركيز عندما كان يعمل صحفيًا بجريدة الأسبكتادور (المشاهد) ، وحين نشر قصته الأولى " أوراق الشجرة البالية" (الورقة الساقطة).



٦٢ - فى ليبزج، يونيه ١٩٥٧ . من اليسار لليمين : كارلوس لوثانو ، وجابرييل جارثيا ماركيز ، وخايمى أوريخويلا ، وبيلينيو ميندوثا ، وسوليداد ميندوثا ، ولويس بيار بوردا.



٦٣ - فى الميدان الأحمر بموسكو، أغسطس ١٩٥٧ . من اليسار لليمين: جابرييل جارثيا ماركيز ، ولويس بيار بوردا ، وماتيلدى موخيكا ، وبابلو سولانو ، وتريسا سالثيدو .



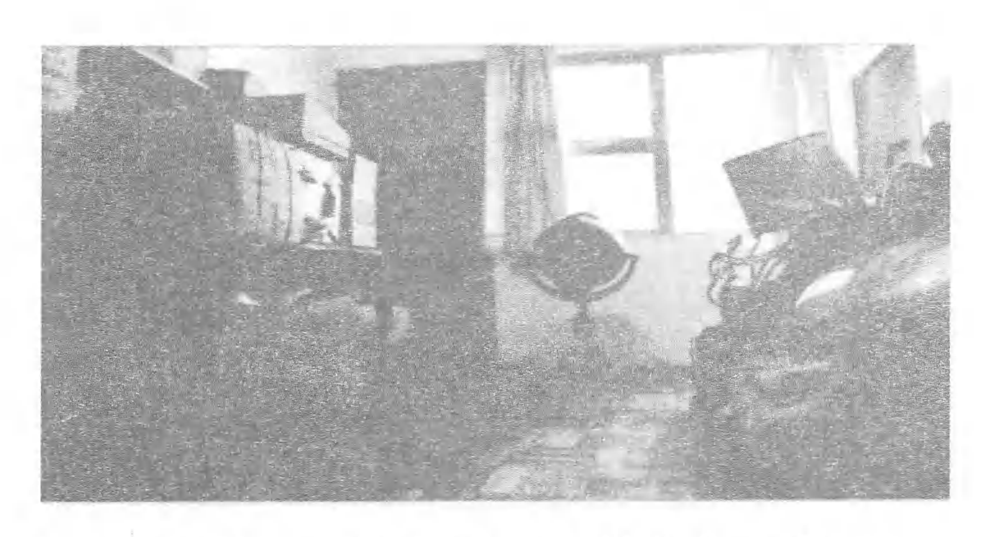
٦٤ - مع زوجته مرسيدس بارتشا باردو فى منزل ماريا لويسا إيليو، المكسيك ١٩٦٦ .



٦٥ - مع السينمائيين ألفريدو ، وأرتورو ريبستين فى فترة تصوير "زمن الموت" المكسيك، يوليه ١٩٦٥ .



٦٦ - منزل أسرة جارثيا ماركيز فى الضاحية السكنية فى سان أنخيل



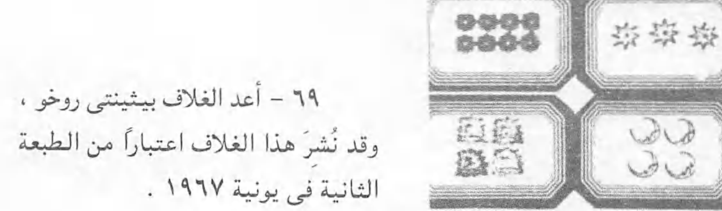
٦٧ - لاكويبا دى لامافيا (كهف المافيا) ؛ الحجرة التى كتب فيها جارثيا ماركيز قصته "مائة عام من العزلة" فيما بين يولية ١٩٦٥ وسبتمبر ١٩٦٦ .



٦٨ - غلاف الطبعة الأولى لمائة عام من العزلة صدرت فى ٣٠ مايو ١٩٦٧ .

جابرييل جارثيا ماركيز

مائة عام من العزلة



٦٩ - أعد الغلاف بيثينتى روخو ، وقد نُشِرَ هذا الغلاف اعتباراً من الطبعة الثانية فى يونية ١٩٦٧ .

دار نشر سود أمريكانا



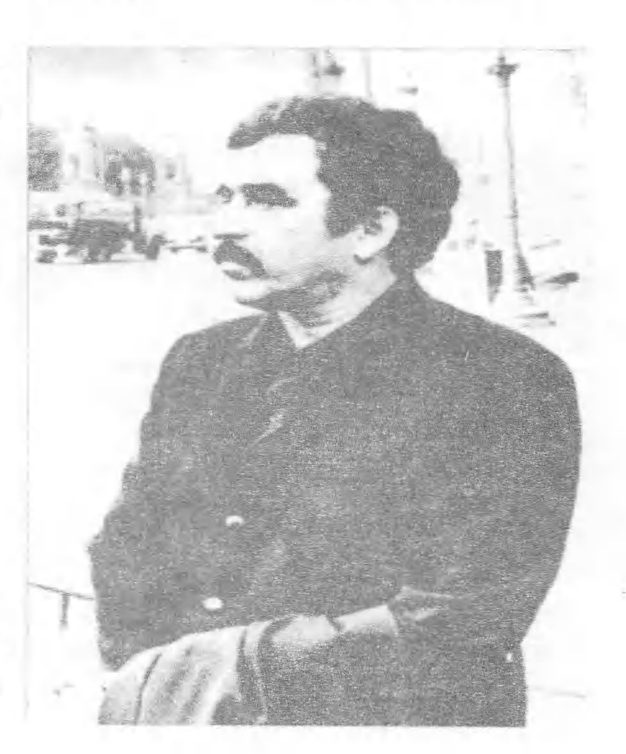
٧٠ - مع فرانسيسكو بورروا ناشر مائة عام من العزلة فى شارع بوينوس أيرس فى يونية ١٩٦٧ .



٧١ - مع ألبارو ثيبيدا ساموديو فى الوسط: دانييل سامبير من اليسار: فى مطبخ كونسويلو أراوخو فى بايدوبار، سبتمبر ١٩٦٧ .



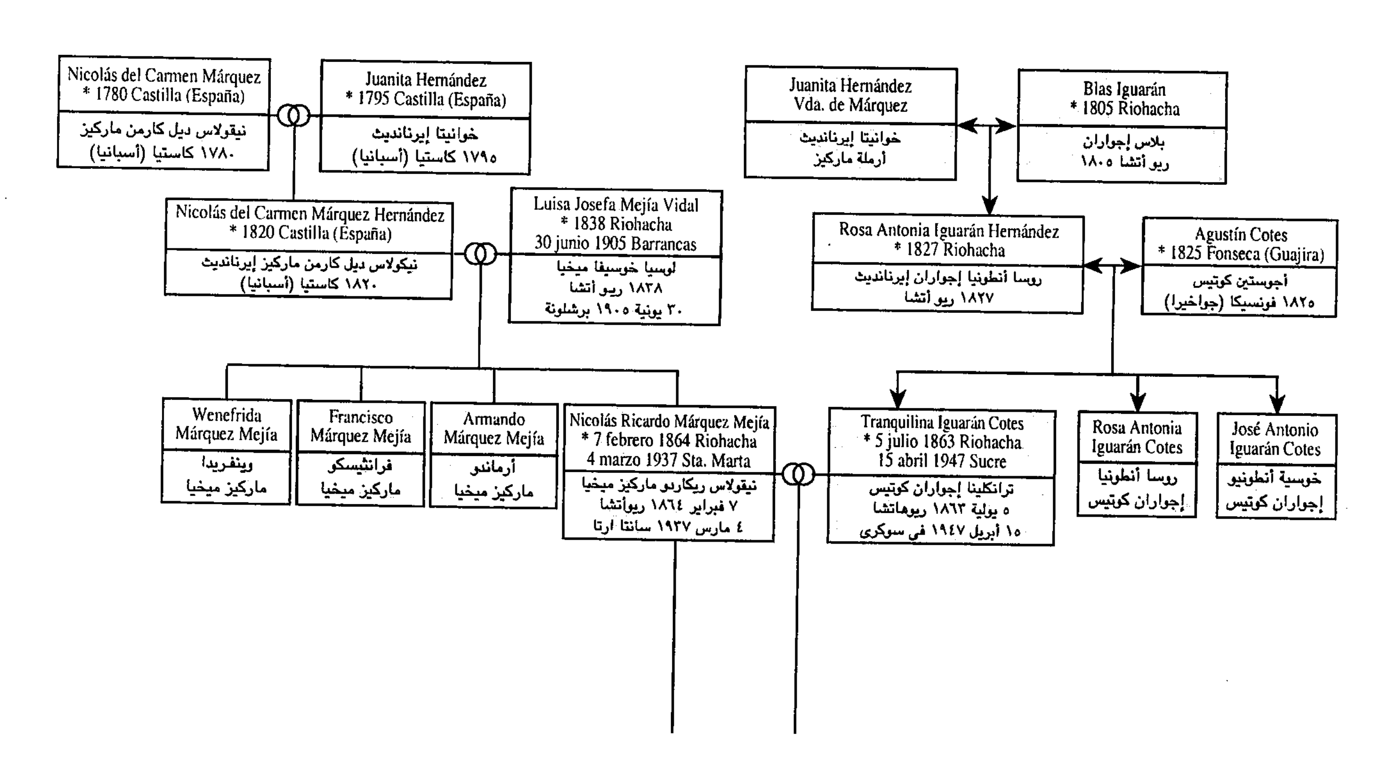
٧٢ - مع مرسيدس ونجليهما جونثالو ورودريجو فى برشلونة ، عندما كان يكتب "خريف البطريرك".



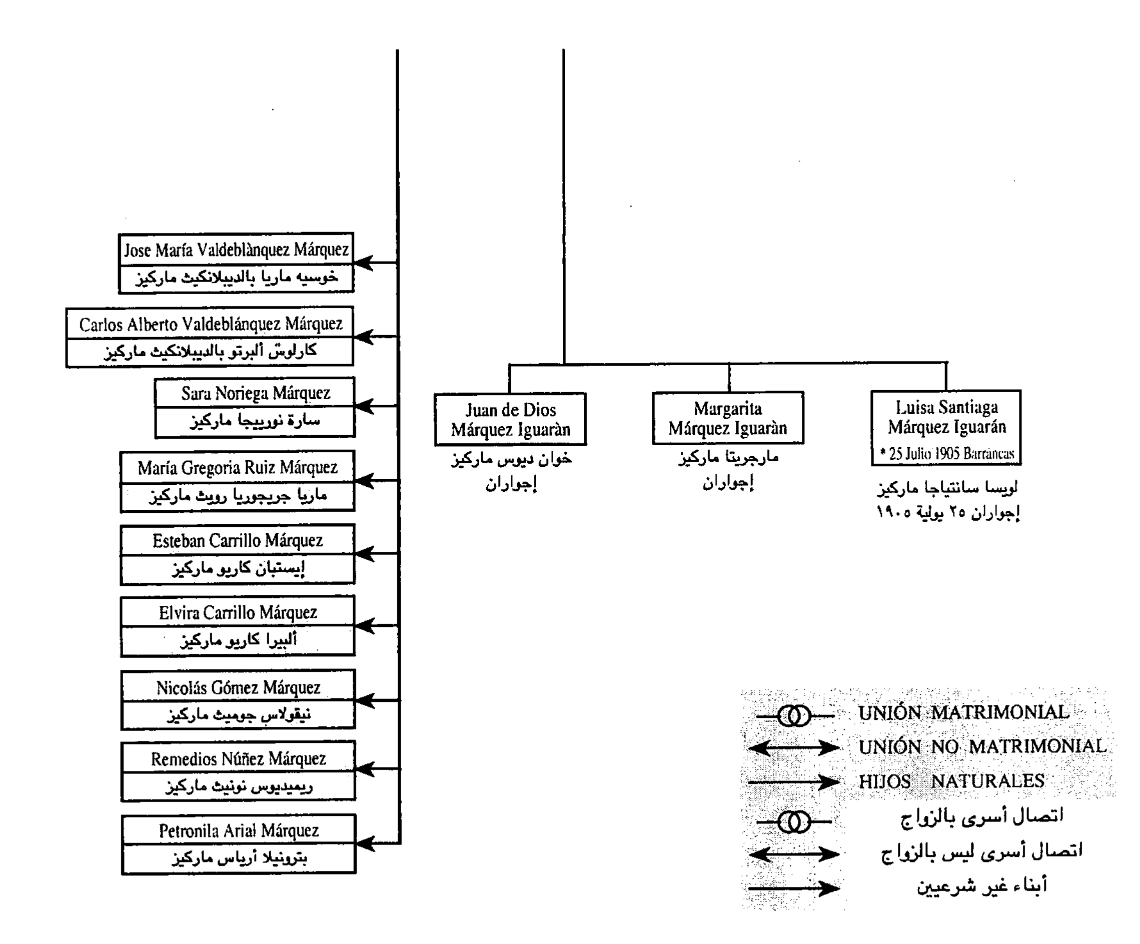
٧٣ - جارثيا ماركيز محاصر بسبب عزلة الشهرة، يفكر الكاتب فى عزلة السلطة فى شارع ببرشلونة .

ÁRBOLES GENEALÓGICOS

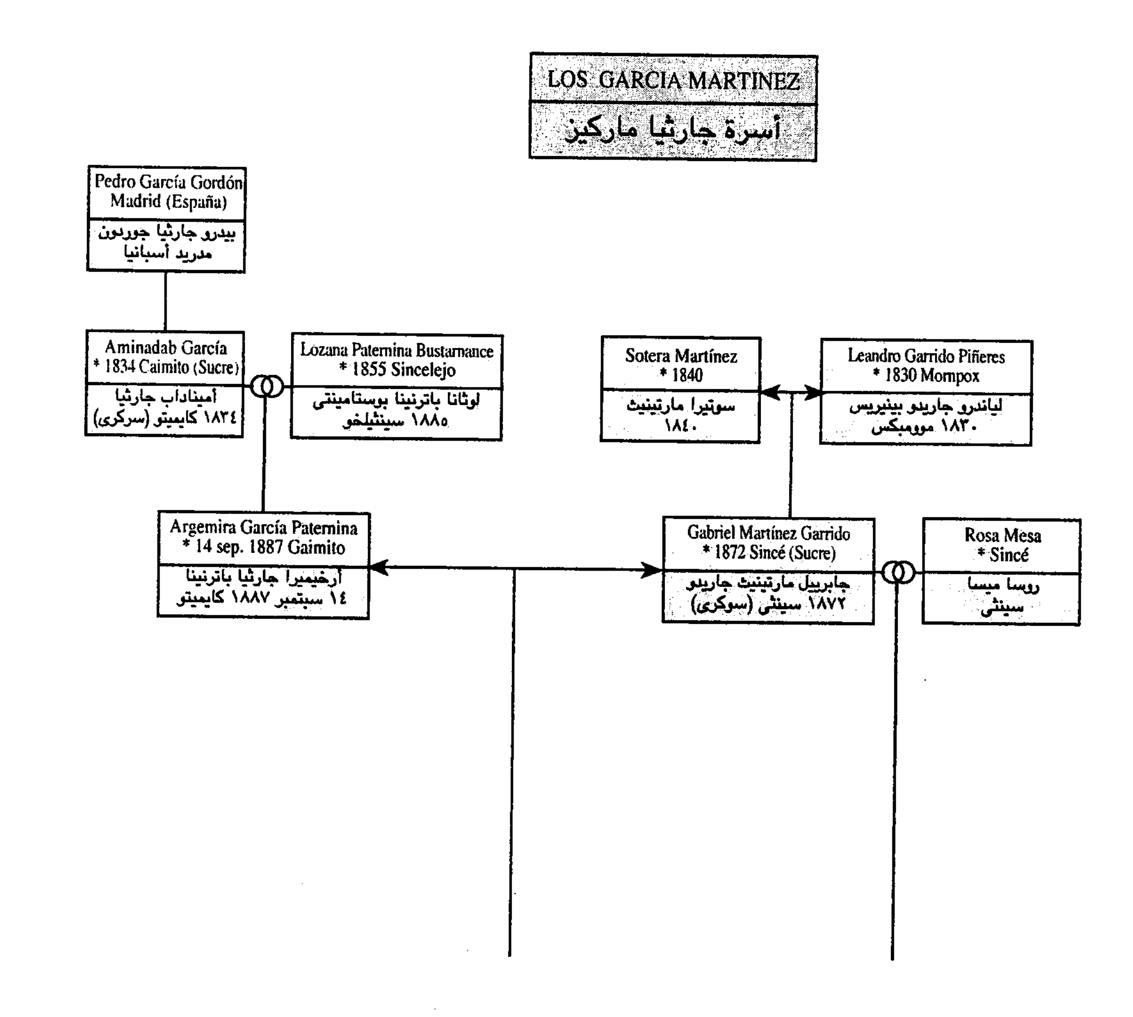
أشجار النسب



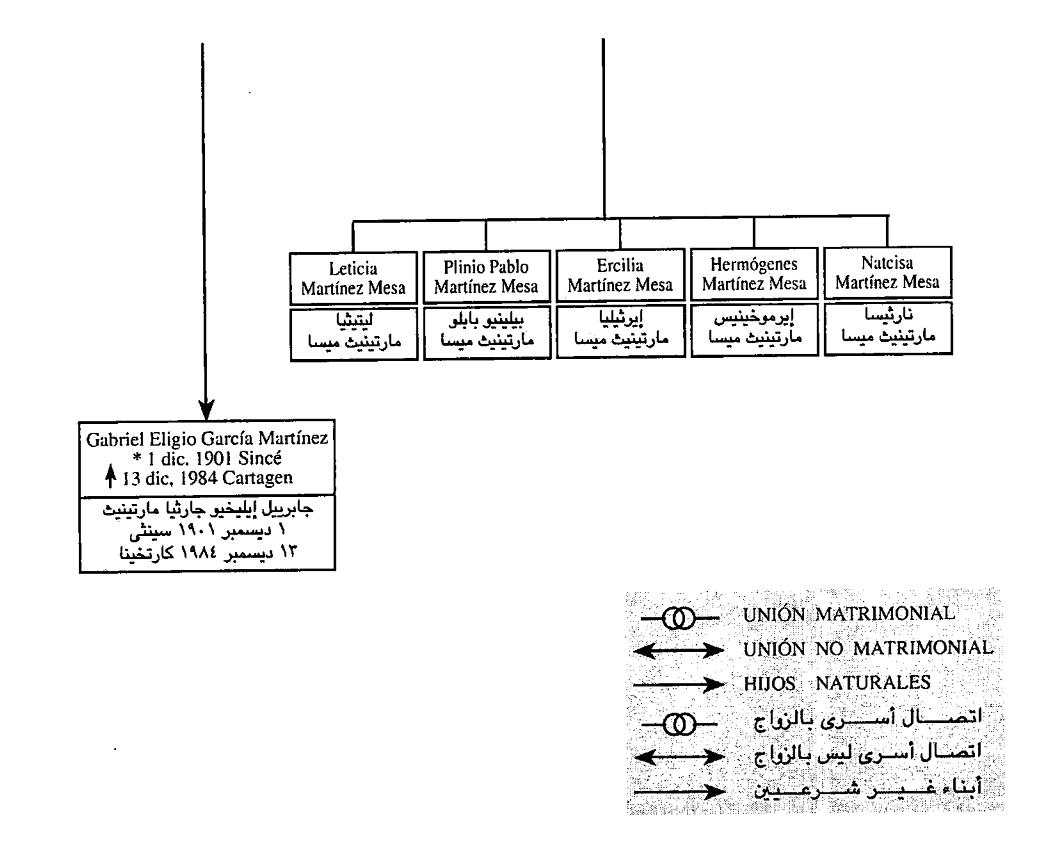
LOS MÁRQUEZ IGUARÁN
أسرة ماركيز إجواران
Nicolás del Carmen Márquez
* 1780 Castilla (España)
نيقولاس ديل كارمن ماركيز
١٧٨٠ كاستيا (أسبانيا)
Juanita Hernández
* 1795 Castilla (España)
خوانيتا إيرنانديث
١٧٩٥ كاستيا (أسبانيا)
Nicolás del Carmen Márquez Hernández
* 1820 Castilla (España)
نيكولاس ديل كارمن ماركيز إيرنانديث
١٨٢٠ كاستيا (أسبانيا)
Luisa Josefa Mejía Vidal
* 1838 Riohacha
30 junio 1905 Barrancas
لويسا خوسيفا ميخيا
١٨٣٨ ريو أتشا
٣٠ يونية ١٩٠٥ برشلونة
Juanita Hernández
Vda. de Márquez
خوانيتا إيرنانديث
أرملة ماركيز
Blas Iguarán
* 1805 Riohacha
بلاس إجواران
١٨٠٥ ريو أتشا
Rosa Antonia Iguarán Hernández
* 1827 Riohacha
روسا أنطونيا إجواران إيرنانديث
١٨٢٧ ريو أتشا
Agustín Cotes
* 1825 Fonseca (Guajira)
أجوستين كوتيس
١٨٢٥ فونسيكا (جواخيرا)
Wenefrida
Márquez Mejía
وينفريدا
ماركيز ميخيا
Francisco
Márquez Mejía
فرانثيسكو
ماركيز ميخيا
Armando
Márquez Mejía
أرماندو
ماركيز ميخيا
Nicolás Ricardo Márquez Mejía
* 7 febrero 1864 Riohacha
4 marzo 1937 Sta. Marta
نيقولاس ريكاردو ماركيز ميخيا
٧ فبراير ١٨٦٤ ريوأتشا
٤ مارس ١٩٣٧ سانتا ارتا
Tranquilina Iguarán Cotes
* 5 julio 1863 Riohacha
15 abril 1947 Sucre
ترانكلينا إجواران كوتيس
٥ يولية ١٨٦٣ ريوهاتشا
١٥ أبريل ١٩٤٧ في سوكرى
Rosa Antonia
Iguarán Cotes
روسا أنطونيا
إجواران كوتيس
José Antonio
Iguarán Cotes
خوسية أنطونيو
إجواران كوتيس



Jose María Valdeblànquez Márquez
خوسيه ماريا بالديبلانكيث ماركيز
Carlos Alberto Valdeblánquez Márquez
كارلوس ألبرتو بالديبلانكيث ماركيز
Sara Noriega Márquez
سارة نورييجا ماركيز
María Gregoria Ruiz Márquez
ماريا جريجوريا رويث ماركيز
Esteban Carrillo Márquez
إيستبان كاريو ماركيز
Elvira Carrillo Márquez
ألبيرا كاريو ماركيز
Nicolás Gómez Márquez
نيقولاس جوميث ماركيز
Remedios Núñez Márquez
ريميديوس نونيث ماركيز
Petronila Arial Márquez
بترونيلا أرياس ماركيز
Juan de Dios Márquez Iguaràn
خوان ديوس ماركيز إجواران
Margarita Márquez Iguaràn
مارجريتا ماركيز إجواران
Luisa Santiaga Márquez Iguarán
* 25 Julio 1905 Barrancas
لويسا سانتياجا ماركيز إجواران ٢٥ يولية ١٩٠٥
UNIÓN MATRIMONIAL
UNIÓN NO MATRIMONIAL
HIJOS NATURALES
اتصال أسرى بالزواج
اتصال أسرى ليس بالزواج
أبناء غير شرعيين



LOS GARCIA MARTINEZ
أسرة جارثيا ماركيز
Pedro García Gordón
Madrid (España)
بيدرو جارثيا جوردون
مدريد أسبانيا
Aminadab García
* 1834 Caimito (Sucre)
أميناداب جارثيا
١٨٣٤ كايميتو (سركرى)
Lozana Paternina Bustamance
* 1855 Sincelejo
لوثانا باترنينا بوستامينتى
١٨٨٥ سينثيلخو
Sotera Martínez
* 1840
سوتيرا مارتينيث
١٨٤٠
Leandro Garrido Piñeres
* 1830 Mompox
لياندرو جاريدو بينيريس
١٨٣٠ موومبكس
Argemira García Paternina
* 14 sep. 1887 Gaimito
أرخيميرا جارثيا باترنينا
١٤ سبتمبر ١٨٨٧ كايميتو
Gabriel Martínez Garrido
* 1872 Sincé (Sucre)
جابرييل مارتينيث جاريدو
١٨٧٢ سينثى (سوكرى)
Rosa Mesa
* Sincé
روسا ميسا
سينثى



Leticia Martínez Mesa
ليتيثيا مارتينيث ميسا
Plinio Pablo Martínez Mesa
بلينيو بابلو مارتينيث ميسا
Ercilia Martínez Mesa
إيرثيليا مارتينيث ميسا
Hermógenes Martínez Mesa
إيرموخينيس مارتينيث ميسا
Natcisa Martínez Mesa
نارثيسا مارتينيث ميسا
Gabriel Eligio García Martínez
* 1 dic. 1901 Sincé
13 dic. 1984 Cartagen
جابرييل إيليخيو جارثيا مارتينيث
١ ديسمبر ١٩٠١ سينثى
١٣ ديسمبر ١٩٨٤ كارتخينا
UNIÓN MATRIMONIAL
UNIÓN NO MATRIMONIAL
HIJOS NATURALES
اتصال أسرى بالزواج
اتصال أسرى ليس بالزواج
أبناء غير شرعيين

LOS GARCÍA MÁRQUEZ
أسرة جارثيا ماركيز

Gabriel Eligio García Martínez
جابرييل إليخيو جارثيا ماركيز

Luisa Santiaga Márquez Iguarán
لويسا سانتياجا ماركيز إجواران

Abelardo García Ujueta
أبيلاردو جارثيا أوخويتا

Carmen Rosa García Hermosillo
كارمن روسا جارثيا إيرموسيو

Antonio García Navarro
أنطونيو جارثيا نابارو

Germaine (Emy) García Mendoza
جيرماينى (إيمى) جارثيا ماركيز

Gabriel José García Márquez
* 6 marso 1927 Aracataca
جابرييل
جارثيا ماركيز
٦ مارس ١٩٢٧ أركاتاكا

Luis Enrique G. M.
* 8 sep. 1928 Aracataca
لويس إنريكى
جارثيا ماركيز
٨ سبتمبر ١٩٢٨ أركاتاكا

Margarita G. M.
* 9 nov. 1929 Barranquilla
مارجريتا
جارثيا ماركيز
٩ نوفمبر ١٩٢٩ بارانكيا

Aída Rcsa G. M.
* 17 dic. 1933 Barranquilla
عايدة روسا
جارثيا ماركيز
١٧ ديسمبر ١٩٣٣ بارانكيا

Ligia G. M.
* 8 agosto. 1934 Aracataca
ليخيا
جارثيا ماركيز
٨ أغسطس ١٩٣٤ أركاتاكا

Gustavo G. M.
* 27 sep. 1935 Aracataca
جوستابو
جارثيا ماركيز
٢٠ سبتمبر ١٩٣٥ أركاتاكا

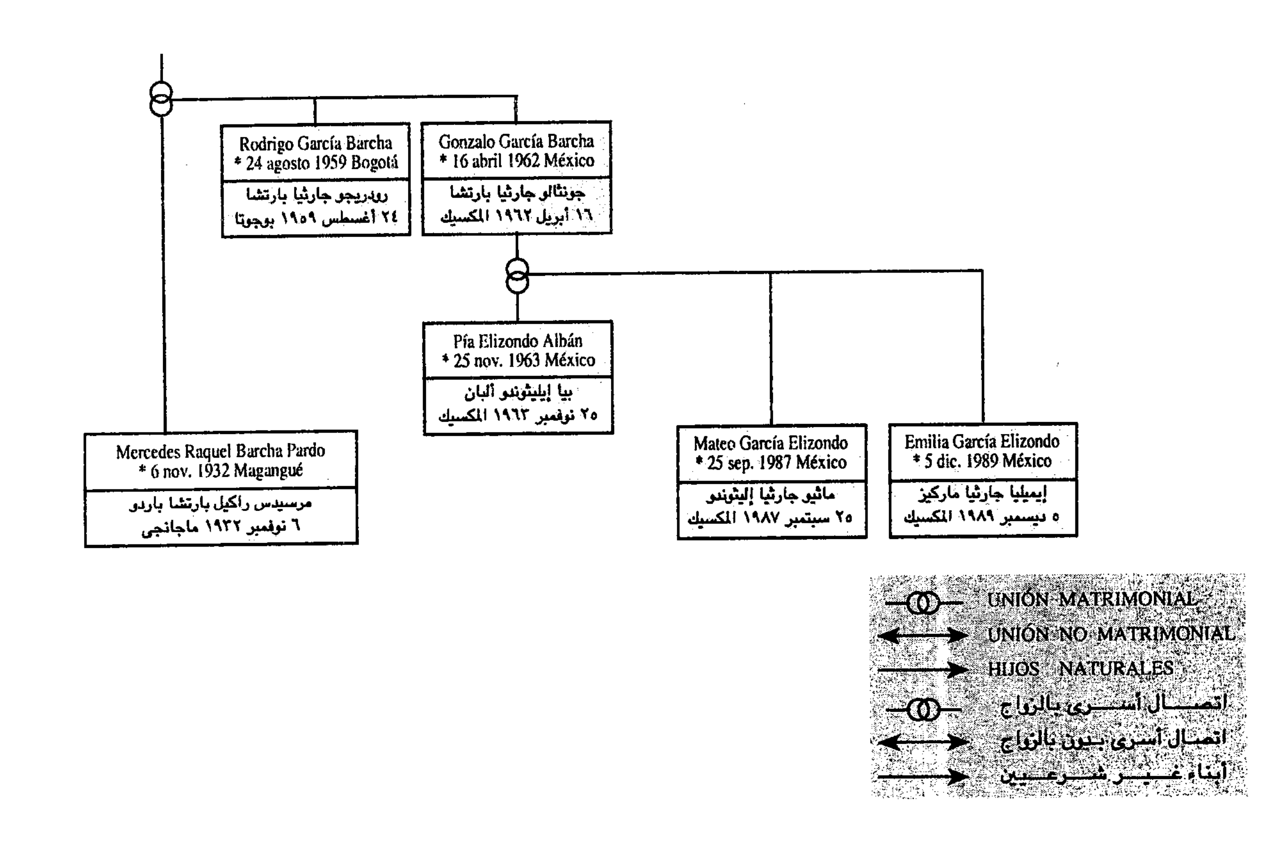
Rita del Carmen G. M.
* 10 jul. 1938 Barranquilla
ريتا ديل كارمن
جارثيا ماركيز
١٠ يولية ١٩٣٨ بارانكيا

Jaime G. M.
* 22 mayo 1940 Sucre
خايمى
جارثيا ماركيز
٢٢ مايو ١٩٤٠ سوكرى

Hernando G. M.
* 26 marzo. 1943 Sucre
إيرنـانـدو
جارثيا ماركيز
٢٦ مارس ١٩٤٣ سوكرى

Alfredo Ricardo G. M.
* 25 feb. 1946 Sucre
ألفريدو ريكاردو
جارثيا ماركيز
٢٥ فبراير ١٩٤٦ سوكرى

Eligio Gabriel G. M.
* 14 nov. 1947 Sucle
إليخيو جابرييل
جارثيا ماركيز
١٤ نوفمبر ١٩٤٧ سوكرى


Rodrigo García Barcha
* 24 agosto 1959 Bogotá
رودريجو جارثيا بارتشا
٢٤ أغسطس ١٩٥٩ بوجوتا
Gonzalo García Barcha
* 16 abril 1962 México
جونثالو جارثيا بارتشا
١٦ أبريل ١٩٦٢ المكسيك
Pía Elizondo Albán
* 25 nov. 1963 México
بيا إيليثوندو ألبان
٢٥ نوفمبر ١٩٦٣ المكسيك
Mercedes Raquel Barcha Pardo
* 6 nov. 1932 Magangué
مرسيدس راكيل بارتشا باردو
٦ نوفمبر ١٩٣٢ ماجانجي
Mateo García Elizondo
* 25 sep. 1987 México
ماثيو جارثيا إليثوندو
٢٥ سبتمبر ١٩٨٧ المكسيك
Emilia García Elizondo
* 5 dic. 1989 México
إيميليا جارثيا ماركيز
٥ ديسمبر ١٩٨٩ المكسيك
UNIÓN MATRIMONIAL
UNIÓN NO MATRIMONIAL
HIJOS NATURALES
اتصال أسري بالزواج
اتصال أسري بدون بالزواج
أبناء غير شرعيين

المؤلف فى سطور

ولد داسو سالديبار فى سان خوليان (أنطيوكيا، كولومبيا) فى ١٩٥١ . وعقب تـركه لدراسـة الحقوق فى وطنه درس العلوم السـياسية فى جامعة كومبلوتنسى بمدريد (الجامعة المركزية بمدريد). ومنذ ١٩٧٥ أقام فى هذه المدينة ، حيث حصل على الجنسية الإسبانية. ولقد تعاون مع الصحف مثل البابيس والاسبكتادور "المشاهد" ، ومع مـجلات مثل كواديرنوس أمريكانوس "دفاتر أمريكية" ، وأفريقيا وآسيا ، وكذلك فى برامج ثقافية فى التليفزيون الأسبانى. وفى ١٩٨٨ حصل على جائزة خاوخا للقصة.

المترجم فى سطور

صبرى محمدى التهامى زيدان

ولد فى ٢٠/٤/١٩٥١م .

المهنة : عضو هيئة تدريس بجامعة الأزهر كلية اللغات والترجمة ، قسم اللغة الأسبانية وآدابها .

المؤهلات :

١ – ليسانس لغات وترجمة ، قسم اللغة الأسبانية وآدابها ، مايو ١٩٧٥ بتقدير عام ممتاز (أول الدفعة) .

٢ – دبلوم دراسات عليا بالقاهرة عامى ١٩٧٦ و ١٩٧٧ بتقدير عام جيد جداً فى العام الأول وامتياز فى العام الثانى .

٣ – دراسات تمهيدية للدكتوراة فى إسبانيا عام ١٩٨٢ بتقدير عام امتياز .

٤ – دكتوراة فى اللغة الإسبانية وآدابها فى ١٦ فبراير ١٩٩٥ بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف .

الخبرة فى مجال الترجمة :

- زاول أعمال الترجمة التحريرية منذ تخرجه عام ١٩٧٥ .
- سافر إلى إسبانيا فى ٢٣ أكتوبر عام ١٩٧٩ وعاد إلى مصر فى ١١ مارس ١٩٩٥ (إقامة متصلة) .
- عمل مترجماً بالمكتب الصحفى المصرى بمدريد خلال عام ١٩٨٤ .
- مارس أعمال الترجمة فى وكالة الأنباء الليبية بمدريد عام ١٩٨٥ .
- تعاون كثيراً مع السفارة السعودية فى مدريد .
- عين مترجماً بالمكتب الإعلامى بسفارة الكويت بإسبانيا منذ نوفمبر ١٩٨٦ وحتى ٢٨ أكتوبر ١٩٩٢ ، حيث مارس كافة أعمال الترجمات السياسية والاقتصادية والعسكرية والتجارية والعلمية والقانونية (تحريرية وتتبعية وفورية) .

- وخلال حرب الخليج الثانية (غزو الكويت) حضر كافة اللقاءات لكبار رجالات الدولة ، ومن بينهم الشيخ على الصباح وزير النفط آنذاك حيث ترجم له المؤتمر الصحفى الذى عقده فى مدريد يوم ١٧ أغسطس ١٩٩٠، وكافة اللقاءات والاجتماعات مع المسئولين الأسبان خلال فترة عمله بالسفارة الكويتية بمدريد .
- اشترك فى الترجمة الفورية أثناء اللقاءات العربية الأسبانية بمدينة المونيكار بمحافظة غرناطة والتى كانت تتم سنويًا على مدى ثلاثة أيام .
- قام بأعمال الترجمة الفورية أثناء مؤتمر السلام فى مدريد عام ١٩٩١ من ٢٩ أكتوبر إلى ١ نوفمبر ١٩٩١ .
- شارك فى أعمال الترجمة الفورية فى كثير من المنتديات العربية الأسبانية فى العاصمة الأسبانية .
- قام بأعمال الترجمة الفورية فى مؤتمرين للأديان ، أحدهما عقد فى مدريد بالمركز الإسلامى الثقافى السعودى عم ١٩٩٣ . والآخر فى مدينة الكالا دى إيناريس على بعد ١٨ كم من مدريد .
- يقوم بتدريس مادة الترجمة من الأسبانية إلى العربية والعكس فى كليتى اللغات والترجمة والبنات بجامعة الأزهر .
- صدرت له بالاشتراك مع اثنين من الزملاء بقسم اللغة الأسبانية وآدابها ترجمة لتفسير القرآن الكريم ، وقد قدم لفخامة الرئيس مبارك فى ليلة القدر ٢٠٠١م-١٤٢١هـ .
- ستصدر له ترجمة لمسرحية "ورود الخريف" بالمجلس الأعلى للثقافة للكاتب الأسبانى الأشهر خاثينتو بينابينتى الفائز بجائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٩٢ .
- ستصدر له بالمجلس أيضًا مسرحية بعنوان "عش الغريب" للكاتب نفسه .
- ترجم كتاب آخر بعنوان "حوارات مع خوان رامون خيمينيث" ، وسيصدر قريبًا بالمجلس الأعلى للثقافة .
- يجيد إلى جانب الأسبانية اللغة الإنجليزية ، التى يستطيع الترجمة منها إلى الأسبانية والعربية .
- يستطيع بحكم دراسته للغتين الأسبانية واللاتينية الترجمة من اللغة الإيطالية والبرتغالية إلى العربية .

هـذه السـيـرة الحـيـاتيـة لجـابرييل جـارثيـا مـركـيـز تسـتند إلى سـؤالين ظلا يتسلطان على ذهن داسو سالديبار :

من هو الرجل الذى كتب مائة عام من العزلة ؟

ما هو الواقع التاريخى والثقافى والأسرى ، والشخصى الذى يكمن فى هذه القصة العجيبة ؟

وبحثًا عـن إجـابة ... سـافـر المؤلف إلى المواطن الأصلية لجارثيا ماركيز ، وتحادث مع الكاتب ، وأقاربه ، وأصدقائه وأجرى مئات المقابلات وبحث ، وتقصى فى مكتبات الصحف والأرشيفات فى عدة دول .

والنتيجة ... رؤية كاملة ومعقدة ومتعمقة ومضيئة

لا غنى عنها لفهم أعـمال الكاتب فى كل جوانبها ، وهو الذى يفتننا جميعًا باختراعه وعبقريته .

المشروع القومى للترجمة

المشـروع القومــى للترجمــة مشــروع تنميــة ثقافيــة بالدرجــة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعـارف الإنسـانية فى المجـالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحـيـاز إلى كل مـا يؤسس لأفكار التـقـدم وحـضـور العلم وإشـاعـة العـقـلانيـة والتشجيع على التجريب .

٤- ترجـمـة الأصـول المعرفـيـة التى أصـبـحت أقـرب إلى الإطار المرجـعى فـى الثـقـافـة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبدا ع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١-	اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢-	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣-	التراث المسروق	جورج جيمس	شوقى جلال
٤-	كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	أحمد الحضرى
٥-	ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦-	اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧-	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكى
٨-	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩-	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
١٠-	خطاب الحكاية	چيرار چينيت	محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١-	مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢-	طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	أحمد محمود
١٣-	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤-	التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥-	الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	أشرف رفيق عفيفى
١٦-	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	بإشراف: أحمد عتمان
١٧-	مختارات	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
١٨-	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩-	الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠-	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
٢١-	خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ماجدة العنانى
٢٢-	مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
٢٣-	تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤-	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
٢٥-	مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦-	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧-	التنوع البشرى الخلاق	مقالات	نخبة
٢٨-	رسالة فى التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩-	الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠-	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣١-	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢-	الانقراض	ديفيد روس	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣-	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بلبع
٣٤-	الرواية العربية	روجر آلن	حصة إبراهيم المنيف
٣٥-	الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	خليل كلفت
٣٦-	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد
٣٧-	واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم

٣٨-	نقد الحداثة	آلن تورين	أنور مغيث
٣٩-	الإغريق والحسد	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠-	قصائد حب	آن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١-	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحى ومحمود ماجد
٤٢-	عالم ماك	بنجامين باربر	أحمد محمود
٤٣-	اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	المهدى أخريف
٤٤-	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	مارلين تادرس
٤٥-	التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	أحمد محمود
٤٦-	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد على
٤٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨-	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتى
٤٩-	الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠-	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١-	مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	محمد أبو العطا
٥٢-	العلاج النفسى التدعيمى	ب. نوفاليس وس . روجسيفيتز وروجر بيل	لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣-	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسى سعد الدين
٥٤-	المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحى
٥٥-	ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	على يوسف على
٥٦-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود على مكى
٥٧-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨-	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩-	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	السيد السيد سهيم
٦٠-	التصميم والشكل	جوهانز إيتين	صبرى محمد عبد الغنى
٦١-	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢-	لذّة النّص	رولان بارت	محمد خير البقاعى .
٦٣-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤-	برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	رمسيس عوض .
٦٥-	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض .
٦٦-	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧-	مختارات	فرناندو بيسوا	المهدى أخريف
٦٨-	نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩-	العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠-	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١-	السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	حسين محمود
٧٢-	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلى
٧٣-	نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	حسن بيومى
٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
٧٦-	چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	عبد المقصود عبد الكريم

٧٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمرى
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوى
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	محمود السيد على
٨٣-	مختارات	غوتفريد بن	خالد المعالى
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	عبد الحميد شيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل	جمال مير صادقى	أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم	جلال آل أحمد	ماجدة العنانى
٨٨-	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠-	وسم السيف	ميجل دى ثربانتس	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوى
٩٥-	مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	إدوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعى
٩٨-	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نخبة	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحى
١٠١-	النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣-	قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	عبد الغفار مكاوى
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	جيرارجينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦-	الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبييرامتى	أشرف على دعدور
١٠٧-	صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة	محمد عبد الله الجعيدى
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	محمود على مكى
١٠٩-	حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	إكرام يوسف
١١٣-	راية التمرد	سادى پلانت	أحمد حسان
١١٤-	مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	نسيم مجلى
١١٥-	غرفة تخص المرء وحده	فرجينيا وولف	سمية رمضان

الرقم	العنوان	المؤلف	المترجم
١١٦-	امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧-	المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨-	النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	لميس النقاش
١١٩-	النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	بإشراف: روف عباس
١٢٠-	الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	نخبة من المترجمين
١٢١-	الدليل الصغير عن الكاتبات العربيات	فاطمة موسى	محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢-	نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣-	الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نينل ألكسندر وفنادولينا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤-	الفجر الكاذب	چون جراى	أحمد فؤاد بلبع
١٢٥-	التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	سمحة الخولى
١٢٦-	فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧-	إرهاب	صفاء فتحى	بشير السباعى
١٢٨-	الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نويرة
١٢٩-	الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠-	الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	شوقى جلال
١٣١-	مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢-	ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣-	الخوف من المرايا	طارق على	طلعت الشايب
١٣٤-	تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥-	المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦-	فلاحو الباشا	كينيث كونو	سحر توفيق
١٣٧-	مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	كاميليا صبحى
١٣٨-	عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩-	پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	مصطفى ماهر
١٤٠-	حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبورى
١٤١-	اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢-	الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومى
١٤٣-	قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	عدلى السمرى
١٤٤-	صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	سلامة محمد سليمان
١٤٥-	موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦-	الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	على عبدالروف البمبى
١٤٧-	خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	عبدالغفار مكاوى
١٤٨-	القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	على إبراهيم منوفى
١٤٩-	النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠-	التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان
١٥١-	هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٢-	عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	محمد محمد الخطابى
١٥٣-	غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤-	مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت

١٥٥-	الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦-	المدارس الجمالية الكبرى	جى أتيال وألان وأوديت فيرمو	مى التلمسانى
١٥٧-	خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	عبدالعزيز بقوش
١٥٨-	هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٩-	الإيديولوجية	ديفيد هوكس	إبراهيم فتحى
١٦٠-	آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومى
١٦١-	من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢-	تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣-	موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤-	شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥-	حكايات الثعلب	أ. ن أفانا سيفا	سهير المصادفة
١٦٦-	العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	محمد محمود أبو غدير
١٦٧-	فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	شكرى محمد عياد
١٦٨-	دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٦٩-	إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	شكرى محمد عياد
١٧٠-	الطريق	ميغيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١-	وضع حد	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢-	حجر الشمس	مختارات	محمد محمد الخطابى
١٧٣-	معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤-	صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥-	التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦-	نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧-	أنطون تشيخوف	هنرى تروايا	حصة إبراهيم المنيف
١٧٨-	مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدى إبراهيم
١٧٩-	حكايات أيسوب	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠-	قصة جاويد	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١-	النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢-	العنف والنبوءة	و.ب. ييتس	ياسين طه حافظ
١٨٣-	چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	فتحى العشرى
١٨٤-	القاهرة... حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	دسوقى سعيد
١٨٥-	أسفار العهد القديم	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦-	معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧-	الأرضة	بُزرج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨-	موت الأدب	ألفين كرنان	بدر الديب
١٨٩-	العمى والبصيرة	پول دى مان	سعيد الغانمى
١٩٠-	محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	محسن سيد فرجانى
١٩١-	الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	مصطفى حجازى السيد
١٩٢-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغى	محمود سلامة علاوى
١٩٣-	عامل المنجم	بيتر أبراهامز	محمد عبد الواحد محمد

١٩٤-	مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
١٩٥-	شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
١٩٦-	المهلة الأخيرة	فالتين راسبوتين	أشرف الصباغ
١٩٧-	الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	جلال السعيد الحفناوى
١٩٨-	الاتصال الجماهيرى	ادوين إمرى وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩-	تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠-	ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	فخرى لبيب
٢٠١-	الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٢٠٢-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣-	الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤-	تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	أحمد محمود هويدى
٢٠٥-	الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	أحمد مستجير
٢٠٦-	الهيولية تصنع علمًا جديدًا	جيمس جلايك	على يوسف على
٢٠٧-	ليل أفريقى	رامون خوتاسندير	محمد أبو العطا
٢٠٨-	شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	محمد أحمد صالح
٢٠٩-	السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٠-	مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١-	فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢-	قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣-	مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	سيد أحمد على الناصرى
٢١٤-	قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	محمد محمود محى الدين
٢١٥-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	محمود سلامة علاوى
٢١٦-	جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٧-	مسرحيتان طليعيتان	ص. بيكيت	نادية البنهاوى
٢١٨-	لعبة الحجلة (رايولا)	خوليو كورتازان	على إبراهيم منوفى
٢١٩-	بقايا اليوم	كازو ايشجورو	طلعت الشايب
٢٢٠-	الهيولية فى الكون	بارى باركر	على يوسف على
٢٢١-	شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	رفعت سلام
٢٢٢-	فرانز كافكا	رونالد جراى	نسيم مجلى
٢٢٣-	العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	السيد محمد نفادى
٢٢٤-	دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥-	حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦-	أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	طاهر محمد على البربرى
٢٢٧-	المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماردينا ديف بوركى	السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨-	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩-	مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠-	عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١-	الدراقيل	خايمى سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن
٢٣٢-	ما بعد المعلومات	توم ستينر	مصطفى إبراهيم فهمى

٢٧٢-	الأديرة الأثرية فى مصر	س. س والترز	إبراهيم سلامة
٢٧٣-	الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان أر. لوك	عنان الشهاوى
٢٧٤-	السيدة باربارا	رومولو جلاجوس	محمود على مكى
٢٧٥-	ت. س إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	أقلام مختلفة	ماهر شفيق فريد
٢٧٦-	فنون السينما	فرانك جوتيران	عبد القادر التلمسانى
٢٧٧-	الجينات: الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	أحمد فوزى
٢٧٨-	البدايات	إسحق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩-	الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠-	من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد
٢٨١-	الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	جلال الحفناوى
٢٨٢-	طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	سمير حنا صادق
٢٨٣-	السهل يحترق	خوان رولفو	على البمبى
٢٨٤-	هرقل مجنوناً	يوريبيدس	أحمد عتمان
٢٨٥-	رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	سمير عبد الحميد
٢٨٦-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٣)	زين العابدين المراغى	محمود سلامة علاوى
٢٨٧-	الثقافة والعولمة والنظام العالمى	انتونى كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨-	الفن الروائى	ديفيد لودج	ماهر البطوطى
٢٨٩-	ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠-	علم اللغة والترجمة	جورج مونان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١-	المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢-	المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣-	مقدمة للأدب العربى	روجر آلن	نخبة من المترجمين
٢٩٤-	فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت صالح
٢٩٥-	سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦-	مكبث	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٢٩٧-	فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوانى	ماجدة محمد أنور
٢٩٨-	مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	مصطفى حجازى السيد
٢٩٩-	ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠-	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج١)	لويس عوض	جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١-	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج٢)	لويس عوض	جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢-	فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣-	بوذا	جين هوب وبورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤-	ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥-	الجلد	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٣٠٦-	الحماسة: النقد الكانطى للتاريخ	جان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٣٠٧-	الشعور	ديفيد بابينو	محمود محمد أحمد
٣٠٨-	علم الوراثة	ستيف جونز	ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩-	الذهن والمخ	أنجوس جيلاتى	جمال الجزيرى
٣١٠-	يونج	ناجى هيد	محيى الدين محمد حسن

٣١١- مقال فى المنهج الفلسفى | كولنجوود | فاطمة إسماعيل
٣١٢- روح الشعب الأسود | وليم دى بويز | أسعد حليم
٣١٣- أمثال فلسطينية | خايير بيان | عبدالله الجعيدى
٣١٤- الفن كعدم | جينس مينيك | هويدا السباعى
٣١٥- جرامشى فى العالم العربى | ميشيل برونديتو | كاميليا صبحى
٣١٦- محاكمة سقراط | أ.ف. ستون | نسيم مجلى
٣١٧- بلا غد | شير لايموفا- زنيكين | أشرف الصباغ
٣١٨- الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة | نخبة | أشرف الصباغ
٣١٩- صور دريدا | جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس | حسام نايل
٣٢٠- لمعة السراج فى حضرة التاج | مؤلف مجهول | محمد علاء الدين منصور
٣٢١- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١) | ليفى برو فنسال | نخبة من المترجمين
٣٢٢- وجهات غربية حديثة فى تاريخ الفن | دبليو يوجين كليتباور | خالد مفلح حمزة
٣٢٣- فن الساتورا | تراث يونانى قديم | هانم سليمان
٣٢٤- اللعب بالنار | أشرف أسدى | محمود سلامة علاوى
٣٢٥- عالم الآثار | فيليب بوسان | كرستين يوسف
٣٢٦- المعرفة والمصلحة | جورجين هابرماس | حسن صقر
٣٢٧- مختارات شعرية مترجمة (جـ١) | نخبة | توفيق على منصور
٣٢٨- يوسف وزليخا | نور الدين عبد الرحمن بن أحمد | عبد العزيز بقوش
٣٢٩- رسائل عيد الميلاد | تد هيوز | محمد عيد إبراهيم
٣٣٠- كل شىء عن التمثيل الصامت | مارفن شبرد | سامى صلاح
٣٣١- عندما جاء السردين | ستيفن جراى | سامية دياب
٣٣٢- القصة القصيرة فى إسبانيا | نخبة | على إبراهيم منوفى
٣٣٣- الإسلام فى بريطانيا | نبيل مطر | بكر عباس
٣٣٤- لقطات من المستقبل | أرثر.س كلارك | مصطفى فهمى
٣٣٥- عصر الشك | ناتالى ساروت | فتحى العشرى
٣٣٦- متون الأهرام | نصوص قديمة | حسن صابر
٣٣٧- فلسفة الولاء | جوزايا رويس | أحمد الأنصارى
٣٣٨- نظرات حائرة (وقصص أخرى من الهند) | نخبة | جلال السعيد الحفناوى
٣٣٩- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٣) | على أصغر حكمت | محمد علاء الدين منصور
٣٤٠- اضطراب فى الشرق الأوسط | بيرش بيربيروجلو | فخرى لبيب
٣٤١- قصائد من رلكه | راينر ماريا رلكه | حسن حلمى
٣٤٢- سلامان وأبسال | نور الدين عبدالرحمن بن أحمد | عبد العزيز بقوش
٣٤٣- العالم البرجوازى الزائل | نادين جورديمر | سمير عبد ربه
٣٤٤- الموت فى الشمس | بيتر بلانجوه | سمير عبد ربه
٣٤٥- الركض خلف الزمن | بونه ندائى | يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦- سحر مصر | رشاد رشدى | جمال الجزيرى
٣٤٧- الصبية الطائشون | جان كوكتو | بكر الحلو
٣٤٨- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ١) | محمد فؤاد كوبريلى | عبدالله أحمد إبراهيم
٣٤٩- دليل القارئ إلى الثقافة الجادة | أرثر والدرون وآخرون | أحمد عمر شاهين

٣٥٠-	بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	عطية شحاتة
٣٥١-	مبادئ المنطق	جوزايا رويس	أحمد الانصارى
٣٥٢-	قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٣٥٣-	الفن الإسلامى فى الأندلس (الزخرفة الهندسية)	باسيليو بابون مالدوناند	على إبراهيم منوفى
٣٥٤-	الفن الإسلامى فى الأندلس (الزخرفة النباتية)	باسيليو بابون مالدوناند	على إبراهيم منوفى
٣٥٥-	التيارات السياسية فى إيران	حجت مرتضى	محمود سلامة علاوى
٣٥٦-	الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعى
٣٥٧-	متون هيرميس	نصوص قديمة	عمر الفاروق عمر
٣٥٨-	أمثال الهوسا العامية	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٣٥٩-	محاورات بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشارونى
٣٦٠-	أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربينى
٣٦١-	التصحر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢-	تلميذ بابنيبرج	هاينرش شبورال	سيد أحمد فتح الله
٣٦٣-	حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد جيبسون	صبرى محمد حسن
٣٦٤-	حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٣٦٥-	سأم باريس	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٣٦٦-	نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٣٦٧-	القلم الجرىء	نخبة	البرّاق عبدالهادى رضا
٣٦٨-	المصطلح السردى	جيرالد برنس	عابد خزندار
٣٦٩-	المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	فوزية العشماوى
٣٧٠-	الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٣٧١-	المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ٢)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٧٢-	عاش الشباب	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٣٧٣-	كيف تعد رسالة دكتوراه	أمبرتو إيكو	على إبراهيم منوفى
٣٧٤-	اليوم السادس	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٣٧٥-	الخلود	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٣٧٦-	الغضب وأحلام السنين	نخبة	إدوار الخراط
٣٧٧-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٤)	على أصغر حكمت	محمد علاء الدين منصور
٣٧٨-	المسافر	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج
٣٧٩-	ملك فى الحديقة	سنيل باث	جمال عبدالرحمن
٣٨٠-	حديث عن الخسارة	جونتر جراس	شيرين عبدالسلام
٣٨١-	أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢-	تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	أحمد محمد نادى
٣٨٣-	هدية الحجاز	محمد إقبال	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٨٤-	القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	إيزابيل كمال
٣٨٥-	مشترى العشق	محمد على بهزادراد	يوسف عبدالفتاح فرج
٣٨٦-	دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧-	أغنيات وسوناتات	جون دن	بهاء جاهين
٣٨٨-	مواعظ سعدى الشيرازى	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور

٣٨٩-	من الأدب الباكستاني المعاصر	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٩٠-	الأرشيفات والمدن الكبرى	نخبة	عثمان مصطفى عثمان
٣٩١-	الحافلة الليلكية	مايف بينشي	منى الدروبي
٣٩٢-	مقامات ورسائل أندلسية	نخبة	عبداللطيف عبدالحليم
٣٩٣-	في قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	زينب محمود الخضيري
٣٩٤-	القوى الأربع الأساسية في الكون	بول ديفيز	هاشم أحمد محمد
٣٩٥-	ألام سياوش	إسماعيل فصيح	سليم حمدان
٣٩٦-	السافاك	تقي نجاري راد	محمود سلامة علاوي
٣٩٧-	نيتشه	لورانس جين	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٨-	سارتر	فيليب تودي	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٩-	كامي	ديفيد ميروفتس	إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠-	مومو	مشيائيل إنده	باهر الجوهري
٤٠١-	الرياضيات	زيادون ساردر	ممدوح عبد المنعم
٤٠٢-	هوكنج	ج. ب. ماك ايفوي	ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣-	ربة المطر والملابس تصنع الناس	توبور شتورم	عماد حسن بكر
٤٠٤-	تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ظبية خميس
٤٠٥-	إيزابيل	أندريه جيد	حمادة إبراهيم
٤٠٦-	المستعربون الإسبان في القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	جمال عبد الرحمن
٤٠٧-	الأدب الإسباني المعاصر بأقلام كتابه	أقلام مختلفة	طلعت شاهين
٤٠٨-	معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	عنان الشهاوي
٤٠٩-	انتصار السعادة	برتراند راسل	إلهامي عمارة
٤١٠-	خلاصة القرن	كارل بوبر	الزواوي بغورة
٤١١-	همس من الماضي	جينيفر أكرمان	أحمد مستجير
٤١٢-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢)	ليفي بروفنسال	نخبة
٤١٣-	أغنيات المنفى	ناظم حكمت	محمد البخاري
٤١٤-	الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	أمل الصبان
٤١٥-	صورة كوكب	فريدريش دورنيمات	أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦-	مبادئ النقد الأدبي والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	مصطفى بدوي
٤١٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨-	سياسات الزمر الحاكمة في مصر العثمانية	جين هاثواي	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩-	العصر الذهبي للإسكندرية	جون مايو	نسيم مجلي
٤٢٠-	مكرو ميجاس	فولتير	الطيب بن رجب
٤٢١-	الولاء والقيادة	روى متحدة	أشرف محمد كيلاني
٤٢٢-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١)	نخبة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣-	إسراءات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤-	لوائح الحق ولوامع العشق	نور الدين عبدالرحمن الجامي	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥-	من طاووس إلى فرح	محمود طلوعي	محمود سلامة علاوي
٤٢٦-	الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧-	بانديراس الطاغية	باي إنكلان	ثريا شلبي

٤٢٨-	الخزانة الخفية	محمد هوتك	محمد أمان صافى
٤٢٩-	هيجل	ليود سبنسر وأندرزجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠-	كانط	كرستوفر وانت وأندرزجى كليموفسكى	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١-	فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢-	ماكيافللى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣-	جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	حمدى الجابرى
٤٣٤-	الرومانسية	دونكان هيث وجودى بورهام	عصام حجازى
٤٣٥-	توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ناجى رشوان
٤٣٦-	تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧-	رحالة هندى فى بلاد الشرق	شبلى النعمانى	جلال السعيد الحفناوى
٤٣٨-	بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩-	موت المرابى	صدر الدين عينى	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠-	قواعد اللهجات العربية	كرستن بروستاد	محمد طارق الشرقاوى
٤٤١-	رب الأشياء الصغيرة	أرونداتى روى	فخرى لبيب
٤٤٢-	حتشبسوت (المرأة الفرعونية)	فوزية أسعد	ماهر جويجاتى
٤٤٣-	اللغة العربية	كيس فرستيغ	محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤-	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	صالح علمانى
٤٤٥-	حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	محمد محمد يونس
٤٤٦-	التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧-	نظرية الكم	ج. پ. ماك إيفوى	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٨-	علم نفس التطور	ديلان إيفانز وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٩-	الحركة النسائية	نخبة	جمال الجزيرى
٤٥٠-	ما بعد الحركة النسائية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	جمال الجزيرى
٤٥١-	الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن وبورن ڤان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢-	لينين والثورة الروسية	ريتشارد إيجناترى وأوسكار زاريت	محيى الدين مزيد
٤٥٣-	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤-	خمسون عامًا من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل
٤٥٥-	تاريخ الفلسفة الحديثة (مج ٥)	فردريك كوبلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦-	لا تنسنى	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧-	النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان موللر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨-	الموريسكيون الأندلسيون	مرثيدس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩-	نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠-	الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١-	لكان	داريان ليدر وجودى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢-	طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣-	الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤-	ديمقراطية للقلة	مايكل بارنتى	حصة إبراهيم المنيف
٤٦٥-	قصص اليهود	لويس جنزبرج	جمال الرفاعى
٤٦٦-	حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	فاطمة محمود

٤٦٧- التفكير السياسى	ستيفين ديلو	ربيع وهبة
٤٦٨- روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٤٦٩- جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠- الأراضى والجودة البيئية	نخبة	محمد السيد النتة
٤٧١- رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢)	نخبة	عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢- دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣- دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤- الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥- صوت مصر: أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	عادل هلال عنانى
٤٧٦- أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسى	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧- تاريخ الصين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨- الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى دونج	عبد العزيز حمدى
٤٧٩- المقهـــى (مسرحية صينية)	لاوشه	عبد العزيز حمدى
٤٨٠- تساى ون جى (مسرحية صينية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدى
٤٨١- عباءة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢- موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	فاطمة محمود
٤٨٣- النسوية وما بعد النسوية	سارة جامبل	أحمد الشامى
٤٨٤- جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياوس	رشيد بنحدو
٤٨٥- التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦- الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧- الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد آبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨- الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩- هُسُرل: الفلسفة علمًا دقيقًا	هُسُرل	محمود رجب
٤٩٠- أسمار الببغاء	محمد قادرى	عبد الوهاب علوب
٤٩١- نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢- محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	محمد رفعت عواد
٤٩٣- خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
٤٩٤- كتاب الموتى (الخروج فى النهار)	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفى
٤٩٥- اللوبى	إدوارد تيفان	حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦- الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ١)	إكوادو بانولى	نخبة
٤٩٧- العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلىّ	مصطفى رياض
٤٩٨- النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	أحمد على بدوى
٤٩٩- تقاطعات: الأمة والمجتمع والجنس	نخبة	فيصل بن خضراء
٥٠٠- فى طفولتى (دراسة فى السيرة الذاتية العربية)	تيتز رووكى	طلعت الشايب
٥٠١- تاريخ النساء فى الغرب (جـ١)	أرثر جولد هامر	سحر فراج
٥٠٢- أصوات بديلة	هدى الصدّة	هالة كمال
٥٠٣- مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة	محمد نور الدين عبدالمنعم
٥٠٤- كتابات أساسية (جـ١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٥- كتابات أساسية (جـ٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق

٥٠٦-	ربما كان قديسًا	آن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥٠٧-	سيدة الماضى الجميل	بيتر شيفر	شوقى فهيم
٥٠٨-	المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبدالباقى جلبنارلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩-	الفقر والإحسان فى عهد سلاطين المماليك	آدم صبرة	قاسم عبده قاسم
٥١٠-	الأرملة الماكرة	كارلو جولدونى	عبدالرازق عيد
٥١١-	كوكب مرقَّع	آن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥١٢-	كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	جمال عبد الناصر
٥١٣-	العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤-	مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥-	من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى دوجلاس	فدوى مالطى دوجلاس
٥١٦-	إرادة الإنسان فى شفاء الإدمان	أرنولد واشنطون ودونا باوندى	صبرى محمد حسن
٥١٧-	نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨-	استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
٥١٩-	محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٥٢٠-	الولع بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
٥٢١-	قاموس تراجم مصر الحديثة	أرثر جولد سميث	عبدالوهاب بكر
٥٢٢-	إسبانيا فى تاريخها	أميركو كاسترو	على إبراهيم منوفى
٥٢٣-	الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٥٢٤-	الملك لير	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٥٢٥-	موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون رزيفز	نادية رفعت
٥٢٦-	علم السياسة البيئية	ستيفن كرول ووليم رانكين	محيى الدين مزيد
٥٢٧-	كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	جمال الجزيرى
٥٢٨-	تروتسكى والماركسية	طارق على وفِلْ إيفانز	جمال الجزيرى
٥٢٩-	بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى	محمد إقبال	حازم محفوظ وحسين نجيب المصرى
٥٣٠-	مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر
٥٣١-	ما الذى حَدَثَ فى «حَدَث» ١١ سبتمبر؟	چاك دريدا	صفاء فتحى
٥٣٢-	المغامرُ والمستشرق	هنرى لورنس	بشير السباعى
٥٣٣-	تعلُم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد الشرقاوى
٥٣٤-	الإسلاميون الجزائريون	سيڤرين لابا	حمادة إبراهيم
٥٣٥-	مخزن الأسرار	نظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
٥٣٦-	الثقافات وقيم التقدم	صمويل هنتنجتون	شوقى جلال
٥٣٧-	للحب والحرية	نخبة	عبدالغفار مكاوى
٥٣٨-	النفس والآخر فى قصص يوسف الشارونى	كيت دانيلر	محمد الحديدى
٥٣٩-	خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحى
٥٤٠-	توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	رءوف عباس
٥٤١-	هى تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢-	قصص مختارة من الأدب اليونانى الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣-	السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤-	ميلانى كلاين	نخبة	حمدى الجابرى

٥٤٥-	يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦-	ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق على منصور
٥٤٧-	بارت	فيليب ثودى وآن كورس	جمال الجزيرى
٥٤٨-	علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون	حمدى الجابرى
٥٤٩-	علم العلامات	بول كوبلى وليتاجانز	جمال الجزيرى
٥٥٠-	شكسبير	نيك جروم وبيرو	حمدى الجابرى
٥٥١-	الموسيقى والعولمة	سايمون ماندى	سمحة الخولى
٥٥٢-	قصص مثالية	ميجيل دى ثربانتس	على عبد الروف اليمبى
٥٥٣-	مدخل للشعر الفرنسى الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤-	مصر فى عهد محمد على	عفاف لطفى السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥-	الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادى والعشرين	أناتولى أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالى
٥٥٦-	چان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	حمدى الجابرى
٥٥٧-	الماركيز دى ساد	ستوارت هود وجراهام كرولى	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨-	الدراسات الثقافية	زيودين ساردار وبورين فان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩-	الماس الزائف	تشا تشاجى	عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠-	صلصلة الجرس	نخبة	جلال السعيد الحفناوى
٥٦١-	جناح جبريل	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦٢-	بلايين وبلايين	كارل ساجان	عزت عامر
٥٦٣-	ورود الخريف	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٤-	عُش الغريب	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٥-	الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا . ج. جيرنر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦-	تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى	موريس بيشوب	على السيد على
٥٦٧-	الوطن المغتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨-	الأصولى فى الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر
٥٦٩-	موقع الثقافة	هومى. ك. بابا	ثائر ديب
٥٧٠-	دول الخليج الفارسى	سير رويرت هاى	يوسف الشارونى
٥٧١-	تاريخ النقد الإسبانى المعاصر	إيميليا دى ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢-	الطب فى زمن الفراعنة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣-	فرويد	ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتى	جمال الجزيرى
٥٧٤-	مصر القديمة فى عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين عبد العزيز السباعى
٥٧٥-	الاقتصاد السياسى للعولمة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦-	فكر ثربانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشرى محمد
٥٧٧-	مغامرات بينوكيو	كارلو كولودى	محمد قدرى عمارة
٥٧٨-	الجماليات عند كيتس وهنت	أيومى ميزوكوشى	محمد إبراهيم وعصام عبد الروف
٥٧٩-	تشومسكى	چون ماهر وچودى جرونز	محيى الدين مزيد
٥٨٠-	دائرة المعارف الدولية (جـ١)	جون فيزر وبول سيترجز	محمد فتحى عبدالهادى
٥٨١-	الحمقى يموتون	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢-	مرايا الذات	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣-	الجيران	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان

٥٨٤- سفر	محمود دولت أبادى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥- الأمير احتجاب	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦- السينما العربية والأفريقية	ليزبيث مالكموس وروى آرمز	سهام عبد السلام
٥٨٧- تاريخ تطور الفكر الصينى	نخبة	عبدالعزيز حمدى
٥٨٨- أمنحوتپ الثالث	أنييس كابرول	ماهر جويجاتى
٥٨٩- تمبكت العجيبة	فيلكس ديبواه	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠- أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	محمود مهدى عبدالله
٥٩١- الشاعر والمفكر	هوراتيوس	على عبدالتواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢- الثورة المصرية	محمد صبرى السوربونى	مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣- قصائد ساحرة	بول فاليرى	بكر الحلو
٥٩٤- القلب السمين	سوزانا تامارو	أمانى فوزى
٥٩٥- الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ٢)	إكوانو بانولى	نخبة
٥٩٦- الصحة العقلية فى العالم	روبرت ديجارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧- مسلمو غرناطة	خوليو كاروباروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨- مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومى على قنديل
٥٩٩- فلسفة الشرق	هرداد مهرين	محمود سلامة علاوى
٦٠٠- الإسلام فى التاريخ	برنارد لويس	مدحت طه
٦٠١- النسوية والمواطنة	ريان فوت	أيمن بكر وسمر الشيشكلى
٦٠٢- ليوتار:نحو فلسفة ما بعد حداثية	چيمس وليامز	إيمان عبدالعزيز
٦٠٣- النقد الثقافى	أرثر أيزابرجر	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسى
٦٠٤- الكوارث الطبيعية (جـ١)	باتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٦٠٥- مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكى الصغير	مصطفى إبراهيم فهمى
٦٠٦- قصة البردى اليونانى فى مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدنى
٦٠٧- قلب الجزيرة العربية (جـ١)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٨- قلب الجزيرة العربية (جـ٢)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٩- الانتخاب الثقافى	أجنر فوج	شوقى جلال
٦١٠- العمارة المدجنة	رفائيل لوبث جوثمان	على إبراهيم منوفى
٦١١- النقد والأيديولوچية	تيرى إيجلتون	فخرى صالح
٦١٢- رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسينى	محمد محمد يونس
٦١٣- السياحة والسياسة	كولن مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤- بيت الأقصر الكبير	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥- عرض الأحداث التى وقعت فى بغداد	أليس بسيرينى	محمد رفعت عواد
٦١٦- أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧- الفولكلور والبحر	هوراس بيك	أحمد محمود
٦١٨- نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيلبس	جلال البنا
٦١٩- مفاتيح أورشليم القدس	ريمون استانبولى	عايدة الباجورى
٦٢٠- السلام الصليبى	توماش ماستناك	بشير السباعى
٦٢١- النوبة المعبر الحضارى	وليم. ى. أدمز	فؤاد عكود
٦٢٢- أشعار من عالم اسمه الصين	أى تشينغ	أمير نبيه وعبدالرحمن حجازى

-٦٢٣	نوادر جحا الإيرانى	سعيد قانعى	يوسف عبدالفتاح
-٦٢٤	أزمة العالم الحديث	رينيه جينو	عمر الفاروق
-٦٢٥	الجرح السرى	جان جينيه	محمد برادة
-٦٢٦	مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	نخبة	توفيق على منصور
-٦٢٧	حكايات إيرانية	نخبة	عبدالوهاب علوب
-٦٢٨	أصل الأنواع	تشارلس داروين	مجدى محمود المليجى
-٦٢٩	قرن آخر من الهيمنة الأمريكية	نيقولاس جويات	عزة الخميسى
-٦٣٠	سيرتى الذاتية	أحمد بللو	صبرى محمد حسن
-٦٣١	مختارات من الشعر الأفريقى المعاصر	نخبة	بإشراف: حسن طلب
-٦٣٢	المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا	دولورس برامون	رانيا محمد
-٦٣٣	الحب وفنونه	نخبة	حمادة إبراهيم
-٦٣٤	مكتبة الإسكندرية	روى ماكلويد وإسماعيل سراج الدين	مصطفى البهنساوى
-٦٣٥	التثبيت والتكيف فى مصر	جودة عبد الخالق	سمير كريم
-٦٣٦	حج يولندة	جناب شهاب الدين	سامية محمد جلال
-٦٣٧	مصر الخديوية	ف. روبرت هنتر	بدر الرفاعى
-٦٣٨	الديمقراطية والشعر	روبرت بن ورين	فؤاد عبد المطلب
-٦٣٩	فندق الأرق	تشارلز سيميك	أحمد شافعى
-٦٤٠	ألكسياد	الأميرة أنّاكومنينا	حسن حبشى
-٦٤١	برتراندرسل (مختارات)	برتراند رسل	محمد قدرى عمارة
-٦٤٢	داروين والتطور	جوناثان ميلر وبورين فان لون	ممدوح عبد المنعم
-٦٤٣	سفرنامه حجاز	عبد الماجد الدريابادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
-٦٤٤	العلوم عند المسلمين	هوارد د.تيرنر	فتح الله الشيخ
-٦٤٥	السياسة الخارجية الأمريكية ومصادرها الداخلية	تشارلز كجلى ويوجين ويتكوف	عبد الوهاب علوب
-٦٤٦	قصة الثورة الإيرانية	سبهر ذبيح	عبد الوهاب علوب
-٦٤٧	رسائل من مصر	جون نينيه	فتحى العشرى
-٦٤٨	بورخيس	بياتريث سارلو	خليل كلفت
-٦٤٩	الخوف وقصص خرافية أخرى	نخبة	سحر يوسف
-٦٥٠	الدولة والسلطة والسياسة فى الشرق الأوسط	روجر أوين	عبد الوهاب علوب
-٦٥١	ديليسبس الذى لا نعرفه	وثائق قديمة	أمل الصبان
-٦٥٢	آلهة مصر القديمة	كلود ترونكر	حسن نصر الدين
-٦٥٣	مدرسة الطغاة	إيريش كستنر	سمير جريس
-٦٥٤	أساطير شعبية من أوزبكستان (جـ١)	نصوص قديمة	عبد الرحمن الخميسى
-٦٥٥	أساطير وآلهة	إيزابيل فرانكو	حليم طوسون ومحمود ماهر طه
-٦٥٦	خبز الشعب والأرض الحمراء	ألفونسو ساسترى	ممدوح البستاوى
-٦٥٧	محاكم التفتيش والموريسكيون	مرثيديس غارثيا- أرينال	خالد عباس
-٦٥٨	حوارات مع خوان رامون خيمينيث	خوان رامون خيمينيث	صبرى التهامى
-٦٥٩	قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	نخبة	عبداللطيف عبدالحليم
-٦٦٠	نافذة على أحدث العلوم	رينشارد فايفيلد	هاشم أحمد محمد
-٦٦١	روائع أندلسية إسلامية	نخبة	صبرى التهامى

٦٦٢- رحلة إلى الجذور داسو سالدييار صبري التهامي

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٥٢٥٢ / ٢٠٠٤